



برترام توماس

العريضة السعيدة

(عبور الربع الخالي في الجزيرة العربية)



ترجمة وتقديم

د. صبري محمد حسن

العربية السعيدة

(عبور الربع الخالي في الجزيرة العربية)

الألف كتاب الثانى نافذة على الثقافة العالمية

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج على

رئيس التحرير
د. محمد عنانى

مدير التحرير
محسنة عطية

سكرتيرا التحرير
هند فاروق
نجوى إبراهيم

إشراف فنى
زوبة صالح
إخراج فنى
رشا محمد
تصحيح
محمد حسن

• الكتاب: العربية السعيدة

(عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)

ARABIA FELIX

ACROSS THE EMPTY QUARTER OF ARABIA

• الكاتب: برترام توماس BERTRAM THOMAS

• الطبعة الأولى ٢٠١٨.

• الكتاب الأصلى صادر باللغة الإنجليزية

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة.

ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ / ٢٥٧٧٥١٠٩

فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢)

ص. ب: ٢٣٥ - الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

WWW.gebo.gov.eg

Email: info@gebo.gov.eg

توماس، برترام.

العربية السعيدة: (عبور الربع الخالى فى الجزيرة

العربية) / برترام توماس؛ ترجمة وتقديم: صبرى محمد

حسن. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠١٦.

٤٨٤ ص: ٢٣,٥ سم. - (الألف كتاب الثانى)

تدمك ١ ٠٩٥٤ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات

أ - حسن - صبرى محمد (مترجم ومقدم)

ب - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب. ٢٠٦٣٩ / ٢٠١٦

I.S.B.N - 978 - 977 - 91 - 0954 - 1

ديوى ٣, ٩١٥

برترام توماس

العربية السعيدة

(عبور الربع الخالي في الجزيرة العربية)

ترجمة وتقديم

د. صبرى محمد حسن



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٨

الألف كتاب فى سطور

صدر مشروع الألف كتاب الأول عام ١٩٥٥ بإشراف الإدارة العامة للثقافة، التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد اهتم بأهميات الكتب العالمية والكلاسيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية، والمعارف العامة، والفلسفة وعلم النفس، والديانات، والعلوم الاجتماعية، واللغات، والفنون الجميلة، والأدب بفروعه، والتاريخ والجغرافيا والتراجم. وتوقف العمل به عام ١٩٦٩.

صدر مشروع الألف كتاب الثانى عام ١٩٨٦ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد اهتم بترجمة الكتب الحديثة محاولة منه للاتصال بالثورة العلمية والثقافة العالمية المعاصرة .

وقد قُسمت إصدارات المشروع إلى ١٩ فرعاً هي: الموسوعات والمعاجم، والدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر، والعلوم والتكنولوجيا، والاقتصاد والعلوم الإدارية، ومصر عبر العصور، والكلاسيكيات، والفن التشكيلى والموسيقى، والحضارات العالمية، والتاريخ، والجغرافيا والرحلات، والفلسفة وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية، والمسرح، والطب والصحة، والآداب واللغة، والإعلام، والسينما، وكتب غيرت الفكر الإنسانى، والأعمال المختارة.

(انظر القائمة آخر الكتاب)

الإهداء

إلى السير آرنولد ولسون الحاصل على: لقب فارس، نوط
القديسين: ميخائيل وجورج، وسام الهند، وسام الخدمة المتميزة.
صاحب المشورة القاطعة، سريع التصرف لفضله وتشجيعه
ونصيحته في الفترة من ١٩١٨ - ١٩٣١
أهدى إليه ترحالي في الجزيرة العربية
أهدى له هذا الكتاب إعجاباً به وشكراً وامتناناً له
"وأصعدني من جب الهلاك، من طين الحمأة، وأقام على صخرة
رجلي، ثبَّت خطواتي" (*).
(المزمور الأربعون: الآية ٢).

(*) أخذنا ترجمة هذه الآية من ترجمة الكتاب المقدس الصادر عن دار الكتاب المقدس في مصر، ص ٦٤٠. (المترجم).

محتويات الكتاب

٥	الإهداء
١٣	مقدمة المترجم
٢٥	تصدير
٢٧	تمهيد
٣١	مقدمة المؤلف
٣٧	الفصل الأول : بداية تُبشر بالخير
	[التحميل - التنزيل - ضرورة السرية - متاعب الداخل - كشفى عن مخططاتى - سفر المبعوثين].
٤٥	الفصل الثانى : فى ظفار: الفوضى، الخيانة، وكرم الضيافة
	[العرب المستقرون فى ظفار- تاريخ ظفار- الفوضى القبلية- هيمنة السلطان القائم- وصول أحد المستبدين- المستبد يتولى الحكم وأولاده يُقتلون- استعادة النظام- الفوضى العربية- زيارة إلى صلالة- مهمة اجتماعية- أسلاف عمالقة- ثمن الحرية- رقصة زنجية- كورس الاستحمام].
٥٩	الفصل الثالث : قياس الجمجمة ورقصة الشيطان
	[الأنواع العرقية - حضارات ما قبل الإسلام - جمجمة أب من الآباء- أخذ مقاييس الرأس- الفوارق الاجتماعية- مباهاة محارب، واحتياجاته- محافظ ظفار- "الأنكوجيود" فى الجزيرة العربية - طرد أو إخراج الأرواح الشريرة باستعمال الأدعية- عادات وتقاليد الزنوج- مؤسسات الرّق- طقوس الحوار- رقص العبادات- الذروة- طرد الروح الشريرة].
٧٥	الفصل الرابع : فى جبال قارة: عين الريزات
	[أهداف الصيد- تجهيز العينات- الحضارات الباكرا- المقابر القديمة- ابن الحر- قرابين الأرواح- عبادات الأوثان- الكذب، النشل والسرقعة- مُحصل شجاع- الأرواح الشريرة- الاستعداد لاصطياد ضيع].

٨٧ **الفصل الخامس : فى جبال قارة: الرواسب القديمة والتضحية بالدم**

[آراء ابن بطوطة- حادورام وحذرا مافث- جبال الغطاء الغابى- الإبل العاصية- أخطار الثعابين- الكهوف الصخرية- عرض زواج- وادٍ يشرح الصدر- رقصة قبلية- قتل ضبيع- طقوس حداد مكلفة- "صحوة" عربية- قوانين الميراث المحلية- واجبات الزوجة وحقوقها].

٩٨ **الفصل السادس : جبال قارة: الضباع، العلاجات الإيمانية والختان**

[الثعابين السامة- العادات الغذائية- الجمل الذى تركبه الساحرة- الغزال والضبع- إساءة إنسان الغابة- الطلب على صندوق دوائى- إعادة الحقوق الزوجية- علاج الأوردة المصابة بالدوالى- ميسم العلاج بالكى- السرقة والسلب والنهب- رجال القبائل والرجال من غير القبائل- جمل صالح بن حوت- أصل القارة- التقاليد المسيحية- أبناء آدم- ختان الإناث- تسريحات الشعر- زينات الإناث- حقيبة يد سيدة عجوز- معاقبة المعاكسات- الأعراف الاجتماعية - أغاني الحب].

١٢١ **الفصل السابع : جبال قارة: طرد عين الحسود والبشعة**

[التخيم فى الجبال- الإبل والماشية- الأغنام والماعز- طرد عين الحسود- الطرق البيطرية- القارة فى خيونت- العرف والقانون المحلى- دفع الدية- قانون الضيافة- الحلف على المصحف- النكبة النارية- فرن البلاوى- الإيمان بالسحر- ثرثرة مع قاتل].

١٣٦ **الفصل الثامن : جبال قارة : التوديع**

[عادات وتقاليد ربة البيت- عضه ثعبان- حالة طبيب- الاستعداد للفهد الأسود- التضحية بالدم- عادات الزواج، الطلاق، الزواج من جديد، ممتلكات المرأة المتزوجة- عادات الخطبة- مشكلة بيت قطن- مخيم فى فوزه- قتل بدم بارد- سيكولوجية وأخلاق الثأر- صباح فى آربون].

١٥١ **الفصل التاسع : ظفار: الساعة الحادية عشرة**

[وصول يخت السلطان- مناقشات مع الشيخ صالح، توسط الوالى- موافقة الشيخ صالح- حسابات ومحاسبات- موقف المرأة].

١٦٠ **الفصل العاشر : فوق التلال وعلى مَبْعَدَة**

[مخيم الليلة الأولى- التعامل مع الإبل- ديانا هاتف- الغيب- كهف ساحور- لهيز- عقاب السرقة- ليلة رطبة- فى جبال قارة- نقاش حول العادات والأعراف

الدينية- شجرة البخور- بيارات أشجار البخور- الشهوة البريئة- حانون وغابرتان- مكان شواهد القبور- الآثار القديمة، النقوش والعبادات الدينية- غودون وسعتان- ملاحظات فلكية- الكرونومترات (أجهزة تساعد على الملاحة) - إيستا - وعلى الأول- العذراء ووحيد القرن- الخنافس والسحالي.

١٨٣ الفصل الحادى عشر: نجد: الحياة فى السهوب الجنوبية

[قلعة شيسور- الحرب والوفاة- غزو صحراوى- السهوب الجنوبية- موجشين- أم الحيط- وردان السهوب- التوزع القبلى- حياة السهوب- ممارسة هاتف الغيب- طرد الأرواح الشريرة- الحياة الحيوانية- اختفاء النعام- السحالي، ما يؤكل وما لا يؤكل منها].

٢٠٠ الفصل الثانى عشر: السير على امتداد الحافة الجنوبية للرمال

[على أحرّ من الجمر- عاصفة رعدية- الماء فى الأرض العطشى- أغنية حب- جماعة تدخن- مباحج المدخن- الحياة البسيطة- ملاحظات فلكية- مخيم فى نُخدت فساد- رعاية الإبل- الممارسات الدينية فى الصحراء- نقاش حول الدين- أهمية غطاء الرأس- مخيم جائع فى ميطان- الطريق إلى يوبار- قصص عن يوبار- الجزيرة العربية وعصر الجليد].

٢١٧ الفصل الثالث عشر: عبر الرمال الجبلية فى عروق الضاحية

[إبل مُتعبة- ليالٍ باردة- تسوية الخبز- الخبز وعسر الهضم- الأرنب البرى والغزال- هبوب الرمال- أزيز الرمال- الكثبان الرملية العظيمة- إنذار زائف- فن الغزو فى الصحراء- قوانين حرب الصحراء- الرمال الناعمة- خور الضاحية- عشاء عيد الميلاد- إبل مرهقة- ماء الترحيب - فن قص الأثر- توحيد القوى مع الشيخ صالح].

٢٣٥ الفصل الرابع عشر: نبذة جغرافية عن الربع الخالى

[الحافتان الشرقية والجنوبية- سكان الرمال- الارتفاعات فى الرمال الوسطى - منخفض فى الرمال- موضوع الرمال السريعة].

٢٤١ الفصل الخامس عشر: عبور رمال دكاكا: إبل المرحلة الثانية

[آداب المائدة- حمد بن هادى وجماعته- يوم دفع الأجر ويوم الاستقرار فى الصحراء- الإنسان والجبل- العروس ومهرها- حديث المائدة وآداب المائدة- رمال دكاكا- حمد بن هادى- طقس وممارسة طرد الأرواح الشريرة- النتيجة- الأرنب البرى، الإنسان والعناصر- لحم الإبل- الأرز، البلح والحليب- نكتة عملية].

- ٢٦٣ **الفصل السادس عشر:** فى منطقة ثقب ماء شنه: وقفة ما قبل الاندفاع فى اتجاه الشمال
- [ذبح جمل للغداء- تبديد كميات كبيرة من اللحم- تونك جديد- وادى التخيلات- موروثات بنى هلال- تنفيذ ما خططت له- ضيوف غير مرغوب فيهم- كرم ضيافة أبى زيد- تهوره وشجاعته- القادمون الجدد- نداء مُسلم - الطالبيون والمريون- متطهرو الصحراء].
- ٢٧٨ **الفصل السابع عشر:** الاندفاع فى اتجاه الشمال
- [الرحيل عن شنه- أبو زيد وزوجته- أبو زيد وولده- علاجات منزلية- البيت الصحراوى وتأثيره- مياه التطهر- مهارة مرشد- الوفاة فى الصحراء- ثسيوس الرمال- فى بوا- أم ملبسه- السعارين- قصة غزو].
- ٣٠٠ **الفصل الثامن عشر:** عبور الرمال الوسطى
- [شهد قاحل- الحياة الحيوانية فى الصحراء- مرافقه البدو- هوام الصحراء الطفيلية- حب أبى زيد لعاليه- أم قرين وسنان- دخول رمضان علينا فى فراجة- الالتزام بالصوم- تقوير الرمال- البقايا الأثرية- ثلاثى أبى زيد والجن- أبو زيد والمحافظ- أبى زيد والعبدة- مهارة قصاص الأثر- عمل المباحث فى مسقط- الكشف عن المجرم- الدروب البرية- مخيم المُرّة- عواصف رملية فى بوبليا- الرمل فى أدوات- الغريزة المنزلية فى الإبل- مرعى مفتون- خيوط البريدان- بنيان].
- ٣٢٨ **الفصل التاسع عشر:** بانيان: تأمل ما مضى
- [البنية الجيولوجية- الخصائص الجغرافية الجبلية- توزع الحياة النباتية والماء- اقتصاد الصحراء- توزع الإبل- سُرُج الإبل- التباين اللهجى- تعدد الزوجات- عادات وتقاليد الزواج- السياسة القبلية- تَسُوْد ابن سعود- سياسة السهوب الجنوبية- التهديد السُعارى].
- ٣٤١ **الفصل العشرون:** من بانيان إلى البحر: المرحلة الأخيرة
- [عربى من إرهون- قصة دياب والحمير والإبل- دياب والجن وداليان العبد- الكلفينيون الصحراويون- جيبان وليزيه- تولى طالب المهمة- التحميل، بداية الصباح، وركوب الإبل- محاولات القوة - قصة العنكبوت "إنها مدونة" - بطولات أبى زيد - أبو زيد، آلان ودياب - النجوم فى مساراتها "ثلاثة - ثلاثة" - بحيرة جديدة، سبخة عمره، العربى وجمله- الاعتدال فى الصوم- "لا يزالون يحكمون - الحمد لله"- كرم الصحراء- نهاية الرحلة].

- ٣٧١ الملحق
- ٣٧٣ الملحق رقم (١):
[الملحق الأنثروبولوجي "الخصائص العرقية لعرب الجنوب"، بقلم كل
من السير آرثر كيث، كلية الجراحين الملكية، والدكتور ولتون ماريون
كروجمان].
- ٤٠٥ الملحق رقم (٢):
[الملحق الحيواني: بقلم الدكتور وليام طوماس كالمان، أمين قسم
الحيوان، بالمتحف البريطاني، هذا بالإضافة إلى بعض الملاحظات عن
مجموعات التاريخ الطبيعي بأقلام أعضاء القسم].
- ٤٥٩ الملحق رقم (٣):
[قائمة بالرمال المحلية وحفر المياه بالإضافة إلى المصطلحات
الطبوغرافية].
- ٤٦٧ الملحق رقم (٤):
[قائمة الحياة النباتية].
- ٤٦٩ الملحق رقم (٥):
[قائمة علامات الإبل].
- ٤٧٠ الملحق رقم (٦):
[قائمة الأناشيد والأغاني العربية].

مقدمة المترجم

برترام توماس، العربية السعيدة وترجمة المصلح العربى

اسمه بالكامل برترام توماس وهو حاصل على نوط الإمبراطورية البريطانية، وزير سابق فى بلاط صاحب الجلالة سلطان مسقط وعمّان، ضابط سياسى سابق فى العراق، ومساعد الممثل (المندوب) البريطانى فى شرق الأردن. وهو المؤسس الرئيس للجمعية الجغرافية الملكية، حاصل على ميدالية بيرتون التذكارية من الجمعية الآسيوية الملكية؛ حاصل أيضاً على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية فى آنتويرب، وحاصل أيضاً على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية.

الاهتمام بالجزيرة العربية

تُرى، ما سر اهتمام برترام توماس هو وغيره من المستكشفين والمستشرقين بالجزيرة العربية؟ لأنّ الجزيرة العربية تقع فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب من العالم المأهول بالبشر؛ وتراقب دوماً باهتمام "وتجرد كوميدي" الصراع الإنسانى المستمر؛ أم أن الجزيرة العربية هى أرض البحر Sea land على حد قول البابليين القدامى؟ أم لأن الناس لا يزالون يطلقون عليها اسم "الجزيرة" Island بل يضيفون إلى الجزيرة كلمة "العرب" ليصبح الاسم الكلى "جزيرة العرب"؟ وهى جزيرة صحراوية. أم لأن لغة هذه الجزيرة النقية هى التى أعطت الإنجليزية كلمة "طور" Tor التى نجدها عند أهل مقاطعة كورنول؟ أو لأنها أعطت الإنجليزية أيضاً كلمة Aber فى لهجة أهل ويلز؟ أم لأن الكلمة الرومية ides تعيد إلى الأذهان الكلمة الوثنية "عيد" id وهى الكلمة التى

يطلقها المسلمون على عطلاتهم الإسلامية، أم أن ذلك يرجع إلى أن اسم بلاد البرازيل يذكّرنا بكلمة "برازين" Brazil العربية التي تطلق على نوع من القلاع والحصون؟ أو لأن الجزيرة، في زمن برترام توماس ومن سبقوه، كانت لا تزال غير معروفة لقسم كبير من عالم ذلك الزمن، الأمر الذي يزيد من جمال الأعمال التي تصدر عن أصحاب العقول المفكرة؟

الربيع الخالى

الربيع الخالى الذى تعادل مساحته نصف مساحة أوروبا، يبلغ من الكبر حداً جعل واحداً من البشر، برترام توماس يعود إليه مرتين أو ثلاث مرات، قبل أن ينبرى للتعبير أو الكتابة عنه. برترام توماس هو آخر الرجال الذين حاولوا التجوال فى الربيع الخالى، وقد قام برحلته بالطريقة العتيقة، على ظهور الإبل، وحيداً فى زمانه ومتحملاً تكاليف رحلته. كان بوسع الرجل ركوب طائرة، وكان بوسعه أيضاً الجلوس فى سيارة أو ركوب دبابة من الدبابات. وعوضاً عن ذلك كله انتزع الرجل فى الوقت المناسب النصر وخلّصنا من هواجسنا. تُرى، ما هو ذلك الربيع الخالى؟

وهل كان ذلك الاسم معروفاً للبدو الذين يعيشون فيه؟

جغرافية الربيع الخالى

توضح الخرائط التى رسمها البريطانيون للمنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، والتى يحدها من الشمال خط طول ٤٨° الموازى لخط طول ٢٠°، ويحدها من الجنوب خط طول ٤٦° باستثناء شريط ساحلى ضيق، أن هذه المنطقة هى ما يطلق عليه الإنجليز اسم "الربيع الخالى"، هذا الاسم الذى لا ينطبق على هذه المنطقة كلها. يزداد على ذلك أن هذا الاسم لا يعرفه من العرب سوى أولئك الذين يقرءون ويكتبون؛ لكن القبائل التى تعيش فى الربيع الخالى لا تستعمل هذا المصطلح، ولا تفهم مدلوله الجغرافى.

الربيع الخالى عبارة عن صحراء، لكن القسمين الشرقى والجنوبى، من هذه الصحراء، يشكلان ثلث مساحة الربيع الخالى. هذان القسمان اللذان يشكلان حدوة فرس عبارة عن سهوب كما هو الحال فى سهوب السيح فى الشمال، وجدة

حراسيس فى الجنوب. وسكان هذه الجدة والسهوب يطلقون على هذه الصحراء اسم "الرمل" أو "الرمال". وقبائل هذه المنطقة يطلقون أسماء محددة على أماكن معينة من الرمال. من هنا نجد منطقة من مناطق السهوب تشتق اسمها من اسم القبيلة التى تعيش فيها. كما هو الحال فى القراوين الذين يعيشون فى جبال قارة. وقد أثبت برترام توماس فى رحلتين سابقتين، أن الحافة الجنوبية للرمال، وإن شئت فقل: الربيع الخالى موازية للساحل الجنوبى من الجزيرة العربية، فى المنطقة من موجشين إلى شمالى حضرموت، وأنها تتحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق.

الحافة الشرقية للربع الخالى

تمتد هذه الحافة من الشمال إلى الشمال الشرقى من موجشين، ولمسير أربعة أيام إلى قرن السهامة؛ وتمتد من جبل السهامة إلى أن تطوق جبل حافت، لتمتد بعد ذلك على شكل حافة بارزة تُنصّف شبه الجزيرة العمانية؛ يزداد على ذلك أن منظومة جبال عروق الضاحية تشكل حدوة فرس كبيرة، يتركز الجزء الرئيس منها على الحدود الجنوبية.

ذراعاً حدوة الفرس

تطوق الذراع الغربية أو تحتضن مناطق جماعيات، الحوية، وشويكيله؛ فى حين تطوق الذراع الشرقية مناطق كل من عروق ميجوره، طاميشه، شيبه ومارنجا. وفيما بين هاتين الذراعين نجد قبيلة المُرّة إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من ناحية الشمال الغربى؛ وفيها أيضاً بطن من بطون قبيلة الرشيد، وبطن من قبيلة إيمانى، وهاتان البطنان تنتميان إلى الكثارين، إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من ناحية الجنوب الأوسط وإذا ما اقتربنا من حدوة الفرس هذه من ناحية الشمال الشرقى، نرى أيضاً (وعلى نطاق محدد) العوامير والمناصير.

خارج حدوة الفرس

فى المنطقة ما بين حدوة الفرس والسهب، نجد الرمال الحدودية التى تستعملها بطون مقيّنة من قبائل السهوب فى مواسم محددة. وإلى الشمال من

هذه المنطقة نجد قبائل: البوشميس، دروع، الحراسيس، الأفار. وفي الجنوب نجد بيت الكثارين، المناهيل، العوامير (العناصر الجنوبية)، السَّعارين، والكرابين، لكن هذه القبائل تعيش على بُعد مسافة آمنة من ثقوب الماء.

تنويه

يجب ألا ينصرف ذهن القارئ إلى المنظر العام للجزيرة العربية الذي يرتفع فجأة في الجانب الغربي من البحر الأحمر وفي جروف صدع البحر الميت لينحدر بصورة متدرجة في اتجاه الشرق، وبخاصة في سهول العراق ومياه الخليج الفارسي، نظراً لأن هذا الارتفاع لا يمتد إلى الربع الخالي. هنا في الربع الخالي نجد أن الأرض ترتفع بصورة مفاجئة في ثلاثة اتجاهات: الشمال الشرقي، سلسلة جبال حجار في عُمان؛ في الجنوب الأوسط، حيث توجد منظومة ظفار؛ وفي الجنوب الغربي، حيث توجد جبال حضرموت ونجران. وهذه المستويات المختلفة تشير إلى الخليج الفارسي وإلى سواحل البحر العربي في الجنوب الشرقي من الصحراء. من هنا نجد أن انحدار الرمال إلى الخليج الفارسي تتضح في هذه المنطقة: وهذا يحتم وجود منخفض في وسط الجنوب الشرقي. هذا يعني أن الحافة الشرقية للرمال تنحدر من الشمال إلى الجنوب.

سهوب ووديان

هناك سهب كبير يجاور الحافة الشرقية للرمال ينبثق منه: وادي العين، الوادي الأسود، وادي العميري وأيضاً وادي المُسلَّم؛ وتشق هذه الوديان لنفسها مسارات متوازية متجهه صوب الجنوب الغربي لتختفي في نهاية المطاف في الحدود الشرقية للربع الخالي. وهناك سهب آخر في موحشين تحده من الناحية الجنوبية الشرقية وديان: فادان، دونيب وجيتام التي تتجه إلى خليج سوكيراً في الجنوب الشرقي، وأهم ما في الأمر أن برترام توماس زار هذه الوديان الثلاثة الأخيرة في العام ١٩٢٨ الميلادي.

الجزيرة العربية السعيدة (عبور الربع الخالي)

تشير بعض المصادر إلى أن العنوان الرئيس ينطبق، عند كل من سترابو، بلني، وبطليموس على كل الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب الواقع جنوبى الصحراء السورية (وهو ما يطلق عليه صحراء الجزيرة العربية)، وعلى الجبال المنتشرة فى سيناء (أى الجزيرة العربية الأم).

هذا المصطلح لا ينسجم ولا يليق بقفار الربع الخالي المقززة، المنفرة، التى تشكل قسماً كبيراً من الجزيرة العربية، ولذلك فهو ينطبق بدرجة أكبر على الجزء الأوسط من القسم الجنوبى، الواقع على حدود المحيط الهندى، تلك الأرض التى كانت فى يوم من الأيام، فريدة فى حسنها، وشهيرة بعراقتها. من هنا أكتفيت بترجمة العنوان ليكون "العربية السعيدة"؛ اعتماداً على أن العنوان الفرعى "عبور الربع الخالي" يزيد الأمر وضوحاً وتحديداً.

قام توماس برحلته فى زمان كان عامراً بالمقاتلين الحقيقيين فى مسألة الجزيرة العربية، وعلى رأسهم شارلز دوتى(*) ذلك العملاق الشامخ، الذى كان عالماً مستقلاً مضى وانتهى؛ ومن بعد دوتى جاء ولفريد سكاون بلنت(**) الذى يحتل المرتبة الثانية بعد دوتى. وإذا كان صوت دوتى فيه شىء من التدليل فضلاً عن طبعه الحلو، فإن بلنت هو بمثابة النار التى تغتلى رماد الغضب القديم.

ويجىء هوجارث هو وجرتروود(***) بلّ بعد هذين العملاقين، وينفقان قرابة عشرين عاماً فى الدراسة والبحث إلى أن بنيا لنفسيهما سمعة طيبة فى مسألة الجزيرة العربية.

(*) له كتاب شهير بعنوان "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية"، والكتاب من إصدارات المركز القومى للترجمة، ومن ترجمة الدكتور صبرى محمد حسن.

(**) له كتاب بعنوان "حج إلى نجد"، وهو من إصدارات المركز القومى للترجمة، ومن ترجمة الدكتور صبرى محمد حسن.

(***) يجب ألا يغيب عنا هنا أن جرتروود بل هو رائدة فكرة تقسيم الجزيرة العربية إلى كيانات صغيرة.

كان هناك أيضاً ضباط شباب واعدون مثل النقيب شكسبير ومعه ولشمان، وكان معهما أيضاً السياسى ويهان بيري، استطاعوا معاً أن يبدعوا بداية حسنة. هؤلاء العظماء الكبار لَقُوا رَبَّهُمْ؛ ويجب ألا يغيب عنا هنا أن الحرب العالمية الأولى أثقلت كاهلَ هوجارث وجرتود بل بالكثير من المسئوليات السياسية. هذا يعنى أن زمان أولئك المستكشفين كان أوسع وأفسح، من منطلق أن "رؤية الجزيرة العربية بحد ذاتها، كانت هى الهدف والمبتغى".

لماذا هوجارث؟

الدكتور ديقيد جورج هوجارث، كان بمثابة الساعد الأيمن للحكومة البريطانية فى كل الأمور ذات المضمون والمغزى فى الجزيرة العربية. ولما كان الدكتور هوجارث هو مدير المكتب العربى فى زمن الحرب العالمية الأولى فى القاهرة، فقد أصبح الرجل بمثابة أعلى سلطة رسمية فيما يتعلق بالشئون العربية. كان الدكتور هوجارث قد نشر فى العام ١٩٠٤ الميلادى، تحت عنوان اختراق الجزيرة العربية(*) كتاباً يعد موجزاً جامعاً مانعاً لكل الجهود التى بُذلت فى استكشاف الجزيرة العربية منذ أيام نارخيوس وعويس وجاليوس Gallius إلى بدايات القرن العشرين. كانت الفجوة التى لاحظها الدكتور هوجارث، فى معرفة الباحثين والمستكشفين للجزيرة العربية، لا تزال فى معظمها هى الفجوات نفسها بعد مضى أربعة عشر عاماً. وأن أكبر تلك الفجوات كانت تتمثل فى ذلك الفراغ الكبير على خريطة العالم خارج المناطق القطبية. كان الدكتور هوجارث مكثفياً بتأمل هذه الفجوة دون أن يشجع المغامرين المتهورين على الإقدام على قدرهم المشئوم. كان الرجل على يقين من أن أهداف العلم يمكن خدمتها بطريقة أخرى. لو يتمكن الأكسجين من صعود قمة إفرست فإن الطائرة والسيارة يمكن وبكل تأكيد أن تكشفنا عن فراغ الربع الخالى فى الوقت المناسب. لكن الرجل لم يكن يحبذ تكهنات مفاده أنه خلال أربعة عشر عاماً أخرى يمكن أن يفضى الربع الخالى بأسراره كلها- ليس مرة واحدة، وإنما مرتين- للرحالة العاديين غير المزودين بوسائل التنقل، التى لم تكن فى خدمة المستكشفين منذ بداية الخليفة، ومع ذلك

(*) هذا الكتاب من إصدارات المركز القومى للترجمة، وهو من ترجمة الدكتور / صبرى محمد حسن.

لم يكن هناك أحد يرغب بحق في معرفة الطابع الدقيق لذلك الفراغ الكبير، ولمحة التهكم الكتيمة الحريصة، أكثر من إنسان لديه بحق مسحة من الوحي والإلهام. والذي يؤسفني أكثر أن الدكتور هوجارث مات والقناع لم يرفع بعد عن سر أرضي، ربما كان الدكتور هوجارث هو الأقدر والأجدر بتفسير عظمة هذا السر.

ترجمة المصطلحات العربية

بقى أن نقول: إن برترام توماس، على الصعيد اللغوي، كان شديد الدقة والحساسية في ترجمة المصطلحات العربية إلى الإنجليزية عن طريق تدوين المصطلح تدويناً صوتياً حسبما سمعه ثم يقوم بعد ذلك بترجمته، الأمر الذي زاد الكتاب موسوعية على موسوعيته، ويُمكّن قارئ الكتاب من الوقوف على الدلالات الدقيقة للتعبيرات والمصطلحات. وما أورده هنا هو مجرد غيض من فيض. وهو عندما يتناول الزوج الذين التقاهم في رحلته، نجده يترجم:

- عيد النيروز في الصفحة رقم ١٣ بالمصطلح New year's day

- ونجده يستعمل الكلمة ab ، في الصفحة ذاتها ، ويترجمها:

a magistrate to whom negro disputes were usually referred for settlement.

- ونجده أيضاً في صفحة ٢١ يستعمل كلمتي: aulad and banat ويترجمهما boys and girls؛ ليدل بهما على "العبيد والعبادات".

- ونجده يترجم كلمة "كافر" في صفحة ٤٠ بالكلمة الإنجليزية: infidel

- وهو يترجم كلمة "نقوش" بالكلمة الإنجليزية inscriptions.

- ويترجم Zars, Jinniyat, Jinns بالمصطلح الإنجليزي evil spirits ، في صفحة ٤٤ من الفصل الخامس.

- ونجده يترجم "عفاريت" afarit بالمصطلح Allah's worst afflictions في الصفحة رقم ٤٤.

- وهو يترجم: بيض الله وجهك "Allah baiyidhwijhak": God whiten your face.

- وفى صفحة ٥٦ من النص الإنجليزى يترجم مصطلح: الختوم khutum =
The cow sacrificed on the third day of the death of some one.
- ويترجم مصطلح "يوم النحريرة" youm el nahaira فى الصفحة رقم ٥٦ على أنه:
a sacrifice of ten, fifteen or twenty cows made before the big sacrifice.
- وفى صفحة ٥٧ يترجم "الشريعة الإسلامية": Muslim holy Law
- وفى صفحة ٥٨ يترجم: ain! Hamar al 'ain على أنه Red of eye. وهذا التعبير يستعمله البدو للتعبير عن الشجاعة والجرأة وامتداحهما.
- ونجده يترجم فى صفحة ٦١: kabsh an nabi (كبش النبى) = The prophet's ram ، وهو التعبير الذى تطلقه قبيلتنا الكرابين والسَّعَّارين على "الضبع".
- ونجده يترجم فى صفحة ٦٢ "عليه وعليك السلام": upon him and you .peace
- ويترجم "والله": By God.
- وهو يترجم كلمة "تاجويد" taguwid = The war alarm ؛ "ليدل بها على الإنذار بالحرب".
- يترجم مصطلح "بهايم تحت الله" العامى allah=Bahaim that No better than=Cattle under God: مجرد بهائم فى رعاية الله ، ص ٦٧.
- ويترجم الكلمة العربية "رزق" God's bounty= rizk ، ص ٧٥.
- ويترجم "عين إبليس" Evil Eye= Ain Balis ، ص ٨٠
- وهذا المصطلح له من الناحية الدلالية علاقة بالأمراض التى تصيب البشر ونقص الحليب فى الإبل.
- ويترجم المثل العامى البدوى: "كسرت كود والشر ما يعود"،
A twig (incense?) is = kesert Cud: Was her ma'aud broken: evil .return not
- المقصود بكلمة "كود" فى هذا المثل هو "عود البَخُور" بصفة خاصة. والبدو يقولون هذا المثل بعد علاج الإبل بالكى كيما تشفى من العَرَج.

- يترجم كلمة "نفخ" nafakh ص ٨١ = Vaginal blowing.

والمقصود بالنفخ فى هذا المصطلح هو العلاقة بين هذه العملية وزيادة إدراج حليب النياق. وفى هذه العملية يأخذ النافخ نفساً عميقاً ويقوم بتفريغ ذلك النفس فى رحم الناقة، ويقوم النافخ بتمرير يده على ضرع الناقة، كيما يتبين إدراج الحليب؛ ويقال أن هذا النفخ يتم فى بعض الأحيان بنفخ الملح داخل رحم الناقة.

- يترجم مصطلح "حكم الحوز" hukmalhuz ص ٨٢ = System of precedents.

And ancient sanctions law, generally based on eye- for- eye

حكم الحوز: يقوم على منظومة السوابق والعقوبات القديمة، وهو: eye، يقوم فى الأصل على مبدأ "العين بالعين، والسن بالسن".

- يترجم "الرابية" rabia ص ٨٨ = is a representative of the tribe Whose

presence ensures protection from that particular tribe

الرابية: ممثل القبيلة الذى يعد وجوده حماية من تعدى هذه القبيلة.

- يترجم "رَدّ السلام" rud- as- salam ص ٨٤ = response to salutations.

- يترجم "ثمن البطن" stomach price = thamn- al- batn. يتعلق هذا المصطلح

بمسألة إكرام الضيف لمدة أربعة أيام وأربع ليالٍ يحرم فيها التعدى على الضيف أو على قبيلته وإن حدث ذلك، يحدث الحق العربى الذى يسمونه "ثمن البطن".

- يترجم كلمة "نصارى" Nasara ص ٨٧ = Nazarenes (نسبة إلى مدينة

الناصرية)، ويترجمها أيضاً = Christians.

- يترجم "كُفَّار" Kuffar ص ٨٩ = infidels.

- يترجم "هام كتيب" (هذا مكتوب) ham katib ص ٩ = it is written.

- يترجم "الحمد لله رب العالمين" ص ٩٣ = Glory beto God, Lord of the Two

. worlds

- يترجم "بنت عم" ص ٩٥ = paternal cousin.

- يترجم أيضاً "ابن عم" ص ٩٩ = paternal cousin.
- يترجم "جِيلَاب" بمعنى المهر الذى يدفع للزوجة ص ٩٧ = bride's marriage portion.
- يترجم "هت بخير" (هل أنت بخير؟) = are you well? het bikhar.
- يترجم "الله أعلم" ص ١٠٣ = God knows.
- يترجم "صيام رمضان" ص ١٨ = fast of Ramadan.
- يترجم "رمضان شهر الصوم" ص ١٠٨ = the fasting month of Ramadan.
- يترجم "عِلْم" = "ilm". Science.
- يترجم "فى أمان الله" ص ١١٤ = to God protection.
- يترجم "يا جماعة! يا قوم!" ص ١١٥ = O Assem = Yajuma'a! O Ya Gom blybraves!
- يترجم "أستغفر الله" Istaghfirullah ص ١٢١ = May God Forgive them.
- يترجم "ربى يحاسبهم" Y'hassabhum ص ١٢١ = My Lord will hold them to reckoning (in the neat).
- يترجم "الاعتماد على الله" ص ١٥٠ = Reliance on God.
- يترجم "المقدّر لا بد من نفاذه" ص ١٥٠ = What is written must come to pass.
- يترجم "أم ظُرقه" umm Dharka ص ١٧ = Mother of Wind.
- يترجم "أبو فلان" abuFulan ص ١٧١ = the father of a Son's name.
- يترجم "قوم! قوم!" ص ١٧١ = Raiders! Raiders! بمعنى (غزو).
- يترجم "سَلْمْنى" Sellemni ص ١٧٣ = The desert equivalent of pax and as atoken of submission the rifle is held above the head, O thrown to one side.
- هذه إشارة الاستسلام فى الصحراء، وإذا ما نطق البدوى بكلمة "سَلْمْنى" فهو يقوم برفع بندقيته فوق رأسه أو يلقي بها جانباً، وإذا ما استجاب الخصم لذلك الرجاء، فإن المستسلم يعود بلا بندقية أو أى سلاح يكون معه.

- يترجم كلمة "بندق" وجمعها "بنادق" banadig ص ١٧٣ = tifies ، وهذه كلمة هندوسية تسلت إلى اللغة العربية.
- يترجم "شهمان" ص ٢١٣ = The massive sword of abuzaid . الشهمان: سيف أبى زيد .
- يترجم "يا طويل العمر" ص ٢١٦ = O Long of life .
- يترجم "الحين وغير الحين" بمعنى الآن وغير الآن dhillhin, ghairdhillhin now and not now=
- يترجم "عفيره" ذلك التعب المعدي الذى يصيب الإبل afera ص ٢٢٤ = The most stomach trouble .
- يترجم "قفَّار" بمعنى "قصَّاص الأثر" gaffar ص ٢٥٢ = foot- tracker ، وهذا المصطلح مستعمل فى "عُمان" .
- يترجم "عَطِيَّةُ الله" Atay Allah ص ٢٥٧ = The gift of Allah .
- يترجم "تَلَبَّسه الجن" ص ٢٥٨ = Jinn haunted
- وإذا مد الله فى الأجل، فإن هذه المصطلحات تشكل من حيث ترجمتها منظومة، أمل أن أتمكن من بحثها بحثاً دقيقاً، فى محاولة منى لتعرف هذه المنظومة ومكوّناتها.
- يُزاد على ذلك أن برترام توماس، جعل كتابه مقروءاً بأن أورد ملحقاً على امتداد ثلاث صفحات شرح فيه المصطلحات الطبوغرافية الواردة فى الكتاب، وهو ما يسهل على قارئ الكتاب الاسترسال فى قراءة حدّوة الكتاب بطريقة جذابة ومتسلسلة.
- ملاحق الكتاب غاية فى الأهمية ومن دونها لا تكتمل الفائدة من هذا الكتاب الموسوعى الذى تعدّه الجمعيات الجغرافية، والجمعيات التاريخية وكذلك الجمعيات الأنثروبولوجية مصدراً أو مرجعاً بالغ الأهمية فيما يتعلق بالربع الخالى وسكانه وقبائله.

ملاحظة :

أستمح القارئ عذراً لعدم وضوح الصور، وذلك لتعذر الحصول على صور بديلة، وعليه أدرجنا الصور بالشكل التى هى عليه حفاظاً على أهميتها فى الكتاب.

تصدير

لم أحاول، أثناء إعداد هذا الكتاب وتجهيزه، تضمينه الملاحظات العلمية الوفيرة التى جاء بها الرحالة السابقون من المناطق المجاورة، والتى قد يكون أو لا يكون لها صلة بالمشكلات التى تناولتها أنا. لو فعلت ذلك، فلربما جاء خارج نطاق التسجيل الشخصى. ومن هنا أكون قد كفيت القارئ مئونة الرجوع إلى قائمة طويلة من المراجع. لقد حاولت أن أحكى بصورة مباشرة عن الأشياء التى رأيته وسمعتها، فضلاً عن التجارب والخبرات التى مررت بها. وإذا كنت قد قصّرت فى المعايير التى حددها لى أولئك الذين سبقونى فى مجال الترحال فى الجزيرة العربية، فإن عذرى الوحيد فى ذلك يتمثل فى أن هذه الرواية كتبتها وسط مشاغل أخرى كثيرة انتابتنى طوال الأشهر القليلة التى أعقبت عودتى من الجزيرة العربية. وفى المواضع التى كنت أسجل فيها الحوارات والقصص الشعبية الفلكلورية، سواء أكانت عربية، مصرية أم شهارية، كنت أدون الكلمات التى استعملتها، كما هى واردة فى اللهجة المحلية التى وردت فيها هذه الكلمات، وبذلك أكون قد تحاشيت المعجم العربى.

وأنا مدين لكل من السير آرثر كيث، الذى تعاون مع الدكتور و. م. كروجمان، فى إصدار ملحق لهذا الكتاب، لا من أجل التشجيع، وإنما من أجل تحليل ملاحظاتي ومعاييري الأنثروبولوجية، الأمر الذى جعل هذه الملاحظات والمعايير ذات معنى ومغزى علمى.

يسعدنى أن أجد نفسى ملزماً بتوجيه أسمى آيات الشكر للجمعية الجغرافية الملكية على قيامها بمقارنة ملاحظاتي الفلكية فى هذه الرحلة مع الرحلات السابقة، وقيام الجمعية المبجلة بعمل الخريطة المرفقة بهذا الكتاب؛ وأوجه

شكرى بصفة خاصة إلى رئيس الجمعية الأدميرال السير وليام جود إنْفْ Goodenough ، وإلى السيد أ. د. هنكس أمين الجمعية، وإلى رسام الخرائط السيد إيه. إس. ريفز.

ولا يفوتنى هنا أيضاً توجيه خالص شكرى إلى الدكتور و. ت. كالمان هو والأعضاء الآخرين فى متحف التاريخ الطبيعى، جنوب كنسنجتون، على موافقتهم لى على نشر ملاحظاتهم عن العينات، على شكل ملحق فى هذا الكتاب.

ولا يفوتنى أن أشكر الصديق العزيز إيرافتمانى تى. أى مشاو (العقيد لورانس) على تفضله بقراءة المخطوطة المضنية، وكتابة التمهيد الخاص بهذا الكتاب؛ وأوجه شكرى أيضاً إلى الأستاذ الدكتور ه. إيه. ر. جب على تعليقاته ومقترحاته القيّمة؛ كما أتوجه بالشكر أيضاً إلى كل من السيد / د. و. بولارد قنصل صاحبة الجلالة لدى ليننجراد، وقنصلها من قبل فى مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية؛ وخالص الشكر أيضاً إلى السير آرنولد ولسون، رئيسى السابق فى بلاد الرافدين، ولولا نصيحة هذين الرجلين وعونهما لما تمكنت من الدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة دون تأخير.

برترام توماس

نادى الخدمات الموحدة فى شرق الهند

سينت جيمس سكوير

١٢ ديسمبر ١٩٣١

تمهيد

صدمنى برترام توماس عندما طلب منى أن أكتب تمهيداً لهذه الرحلة العظيمة، ولم تكن صدمتى ناجمة عن أن كتابة المقدمات تعطلنى (لا لأنه ربما يكون هو ممن يتمتعون بالمقدمات)، وإنما نجمت هذه الصدمة عن التجاء الرجل إلى فى هذه المسألة. وقد استغرق تفكيرى فى هذه الهفوة الغريبة شيئاً من الوقت.

لعل القارئ يعرف أن زمانى كان عامراً بالمقاتلين الحقيقيين فى مسألة الجزيرة العربية. ومع كل عائد من الشرق كنت أعود إلى شارلز دوتى ذلك العملاق الشامخ، الذى ابيضَّ شعره بفعل الأعوام الثمانين، إبيض شعر رأسه وشعر لحيته كما لون إشعياء، عصر النهضة، كان دوتى، بحد ذاته، عالماً مستقلاً مضى وانتهى؛ ومن بعد دوتى جاء ولفريد سكاون بلنت، الذى كنت أعود إليه بعد دوتى. كانت الفرس العربية هى التى تجذب زواره إلى منزله المبنى من الحجر الواهن داخل غابة سسكس، والذى زُينت جدرانها بلوحات صوفية من الطراز الموريسى. كان الرجل جالساً على كرسى فخم، مستعداً وجاهزاً لى كما لو كان عملاً فنياً مُهملاً، ويرتدى ملابس عربية بالية، ووجهه واضح المعالم يحيط به إطار من الشعر الفضى المجعد. كان صوت دوتى فيه شىء من التدليل، فضلاً عن طبعه الحلو. جاء بلنت بمثابة النار التى تعلى رماد الغضب القديم.

كان ذلك هو حال أساتذتى فى مسألة الجزيرة العربية، رجال عاشوا منذ أربعين أو خمسين عاماً مضت. وهذا هو هوجارث هو وجرترود بل، استطاعا بدورهما خلال عشرين عاماً من الدراسة الدعوية، أن يبنيا لنفسيهما سمعة طيبة من نوع ما؛ كان هناك أيضاً ضباط شباب واعدون مثل النقيب شكسبير ومعه

ولشمان، ومعهما أيضا السياسى، ويمان بيرى، استطاعوا معاً أن يبدءوا بداية حسنة. هذا يعنى أن التطلع إلى الحكمة العربية، لم يكن طموحاً سريعاً أو خفيفاً.

هؤلاء العظماء الكبار، لقوا ربهم جميعاً؛ كان الشاعران مُسنين ومكرّمين تكريماً كبيراً، وتُوفّيًا وفاة طبيعية. لقد أثقلت الحرب كاهل كل من هوجارث وجرتروث بل بالكثير من المسؤوليات السياسية. هذان الاثنان أسلما نفسيهما لعملهما تماماً، وشاهدا عملهما بعد اكتماله، ثم لقيا ربهما بعد ذلك. لقد توفّي الرجال الثلاثة الأصغر سناً من كل من هوجارث وجرتروث بل، بسبب قيامهم بواجبهم؛ وهذا هو السبب وراء مجيء توماس إلى.

وأنا أرى أن أى سياسى سابق لا يمكن أن يغيب عنه ما قام به أولئك العظام إذا ما انضم هو إلى مدرستهم. هل بوسع أحد من جمهورنا المؤسف الصغير، فى أيماننا هذه، المشاركة فى هذا الموروث؟ أخشى أن أقول لا. وأنا أرى أن الرغبة بحد ذاتها فى أن يكون الإنسان واحداً من المهتمين بالجزيرة العربية، كفيلة وبعيداً عن التلاعب بالكلام وألفاظه، وبتحقيق المطلوب؛ لكننى أرى أن زمان من سبقونا كان أوسع وأفسح من منطلق أن رؤية الجزيرة العربية، بحد ذاتها، كانت هى الهدف والمبتغى، هؤلاء الذين سبقونا كتبوا وألّفوا كتباً عن التجوال فى الجزيرة العربية، كما أن شبه جزيرة العرب حسّنت نشر هؤلاء الكُتّاب. (من هنا جاءت الكتب المقروءة عن الجزيرة العربية، مؤلفة كلها بالإنجليزية، باستثناء كتاب واحد؛ هذا يعنى أن اليهود "السويسريين" والإيرلنديين تضافرت جهودهم على مساعدة الإنجليز فى تأليف هذه الكتب. هناك أيضاً بعض الكتب الألمانية القيّمة بالإضافة إلى كتاب هولندى واحد). صحراوات الجزيرة العربية هى التى صقلت وأقرت قلم شارلز دوتى هو وبالجريف، وكذلك بوركهاردت، وبلنتس، كما ساعدت هذه الصحراوات أيضاً رونكاير فى كتابه الذى ألفه عن الكويت، وساعدت أيضاً كلا من بيرتون هو ووافل فى كتابيهما اللذين اتخذا من الحج عنواناً لهما؛ كما ساعدت هذه الصحراوات أيضاً بيرى فى كتابه عن النجوع والكفور اليمنية التى تضربها حرارة الشمس.

أما نحن الأضعف من أولئك الذين سبقونا، فلا نجرؤ على أن نكون من ضمن من اهتموا بالجزيرة العربية، من أجل عينيها- لا أحد منا يجرؤ على ذلك

باستثناء روتر Rutter ، الذى أثبت أنه صالح تماماً لذلك، ويا للعجب من كتابه الأصيل! وكل من هم عدا هذا الرجل لابد أن يلتمسوا الأعذار للأسفار والترحال. أحدهم يتعلل بمسألة خطوط العرض، وآخر يتعلل بأشياء سخيفة أخرى، وثالث يجمع النباتات والحشرات لا ليأكلها ولكن ليعود بها إلى الوطن، ورابع يشعل نار الحرب لتكون وقوداً فى نيوكاسل، هذا يعنى أننا نبدد ولاءاتنا وموالقاتنا.

وكان حتمياً بطبيعة الحال أن تظهر هذه الشوائب. ومعروف أن البرك عندما تنكمش لا يصيبها الركود. وهذا هو رالى Raleigh يُشجّع سلفيا ويشد أزرها عندما يقول: "الفش والخذاع" نحن لا نعرف عن العالم الكثير، - لكن منذ عصرها أصبحت منطقة القطب الشمالى، الدائرة القطبية الشمالية، الأراضى اليباب فى كل من آسيا وأفريقيا، وغابات أمريكا، بدأ ذلك كله يكشف عن أسرارها. وفى العام الماضى، كان بوسعى القول - لم يعد أمامنا ما لا نعرفه سوى شئ واحد، - وكان ذهنى منصرفاً إلى الربع الخالى البكر، تلك البقعة التى لم يكتب عنها أحد والتى تبلغ من الكبر حداً جعل واحداً من البشر يعود إليها مرتين أو ثلاث مرات، قبل أن ينبرى للتعبير أو الكتابة عنها. ومع ذلك، فإن هذه الفقرات القليلة التى أكتبها هنا هى التى تحول بين الشهية وحكاية غزو الربع الخالى أو قهره - لقد أصبحنا الآن على علم بالأرض كلها. ومبلغ علمى أن الشباب الجوال سيظل غير راضٍ إلى أن يهبط جيل مجنح على الكوكب التالى.

قلة قليلة من الرجال هم الذين يستطيعون إنهاء حقبة من الحقب، نحن لا نستطيع معرفة الرجل الأول الذى سار على الأرض المحرمة طلباً للبحث عن الجديد: لكن توماس هو آخر هؤلاء الرجال؛ وقد قام برحلته بالطريقة العتيقة، على ظهور الإبل، وحيداً فى زمانه، ومتحملاً تكاليف رحلته. كان بوسع الرجل ركوب طائرة، وكان بوسعه أيضاً الجلوس فى سيارة أو ركوب دبابة من الدبابات- وعوضاً عن ذلك كله انتزع الرجل فى الساعة الثالثة والعشرين النصر وخلصنا من هواجسنا. وبعد أن كان كل شئ يتم بطريقة شديدة البطء، أصبح بوسعنا التركيز على السرعة، ونحن نستطيع تكبير عين السلحفاة لتكون مثل عين الأرنب البرى وعين الطائر. كل الشكر والتقدير منا إلى توماس، وإلى الجمعية الجغرافية

الملكية لمنحها ميدالياتها لهذا الرجل... فضلاً عن حصوله أيضاً على ميدالية ونوط ضابط الإمبراطورية البريطانية.

أنا لا أستطيع التعبير عن مدى حبي لهذا الكتاب، مخافة أن يروح جوناثان ينقُب عن الجملة المقتضبة التي كُتبت على غلاف كتابه. لقد مكّنتي توماس من قراءة المخطوطة، وها أنا أعلق تعليقاً مفيداً؛ وأراني أبديت، ذات مرة، ملاحظة مفادها أن حدود الكتاب مناسبة تماماً لهذه الرحلة، ولم أعلق بالرفض على أى شيء يتعلق باستكشاف هذا الجزء من الجزيرة العربية. كل ما ورد في هذا الكتاب يمكن قراءته بسهولة ويسر، والسبب في ذلك أن هذا الرجل يتسود كل فنون الصحراء. في هذا الكتاب نجد توماس متدثراً بدثار رجال الجزيرة العربية. كانت لمسات هذا الرجل الدقيقة هي التي دفعتنى لا مرتين وإنما عشرين مرة إلى تذكر هذه الأرض الواسعة التي أحببتها حباً جماً، قبل عشرين عاماً، وتمنيت لو أن هذا الإحساس لا يستبد بي مرة ثانية. وعليه، أحسب أن ذلك كان هو السبب الذي دفعنى إلى كتابة هذا التمهيد عديم النفع؛ يضاف إلى ذلك أنى أتفهّم تماماً مخاطر هذا الرجل. هذا الإنسان استطاع عن طريق اختيار الموسم المناسب، وبعد الحرص البالغ والإعداد الجيد، أن يقامر بحياته، معتمداً في ذلك على التضامن الأمنى الذي تدين به الصحراء لابن سعود. وأنا أرى أن توماس حظيظ ويستحق الثناء والتقدير.

كرافتمان. ت. إي. شاو

(العقيد لورانس)

مقدمة المؤلف

الجزيرة العربية "السعيدة" لا غريب أن يضاف هذا الوصف، أو هذه الكنية "السعيدة"، شرفاً على جزء من سطح الأرض، كان الإنسان فيه، طوال القسم الأكبر من التاريخ، في حرب مستمرة مع البنية من ناحية ومع جيرانه من الناحية الأخرى. ومع ذلك فليس هناك لبس ولا إبهام في كلام الجغرافيين القدماء، الأصلاء. ونحن نجد عند كل من سترابو، بلنى، وبطليموس إن المصطلح الجزيرة العربية السعيدة "Arabia Felix" ينطبق على كل الجزء من شبه جزيرة العرب، الواقع جنوب الصحراء السورية (وهو ما يُطلق عليه: صحراء الجزيرة العربية) وعلى الجبال المنتشرة في سيناء (أى الجزيرة العربية الأم). صحيح أن هذا المصطلح أو هذه الكنية لا تنسجم ولا تليق بقفار الربع الخالى المقززة والمنفرة، والتي تشكل قسماً كبيراً من الجزيرة العربية، ومع ذلك نجد أن الجزء الأوسط من القسم الجنوبي، الواقع على حدود المحيط الهندى، أرضٌ، كانت في يوم من الأيام، فريدة في حسنها وشهيرة بعراقتها، وإذا كان في الجزيرة العربية منطقة أخرى تستحق وصفها "بالسعادة" غير اليمن الذى عرف القدماء أمجاده حق المعرفة، فإن هذه المنطقة هى تلك التى يُطلق عليها اسم مقاطعة ظُفار، التى هى بمثابة أرض عامرة بالمراعى والغابات الفاخرة التى تكسو الجبال المنحدرة التى تطل على البحر، والتى فيها مَجَارٍ مائية دائمة ومروج خضراء عامرة بضوء الشمس، وفيها أيضاً مشاهد واسعة يراها الرائي من خلال الأشجار، وفيها أيضاً ممرات خضراء تسر الخاطر. فى هذه المنطقة، ونقلاً عن قام بتدوين سِفَر الخروج، حددها يهوه على أنها آخر العالم المعروف "وأنت ذاهب شرقاً إلى جبل سيفار (ظفار)؛" يضاف إلى ذلك أن المصريين القدماء جاءوا إلى هذا المكان طلباً

للْبَحُورِ الذى كانوا يستعملونه فى تحنيط جثامين الفراعنة المقدسين؛ ومن هذه المنطقة أيضاً، ربما تكون العُمْد (الأعمدة) المستعملة فى معبد سليمان (ﷺ)، قد قُطعتْ من صخور هذا المكان، هذا إن لم تكن ظفار هى نفسها أوفير التى أتى العهد القديم على ذكرها؛ يزداد على ذلك أن هذه المنطقة هى السوق التقليدية للعلاج وريش الطاووس.

لقد حاولت فى صفحات هذا الكتاب تدوين قصة الرحلة التى قمت بها مؤخراً إلى الربع الخالى، هى والأبحاث التى قمت بها فى مقاطعة جلفار الجميلة، مدخل أو بوابة الرحلة التى قمت بها، والتى أرى أنها هى الجزيرة العربية السعيدة فى أيامنا هذه.

الربع الخالى البكر، الصحراء الجنوبية الكبرى! مسألة بذل جهد جهيد فى الجزيرة العربية تعنى أنك لابد وحتماً أن تكون قد خبرت سحرها وجاذبيتها، وأنا عندما غادرت إدارة شرق الأردن قبل ست سنوات، متوجهاً إلى بلاط مسقط وعمان، كانت تراودنى بالفعل أحلام كثيرة؛ كنت أعلم أن وهاد الأرض النائية، هى ومنطقة القطب الشمالى، وكذلك قارة أنتاركتيكا، وأيضاً منابع نهر الأمازون، فضلاً عن الفراغات الداخلية الشاسعة فى كل من آسيا وأفريقيا، كل هذه الأماكن، الواحدة بعد الأخرى، راحت تُسَلِّم أسرارها للفضول الإنسانى، وإنها لفرصة غريبة أن يبقى الربع الخالى بمثابة الأرض الأخيرة التى لم يعرف البشر أى شئ عنها إلى يومنا هذا، ولا تزال تثير دهشتنا وفضولنا وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارنا مسألة عراقية وقدم الجزيرة العربية المستقرة، التى تلامس مناطقها الحدودية الحضارتين الباكرتين المصرية القديمة والحضارة البابلية.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت الجزيرة العربية بمثابة الأرض المحظورة أو المحرمة، وعلى امتداد القرون استطاع عشرون من المستكشفين الأوروبيين أن يحققوا نجاحاً فى اختراقها وصولاً إلى قلبها الطارد. وهناك سببان يقفان وراء ذلك، أولهما: أن نقص المطر وحرارة صحراء الجزيرة العربية الشديدة لا تسمح سوى بوجود مجتمعات بدوية شبه همجية، هى فى حرب مستمرة، حتى فيما بينها وبين نفسها، الأمر الذى يجعل حياة مثل هذه المجتمعات غير آمنة ومعرضة للخطر، وثانى هذين السببين، أن دين هؤلاء البشر الذين يسكنون الصحراء، يكون

من حيث الممارسة متعصباً ومتطرفاً وحصرياً، هؤلاء السكان يرون بين الحين والآخر، أن نشر الإسلام وفرضه بقوة السيف، هي فضيلة من الفضائل. في الجزيرة العربية الأم، نجد أن كل من زاروها كانوا أفراداً؛ ولم يحدث سوى في مرة واحدة في تاريخ الجزيرة العربية كله، وكان ذلك في زمان الرومان- الذين ظنوا أنها بلد وهمى غنى بالذهب - يوم أن أثارت الجزيرة العربية جشع الغزاة الأوروبيين، الأمر الذى أدى إلى ترك سكانها لحال سبيلهم، وقد أفضى ذلك بدوره إلى زيادة العزلة، والتعصب، والتشدد فى سلالة أصيلة. ومن هنا يمكن القول: إن مساحة تعادل مساحة نصف أوروبا بقيت بيضاء على خرائطنا.

انبهر رتشارد بيرتون بالجزيرة العربية، ولذلك عرض الرجل فى العام ١٨٥٢ خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية، بهدف إمطة اللثام عما أسماه "إزالة العار الذى لحق بمسألة المغامرات الحديثة"، لكن الرجل استسلم فى نهاية المطاف للاعتراضات الرسمية، ولم يعاود مطلقاً فتح هذه المسألة مرة ثانية، تمتعت أنا بهذه المزايا. فقد تمكنت بفضل السنوات الثلاث عشرة التى أمضيتهما بعد الحرب العالمية الأولى، فى مناصب سياسية فى ثلاثة جوانب من الجزيرة العربية، من اكتساب معرفة خاصة بى أنا شخصياً، بلهجات القبائل، وبالأسايب العربية، الأمر الذى جعلنى أتأقلم مع هذه اللهجات والأسايب. وأنا بدورى كنت قد كرسيت نفسى منذ سنوات على حل مشكلتين مهمتين- أولهما البحث عن منفذ يمكن أن يساعدنى على المرور إلى المنطقة الداخلية، وثانية هاتين المشكلتين هي مسألة الطريقة التى يمكن إتباعها فى تثقيف هذه القبائل. ونظراً لأنى كنت وزيراً فى مجلس وزراء الدولة العُمانية، فقد أصبح اسمى معروفاً فى سائر أنحاء الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية؛ ونظراً لأنى كنت وزيراً للسلطان ونظراً أيضاً للعلاقات الودية التى كانت بينى وبين الحاكم؛ فقد مكّنتنى ذلك كله من أن أكون على اتصال شخصى مع كبار العرب المؤثرين فى هذا الجزء من الجزيرة العربية. من هنا كنت أحظى بموقف متسامح معى بشكل عام، رغم أنى كنت إنجليزياً ومسيحياً، ولولا هذا الموقف لما استطعت الابتعاد عن المسار المحدد.

ولما كنت أعرف عقلية السلطة، فقد تحاشيت الوقوع فى فخ طلب الموافقة على ما أقوم به. وهنا خطر على بالى السؤال التالى: ألم يكن رتشارد بيرتون قد

حاول ذلك من قبلى؟ ولعل القارئ يسمح لى هنا بالقول: أنتى كنت متعاطفاً بشكل عام مع الموقف الرسمى البريطانى فى ذلك الوقت، والذى كان مبنياً على فرضية أن الفوضى العادية السائدة فى صحراء الجزيرة العربية، كانت معادية لعملية الاستكشاف. والمسئول الجيد، يتعين عليه تحاشى المسئولية، وألا يمانع فى مسألة أن المهمة الاستكشافية يجب أن تتطوى على تفويض ضمنى. وعليه رحت أفكر فى خططى ومخططاتى فى الظلام، وإن شئت فقل: فى السر لا فى العلن؛ وعليه كانت رحلاتى وتجوالى ينبئ عنها اختفائى بين الحين والآخر، وكنت أنفق من مالى الخاص على هذه التجولات والرحلات، وأنفذها أنا بنفسى وتحت رعايتى. وعلى امتداد خدمتى الرسمية فى مسقط، كنت أحرص دوماً على قضاء إجازاتى الصيفية هناك، حتى أتمكن من تحاشى مسألة إجازتى المحلية (التي كانت السلطة ترى أن أقضيها فى الهند هرباً من حرارة مسقط)، وأستغلها فى استكشاف الجزيرة العربية فى فصل الشتاء، لأنه هو الفصل الذى يمكن للإنسان فيه القيام بعملية من هذا القبيل.

وبذلك أكون قد تمكنت شيئاً فشيئاً، من استكشاف الربع الخالى ورسم خريطة له - وعليه قمت فى العام ١٩٢٧ / ٢٨ برحلة على ظهر جمل، قطعت خلالها قرابة ٦٠٠ ميل، تجولت خلالها فى الأراضى الحدودية الجنوبية، وقد بدأت هذه الرحلة من ذلك الجزء من الجزيرة العربية القريب من الهند، وانتهت فى ظفار؛ وفى العام ١٩٢٩ / ٣٠، قمت باستكشاف منطقة السهوب إلى مسافة ٢٠٠ ميل شمالى ظفار إلى أن وصلت إلى حافة الرمال. كنت فى هاتين المرتين أرتدى ثياباً بدوية ولا أتكلم سوى اللهجة المحلية، وعشت حياتى كما لو كنت واحداً من هؤلاء البشر، وتحاشيت الدخان والكحول كيما أحظى بسمعة طيبة فى مسألة الالتزام، التى يمكن أن تساعدنى فى نهاية المطاف، فى مسألة عبورى الصحراء الكبرى من البحر إلى البحر.

هاتان الرحلتان أكدتا لى عدم صواب الانطباع العام الذى مفاده أن هذا الجزء من الجزيرة العربية، يمكن استكشافه على نحو أفضل باستعمال الوسائل الحديثة مثل السيارات والطائرات. كان هناك اقتراح يفيد أن طائرتنا المشؤمة طراز ١٠١ يتعين عليها الطيران فوق هذه الصحراء المجهولة، فى رحلة العودة من

الهند. قبل ذلك بثلاث سنوات كان مليونير أمريكي قد فكر في خطة مماثلة، واقترح استئجار منطاد ذى محرك، وطلب الرجل منى أن أكون عضواً ضمن أعضاء هذا الاستكشاف.

وأنا لم أندم على فشل خطة هذا المليونير، لأنى تعلمت من خبرتى ومن تجارى أن وسيلة النقل التى من هذا القبيل، وعلى الرغم من جدواها فى زمانها ومكانها، لا يمكن أن ننتظر منها الحصول على نتائج علمية إيجابية. كانت المشكلات التى تنتظر الحلول متمثلة فى اكتشاف تضاريس منحدر الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية من ناحية، وصرف هذا المكان هو وتركيبه الجيولوجى بغية ملء الفراغات الكبيرة الموجودة على الخريطة، من الناحية الأخرى؛ فضلاً أيضاً عن استكشاف الحياة الحيوانية، والبشر الذين يسكنون هذا المكان، هم وقراباتهم وصلاتهم العرقية واللغوية، إضافة إلى سلوكياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم. هذه الأهداف لا يمكن، تحت أى ظرف من الظروف، دراسة أى منها دراسة مفيدة ودقيقة عن طريق المسح الجوى، هذا يعنى أننا لن نستطيع إضافة أى اسم إلى الخريطة، ناهيك عن عجزنا عن تأكيد ولو مجرد حقيقة واحدة من الحقائق الأنثروبولوجية، الحيوانية، أو الجيولوجية أو الحقائق المهمة.

يُزاد على ذلك، أن تعدى الماكينات الغربية على الصمت العذرى لهذا المكان ينطوى على شئ من الغلظة وانعدام الكياسة؛ ويجب عدم الخلط بين هذا الإحساس وبين هزّة الفرح بالمجهول، الذى تطوقه هنا حافة الطبقة السماوى المقلوب؛ كما يجب أيضاً عدم الخلط بين هذا الإحساس وبين الحافز العقلى أو الذهنى الناجم عن الخطط عندما تكون فى طور التحقق البطيء المتأرجح. لكن كل هذه الأشياء لها وزنها وحساباتها. ومن خبر هذه الأمور، وتعلم فن الحديث مع رفاقه حول هذه المسائل على امتداد شهور متواصلة - وعلى الرغم من وقاحة عصابات الصحراء وجهلهم، وكذلك الإعجاب ببعض سماتهم الرجولية - يعلم اليقين أن ظهور الإبل، هى والمسيرات الطويلة هما اللذان يشكلان سحر الجزيرة العربية وجاذبيتها.

الجزيرة العربية (قصيدة بقلم وتردى لامار)

بعيدة ظلال الجزيرة العربية،
 حيث يركب الأمراء مطاياهم عند الظُّهر،
 وسط الوديان الخضراء والأحراش
 تحت روح القمر؛
 السماء دُكناء إلى حد أن الأزهار ذات اللون الأرجواني ترتفع في الغابة
 ومشربة يانعة على خلفية نجوم الطيف
 وهي شاحبة في سماوات الظُّهيرة
 حلوة موسيقى الجزيرة العربية
 في قلبي، عندما أكون خارج الأحلام
 ولازلت في غلاف الفجر الرقيق
 ألمح وأشاهد مجاريها المائية المنزقة؛
 أستمع إلى ناياتها الغربية على الضفاف الخضراء
 تدق بصوت عالٍ حزناً وفرحاً
 من موسيقييها أصحاب الشعور داكناء السواد شديدة النعومة
 في صمت الليل البهيم
 تتملكني - ناياتها وغاباتها؛
 لا أرى على الأرض جمالاً غير هذا الجمال
 لكن استظلالي بهذا الحلم يعيد إلى ذاكرتي حبي لها؛
 لا تزال الأعين تنظر إلى ببرود،
 أصوات باردة تهمس وتقوى -
 "إنه مجنون بسحر الجزيرة العربية النائية،
 لقد سرقت منه عقله"

الفصل الأول

بداية تبشّر بالخير

كان الوقت مصادفاً لمنتصف ليل اليوم الرابع وصباح اليوم الخامس من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠ الميلادى، وكان النوم مخيمًا على مرفأً مسقط العربى الصغير. ولم يكن أحد من سكان هذا المكان مستيقظًا سوى شخص واحد فقط، أو بالأحرى هو ذلك الذى يشغل بينهم منصب الأمير سيد سعيد بن تيمور، الذى عُهد به إلى والده السلطان أثناء غيابه، وكان يَطَّلَع على انفراد على الأنشطة التى تجرى على الشاطئ.

وعلى الشاطئ كان هناك بآدان (قارب تجديد محلى صغير) جرى سحبه ليكون قريباً ما أمكن إلى الشاطئ؛ وقام خادمى المخلص محمد بنقل صناديق سيده الغربية، ومعها بندقيته وسُرَّج الإبل إلى ذلك البآدان، وإن شئت فقل القارب الصغير. هذا يعنى أنى شرعت فى تحقيق المطمح الذى كان يراودنى منذ زمن طويل، ألا وهو إماطة اللثام عن صحراء جنوب الجزيرة العربية غير المعروفة. وغداً سيثير اختفائى دهشة كبيرة فى السوق، وسوف يخترع الخيال الشرقى الخصب شكوكاً متباينة يفسر بها ذلك الاختفاء.

كانت سفينة صاحبة الجلالة واقفة تتلألأ فى المياه العميقة، وكنت أنا قد اقتربت من هذه السفينة لأخذ أيقونة الحظ التى أهدانى إياها بمبرتون، ربَّان هذه السفينة، الذى كان قد تناول عشاءه معى، وقال: إنه سيترك معى هذه الأيقونة وسيقوم بمراقبة ما يحدث بعد ذلك. ومن ثَمَّ استحلفت بحارتي البلوشيين، بالحفاظ على السرية مستقبلاً، ثم انطلقنا بعد ذلك إلى عُرُض

البحر. كان القمر بديراً ولذلك سمح لى ضوءه بالتقدم مباشرة للحصول على الأيقونة- كانت تلك الأيقونة عبارة عن القصيدة التى أَلَفَهَا ولتر دى لامار، بعنوان "الجزيرة العربية"- والأهم من ذلك، أنى تأكدت بنفسى من محتويات البرقية التى بين يدى وتقول:

"تصل الباخرة البريطانية جرينادير Grenadier عند الساعة السادسة صباح يوم الأحد، وستكون على بعد ثلاثة أميال من شاطئ مسقط - سيدى".

بدأت تلوح أمامنا الكتلة المعتمة لناقلة البترول التى تحمل عشرة آلاف طن من الزيت. وهنا عمل العلم الذى رحل ألُوِّح به، حسب المتفق عليه، عمله؛ وجرى على وجه السرعة نقلى إلى السفينة البريطانية جرينادير، التى كانت متجهة إلى الوطن، واستأنفت مسيرها مرة ثانية قبل دقائق الجرس الأربع، وبذلك تكون هذه السفينة قد أخذتتى بعيداً عن مسقط.

كنت قد خططت للنزول من السفينة فى ظفار، أى عند منتصف الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وذلك فى حال ما سمحت ظروف الطقس فى نهاية موسم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وإذا ما فشلت فى ذلك، يجرى إنزالى فى أول دهب عربى(*) يقابلنا. أدت الريح النشطة فى اليوم التالى إلى التقليل من سرعتنا بعض الشئ، وهنا بدأت تراودنى الشكوك حول مسألة وصولنا إلى صلالة فى ضوء النهار، ولم أستسغ مسألة بقائى طول الليل فى البحر، وعليه تركز تفكيرى على الدهو العربى، ولذلك قصدنا أول دهب يصادفنا. وعليه اتجه القارب الصغير المرافق للدهو، مقترياً من السفينة مستجيباً للنداء الذى وجَّهناه إلى الدهو عن طريق آلة التنبيه فى السفينة؛ ارتديت أنا ومحمد خادمى زيّاً عربياً، ونزلنا إلى القارب الصغير بواسطة سُلَّم القبطان. أدت صناديقى إلى تأرجح الحمولة، لكن القارب الصغير جاء موفياً بكل ما طلبنا وحملنا بسلام عبر التموجات إلى المكان الذى يرسو فيه الدهو.

(*) الدهو : مركب شراعية مألوقة فى جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. (المترجم).

وهنا أطلقت السفينة جرينادير إشاراتنا توديعاً لنا، وراحت بعد ذلك تمخر عُباب الماء لتختفى بعد ذلك بين الموج المتلاطم رمادى اللون الذى غريت الشمس عنده. أوماً ريس الدهو العربى، الذى يحمل الاسم فتح السلام، برأسه علامة الموافقة عندما حدثته عن نزولى إلى البر؛ واقع الأمر، أن ريس الدهو، كانت له آراء ووجهات نظر مختلفة. هناك بروز أرضى على امتداد هذه الشواطئ المنحدرة انحداراً خفيفاً، يسفر عندما يكون الطقس معتدلاً عن أمواج-عارمة تصطدم بالشاطئ. وعليه؛ فإن مركب صيد الحيتان، أو أية سفينة مبنية فى إنجلترا يمكن أن تنقلب وتتكرر بفعل هذه الأمواج العارمة، لكن البانوش المحلى (الأخشاب المخيطة) يستطيع المرور بسلام عبر هذه الأمواج، وذلك على الرغم من أنه، فى بعض اللحظات، يبدو كما لو كان منتصباً، الأمر الذى يخيف راكبه، لأنه يعلم أن البحر، عبارة عن غلاية متفاقمة فى المنطقة المحيطة بالبانوش، ولن يرحم من يقوم بالسباحة فى هذه المنطقة.

نظراً لحرصى على الكرونومترات(*)، أقنعت ريس الدهو بعد نقاش طويل، بالتوجه إلى رسيوت، ذلك الخليج المحمى الواقع أسفل الساحل. وبعد ساعتين من طى وخفض الشراع الرباعى، كان لا يزال يرفرف بعض الشئ، فى الوقت الذى كان فيه منظر القلعة البيضاء هى والمسجد وسط بيارة من نخيل جوز الهند ومن خلفهما جبال قارة زرقاء اللون، وهذا هو كل ما يمكن رؤيته من ظفار بواسطة القادم إليها عن طريق البحر، كل ذلك أوضح لنا أننا بدأنا التحرك البطيء بصورة أو أخرى.

وهذا هو حوت لُوب راح يسلينا بتزجية الوقت - هذا الحوت عبارة عن وحش بطيء الحركة لونه أخضر أدكن، جاء وجعل نفسه موازياً للدهو العربى الذى نحن على ظهره؛ كان الحوت فى وضعه هذا شبيهاً بالغواصة التى تراقب السفينة الأم، وكان يتباهى بنفسه على أنه لا يصغر كثيراً عن فتح السلام (الدهو). بدا لى ذلك على بعد أقدام قليلة على الجانب الآخر ويروح يشق عباب الماء محدثاً نحيماً قبل أن يغوص فى الماء بشدة مرة أخرى، مخلفاً وراءه رذاذاً قليلاً ومُحدثاً فقاعات كثيرة، فى إشارة منه إلى غروبه عنا. لم يكن البحارة غير

(*) واحده كرونومتر: جهاز لضبط الوقت فى الملاحة البحرية والبرية. (المترجم).



بيارة جوز الهند في ظفار : جمالان غير مصنفين عند يثر الماء

معنيين بما يحدث. وبينما كانت عيناي مركّزتين على الدّفنى (القارب الصغير) الذى يسحبه الدهو، كان البحارة يواصلون طنينهم وضجيجهم التخويفى الصادر عن دقهم وطرقهم على صفائح الكيروسين الفارغة. وهمت الريح هى الأخرى إلى تخليصنا، ومع دخول وقت الظهيرة كنا قد أوشكنا على الرّسو فى خليج رسيوت^(١)، الذى كنت أود النزول عنده إلى البر.

ركبنا الإبل بعد ذلك، واحتضنّا الشاطئ إلى أن تجاوزنا أوقاد (أبكيد)، تلك القرية الصغيرة الموجودة فى السهل، وواصلنا مسيرنا من أوقاد وعلى حافة بيارة نخيل جوز الهند لنصل إلى قلعة ظفار عند غروب شمس اليوم الثامن من شهر أكتوبر. هنا، فى قلعة ظفار، وأنا مُتعبٌ تماماً بعد أربع وعشرين ساعة لم أذق النوم خلالها، تحتم علىّ شغل أو احتلال غرفتى القديمة فى مكانها الآمن. لكن الليل لم يكن هيناً. كانت هناك فيالق من البعوض، وجحافل من الزنابير صفراء اللون؛ كانت تبنى لنفسها منزلاً فى العوارض الخشبية الموجودة فوقنا: كانت هناك حشرة أخرى، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وشبيهة بذبابة الرمل، راحت تُقلقنى وهى تتغذى على دمنى.

علمت صلالة بوجودى: لكن يجب ألا تعرف شيئاً عن خططى أو مخططاتى. هذا يعنى أن السرية كانت أمراً محتوماً. يزداد على ذلك أن الكشف عن هذه الخطط والمخططات يمكن أن يتسبب فى معاداتى، ويمكن أن يتسبب فى ذبوع ذلك الخبر فى الخارج، ومعروف أن الأخبار تنتشر فى الجزيرة العربية الأمية، بسرعة التلغراف، يزداد على ذلك أن هذه التراكمات غير المرخص بها يمكن أن تشرح صدر الصحيفة اللندنية المسائية.

(١) كان المغامرون البرتغاليون فى القرن السادس عشر، هم الأكثر قسوة وغلظة فى ذلك الزمان، فى آسيا، وقد ظن هؤلاء المغامرون أن رسيوت جديرة بصلبانهم ودمائهم؛ ولا يزال موجوداً فى هذا المكان سلم مكون من بضع درجات وبعض التحصينات المهدامة، وشهود على وجود البرتغاليين من قبل فى هذا المكان. وفى يومنا هذا، تعد رسيوت القاعدة الوحيدة الممكنة لطائرات البحرية فى هذا المكان من الجزء الأوسط من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي، وبخاصة فى شهور الصيف التى تهب فيها الرياح الموسمية.

تُرى، أين كان سهيل الرشيدى؟ إلى هنا ينتهى حديثنا عن الوعد الذى يقطعه البدوى على نفسه. وأنا بدورى كنت أعلّق أشياء كثيرة على هذا العضو من أعضاء الرحلة الأخيرة ضمن قافلة العام الماضى، وكنت قد اتفقت معه فى السر على أنه يتعين عليه مقابلتى فى صلالة فى منتصف شهر ربيع الأول ومعه مجموعة من الإبل حتى يقوم بنقلى إلى الرمال العظيمة. وكان الرجل قد أقسم على أنه لن يحول بينه وبين المجيء سوى الموت. كانت تحرياتى غير المباشرة قد أكدت أن أهل ظفار لم يسمعوا عنه شيئاً من يوم أن سافر إلى قبيلته ومعه مائتا دولار وخنجر- وهذه ثروة كبيرة- كنت أعطيته إياها سراً فيما بينى وبينه. إذا كان هذا ووعدى إياه بالمزيد قد أدى إلى منعه من المجيء وفاء بالوعد الذى يقطعه على نفسه، فذلك يعنى إحباطاً لآمالى المرتقبة. وقبيلة الرشيد، التى ينتمى إليها سهيل، هى القبيلة الوحيدة من بين قبائل الرمال الجنوبية، التى يمكن الاعتماد عليها، وبدون مساعدتها لى تصبح مسألة عبورى حلماً ضائعاً لا طائل من ورائه.

كانت أخبار الصحراء سيئة فى ظفار. إنها الحرب! كان الرشيدة والسَّعارين يتحاربان، وكان الرشيدة هم هدفى المبتغى، أما السَّعارين فكانوا عدوهم القوى اللدود فى شمال حضرموت - ثار دموى قديم. هذا يعنى أن المناطق الداخلية كانت معرضة للغزو ولما هو أسوأ منه. وعلى ما يبدو فإن سهيل، على افتراض حسن نواياه، ربما يكون عجز عن تشكيل جماعة من إخوانه فى القبيلة بغية مساعدتى على المرور من بين الأعداء إلى الساحل. ويُحتمل أن تكون قبيلة سهيل مشتبكة فى عمليات هجومية فى حضرموت أو ربما تكون قد انسحبت إلى مكان آمن فى أعماق الرمال. كان ذلك هو مربط الفرس. هذا يعنى أن باب الرمال كان موصداً فى وجهى.

أُقفلت الأبواب فى وجهى، ولم يكن هناك مخرج. كان رجلان من قبيلة الرشيد: معيوف وحويتيم، قد جاءا من ظفار لحصاد البخور، وأرسلت فى طلبهما، وعلى الرغم من أنهما لم يكن معهما إبل وبعيدان عن قبيلتهما، فلربما كانت لديهما أخبار عن ذلك السُّهَيْل. يزداد على ذلك، أن مسألة الحصول على ثقة البدوى، تعد أمراً صعباً ما دام لم يثق بك أنت، وقد يكون من الخطر على أن أمد يدى فى غير الوقت المناسب، ولذلك رحت أتجاذب معهما أطراف الحديث كل يوم

على امتداد بضعة أيام، إلى أن عرفت منهما أن قبيلة الرشيد قد تكون على مبعده مسير شهر من الشمال إلى الغرب، وأن القبيلة لا تميل بالقطع إلى ترك أو مغادرة ذلك الملاذ الرملى.

وهذا يُحْتَمَّ علىّ، فى أفضل الأحوال، الترتيب لتشكيل أو تكوين قافلة مستقلة، إذا ما استطعت ذلك، بغية أن تنقلنى هذه القافلة إلى حفرة من حفر الماء الموجودة عند حافة الرمال (لم يكن هناك سوى ثلاث حفر فقط)، وثوقاً منى بقدرة الرشادة وبرغبتهم فى المجئ إلىّ ومواصلة الرحلة معى، لكن الخبرة المريحة التى اكتسبتها من رحلة العام السابق، كانت قد علمتنى حدود وقيود القوافل الجبلية من ناحية، وخوف الرجال على أنفسهم وإبلهم حتى فى حال عدم وجود حرب أو احتراب بين القبائل. حاول الحاكم المَنوب، الذى كاشفته بهذا الجزء فقط من مخطط، اللجوء إلى عملية المداهنة، لكن هذه الجبال لا تعرف شيئاً عن السلطة الملزمة، واستطعت أنا بدورى أن أعرف أن هناك عداءً خفياً، يجعل مسألة سيرى فى الصحراء مع حلفاء من هذا القبيل، يعد ضرباً من الخرق والجنون. وهنا خطر على بالى أن خططى الطموحة التى وضعتها بعناية، وحافظت على سريتها فى العام الماضى، ربما تكون قد باءت تماماً بالفشل.

هل من الأمن والسلامة، أن أفضى بسرى إلى هذين الرشيديين وأثق بهما؟ كان الأمل الوحيد أمامى هو الإيحاء إلى هذين الرجلين بأنى أثق بهما، وأكسب ولائهما، عن طريق إعطائهما الحافز الصحيح، بأن أخاطر وأعطيتهما رسالة إلى شيخ قبيلتهما، وأحفز شيخ القبيلة بنفسه على نقل قبيلته معه، وهنا وجدتى فى لحظة من لحظات اتخاذ القرارات الجريئة الشجاعة، عرضت على هذين الرجلين خططى بعد أن حلفا اليمين؛ وقلت لهما: إن هذه الخطط يجب ألا يعلم بها أى أحد غير الشيخ نفسه. ولوحت لهما أنه ستكون هناك مكافآت سخية - وتحالفنا وتعاهدنا فيما بيننا. وسوف يقومان بما تعاهدنا عليه. وقالوا: إن الله، عندما يخلصهما من السَّعارين وينجيهما منهم، فسوف يروحان يفتشان الرمال، وإذا ما عثرا على الرشادة، فهما يعرفان المهمة المطلوبة منهما، وأن المكافأة ستكون على قدر النتائج.

شاعت الروح البدوية الحقيقية فى الملاحظات التى أبدىها وهما يفارقاننا، ومن خلال هذه الملاحظات عرفنا المعدن الحقيقى لهذين الرجلين.

قلت منادياً: "عفواً يا خويتيم، ليس لديك بندقية. خذ هذه البندقية. إنها مجرد هدية صغيرة أعطيك إياها".

ورد على خويتيم وهو يتناول البندقية ويفحصها فحصاً دقيقاً، "أقول: ألن تعطينى معها بعضاً من الذخيرة" هل هذا هو جحود البدو، أم عفويته؟ البدوى يعزو ما يصيبه من وفرة أو نعمة إلى الله !.

تأخر رحيل الرجلين إلى ما بعد صلاة الظهر فى المسجد. أما أنا، فقد كنت اقترحت عليهما أن يرحلا على الفور، نظراً لإحساسى بأن الوقت كان قصيراً ولا يحتمل التعطيل. لكنهما رفضا هذا الاقتراح.

رد على خويتيم متسائلاً: "ألستا مسلمين".

انصرف الرجلان سيراً على الأقدام، قاصدين الجبال، حيث استطاعا الاتفاق سراً مع زميل سفر قديم كانا يعرفانه، ويدعى سليم التميم، على أن يزودهما بأحسن ما لديه من إبل الركوب، وعليه ودون أن يعلم أحد بذلك، اختفى الرجلان فى الصحراء التى ضربها الجفاف.

لم يعرف هذان الرجلان موعد عودتهما. قد يكون ذلك فى غضون ثلاثين أو أربعين يوماً، وربما لا يعودان على الإطلاق.

إذا ما استطاعا العودة من الرمال ومعهما مجموعة من الرجال فهذا خير وبركة؛ وإذا لم يعودا، فلا بد لى من التسليم بالفشل.

كنت أعلق على هذا الخيط الرفيع الأمل المرتقب فى بداية القيام بالرحلة التى كانت تراودنى منذ زمن بعيد.

كان لابد من الرضى بالأمر الواقع، والانتظار أسابيع طويلة اعتماداً على آمال واهية.

الفصل الثانى

فى ظُفَار: الفوضى، الخيانة، وكرم الضيافة

كان شاطئ البحر أسفل نافذتى فى القلعة، والذى تنتشر عليه أشجار جوز الهند، ينحدر ناحية البحر. وكان فى المرسى دهو، وإن شئت فقل ذلك المركب الشراعى المألوف فى جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، قد وصل لتوّه قادماً من البصرة وعليه حمل من تمر هذا الموسم، يُلَوَّحُ بأعلامه القماشية الملونة من ناحية وإطلاق الدانات من مدفعه الهاون، مدلاً بذلك على أنه ليس غريباً على ظُفَار.

تمتد مديرية ظفار على شاطئ البحر فى هذه المنطقة من حضرموت إلى ضُرَبَات على. وهذه المديرية مكونة من كتلة يصل ارتفاعها قرابة ٣٠٠٠ قدم تهبط هبوطاً متدرجاً نحو البحر فى الناحيتين: الشرقية والغربية، ثم يتراجع هذا الانحدار فى الوسط مطوّقاً السهل البحرى هلالى الشكل فى جوربيب وظفار، طبقاً للمعايير العربية، وهى تعد واحدة من المديريات الحظيظة بالعناية الإلهية. وهى مدينة لذلك المناخ الفريد، العامر بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية الهندية، التى تشكل هنا مطلباً أولياً وضرورياً، لأنها ينتج عنها تساقط زخات المطر على هذه الجبال فى فصل الصيف، الأمر الذى يجعل هذه المديرية أو الإقليم يفيض حليباً وعسلاً. وفوق هذا الانقسام الجبلى مباشرة توجد وتزدهر بيارات البخور فى الجزيرة العربية. هذا المنتج الثمين إذا ما أرسل إلى معابد الهند يعود على ظفار^(١) بالأرز، والقماش، والبن، والتوابل التى تذهب إلى أصحاب بيارات البخور

(١) الكلمة ظفار، نفسها لها أيضا بعض التطبيقات المحدودة، وهى فى بعض الأحيان تمثل عاصمة المديرية فقط، أى مجموعة من ثلاث قرى هى: صلالة، حافة، والحُسن، وهذه تتفق بصورة أو أخرى مع عادة بدو الرمال عندما يطلقون اسم الحسا (الإحساء) على الهفوف، وعندما يطلقون اسم الدوحة على قطر.

(العود)، ويعد هذا المنتج، من قديم الأزل، سبباً من أسباب رواج ظفار وازدهارها؛ وهنا يجب عدم الخلط بين ظفار هذه، وظفار الأربة الموجودة على مقربة من مدينة صنعاء فى اليمن، وبذلك نكون قد تحاشينا الخلط الذى وقع فيه الرحالة أبو الفدا. القبيلتان المستقرتان من قبائل هذه المديرية هما: قبيلة قارة فى الجبال، والتي تعيش على تربية قطعان الأغنام والماشية من ناحية وعلى عائدات البخور من الناحية الأخرى؛ أما القبيلة الثانية فهي قبيلة الكثير أو الكثرين، التي تعيش من عملية صيد الأسماك، والزراعة وعلى التجارة من القرى إلى السهل. وفى شهور المطر الصيفى وعندما تكون البحار عاصفة على نحو يصعب معه استعمال الأطواف المحلية، تحدث هجرة عامة^(١) من السهول إلى الجبال، حيث تكون بيارات البخور بحاجة إلى الحصادين من ناحية، والحليب وقيراً من الناحية الأخرى.

ماء الأبيار وفير فى هذه المنطقة وعادة ما يكون على عمق قامة أو ستة أقدام حول القرى، ولولا يد القبيلة العاصية التي تصيب كل ما تمتد إليه بالشلل، لكانت الأبيار الارتوازية قد حوّلت السهل بكامله إلى أرض زاهرة. وتُستعمل مياه الأبيار الموجودة تحت بيارات نخيل جوز الهند، والتي يقوم على استخراجها العبيد، والثيران أو الإبل لاستعمالها فى رى حقول العلف، قصب السكر، ونباتات الحَمَلِ وهى من النباتات الضارة، والقمح والسرغم، القطن ونبات النيلة. ويدفع المزارعون للحكومة $\frac{1}{11}$ من قيمة هذه المحاصيل وإذا لم يتيسّر الحصول على هذه المحاصيل، فإن بيت المال أو خزانة الدولة تتقاضى قيمة إسمية مقدارها ٥ فى المائة فقط، على اعتبار أن ذلك هو حصة خزانة الدولة من إنتاج الجبال. وفى هذه المنطقة نجد أن السائد هو "القاعدة الذهبية القديمة" الخُطة البسيطة، التي مفادها أن من لديه القوة هو الذى يجب أن يأخذ، وأن القادر هو الذى يتعين عليه الاحتفاظ بما لديه، وإذا كانت سلطة السلطان مفروضة على الساحل بكامله، فإن هذه السلطة فى الجبال متباينة وتدور من حولها الشكوك.

(١) هذه الحركة لها شبيه أو موازٍ فى حركتين أخريين للإنسان فى جنوب شرق الجزيرة العربية - أى الهجرة إلى البساتين لجمع محصول التمر فى عمان، والهجرة الثانية إلى ساحل المهادة حيث توجد مصايد اللؤلؤ فى فصل الصيف.

ظفار من الناحية العرفية ومن الناحية الجغرافية تعد أرضاً مسدودة المسالك. والموروث القبلى فى هذه المديرية موروث عامر بالفوضى - وهو عبارة عن صراع مُهْلِك طويل الأزل، يتحول فى بعض الأحيان إلى حكم مشئت لفترات قصيرة. ولا نجد للتاريخ المُدَوَّن أثراً بين المواطنين، وذلك على الرغم من مُقاساتى الأمرين وأنا أحاول استقصاء ذلك من بعض المواطنين المتعلمين. لكن الأمية هى الشكل الأعم هنا، وليس هناك من يستطيع أن يروى تاريخ ظفار بطريقة مترابطة، سوى القاضى العجوز وحده، وحتى عندما يفعل هو ذلك، تكون روايته مفككة وغير مترابطة. والبشر فى هذه المنطقة، وهم عبارة عن قبائل متحاربة ومتنافسة، يرون أن القانون والنظام أمران شاقان وثقيلان عليهم. هذا يعنى أن هؤلاء البشر يحبون الحرية الشخصية غير المُقيَّدة أكثر من حبهم للحياة نفسها، وأكثر أيضاً من حبهم للعظمة فى حروبهم الوراثة الأزلية. يضاف إلى ذلك أن مسألة قبولهم للسلطة الغربية عليهم فى الماضى، كانت تجرى باستعمال القوة لإجبارهم على الانصياع لهذه السلطة، وكانوا أيضاً يرضخون لمثل هذه السلطة بعد فترات الإجهاد واستنفاد القوى، وذلك من باب أن الدروس المستفادة من جيل من الأجيال يجب أن يتعلمها الجيل الذى يأتى بعده، هذا يعنى أن الأسر الملكية لم تستطع أى منها تحصين نفسها.

معالم ظفار التاريخية قليلة. وتبدأ هذه المعالم بحكم محمد بن أحمد المنجوى، فى فترة ما بعد دخول الإسلام إلى هذه المنطقة، والذى تقع أنقاض عاصمته على بحيرة خور الرورى^(١).

والاسم منجوى، قديم، وكثير التردد على ألسنة الناس هنا، أكثر من أى اسم آخر، هذا بالإضافة إلى أن الناس هنا يعزون كل الانقراض القديمة إلى ذلك الاسم "منجوى".

(١) تحتل الأنقاض الموجودة حول خور الرورى - هى حسن مرحاض ومدخل الكلطان (خاتيه) - الموقع المحتمل لقلعة موسكا البريلوسى وإن شئت فقل (أسبابولس البطلمية على حد ما ذكر عند بنت Bent). الجغرافيون العرب يرون أن مرياط هى موقع المرفأ البحرى القديم وعاصمة ظفار، والتى استمرت إلى القرن العاشر الميلادى. ومرياط الحديثة تقع على بعد قرابة عشرين ميلاً فى اتجاه الشرق، من مرياط التى كانت فى هذا المكان. ومرياط من لغة قبيلة الشهارين معناها السيك Sik، ويبدو أنها تحتفظ بخصائص الاسم القديم موسكا.

جاء فى العام ١٢٧٩ الميلادى سالىم بن إدريس الحببى بعد محمد بن أحمد المنجوى، جاء الرجل إلى ظفار بفعل الجفاف الذى ضرب موطنه حضرموت؛ وكان فى بداية الأمر طامعاً فى مُلك غيره ثم قام بعد ذلك بغزو ظفار والاستيلاء عليها، وفى القرن السادس عشر جاء سيف الإسلام الغسان، وهو وريث صفانى، اتخذ من قلعة باليد قصراً له، والذى يعد فى أيامنا هذه أكبر الأنقاض الموجودة فى سهل ظفار. وبعث الكثيرى سيد الأرض لينهى مائة عام من الفوضى القبلية، وبعث بعد الكثيرى عصر لا يحمل اسماً، ويستمر على امتداد القرن الثامن عشر بكامله. ويقوم بعد ذلك سيد مستقل، من نسل النبى (ﷺ) برفع لوائه وبيرقه فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ويستمر حكمه طيلة خمسة وعشرين عاماً إلى أن قامت قبيلة القارة وإن شئت فقل القراوين، باغتياله، وبعد ذلك بخمسين عاماً، أى فى قرابة العام ١٨٨٠ الميلادى، تغير المشهد بفضل رجل يدعى فضل بن عليوى الحضرمى، الذى راح يطالب بأخذ السلطة من الحكومة العثمانية، لكن الرجل لم يتمكن من تعزيز نفسه وقوته ولذلك جرى طرده من البلاد.

وهنا تحول أهل ظفار ناحية البيت الحاكم فى مسقط مطالبين إياه بالاستيلاء على بلادهم. وعلى الرغم من أن ذلك لم يتجاوز الخمسين عاماً بكثير، فإن النفوذ السعيدى، وصل وذاع إلى أن أصبح بالشكل الذى هو عليه الآن، وإذا كانت السلطة تمارس بسهولة ويسر فى سائر أنحاء السلطنة، فإن السلطة فى ظفار يقبلها أهلها ويرحبون بها عن رضا وطيب خاطر. ومع ذلك فإن هذا الرضا وطيب خاطر ناتجان عن قرابة الدم. وقصة هذا الرضا وطيب خاطر تستحق السرد هنا، لا من قبيل السرد التاريخى التأهيلي، وإنما لإلقاء الضوء على سيكولوجية الحكام القبليين والمحكومين القبليين أيضاً فى هذه المواضع النائية من الجزيرة العربية.

كان سيد تركى بن سعيد، جد السلطان الحالى، حاكماً على مسقط عندما تحول إليه أهل ظفار طلباً للحماية. فى ذلك الوقت كان لدى تركى عبد، يدعى سليمان بن سويلم، وكان ذلك العبد محل ثقة تركى الكاملة؛ ولذلك أعتقه ورفعته إلى منصب المستشار، وجعله قائداً عاماً لقواته. ولم يكن ذلك ببيعيد على أو مستحيل على مصير أى عبد من العبيد فى الجزيرة العربية. كان سليمان

صاحب نفوذ كبير بين القبائل العمانية بسبب خصاله وسماته الشخصية. كما كان من النوع الجرى الذى لا يعرف الخوف، حازماً وقوياً. وإذا ما دعا الداعى، وبدأ استخفاف الظفاريين بالقانون، يصبح سليمان هو الرجل الجدير بإعادة ترسيخ نفوذ مسقط من جديد، مع شىء من الدعم القليل من جانب مسقط لهذا السليمان. وعليه، جاء سليمان بمثابة الرجل الذى أوفده السلطان إلى ظفار ليكون أول والٍ عليها (أو حاكمها المُنوب).

قال الراوى الذى يرافقنى، متسائلاً: ألم يُعْتَدِ الحاكم على مخاطبة ومناداة عبده بقوله أبانا (والدنا)؟ هذا الراوى جندى على المعاش، جاء إلى ظفار منذ زمن بعيد، بصحبة جيش الاحتلال الرئيس، وبقي فى ظفار منذ ذلك التاريخ. اسم هذا الراوى هو عبود بن عيسى، وهو نجدى، ومحارب قديم جيد، له عينان عسلتان، وصاحب لغد كبير، وأذنان كبيرتان تفيدان أنه ليس من أهل جنوب الجزيرة. وعبود هذا، شأنه شأن الكثيرين من أمثاله، يعرفه العمانيون على أنه من أهل الغرب؛ وقد هجر الرجل موطنه عندما كان صبياً صغيراً وجاء للعمل فى جيش حاكم مسقط، بسبب افتتانه بالأجر الذى كان يتقاضاه - والذى كان يقدر بثلاثة دولارات لكل بدوى من بدو الجزء الداخلى من الجزيرة العربية، ويُعدُّ مكافأة مجزية. كان ذلك الجيش المكون من المرتزقة، بمثابة العمود الفقرى فى قوة حاكم بلده عامر بالمتنافسين على العرش؛ لم يكن عبود من سلالة تجيد الحرب والقتال فقط، وإنما كان موالياً ولأء شديداً نظراً لعدم تأثره بالولاءات المحلية.

جاء بصباحة الوالى سليمان ثمانية عشر من هؤلاء النجديين، لاحتلال ظفار. كانت تلك قوة صغيرة، لكنها مكَّنت من إحداث البداية، وقبل وصول الحامية العُمانية المكونة من مائة عسكرى، كان سليمان قد شرع فى بناء سجن على شكل قلعة فى صلالة، وعلى الطريقة العمانية، واستخدم لذلك أيدي عاملة من بين العبيد ومن بين الضعاف^(١).

(١) ضعاف، ظفار فيها منظومة طبقية تقل عن طبقة النبلاء المكونة من رجال القبائل، وعليه نجد أن هناك طبقة يطلقون عليها اسم البهرة، وطبقة أخرى يطلقون عليها اسم الضعاف فضلاً عن طبقة العبيد. الضعاف (تساوى الكلمة الإنجليزية weak من الناحية الحرفية) على الرغم من اتفاق هذه التسمية مع "مياسرة" عُمان وهم أعلى درجة من البهرة، من منطلق أن نساءهم لا يظهرن للملا. يضاف إلى ذلك أن البهرة والعبيد هم الذين يقومون بعملية الصيد.

لكن حيوية الأعمال التي كان الرجل يقوم بها، هي وتحصيل الضرائب الذي أُسند إليه، لم تحظ برضاء القبائل، وسرعان ما تعالت همهمات وغمغمات الاستياء التي جاءت من قبيلة القراوين. لو كان سليمان واحداً من خائري العزم لخاف وأصابه الرعب جراء هذه الهمهمات والغمغمات. لم ينحرف سليمان عن الخط الذي سار فيه ولو قيد أنملة؛ وكانت أعماله لا تعرف أى شكل من أشكال الاعتدال، لأنه كان يتصرف بطريقة عرفية مستبدة. وهنا وجد سليمان نفسه وجهاً لوجه أمام التحدي. فقد جرى نصب كمين لواحد من جنوده في حمران وأسفر ذلك عن مقتل ذلك الجندي، كان ذلك الكمين عبارة عن شُرْك جرى وضعه لهذا الجندي على الماء. لكن سليمان لم يجرؤ على وضع فنخور، شيخ قوى لفخذ من قبيلة القراوين، في السجن والذي تورط فحذه في مقتل الجندي، على الرغم من أنه كان مجبراً على تحمل هذه الإهانة. ودارت معركة في طاقة، جرى خلالها قيام عناصر من قبيلة الكثارين، بمساندة العسكريين الحكوميين، لكن هذه المعركة لم تسفر عن أية خسائر في الجانبين - وهذا الأمر ليس بغريب على أمور العمليات الحربية العربية التي يجرى خلالها تبادل إطلاق النار من مسافات بعيدة. لكن هذه المعركة أسفرت عن إحساس بالارتياح، الأمر الذي جعل الجانبين ينخرطان في عملية سلمية مشرقة لكل منهما. كان المكان لصالح سليمان، ومع أداء يمين الطاعة والولاء قدمت قبيلة القراوين هدية عبارة عن مائة رأس من الماشية.

وفى ظل عدم وجود القوة اللازمة التي تجعله يحكم حكماً عادلاً، واصل سليمان اللجوء إلى الأساليب الإرهابية التي كانت تناسب شخصيته على نحو أفضل، ولم يمض وقت طويل على لجوء قبيلة القراوين مرة ثانية إلى مسار الحرب. وبعد أن اجتراً أحد رجال القبائل على الغزو (يعد الخوف من الغزو القادم من الجبال هاجساً يومياً يراود سكان السهل بصفة يومية إلى يومنا هذا)، وهنا قام سليمان بفرض عقاب مشهود على ذلك الرجل. لم يكن ذلك العقاب متوافقاً مع الذهنية القبلية، التي استشاطت غيظاً وتأججت، الأمر الذي لم يكسر حدته سوى القيام بمحاصرة الجبال^(١) -

(١) اقتصر الحصار فقط على نقل السردين، والسُر وراء نجاح هذا السلاح يكمن في الحقيقة التي مفادها أن ثروة الجبال تعتمد على الماشية بشكل أساسي، وفي بعض مواسم الجفاف أثناء العام، هنا في ظفار، كما هو الحال في عُمان يصبح السردين هو العلف الأساسي للماشية.

تلك الخطوة الجسورة الجريئة التى جعلت قبيلة القراوين تركع خاضعة.

فاض كأس الغضب القبلى من سليمان، لكن الكأس لم تطفح إلا بعد أن قام سليمان بإجازة إلى عُمان، ومعه كل الأسباب التى تجعله راضياً تماماً عن الإنجازات التى قام بها طوال سنوات ثلاث، ونصَّب سليمان ولديه على ومسعد ليحلا محله فى حكم هذه البلاد، وهنا وجد آل كثير الذين استطاع سليمان بفضل مساندتهم له، التعامل مع منافسيهم القدامى من قبيلة القراوين، إن الفرصة قد سنحت لهم أثناء غياب سليمان، وبخاصة أن مخازن القلعة كانت عامرة بخراج العشور والرسوم الجمركية الأخرى- الزيد، الأرز، والتمر. وهنا تحركت فى آل كثير مؤامرة، افتعلت فيها جماعة من الكثرين تقديم التماس ضد جماعة أخرى من القبيلة نفسها، وأثناء نظر القضية جرى استدعاء المزيد من الشهود إلى أن امتلأت المدينة بجيش كبير من الكثرين وهذا هو ما حدث بالفعل. لو جاء الكثريون بغير هذه الطريقة لآثار مجيئهم الشك فى نفس ولدَى سليمان. والذى حدث هو أن القوات الحكومية كانت مبعثرة فى مهامها اليومية فى سائر أنحاء السهل. فى ذلك الصباح، شأنه شأن الصباحات الأخرى، كان الحاكم الشابان جالسين عند بوابة القلعة فى جلسة الاستقبال الصباحى. وكانت فناجيل القهوة توزع على جميع الحاضرين من رجال قبيلة الكثرين. وجاءت اللحظة المناسبة. خيانة قصوى!

وبناء على إشارة صدرت عن زعيم البدو قفز البدو وراحوا يهاجمون مضيفيهم، وهم يحملون سيوفهم فى أيديهم. وجرى اغتيال ولدَى سليمان: على ومسعد ومعهما جنودهما، وقُتلوا تفتيلاً بلا رحمة أو هوادة، واندفع البدو إلى المخازن ونهبوا ما فيها وقاموا بعد ذلك بهدم القلعة الحكومية الجديدة.

ولم يتبقَّ من حكومة مسقط فى ظفار سوى شخص واحد يدعى بخيت بن نوبى، ومعه أربعون جندياً كانوا قد هربوا جميعاً إلى مرياط وطلبوا من بعض رجال قبيلة القراوين حمايتهم بوصفهم أصدقاء لهم. كان بخيت عبداً زنجياً، وكان هو الآخر شخصية. كان بخيت عبداً لسليمان وذلك لأن العبد يمكن له أن يتملك عبداً آخر أو ممتلكات، على الرغم من أنه لا يكون له توريث أو الوصية،

لأن العبد عندما يُتوفَّى تتول كل ممتلكاته وممتلكاته إلى سيده. وكان يتعين مرور أربعة أشهر، قبل أن تصل أنباء ما حدث إلى مسقط، نظراً لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية قطعت الاتصال مع عُمان، وعندها يمكن إرسال التعزيزات. وآلى بخيت على نفسه التصرف لوحده، ولا بد أن أعمال بخيت كانت تتسم بالحكمة والشجاعة، والسبب في ذلك أنه مع مرور الأيام واقترب ساعة الانتقام، استطاع بخيت إقناع المتمردين أن مساندتهم له هي أأمن من الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى سلامتهم ونجاتهم.

كانت الأحداث قد حتمت بقاء سليمان في عُمان، إلى حد أنه عندما جاء بعد ذلك إلى ظفار، كان في زيارة قصيرة لمناقشة الترتيبات المستقبلية. قام أحد رجال الحرب البريطانيين بجلب سفير من سفراء السلطان، وتقرر معاقبة القبائل المخطئة، وتحقير مشايخ هذه القبائل وإهانتهم؛ كانت مسألة رد الحق إلى صاحبه الأصلية قد فات أوانها اللهم باستثناء مدخل القلعة القديمة، الذي أعيد ليزين القلعة الحكومية الأكبر والأقوى التي تقرر بناؤها في موقع القلعة السابقة التي جرى هدمها بواسطة الكثارين؛ ولا يزال هذا المدخل موجوداً إلى يومنا هذا. وجرى تنصيب بخيت حاكماً على ظفار. وكان سيده القديم سليمان (الذي جرى اغتياله بيدى واحد من القتلة الموجودين في عُمان، بعد ذلك بفترة قصيرة) قد ترك معه الرسالة التالية: "إذا سمعت بأن بيت كثير اختاروا شيخاً من بينهم وأن الشيخ قد بقى على قيد الحياة، فسوف أقطع رأسك أنت". لم يخيب بخيت ظن سيده. وطوال حكم بخيت الذي استمر سبع سنوات كان رؤساء العصابات العشرة، الذين كانوا سبباً في القلاقل والمتاعب، قد جرى الإجهاز عليهم والتخلص منهم بأيدي عبيد أرسلوا لتحقيق هذا المهمة بصفة خاصة، صحيح أن هؤلاء المشايخ، قد مُنحوا عفواً عاماً عن طريق مبعوث من مسقط، لكن هذا العفو لم يؤثر على ضمير أى منهم، والسبب في ذلك أن الخيانة عندما تصبح عادة من عادات الذهن والعقل، فإن الضروريات المشددة هي التي تحرك البشر، وعندها تغيب مبادئ الأخلاق.

تعد الفوضى وعدم الاستقرار الملمح الرئيس لأى نظام من أنظمة الحكم القبلية في الجزيرة العربية. وهذه الفوضى وعدم الاستقرار شيء متأصل في

العبقرية العربية، وهى تنبع من الدور الراجح الذى تلعبه الشخصيات من ناحية، وعدم الأهمية النسبية للألة الحكومية من ناحية أخرى. وحيثما كانت الشخصية القوية من الحكومة أو ميّالة إلى الحكومة فإن الأمور ستكون على ما يرام. وعليه، عندما استُبدل حكم بخيت بحكم عبد الله بن سليمان، ذلك الرجل ضعيف الشخصية، تدهور نفوذ الحكومة وتوقفت القبائل عن دفع الرسوم القانونية. وراحت القبائل تحتقر الوالى الجديد بسبب ضعفه وعلى نحو أكثر من إعجابها به بسبب إحسانه، إلا أن الرجل عندما توفى لم يحزن عليه أحد من الرجال الأجواد، كما خُلف وراءه - التركية العجيبة الحالية - لمن جاء بعده الذى أحلُّ أنا ضيفاً عليه فى الوقت الحالى، مهمة إعادة تأسيس السلطة بعد أن أصابها الوهن الشديد.

بينما كنت واقفاً عند تلك الحصون القديمة أستعيد مشاهدها فى خيالى، جاءوا إلى من الأسطبلات الملكية بالخيول التى ستنقلنى إلى المدخل الموجود فى الأسفل - وهذه الخيول هى الفريدة فى نوعها فى إطار الأميال الثلاثمائة التى تحيط بنا فى هذه المنطقة. هذه الخيول جرى انتقاؤها من بين اثنى عشر حصاناً تقريباً كان السلطان يجلبها من حين لآخر، نظراً لارتباطه الشديد بظفار، وصيد غزالها والتصقير فى جبالها؛ وطوال مدة خدمتى وجدت هذا الرجل يمضى فترة الصيف أكثر من مرة فى هذا المكان.

وأنا اليوم أركب دابتي متجهاً وقاصداً صلالة لزيارة سعد بن عبد العزيز، أغنى التجار الموجودين فى هذه المدينة، وهو من سلالة مبهمه وغير معروفة، وهذا هو دوماً حال الأمراء العرب الذين يعملون فى التجارة. كان طريق سيرنا يقع خلف السوق الصغيرة جداً الموجودة خارج المدخل المؤدى إلى المدينة، ويمر خلال بياره عميقة من بيارات أشجار جوز الهند (فى ظفار نجد أن بيارات أشجار نخيل جوز الهند تحل محل بيارات نخيل التمر الموجودة فى أماكن أخرى من الجزيرة العربية) ويمتد بعد ذلك عبر حقول القطن والنيلة، ليصل إلى ذلك الشريط من السهل المواجه لبلدة صلالة.. واقع الأمر أن ابيضاض المنازل العالية متعددة الطوابق الذى يخطف الأبصار، يبعث على الاحترام، وبخاصة أن الأحجار المستعملة فى بناء هذه المنازل جرى اقتطاعها من السهل المقامة فيه هذه المنازل

- وإن كانت زينيات^(١) هذه المنازل تضى عليها مظهر احترام العصر الذى بُنيت فيه والذى لا يتناسب مع قذارة واتساخ هذه المنازل من الداخل. كان منزل سعد يرتفع مثل القصر فى منتصف الطريق الممتد بطول واجهة البلدة؛ ولكننا حتى فى هذا المنزل وجدنا فناء عامراً بالذباب وتفوح منه رائحة غير طيبة بسبب الأبقار التى كانت مربوطة فى ذلك الفناء. كان هذا دَرَجًا (سُلَّم) شديد الضيق، يوصل إلى غرفة الضيوف الموجودة أعلى المنزل وهى غرفة كبيرة، فيها دعامة مركزية كبيرة من خشب السيج الملبارى، تحمل سقف الغرفة، التى تجرى تهويتها عن طريق نوافذ كثيرة غير مُزَجَّجة نظراً لأن الناس لا يعرفون شيئاً عن ألواح زجاج النوافذ^(٢). كان أثاث الغرفة قليلاً لكنه من النوع الفاخر. كانت كل قطعة من قطع هذا السجَّاد تسر خاطر، لكن كل القطع لم تكن منسجمة أو متناغمة بعضها مع البعض الآخر، كان فى الغرفة ما لا يقل عن عشر من المرايا كبيرة الحجم، موضوعة فى أطر مذهبة؛ كانت هذه المرايا تزين الجدران، كما لو كانت الغرفة بروفة فى محل خياط من الخياطين؛ كانت الفتحات الموجودة داخل الحوائط عامرة بالمباخر فضية اللون، ودلال القهوة، والطوب الملون بألوان صارخة. دخلنا غرفة الجلوس وجلسنا على شكل صف حول أركان الغرفة الأربعة، أما أنا فقد أُشير إلىَّ بالجلوس فى ركن يوجد فيه الكثير من المخادُّ غير اللينة مثل الكرات الطبية، لكنها تلذ للعين الشرقية بفعل شراشيبها ذات اللون الأحمر الفاقع أو اللون الزمردى. كان مضيفنا هو وأولاده وعبيده يقفون لتكريمنا بجوار مائدة أو طاولة حافلة بقوارير شراب اللوز، والشربات مختلف الألوان، وكثوس غاية فى الجمال. وكما هو الحال فى كل التجمعات الاجتماعية فى البلدان القبلية العربية،

(١) تعد الزينية التى يطلق عليها الناس هنا اسم الطباشير ملحقاً أساساً من ملامح المنازل والمساجد الكبيرة، وهذه الزينيات تكون على أركان السقف وعلي بعد مسافات متساوية على طول الأجناب - وتصميم هذه الزينيات يذكّرنا بالزينيات النبطية الموجودة فى مكان من بترا ومدائن صالح. وقيل أن هذه الزينيات موجودة أيضاً فى المكلا وفى شيهى وفى أماكن أخرى من حضرموت لكنى لم أر هذه الزينيات فى مسقط أو عمان.

(٢) يستعمل الناس بشكل عام فى ظفار نخلة جوز الهند فى عمل شيش النوافذ، وفى عوارض الأسقف، وخشب هذه النخلة جيد ويصلح لهذا الغرض، وذلك على العكس من خشب نخيل التمر المستعمل فى المبانى فى عُمان.

فإن المرأة لا تُرى أو يرد ذكرها على الألسنة. وقد جرت العادة، أن تقوم النساء ذوات الصفة الاجتماعية بستر وتخبة أنفسهن إلى أن يغادر الغريب منزلهن، وأى شكل غير مُحجب يُرى فى فناء المنزل لابد أن يكون لواحدة من العبدات اللائى فى المنزل.

كان سليم السيل جالساً بجوارى، وهو أيضاً تاجر يخشى الله ويخافه وهو مثل سليمان بين غيره من التجار، دفعه ضعفه الإنسانى إلى القول: إنه ينحدر من سلالة بيت غسان النبيلة، فى حين راح كل الحاضرين يتهامسون بأنه طفل لقيط من أصل شهارى وضيع، جرفه سيل الجبال الصيفى الجارف فى مياهه المتجهة صوب البحر^(١). كانت عينا سليم، البالغ من العمر ثمانين عاماً، تزدادان ضعفاً على ضعفهما، على الرغم من أنهما كانت ترمشان، عندما كان يسألنى فيما بينى وبينه عن عُقَّار إثارة الشهوة. وفى مرات أخرى، كما هو حاله الآن، كان يُبدى اهتماماً كبيراً بالجنس البشرى، سألنى "هل هناك أمم متحاربة، يا صاحب؟، ما الذى حدث للألمان؟" و"هل الإيطاليون أصدقاؤك؟".

يزاد على ذلك أن قرب ظفار من الصومال من ناحية ومن التأثير أو النفوذ الإيطالى فى اليمن، من ناحية أخرى هو الذى يُفسَّر الحقيقة التى مفادها أن الإيطاليين يحظون فى عقول البشر فى هذه المنطقة باهتمام كبير أكثر من الأوروبيين الآخرين، وأنا لم أسمع شيئاً سوى الثناء والكلام الطيب فى حق الإيطاليين وفى حق إدارتهم.

كان يجلس بجانبى شيخ من شيوخ الجبل، راح يضيف على الحوار والحديث طابع الإشراق.

"لماذا أنتم رجال كبار على هذا النحو، ونحن أصغر منكم كما ترى".

قلت: "ربما كان ذلك راجعاً إلى تربيتنا وهوائنا".

(١) فصول السنة الأربعة على النحو التالى:

الخريف : من يوليو إلى سبتمبر - شهور المطر.

السروب : من أكتوبر إلى ديسمبر.

الشتاء : من يناير إلى مارس.

القيظ : من أبريل إلى يونيه.

"لكن الله عليم، أننا أصغر حجماً من أجدادنا. لعلك تلقى نظرة على مقابرهم فى خور الريرى - يصل طول القبر الواحد إلى عشرين قدماً. لقد كانوا أصحاب أجسام ضخمة".

قلت له: "الله أعلم". وحرصت أثناء حديثي معه على تجنب الإساءة إلى المسائل والحساسيات الدينية، لأن شارحاً من شراح القرآن (الكريم) يقدر طول آدم (عليه السلام)، بقاربة ست وثلاثين قدماً، أما البطارقة الآخرين، (فأحجامهم متواضعة بالمقارنة فى رأى بعض الشراح والمفسرين). "أليست هذه رحمة من الله؟". سألتنى: "كيف تكون هذه رحمة من الله؟".

أجبتة: "صعب فى أيا من هذه إيجاد التغذية والغذاء اللازم للبطون التى من هذا القبيل" (وهنا أشرت بيدي إلى كرة خيالية من كرات القدم): "لو بقينا على هذا الحجم لكنا بحاجة إلى جوال من الأرز فى كل وجبة من الوجبات؛ لعلك تفكر جيداً هنا فى مسألة التكاليف".

سرت بين الجالسين ضحكة مكتومة، وأوضح صمت المتسائل أنه كان راضياً عن إنهاء الموضوع.

احضروا بحاراً يدعى خميس الأوقادى وقالوا لى: إنه زار بلادنا. (لم يكن لدى هذا المواطن أية فكرة عن اتجاه أوروبا وراح يشير إلى الشرق، فى اتجاه الهند، مفترضاً ومسئلاً أن ذلك هو وطن الرجل الإنجليزي). وعلى الرغم من أن خميس يعد رجلاً حراً، فإنه كان أباً لمولود عبد، ذلك إن الرجل كان قد تزوج من عبدة رجل آخر، وعليه وطبقاً للأعراف المحلية فإن الطفل ينتمى إلى مالك هذه العبدة. وأن الثلاثمائة دولار التى سبق دفعها للمرأة كانت بمثابة مهر طلب يدها فى الزواج، وليس مقابل عتقها، وإن المطلوب منه عندئذ هو دفع خمسمائة دولار أخرى ليد هذه العبدة، وذلك ثمناً لتحرير طفله^(١).

(١) اكتشفت إن هناك استثناء من هذه القاعدة الخاصة بذرية أو خلف الزوجة العبدة وأيلولة ذلك إلى مالك العبدة، وأن هذه القاعدة تطبق فقط فى البلاط السلطانى. إذا ما تزوج عبد من عبيد البلاط عبيد من عبيدات البلاط أيضاً فإن نسلهما يجرى تقاسمه، أسفر ذلك عن أن مالك العبدة لا يرضى بزواجها من عبد فى البلاط لأن ذلك لن يكون مريحاً لمالك العبدة، ومن هنا يتعذر على عبد البلاط العثور على عروس من خارج دائرة البلاط السلطانى.

تعد الفؤالة، تلك الوجبة الخفيفة، ملمحاً من ملامح أى زيارة من زيارات المجاملات، وقد قام واحد من العبيد بتقديم الفؤالة - التى هى عبارة عن صينية محملة بالأطباق الكبيرة التى تحتوى على لحم بقرى مشوى، ومعه مكرونة سباجتى مخلوطة بصلصة الطماطم، بالإضافة إلى شرائح من الأناناس، وقدمت القهوة بعد ذلك، ثم البخور بعد ذلك؛ لكن المبخرة هنا لا يجرى تقريبها من فتحتى الأنف لوضع ثوانٍ؛ والمبخرة هنا لا تنقل من شخص لآخر بواسطة عبد من العبيد كما هو الحال فى عُمان، وإنما تركت مستقلة إلى جواره. وفى أرض البخور الذى لا مثيل له فى الدنيا كلها، كان مُضيفى يميز نفسه عن طريق استعمال نوع مستورد من البخور، وهذا النوع المستورد أقل جودة ولا يضارع البخور الحضرى فى رأى أنا، لكن هذا النوع المستورد غالى الثمن هنا فى ظفار - هذا النوع المستورد يطلقون عليه اسم العود، وهو نوع من خشب الصندل الذى أعرف أنه يُستخدم بدلاً عن البخور فى الكنائس الأوربية. وهناك مثل عربى يقول: "بعد العود لا تقعد" ومعناه "لا تتلكأ بعد البخور". هذا يعنى أن تقديم البخور إشارة لا يمكن تجاهلها، وعليه بعد دقيقة أو اثنين من الصمت المهدب، يغفم الضيف قائلاً: "ترخوص" بمعنى (بعد إذنكم) ثم يهم بالانصراف.

قال مُضيفى من باب المجاملة من ناحية وإنهاء الحديث من ناحية أخرى: "ليت مقامك يطول معنا".

قلت: "نعم، أنا فعلاً فى إجازة مدتها شهران. لقد وافق الشيخ حسن على اصطحابى معه إلى جباله فى رحلة صيد فى الأسبوع القادم؛ لقد وعدنى بفهد أسود ووعلى".

بعد أن صحوت مباشرة فى اليوم التالى قمت بتجهيز أجهزة ضبط الوقت (كرونومترات)، وعندها سمعت دق الطبول وأصواتاً نسائية، الأمر الذى استرعى انتباهى. وسرعان ما رأيت فى فناء السجن الموجود فى الأسفل قرابة عشرين عبدة زُنجية، يرقصن رقصة خليعة، ورؤسهن شبيهة برؤوس مجموعة من الأفاعى، إذ كانت كل واحدة منهن تحمل فوق رأسها جرة مملوءة بالماء. هذه هى جوقة الاستحمام، وهذا تقليد ثابت يتكرر عندما يكون السلطان أو أنا فى هذا المكان، فضلاً عن أن خزان الحمام يتعين ملؤه بالماء كل يوم. وعندما اصططفن

أمام المدخل المؤدى إلى غرفتي توقف عن الغناء؛ وهنا بادرت واحدة منهن وهى واثقة تماماً من شبابها وجريئة إلى أبعد الحدود بأن غمرت لى بعينها، لأنهن يعلمن أنهن فى عالمهن فى ظفار لا يمكن أن يَكُنَّ أى شئ آخر غير ذلك الذى هن عليه. وعندما بدأ الانصراف كانت الواحدة بعد الأخرى منهن تتحنن لى إجلالاً وتكريماً. وهنا انبرت من بينهن عبدة عجوز وراحت تتسكع وتساءل عن أشقاء وأزواج فى بلاط مسقط، وما إن كنت أحمل منهم بعض الرسائل؟ وسرعان ما حوَّلت الحديث إلى مسألة الأجر المعتادة، والحق أقول أن هذه المرأة خير ممثل للجمال الأسود الذى لا يُنازع. وانقسمت الفتيات إلى مجموعتين كل واحدة منهما مشغولة بمسألة "البقشيش".

صاحت واحدة منهن : "هل عرفت عددنا يا سيادة الوزير؟ نحن هنا أربعة وعشرين" وأربع أخريات فى الأسفل، قالت أخرى (وهذا من قبيل الكذب):

"أحصِ عددنا يا سيادة الوزير! مرَّ خادمك محمد يقوم بإحصاء عددنا".

وَعَدَّتْهُنَّ وأنا أبتسم بسلة من التمر وبعض الدولارات أعطيتهن إياها فى الصباح، وجاء ردهن على شكل اصطفا فهن فى فنائى العلوى وهن يقلن: "نحن نأتى إلى هنا لجمع المكسرات فى شهر مايو" وبدأن ينزلن الدَّرَجَ (السلم) بعد رقصة من الرقصات الصاخبة المعريدة، على نغمات الطبول والغناء وبعد ذلك رحت أتمتع بالحمَّام الذى قمن بتجهيزه على أنغام أصواتهن، التى أخذت تخبو شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت.

الفصل الثالث

قياس الجمجمة ورقصة الشيطان

"من أى عرب أنت؟" هذا هو السؤال الذى طرحه علىّ فى الصحراء، أولئك المواطنون الذين يعرفون ويعون أنى من عرق مختلف عن أعراقهم، ذلك أن البشر هنا يستعملون الكلمة "عربى" بمعنى "بشر" من غير الجنس الذى ينتمون إليه.

لكن هل العرب أنفسهم متأكدون من أنهم ينتمون إلى عرق واحد؟ وهذا هو الباحث جلاسر Glaser ومعه بيرتون الرحالة لا يعترفان بذلك أو يُقرّأنه. جلاسر، على سبيل المثال، يرى أن عرب جنوب الجزيرة العربية حاميون وليسوا ساميين. أما بيرتون Burton فيقول إنه عثر على ثلاثة أدلة تثبت وجود ثلاثة أعراق متباينة. وفى كل الأحوال، نجد أن توقع بيرتون الذى يفيد بوجود اختلافات فسيولوجية تكفى لتأكيد تساؤلنا عن وجود أصل مشترك للأسرة العربية، يعد توقعاً سليماً. وأنا بدورى اكتشفت الكثير من هذه الاختلافات فى هذه المنطقة الرئيسية فى جنوب الجزيرة العربية:

وهذه الفروق ليست فروقاً فسيولوجية فحسب وإنما هى أيضاً فروق ثقافية وفروق لغوية أيضاً؛ وهذه الفروق فى مجملها تشكل تحدياً خطيراً لمفهوم الكيان العرقى الواحد فى شبه الجزيرة العربية كلها.

وأنا بدورى، جئت إلى هذه المنطقة بعد أن تزودت بمعايير ومقاسات الرأس كيما أتمكن من تسجيل مقاسات الجمجمة^(١). يزداد على ذلك أن الملاحظات

(١) تكرم علىّ السير آرثر كيث وساهم معى بالملحق رقم ١ الذى يحتوى على أبحاث هذا الرجل على المعطيات التى قدمتها له.

البصرية التي يقف عليها الأجنبي الذي عاش سنوات في الجزيرة العربية، تعد أموراً مهمة أيضاً، نظراً لأن ذهن وعقل مثل هذا الأجنبي ينطبع، دون أن يعي هو ذلك، بالسمات والخصائص الجسمانية للمواطنين، الأمر الذي يجعله واعياً تماماً بالانحرافات والاختلافات العرقية التي يمكن أن تصادفه. وهذا هو ما حدث لي أنا شخصياً، إذ أقمت بصورة مستمرة في الجزيرة العربية في الفترة بدءاً من العام ١٩١٥ فصاعداً، وكنت أشغل مناصب جعلتني على اتصال وثيق ومباشر مع عرب بلاد الرافدين، شرق الأردن، وكذلك عرب الخليج الفارسي، الأمر الذي جعلني متأثر بمواطني الجزء الرئيس من جنوب الجزيرة العربية - أقصد "كتلة" ظفار، كما وُلد ذلك عندي إحساساً مفاده أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذه الأعراق. وهذا هو اللواء ميتلند Maitland المقيم السياسي في عدن، كان لديه انطباع مثل انطباعي أنا، وعلى النحو التالي:

"أهل الجزيرة العربية ينتمون إلى عرقين متميزين ومختلفين اختلافاً تاماً. والفكرة العامة والشائعة عن العرق العربي.. الرجل فارغ الطول، الملتحي، صاحب الوجه الشبيه بوجه الصقر. عرب جنوب الجزيرة العربية أقل طولاً، وبشرة أذكُن وملامح أكثر خشونة ويكادون لا يكونون ملتحين. وتتفق كل المصادر على أن عرب جنوب الجزيرة العربية مرتبطون بعلاقة مع الأجناس. والغريب بحق إن العرق المصري - الأفريقي هو الذي يشكل العرب الخُلص، في حين نجد أن عرب الشمال الساميين هم عرب مُستعربون.. أي عرب بالتبني والإقامة أكثر منهم عرب سلالة ونسب".

الباحثون العرب أنفسهم لديهم موروث يفيد أن عرقهم مُستقًى من سلالتين أو جدين: قحطان وعدنان، لكن القبائل المنتشرة في شبه جزيرة العرب في أيامنا هذه، التي تزعم أنها منحدره عن هذا أو ذاك السلف، هي نفسها من أصول عرقية واضحة؛ ومن ناحية أخرى، نجد أن الفروق التي لاحظها كل من بيرتون، ميتلند وجلاس، والتي لاحظها أيضاً من جيلنا، الباحث راثجنز Rathjens تعد أموراً شديدة الوضوح، كما أن القبائل التي تتجلى فيها هذه الفروق والاختلافات لا تدخل ضمن التحديد القحطاني - العدناني.

زد على ذلك، أن الأوروبيين الذين أتيت على ذكرهم هنا لم يتعرف أحد منهم مجموعة قبائل ظفار التي التقيتها وصادفتها أنا، والتي فيها الكثير من الدلائل الأنثروبولوجية والدلائل اللغوية التي تجعلنا نقطع باستقلالها العرقى، أو اختلافها العرقى فى أضعف الأحوال.

تعد نقوش وأنقاض مدن الجنوب الغربى من الجزيرة العربية شهوداً على حضارتين قديمتين: الحضارة المنيائية والحضارة السبئية. اللتان تحللتا قبل ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى. ونحن نعرف أيضاً أن غزوين باكرين أحدهما حبشى والآخر روماني، وقعا فى هذه المنطقة ونعرف أيضاً أنه كانت هناك مستوطنات يونانية ومستوطنات آرامية فى هذه المنطقة. تُرى، من يكون هؤلاء البشر الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة العربية؟ إذا كان حل هذه المشكلة مرهوناً بعلماء الأنثروبولوجيا - وهذا أمر لا مفر منه - فذلك يعنى أن المعطيات التي قمت أنا بجمعها أثناء ترحالى، تعد أمراً بالغ الأهمية.

كانت قد راودتني من قبل آمال نبش القبور وإرسال بعض الجماجم القديمة إلى الوطن، لكن مسألة استثارة الحساسيات الدينية فى الجزيرة العربية كانت أعظم وأكبر من هذه الآمال.

زد على ذلك أن أى عبث بجثمان مدفون على الطريقة الإسلامية هو أبشع تدنيس للمقدسات، وأن هذه المسألة نفسها تعد مصدراً خصباً من مصادر إثارة المتاعب، وذلك مثلما حدث فى بلاد الرافدين أثناء الحرب، عندما قام شخص ما، على غير وعى منه، بقيادة سيارة خلال جَبَّانة مهجورة. وعليه فإن القبور الصخرية المغلقة بأحجار سائبة، والتي صادفتها فى وادى ضيكور فى العام ١٩٢٧/ ١٩٢٨ كانت أرضاً محظورة. وفى الرحلة التي قمت بها فى العام ١٩٢٩/ ١٩٣٠ الميلادى، كنت أسعد حظاً، لأنى مررت فى الحسيك على كهف جرى فتح بابه عنوة بواسطة ذئب أو حيوان برى آخر. كان الوقت نهائياً. كما كان وجود رفاقي العرب بمثابة حاجز أو عائق أمام أية مضاعفات يمكن أن تترتب على ذلك، لكنى حاولت الاقتراب من ذلك الكهف والتوقف عنده، ولم يعرف أى أحد، فى صبيحة اليوم التالى، أن الجمجمة التي عثرت عليها، أصبحت فى طيات فراش سريري - وذلك على الرغم من أن تلك الجمجمة كان ينقصها عظمة

الفك، وكان الجزء المتبقى من الهيكل العظمى قد اختفى تماماً - أخذت هذه الجمجمة معى إلى مسقط ومنها إلى كلية الجراحين الملكية فى لندن. وفى منزلى فى مسقط، وبعد أن فككت كنزى، أصبح خادمى مبروك، ذلك العبد المعتوق، على علم بهواية سيده العجيبة، وقال لى فى اليوم التالى إنه أحضر لى هدية وتناول من صُرة كانت معه، جمجمة بشرية كاملة - وهنا جاء خادم عربى آخر متلصصاً من خلف الباب ليوضح لى أن مبروك ذهب أثناء الليل إلى مدفن والده، وهو يقدم لى حالياً ذلك الذى كان يشكل ذات يوم جزءاً مهماً من والده الموقر. وفى تلك الليلة، قام مبروك الذى لم يحصل على مكافأة وجرى توبيخه، بإعادة الجمجمة إلى مكانها السابق. أما مسألة ما إذا كانت المشاعر العربية قد أُصيبت بالأذى ولأسباب دينية، فى هذه الحالة، لا يمكننى القطع بها، والمؤكد أن العبيد لا يُصلُّون فى هذا الجزء من الجزيرة العربية، وبالتالي ومن الطبيعى أن ينظر الناس إلى هؤلاء العبيد من منطلق أنهم ليسوا مسلمين خُلصاً.

نعود إلى ظفار وإلى قياس الرأس، ولم يكن سهلاً علينا العثور على موضوعات راغبة فى هذا العمل. يضاف إلى ذلك أن عقول السدج من البشر تخاف من السحر وما هو أسوأ منه، فى حين يكره المتدينون من بين هؤلاء البشر، أن تلمسهم أيادى الكفرة. وفى الصحراء، وعلى سبيل المثال، لم أكن لأجرؤ على المخاطرة بوضع أجهزة القياس على رأس أى واحد من البدو - فلربما أدى ذلك بالقبلى البليد إلى رفع خنجره علىّ، وقد حدث ذلك لى فى بعض الأحيان، عندما كان واحد من البدو يتحدثانى عندما كنت أهمُّ برفع آلة التصوير فى اللحظة غير المناسبة - لكنى هنا فى ظفار شعرت أن بوسعى العمل بطريقة آمنة مع المسجونين، والسجانين، والأصدقاء القدامى خلف الأبواب المغلقة، ويفضل هؤلاء هم وبعض التجار الأجانب المستنيرين تمكنت خلال مقامى فى ظفار، من قياس خمسة وأربعين رأساً، كانت تغطى مدى جغرافياً كبيراً، كما تمكنت أيضاً من التقاط مائة صورة "نمطية".

تخلل هذا العمل الكثير من الفقرات المرححة التى بثت فيه الحياة والحيوية، لكن العمل لم يكن شارحاً للصدر من الناحية البدنية، نظراً لأن العينات كانت من البدو أصحاب الشعر الأشعث المملوء بالتراكمات الرملية والتراكمات الأخرى



مجموعة من أفراد قبيلة الشهارة



مجموعة من أفراد قبيلة يافع

أو من الحضر المقيمين في المدن، الذين تُعدّ خصلات شعورهم كُتلاً من الدهن بسبب زيت النخيل الذي يدهنون به الشعر. تصادف ذات صباح أن كان زبائني من الصوماليين؛ والصوماليون سلالة تعبر البحر الأحمر لتقوم بنشاط تجارى محدود في السوق، أو يعملون وسطاء في إبرام عقود مع بساتين البَحُور. جاءني ستة من هؤلاء البشر، وتحاشوا جميعاً في إجاباتهم عن أسئلتى الإقرار بأنهم صوماليون خُلس، بمعنى أنهم صوماليون من ناحية الأب والأم - وهذا شرط من الشروط الضرورية؛ لأن العينات مختلطة الأب أو الأم يعدها علماء الأنثروبولوجيا غير ذات قيمة وعديمة الفائدة أو النفع، ولكني بعد أن فحصت أنوفهم القصيرة المربوعة فحصاً دقيقاً، وبعد أن فحصت رؤوسهم الشبيهة بالبلطة، تأكدت أنهم من أصل زُنْجى، الأمر الذي جعلنى أرفضهم لأنهم لا يلبون ما أطلبه وأبتغيه. سألت شرطياً صومالياً كان دوره بعد المجموعة سألقة الذكر، "هل أنت متأكد من أنك من أصل صومالى خالص؟"، وأجابنى قائلاً: "لكن الله هو الذى يعلم فى المقام الأول، وتأتى أمى من بعده!".

وهنا تمتع ذلك الألعى بطرفته ثم اختفى وغرب عنى وهو يضحك، ووعدنى بأنه سيجىء فى الصباح ومعه بعض الزملاء العينات غير الملوّثين.

جاء بعد ذلك الدور على العسكر الحكوميين. هؤلاء المرتزقة من رجال القبائل الحضرية أو من المناطق الداخلية فى عدن، ويجيئون إلى الخدمة ضمن قوات سلطان مسقط، شأنهم شأن النجديين القدامى؛ والعمانيون المحليون ينعوتون هؤلاء البشر بأنهم حضاريم أو حضارمة. كان أربعون منهم يقومون بالخدمة فى ظفار، وعليه لم أجد صعوبة فى العثور على ستة أفراد من سلالة قبلية نقيه غير مخلطة. كان هؤلاء الستة من أهل يازيد، أهل ياهار، وأهل سعد من اتحاد اليفاع، فقيمت بقياس رؤوسهم وقيمت أيضاً بتصويرهم، لكنى سرعان ما اكتشفت إنهم يعترضون على مصطلح الحضاريم وأنه لا ينطبق عليهم. قالوا لى: "أيها صاحب، إطلاق المصطلح حضاريم علينا، يعنى أننا ننتمى إلى الطبقة.. المتدنية من الشَّهارين Shahr هم وغير القبليين الآخرين: القبلى الأصيل لا يرضى إلا بأن يكون منسوباً إلى واحد من اتحادين متنافسين: اليفاع، والهمدان - ولا شىء غير ذلك!".

فى اليوم التالى كنت مشغولاً بقياس رأس عضو من عرق آخر، يدعى على الضَّبَّعان، أحد بدو المشايخ الذين يسكنون الصحراء الواقعة شمالى حضرموت. كان على من النوع القادر على القيام بأعمال عدة على حد قول العرب، كان الرجل قد سبق له مرافقتى فى رحلة العام الماضى التى قمت بها إلى مجشين، وأصبح الآن مرافقاً لى بصفة يومية، فضلاً عن كونه خبيراً ضليعاً فى مسألة الصحراء. كان الرجل يعرف الحدود الجنوبية حق المعرفة، وكان أيضاً قد قتل عضواً من أعضاء قبيلة الرشيد، ثم تزوج من واحدة من بنات هذه القبيلة من باب تحاشى الثأر، كان على الضبَّعان يريد منى هدية الافتراق قبل أن يصحبنى إلى جبال القارة كيما نطلب من قبيلة الكثارين تقديم أربعة رؤوس من الأغنام، على اعتبار أن هذه الرؤوس الأربعة تشكل جزءاً من الدية المقررة لولده الذى قتل قضاءً وقدرًا على يد واحد من قبيلة الكثارين فى العام السابق.

اتضح لى أن ما يريده الضبَّعان منى كان طلباً متواضعاً تمثل فى خمسين طلقة من الذخيرة - معروف أن البدو يمكن أن يطلبوا المستحيل وبلا خجل!

قلت: "لا" وقد خطر على بالى سجل هذا الرجل وميوله الفطرية "بالقطع لن أعطيك هذه الطلقات". وكان الناس يقولون إن على الضبَّعان أزهد حيوات خمسة عشر شخصاً؛ وأن آخر قتيل له كان قبل ثلاث سنوات، وكان ذلك مباشرة عقب الزيارة التى قام بها على الضبَّعان إلى مخيمى فى العوهى: كان الضبَّعان قد قتل أحد العماريين رمياً بالرصاص، عندما قابله فى البرية، طمعاً منه فى الاستيلاء على جمل القتيل. والمؤسف بحق أن الجمل لم يستطع مواصلة الرحلة إلى ظفار، والأدهى من ذلك كله أن على الضبَّعان لم يكن لديه ما يبهر به هذا القتل سوى عزو الأمر إلى الله! ولم يحس هو شخصياً بالندم على فعلته، لكنه لم يجرؤ على مقابلة أى فرد من أفراد هذه القبيلة بعد ذلك الحادث. أردفت قائلاً: "يا على سوف أعطيك ثلاثة دولارات، إذا ما رافقتنى فى رحلة الصيد".

سأقوم بها فى الجبال فى الأسبوع القادم: أما الذخيرة فلن أعطيك أبداً. تريد هذه الذخيرة لهدف شرير. وأنا لا أَرْضَى أن أكون شريكاً فى حرقنا فى هذا العنف".

"قل لى كيف يعيش الإنسان؟".

"افلح الأرض، أو اشتغل بصيد الأسماك".

نظر الضبعان إلى نظرة شك، وارتياح ثم قال: "هذا ليس هو العمل الذى يقوم به رجل من الرجال".

"إذن، ما هو فى رأيك العمل الذى يقوم به الرجل؟".

"عمل الرجل هو البندقية والجنيبة (الخنجر)".

قلت له: "هذا كلام فارغ. القتال أمر طيب لكن عندما يثون أوانه" لكن ما رأيك فى أننا نحن الإنجليز يمكن أن نكون بهذه القوة التى نحن عليها، دون أن نعمل ونبذل جهداً؛ "ما رأيك فى السفن والبنادق التى لدينا، هل حصلنا عليها بدون عمل؟".

رد على رداً مقتضباً "إنها النقود"، وهنا عرفت أن الكلام معه مضيعة للوقت. وتلت ذلك فترة صمت بيننا.

"يا على، لو عاش كل منا من بندقيته وجنيبته (خنجره)، فمن أين لنا بالطعام؟ نحن مَدِينُونَ بما نأكله للزراع وصيادى الأسماك".

"ما الذى يجعل القبيلى (القبلى) يصل إلى هذا الحد من التدنى؟ تقول صيد السمك! هذا مستحيل! تقول: فلاحه الأرض! نعم، سوف أطلب من سيد تيمور (السلطان) إعطائى قطعة من الأرض ثم أجيء بعد ذلك بعبد من العبيد يقوم بزراعتها نيابة عني".

"لكن لماذا لا تزرع الأرض أنت بنفسك؟".

"آه! لا تخف، سأدفع للعبد أجره، كان هذا هو رد الضبعان علىّ دون أن يقف على ما أقصده وأعنيه؛ لكنه أردف قائلاً "وسوف أعيش على إنتاج هذا البستان".

عجز خيالى عن تصور الطريقة التى يمكن أن يحصل بها علىّ الضبعان على العبد المطلوب - يُزاد على ذلك أن ثلاثمائة دولار فى ظفار هى ثمن ذلك العبد، ولو قُدِّرَ لعلّ الضبعان أن يكون لديه مثل هذا المبلغ، فإن الصحراء ستناديه وسوف يستثمر هذا المبلغ فى شراء ناقة. لكن خيال الضبعان شطح منه وراح يحلق فى السحاب، وها هو يعود إلى الأرض أو الواقع من جديد.

قال على الضبعان: "أيها الصاحب أعطني خمسين طلقة من الذخيرة!" وراح يفك الجبخانه (حزام الذخيرة) من حول وسطه ليريني إياه فارغاً من الذخيرة. وهنا كتمت ابتسامتي لعدم اتساق فقره المُدقع مع تفاؤله المفرط.

قال الضبعان: "والله! أنا أفضل الذخيرة على الجمل. والناقة تموت بين يديّ صاحبها لكن الذخيرة تُمكنني من صد العدو عندما يلاحقني، وأستعملها أيضاً في صيد الوعول عندما أجوع".

"لا، يا علي! تعالَ غداً وسوف أعطيك ثلاثة دولارات، لكن خذ بالك من نفسك! تصرف تصرفاً حسناً وأنت في الجبال وإلا سيكون هذا هو اليوم الأخير من أيام صداقتنا".

قال على الضبعان عندما همَّ بالانصراف: "لعل سيد تيمور يدرجني ضمن كشف الأجور" - ربما تصور الضبعان أني سوف أعطيه ثلاثة دولارات كل شهر. - "وعندها سيكون شقيقاً لكل البشر".

كان من عادة الوالى القيام بزيارتي صباح كل يوم في القلعة. كان سعيد بن سيف رجلاً أصفر الوجه، ضعيفاً وهزيل البنية كما لو كان رجلاً في منتصف العمر من رجال أواخر العصور الوسيطة. كان كلامه يتركز دوماً على فقر الحكومة، وأن راتبه لا يكفي، هو وأسرته كبيرة العدد؛ وذلك على العكس من الرواتب الضخمة التي يجب أن يتقاضاها الإنجليز طبقاً لما هو مبين في كشوف الرواتب الرسمية. كان سعيد بن سيف حزيناً على نصيبه البائس وكان يعزو ذلك إلى الله! كان الرجل ينظر إلى العمل على أنه يقلل من شأنه ومن احترامه، وأن العمل هو للعبيد فقط؛ كانت يده شاحبتين ورقيقتين مثل يدي المرأة، كما أن قدميه لم تكونا قادرتين على السير سوى بطريقة بطيئة، توحى بالاحترام والوقار ومعه سرية من الجنود الذين يسير بعضهم من أمامه والبعض الآخر من خلفه. كان كل ما يقوم به هذا السعيد بن سيف مجرد الصلاة خمس مرات في اليوم - وفيما عدا ذلك، كان الرجل بلا أى هدف، سوى صمته الذي يتخلله النوم، الذي كان يصحو منه بين الحين والآخر مردداً، "الحمد لله! الحمد لله" - فضلاً عن أنه كان أيضاً رقيقاً منفراً.

كانت هناك أصوات عريدة تصدر من بُعد، وهنا صعد أحد الجنود إلى سطح المنزل وعاد ليقول لنا أن تلك الأصوات صادرة عن العبيد. كانت أصوات الطبول التي تتعالى شيئاً فشيئاً تنبئ باقتراب ذلك الموكب، وهنا اندفعنا جميعاً وانحنينا لنرى ذلك المنظر المفرح.

كان ذلك الموكب خاصاً بوفاة واحد من العبيد، لكن هنا في ظفار وعندما يُتوفى عبد من العبيد وبعد أن يُدفن، يظن العبيد أنه بدلاً من الملكين اللذين يلازمان المتوفى في قبره عند المسلمين، أن روحاً شريرة تدخل إليه لتتقضى عليه في نومه، ومن هنا يقوم العبيد بدق الطبول ويرقصون رقصة الشيطان لطرد هذه الروح الشريرة وإبعادها عن المتوفى.

غمغم العماني المنافق الجالس إلى جوارى قائلاً: "سامحهم الله".

"لا، ولا حتى على النيات؛ لكن هؤلاء عبيد ولا يعرفون شيئاً أفضل مما يفعلون".

قلت له: "لكن قبيلة المقابيل في عُمان تستعمل النيات؟".

"نعم! لكنهم سُنيون. نحن أباضيون، والأباضيون العمانيون يمنعون استعمال أدوات الشيطان هذه".

كان الموكب في الوقت ذاته يشق طريقه بهمة وشجاعة نحوى كيما يعرب عن تقديره واحترامه لي؛ أملاً في الحصول على مكافأة ربما كانت سلة من التمر، لأن الموت عند هؤلاء الزنوج، كما هو عند الإيرلنديين، يعد مناسبة للعزائم والولائم. كان حامل البيرق وقارعو الطبول يسيرون ببطء في مقدمة الموكب؛ كان القسم الأكبر من الجنود محيطين بحامل البيرق وقارعى الطبول، رافعين عكاكيزهم إلى الأعلى، وهم يرقصون ويفنون، ثم جاءت مجموعة الزنجيات اللاتي كنَّ يرقصن بخفة ودلال في المؤخرة. وعندما اقترب الموكب من بوابة القلعة اندفعت مجموعة من الرجال متقدمة إلى الأمام؛ مهددين من باب التهويش بأنهم سيفتحون الباب عنوة علماً بأن الباب كان مفتوحاً.

توقف الموكب في فناء القلعة الداخلى وتغير إيقاع الطبول. ثم تجمعت الطبول والبيارق في الوسط، وتحلق الرجال من حولها على شكل صف واحد، وهم

يحجلون مرة على هذه القدم وأخرى على تلك القدم، وهم يتغنون بأغنية سواحيلية فى حين كانت النساء يتحركن من حول الإطار الخارجى لحلقة الرجال بخُطى غريبة متناغمة وهن يرفعن عباءاتهن من الأمام. انفصل بعض آخر من الزوج، عن الجماعة وراحوا يمثلون قتالاً هيكلياً، واستلقى واحد منهم على الأرض وكأنه يشخص روحاً شريرة، فى حين راح الزوج الآخرون يهاجمون هذه الروح الشريرة من كل جانب.

تجمع عدد كبير من النظارة والمشاهدين فى مدخل القلعة الخارجى؛ الأمر الذى صعب من خروج العماني الذى كان يجلس إلى جوارى، لأنه لم يكن يرغب فى مشاهدة هذا المنظر. وقف ذلك العماني مشدوهاً من هذا المشهد الوثنى، الذى كان يود قمعه لو أتاحت له الفرصة والسلطة اللازمتان لذلك؛ هذا فى الوقت الذى شعرت فيه بأننى كنت هدفاً لانتقادی أنا فيما بينى وبين نفسى، وبخاصة عندما رحت ألتقط صورة دقيقة لما يجرى أمامنا.

وفى فترة العصر، كُتبَ على أن أشاهد المزيد من الطقوس الخارجية، فى الحقائق، نظراً لأن السلطان منع ممارسة هذه الطقوس فى محيط المدينة؛ الأمر الذى جعله يحظى بشاء وتقدير كل المؤمنين المخلصين.

"ألم تدخل هذه المواكب فى عيد الفيروز (عيد رأس السنة) بكل استهزائها منزل القاهرة وهى تحمل معها قُطِيطَة - وليدها المفترض؟" لكن على حد قول الراوى المتدين الذى كان يرافقنى، "لكن مبادرة السلطان إلى قمع هذه الأعمال هو الذى عجل، للأسف، بزيادة العُهر والفُجْر منذ ذلك الحين".

الجالية الزنجية تكاد تكون منكفئة على نفسها، وهى الجالية الوحيدة التى تشكل أكبر العناصر بين سكان عاصمة ظفار. وهذا هو عوَّاض، ذلك العبد من عبيد البلاط السلطانى، والذى يتمتع بمنزلة رفيعة بين إخوانه العبيد، يحتل مكانة الأب بين العبيد، وهو أيضاً القاضى magistrate الذى تُحال إليه منازعات الزوج ليقوم هو بتسويتها والبت فيها. ولم يكن ذلك العوَّاض، أو الآب، بلا مساعد، كان هو الآخر يحمل اسم "النقيب"، لكن بقية العبيد على اختلاف مشاربهم كان يطلق عليهم اسم أولاد وبنات؛ هذان الاسمان هما تعبيران رقيقان فى التعامل مع الزوج المسنين والزنجيات المسنات.

هؤلاء العبيد لهم أيضاً محرماتهم الخاصة بهم، وهم على سبيل المثال لا يلمسون الحيوانات الميتة اللهم باستثناء تلك التى يجرى ذبحها ليقفوا بها . هذا يعنى أن سيد العبد وليس العبد نفسه هو الذى يمكن أن يزيل أو يبعد قطعة ميتة عن المنزل، ألا يُستثنى من ذلك عبد البلاط السلطانى الذى يوافق، عن طيب خاطر، على سحب جثة حصان ميت لإبعادها عن المكان؟ الخروقات التى من هذا القبيل هى والخروقات الأخرى يُعاقب عليها (عادة بالنبد) أى أن العبيد يرفضون قبول من يقوم بهذه الخروقات، فى مجتمعهم، ويجرى نشر مثل هذا القرار فى سائر أنحاء البلدة عن طريق قوقعة يبقون فيها فتحدث صوتاً عالياً - وهو ما يطلق عليه اسم إنذار العبيد: كما تُقبل توبة العبد فى احتفال يذبح فيه العبيد شاة أو خروفاً، يقوم التائب بوضع قدمه فى دم هذا الخروف المذبوح.

العبيد الزنوج قنوعون. وهم أصحاب طابع بهيج على العكس من ساداتهم، الأمر الذى يجعلهم يغنون ويرقصون غير عابئين بعاثاتهم السياسية والاجتماعية. ويصعب على الأوروبي الذى لم يَعشْ فى بلاد إسلامية تكوين رأى مدروس عن ممارسة العبودية والرق. ولابد من مقارنة مصير العبد بمصير الحر فى البيئة نفسها. ونحن عندما نطبق هذا المعيار أو المقياس، نجد أن حياة العبد فى مجملها لا تدعو إلى الرثاء. هذا لأن المستوى العام للحياة يعلو قليلاً على حد الكفاف- هذا يعنى أن صاحب العبد أو سيده يتعين عليه، ومن مصلحته أن يُطعم عبده ويكسوه على وجه التقريب مثلما يطعم ويكسو هو نفسه.

يتمثل الفارق الرئيس بين العبد وسيده فى العمل. العبد فى أرض الكسل والتكاسل هو الذى يقوم بالعمل اليدوى. هذا يعنى أن العبد يتحتم عليه أن ينتج ما يكفى لإعالة نفسه وإعالة سيده، وتتمثل مهمة الحر أو السيد فى التأكد من أن العبد يفعل ذلك المطلوب منه. لكن القول بأن هناك فارقاً فى الجزء من قبيل الفارق الصارخ شديد الوضوح، فى الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة الأمريكية أو فى مستعمرات غرى الهند قبل إلغاء الرق، يعد ضرباً من الزيف والكذب. هذا الفارق الصارخ غير موجود فى الجزيرة العربية.

العبيد لهم أيضاً بعض المزايا والامتيازات المحصنة. من ذلك مثلاً، أن العبد يكون فى منجاة من الأخطار الناجمة عن الصراعات الثأرية التى تحوم على

القَبْلَى "الحر"، وعندما يجرى الإمساك به فى غزوة من الغزوات فإن الغزاة لا يقتلونه؛ علماً بأن العربى يمكن أن يقتل العربى فى هذه الغزوات، صحيح أن العبد يجرى أسره ويمكن بيعه لسيد جديد، لكن مصيره لا يزداد سوءاً عن ذلك. وفيما يختص بالإناث، أو إن شئت فقل: العبدات، فإن العبدة تتمتع بحرية اجتماعية هى على النقيض تماماً من حرية المرأة العربية "الحرّة". والمرأة العربية الحرة تتزوج وهى فى سن الخامسة عشرة من الزوج الذى يختاره لها والدها، دون أن يأخذ الوالد رأيها ودون أن ترى ذلك العريس. ويُكْتَبُ عليها أن تظل بعد ذلك حبيسة منزلها بقية حياتها اللهم باستثناء بعض الجولات النادرة التى تقوم بها خارج المنزل، وهى تكون محجبة عندما تخرج من المنزل، وتزداد شدة هذه الأعراف كلما ارتفعت المرأة فى السلم الاجتماعى، وإذا ما وقعت المرأة العربية الحرة فى الانحراف الجنسى - وهذا هو النقيض مما هو مصرح به لزوجها - فإنها قد تُعَدُّ وتُخسر حياتها ثمناً لهذا الانحراف.

تُعد الفتاة العبدة، من ناحية أخرى، خالية الفؤاد من الحب، وعلى الرغم من أن سيدها هو الذى يرتب لزوجها، فإن عينيه تتركزان على منفعتها الخاصة، وهى تمشى سافرة وبلا حجاب طول حياتها، وهى تغازل من تشاء وتؤاخيهِ .

كانت هناك مجموعة من بدو الصحراء، راحوا يشاهدون بشغف شديد رقصة الشيطان فى فترة العصر، وعلى الرغم من أنهم جميعهم كانوا مسلمين، فإن أحداً منهم لم يشعر بتأنيب الضمير، وذلك على العكس تماماً من الروح الضيقة للمسؤولين الرسميين العُمانيين أشباه المتقدمين. وهنا نتساءل، إذا كانت الأعراف الرعوية فى الصحراء قد وضعت آلهتها فى السماوات، لأنها درجت على النظر إلى الأعلى طلباً للمطر، واهب الحياة، فلماذا لا يتعين على الأعراف الزراعية، هى الأخرى، التى تضع أعينها على التربة، أن تكون أرواحها فى الأرض؟ لكن الطرفين المذكورين هنا لا علاقة لهما بهاتين الفكرتين.

جرت العادة أن يقوم الزوج بطقوسهم بعد ثلاثة أيام من الوفاة، أمام قرية حافة Hafa حيث الخلفية الرائعة لنخيل جوز الهند. وقد شدنى العزف الجيد على الطبول إلى الذهاب للتفرج على ذلك الحشد. وسط هذا الجمع من البشر، كان المكان واسعاً وفسيحاً كما لو كان مدرسة لتعليم فن ركوب الخيل. كان عازفو

الطبول يجلسون فى ركن من الأركان، وقد شبوا ناراً من أمامهم كيما يفيدوا من حرارتها فى شد جلد طبولهم. ومن حولهم كان "صبية الطبول" يرقصون، وكان يقدر عددهم باثنى عشر زنجياً من ذوى العضلات المفتولة. كان هؤلاء الصبية عراة تماماً فيما عدا ما يسترون به عوراتهم؛ وكانوا يلفون حول رُكبهم جُلُجلاً مصنوعاً من حبات المانجو المجففة. كان ذلك الجلجل أو الخشخش، على حد قولهم متوافقاً مع قرع الطبول، وبخاصة عندما كان الراقصون يضربون الأرض بأرجلهم أو عندما يدورون حول أنفسهم.

كان النقيب يقف فى الجانب الآخر المواجه للدائرة، وكان يضع يديه على شفتيه وهو ينشد أغانيه :

يا الله يا ملنجى، يا الله يا ملنجى- فى الوقت الذى كانت فيه جوقة مكونة من اثنى عشر فرداً، كانوا يقفون فى مواجهته ويرددون القرار وراءه.

كان عواض الأب، رئيس الاحتفالات، يجرى هنا وهناك حول الحافة الداخلية للدائرة، وهو يطرقع بسوطه أمام أقدام المتفرجين الحفاة كلما حاولوا تضيق الدائرة.

يوجد على بعد قرابة اثنتى عشرة خطوة داخل الدائرة ممر العارضين الرئيسيين - مجموعة من الشبان الزنوج والشابات الزنجيات، دخلوا جميعاً وراحوا يدورون حول الدائرة فى استعراض رائع - العبدات الشابات، فرادى أو أزواجاً، مفتولات العضلات، سوداوات سواد الأبنوس، صدورهن متمردة على أجسامهن، جرى اختيارهن لفضائلهن السامية فى أعين الرجال. كانت كل واحدة منهن متشحة بقناع من حرير الموسلين أسود اللون، وخفيف جداً، لا يخفى عينيها، وإنما يؤجج من تأثير عينيها المتلألئتين، شفتاها الغليظتان المزيتتان باللون الأحمر القرمزى، حلقة أنفها، حلق أذنيها قلادة جيدها المصنوعة من الذهب. ثوبها، جديد بلا شك وأعد خصيصاً لهذه المناسبة، كان عبارة عن عباءة مُنشأة زرقاء اللون تلمع وتتلألأ فى ضوء الشمس. وكانت الواحدة منهن تمسك طرف العباءة الطويلة بين السبابة والإبهام، وذراعها ممدودة محاذية لكتفها، والذراع الأخرى قريبة من جانبها بحيث تبعد اليد مسافة شبر واحد تقريباً عن عجزتها، وراحة اليد مبسوطة إلى الخلف فى هذا الوضع؛ ورأسها بلا حراك، ووجهها

لا يتجه يميناً أو يساراً، وجسمها يتحرك حركة مكوكية مثل زلاقة من الزلاقات، ومن أمامها يقفز شاب هيمان، فى يده سيف مشهور، ينقر الشاب نقرأ خفيفاً على مقبضه، ويتحرك من هذا الجانب إلى ذاك، ثم يستدير ليواجه الفتاة، يبدو أنه مبهور بها، مثلما تتجذب الفراشة إلى ضوء الشمعة.

يصطفُ العبيد الآخرون على شكل ثلاثيات أو رباعيات، وهم يرفعون البنادق فوق رؤوسهم، ويدورون كما لو كانوا يؤدون رقصة الحصان وهم ينظرون إلى الأمام بغض النظر عن الجمال الذى يحيط بهم.

وتمضى فترة العصر ويدخل المزيد والمزيد من الشبان إلى دائرة الطبول الصاخبة. ويقترب هذا الطقس من طقوس العبيد من ذروته. هذا يعنى أن الروح التى تُقلق جثمان المتوفى لابد من انسحابها لتتملك "صبياً من صبية الطبول" والذى يجرى اختياره لقواه، والذى ينسحب من رفاقه فى هذه اللحظة، وتتجه إليه الأنظار كلها. وتزداد حدة ضرب الأرض بالأقدام؛ وهنا ينبرى من تملكته هذه الروح، يقدم كل صنوف التهيج الشديد التى يستطيع جسمه القيام بها - ويتشوه وجهه، وتجحظ عيناه وتحملقان، ويرمى بنفسه وهو يتلوى على الأرض، ويروح يمرغ رأسه فى التراب، ويسيل اللعاب من شفتيه كما لو كان مصاباً بنوبة. ويتضح أنه غلب على أمره بسبب الإرهاق والاجهاد، ولما كنت أنا قد أعيانى هذا المنظر، أثرت الرحيل عن المكان عندما بدأت طلقات البنادق تدوى فى الهواء، لتزيد بدورها من هذا الضجيج.

وهنا يضع صوت المؤذن حداً لهذا الاحتفال، هذا إن لم يكن من تملكته الروح قد أغمى عليه قبل ذلك، وذلك يرمز إلى خروج الروح التى كان يمكن أن تقلق جثمان المتوفى بغير هذه الطريقة. لكن من تملكته الروح كان قد سقط على الأرض مغشياً عليه وبلا حراك؛ وهنا يقوم الأولاد والبنات بالإمساك بأطرافه وينقلونه إلى المنزل، وعندها يتفرق الجميع.



صورة رقم (٣) رقصة من رقصات العبيد

الفصل الرابع

فى جبال قارة: عين الريزات

اضطرتت فعلاً إلى البقاء فى ظفار طيلة ثلاثة أسابيع، دون أن أرى أية إشارة أو علامة على مجموعة الإبل التى طال انتظارى لها على أمل مجيئها من الرمال (الصحراء)، ولم أسمع طوال هذه المدة شيئاً عن سهيل، أو المبعوثين اللذين أوفدتهما مؤخراً؛ لم أسمع سوى أخبار الصحراء التى كانت تتقاطر علينا، هى وأخبار الحروب المزعجة وأيضاً شائعات الحروب.

والذى لا شك فيه أن خططى ومخططاتى^(١) أثارت فضول الناس فى السوق، وشعرت بأن أفضل الوسائل لتهدئة هذا الفضول هو قيامى برحلة فى جبال قارة. وهذا الجزء من البلاد بَكر ولم يَزُرْ سوى تيودور ومابل بنتِ قبل قرابة أربعين عاماً. الأرض هنا تعج بالاضطرابات القبلية، إلى حد أن السلطان لم يفكر ممثله حتى ولو لمرة واحدة أن الوقت مناسب للقيام بجولة فى هذه الجبال، كما أن من سبقوهم لم يزوروا مطلقاً هذه الجبال. يزداد على ذلك أن ظفار وبالأحرى جبال قارة هى بمثابة المدخل إلى الصحراء الكبرى. كنت أتطلع إلى جعل هذه الزيارة

(١) على الرغم من أنى كنت أشغل منصب وزير مع صاحب السمو السلطان، وعلى الرغم من أنى سبق أن أدخلت العملة النحاسية المسقطية إلى ظفار فى العام ١٩٢٦ الميلادى (قبل ذلك كانت المعاملات تجرى بطريق المقايضة)، فإنى لم تكن لى أية ولاية قضائية فى ظفار؛ أو على مجلس الدولة فى كل من مسقط وعمان، الذى كنت أنا عضواً فيه. كان السلطان يتعامل مع ظفار من منطلق أنها من الخاصة الملكية. كان حكمه على ظفار من خلال الوالى مسألة شخصية ولا يخضع لأى نفوذ أجنبى؛ كان الحكم قبلياً، وأنا أرى أن ذلك هو أفضل أساليب الحكم للجزء القبلى من الجزيرة العربية.

أكثر من مجرد ستر لخططى ومخططاتى الأكبر من ذلك، لأنى كنت أتطلع بشغف إلى الفرصة التى تتيح لى العيش بين هؤلاء البشر الذين قمت أنا من قبل بالحصول على مقاييس رؤوسهم؛ كنت أتطلع إلى استكشاف عاداتهم، خرافاتهم، موروثاتهم، وإلقاء الضوء على سيكولوجيتهم وأسلوب حياتهم، وهذه كلها ستكون بمثابة المفاتيح الرئيسة لعالم الأنثروبولوجيا. تُرى، هل يمكن للغاتهم وثقافتهم أن تجعلهم صنواً لعرب الشمال، أم هم صنو لعرب الجنوب الغربى، وهل يتحدون أى شكل من أشكال التصنيف الموجود داخل حدود الجزيرة العربية؟

تمثل افتتانى بهذه الجبال، من ناحية أخرى، فى كون هذه الجبال قنيصاً مهماً. وأنا بدورى كنت قمت بالفعل بتنظيف بندقيتى الونشستر الجديدة هى والذخيرة، وجهزت أيضاً شبكة صيد الفراش، والصناديق اللازمة لذلك، وكذلك الأدوات الجراحية، وبرطمانات الفورمالين، ولفائف الصابون المطهر، فضلاً عن الصوف القطنى المطلوب لمثل هذه العمليات. ولما كانت الجزيرة العربية على حدود ثلاثة من المناطق الحيوانية الكبرى التى ينقسم إليها العالم، فقد أصبح ذلك يشكل مسائل ذات أهمية وطابع خاص، ولما كانت متاحف العالمية خالية من أية عينات من الحياة الحيوانية التى فى هذه المنطقة الجنوبية المركزية بصفة خاصة، فإن ذلك كله سوف يعزز من مسألة الصيد ويزيدها أهمية على أهميتها.

كنت قد تعمدت عدم إحضار بندقيتى، نظراً لأنى إذا ما اصطدت طائراً أو أكثر فإن مسألة تجهيز هذه الطيور لتكون عينات، يمكن أن يستغرق قسماً كبيراً من وقتى. كان سكرتيرى المسقطى المدعو على محمد، الذى سبق أن رافقنى فى ترحالى فى شهر مارس السابق، خلال هذه الجبال فى العام ١٩٢٩ / ٣٠، وقام بمهمة تجهيز الطيور التى اصطدتها، قد أصابه المرض فى مسقط قبل أن نبدأ ترحالنا ولذلك خففناه وراءنا. ولما كانت كل عينة من العينات تتطلب أن يكون لها اسم، والمكان الذى جرى جلبها منه، فضلاً عن الارتفاع، فضلاً عن جنسها (نوعها) وتاريخ صيدها إلى جانب تجهيزها، وهنا أصبحت المشكلة التى يتعين على حلها تتمثل فى طريقة تقسيمى بين هذه الأعمال وبين عمل الخرائط وتدوين الملاحظات. لكن خبرتى ساعدتنى على حل هذه المشكلة، وعلى سبيل المثال؛ فإن مشكلة سلخ ثديية من الثدييات الكبيرة- وبخاصة بعد أن أقوم أنا بعمل الشرخ

الرئيس- يمكن إسنادها لواحد من البدو وتكون لديه القدرة على ذلك، وذلك على الرغم من أنى لا يمكن أن أسند إليه مسألة القيام باللمسات النهائية. يزداد على ذلك، أن الجمجمة يمكن وضعها فى ماء ساخن وتترك لتنظف نفسها بنفسها، أما الشعبان هى والزواحف الأخرى فيتعين إخراج أحشائها منها قبل وضعها فى برطمان الفورمالين؛ وأما الفراش والحشرات فليست بحاجة سوى الاهتمام والرعاية؛ وإذا كان الطائر المعتاد الصغير بجلده الرقيق مثل الحرير، يشكل فى زمنى مشكلات كثيرة، فقد آثرت التخلّى عن مطلب صديقى الموقر ن. ب كنيار من إدارة جنوب كنسنجتون، وبخاصة أن تشجيع هذا الرجل لى هو الذى جعلنى واحداً ممن يجمعون العينات ويقدمونها لمتحف التاريخ.

بدأنا ترحالنا عصر اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠ الميلادى. وكان رفاقى اثنين من الكثرارين ومعهما على الضبعان (وهم ثلاثة رفاق من رحلتى التى قمت بها فى العام الماضى) ومعهم خمسة من العبيد الحكوميين. وكنا قد حددنا موعد ومكان لقائنا بمضيفينا من جبل قارة، فى مكان ما عند سفوح الجبال.

يَمَمَّنَا مسيرنا شرقاً فى طريق موازٍ لشاطئ البحر فى المنطقة، بعد حافة (هافه) Hafa، وعبر بيارة نخيل جوز الهند التى تفصل حافة عن بلدة باليد ذات الأنقاض القديمة. ومن هنا دخلنا السهل الموجود خلف هذه البيارة والذى تنتشر فيه أيضاً أنقاض سطحية^(١) قديمة ويطلقون على هذا المكان فى الوقت الحالى الاسم حيلة، ومع ذلك هناك حضارة أخرى أقدم عمراً من الحضارة الموجودة أمام أعيننا، وتشهد على وجودها الأنقاض والآثار الموجودة بالفعل، كما تشهد أيضاً على هذه الحضارة، الأبيار الارتوازية القديمة، ومجارى المياه الجافة والحواف

(١) يتمثل أهم معلم بين هذه الأنقاض فى عمود بدائى ثُماني الأضلاع وثمانى الزوايا، وتاج مرتكز على ركيزة مربعة الشكل وقاعدة مربعة الشكل أيضاً، أى عمود منفصل مكون من كتلة حجرية واحدة. ويصل ارتفاع هذا العمود إلى ست أقدام فقط، والعمود هو وركيزته يوحيان بأنهما كانا يحملان عقوداً. وهناك قاعدة عمود ترتفع على شكل سلم يطاول قامة الإنسان، وتحمل عمودين أو أكثر اعتماداً على الحجم، وتنتشر حول هذه القاعدة بقايا أحجار مربعة الشكل أسودّ لونها بفعل الزمن.

العالية التى تنتج عن عملية الحرث؛ كل ذلك يشهد على وجود صناعة سابقة فى هذا المكان. يزداد على ذلك أن المحاجر الكثيرة الضحلة الموجودة فى السهل الصخرى، تشير إلى زمان سابق كان الناس فيه يستعملون الحجر على نطاق واسع فى عملية البناء. والزُّراع فى الوقت الحالى يقومون ببعض الزراعات الصغيرة فى هذه الأماكن الضحلة؛ لأن رطوبة التربة تحت السطحية تناسب هذا النوع من الزراعة، والأماكن البعيدة فى هذه المحاجر الضحلة يستعملها الناس ملاذات يهربون إليها كلما اجتاحت الجذام والجدرى منطقة السهل^(١).

شرعنا بعد مبيت ليلة أزعجنا البعوض خلالها فى السهل الموجود خلف ريزات، فى التوجه صوب جبل ناشيب، أو إن شئت فقل الجانب المنحدر، من جبال القارة. تجاوزنا حديقة السلطان التجريبية فى مهمولة ودخلنا منطقة سفح الجبال الموجودة فى الخلف.

توقفنا فى دغل من الأدغال، بجوار مجرى مائى له خريز، رأينا فيه قطعاً من الماشية تخوض ببطء فى مائه على شكل طابور واحد، أو واقفة متكاسلة فى ظل الأشجار والشجيرات الكثيفة.

ينبع مجرى ريزات المائى هذا من بُعد قرابة ميلين فوق بلدة ملوة العود، التى تشكل الأشجار إكليلاً على رأسها، ومن هناك تنساب مياه هذا المجرى أو النُّهَير، من خلال قناة قديمة، خضراء اللون بفعل الطحالب من ناحية وكزبرة البئر من الناحية الأخرى، وتسير هذه القناة محاذية لضفاف جرداء حمراء اللون التى تغير اتجاهها عبر السهل، من خلال مجريين من صنع البشر، ويتجه واحد من هذين المجريين إلى ضريح أو مزار حمران، فى حين يتجه المجرى الآخر متجهاً إلى الريزات من خلال منطقة المحمولة، وعندها يتغير فضل أو هبة هذا المجرى، هذا يعنى أن ماء هذا المجرى يشحُّ فى هذه المنطقة.

أخذت فى صبيحة اليوم التالى شبكة صيد الفراش ونزلت من مخيمى قاصداً الجانب البعيد من مجرى السيل الصخرى الجاف، لدراسة وتحرى بعض الأجانب

(١) يحسب الناس هنا أن العدوى بهذين الوبائين تنتج عن الضوء المنبعث من الخليج الفارسى.

القديمة. ثبت لى أن تلك الأحجار عبارة عن قبور كبيرة الحجم - أشكال بيضوية الشكل من شرائح الصخر الكبيرة المنبسطة، يصل طول الأثر الواحد منها إلى قرابة اثنتى عشرة خطوة، وهى من قبيل الآثار التى رأيتها فى كل من خور الريرى وخور السولى. والعرب يعدون هذه الآثار دليلاً على أجسام البشر الفارعة فى الزمن الماضى!

نزل إلى الوادى أحد رجال الجبال ماشياً على قدميه. رحبنا به، صمت الرجل فترة قصيرة وبعد أن تعرف نداءنا من خلال رفعه لبندقيته فوق رأسه، بدأ يقترب من المكان الذى كنا نقف فيه.

كان ذلك الرجل واحداً من رجال هذه الجبال الخُص، إذ كان قصير القامة، أسمر البشرة، له شعر طويل متموج، يكاد يكون بلا لحية، وتميزه سماته وملامحه عن عرب الشمال، جبهته العريضة، أذناه الصغيرتان جداً، أنفه غير الأرمنى، ذقنه الضيقة المدببة، وفكاه المربعان من تحت أذنيه؛ رجُلان نظيفتان مكتملتان، لكنه ضعيف البنية والذراعين. كان رداؤه عبارة عن تنورة مفردة زرقاء اللون تصل فقط إلى ركبتيه. كان جسمه الأسود، الوردى فى بعض أجزائه بفعل صبغ النيلة، عارياً، وكانت رجلاه عاريتين أيضاً.. وكانت قدماه حافيتين، وكان عارى الرأس اللهم باستثناء مهفت ضيق، وإن شئت فقل: شريط ضيق من الجلد المدبوغ ملفوف تسع لفات حول رأس هذا الرجل، ومرتدياً إياه على شكل عقّال عربى.

سأله واحد من العبيد كان يعرف عبارة التحية بلغة (بلسان) الشهارين: "هت بى خار" Het bi Kaar.

لم يتكلم ذلك الرجل البرى كثيراً، لكنه راح ينظر إلى متعجباً ومندهشاً.

"حرّ! ولد الناس" بمعنى (حر- ولد أحرار)؛ قاصداً بذلك:

أنا لست من سلالة العبيد.

"هذا كافر، أليس كذلك؟".

"حاشاك! هو وزير من وزراء سلطانك".

سألته وأنا أضحك، الرجل الذى قال إنه من قبيلة القارة، ما إذا كان يود أن يبيع الفول الذى يحمله فى آنيته^(١)، أو إن شئت فقل: فى حقيبته الجلدية التى يعلقها فى كتفه، فقد اتضح لى أنه كان فى طريقه إلى الريزات لبيع ذلك الفول.

"كم تدفع؟"

"دولاراً واحداً."

تشمم الرجل، مثلما يفعل سائر البشر فى هذه المنطقة، وذلك فى إشارة منه على موافقته على قبول الدولار ثمناً لما معه من فول، وأخذت الفول منه ولم أكن بحاجة إليه، ولكنى فعلت ذلك لتشتيت انتباهه عن المسائل الدينية. وراح ذلك الرجل طوال بقية النهار يرافقنى ويرشدنى فى أعالى الوادى إلى منبع المجرى المائى، الذى جمعت منه حصيلة وفيرة من الفراش كبير الحجم والفراش العادى فضلاً عن السحالى.

كان ذلك النُهير ينبع من كهف عند قاعدة مُدرَج مرتفع مكون من منحدرات جبلية صغيرة تكسوها الغابات، على شكل بحيرة واسعة تكسوها حافة من القصب الذى يطاول قامة الإنسان. جلست فى ظل مجموعة من الأشجار العملاقة على حافة ذلك النُهير ورحت أراقب الأسماك الصغيرة وهى تندفع فى المناطق الضحلة، فى الوقت الذى راح فيه واحد من عبيدى يحاول الإمساك بتلك الأسماك مستخدماً فى ذلك شبكة صيد الفراش. وسرعان ما تحول انتباهى فجأة إلى السُرغوم وبقايا أخرى من الطعام موجودة فى القاع. قالوا: "هذه نفوش!". البشر هنا يلقون الخبز على المياه الجارية كيما يستعطفون أرواح الموتى Subiro الطافية فوق الماء.

الكلمة Subiro حسب المعادل لها المؤلف لنا، تعنى أرواح الموتى، التى تتملكها قوى خيرة وقوى شريرة، وهى قادرة على التعامل مع الإنسان بالطريقة التى

(١) هذا ملمح من ملامح اللباس الجبلى. حقيبة من الجلد، لها حزام تعلق فى الكتف. ومنها نوع يستعمل فى حفظ النقود ويقولون له هايان. لكن حقيبة الآنية تستعمل فقط للطعام والتمر والماء.

يجرى بها التعامل معها هى نفسها. والمواطنون هنا يقومون أثناء الليل بإلقاء قطع من التبغ والطعام لهذه الأرواح وهم يصيحون قائلين: ونحن أبناءكم، نحن بناتكم؛ لا تؤذونا، انتبهوا حتى لا نصاب بأذى من البشر الشريرين، أو من الأرواح الشريرة.

تمثل فصل الربيع فى ريزات هذا العام فى حادث شهير من حوادث الشعر، وقع إبان حكم الوالى سليمان. زعم بيت زيان، وهم فخذ من قبيلة الشهارين، إنهم هم أصحاب الحق المطلق فى ممارسة طقس النفوش فى هذه المنطقة. ونازعت قبيلة القراوين قبيلة الشهارين فى هذا الحق الذى يزعمه الشهارين لأنفسهم، وراحت قبيلة القراوين تطالب بنصيبٍ مساوٍ لنصيب الشهارين من القرايين، كما طالبوا أيضاً بحصة مساوية لحصة الشهارين من هذه النعمة الطيفية أو الشبحية. وقام الوالى آخذاً فى حسبانهِ نصيب أو حصة حكومته فى السهول، وقرر أن يحصل كل طرف من الطرفين على حصة متساوية، كل على حدة، لكنه نبه إلى أن الحكومة هى التى ستقدم الضوابط القضائية، الخاصة بالكميات المحددة من القرايين وذلك من باب الاحتراز للغش والخداع، وبذلك تصبح الحكومة شريكاً وطرفاً فى هذه المسألة، ولكن الموعد حان عندما كان سليمان يقاتل هؤلاء البشر الجبليين، وهنا أدرك بيت زيان أن الفرصة مواتية لهم؛ وهنا أهاب بيت زيان بأرواح أجدادهم، التى جعلت المجرى المائى يتجه إلى أعلى الجبل. وعليه جفت السهول وخسرت الحكومة نصيبها؛ أو هكذا تقول الأسطورة.

الناس هنا فى سائر أنحاء هذه الجبال لا يزالون يمارسون الكثير من العبادات الوثنية والروحانية. كل المواطنين يعتقدون هذه الطقوس ويعضون عليها بالنواجذ؛ فى حين تعد هذه الطقوس فى القسم المُسلم من الجزيرة العربية أموراً لا تمتُّ إلى الرب بأية صلة، هناك أيضاً عادة محلية أخرى تتمثل فى التضحية بالدم التى يمارسها الناس فى جوربيب وذلك قبل الحصاد مباشرة، عندما يقتادون بقرة ويدورون بها حول المحاصيل ثم يذبحونها بعد ذلك، ويجرى صرف الدم الناجم عن عملية الذبح فى قنوات الرى، ثم يقوم الناس بعد ذلك بإلقاء قطع من لحم البقرة بين عبوات القمح فى الحقول.

كانت الجبال التى تكسوها الغابات تتلألأ فى الشمس الاستوائية، وتقف شامخة كما لو كانت برجاً من فوق البحيرة التى كنا نجلس بجوارها فى الهواء المنعش، ونحن نستمتع إلى تغريد الطيور بصوت مرتفع فى الوادى. كان هناك قطيع من الأبقار التى كانت ترعى على الجانب المقابل من البحيرة. كانت هناك أيضاً امرأة سوداء شبه عارية وتحيط بها صديقاتها وهن يمشطن جدائل شعرها الأشعث، وكانت صورتها المنعكسة على سطح الماء تتراقص، وكانت هناك امرأة أخرى نائمة فى قيلولة الظهيرة تحت شجرة مجاورة.

وعندما طلبنا منهن شيئاً من الحليب، جاءتنا عبدة أفريقية صغيرة السن وهى تحمل إناءً كبيراً عامراً بالحليب، وحياتها وشكرها مرشدى فى الجبال. قالت هذه الفتاة الزنجية لنا إن النساء الأخريات هن سيداتنا، وهن متزوجات من سيد محلى هو صاحب الماشية التى رأيناها وأنه سوف يصل خلال فترة وجيزة. وعرفنا منها أيضاً أن القراوى المزعوم الذى يرافقنى ليس من قبيلة القراوين، على حد قوله هو، وإنما هو من قبيلة الشهارين.

الكذب الذى من هذا القبيل هو خصلة من خصال هذا القسم من سكان الجبال، يضاف إلى ذلك أن سكان السهل يتهمونهم بالعجز عن قول الحقيقة. قال الوالى لى: "لو كان هنا شئ يمكن أن يفعلوه على نحو أفضل من الكذب، فإن ذلك الشئ هو السرقة". إنهم لصوص خبراء ومحترفون، الأخ عندهم يسرق من أخيه، والأب يسرق من الابن، والصبى الذى لا يكشف عن هذه المهارة تدور من حوله الشكوك - هذا يعنى أنهم ييأسون من رجولة مثل هذا الصبى. يزداد على ذلك أن الضحية المقصود سرقته، يُعد خائناً إذا ما أبلغ عن لص جرى الإمساك به متلبساً. وإذا ما أمسك المسروق بالسارق متلبساً فإنهما يتفقان على جزاء محكم متبادل. والمنازعات القضائية تفصل فيها الحكومة، ولكن حوادث السرقة الصغير لا تعد من بين هذه المنازعات؛ وهذا على النقيض مما عند البدو الذين يعدون حوادث السرقة مهما صغرت، شيئاً كريهاً وممقوتاً. ومع ذلك، فإن السطو العلنى على الإبل أمر لا يستأهل اللوم، لأنه لا يدخل ضمن، حوادث السرقة، وإنما هو عمل من أعمال الحرب، التى يقوم بها رجال مستعدون للتعامل مع الموت، بل والموت بحق وحقيقة.

زد على ذلك، إن الشهارى الذى فى الصورة، أراد أن يقدم دليلاً وبرهاناً على أنه هو أيضاً له خصاله وسماته الخاصة به. وقد كشف هذا الصبى عن شجاعة فائقة عندما هاجم وقتل حية من نوع الكوبرا طولها قرابة خمس أقدام وأربع بوصات مستخدماً فى ذلك مشعابه^(١). لم تكن المسألة مسألة قتل حيثما يريد الإنسان. والثعبان، أو أى حيوان آخر يكون مطلوباً للمتحف لابد أن يكون رأسه سليماً حتى يمكن الاستفادة منه فى العينات العلمية، ومن هنا كانت مكافأتى للعاملين معى متدرجة، والثعبان عندما يكون رأسه سليماً يجب أن يكون ثعباناً حياً، وهذا الشهارى أمسك بالفعل بذلك الزاحف المميت وهو حى، على الرغم من أن ظهره كان مكسوراً، لمسافة أميال كثيرة على مشعابه الصغير الذى كان يرفعه أمامه. كانت الحية قد ماتت عندما ألقى بها ذلك الشهارى على الحشيش الأخضر، لكن ذيلها كان يتحرك بين الحين والآخر، والذى راح ذلك الصبى يمرره على حاجبيه، قال لنا، إنه يفعل ذلك لأن هذا علاج لعينييه، لكنى تساءلت عما إذا كانت هناك قيمة أو مغزى سحرى مُعلّق على طرف انحسرت عنه الحياة.

جاءنا بعد ذلك رجل ضخّم البنية من رجال السواحل الذين لا أعرف لهم وصفاً، ومختلف تماماً عن رجال الجبال، ليقول لنا إنه مالك النساء والأبقار التى ترعى على الجانب الآخر من المجرى المائى، وأن اسمه السيد حسن. سألتنى ما إذا قد جاءنى ما يكفينى من الحليب؟ لعله يرسل فى طلب المزيد؛ وعليه دخلنا فى حديث ودى عن عالمه وعن أسعار التمر فى ظفار وعن محصول هذا العام فى كل من البصرة وعُمان، وهو ما سوف يحدد السعر مستقبلاً. كان الرجل عند هذا الحد مستعداً ليحكى لى عن الجبال. قال إن السرقات وبياء مُتفشّ، وإن الرجال الأخيار والرجال الأشرار، يتعين عليهم الحرص أثناء الليل.

وقال أيضاً إن بندقيته مُعمّرة بصفة دائمة. وتساءل عن سبب ضعف الحكومة؟ وسألتنى أيضاً عن عدم قيام السلطان بقطع يد السارق مثلما كان يحدث من قبل؟ وقال أيضاً إن مسألة أخذ اللص إلى مسقط وإبقائه فيها مدة عام ثم عودته سليماً إلى موطنه من جديد، ليست جيدة أو مفيدة بالمرة.

(١) المشعاب: فرع شجرة ينتهى بتقريفة على شكل العدد ٧. (المترجم).



شهارى وثعبان

لكن المؤكد أن اللص القبلى، على حد تفكيرى، لا يمكن أن يسرق من سيد من السادة، إذ بغير هذه الطريقة لن تسائر ظفار الزمن. كان السادة والأشراف^(١) هم نبلاء ظفار، ويسبقون رجال القبائل من حيث المكانة؛ يزداد على ذلك أنهم منحدرون من سلالة النبى محمد (ﷺ)، كانوا يرفعون أيديهم إلى فتحات أنوفهم، ويتشممون قليلاً من السعوط، شأنهم فى ذلك شأن كل رجال القبائل المحلية عندما يحصلون على هذا الفضل.

تحول السيد بعد ذلك إلى موضوع العفاريت، التى هى شكل من أشكال الأرواح الشريرة، لكنى أقسمت له بأننا ليس لدينا عفاريت فى بلادنا، ولذلك فأنا لا أعرف شيئاً عن طريقة مهادنتهم. قال الرجل: "أقسم بالله! إن زوجتى حملت سبعة أبطن ولم تلد فى أى بطن منها. لقد أخذت العفاريت هذا الحَمْل".

هناك أرواح شريرة أخرى كثيرة: الجان، الجنّيات وكذلك الزار. والزار من بين كل ذلك هو الأكثر ملاءمة، والجان يستسلم فى بعض الأحيان للزار، لكن العفاريت لا تستسلم للزار! والعفاريت هى أسوأ المضايقات والمنغصات.

كنت أنا وعلى الضبعان قد رتبنا للسهر فى تلك الليلة إلى ساعة متأخرة من الليل على أمل اصطياد ضبع، لأن الضباع والذئاب تكثر فى هذه المنطقة من سفوح الجبال^(٢).

كنا فى الليلة السابقة قد سمعنا دغدغة الضباع التى كانت تتناهى إلى مسامعنا قادمة إلينا من الجبال الصغيرة المجاورة؛ اتضح أن نار مخيمنا لم تشكل أى فارق لهذه الحيوانات وهى فى جحورها وكهوفها. قام على الضبعان اليوم،

(١) السادة هم أحفاد الحسن، والأشراف هم أحفاد الحسين. وهم فى واقع الأمر ليسوا من سلالة النبى (ﷺ) وإنما من سلالة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى تزوج من فاطمة ابنة النبى (ﷺ). والعُمانيون الذين يتبعون المذهب الإباضى (خارج الزمن الفائت) والذين يشكل الاسم "على" عندهم سُبَّةً ولعنة لديهم مثل سائر يقول على العكس من ذلك: "واسأل البغل من هو أبوه" ويجب البغل قائلاً: "كانت أمى فرساً".

(٢) ينبغى التنويه هنا إلى أن الفهد الأسود يوجد فى الوديان الغابية غير المطروقة؛ ووعلى الجزيرة العربية يعيش دوماً وراء الجبال المأهولة بالبشر وأيضاً فى جبل سمهان؛ أما الثعالب فهى موجودة فى كل مكان، كما أن الغزال يوجد بأعداد كبيرة فى السهول.

أثناء غيابي عن المخيم ببناء ملجأ مجبيني بالطريقة المتفق عليها؛ هذا الملجأ المجبيني عبارة نصف دائرة من الطوب أو الحجر المكوّم تتّسع لنا نحن الاثنين، وتخفينا عن الحيوانات التي تقترب منا داخل هذا الملجأ. كانت المزاغل المطلوبة لبنادقتنا مُموّهة بفروع الشجر شأنها شأن حائط الملجأ. وفيما يتعلق بالطُعْم، كان على الضبعان قد وضع في الليلة الأولى أمعاء خروف على بعد قرابة ثمانى خطوات من حائط الملجأ، وشب ناراً بعد غروب الشمس مباشرة بالقرب من تلك الأمعاء، كيما تحمل الرائحة إلى مسافة بعيدة. وفي الليلة الثانية استعمل على الضبعان السردين طُعماً، ولم يحدث شيء بمعنى لم يأت الحيوان المطلوب. وفي الليلة الثالثة انسحبت أنا وحل محلى بدوى من بدو الكثارين. وجاء الضبع بالفعل. سمعت طلقتين سريعتين، وفي إثرهما سمعت عواء استيقظت في أثره قبل منتصف الليل بفترة قصيرة وهرولت مسرّعاً إلى مكان الملجأ. صاح الرجلان قائلين: "هرب مجروحاً"، وكانا يشيران إلى بركة من الدم. ولما كانا واثقين من أن الإصابة مميتة، فقد راحا يقتفیان أثر الحيوان إلى المسافة التي يسمح بها ضوء القمر، وأقسما أنهما سوف يجدان الحيوان ميتاً، ولكنى استيقظت في الصباح لأعرف أن الحيوان استطاع الهرب، والأرجح أنه سيموت في كهف من الكهوف.

قال البدويان: "لو حدث ذلك في صحراء مفتوحة، لاستطعنا اقتفاء أثره إلى مشواه الأخير، لكن وصوله إلى الوادى الصخرى، يعنى أن ذلك هو ملاذه الأخير".

الفصل الخامس

فى جبال قارة: الرواسب القديمة والتضحية بالدم

"باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد، مساكنهم إلى دور فدور. يُنادون بأسمائهم فى الأراضى". - المزمور التاسع والأربعون، الآية (١١).

لا تزال جبال القارة معروفة على المستوى المحلى باسم الشهازين^(١)، سادة الأرض الأصليين، الذين يُعرفون على المستوى الكونى كله بأنهم أقدم قبيلة فى هذه الأماكن؛ يزداد على ذلك أن الموروث المحلى يشير إلى أن الشهازين من سلالة شداد ابن عاد، لكنهم فى أيامنا هذه ضعاف، ومفككون، محتقرون، فضلاً عن أن الآخرين لا يتزوجون منهم، وهم أيضاً عرق آخذ فى الانقراض والتناقص، كما أن عددهم فى الوقت الحالى، لا يزيد على أربعمائة رجل يعيشون على شكل جماعات سادتهم من القراوين، ويعملون فى نحت خشبهم وجلب مياههم؛ ومع ذلك يقول البشر: إن الأنقاض الموجودة حالياً فى رُباط Robat ، هى أنقاض البلدة إريوت التى كانت موجودة هنا فى يوم من الأيام، وأن ذلك مبعث مباهاتهم Eriyot وتفاخرهم.

(٢) السلف الشهري	الفخذ القراوينى(*)	الاسم المحلى الحالى	اللهجة الشهرية
زوفيرول	بيت تابوك	حاد بى ضمارى	حاد بى ضمارى
جوفاريم	بيت كاشوب	حاد بى ضمارى	حاد بى ضمارى
زارت	بيت قطن	الخاتى	Atkhuti
			بيت خوتى

(١) السوابق at ، ait ، هى الصورة الشهازية لكلمة bait (بيت).

(٢) السوابق : air ، bir ، هى الصور الشهازية لكلمة bin (ابن).

(*) نسبة إلى جبل القراوين. (المترجم).

عينارون	بيت المعشاني	قرهه	Ai Qarho
حيزول	بيت المعشاني	فياح	Ait Fat
بلزيون	بيت جابوب	قبلة	بيت فات
كيتون	بيت عمر (إينر)	ديان	آدين
At Ghuzub.	Airt zurbaig	Ai Zuftair	The Kathir wedge zabriq

لو صح ذلك، فهو يعنى أن اندحار الشهارين وتدهورهم غير وجه الجبال، ذلك أن القراوين، وهم سادة هذه الصحارى بلا منازع بدءاً من ضريات على إلى حضيرام^(١) لم يبنوا مدينة أو مسجداً، لكنهم يعيشون فى العراء تحت أشجار الغابات أو فى كهوف أو منازل يصنعونها من القش. وتتمثل ثروة القراوين فى الإبل، وقطعان لا تُحصى أو تُعد من الماشية، وكذلك بيارات البخور. لكن سيطرة القراوين على الشهارين تشير إلى أنهم تمثلوا ثقافة الشهارين، والسبب فى ذلك أن لغة هذه الطائفة من أهالى الجبال، وكذلك ملابسهم وتصرفاتهم يُعتقد أنها مستقاة من سادتهم الذين جردوا من ممتلكاتهم.

لا أحد يعرف متى حدث ذلك. وهذا هو ابن بطوطة، الرحالة المغربى الشهير وعالم الدين، يكتب فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد خمسة وعشرين عاماً أمضاها فى الترحال خلال مصر، الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين، يكتب قائلاً عن ظفار: "شئ آخر هو أن شعب (ظفار) يشبهون تماماً البشر الموجودين فى شمال غرب أفريقيا من حيث العادات... كما أن الجزء البعيد عن وسط الجزيرة العربية ليس عربياً، وإنما هو من أصل سودانى".

وفيما حول جبال قارة وورائها، وذلك فى المنطقة من خط طول ٥١° و ١٠° إلى خط طول ٥٦° و ٢٠°، نجد قبائل مختلفة من الناحية البدنية عن عرب شمال

(١) وذلك باستثناء الوند الكثرى فى الغرب الأوسط فيما بين جورزاز وثيقا.

الجزيرة العربية، كما تستعمل هذه القبائل لغات أماً^(١) غير عربية. وهذه القبائل هى: القراوين^(٢)، الشهارين^(٣)، المهارين^(٤)، البراهيم، البلحافيين، بيت الشيخ، البتھاريين، الحراسين، الأفارين^(٥)؛ وأهل عمان أو الشعب العماني يطلقون على كل هذه القبائل اسم أهل الهدارة، ويرجح أن يكون هذا الاسم له علاقة بالاسم حادورام الذى ورد ذكره فى سفر التكوين (من حذف حرف الـ m الأخير الذى يشكل صيغة الجمع فى اللغة السامية، يضاف إلى ذلك أن الحرف m يشكل أداة فى اللغة السبئية القديمة)، وهى أيضاً أدراميتاى عند المؤرخ بلنى. يزداد على ذلك أن حادورام وكذلك هذرا مافت (وهما عادة ما تتساويان فى حضرموت)، تردان هما الاثنان فى سفر التكوين وتسميان شقيقتين، ومعروف أن ظفار مجاورة لحضرموت.

يبدو أن جبال القراوين (القارة)، التى تقع من الناحية الجغرافية فى وسط تلك الأرض العرقية المحاطة بأراضٍ أجنبية، أو إن شئت فقل مسدودة المسالك، فى جنوب الجزيرة العربية، كانت تشكل ملجأ وملاداً طبيعياً للسكان الأصليين أو المستوطنين الأوّلين الذين طُردوا فى اتجاه الجنوب والشرق بواسطة بشر أكثر منهم رجولة وفحولة، أو جرى الهجوم عليهم من البحر.

(١) من بين اللغات الأربع وبالتحديد اللغة: الشهارية، المهرية، البتھارية، الهرسوسية، حاولت تشكيل بعض المفردات، وكانت كل مجموعة مكونة من خمسمائة كلمة، واستطعت من خلال هذه الكلمات استخلاص بعض القواعد النحوية. وهذه اللغات تنتمى إلى المجموعة السامية، لكن بينها صلات بنيوية تربطها باللغة الإثيوبية أكثر من ارتباطها باللغة العربية.

(٢) الشهريّة: يتكلمها القرويون، الشهارين، البراهيم، وبيت الشيخ.

(٣) المهرية: يتكلمها المهيرون البتھاريون.

(٤) البتھارية: يتكلمها البتھاريون.

(٥) الهرسوسية (الأفروتية) يتكلمها الهراسين والأفارين.

اللغة الشهريّة لا يفهمها من يستعملون اللغات الأخرى، وبرغم ذلك يستطيعون فهم بعضهم البعض بصعوبة بالغة.

لم أكن أعرف أن اللغة المهرية هى واللغة الشهريّة قام بتدوينهما الدكتور ماكسميليان بنتر، الفقيه اللغوى الألماني، الذى كان يشتغل على مادة قام يجمعها من كل من حضرموت وسوقطره بواسطة الدكتور مولر، فى رحلته التى قام بها إلى الجزيرة العربية (فى العام ١٩٠٢) والرحلة التى قام بها الكونت لاندبرج (فى العام ١٨٩٨ / ٩٩).

جدير بالذكر هنا أن لغة الهرسوى واللغة البوهترية اللتين تبدوان وكأنهما شكلان متباينان من اللغة المهرية، لم يسبق تدوينهما على حد معرفتى.

يا له من مكان جليل! جبال يصل ارتفاعها إلى قرابة ثلاثة آلاف قدم تقف شامخة وعامرة بالدفع والضوء فوق محيط مدارى، ومنحدراتها نحو البحر بغاباتها المتموجة تشبه القطيفة، وتيجان هذه الجبال معطرة بمروج متدرجة صفراء اللون، تنحدر الجبال من ورائها إلى ناحية الشمال على شكل سهوب مترامية الأطراف حمراء اللون وعامرة بالنُّبُوت الصحراوية. أمران متناقضان، لكنهما واقعان حقيقيان فى سائر أنحاء ذلك الشريط من الأرض الذى يعلو سهل جوريب. ازدددت فرحاً وسروراً عندما وقعت فجأة على هذا الشريط من الأرض فى العام ١٩٢٨ الميلادى، بعد خروجى من المنطقة المجذبة القاحلة.

أخيراً بدأ يَحِلُّ محل الأشجار سهل مرتفع معشوشب مضاً بضوء القمر، الذى كان بديراً فى ذلك الوقت وتوقفنا فى هذه المنطقة لقضاء الليل. وهنا ومن خلال جنير وخوار القطعان، ثم بعد ذلك خوار الرِّحَّالات^(١)، التى هى أنواع من الأبقار ذوات القرون المتجهة نحو الأسفل، عرفنا أننا توقفنا على بعد مسافة قصيرة من قرية مدسيب. وسرعان ما جاءتنا سلطانيات مملوءة بالحليب، لكنى كنت متعباً إلى الحد الذى حال بينى وبين التعامل مع الثعبان الذى أمسك به حياً أحد المواطنين، وعليه وضعت ذلك الثعبان فى برطمان، وإن شئت فقل قارورة، انتظاراً لطلوع النهار.

استيقظ المخيم فى ساعة مبكرة ووجدت نفسى فى وادٍ معشوشب جليل، فيه قمم صخرية على الجانبين، تنتشر هنا وهناك الكهوف الصخرية الطبيعية التى يتصدرها الصواعد والهوابط^(*)، التى أوحى لنا بفكوك ضخمة. كانت هناك جمالونات من القش أو القش الشوكى تحُدُّ الكهوف التى يسهل الوصول إليها، والتى يلجأ البشر إليها أثناء برد الشتاء وهرباً من رطوبة الصيف، وهذان الأخيران يعدان نوعين من الترف عند سكان هذه الجبال. وهذا هو حسن آخر،

(١) الرحالات: اسم يطلق على سكان هذا المكان على نوع من الأبقار ذوات القرون المتجهة نحو الأسفل. وهذه الأسماء تعد من الموروثات (كما هو الحال فى عائلات الجمال والخيل)، وهذا الاسم مشتق من الاسم الأم. يزعم رعاة القطعان أنهم قادرون على معرفة كل رأس من هذه الأبقار التى يرعونها، إذا ما سرت. بعد عام أو عامين، حتى وإن كانت هذه الأبقار ضمن قطعان غريبة. (* واحدة صاعدة وهابطة: والصاعدة أو الهابطة عبارة عن عمود من ترسبات كربونات الكالسيوم. (المترجم).

وهو رجل ضرير يعانى الشيخوخة، يصر على ترك مكانه فى الدائرة ليجلس بجوارى، قُدمت لنا القهوة مع التمر، وتسبب ذلك الرجل فى إضحاكنا جميعاً عندما راح يغمس التمر فى القهوة، واقع الأمر أن الرجل لم يكن معتاداً على هذه الأشياء الترفيحية، هذا إن كان ينظر إلى هذه الأشياء بهذا المنظار.

أثار شيخنا حسن غمغمات الإعجاب المثيرة لأنه كان يرتدى العباءة الزرقاء النيلية التى أهديته إياها، وقلت للرجل العجوز إنى أود أن أرسل له هدية هى مثل عباءة الشيخ حسن بالتمام والكمال.

صاح العجوز قائلاً: "عليك بيض"، وهذا التعبير عبارة عن صورة تعبيرية مغايرة للتعبير الشائع "الله بيض وجهك" (بمعنى بيض الله وجهك)، وهو تعبير يدل على الود والاعتراف بالجميل أو الفضل.

واصل الرجل كلامه قائلاً: "والله ! أنا أحبك، يا صاحب. أنا عجوز وأوشكت على الموت، لكن إذا ما قلت، "لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"، فسوف أعطيك بنتين زوجتين لك، وسوف أعطيك كل ثروتى".

سَرَتْ بين الحاضرين ضحكة مكتومة وأشار الشيخ حسن له بالتقليل من كلامه.

كان صندوق أدويتى قد جر على شهرة كبيرة، كما هو الحال فى كل الأحوال، وجلب هذا الصندوق على رهطاً كبيراً من المرضى والمصابين. وفى هذه المرة جاءوا إلى بصبى صغير، ضعيف وهزيل بسبب إصابته بالسل الرئوى، إذ كان يتفل دماً وكان نهباً لأنواع كثيرة من الحمى.

سألنى والد هذا الصبى متوسلاً، "هل عندك دواء لهذا الصبى، يا سيادة الوزير؟ الناس يقولون إن الكفرة لديهم عقاير لكل شىء".

أطال رفاقى النظر إلى المتكلم، وحاولوا إفهامه أن المصطلح "كافر" مكروه منى، على الرغم من أن الرجل لم يقصد المساس بى بأى حال من الأحوال، لأنه استعمل هذا المصطلح فى "غير المسلم". قالوا له: "هو وزير السلطان".

كانت عملية التحميل عملاً غير سار نظراً لأن الندى كان كثيفاً. وبعد مسير نصف ساعة محسوبة من بداية التحرك وصلنا إلى نقطة غادرنا عندها الوادى

ودخلنا ممر السَّعارين، لنصعد إلى ارتفاع خمسمائة قدم لدخول منطقة حجرية منحدرية.

وسرنا بعد ذلك فى مروج صفراء اللون متدحرجة، يصل ارتفاع العَلَف فيها إلى حزام الإنسان، وكانت تصادفنا بين الحين والآخر تجمعات من أشجار التين العملاقة التى كانت تتوج قمم الجبال الصغيرة أو توجد فى التجاويف التى بين الجبال. كنا نرى وراءنا وأسفلنا، من بعد، البحر بمياهه خافتة الزرقة، ومن حولنا كنا نرى منطقة منخفضة متوجة صخورها والتى تكسوها الغابات فوق نيهاز، والتى كانت تحدُّ الأفق الغربى بين الحين والآخر. هنا، وعلى ارتفاع ١٥٠٠ قدم نجد أن حياة الطير التى تجود فى الوديان المنخفضة تتناقص هنا وتكاد تكون مقصورة على الصقور العصفورية، وعلى الكثير من اللقائى كبيرة الحجم، لكن الفراشات، الجنادب، والجراد متباينة الأنواع وكثيرة العدد.

ألقينا نظرة على الأسفل حيث يوجد واد يشرح الصدر، هو بمثابة مقصدنا الذى عقدنا العزم إلى الوصول إليه، ويُطَلَقُ عليه اسم العين، وهو عبارة عن مستوطنة من مستوطنات حادى ضُمارى، وفيها تتبثق من الأرض عين من عيون الماء الموجودة فى بطن الغدير الذى تكسوه الغابات. كانت هناك شجرتان من أشجار التين البرى، وكانت الشجرتان كبيرتين وظليلتين مثل أشجار الجوز الإنجليزية، وكانتا تحملان ثماراً شبيهة بالتفاح، الأمر الذى شدنى إلى التخيم فى العراء، وهنا طالبت بعمل وقفة. أدى التسلق الذى دام ثلاث ساعات إلى إحساس بالعطش، لكن يستحيل الحصول على الحليب فى فترة الظهيرة، يضاف إلى ذلك أن اللبن الرائب الذى أحضروه إلىَّ، جاء بعد أن ارتويت من حليب ثمرة طازجة من ثمار جوز الهند.

ظهرت لنا ونحن ننظر، من حرف الجبل، أو إن شئت قل طُنف الجبل، مجموعة من رجال قبيلة القراوين التى يتزعمها الشيخ حسن، وكانت المجموعة تغنى النشيد الخاص بالقبيلة، وإن شئت فقل الدنادون^(١) الخاص بالجبال. همَّ بعض أفراد قبيلة القراوين الموجودين فى العين للقاء زملائهم من أفراد القبيلة،

(١) أوردنا فى الملحق رقم ٦ قائمة بأغاني الإبل وأغاني الجبل، قمنا بتسجيلها طبقاً لأصول التدوين الأوربى.

وكان واحد منهم شاهرا سيفه ليرقص تكريماً للقادمين والترحيب بهم. توقفت الجماعة القادمة على شكل جمهور أو جمع من الناس حول قائدهم، وهو يقوم بحركات بطولية هيكلية مرتجلة احتفالاً بالمناسبة، واصطفوا بعد ذلك وراحوا يتغنون بثنائيات جديدة، ثم جاءوا بعد ذلك إلى أن أصبحوا وجهاً لوجه من المرحبين بهم الذين تمثل دورهم فى ارتجال رد مماثل على أغنية أو نشيد القادمين. وبذلك يستمر الغناء بالتناوب مدة خمس دقائق بين الطرفين.

يشكل رجال الجبال أصحاب البشرة الدُّكْناء، وذوى الشعر الطويل الأشعث الذى يرفعونه ويعقصونه فوق رؤوسهم فى بعض الأحيان، على شكل كعكة، لكنهم فى كثير من الأحيان يتركون شعر رؤوسهم أشعث يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البشر لا يتركون الشعر ينمو فى وجوههم، اللهم باستثناء خصلة (سكسوكة) من الشعر فى أسفل الذقن، هؤلاء البشر من نوعية غريبة تماماً، ووجوههم ليست عربية. لباسهم هو العباءة المعتادة نيلية اللون، والتى يقطعها الأثرياء بحيث تكسو نصف الجسم، وتسمح بوريها على كتف من الكتفين. والواحد من هؤلاء البشر يتمنطق بحزام من الجلد، به فتحات مثل جبخانة(*) الذخيرة، رؤوس هؤلاء البشر مكشوفة، اللهم باستثناء شريط من الجلد يُثَبَّتُ الرجل به شعره؛ أذرعهم السوداء وأرجلهم من تحت الركبتين عارية. السواد الأعظم من هؤلاء البشر يلبس الواحد منهم فردة حلق واحدة فى الأذن اليمنى وسواراً مفرداً فوق الكوع الأيمن، شأنهم فى ذلك شأن المهرة أو المهرين والقبائل المعروفة المجاورة لهم.

تطلَّب استقبال رجال الشيخ حسن، منى ذبح بقرة على حسابى الخاص، ووضع على الضبعان فى حسابانه مسألة أن تكون منطقة ذبح البقرة على مقربة من الشجرة، التى سنسهر تحتها، كنت أنا وعلى الضبعان مستلقيين فى انتظار شئ ما، وعند الساعة العاشرة مساءً جاء حيوان إلى المكان الذى توجد فيه أمعاء البقرة. استحال علينا، حتى على بعد ياردات معدودات، تبين حقيقة ذلك الوحش، كما أن مسألة استعمال النظارات المكبرة عديمة الجدوى مع مثل هذا الظلام. كان كل ما استطعنا عمله هو الانتظار إلى أن يقترب الوحش إلى مسافة تمكَّننا من التنشين الجيد عليه، وهنا يمكن الاستفادة من كل من البندقية التى بحوزتى

(*) الجبخانة: الحزام الذى توضع فيه طلقات الذخيرة، والكلمة من أصل تركى. (المترجم).

وتلك التى بحوزة على الضبعان. وعندما اقترب ذلك المخلوق وهو يتشمم طريقه صوبنا بندقيتنا نحوه على أفضل نحو ممكن. وعندما أصبح ذلك المخلوق لا يبعد عنا أكثر من سبع ياردات، لمس على الضبعان قدمى بقدمه، وهى الإشارة التى سبق أن اتفقنا عليها. دَوَّتْ طلقتان فى آنٍ واحد وقفز الحيوان فى الهواء مُحْدَثاً نخيلاً وسقط ميتاً على الأرض وسط بركة من الدم. قفزنا نحن الاثنين، وكان على شاهراً خنجره احترازاً وتحوطاً للمكر والخداع، لكن جسم الحيوان لم يُبَدِ أية استجابة بعد أن ركله على برجله، وبعد فحص الحيوان وجدنا أن طلقة من الطلقتين كانت فى العنق، والطلقة الثانية فى جسم الحيوان - كان الحيوان عينه رائعة لضبع كامل النمو، وكان ذلك أول ضبع من بين خمسة ضباع حصلت عليها خلال الأسابيع القليلة التى تلت ذلك.

تمنيت أن تُتاح لى فرصة اصطياد ذئب من الذئاب، وجاء جئير الأتان فى ساعة مبكرة من الليل - ذعراً على وليدها - إشارة إلى وجود ذئب. كان الطُعم الذى قدمناه للذئب كافياً، والسبب فى ذلك أنه على الرغم من قيام الذئب بمهاجمة صغار الحيوانات الأليفة، والماعز، والحملان والعجول الصغيرة - فهو مثل الضبع يعيش على الرمم والجيف. الضبع على العكس من الذئب يحتقر الأجسام الباردة، وعليه فإن الضبع، مثل الإنسان، يعيش على ما يصطاده فقط. ومن هنا يمكن أن يكون الضبع تهديداً للإنسان والحيوان على حد سواء، وفى أضعف الأحوال الذى فشل فى الهجوم عليه فى مكان ضيق، وهذا هو السبب الذى يجعل مواطنى هذه الجبال يتعاملون مع الضبع على مدى يزيد على المائة ياردة بخمول ينم عن الاحترام والتقدير. والناس هنا لا يفتحون النار على الضبع إلا عندما يهاجمهم بطريقة مفاجئة وعلى مدى قريب.

تساءل الشيخ حسن، وهو يحاول الرد على إلحاحى ولجاجتى، "تقول الضباع؟ إنها نادرة، أما الذئب، فبإمكانك الحصول على واحد هذه الليلة. أرسل على الضبعان إلى حيث يقيم عمى. وهم سيدبحون الليلة ست بقرات على سبيل القرى لعمتى التى تُوفِّيت فى منتصف القمر (الشهر) الماضى، يزداد على ذلك،

أن رجالى ذاهبون هذه الليلة لحضور هذه الوليمة، ومن المؤكد أن ذئباً سيأتى هذه الليلة إلى مكان الذبح".

وهنا نجد موروثاً عظيماً شديد الأهمية - قربان الدم والقربان المحروق. هنا وفى سائر أنحاء جبال القراوين، نجد قاعدة لا يمكن كسرُها أو الخروج عليها، ومفادها أن نصف أبقار المتوفى يتعين ذبحها بعد وفاته وذلك على سبيل القربان. وبذلك يتعين تبديد نصف ثروة هذا المتوفى من أجل روحه - وذلك من باب الانتقام من منقولاته وإرثه، وذلك على الرغم من أن ذبح بقرة واحدة أو شاة واحدة تكفى عندما يكون المتوفى من الفقراء، قربان المتوفى الذى يُقدر بقراءة عشرين من البقر؛ هذا يعنى أن من يملك ما يزيد على أربعين بقرة، يزيد قربانه على هذا الحد. ومع هذه الأبقار التى يجرى ذبحها، يمكن أن يضاف إليها جمل وبعض من الأغنام، لكن يبدو أن قيمة البقرة فى القربان لا تتناسب مع قيمتها الحقيقية.

وفى يوم الدفن، وعادة ما يكون هو يوم الوفاة، يجرى ذبح بقرة أو اثنتين على قبر المتوفى، مع ترديد العبارة التالية Dai bi Huduktos Hadhail ir Hadail.

وهنا يتعين انقضاء ليلتين وفى الليلة الثالثة تقدم بقرة أخرى على سبيل القربان - وهذه البقرة الثالثة التى يجرى ذبحها يطلق على مناسبة ذبحها اسم "الختوم". وتمر فترة أخرى، وهى تتباين حسب أحوال أقارب المتوفى وإمكاناتهم. وهذا القربان الكبير يُطلق عليه اسم يوم النخيرة (يوم النحر). ويجرى تقديم قربان الختوم (الخاتمة) وقربان النخيرة فى المكان الذى كان يعيش فيه المتوفى وليس على قبره. ويقوم أقارب المتوفى بذبح المزيد من الأبقار على سبيل القربان، والشئ نفسه يفعله أصدقاء المتوفى والذين يكون المتوفى قد قام بتقديم قربانينهم من باب المجاملة يوم أن كان على قيد الحياة. يجذب هذا الذبح الذى يجرى على نطاق واسع كل الجيران فضلاً عن البطن من القبيلة التى ينتمى إليها المتوفى، إذ يقوم أفراد هذه البطن بتقسيم اللحوم فيما بينهم وينصرفون إلى حال سبيلهم حاملين معهم هذه الأنصبة الطيبة من اللحوم. والزوار الآخرون الذين لا ينتمون إلى القبيلة ليس لهم هذا الحق، لكن يُدعون إلى المشاركة فقط فى الوليمة، التى يجرى فيها ذبح بقرة واحدة وطهيها.

يجرى بعد ذلك توزيع ما تبقى من الثروة على أقارب المتوفى^(١).

قبائل الحدود الجنوبية أمثال بيت الكثارين، وأيضاً في جبال القراوين لا تسود بينها الشريعة الإسلامية، وإنما يسود بينها الأحكام العرفية. وبيت الكثارين على سبيل المثال لا يمكن أن يعطوا الدائنين أكثر من ثلث تركة المتوفى. والثلثان الباقيان بعد ذلك يجرى تقسيمهما بواقع الربع للزوجة التي أنجبت أبناء للمتوفى، أما الباقي من التركة فيجرى تقسيمه على الأبناء طبقاً للنسبة المعتادة؛ أى طبقاً للمبدأ الذى يقول: للذكر مثل حظ الأنثيين. ويختلف العرف عن الشرع عندما لا يكون للمتوفى ولد وإنما لديه أقل من ثلاث بنات، وفى حال وجود ثلاث بنات أو أكثر، فإنهن يأخذن التركة كلها، وهنا لا يحصل أبناء العم على أى شيء.

قوانين الميراث فى جبال القراوين عجيبة - هؤلاء البشر مقيدون بتأليه قريان الوفاة، وثروة هؤلاء القراوين مثلاً سبق وأوضحنا، تتمثل فى الأبقار بصفة عامة، والإنسان عندهم، عندما يتوفى، يقومون بذبح نصف ماشيته على سبيل قريان الدم. والدائنون يحق لهم أخذ ما يقدر بعُشْر التركة، وما يتبقى بعد ذلك يجرى تقسيمه بين الزوجات والأبناء والبنات. والزوجات يأخذن العُشْر عندما تكون التركة صغيرة، وعادة ما يأخذن خمس بقرات عندما تكون التركة كبيرة. وهناك ملمح عجيب بين هؤلاء البشر وإن شئت فقل: هذه المجموعة من القبائل؛ ومفاد هذا الملمح العجيب هو أن أقرب أقارب المتوفى. من الذكور لا يحصل على شيء من التركة؛ مع أن الشريعة الإسلامية تجيز له النصيب الأكبر.

وإذا ما كان للزوجة ابنتان، فإن ذلك يجعل نصيباً من التركة لأقرب أقارب المتوفى. وهذا يجعلنا نتفكر قليلاً فى مسألة العددين ١ و ٣، وهناك نقطة خلاف أخرى بين منظومة الجبال وبين قبائل جنوب الجزيرة العربية، لكن طبقاً للشرع فإن الزوجات كلهن يحصلن على نصيب واحد بغض النظر عن إنجابهن أو عدم إنجابهن.

(١) تنص الشريعة الإسلامية على الطريقة التى يجرى بها تقسيم ثروة المتوفى. يضاف إلى ذلك أن حق الوصية محدود للغاية، ويكاد يكون غير موجود عند القبائل. والزوجات الشرعيات هن وكل الأبناء لهم نصيب من الثروة؛ والابنة تأخذ نصيباً واحداً، والولد يأخذ نصيبين والزوجات يأخذن النُصْن ويقسمنه فيما بينهن. وإذا لم يكن للمتوفى أبناء. جرى توريث العم أو أبناء العم فى حال عدم وجود العم.

الزوجة فى هذه القبائل لا يجوز لها أن تُظهر حزنها عندما يُتوفى عنها زوجها. أما الأمهات، والبنات والأخوات فيحقُّ لهن البكاء ورفع أصواتهن، وعند القراوين تسدل النساء شعورهن، ويلطمن رؤوسهن، ويهلن التراب عليهن؛ لكن مشاركة الزوجة فى حلقات النذب على المتوفى تعد أمراً مشيناً - هذا يعنى أنها يجب أن تخفى نفسها عن مثل هذه الحلقات.

الفصل السادس

جبال قارة: الضباع، العلاجات الإيمانية والختان

"حمار العين! حمار العين!" تلك هي صيحات - التعبير المسكوك المعتاد الذى يقال عند امتداح شجاعة الرجولة - التى استُقبل بها على الضَّبَّعان عندما عاد عند الفجر من مكان القريان، وكان معه ذئب ميت، مُحمَّل على ظهر حمار.

لم أستطع الاضطبار، ولم يكن بوسعى فعل أى شىء أكثر مما يدور أمامى، سوى الاستدارة فى اتجاه على، ورفعت يدى محيياً إياه، وبخاصة أنى كنت مدعواً إلى أديقاف، تلك القرية الصغيرة، الواقعة على الجانب المواجه لمخيمى والتى يقيم فيها جمعان، شيخ قبيلة الشهارين. كان يرقد فى كوخ من أكواخها الحقيبة رجل يُحتَضَر. هذا الكوخ المصنوع من القش على شكل خلية من خلايا النحل، لم يكن طول قطره أو ارتفاعه يزيد على طول أو ارتفاع رِجْل من الرجل، وكان مدخله عبارة عن ثقب لا يمكن الدخول منه إلا زحفاً. كان ذلك الكوخ مفروشا بالقش، ولم يكن فيه وجار(*) بطبيعة الحال.

تمثل كل الأثاث الموجود فى هذا الكوخ الحقيقى وعاء مصنوع من أغصان القصب المجدولة ويستعملونه فى حلب الماشية، بالإضافة إلى بعض الأوعية القليلة الخاصة بالماء، الزبد، أو العسل أو ما شابه ذلك - وهذه الأشياء من صنع النساء. وعلى مقربة من هذا الكوخ كانت هناك بنايات أكبر حجماً وتوحى بشيء من الطموح، وجدرانها مصنوعة من الحجر، غشيمة، غير مشذبة، وليست مُلَيَّسة

(*) الوجار: عند بدو الجزيرة العربية هو الموقد المستعمل فى عمل القهوة. (المترجم) ..

بالأسمنت. كانت تلك البناءات خاصة بالماشية التى توضع بداخلها فى فصول الاعتدال المناخى، لكن هذه الماشية هى والبشر تأوى إلى الكهوف والأكواخ اتقاء لأمطار الصيف وبرد الشتاء؛ وهذه الكهوف موجودة بأعداد كبيرة فى الوهاد والتجاويف التى تبرز فيها طبقات الحجر الجيرى. معروف أن هبوب الرياح هنا وعلى مر العصور تتسبب فى عمل هذه الكهوف والمغارات الطبيعية، التى لا يلزمها سوى تغطية مداخلها بالقش لتصبح ملجأ وملأذاً فسيحاً لكل من الإنسان والحيوان.

هيا بنا إلى الموجود على الجانب المقابل من المرج الأخضر ومعه الضَّبْع الذى اصطاده. هبت أثناء الليل ريح الشمال الباردة على ارتفاع ١٦٠٠ قدم؛ بهواء مشوب بضوء الشمس، معبق برائحة التبن والقش والعلف، الأمر الذى ولّد إحساساً طيباً بالبقاء فى قيد الحياة.

أحضر البدو لى ثلاثة ثعابين، كان أصغرها يجمع بين اللونين: الأبيض والأسود ويعد نوعاً جديداً من الثعابين؛ وكان الثعبان الثانى ينبض بالنشاط والحيوية الأمر الذى جعلنى لا أركز اهتمامى عليه؛ أما الثعبان الثالث فكان من نوع الدولولات dololat ، وهو حيوان مخيف الشكل غريبه يبلغ طوله قرابة تسع عشرة بوصة فقط، مربع مثل الكعكة، وعلى جسمه علامات على شكل الرقم العربى ٧ وله رأس ضخيم مسطح - وهو أفعى أفريقية تتفخ رقبتها عند الاهتياج. كان البدو يُحضرون إلى يومياً ثعباناً من هذا النوع، الأمر الذى أوحى إلى بأن هذا النوع من الأفاعى هو الأكثر شيوعاً فى هذه الجبال. هذا الثعبان أبطأ من الأفاعى الأخرى فى تحركه وهو سام بدرجة تؤدى إلى الوفاة، وعليه يتعين على كل من يمشون هنا على الأدغال التى تغطى سطح الأرض، الحذر والانتباه، وذلك على النقيض من مطاردة الفراش من طراز الشراكس؛ على الرغم من أن مطاردة الفراشات من هذا النوع (الذى حصلنا عليه كانت هى الوحيدة المثلة لهذا النوع الأفريقى من الفراش الذى عُثر عليه فى الجزيرة العربية)، تُحتّم أن يكون الرأس مرفوعاً إلى أعلى، الأمر الذى يجعل المرء يفتل عن الخطر الموجود تحت قدمه.

وعندما كنت أخرج أمعاء هذه الأفعى النافخة - وجدت بداخل جسمها سبع عشرة دودة شريطية؛ الأمر الذى خدعنى فترة من الوقت - وفجأة أحسست

بلدغة حادة فى إصبعى وأمضيت ساعة كاملة بعد ذلك وأنا ينتابنى القلق وعدم الارتياح، على الرغم من حذرى واحترازى عن طريق استخدام الملاقط، مخافة أن يكون أى جزء من الأجزاء الداخلية فى هذه الأفعى ساماً. لم تترتب على هذه اللدغة آثار سيئة، وهنا توصلت إلى أن بقعة من الفورمالين قد لمست جزءاً من يدى وإن هذا الجزء ربما كان مصاباً بخدش بسيط.

متسلقو الجبال، أو بالأحرى سكان الجبال، لا يأكلون لحم الضباع أو الثعالب؛ يضاف إلى ذلك أن البيض، والدجاج هو والطيور على اختلاف أنواعها محظور أكلها أو أكل لحومها؛ شأنها فى ذلك شأن الضفادع والقواقع المحرم أكلها فى إنجلترا^(١). هذا يعنى أن المسموح به وغير المسموح به فى سائر أنحاء منطقة الحدود الجنوبية للجزيرة العربية أمر يتباين ويختلف من مكان إلى آخر فى هذه المنطقة. وإذا ما استثنينا السكان المستقرين هم وهذه المجموعة المركزية من القبائل التى تتكلم لغات غير عربية، نجد أن الناس يأكلون لحوم الضباع فى كل مكان بدءاً من حضرموت إلى عُمَان؛ وعلى الجانب الآخر نجد أن لحوم الثعالب يجذبها البدو العُمانيون؛ وهذا البدوى المترحل على الضَّبَّان، الصياد العتيد، يُحَبِّدُ أكل لحوم الضباع؛ ولحوم الذئب لا يأكلها أى أحد من البشر. وليست طبيعة اللحم وحدها هى التى يدور الجدل حولها بين المؤمنين، وإنما يدور جدل كبير أيضاً بينهم حول طريقة اصطياد هذه الحيوانات. والشريعة الإسلامية، شأنها شأن الشريعة العبرية، تجيز أكل لحوم الحيوانات التى يجرى صيدها، كما لو كانت قد دُبِحت بسكين جرى تمريره على أزوارها. ومن العبط والسخافة أن نقول لبدوى إن النية، يوم أن كانت الأسلحة النارية غير معروفة، كانت تهدف وترمى إلى مجرد منع أكل لحوم الحيوانات النافقة، ربما حتى بسبب المرض^(٢). العربى الأُمى يفضل الإرشاد المباشر ويتجنب التكهّنات التى من قبيل كفر، بمعنى الزندقة. هذا يعنى أن هذا العربى الأُمى قد لا يأكل لحم الطائر الذى له قمة معقوفة. هذا يعنى أن الإيحاء بأن القمة أو العرف المعقوف يدل على أن هذا

(١) أبلغونى أن الدجاج والبيض وكذلك الأسماك لا يأكلها رجال القبائل فى منطقة المدينة (المنورة).

(٢) ربما كان الهدف هو استنزاف الدم، وربما كان ذلك لتغذية الإله فى المذبح، قارن هذا بما جاء فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الآية الرابعة، "غير أن لحماً بحياته نيئاً، لا تأكلوه".

الطائر أكل للجيء، لا علاقة له بالتحريم الدينى. هذا يعنى أن "لا تفعل" هى القانون؛ وأصل هذا المبدأ هو والسبب الذى يقف وراء، لا يعنى شيئاً أو يهتم العربى الأمى، ولا يهتمك أنت شخصياً، وعليه، صادفت عسكرياً حضرياً فى عمان، متيماً بأكل لحوم الثعالب، عندما وقف مشدوهاً عندما سألتها ما إذا كان لحم الصقور يجوز أكله.

قال: 'هذا مستحيل .. الصقر من ذوات الأعراف المعقوفة. نحن لا نأكل الحُبَارى أيضاً، ثم راح يدقق النظر فى على الضَّبَّعان الذى أمضى فترة الصباح فى تقطيع لحم الضبع إلى شرائح طويلة كان يعلقها على شجرة حتى تجف.

سأله الرجل "ما هذا الذى تفعله، يا على؟".

رد عليه على: «أنا آخذ هذا اللحم دواء لصديق مريض فى صلالة (اعتقاداً منه أن لحم الضبع له بعض الخصائص الشفائية فى بعض الأوجاع البشرية، فالمرضى الذى يشكو من آلام فى ظهره- يأكل لحم ظهر الضبع، والذى يشكو من ألم فى رجله اليمنى، يأكل من لحم رجل الضبع اليمنى، وهكذا، وهذا الاعتقاد واسع الانتشار). ومن الطبيعى أن يعرف الجميع، بمنّ فى ذلك العبد الطاهى الذى كان يتلذذ بتداول هذه القصة - أن على الضبعان، ذلك الحضر موتى، كان يدخر هذا اللحم لعائلته وأسرته».

لكن الضبع المحرم أكل لحمه عند سكان هذه الجبال ليس شيئاً أو ضبعاً معتاداً. سكان هذه الجبال لا يمتنعون فقط عن أكل لحم الضبع، وإنما هم لا يقتلونه ولا حتى يساعدون على تدميره والقضاء عليه. البشر هنا يعتقدون أن الضبع حيوان سحرى؛ الضبع هو الجمل الذى يركبه الساحر، والذين يهاجمونه يَجْرُونَ على أنفسهم انتقام حَظِيَّتِهِ منهم. كما أن الأبقار تتفق أو قد تحدث أنواع أخرى من العقاب. وعليه، كان القراوين متعودين على رؤية رأس الضبع وأنا أسلقها وأغليها (وهذه هى الطريقة التى أتبعها فى تنظيف الجمجمة) فى الإناء الذى نستعمله فى طبخ الأرز؛ التزم الشيخ حسن، الذى كنت فى حمايته، الحذر، على حد ظنى، لأنه كان يحاول استرضاء ضميره، لأنه كان يؤمن إيماناً راسخاً

بالضبيع، ووصل به الأمر إلى حد أنه أقسم لى أنه صادف ذات مرة ضبيعاً ميتاً وكان لابساً حلقاً فى أذنيه. والذى لا شك فيه أن سيدة عجوزاً، محظيته مع مجموعة من الطلاسـم والتعاويد السحرية أدت إلى خرم أذنيه ووضع الحلقين فيهما. هذه القصة نفسها أقسم على صدقها شيخ الكثارين فى دارفور، والذى أشهد على صدق ما يقول.

ازدهرت عملية الصيد التى قمت بها فى بلدة العين، لكننى كنت أواجه مشقة كبيرة، بل كنت أفشل فى بعض الأحيان، فى إقناع من يقومون بجمع الفرائس، أن يصطادوها أو يقتلوها على نحو لا يؤدي إلى إتلاف جلد الحيوان على نحو لا ينفع بعده أن يكون عينة علمية. وتمثلت الصعوبة الرئيسية فى مطلب دينى فى إحداث جرح جانبى عميق عبر زور الفريسة، لكن على الضبيعان وأنا معه ابتكرنا حلاً وسطاً يقوم على بمقتضاه بعمل شق طولى فى الجلد أسفل زور الفريسة (وهذا هو ما أبتغيه أنا)، ثم يطويه من جديد ثم يقوم بعمل طقوسه الدينية الأصولية تحت الجلد.

كنت رافضاً تماماً لأى شىء يمكن أن يؤدي إلى إتلاف، وفى ضوء الحل الوسط الذى كنا قد توصلنا إليه، أعرب على الضبيعان عن مدى حزنه العميق على الثعلب الذى قتله هو بالطريقة القديمة، ولم يكن مخالفاً للشرع عندما أكل من الفريسة. أعجبتنى هذه التقوى من جانب ذلك القاتل الذى له خمسة عشر ولداً كلهم من الذكور!

ومع ذلك، نظر الجندى العمانى إلى على الضبيعان نظرة احتقار، إلى حد أنه قال له: «هذا الذبح ليس شرعياً - وعليه فلن ألس هذا الصيد!».

يقضى العرف عند كليهما، أن الحيوان يمكن أن يموت رمياً بالرصاص وأن الأمر سيكون على ما يُرام مادام جرى إحداث جرح جانبى غائر فى الزور، مع البسمة مع اندفاع الدم، «بسم الله الرحمن الرحيم!».

لا أدري ما إذا كانت رائحة الطعام الذى يجرى طهيه، أم أن الإحساس بالجوع نتيجة اقتراب موعد وجبة من الوجبات، هى التى جلبت المواطنين إلينا من جميع الاتجاهات. كان من بين هؤلاء المواطنين عجوز من المهارين، لم يأت إلينا خاوى

الوفاض، وقف على مقربة منى يراقبنى وأنا أُجهز على الحرياء التى جاء بها إلينا.

انفجر عجوز المهارين قائلاً: «والله! هذه خيانة وغدر، لقد عثرت على هذه الحرياء بريئة فى دغل من الأدغال، وجاءت وهى واثقة بى، ويا للعجب أنا أوافق على ما يحدث لها!».

أيها العجوز العزيز! أعتقد، أنك ستحصل على دولار. وهنا أخذ العجوز مكانه فى الدائرة بين المتفرجين المسرورين الذين تجمعوا حولى. سألتنى: «هل عندك دواء لامرأة عاقرة?».

أردف شاب قائلاً: «رجل فحل؛ وهنا سرت ضحكة مكتومة بين الجميع».

قلت: «ربما كان هناك دواء، لكن ليس معى دواء - هل هى صغيرة السن؟ عشرين عاماً؟».

قال: «أكبر من ذلك، لقد تزوجت من أربعة أزواج قبلى وأنا الزوج الخامس، ومع ذلك لم تتجب لحد الآن».

قلت: «الأرجح أنها ليس لها دواء».

رد على قائلاً: «هى لا تزال بنت (عذراء) إلى الآن!».

قال الشاب على الفور، وسط ضحكة مكتومة سرت بين جميع الحاضرين: 'قد يتعبك هذا الأمر.. لكنك ستستفيد منه'.

بعد أن انفض الجمع تخلف العجوز وبقى معى، وهنا تبينت أن الرجل لم يئأس.

قال: "أريد منك كتابة" (١).

(١) تمزى إلى المخطوطة التى يلبسها البدوى حول عنقه فضائل سحرية. من يضع هذه التعميدة حول عنقه لا يعنيه ما إذا كانت هذه التعميدة من الكتاب المقدس، على الرغم من أنها فى معظم الأحيان عبارة عن آية من القرآن لأن كاتب هذه التعميدة لا يعرف شيئاً غير القرآن. السادة الموقرون يفيدون من هذه المسألة، وبخاصة قبل الخروج إلى الجبال، وهم يبيعون هذه التعاويذ. التعميدة التى تحفظ من عين الحسود تباع بدولار واحد؛ وتعميدة شفاء البقرة المريضة تباع بدولارين، وتعميدة المناعة العامة تباع بأكثر من ذلك.



أول ضياع اصطدناه : الجبل للمتخف . اللحم على الضياعان

«كتابة، لماذا؟».

«كتابة لامرأة لا تستسلم لزوجها».

قلت له وأنا أتهرب من طلب مستحيل: "أنا لا أؤمن بالكتابة التي من هذا القبيل".

رد على قائلاً: "هل تفهم ما أقصده؟".

«نعم، أفهم ذلك تماماً»، ورحت أكرر عليه قصته.

"لكنها زوجتي - وأنا أود الحصول من السلطان على رسالة يأمرها فيها بالاستسلام لزوجها".

"أخشى أن أقول لك: إن هذا الطلب مستحيل، اعرض قضيتك على الوالى".
طرق الرجل بلسانه، وتلك إشارة النفى عند سكان هذا الجبل، ثم حوّل الإشارة إلى كلام:

قال: «لوب! لوب! سيكون ذلك عاراً على: عدنى أنك لن تفتح هذا الموضوع».

قلت: «أعدك» وهنا هرول العجوز عائداً من حيث أتى، أعتقد أنه عاد إلى زوجته الممتعتين.

كان شيخ القرابين، فى اليوم التالى، يذبح بقرة من باب تكريمى وتشريفى، - وأنا أحذر الرحالة الذين يترحلون فى الجزيرة العربية من أن هذه هى أعلى الطرق لشراء بقرة من الأبقار - قام أحد الشهازين التابعين لشيخ القرابين بإحضار البقرة المطلوبة. وألقيت على الشهرى نظرة ورحت أتعجب وأسأله إن كانت تلك البقرة "هى كبش من كباشه": والأرجح أنها كانت كذلك. وحضر الجيران كلهم هذه الوليمة، التى أعقبها التغنى بنشيد الهيدانادون hayadanadon ؛ وذلك على الرغم من توصلى إلى أن أشعار البطولة والشجاعة تُقال باللغة المهرية، وذلك على العكس من أغانى الحب والغزل فى الجبال التى تُقال باللغة الشهرية. كان الشاعر عبد الله، هو الذى قام بالارتجال الشعرى، وهو رجل مهذار حبوب، سرعان ما سمعت منه حكاية عن أوجاعه وآلامه.

سألنى عبد الله الشاعر، وهو يلفت انتباهى إلى رَجُلٍ من رجليه كانت متورمة تورماً شديداً، "هل عندك دواء لهذه الرجل؟" من حسن حظى أنى قلت لهم إنى لست طبيباً، ذلك لأنه كان هناك بين المرضى، ميل كبير إلى تصديق قدراتى الطبية وإيمانهم بها.

"منذ متى ورجلك على هذا الحال؟".

رد عبد الله، "منذ ثلاث سنوات، وهى لا تؤلمنى عندما أرتاح، لكنها تتورم وتؤلمنى عندما أجدى، ولم يُجدِ دم الشاة نفعا".

تقوم هذه القبائل، فى حال الأمراض البشرية، بذبح بقرة أو شاة، وتنشر دم هذه الذبيحة على كتفى المريض وعلى صدره عندما تكون الشمس فى كبد السماء. ويتحتم أن تكون الذبيحة أنثى، وهذا تمييز جنسى، لا تجرى مراعاته أو اتباعه فى قريان الموت.

سألته وأنا أشير إلى شامة فوق مجموعة من العروق المصابة بالدوالى، والتى كان يعانى منها معاناة شديدة "ما هذه العلامة؟".

قال: "إنها مكان الكى بالنار". يعد ميسم الكى بالنار دواءً شائعاً فى سائر هذه الأنحاء، "لكن الكى لم يُجدِ نفعاً أيضاً. أليس لديك دواء، أيها الصاحب؟ والله! أنا ليس لى ولد، ولو خُيرت بين شفاء رجلى والولد، والله! سوف أختار أن تكون رجلى سليمة".

نظر إليه أصدقاؤه وهم لا يصدقون ما يقول.

قلت له : "أنا لا أعرف شيئاً عن رجلك سوى مبضع الجراح، وهذا يعنى أنك يجب أن تقوم بزيارة إلى عدن أو إلى مسقط".

كانت عدن ومسقط عند عبد الله، ذلك الجبلى غير المتحضر، تبعدان بعد المريخ عن الأرض؛ يزداد على ذلك أن الرحلة إلى هاتين المدينتين تنطوى على غياب له غير مسبوق عن زوجاته، وبالتالي أمر لا يمكن القيام به.

قال مستسلماً: "توكل على الله"، الذى منه هذا الابتلاء، والبلوى، ومنه الشفاء أيضاً.

كانت بشاشة عبد الله شيئاً فريداً. السواد الأعظم من هؤلاء القبليين من النوع العبّوس، المخادع، الشكّاك، وكارهين للغير. وهم لا يسمعون إلى الاتصالات الشخصية، لكن بالإمكان زرع الروح الاستثنائية بينهم. لا أحد منهم يرى أو يفكر عند وصول ضيف من الضيوف، فى التعبير عن تحية الاحترام السائدة فى كل أنحاء الجزيرة العربية، ولا أحد منهم يلقي تحية الوداع عندما يغادر الجماعة التى يكون بصحبته، لكنه يمكن أن ينهض فجأة بفعل نزوة من النزوات، ويشد أجزاء بندقيته، ثم ينصرف فى هدوء. وفيما بينهم وبين أنفسهم هم فى شجار دائم وعراك مستمر، وقد اختلطت بهم وأنا متخوف من المتاعب التى تجعلهم يسيئون إلى أنشطتى. وقد تبين لى أن سرقة الأبقار هى السبب وراء كل هذه المتاعب، لأن العلاج لا يكون عن طريق التعويض عن البقرة المسروقة أو إعادتها، وإنما يكون عن طريق الثأر؛ أبلغنى الشيخ حسن نفسه أنه عانى سرقة قرابة مائة رأس من هذه الأبقار، وأن السرقة كان مبعثها الرئيس ناجماً عن حقد الأعداء وغلّهم، وإن هذه الأبقار جرى تقطيعها وتركها فى مكان ما حتى لا يفيد منها أحد.

قال لى آخرون إن حسن سرق من جيرانه وسلب منهم ما هو أكثر من ذلك بكثير، وقالوا لى أيضاً إن قسماً كبيراً من سمعته الحالية مستقى من الصولات والجولات التى قام بها فى شبابه.

حدث اليوم إنذار عجيب!

"يا وُلَيْد! يا فرحة! يا وُلَيْد! يا فرحة!" دوى هذا النداء فى سائر أنحاء المنطقة، وراح الجميع ينظرون إلى الشخص القادم من بعيد عند خط الأفق الشمالى، وكان يرفع التجويد، أو إنذار الحرب! تُرى، هل كان بدو السهوب قادمين، نظراً لأن السَّعَّارين، سبق لهم فى الماضى، أن قاموا بغزو القطون.

وهنا رأيت بخيت، ولد الشيخ حسن، والذى كنت على وشك إيفاده إلى ظفار لشراء المؤن، وإحضار الأخبار الجديدة، يمسك ببندقيته وراح يجرى وهو يعمرها، بصحبة الآخرين، وتركنى واقفاً مع عدد قليل من الشهارين الذين لم يتحركوا لما

حدث. والشهارين أناس لا حول لهم ولا قوة، وليس لديهم مانع في أن يسلبهم الغير أو ينهبهم، وهم على استعداد أيضاً أن يسمحوا بقتل واحد منهم، دون أن يرفع أحد منهم حتى ولو إصبعه، دفاعاً عن نفسه.

"بهايم تحت الله" بمعنى "ماشية الله أفضل منهم"، قال الشيخ حسن هذه العبارة فيما بعد عندما كان يتحدث معي وأردف قائلاً: "إنهم يخافون من سفك الدماء".

هذا، في واقع الأمر، هو لبّ الموضوع، وإن شئت فقل الحد الفاصل بين النفوذ والخط من الشأن، بين القبلى وغير القبلى، بين القراوين، والمهرة، والكثارين من ناحية، والشهارين، والبراهمة، وبيت الشيخ، من الناحية الأخرى: أعنى هنا على وجه التحديد القوة والرغبة في القتال؛ وهذا الفارق نابع من وعى مشترك من جانب القبلى، بأن الأعمال التى يأتياها هو أو أى عضو من أعضاء قبيلته إنما هى أعمال من صنعه هو أو واقعه عليه هو نفسه، وإدراك هذا القبلى لكل النتائج التى يمكن أن تترتب على مثل هذا الوعى.

يقول أحد القبليين، الذى يعد الزواج من عبد لا يمكن أن يخطر على البال: "الشهارين! يا للعجب، العبيد أفضل منهم!" إنه لشين؛ ناهيك عن النبلاء - سادة وتجار الساحل - إنهم يتخذون من بناتهم العبدات محظيات لمجرد المتعة!

تؤكد طريقة معاملة القراوين للشهارين، وبلا أدنى شك للرحالة، من هو صاحب الأمر والنهى، على الرغم من أن الشهرى الأصيل (الذى لا يخضع لخطر الزواج من خارج أهله لابد وأن يكون نقياً من الناحية العرقية) يمكن تمييزه عن الشهارين الآخرين بوجهه الأعرض من وجوه جيرانه، ومن أوجه عرب الشمال. يزداد على ذلك أنه يمكن تمييزه أيضاً من سلاحه، ذلك أنه ينذر أن تلتقى شهرياً حاملاً بندقية.

لباس أهل هذه الجبال ليس هو الفريد في نوعه في سائر أنحاء الجزيرة العربية، وإنما أسلحتهم تعد أيضاً فريدة في سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية - وسلاح أهل هذه الجبال عبارة عن سيف له حَدَّان، وتُرْس أو درع (من النوع المستدير الموجود بين القبائل الحامية)؛ بالإضافة أيضاً إلى ما يسمى الآجت -

وهى عبارة عن عصا ثقيلة مستقيمة مصنوعه من خشب المتين^(١) ومدمبة من طرفيها وترمى بمهارة فائقة. وهذا هو السلاح المعتاد فى الجبال، أما الأثرياء، وهم أصلاً من القراوين، فيحمل الواحد منهم بندقية، وهنا لا يستلزم الأمر حمل سيف بحدين، وإنما سيف بحد واحد، وبدلاً من الآجت، يحمل الرجل منهم عصا عادية.

سألته "من أين جاء هؤلاء الشهارين؟".

"الشهارين هم أولئك البشر الذين قتلوا ناقة النبی صالح (عليه السلام)، وهم يعانون ويقاسون إلى يومنا هذا بسبب حماقتهم وشرهم، وهم لم يعودوا بعد قبليين، بمعنى أنهم ليسوا أشرافاً".

سألته وأنا أظهار بجهلى بقصة الشهارين "وهل كانت لصالح بن هود ناقة؟".

واصل الراوى، وهو مشفق على لجهلى بفرعه المعرفى «ألم تسمع عن ناقة صالح". هذه الناقة هى الأشهر بين كل مخلوقات الله تعالى!» وأشار بعصاه إلى مسار الشمس فى السماء مواصلاً كلامه، "كانت الناقة تقطع الرحلة من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وكانت تلك الناقة تنتج العسل والحليب والنبيد اللازم لكل البشر. كان ذلك فى زمان تلمود Talmud وعاد Ad(*) لكن رجلاً جاهلاً من الشهارين قتل الناقة، وأرسل الله تعالى وباءً من النمل على الشهارين، وراح النمل يزحف على أرجلهم وعلى أجسامهم ثم ابتلعهم، ولم يبقَ منهم فى قيد الحياة سوى عدد قليل جداً إلى يومنا هذا!«.

سمعت هذه القصة، على شكل مسلسل من رجل عجوز قال: "هذا الشهري الشرير أغوته امرأة وراح يطارد بغير (وليد) ناقة صالح، على أمل أن يقتل ذلك الوليد أيضاً. لكن الله، وضع كهفاً فى الطريق، ودخل وليد ناقة النبی صالح(٢) (عليه السلام) فى ذلك الكهف وأغلق مدخله، ليصبح على شكل حائط جبلى وحال بين

(١) هذا النوع من الخشب ثقيل للغاية، ويفوص فى الماء. ولا ينمو سوى فى جبال ظفار.

(*) المقصود هنا هم قوم عاد وثمود. (المترجم).

(٢) يتعين على هنا استعمال الكلمة Colt بدلاً من Colf. أسوة بما جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح الثانى والثلاثين، الآية الخامسة عشرة. (المترجم).

ذلك الشهري الشرير وبين مطاردة الوليد؛ توقف العجوز برهة من الوقت وقال:
 "شوف! سبحان الله" - "هل نصف ذلك بأنه لا شيء؟".

"وما هو أصلكم أنتم أيها القراوين؟".

"العرب يسموننا القراوين، أما نحن فنطلق على أنفسنا اسم الهكلاي، ونحن
 جئنا إلى هنا من حضرموت، وقد جئنا إلى حضرموت من عرض البحر".

سمعت ذلك يتردد مرات كثيرة، كما أن الشيخ حسن، شيخ القبيلة يقول: إن
 القبيلة هاجرت في اتجاه الغرب مع المهرة، وإن شئت فقل المهارين وأن القبيلتين
 مكثتا معاً فوق حباروت. وأنا شخصياً أرى أن ذلك غير محتمل، والسبب في ذلك
 أن القراوين هم والمهارين، شأنهم شأن الشهارين والبراهمة، ليس لديهم وشم
 للإبل، وعليه فإن مسألة القبيلة التي كانت رعوية في يوم من الأيام ولا تزال تربي
 الإبل ولا يكون لها، أو ضاعت منها علامة وشم الإبل التي تعد شعار النبالة، أمر
 لا يمكن أن يصدقه عقل. غياب هذا الوشم أو هذه العلامة يوحي بأن هذه
 القبائل جاءت عن طريق البحر.

هكلاوى هو سلفنا أما القراوين فقد انحدروا أو جاءوا من قريش. هكلاى هو
 وباليوز^(١) جاء من عرق واحد: لكننا عبرنا البحر.

وهنا انبرى أحد السادة موضحاً أن قريش المذكورة هنا ليست هي قريش التي
 ينسب إليها نبيه الموقر، وأن قريش المذكورة هنا هي قريش المذكورة في موروثة
 القراوين.

كان كلام ذلك السيد مُهمّاً عندي لأنه ينطوى على وعى بالتباين العرقى عن
 العرق العربى الأصيل. من المفهوم أيضاً أن القراوين هم بقايا عرق من الأعراق -
 ربما كانوا دردوراً صغيراً من ذلك السيل الحبشى من الغزاة المسيحيين، الذين
 غزوا جنوب غرب الجزيرة العربية قبل الإسلام وارتدوا عن ملّتهم هناك.

(١) هذا المصطلح مستخدم في الخليج الفارسي وعلى ساحل الجزيرة العربية ليشير إلى عامل سياسى
 بريطانى. ويقال أن هذا المصطلح مشتق عن طريق القلب المكانى للحروف من الكلمة اللاتينية
 المنخفضة bailus والكلمة اللاتينية bajulus مأخوذة من كلمة Bailo ، لقب ممثل جمهورية البندقية
 لدى الباب العالى.

لم يكن لدى الرواة المرافقين لى أى علم بهذه المسألة؛ لأنهم يرون أن الدنيا مقسمة إلى قسمين: مؤمنين وغير مؤمنين، على الرغم من أنهم لا يعرفون أى شىء من نصوص القرآن. ويندر أن تجد فى هذه الجبال رجالاً يقرأ ويكتب، اللهم باستثناء قلة قليلة من السادة الجائلين. الكتابة، بطبيعة الحال، لها مغزى ومعنى ساحر، من منطلق أنها حدث مهرى عارض، والكثيرون من المهريين يحبون عرض الكتابة، يضاف إلى ذلك أن من كانوا يترددون على طلب الدواء، كانوا شغوفين عندما يرونتى أنظر فى كتابى (كان ذلك الكتاب عبارة عن خريطة منجمة) بغية معرفة سبب مرضهم.

واصلت كلامى قائلاً: "بلغنى أن القراوين منحدرين من حمير".

قال السيد العليم: "هل تقصد حميّار أم حمير، لأن هناك اثنين وليس واحداً". رد على القراوى: "الله أعلم. أنا لست ابن الأمس - أنا لم أكن موجوداً فى ذلك الوقت، فكيف لى بمعرفة ذلك".

كان قد خطر على بالى أن الكلمتين 'مهرة Mahara' و 'حمير Himyar' هما كلمة واحدة وإن القلب المكانى لبعض الحروف له دخل فى ذلك، وذلك على الرغم من أن العرب لا يستعملون سوى الكلمة "مهرة" Mahr، لكن هؤلاء المهرة يذكرون فى لغة الجبال باسم "إنهارو" Inharo (وإن حرف n (النون) يكون أنفياً) - ولما كانت هناك بعض الفروق البدنية والفروق اللغوية بين المهارين والقراوين، فإن أيّاً منهما لا يتفق على أنهما من أصل واحد.

قالوا: هذا شأنهم "وماذا عنكم أيها الإنجليزي".

قلت زاعماً: "نحن لسنا أقل منكم شرفاً وتكريماً".

"إذن، هل أنت قُبَيْلى؟(*)".

كان ذلك سؤالاً محيراً، ذلك أنه فى ظل هذه الصراحة المباشرة، يصعب الحديث عن منظومة قبلية إنجليزية جديدة بالامتداد والثناء؛ لأن البشر فى هذه المنظومة لا يحملون البنادق، ولا يدافعون عن شرفهم بأيديهم؛ وفيها النساء غير

(*) نسبة إلى القبيلة وتكون بضم القاف وفتح الباء وتسكين الياء. (المترجم).

محجبات ويتساوين مع الرجال. يزداد على ذلك، أنا لا أود أن أضحي بمكانتي في أعين رفاقي.

قلت لهم: "نحن النصاري (هذه الكلمة مساوية تماماً لكلمة إنجليزي) قبيلة قوية جداً".

"ومن في رأيك، هو سلفكم؟".

قلت في شيء من الروغان: "آدم! وهذا يعني أننا كنا مرتبطين ببعضنا ببعض ارتباطاً وثيقاً في بداية الأمر، ونحن لم نفترق بعد ذلك".

قالوا: "هذا حق" وكانوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم البعض وكأنهم يقولون "هو يتكلم عن حقيقة سماوية مقدسة".

"هل تمارسون النظافة؟ (أي الختان)".

قلت مراوغةً تهرياً من الإجابة عن السؤال: "الختان ليس إجبارياً".

"هذا يعني أن بينكم رجالاً غير مختتين ونساء غير مختنات".

أجبتته معترفاً: "نعم".

الختان عند هذه القبائل طقس شديد الأهمية، ومختلف عن الختان في سائر الأنحاء الأخرى من الجزيرة العربية، وهذا يوحي أن الختان في هذه المنطقة مستقل عن المناطق الأخرى. والذكر يجري ختانه عندما يبلغ، والبنت يجري ختانها في يوم مولدها. نظام ختان الذكور والإناث هنا على العكس مما هو عليه في الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية^(١)؛ وبصفة خاصة في عُمان حيث يجري ختان الذكور في مرحلة الطفولة (قاربة ست سنوات)، وختان البنات يكون في قاربة سن العاشرة.

وفي الإقليمين، نجد أن ختان الذكور يكون بإزالة كامل الجلد الأمامي الذي يغطي رأس الذكر، لكن فيما يتعلق بختان الإناث، نجد أن عرب عُمان يكتفون

(١) قيل أن ختان الذكور في وادي أعالي نهر الفرات يجري عندما يصبح الرجل بالغاً جنسياً، أما الإناث فلا يجري ختانهم مطلقاً؛ وهم يفسرون مرحلة البلوغ الجنسي بأنها تعني الفترة من سن الثانية عشرة إلى سن الثامنة عشرة.



(١) تصفيف الشعر
(عند البنات)



(٢) تصفيف الشعر
(المتزوجات)

تقوم هذه العذراء برفع سيفها وحفضه في وضع عمودي، وفي نهاية كل ضربة تقوم هذه العذراء بضرب السيف براحة يدها اليسرى، وهنا يصبح المسرح جاهزاً. ويجلس الصبي، رافعاً راحة يده اليسرى إلى أعلى، في وضع المبتهل إلى الله، وهو ينتظر بدء عملية الختان. وبعد الانتهاء من الختان، ينهض وهو ينزف مسرعاً ويأخذ في الجري حول المتجمعين وهو يرفع سيفه ويخفضه كما لو كان يتناسى الألم، وبهذا العرض يمكن بعد ذلك الحكم على رجولته وشجاعته^(٢).

(١) عادة ما يكون المطاهر شيخاً أو رجلاً من أسرة طيبة، في حين نجد غجيراً أو عاملاً عادياً يقوم بهذه المهمة.

(٢) كان ختان الرجل عند قبيلة المهرة، يجرى فى وقت من الأوقات، فى ليلة زواجه. ولكن فى هذه الأيام تتم هذه العملية قبل الزواج بفترة كافية للشفاء، وفى هذه المناسبة يتجمع الرجال والنساء حول نيران الصحراء، وهنا تتجمع ثمانية أو عشرة من النساء السنوات ويرحن يستعرضن أمام الرجال الذين يحدون الأجمل من بينهن، فى حين تروح السنوات الباقيات يعبرن عن احتجاجهن بقولهن:
”للالاللالا“.

نهودهن، لكن هذا المرح، لا يوجد أى شكل من أشكاله، عند ختان البنات، الذى يجرى فى السر.

يبدو أن تصفيف الشعر فى هذه القبائل مرتبط بالحياة الجنسية. تعد الضفيرة الرئيسة معلماً واضحاً من معالم هذا التصفيف عند الصبية الصغار، وهذه الضفيرة ربما تكون لها علاقة بضمفيرة حورس المصرية القديمة، وهى توحى بخوذة رجل الشرطة العالمى، أو تُعيد إلى الأذهان ذكرى طبقة محددة من الهندوس. وهذه الضفيرة لا يجرى قطعها إلا عند عملية الختان، ويُسمح للشعر بعد ذلك أن ينمو بصورة طبيعية.

لا يقل تصفيف شعر النساء غرابة عن تصفيف شعر الرجال؛ ذلك أن شعر البنت الصغيرة يجرى حلقه على شكل شرائط متبادلة على الطريقة البودلية^(*)، مع الإبقاء على فرنشة على الجبهة؛ ويجرى حلق الجزء الخلفى من الرأس على طريقة حلق وسط الرأس، اللهم باستثناء ثلاث أو أربع جدائل رفيعة. وعندما تتزوج الفتاة، وعادة ما يكون ذلك فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، يُترك الشعر ينمو نمواً طبيعياً. وفى غضون شهر من الزواج، ومن باب الإشارة إلى أن الفتاة لم تعد عذراء، يجرى عمل شرخ يصل إلى قرابة ثلاثة أثمان البوصة، على فرق فى وسط الرأس، وذلك منعاً لنمو الشعر فى هذه المنطقة مرة أخرى^(١)، وهذه عملية مؤلمة وقد تكون مميته فى بعض الأحيان.

تزين النساء، فى المناسبات العادية، وجوههن بطلاء عبارة عن علامات سوداء على شكل خطوط مرسومة بطريقة عجيبة، وهن يُزَيَّن وجوههن باللون الأحمر والأسود والأخضر فى الأعياد. وهذا يجعل منظر الوجه مثل البلياتشو، أو المهرج - وهن يُحدثن خطأً أسود يمر من أمام شعر الجبهة، وحول الخدين، والفك ثم الذقن. ويحدثن خطأً أسود آخر يُطَوَّق فتحتى الأنف ويمتد على شكل خط

(*) البودل: نوع من الكلاب يتميز بالقدر الصغير والشعر المجعد. (المترجم).

(١) لا يسمح بوجود شعر العانة أو تحت الإبطن عند المرأة. وهى تزيل هذا الشعر عن طريق الندف، أو باستعمال شمعة من البخور.

مستقيم إلى الخدين على الجانبين إلى أن يصل إلى فتحة الأذن. وهن يحدثن خطوطاً مستقيمة لرموش العينين وتمتد هذه الخطوط في اتجاه ما فوق الصدغين بقليل؛ كما يحدثن خطين عموديين قصيرين تحت العينين. وهن يطوقن أزوارهن بشرائط سوداء. وقد يحدثن بقعة قرمزية اللون في وسط الجبهة، وهذه لمسة هندوسية، وهن أيضاً يدهنّ شفاههن باللون الأحمر. والمرأة المتزوجة تدهن فرق فروة الرأس، الذي يسمونه المنسروت - بخط أسود اللون. ويشيع بين نساء هذه القبائل إحداث علامة وشمية على آذانهن، وهذه العلامة عبارة عن خط بين نقطتين، على النحو التالي ٠١٠، وقد أورد إدوارد لين في كتابه عن مصر، أنه لاحظ هذا الشيء في مصر.

مجوهرات النساء فضفاضة ومدندشة. وأذن الأنثى يجرى تخريمها أثناء طفولتها على بعد مسافات متساوية في ستة أو سبعة أماكن، ويجرى تزيين الأذن بحلق كبير خفيف الوزن، أو بسلسلة فضية صغيرة. وعندما تقترب الأنثى من مرحلة البلوغ الجنسي، يجرى إحداث ثقب في أنفها تعلق فيه حلقة أنفية، ومتجهة إلى الأمام من فتحة الأنف اليسرى. والخواتم الكثيرة التي تلبسها المرأة في أصابعها لا علاقة لها بالزواج؛ والأنثى تطوق جيداً بقلادة من المجوهرات رخيصة الثمن، لكن الإناث في هذه القبائل لا يلبسن خلاخيل، كما هو الحال في الإناث الساحليات.

جاءت للقاتي سيدة عجوز من المهرة، غير محجبة مثل سائر بنات جلدتها، وقد لطّخت وجهها بلا تمييز بصبغ السُّبور (الذي يحصلون عليه من شجرة محلية). كان الصَّبْغ نفسه يلطخ ذراعيها من المرفقين إلى الأسفل، ويلطخ أيضاً رجليها من الركبتين إلى الأسفل، ويلطخ الصبغ نفسه أيضاً منطقة الصدر حتى العنق. كان لباسها عبارة عن لباس فضفاض أسود اللون، منخفض في منطقة العنق وتصل حافته إلى الأرض، ولهذا اللباس زجراج من قماش الموسلين الحريري أسود اللون، من حول الكتفين، لكن هذه الملابس كانت خضراء اللون ومثيرة للضيق بفعل القدم والزمن - الأمر الذي جعلها تبدو مثل القردة.

كانت هذه السيدة قد أحضرت لى معها هدية، وعندما فتحت هذه السيدة سلتها المصنوعة من البوص، التى كانت تحمل فيها تحفاً زينية زهيدة القيمة، راحت تستعرض بعضاً من عاداتها الأنثوية. كان السقُوط والتسقُط من بين هذه العادات؛ وهى عادة أصيلة عند النساء، لكنها لا توجد عند الرجال. الرجال يدخلون ولكن النساء ليست عندهن هذه العادة، على الرغم من أن الجنسين يمزغان- المُضَغَّة، عبارة عن خليط من التبغ ومادة صمغية تؤخذ من بعض الأشجار، ويضع الرجل أو المرأة هذا الخليط فيما بين اللثة والخد؛ ويقال إن هذا المخلوط له تأثير مخدر.

كانت الهدية التى أحضرتها لى تلك العجوز المهرية، ظناً منها أنها ستشرح صدر المرأة الأوروبية الافتراضية، عبارة عن أداة من أدوات الزينة وتجميل الوجه - قطعة صغيرة من الفخار المحلى جميلة الشكل وتعيد إلى ذاكرتى ذلك المصباح الرومانى- ساقى الأنف الذى يشيع استعماله فى سائر أنحاء هذه الجبال. كان ذلك الساقى ذو البزياز مليئاً بنوع من الزبد النقى، وتروح المرأة وهى مستلقية أو مضطجعة، تضع ذلك السائل على فتحة أنفها، وراحت تُفَرِّغ أيضاً جزءاً صغيراً من المحتويات على رأسها. قالت صاحبة الهدية: "هذا علاج للصداع، ويزيد من بريق العينين ويجعل الوجه مشرقاً".

كان شاب بدوى قد أحضر لى غُريراً(*)، تلك العينة أو النوع الثمين الذى يصعب الإمساك به؛ وقام هذا الشاب بتقبيل السيدة المهرية العجوز خمس قبلات - وقبلها فى خدها الأيسر، وفى خدها الأيمن، قبلها أيضاً فى صدغها الأيسر وصدغها الأيمن، ثم قبلها فى قمة رأسها- وبذلك يكون قد أثبت أنه على علاقة وثيقة بها.

قالت: "هذا هاليران بن مرعى، ابن أختى. ألا تعرفه؟ لقد كان فى مسقط".

ضحك الولد الشقى وهو يقول: "نعم، بالله! لقد قمت أنت بقياس رأسى وأنا فى سجن الجلالى، لكنى لم أخبر أحداً بذلك، لأنهم كانوا سيقولون "لماذا تركته يفعل ذلك؟".

(*) حيوان ثديى صغير على نحو يصعب معه الإمساك به. (المترجم).



(١) تصفيف الشعر (صبيات قبل الختان)



(٢) مجموعة من الصبية

سألته عن السبب الذى أودى به إلى السجن. كان ذلك الشقى قد ضغط على يدى إحدى الفتيات، على ما يبدو، وإن أسرة الفتاة قدمت شكوى للحاكم، ولذلك جرى نفي هذا الشقى لمدة عام: لكن ذلك النفى لم يُصِبْه بسوء، على حد تأكيده لى، لأنه وجد رزقاً فى مسقط، ثم قام برفع البندقية التى حصل عليها ليرنى إياها.

التحية والسلام شئ عجيب عند هذه القبائل. لمس اليد، شئ شائع عند العرب، وهو مخصص للقاء النساء، ثم يتحول إلى مجرد رتبة خفيفة على الأصابع، فى حين تروح الأنثى تسحب يدها بعنف، لكن مسألة أن يضغط الرجل على يد الفتاة أو يقبلها مثلما يحدث فى المصافحة عند الأوروبيين يعد خروجاً على اللياقة؛ وقد يدفع أقارب البنت إلى المطالبة بالعقاب. والرجال عندما يلتقون يحيون بعضهم البعض بقبلة متبادلة على الخد الأيسر ووضع الذراع اليمنى على الكتف اليسرى لمن تجرى تحيته، لكنهم يبلغون من الخشونة حدّاً يجعل الجالس منهم لا يكلف نفسه مؤنة الوقوف غير عابئ بتناقض ذلك مع المعايير العربية السائدة؛ وفيما يتعلق بما إذا كان الشيخ مُسنّاً أو رجلاً عجوزاً فإن تقبيل الخد عادة ما يكون مصحوباً بتقبيل جبهة أو رأس ذلك الشيخ أو المسن؛ وعندما يلتقى الشيوخ أو الأشخاص المهمون، فإنهم يتباوسون ويرجعون إلى الوراء ويقفون يواجهون بعضهم البعض بضع ثوان فى صمت وقور، قبل الجلوس.

هنا كافأت المهريين بما يستحقانه، وانسحبا وهما يعربان عن رضاهما بالطريقة المعتادة، "بيّض الله وجهك"، "وربنا يخليك".

وتناهت إلى أصوات البنات قادمة من النّبع الموجود فى الوادى حيث مجموعة من بنات القراوين وهن يحملن جرار الماء. قيل أن الأغنية التى كن يتغنن بها كانت واحدة من أغانى الفرح، أما الأغانى المفعمة بالحب فهى بحاجة إلى مواطن يجيد اللغتين حتى يحولها إلى لغة عربية، لكن المؤسف أنى لم أعر على ذلك المواطن، ولذلك اكتفيت بتسجيل الأغنيات التى من هذا القبيل وتدوينها تدويناً موسيقياً، حتى يمكننا الوقوف على الآهات الغربية لهذا اللحن. تُرى، هل هناك

فى الجزيرة العربية القبلية مكان تجرؤ فيه امرأة كريمة المحتد على الغناء فى جمع من البشر، هذا لا يمكن أن يوجد على الإطلاق؟ فى عُمان التطهرية نجد أن المرأة يمكن أن تُضرب عندما تكون سليطة وقحة، لكن هنا بين هذه القبائل وفى هذه الوديان، كنت أسمع غناء البنات يتناهى إلى مسمعى من مسافات بعيدة، وكانت أذناى تطريان تماماً لذلك الغناء.

الفصل السابع

جبال قارة: طرد عين الحسود والبشعة

العين. الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر: دخل علينا البدر وغرب عنا من خلال سحب بطلء الحركة، وأنا لازلت أتذكر آخر هلال طلع علينا أثناء رحيلنا غير الفضولى عن ميناء مسقط، لكن الفارق كبير الآن بين تلك المشاهد التى شاهدها وتصورتها آنئذ والبدر الذى أراه الآن، كما أن واقع ذلك مختلف عن واقع الآن، ومع ذلك، ومع أن الرمال بدت لنا صعبة المنال، فإن الأمل المرتقب شديد الحلاوة، وجد لنفسه متنفساً فى هذه الجبال.

كان منظر أغصان شجرة الملتقة على بعضها البعض، على خلفية الظلام، والذى كان يشكل سقفاً من فوق رأسى، رائعاً وبيديعاً؛ كان فحيح صراصير الغيط عالياً ومستمرّاً ومضيئاً للصدر، هو واندفاع الخفافيش السوداء الكبيرة من شجرة إلى أخرى؛ وهذه اندفاعات من اندفاعات الهواء خدعت النسر الذى انزلق ماراً بسرعة فوق رؤوسنا؛ وكانت اللقائى البيضاء وكذلك اللقائى بُنية اللون قد تجمعت كعاداتها على قمم الأشجار لقضاء الليل، لكنها استأنفت طيرانها فى ساعة مبكرة من وقت الفجر، لأنها يبدو أنها كانت مستاءة من تعدينا عليها، ولذلك لم تعد تلك اللقائى تسر خاطر غيطان العين التى أشرقت عليها الشمس، بمنظرها الزينى الرائع.

دخل علينا الفجر مبتدئاً بذلك اللحن العجيب الذى كان يعزفه آكل النحل منادياً خليلته. أليس فجرّاً بهيجاً؟ ... لم يكن كذلك لأن الأرنب البرى الصغير الذى كنا قد أمسكنا به قبل ليلتين، وأبقينا عليه حياً بفضل حليب البقرة، كان

مكوّمًا على شكل كرة باردة متصلبة. لم يكن ذلك الأرنب بعد بحاجة إلينا، كما أن سعيد ذلك العسكرى الشاب الذى تمثلت مهمته فى المجيء لتدليل ذلك الأرنب، لم يطق ذلك العسكرى رؤية ذلك الأرنب الصغير ونحن نسلخه، لكنه ابتعد عنا مطرق الرأس - كاشفًا بذلك عن إحساس غير عادى فى هذه الأماكن الهمجية غير المتحضرة!

كنا نغادر فى ذلك اليوم، هذا المكان، متجهين غربًا لنقيم مُخيّمًا جيدًا على بُعد قرابة أربعة أميال. كنت قد أنهيت اتفاقى مع الإبل التى نقلتنا إلى هذا المكان وذلك بناء على طلب أصحابها، الذين كان من رأيهم أن من الأسلم لهم البقاء فى منطقتهم هنا من ناحية، ومن الناحية الأخرى أنى وجدت أنى يمكننى استئجار إبل محلية من هنا، وتتمثل المشكلة فى حال نقل عينات، أو أنواع ثمينة وقيّمة، فى تجنب وقوع هذه العينات مرتطمة بالأرض الأمر الذى يؤدى إلى تلفها بواسطة دواب الحمل، من هنا كانت مسألة انتقائى للإبل الجديدة تتطلب حرصًا بالغًا.

كان طريقنا يمضى صاعدًا فى اتجاه الغرب بدءًا من حوض العين متخللاً مُرُوجًا حجرية متدحرجة؛ لم تكن هناك مروج بمثل هذا التدحرج والانحدار الأمر الذى كان يُصعّب علينا عملية النزول، ومع ذلك كان طريقنا يمر هنا وهناك، عبر أرض مرتفعة تتسود المناظر الرائعة لسلسلة الجبال بكاملها. كانت هناك فى اتجاه الشمال منخفضات متدرجة ومتدحرجة تتبدى لنا عند خط الأفق. كانت تلك المنخفضات من خلفنا تخبو فى الأسفل إلى أن تحولت إلى سلسلة من الجبال التى تغطيها الغابات، ثم تتحول بعد ذلك إلى وديان تتجه صوب سهل الجورييب. توقفت بعض الوقت لتدوين بعض الملاحظات عن بعض النقاط المعروفة على الساحل الموجود فى الأسفل بعد قرابة سبعة عشر ميلًا، فى حين سارع أحد أفراد جماعتى نازلًا من المنحدر المعشوشب إلى مجموعة من الأشجار التى تمثل بداية الربيع فى إيسام، الشهيرة بالنباتات البرية، والليمون المر، وسرعان ما عاد ذلك الرجل وتُورثه مليئة بهذه النبوت البرية. ومن هذه المنطقة انتقلنا إلى حافة واد على شكل غابة، يعد واحدًا من المصادر العلوية لوادى آربوت، الذى نزلنا إليه لنخيّم فيه على ارتفاع ١٦٥٠ قدمًا.

تعرفت في ذلك الوادى على الصيحة المألوفة التى يطلقها الرعاة - هب- هب- هب- ر- ر- ر- ر، وعلى الصوت الذى يشبه الصفير الذى ينتج عن تحرك قطعان الماشية، والسبب فى ذلك أن بركة خيونت كانت على بعد مسافة قليلة أعلى الوادى، كانت الجبال الصغيرة المحيطة بالمخيم الذى نقيم فيه تُعجُّ صباح كل يوم، بجحافل الماشية التى كانت تتوافد بفاصل نصف ساعة بين القطيع والقطيع الذى يليه، وهى ذاهبة إلى ذلك المسقى أو عائدة منه.

لابد أن الثروة الحيوانية فى هذه الجبال كانت مهولة بالقياس على معايير الثروة فى الجزيرة العربية. فى هذه المنطقة نجد أن كل رجل وكل امرأة تملك بعضاً من الأبقار. قلة قليلة من القراوين والشهارين هم الذين يملكون ما يزيد على مائة رأس من الماشية، على الرغم من أن خط الثراء يبدأ اعتباراً من قرابة عشرين رأساً من الأبقار، ومن يملك أربعين رأساً يتخطى خط الفنى والثراء.

والناس هنا لا يريون سوى العجالات، أى الإناث من مواليد الأبقار - طلباً لحليبها وزبدتها. ويكفى الاحتفاظ بثور واحد أو ثورين فى القطيع الواحد، ولذلك يذبح هؤلاء الناس العجول الذكور ويأكلون لحومها. ويقومون بعد ذلك بحشو جلد ذلك العجل بعد ذبحه ويضعونه أمام أمه عندما يبدءون فى حلبها، حتى تقوم بلحسه وإعطاء المزيد من الحليب طواعية واختياراً.. وهذه المسألة شائعة بين سكان الجزيرة العربية وتعيد إلى ذهنى باو bau الإبل فى عُمان.

وتجرى تربية الإبل فى الوديان التى تكسوها الغابات فى الأسفل، ولكن على نطاق محدود بل وتجمعات محدودة أيضاً، ذلك أن عوائد الإبل على الإنسان أقل من عوائد الأبقار؛ هذا بالإضافة إلى أن مطالب رعاية الإبل أكبر من مطالب تربية الأبقار؛ يضاف إلى ذلك أن العملية الجنسية عند الإبل تحتم تدخل الإنسان فيها^(١).

نياق الحليب لا تعرف السُرْجُ مطلقاً، وهى ركائب بائسة إذا ما ركبها أحد من البشر، وقد عرفت ذلك من الخبرة الغالية التى اكتسبتها من ركوب الإبل. والنياق

(١) راجع ص ٢١٤ من النص الإنجليزى، حيث الهامش الذى يتناول مسألة التلقيح بين الجمل والناقة والى يتدخل فيها الإنسان.

تُربى لإنتاج الجمال الذكور عن طريق التكاثر، والجمال الذكور أقوى من النياق، فى تلبية احتياجات النقل فى هذه المديرية أو المنطقة، وهى تحمل البخور من الجبال إلى الساحل، وتعود محملة بالسردين الذى يستخدم علفاً للماشية فى هذه الجبال.

يجرى فى قطنون تربية القطعان على نطاق صغير، لأن قطنون هى سقف هذه الجبال المعشوشب، ويجرى أيضاً تربية القطعان فى سهل جوربيب، ويجرى على نطاق كبير جداً تربية هذه القطعان فى زاولول الموجودة أسفل جبل سمحان وهذه القطعان من الماعز، وليست من الأغنام، لأن سكان هذه الجبال لهم موقف من الضأن، ويفرضون أكل لحم الضأن عندما يحضرون العزائم أو الولائم فى ظفار. هذا يعنى أن تقديم لحم الضأن للضيف يعد إهانة شخصية، شأنه شأن البيض والدجاج عندما يجرى تقديمها فى الولائم والعزائم. هذه الجبال خالية من الكلاب وفيها القليل جداً من الحمير، وهذه الحمير يربيهما الشهارين وهم يقتنونها مثل الكثارين.

فيما يتعلق بالزراعة، يبذر القراوين القليل من حبوب البازلاء فى الجبال الغربية أو فى أماكن أخرى، التى لا يوجد فيها مروج ينبت فيها العشب والحشائش؛ وفى اتجاه الشرق وبالتحديد فى جبل سمحان، وفى ظل الظروف نفسها يقوم القراوين بحصاد البخور، أو قد يكلفون المهارين بحصاد بياراتهم نيابة عنهم. لكن تربية الماشية هى وسيلة المعيشة الرئيسة؛ وسبب ذلك هو أن السكّان هنا هم سلالة من الرعاة غير المترحلين. والذكور فقط هم الذين يحلبون الماشية. ولا تجرؤ أية امرأة على لمس ضرع أية بقرة من الأبقار، أو ناقة من النياق، أو نعجة من النعاج. ولو حدث ذلك فهو إثم من الآثام الكبرى^(١).

يُرجع سكان هذه الجبال بصورة مباشرة الأمراض التى من قبيل فشل إدراج الحليب فى حيواناتهم، إلى عين الحسود. التى يطلقون عليها اسم - عين إبليس -

(١) هذا على النقيض تماماً، فيما يتعلق بالأبقار، من القاعدة التى يطبقها عرب عُمان، والتى تقول إن الرجل يقلل من شأن نفسه عندما يقوم بحلب الماشية. المهارين هم والكثارين يسمحون لنسائهم بحلب الأغنام، لكنهن لا يحلبن الأبقار أو النياق.

وتتطوى على مخاوف كثيرة لهؤلاء البشر. ويمارس هؤلاء البشر طرد الأرواح عن طريق الأدعية والتعزيم مستخدمين فى ذلك البخور، وتكون هذه العملية إما عند طلوع الشمس أو عند الغروب، وقد شاهدت هذه العملية بنفسى أكثر من مرة. والذى يقوم بهذه العملية هو مالك البقرة، الذى يقوم بإحضار مبخرة فيها بعض من الخشب المشتعل، ويقوم بتقطيع قطعة من البخور إلى ثلاثة أجزاء، ويتفل عليها ثلاث مرات ثم يقوم بوضع هذه القطع الثلاث فوق الخشب المشتعل. ويقوم اثنان من أفراد القبيلة بالإمساك بالحيوان، إذ يقوم أحدهما بإمساك الحيوان من فكه الأسفل، ويقوم الشخص الآخر بتأمين الحيوان عن طريق إمساكه من ذيله، ورفع رجليه الخلفية عن الأرض.

وهنا يقوم القبلى الأول بتدوير البخور المشتعل بحركة دائرية حول رأس الحيوان، وهو يتغنى بأغنية قربانية بلغة الشهارين:

"هذا هو قربانك: بخور ونار: رقيتك من عين الحسود: وعين الجنس البشرى: ومن عين آفار: ومن عين الأقارب: ومن عين القريب ومن عين البعيد: ورقيتك من عيني: ومن كل عين أخرى: من عين الحسود: من الجنس البشرى: أنا رجل: أكفّر عن: عين الحسود: وعن الرجل: وعن المرأة: انتبه هذا هو قربانك: بخور ونار".

وهنا يرفع رفاقه أيديهم عن الحيوان ويتركانه حرّاً طليقاً، وهو يهز ذيله فرحاً، ليلحق بذويه من الحيوانات الأخرى التى ربما تكون قد تجاوزته صاعدة إلى الوادى^(١).

قلت وأنا أتحوّل نحو واحد من الكثرارين سكان السهوب: "لكنكم أيها البدو ليست لديكم هذه الممارسات؟".

جاء رد هذا الرجل المتدين وعينه متجهتان إلى أعلى: "توكل على الله، لكننا عندما نكوى جملًا مصابًا بالعرج، فقد جرت العادة أن نكسر عوداً من أعواد الشجر ونلقى به خلف الجمل ونحن نقول: "كسرت عود والشر ما يعود".

(١) بعد عودة الحيوانات إلى مرايحها فى الليل، تقوم النساء فى بعض الأحيان بالمرور بين الحيوانات وهن يحملن البخور المشتعل.

توجهت فى صبيحة اليوم التالى لمشاهدة عملية النفخ، وإن شئت فقل نفخ رحم البقرة، وهى عملية شائعة بين هذه القبائل، من منطلق أن عملية النفخ هذه تُحفّز البقرة على إنتاج المزيد من الحليب. يقوم صاحب البقرة، فى هذه العملية، بأخذ نفس عميق ويقوم بتحريك ذيل البقرة إلى جانب من الجانبين، ثم يقوم بوضع شفثيه على رحم البقرة ويروح يفرغ الهواء من رئتيه؛ ثم يتراجع الرجل قليلاً إلى الوراء وهو ممسك برحم البقرة لمنع خروج الهواء، ثم يأخذ نفساً عميقاً آخر ويكرر ما سبق أن فعله، وهو يمرر يده على ضرع البقرة ليتبين ما إذا كانت البقرة تستجيب لهذه العملية. ويقولون أيضاً إن هذه العملية تجرى فى بعض الأحيان وفم من يقوم بها يكون مليئاً بالملح، لكننى لم أرَ ذلك بعينى، على الرغم من مشاهدتى عملية النفخ مرات عدة.

يبدو أن القراوين فى خيونت كان صفوهم متعكراً. خطر على بالى فى بداية الأمر، أنى ربما كنت أنا السبب فى النزاع الذى دار بينهم، ورحت أسأل نفسى فيما إذا كانوا سيحتجزوننى طلباً للفدية - وهو أمر لم يحدث مطلقاً إلى الآن، على حد علمى فى سائر أنحاء الجزيرة العربية. يزداد على ذلك، أن الأمر كان ينطوى بحق على المخاطرة بإهدار الدم، وإقحامى لسوء حظى فى هذه المسألة. يجلس المتنازعون بالقرب من شجرتى، على شكل حلقة من حلقات الزوج، يجلسون على ركبهم، وكل واحد منهم واضعٌ يداً من يديه على ماسورة بندقيته المرفوعة إلى الأعلى. يبدؤون بداية سلمية تماماً، ولا يبدر منهم أى شئ يمكن أن يدل على الضحك، ويروحون يغمغمون، وذلك على العكس مما يحدث فى التجمعات العربية، التى تتخللها فترات طويلة من الصمت. ثم تتغير النغمة بصورة مفاجئة، وينهض واحد من هؤلاء البشر واقفاً فى مكانة ومن خلال الحركات والكلمات يروح يستفز الحاضرين حتى يقوم أحدهم بمنزلة، وهنا ينهض أحدهم يتحدى ذلك المنافس بجدة وغلظة وعلى نحو يثير المتاعب والاضطراب. وهنا يتصايح الجميع وعلى نحو لا يستمع فيه أحد لأحد. فى هذه المناسبة، يتعلق صبى صغير بوالده، الذى هو واحد من المتنازعين الأشد استئثاراً وهياجاً، ويطلب منه الابتعاد. وهنا يروح الآخرون يستهزئون بذلك الرجل أثناء خروجه. وفجأة يستدير الرجل ويعود إلى هؤلاء الجالسين.

ويزمجر الرجل مكشراً وواضعاً سبابته بين أسنانه وهو يقول: "ز-ر-ر-ر-ر- عليك" ويتحدى الآخرين أن ينهض أحدهم وينازله، بالبندقية أو العصا، وهنا ينهض واقفاً ذلك الذى وقع عليه التحدى، منفعلأ وواضعأ إصبعه على تراس بندقيته، لكن صوت العقلاء الحاضرين هو الذى يرجح فى النهاية، وهنا تتفرق الجماعتان.

وكما هو الحال فى السواد الأعظم من المجتمعات القبلية فى الجزيرة العربية، فإن السائد هنا هو حكم الحوز، أو إن شئت فقل: منظومة السوابق والعقوبات القديمة^(١).

هذا الحوز يتباين من منطقة إلى أخرى، لكن جرت العادة أن يقوم الحوز على مبدأ العين بالعين، بحيث أن يكون العقاب مناسباً للجريمة. وقد حكى لى حاكم ظفار عن حكم من أحكام الحوز صدر مؤخراً. حدث أن كان رجلٌ قائماً برحلة، واصطحب معه رابيا وإن شئت فقل مرافقاً^(٢) من القبيلة التى سيمر خلال منطقتها. وعندما وصل الرجل إلى منطقة القبيلة جرى التعدى على حق الحماية المقدس، ووجد الرحال نفسه مجروحاً بطلق نارى فى الجزء السمين من فخذه. وعُرضت المسألة على الحوز الذى حكم ببراءة من قدم الرابيا أو المرافق، لكن العضو الذى قام بإطلاق النار لابد من خضوعه لجرح مماثل للجرح الذى أصاب الرحال. وتحقيقاً لهذا الحكم جرى إحضار قطعة من الخشب وعمل لها سن مدبب، وجرى غرس هذه العصا المدببة فى رجل المدعى عليه ثم وضعت مكانها طليقة فى الثقب وإخراجها بعد ذلك. وبذلك يكون الضرر الواقع على المدعى قد أزيل.

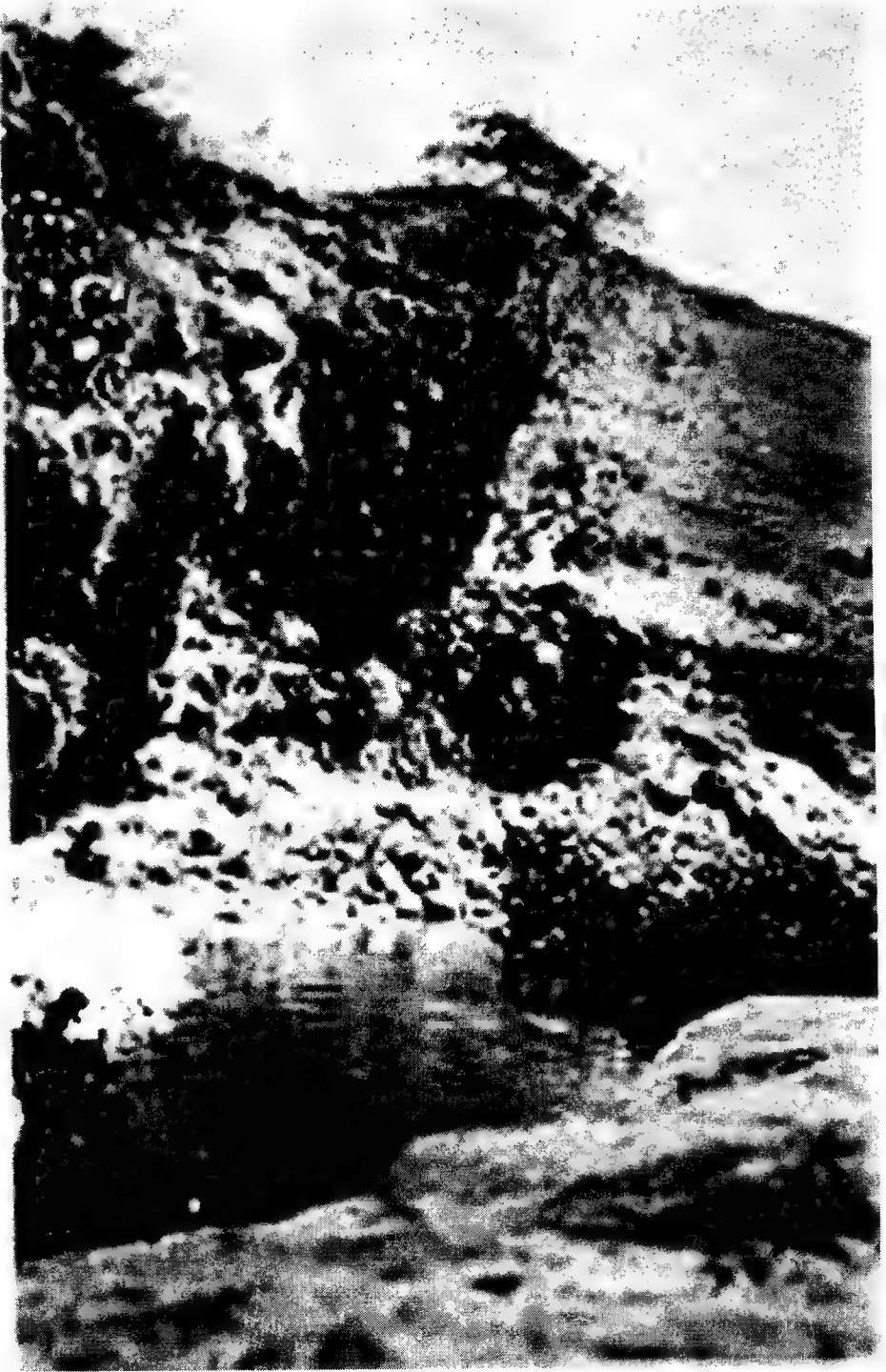
(١) الشريعة الإسلامية أو الدستور الإسلامى مكروه من هذه القبائل، ولا تسرى الشريعة الإسلامية سوى فى المدن الساحلية التى تطبق فيها الشريعة الإسلامية بالقوة. وقد يلجأ الناس، فى مسألة الزواج، إلى الشريعة الإسلامية فى بعض الأماكن الأخرى، لكن المنازعات المدنية هى والجرائم تخضع للحوز، الذى هو رجل القانون فى القبيلة، ويكون شغل هذا المنصب وراثياً. والحوز يمكن أن يكون أو لا يكون هو شيخ القبيلة.

(٢) الرابيا، أو المرافق هو الشخص الذى يكون من القبيلة التى سيجرى التجول فى منطقتها، وحضور مثل هذا المرافق يوفر الحماية للقائم بالرحلة.

قد تؤدي الخيانة من جانب الرفيق في عمان إلى احتراب قبيلتين اللهم إلا إذا وافق المعتدى عليه على عقد جلسة حوز، عندما يتلقى من المتهمين لوم الوجه، والذي يقدر بقرابة أربعمئة دولار. ومسألة القتل في المجتمعات القبلية تجري تسويتها في أغلب الأحيان بدفع الدية التي تتراوح بين أربعمئة وألف دولار تدفع نقدًا (أو ما يساويها عينًا)، وهذا المبلغ يعد مبلغًا كبيرًا جدًا في هذه الجبال التي يسكنها القراوين، وهذا من الناحية النظرية يصل إلى ما قيمته خمسة آلاف دولار، الأمر الذي قد يستنفد حياة الإنسان كلها في سداد هذا المبلغ، لكن التسوية عادة ما تكون عملية معقدة بسبب الثأر. قد يكون القتل رجلًا فقيرًا، إلى الحد الذي يمكن معه تجريد أقرب أقاربه من ممتلكاتهم، لكن يجري جمع مساهمات من كل أفراد القبيلة، الذين يتعين عليهم، من حيث الشرف، أو طبقًا للأعراف التليدة تحمل هذا العبء. والشهري أو العبد يمكن أن يُقتل دون وقوع عقاب على القاتل، لأن الشهري أو العبد لا يعد قبيلياً، بمعنى أنه لا يمكن مساواته بعضو القبيلة، كما أنه ليست له عشيرة حتى يمكن أن تتأثر له.

قبائل الجنوب الأوسط سيئة السمعة فيما يتعلق برد السلام^(١). يتفق كل الناس في الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية على أنه إذا ما تقابل رجلان، بين قبيلتيهما ثأر، وقرأ أحدهما السلام على الآخر قائلاً: "السلام عليكم"، ورد عليه الشخص الآخر قائلاً: "وعليكم السلام"، فذلك يعني أن هذين الرجلين طرحا العداء الذي بينهما إلى أجل قصير. وإذا ما استغل أحدهما هذه الفرصة وقتله أثناء نومه، على سبيل المثال، فإن ذلك يعد أبشع أنواع الخيانة، ويكون العقاب على هذا النوع من الخيانة بالطرد من القبيلة مُلَطَّخ السمعة. الأمر ليس على هذه الشاكلة في سلالة الجنوب الأوسط التي لا تعرف القانون، والتي تتجاهل أيضاً ذلك الذي يسمى ثمن البطن، ويبدو أن مسألة ثمن البطن هذه تعد امتداداً لكرم أو ضيافة الأيام الثلاثة. هذا يعني أنه إذا ما أكل بدوي من بدو جنوب الجزيرة العربية "ملح أحد" من الرجال، فذلك يعني أن هذا الرجل هو وبضاعته يكون في مأمن لمدة أربعة أيام وأربع ليالٍ، وهو الزمن الذي تكون فيه

(١) قبائل البوتاهارا لا تعترف بمسألة الرفيق إلا في فترات متأخرة جداً.



(ربيع خيونت)

الأفضلية الأخيرة للبدو قد انتهت. وإذا ما قامت قبيلة ذلك البدوى المضيف بغزو قبيلة الضيف خلال هذه المدة (أى الأيام الأربعة)؛ فإن الغنيمة المسروقة يتعين إعادتها. مسألة ثمن البطن هذه تعد أمراً مقدساً عند قبائل الجنوب الحدودية، لكن الجماعة التى تسكن الجبال لا تعرف شيئاً عن ثمن البطن هذا.

هناك عجيبة أخرى من عجائب هذه القبائل، وتتمثل فى إدمان هذه القبائل للقسَم والحلف بالأضرحة (الكثير من هذه الأيمانات تنتمى إلى فترة الجاهلية) وكذلك البشعة. وفى حال الخروج على أعراف القبيلة، فإن جلسة الحوز هى التى تحدد القَسَم أو الحلف، أو البشعة.

ومسألة الحلف على المصحف أو الحلف بالله، كما هو سائد فى سائر أنحاء الجزيرة العربية غير معروفة عند هذه القبائل ولا يلقون لها بالاً، وهم على استعداد لأداء هذا القسم كذباً وهم سعداء. واقع الأمر أن المدعى، قد لا يقبل هذا الحلف أو القسم فى بعض الأحيان، ويصر على أن يحلف المتهم بضريح من الأضرحة المقدسة. وأفراد هذه القبائل يعزون إلى هذه الأضرحة قوى انتقامية متباينة^(١). وأول هذه الأضرحة، وهو حضرة عباس، يبدو للعقول المحلية هنا، على أنه هو الأكثر قسوة ووحشية، واندفاعاً، عند الشيعة فى كربلاء. والمدعى فى

(١) القائمة الكاملة للأضرحة المحلية حسب تسلسل قدراتها الانتقامية هى على النحو التالى:

الاسم	المكان
صالح بن هود	بين الحسيك ورأس نوس.
ببر على	قرباط
ببر العربية	رسيوت
الشيخ على عفيف	تافه
الشيخ عيسى	حورتافه
زاهير	مُرباط
النبي عمران	صافه

يوجد قبر النبي هود فى حضرموت، والنبي هود أرسل حسب القرآن إلى قوم عاد، وبذلك يعد هذا القبر من أضرحة المرتبة الأولى، لكن ربما كان ضريح ابن جواهير الموجود فى بلاد المهري، هو الأشهر بين هذه الأضرحة. هذا الضريح هو الذى يجرى القسم به فى مسألة القتل. هناك ضريحان آخران أقل من هذا الضريح؛ هما ضريح ابن عثمان فى ريخوت وضريح النبي أيوب وهو الوحيد الموجود فى بلاد القراوين.

مب في معظم الأحيان الحلف على ضريح من أضرحة المرتبة الأولى، في حين يفضل المدعى عليه (المتهم) الحلف على ضريح من المراتب الأدنى. والرأى العام للقبيلة، والذي يتشكل من درجة الشك في المتهم، هو الذي يحدد الضريح الذي يقسم به المتهم. وفي معظم الأحيان يكون المتهم على استعداد للاعتراف بفعلته تحاشياً للنتائج التي يمكن أن تترتب على اليمين الكاذبة.

حدث أن قام على، ذلك الكثيرى الظفارى الشهير، بسرقة جمل، وذبح هذا الجمل وأكل لحمه. دارت الشكوك من حول الرجل ووجه إليه الاتهام، وخطر على باله أن يخاطر بحلف اليمين كذباً على ضريح ابن عثمان. وأقسم الرجل كذباً؛ وفي الليلة نفسها لدغه ثعبان في قدمه وأخذت قدمه تذوى. وسرعان ما بادر على بالذهاب إلى الرجل الذي سرق هو جملة، واعترف له بذنبه ودفع له ثمن جملة، تخوفاً من المضاعفات، وعلى لايزال في قيد الحياة إلى يومنا هذا، وإذا ما سأله أحد عن ضمور قدمه فإنه يرد قائلاً: "ابن عثمان".

مع ذلك "لا يعد القسم على ضريح من الأضرحة كافياً بحد ذاته. والقاتل الذي تدور من حوله الشكوك قد يطلب منه الخضوع للتماريت أو البشعة، وقال لى مضيضى القروينى، الشيخ حسن، إنه خضع للبشعة عندما كان صبياً صغيراً، حيث ذهب إلى حضرموت ليخضع للبشعة تحت إشراف المُبشع، وأنه أثبت براءته، وعاش بعدها، مؤكداً لى أنه يؤمن بعدالة هذه البشعة.

لا يجرؤ أحد، مهما كانت قواه وعلمه، على الإقبال على هذه الممارسة مخافة التعرض لخنجر الحشاش، الذى عانى منه بيحان، الذى يمتحن الحدادة فى قبيلة ياهام، فضلاً عن كونه مبشعاً شهيراً فى وادى إرما. قال الراوى الذى يرافقنى: "مَنْ هو ذلك الذى يرفض قرارات على بن عبد الله بن عبد الودود، سواء أكان ذهباً أم حديداً، بريئاً أم مذنباً".

تُعقد جلسة أو تجمع البشعة فى الفترة ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر. تتجمع الأطراف كلها أمام النار. ويقوم المُبشع بوضع حد سكين فى النار، وبعد مرور بعض الوقت يفتح المتهم فمه ويمد لسانه خارج فمه. وهنا يمسك المُبشع بطرف لسان المتهم بواسطة منديل، وإصبعيه السبابة والإبهام؛ ويقوم بيده الأخرى بتناول السكين ويضعها بالقرب من شفتيه من باب التبرك، ثم يقوم بعد ذلك

بالرّيت مرتين: مرة واحدة بكل جانب من جانبى السكين، على جانبى اللسان الممتد؛ وهنا يتحتم أن يكون المتهم قادراً على التفل إذا ما كان الفأل حسناً، ثم يترك اللسان مدة ساعتين، يجرى بعدها فحص اللسان. وإذا ما ظهرت أعراض التورم أو حرق غير طبيعى أو تأثر الغدة الذى يظهر فى الرقبة، يُعلن المبتشع أن المتهم مذنب ولا بد أن يدفع حياته ثمناً لفعلته، أو طبقاً لما يريده أهل المجنى عليه، لكن إذا لم يظهر أى عَرَض من هذه الأعراض، يجرى الحكم ببراءته.

سألته: "ماذا عن عدالة البشعة؟".

قال سعيد، وهنا خطر على بالى نبيوشادنبزار هو وفرنه النارى الحارق: "إنها صادقة والله، النار لا قوة لها مع البرىء". وخطر على بالى أيضاً "فرن العذاب" عند أشعياء. اكتسب سعيد ثقافته هذه من الرحلات التى كان يقوم بها فى مصايد اللؤلؤ فى عُمان، وزادت أيضاً لأنه كان يستطيع القراءة إلى حد ما. ويواصل سعيد كلامه: "ألا يسمى المُبَشِّع باسم الله وَيُشْهَدُ عن طريق تقبيل حد السكين وهو يقول:

"بسم الله، الرحمن، الرحيم، يا نار، يا نار، كوني برداً وسلاماً، مثلما حدث للنبي إبراهيم" (١).

"ما هذا الذى تقوله، يا سعيد، عن النبي إبراهيم؟".

سألنى، "أكيد أنتم لديكم رواية عن ذلك فى العهد القديم".

رددت عليه، "لا ، ليس لدينا رواية عن ذلك".

قال: "ألا تعرف أن النصارى- الناصريين(*) - المسيحيين، أسلافك، كانوا يودون قتل نبي الله إبراهيم، وقذفوا به فى محرقة فى وادٍ من الوديان، وأرسل الله جبريل الملك وأطفأ شهيّة النار حتى لا تؤذى النّبي، ونجا (ﷺ)".

(١) وردت هذه القصة فى القرآن، لكن المعذبين لم يكونوا مسيحيين.

(*) نسبة إلى مدينة الناصرة . (المترجم).

لقد أطلت فى التركيز على العبادات الوثنية عند سكان هذه الجبال، وأرى أن الرواية لن تكتمل دون أن أقول شيئاً عن السحر، الذى يحظى باعتقاد الكثيرين فيه على نطاق واسع، وتدور الشكوك بصفة خاصة حول كبار السن، بل ويجرى قتلهم أحياناً لأسباب مفادها أنهم لا يمكن أن يكونوا قد بلغوا هذه المرحلة السنية إلا عن طريق التواصل مع قوى خارقة للطبيعة.

يعزو هؤلاء البشر الموت هنا إلى تعزيم ساحر أو ساحرة تدور حوله أو حولها الشكوك، وتجرى مطاردته على الفور. وهذا هو القبلى الذى ينتمى إلى بيت الشيخ، والذى فتح علينا نار بندقيته عندما اقتربنا من إبله فى وادى آفار؛ هذا القبلى قام يوم أن كان فى شبابه بقتل ابن عمه الأرملة ظناً منه أنه ساحر - وقد حظى هذا العمل برضاء الرأى العام، هذا إن لم يكن الرأى العام هو الذى حرّض عليه؛ وقع حادث من هذا القبيل فى غضون شهر من وصولي، حيث قام مجهولون بقتل هذه المرأة ظناً منهم أنها ساحرة. واتضح أن هذه السيدة كانت متهمة بالسحر منذ زمن طويل، لكنها أثبتت براءتها عن طريق تقديم نفسها للبشعة والمُبشّع. وخرجت بريئة الساحة ولكن ذلك فشل أيضاً فى إقناع قبيلتها. كانت تلك قضية من قضايا قيام العصابات بتوجيه التهم ومعاقبة الناس، بالمعنى الحقيقى لهذا المصطلح.

القتل فى هذه الجبال أمر شائع الحدوث. ويبدو أن قيمة الحياة متدنية فى هذه الجبال. واقع الأمر أن الثأر والنزاعات الدموية هما اللذان يفصلان القروينى عن أخيه القروينى. وهذا الثأر هو والصراعات الدموية موجود أيضاً بين جماعات من القراوين ومجموعات أخرى من الكثارين والمهرين. ولا تعترف أية قبيلة من هذه القبائل بوجود شيخ كبير لها، وعلاقات هذه القبائل بعضها ببعض تتباين من حين لآخر. والظاهر أن هذه القبائل تنظر إلى الحكومة باعتبارها قوة قبلية أقوى من أية قبيلة.

كان يجرى بجوار جملى الذى أركبه، رجل من القراوين. كانت نوعية بندقيته، وجبخانه ذخيرته، ناهيك عن ثقته بنفسه، تدل على أنه شخصية بارزة، وأنه قبلى بحق وحقيقة. كان اسم ذلك القروينى سالم.

ولما كنت راكباً فى مقدمة جماعتى، فقد راح يمسك بحبل جملى بين الحين والآخر، ليقودنى إلى المسار السالك فى الغابة والذى تتعلق من فوقه أغصان الأشجار، وذلك حتى يكفينى مئونة النزول من فوق جملى.

سألنى سالم بصورة مفاجئة "هل كل الكفرة مثلك، رجال كبار حمر، لحاهم حمراء وعيونهم زرقاء؟".

قلت له: "نعم".

"وكم عندك من الأبقار؟".

"للأسف: أنا لا أملك حتى ولو بقرة واحدة".

ونظر الرجل إلى نظرة تساؤل عن المصدر الذى أحصل منه على دولاراتى.

"وهل صحيح أنكم أيها الكفار تجدون نفودكم فى صخور الجبال؟".

"هذا صحيح تماماً".

رد على سالم، وكأنه يطلب العفو والسماح لمن يملكون هذا السحر الأسود: "الله يسامحك".

"هل توجد نقود فى جبالنا؟".

"أنا لا أعرف ذلك، يا سالم".

"إذن، ما سبب مجيئك إلى هنا؟".

"لأنى محب للترحال، والتقاء أبناء الرجال، ودراسة كل مخلوقات الله".

"لكن، هل تحصل على نقود مقابل هذا الذى تفعله؟".

قلت: "لا، إنه يكلفنى نقوداً. هذه الأنواع التى أدفع دولاراً واحداً، لكل من يأتى بواحد منها، لا أحد من قبيلتى يعطينى دولاراً واحداً مقابل كل هذه الأنواع".

نظر الرجل إلى نظرة غريبة ثم قال: "وهذه الجبال، ألا تخاف من التجول فيها؟".

"قال سالم فى شىء من التملق: "يا أحمر العين، السلطان تيمور لم يجئ إلى هنا سوى مرة واحدة".

"لكنى أحب بلدكم يا سالم. لأنها تذكّرني ببلدى".

كانت مسألة القتل هى الموضوع الذى يؤرق سالم، لأنه كان يعود مرات ومرات إلى الحديث عن هذا الأمر. سألتنى وهو يواصل كلامه: "هل أعرف أن رجلاً من قبيلته قام مؤخراً بقتل عسكري من عسكر الحكومة؟".

سألته: "لماذا فعل هذه الفعل؟".

"حسن، ألا تعرف أن الحكومة، فى عهد الوالى سليمان، قتلت رجلاً من القراوين؟".

قلت: "لكن ذلك كان منذ خمسين عاماً، وإن هذا العسكري الذى قُتل مؤخراً لم يكن قد وُلد بعد".

قال سالم: "هذا صحيح، لكنه جاء وسخر من القروينى وكان ابن أخى الرجل الذى قتله سليمان. والله! ثم لعن ذاكرة عم الرجل، إلى حد أن الرجل أعماه الغضب ما جعله يفتح النار على عبد الحكومة".

قلت: "حسن، يا سالم! لدينا فى بلادنا علاج واحد وهو علاج جيد. إذا ما قتل رجل رجلاً آخر فنحن نقتل القاتل. ولا تجرؤ قبيلته على حمايته، كما أن الحكومة لا توافق على أى شىء غير حياة القاتل".

قال سالم: "هذا صحيح، لكن عندنا، يكفى إزهاق روح واحدة من قبيلة القاتل" ثم ألم ترسل الحكومة عبداً آخر خصيصاً لقتل واحد من رجالنا فى العام الماضى، وبذلك نكون قد أصبحنا متساوين الآن، لكن، لماذا قتلوا حمدان بن جاسم (صنديد القبيلة)؟ والله! لقد كان رجلاً طيباً، وتمنيت لو أنهم قتلوا ثلاثين آخرين وأبقوا على حياة هذا الرجل. لكن (ها مكتيب) يقصد "هذا مكتوب ومُقدّر".

سألته عن سالم فى اليوم التالى لأنى كنت بدأت أستطف هذا الرجل، وخطر على بالى أن أخذه معى إلى ظفار وأعطيه هدية صغيرة، لأنى اكتشفت فيما بعد أنه هو القاتل الحقيقى لعسكري الحكومة، واعتبر نفسه فى مسألة ثأرية مع حكومة السلطان، التى تمنى أو كانت تود إزهاق روح سالم يوم أن قام بقتل الجندى.

تأملت الساعة التى أمضيناها معاً بالأمس فى الغابة المعزولة، ثم تنفست الصعداء.

الفصل الثامن

جبال قارة: التوديع

دخل علينا الفجر ومعه ساعة الصلاة. بدأ مظهر رفاقي النائمين فى كل مكان على العشب، يكشف عن دلائل الحياة وعلاماتها. أفراد من القراوين والشهارين، راحوا يوقظون بعضهم البعض حتى يؤدوا الصلاة فى أماكنهم، مستعملين التراب فى التيمم، ولكنى كنت أتساءل كيف سمحت لهم مبادئ المذهب الشافعى بهذا النوع من التكاسل والتراخى؛ هذا فى الوقت الذى راح فيه العمانيون الثلاثة المصاحبون لى، وهم من أتباع المذهب الأباضى الملتزم، ومعهم بنادقهم، فقد جرت العادة فى هذه الجبال ألا يبتعد أحد حتى ولو ميل واحد، دون أن تكون بندقيته بصحبته - متجهين إلى أعالى الوادى بحثاً عن بركة ماء يتوضئون منها، إذ بدون الوضوء يعتبرون صلاتهم لا شىء وبلا مضمون.

بدت لى الصلاة التى تُؤدَّى بواقع خمس صلوات فى اليوم، وبخاصة عندما يؤديها هؤلاء البشر غير المتحضرين، كما لو كانت أنشودة سحرية أكثر منها إثارة أو تحريكاً للأرواح. يضاف إلى ذلك أن الأصوليين، يعلقون أهمية أكثر على الوضوء الصحيح، والوقت المناسب، والوضع المناسب أكثر من الكلمات نفسها، أو هكذا تبدو الأمور للمشاهد غير المهتم؛ ذلك أن أهل هذه الجبال يغمغمون بأسطر القرآن بصوت عالٍ وبسرعة تتم عن عدم التقوى، لأنهم ينظرون هنا وهناك طوال أدائهم للصلاة.

فيما يتعلق بالمرأة والصلاة، يُقال أن ما يقرب من نصف عدد نساء الجبال يصلين؛ والأرجح أن هذا التقدير سخى أكثر من اللازم، نظراً لأننى لم أرَ امرأة

واحدة تصلى على مرأى ومسمع من الناس؛ وهنا وكما هو الحال فى الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية لا يمكن أن نصدق أن الرجال والنساء يمكن أن يؤدوا الصلاة معاً أو يأكلون معاً فى العلن. ومع ذلك، وإذا ما صح التقرير، فإن الجميع، رجالاً ونساءً على حد سواء، يراعون بدقة وانتظام صوم شهر رمضان الذى يبدو لهم أقل مغزى من الطقوس الدينية الأخرى، وهم ينظرون إلى إهمال صوم رمضان على أنه يمكن أن يجلب عليهم غضب الرب.

جاءنا بعد ذلك من منطقة السهوب الواسعة، خمسة من المترجلين الذين يسهل تمييزهم، نظراً لأن البيئة والمهنة كانت آثارهما واضحة على هؤلاء الخمسة. لم تكن أرجل هؤلاء الخمسة هى الأقدام المطلوبة لتسلق الجبال، إذ كانت أقدامهم ضعيفة العضلات، كما أن سيقانهم كانت معوجة بحكم كثرة ركوبهم الدواب؛ يضاف إلى ذلك أن الأرجل المقوسة إلى الداخل أمر لا يمكن أن تخطئه العين، عندما نؤكد على وجودها فى إنسان السهوب الصحراوية. يزداد على ذلك، أن لباس هؤلاء الخمسة كان عبارة عن موسور ودشداشة طويلة الأكمام تغطى ما بعد الركبتين. وفوق ذلك كله، كانت أسماء هؤلاء الخمسة مؤكداً آخر على أنهم أغراب على هذه الجبال: كان أحدهم يدعى بير النكيد Bir Annekid^(١)، والثانى بير عويجة، والثالث بير عنجيم، كما هو الحال عندما نقول: ابن كاتى، ابن جين، إلخ، والسبب فى ذلك أن البدو المترجلين ينسبون الرجل إلى أمه بدلاً من نسبته إلى أبيه، وهذه العادة لا وجود لها بين السكان الحضر، أو حتى بين قبائل هذه الجبال، هؤلاء المهارين الخمسة جاءوا إلى سوخى عن طريق البحر، والمعروف أن سوخى إحدى موانئ البخور تحت رأس نوس، جاءوا لتحصيل المستحقات من المدنيين (عبيدهم؟) "الذين كانوا يخدمون هذا الموسم فى حقول البخور"، وأنهم كانوا فى طريق عودتهم إلى مكانهم فى وادى راما العتيدي (يقال له وادى آرما فى بعض الأحيان).

جاءنى بعد ذلك مهرى آخر، لكن كان واضحاً أنه من قاطنى هذه الجبال، وكان يحمل معه ثعباناً يلف نفسه مهدداً حول رسغ يد ذلك المهرى. قال المهرى: "لقد

(١) فى هذه اللغة الكلمة بير Bir = ابن، وكلمة birt = ابنة؛ وبذلك يكون اسم الشخص الأول: ابن النكيد... إلخ.

لدغنى"، ورفع يده الأخرى إلى أعلى ليرينى دماً على شكل شَكَّة دبوس فى إصبعه الوسطى، التى كانت متورمةً ورماً شديداً بفعل ربطها ربطة شديدة من منطقة أسفل الإصبع وذلك منعاً لانتشار السم فى سائر أنحاء الجسم. وهنا قام بوضع الثعبان على الأرض، وراح الثعبان يثبت أنه لا يزال عامراً بالحياة. وعندما ابتعدت عن المكان وجدت ذلك المهرى يمد يده ليمسك بالثعبان من جديد، لكن الثعبان كان أسرع منه، إلى حد أن المهرى لم يمسك من الثعبان سوى ذيله. وعلى الفور لف ذلك الوحش نفسه، وبلدغة حادة، عض المهرى من جديد، وهنا قررت هارباً لأن الحاضرين قالوا إن الثعبان من النوع السام. أمسك المهرى الثعبان من ذيله لمسافة ذراع، وكان رأس الوحش متجهاً ناحية الأرض، وانزلت يده الأخرى بلطف من الذيل إلى وسط الوحش، وبحركة سريعة جداً أمسك المهرى بالثعبان من عنقه من الخلف، وراح يعصره إلى أن فارق الحياة. أعطيته الدولار المعتاد، لكن لم تكن هناك النكته المعتادة، لأنى كنت متحسباً مخافة أن يموت الرجل وتضع هذه المأساة حداً لعملية الصيد فى هذه الجبال، الأمر الذى يمكن أن يفسد خططى الكبيرة.

ومع ذلك، جاءت جماعة أخرى من المهارين المحليين، أو بالأحرى، من بيت الشيطنة، الذى هو اسم على مسمى، جاءوا برئاسة الشيخ المعوق لبخيت لزيارتى والسلام علىّ. كان أحد أفراد هذه الجماعة يود علاجاً لقصر النفس، أو اضطراب التنفس، الذى يرجع تاريخه إلى جرح ناجم عن الإصابة بطلق نارى فى غزوة من الغزوات. وأرانى ذلك الرجل موضع دخول الطلقة ومكان خروجها من جسمه، الأمر الذى أثر تأثيراً واضحاً على الرئتين.

"أليس عندك دواء لعلاج لرجلٍ عديمة النفع؟ صاحب هذه الرجل ليس معنا لأنه لا يستطيع المشى".

سألته: "منذ متى حدث ذلك؟".

"منذ إصابته بطلق نارى فى رأسه".

قلت وأنا أشعر أن هناك نوعاً من الشلل: "لا يوجد أى علاج مفيد فى هذه الحالة، فى العالم كله".

قال أحدهم، وروح اليأس والقنوط تسيطر عليه: "الحمد لله رب العالمين"، وراح الرجال الأربعة ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يائسون، لكنى شخصياً شعرت وكأنهم يحاكموننى. هذا لأنى بخلت عليهم بالمساعدة، أو لأنى لا أمتلك ذلك السحر أو المهارة التى يظنون إنها عندى. أعطيتهم شيئاً من التمر وصرفتهم بوعود بمكافأة إذا ما أحضر إلى غُرَيْر، ذلك الحيوان الثديى الصغير الذى يصعب الحصول عليه دوناً عن سائر الأنواع كلها.

جاء إلى شجرتى بعد دخول الليل الشيخ هو وأبناؤه الأربعة وراحوا يُسلُوننى ويرفهن عنى بأغانيهم وأناشيدهم الجبلية بلغة الشهارين، فى حين كانت جثة الكونى، أو الأرنب الأوروبى الذى اصطدته رميةً بالرصاص، موضوعه بعيداً على أمل أن تجذب رائحتها ذئباً أو ثعلباً، معروف أن ثعلب الجزيرة العربية الكبير أحمر اللون - الأنواع المحلية منه أسطح بطونها دكناء بشكل غير عادى - يشيع فى هذه الجبال، وكنت كلما درتُ بشعلة حول فراشى فى المخيم، رأيتُ عينين متقدتين نحاسيتين لامعتين، كان مفروضاً أن يداوم العرب المرافقون لى، على المراقبة، لكنى فى هذه الليلة توجهت إلى الشجرة التى ينامون تحتها لأجدهم جميعاً غارقين فى النوم، وكان الكثيرى الذى عليه الدور فى الحراسة قد قام بوضع جثة الكونى بين أفرع الشجر، حتى لا يكتشف أمر إهماله فى الصباح. ركلته بقدمى ركلة قفز واقفاً بعدها وهو يصيح دهشة وهو يتناول بندقيته، وهذا هو ما يفعله أى عربى فى مثل هذه الظروف، لأنه لا توجد قبيلة بدون ثأر يجعل من أفرادها صيداً لعدوهم. وهنا أبلى سعيد بلاءً حسناً فى نوبته ونتج عن ذلك أنه كوفئ بثعلب راح يجوس فى طريقه، وأفضى ذلك إلى ضيع أُصيب بطلق نارى وضاع فى وادى نيهاز.

هذه القبائل الجبلية يحكم إنها قبائل مستقرة وليست مترحلة لديها حق ملكية غير موجود عند البدو الآخرين. وإذا كانت الأشجار والمراعى ليست ملكاً لأحد من الناحية النظرية، فإن بعضاً من بطون هذه القبائل تدعى أنها لها الحق فى احتلال أرض الغير بقصد امتلاكها حتى وإن كانت ملكية هذه الأرض عامة. يزداد على ذلك أن الكهوف هى الأخرى مملوكة لأفراد. وتنتقل ملكية هذه الكهوف من الآباء إلى الأبناء، لكن هذه الملكية ليست دائمة نظراً لأن المالك الحالى قد يضطر

فى أى وقت إلى التنازل أو التخلّى عن كهفه، مادام ليس واقعاً ضمن حدود منطقة قبيلته.

سألت واحداً من بيت الكثيرى: "وماذا عن كهوفكم الواقعة على حدود السهوب الكبيرة؟".

قال: "إنها حرة حرية الهواء والصحراء. اليوم أحتل كهفاً ثم أنتقل منه، وغداً يحتله شخص آخر. هذه الكهوف لا تنتمى لأحد، لكنها من خلق الله تعالى".

وفى قرى السهل الساحلى، حيث يبنى الإنسان منزلاً يأوى إليه ويحتمى به، يكون أول ما يفعله ذلك الإنسان، هو دق أربعة مسامير طويلة فى الأركان الأربعة درءاً لعين الحسود. وعندما يكتمل بناء المنزل يقوم صاحبه بذبح خروف على عتبة ذلك المنزل، على سبيل أن يكون ذلك تقريباً وقريباً من أجل متانة جدران هذا المنزل- وهذا الاحتفال مثيل للاحتفال الذى درجنا على القيام به عندما نقوم بتدشين السفن بزجاجة من النبيذ. وفى بعض أجزاء من سلطنة عمان، يقوم الساكن المرتقب للمنزل بعد اكتماله بذبح خروف، ويغمس يديه فى دم الخروف ويروح يضمخ بذلك الدم قوائم باب المنزل.

وهناك عادة مماثلة لهذه العادة فى سهل ظفار، لكن ذلك يكون أثناء عملية بناء المنزل. ويقوم البناؤون بأكل لحم الخروف على أن يقوموا بتضميخ الحيطان بالدم. وبعد اكتمال بناء المنزل يقوم ساكنه بكسر بيضتين من بيض الدجاج على عتبة هذا المنزل، وبيضتين أخريين على السلم، ثم بيضتين أخريين على الطريقة المؤدية إلى الدور العلوى.

السن المعتادة للزواج عند الجنسين هى سن الخامسة عشرة، لكن الصبى قد يتزوج فى بعض الأحيان قبل الوصول إلى هذه السن وذلك منعاً له من اكتساب العادات السيئة. يجوز أيضاً تزويج البنت قبل البلوغ إذا كان والدها فى قيد الحياة ويوافق على ذلك - إذا كان أحد الطرفين قد وصل إلى السن المحددة، فإن مسألة نضج الطرف الآخر لا يمكن أن تكون عائقاً أمام العلاقة الجنسية.

سألت الشيخ حسن: "هل هذه الأحوال الزوجية شائعة؟ وماذا عن زواجك أنت؟".

قال: "كنت كبيراً، كان عمري ستة عشر عاماً، عندما عثر لى والدى على امرأة لى، لكن لبخيت الموجود هنا"، وهنا أشار إلى أخيه الأكبر سنّاً، الذى كان على وشك البلوغ؛ فقد زوّجته ابنة عمه قبل عامين. وهو الآن أصبح كبيراً ويحب امرأة أخرى، وأنا إذا ما طردته من ظفار، سوف يعود ويتزوجها".

"وماذا عن ابنة عمه التى هى زوجته؟".

"والله، هى أجمل بنات هذه الجبال، ولديها ثروة أيضاً، لكنه لا يحبها، وإنما يحب المرأة الأخرى".

"هل هى صغيرة السن؟".

"لا، كبيرة فى السن".

قلت: "عشرين عاماً".

رد على "حاش لله، ربما ثمانية عشر عاماً. سوف يطلقها وسوف تتزوج رجلاً آخر".

ليس من الغرابة فى شىء أن نرى الناس فى هذه الجبال يتعاملون مع الزواج بشىء من الاستخفاف. العروسة تُسوّقُ هنا كما لو كانت قطعة من المنقولات. أغلى عروس هنا لا يزيد ثمنها على عشرين بقرة (قاربة أربعمائة دولار)، وأرخص عروس لا يزيد ثمنها على بقرة واحدة أو عشرة دولارات- والناس فى هذه الجبال يطلقون على ثمن العروس اسم الجيالاب- يقوم كل من العريس هو وممثل العروس بالنزول إلى السهل قاصدين القاضى الذى يقوم بتوثيق الزواج، وعقب عودتهما، تقوم نساء القبيلة، ومن أمامهن رجال المنطقة، باصطحاب العروس إلى كهف زوجها، الذى يتمثل أثاثه فى قطعة صغيرة من السجاد يجرى شراؤها لهذه المناسبة. وهنا يكون العريس قد قام بذبح بقرة وربما بقرتين، إذا كان ميسوراً، وذلك على سبيل العزيمة أو الوليمة، لكن لا يوجد شىء من الصخب أو المرح فى هذه المناسبة سوى نشيد الرابوت الذى ينشده الرجال (١) : هذا يعنى أن الصخب والرقص البدائى كما هو الحال فى ختان الذكور لا وجود لهما.

مسألة الطلاق سهلة للغاية عند الرجل، كما هو الحال في سائر أنحاء الجزيرة العربية - ليس على الرجل من شيء سوى الإعراب عن سأمه لزوجته وممله منها وأن يقول ما يعبر عن ذلك بالصيغة المعتادة لذلك، وهنا يتعين على الزوجة العودة إلى منزل والدها ومعها هدية الافتراق والتي تقدر بقرابة نصف بقرة، أى قرابة خمسة دولارات. الطلاق من جانب الزوجة سهل أيضاً، على الرغم من أنه يكون أكثر كلفة، إذ يتعين على الزوجة أن تعيد إلى زوجها ثمن الزواج، وقد يصل إلى عشر بقرات، وهنا يصبح الطرفان أحراراً ولكل منهما الحق في الزواج من جديد. والطلاق لا يحتاج إلى قاضٍ، وبذلك يكون الزواج والطلاق شيئين متكررين. والرجل من حقه شرعاً الزواج من أربع زوجات في آن واحد، لكن القاعدة العامة هي زوجة واحدة، أو اثنتان في معظم الأحيان. وإذا كانت المرأة قد أنجبت لزوجها ابناً فهو في مثل هذا الحال لا يكون راعياً في طلاقها، لكنه عندما يتزوج مرة ثانية، ولا بد أن تكون الزوجة الثانية بنتاً صغيرة السن، فإنه مثلما درج عليه الناس هنا، يحاول استرضاء الزوجة الأولى بهدية تعادل ثمن زواج العروس الجديدة.

ومن هنا تكسب النساء ثروات كبيرة، واقع الأمر أن استقلال ملكية الرجل عن ملكية المرأة أمر محترم هنا.

سألت واحداً من القراوين المرافقين لى "كم طفلاً عندك، يا إنستاهيل؟".

قال: "ثلاثة أطفال، بنت وولدان".

"من الزوجة نفسها؟".

"لا، البنت كبيرة وهى امرأة فضل الله، هنا فى هذا المكان. وأنا طَلَّقت أمها".

قلت: "لماذا طلقته؟".

"لم تنجب لى شيئاً (بمعنى لم تنجب لى ذكوراً). لكن هى التى طلبت منى الطلاق".

"وهل طالبتها بدفع نصف الجيلاب الذى دفعته أنت؟".

"حصلت على ما هو أكثر من نصف الجيلاب. دفعت لها ست بقرات، وطالبت وحصلت على ثمانى بقرات نظير طلاقها".

"ما مقدار الجيلاب الذى حصلت عليه فى زواج ابنتك؟".

"أربع بقرات. كانت تساوى أكثر من ذلك، لكن فضل الله ولد عمها، ولم يقدر على دفع ما هو أكثر من ذلك، ولذلك وافقت على زواجه منها".

"هذا يعنى أنك حصلت على ست بقرات زيادة - بقرتان من زوجتك وأربع بقرات من ابنتك؟".

ضحك الرجل: "والله! أنا كنت أحمق، لأنها تزوجت ابن زيد وأنجبت له أربعة أبناء".

سألته: "ماذا عن زوجتك الثانية؟".

"أنجبت لى ثلاثة أبناء وست بنات، لكن لم يبقَ من أبنائى الذكور سوى اثنين فقط".

"بفرض أنك التقيت زوجتك الأولى التى هى زوجة رجل آخر الآن، فكيف ستكون علاقاتكما؟".

"أنا لا يمكن أن أحيى خدّها أو يدها، وإنما أكتفى فقط بسؤالها" هت بخير؟- بمعنى هل أنت بخير؟- (هذه هى التحية المعتادة عند أهل هذه الجبال).

تعمل المرأة هنا فى ظل تحريمين غير عاديين. أولهما أنها لا يجوز لها حلب الحيوانات؛ وثانيهما أنها لا يجوز لها إعداد الطعام. وأن هذين العاملين المنوط بهما الرجال. وتتمثل مهام المرأة فى رعى الماشية وتربيتها، وجمع الحطب وجلب الماء، وصناعة الأواني، وقطع القش اللازم للفراش. لكن الهدف الرئيس للمرأة فى الحياة هو الإنجاب، الذكور بصفة خاصة. الإجهاض غير معروف فى هذه الجبال، والفكرة بحد ذاتها مخيفة. الحمل أسهل على المرأة هنا- وتواصل العمل إلى ما قبل ولادتها بيوم واحد، وهى تضع وليدها تحت شجرة من الأشجار فى العراء أو فى كهف من الكهوف، وهى تضع وليدها وهى واقفة على قدميها كما لو كانت من ذوات الأربع، وذلك- إن أمكن- بمساعدة امرأة أخرى من القبيلة، وقد تكون هذه المرأة أمها أو أختها. وفى اليوم التالى تصبح المرأة مستعدة لاستئناف عملها.

الإنجاب غير الشرعى أمر غير معروف تماماً فى سائر أنحاء هذه الجبال، وذلك على الرغم من اتساع مدى الحرية التى تتمتع بها المرأة، وهذا راجع إلى سهولة الزواج، الطلاق، وكذلك الزواج للمرة الثانية، وأن هذه المسائل لا تخضع

لإجراءات عقابية كبيرة مثلما يحدث فى بعض الأماكن الأخرى من شبه الجزيرة العربية. فى عُمان، على سبيل المثال، نجد البنت التى تخطئ سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة، يمكن أن تقتل على يد والدها، أخيها، أو ابن عمها، لكن زوجها لا يقوم بهذه العملية. هنا فى هذه الجبال، إن أخطأت البنت فإنها تطرد من القبيلة ويسمح الناس لها بالذهاب إلى الساحل لتعول نفسها بنفسها.

وفى عُمان؛ فإن الرجل الذى يزنى بهذه المرأة ويكون ذلك برضاها هى، ينجو من العقاب ويسمح له بالتجول هنا وهناك. وفى جبال القراوين يقوم أقارب البنت بملاحقة ذلك الرجل. وإذا ما أفلحوا فى إحداث جرح فى جسمه بالسيف فذلك خير وبركة، لكنه إن هرب فإنهم يقومون باصطياد زوجته، أو أختها، أو أمه ويفعلون فيها الجريمة نفسها.

هناك قاعدة لا يمكن كسرها فى زواج الفتاة للمرة الأولى؛ وهى أن والدها هو الذى يختار زوجها الأول بدون الرجوع إليها أو أخذ رأيها. هذه القاعدة ملزمة وصارمة عند الأباضيين فى عُمان، وبخاصة بين الصفوة المختارة، وهم يرون أن من العار على الأب أن يعرف رغبات ابنته أو يخبرها حتى عن الزيارة التى سيقوم بها للقاضى فى مسائل تتعلق بالزواج، ولذلك فإن الابنة لا تعرف سوى القليل جداً عن هذا الأمر إلى أن يحين موعد الليلة التى سيجرى فيها توصيلها إلى بيتها الجديد.

من ناحية أخرى، نجد أن والد العريس يجوز له التحدث مع الخطيبة بنفسه، ويجوز له بل ومن حقه أن يتكلم مع والدة العروس، كيما يمتدح لها صفات وخصال ولده. وبنت هذه الجبال إذا ما طلقت وأصبحت امرأة، يتعين أخذ رأيها وتلبية رغباتها فى زوجها المستقبلى، وهناك بعض الحالات تؤكد أن مثل هذه المرأة تتزوج من الرجل الذى توافق هى عليه، إذا ما وافق والدها أيضاً على هذا الزواج. هذه الجبال لا يجرى فيها الإصرار على الزواج من ابن العم كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية^(١)، باستثناء المهارين الذين يعطون والد العروس كل الحقوق فى الأمور المتعلقة بالزواج.

(١) كان النبى (ﷺ) هو لب هذه المسألة، والمقصود هنا ليس أبناء العم الذين من نسل واحد وإنما القرابة البعيدة.

غادرنا خيونت. كان طريقنا الذى وصلنا إليه من خلال تسلق ضفة غابية من الوادى الموجود على الجانب الجنوبى الغربى من خيونت، إلى أن وصلنا إلى ارتفاع ١٨٥٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر، استطعت منه مراجعة موقعى والتأكد منه، بواسطة توجيه البوصلة إلى النقاط الساحلية المعروفة. وانطلقنا مواصلين مسيرنا من هذه النقطة المرتفعة، طوال الفترة المتبقية من اليوم، فى مسار يميل قليلاً ناحية الجنوب الشرقى، مخترقين بذلك مروجاً متدرجاً من الشوفان. وهنا بدأ الطابع الحجرى يتسود المكان، وبدأت الغابات تبدو منتشرة فى كل مكان؛ وكانت الوديان أكثر عمقاً من غيرها من الوديان الأخرى؛ وعليه أثرت النزول من فوق راحلتى ورحت أسير على قدمى ومعى شبكة صيد الفراش، برطمان القتل، وصرفنا الإبل من طريق أسهل لكنه أطول.

وبذلك أكون قد انفصلت عن جماعتى، وهنا جاءنى يجرى بدوى من بدو الكثارين وهو يصيح مذعوراً.

"وقّف! أيها صاحب! أنت ليس معك رابيا أو رفيق، ولذلك قام بيت القطنون باحتجاز إبلنا".

بيت قطنون، هم بطن من بطون، قبيلة القراوين، وكانوا على خلاف مع الحكومة فى ظفار؛ كنت قد أبقيت واحداً من رؤسائهم فى السجن فى صلالة؛ لأنهم كانوا قد رفضوا دفع الضرائب السنوية، فضلاً عن أنهم كانوا لا يزالون يمارسون عملية الغزو.

على كل، أنا لم تكن حالتى النفسية تسمح لى بالتوقف.

صاح البدوى الكثيرى قائلاً: "والله! بيت القطنون قادرون على فعل الشر بكل أنواعه. ألم يقتلوا عسكري حكومى فى العام الماضى؟".

لم يكن معنى فى ذلك الوقت، أى أحد من القراوين، كما أن واقع الأمر يقول: إن رجوعى أو عودتى إلى الورا مرة ثانية سيكون عديم النفع؛ وعليه قررت مواصلة السير ولم يكن معنى سوى عبد واحد آملاً بذلك ألا يصيبنا شر فى طريقنا. كان الطريق المؤدى إلى حمير ممتداً خلال سلسلة جبلية منحدرية على

الجانبين إلى وديان كثيفة الغابات، وكانت آربوت Arbot عن شمالنا، فى حين كانت نيهاز التابعة لبيت القطون عن يميننا . وعليه وفى ساعة مبكرة من فترة العصر، وبعد ثلاث ساعات من مسير بلا حماية، وصلنا متعبين متورمى الأقدام عند ثقب الماء فى منطقة فوزه، التى تطل على آربوت؛ وكان جهاز قياس الارتفاعات قد سجل ١٣٥٠ قدماً .

اخترت لإقامة مخيمنا فى فوزه، شجرة تقع على رأس حقل من الحشائش والعشب المتموج، كان يشرف على منظر شديد الروعة . كان وادى آربوت المتثائب من تحتنا ينزل منحدرًا انحدارًا كاسحًا إلى المنطقة التى يخرج عندها على شكل مكان ضيق متجهًا إلى جوريب، كان السهل الواقع على الطرف البعيد لهذا الوادى محدودًا بشريط بحرى فضى اللون .

هنا نجد أن المنحدرات الجبلية المتجهة صوب البحر هى التى تشكل حدود هذا السهل من تلك الناحية، ويتواصل امتداد هذه المنحدرات على شكل منظور متناقص إلى نشيب التى هى هضبة متموجة السطح، ومن بعدها إلى مداخل الوادى الكبير التى تميزها حواف جبلية بارزة استطعنا تمييزها من هذه المسافة البعيدة، بفضل الظلال التى كانت تلقيها كل حافة من هذه الحواف البارزة على الحافة المجاورة لها .

هنا، فى فوزه، لم نصادف عدوًا متريصًا، سوى راعية شابة صغيرة السن هى التى مرت علينا، واشترت أنا منها عنزة كيما آخذها معى إلى الوادى فى تلك الليلة، وأقوم بربطها بالقرب من الماء حتى تكون شَرَكًا يساعدنى فى اصطياد فهد أسود ذكر .

وَصَلْتُ بعد ذلك بساعتين إبلى المتأخرة، وكان القراوين مترددين فى الحديث عن الأحداث المؤسفة التى وقعت لهم على الطريق . كان يومهم مرهقًا ومجهدًا لهم، ومع ذلك حملوا عن رضا قراب الماء ونزلوا بها إلى آربوت لإحضار الماء من بركة عين فوزه، التى كانت مجرد قطرات غير نظيفة .

هؤلاء الرجال متسلقون رائعون: عضلات أرجلهم نظيفة، ونزولهم منحدر طولهِ ثمانمائة قدم، ثم تسلق هذا المنحدر من جديد وهم يحملون على ظهورهم قرابًا مملوءة بالمياه ولا تعنى لهم شيئًا، فضلاً عن عدم تخوفهم من الغطاء النباتى بعد

دخول الليل، على الرغم من التأكد من وجود لدغات ثعبانية، علاوة على أنى استطعت الحصول على أربعة ثعابين (منهم حيتان نافختان سامتان) خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من ساعة وصولي.

كنا قد انقضت علينا ليلتان في هذا المكان - بقيت مستيقظاً حتى الساعة الثالثة والنصف صباحاً، وكان الليل مظلماً، وقاسياً، ورطباً، وكان السحاب منخفضاً وآخذاً في التناقص، وفجأة سمعت صوت طلقة بندقية عن بعد، ومن بعدها سمعت صوتاً خافتاً لرجال يغنون وينشدون. كان انطباعي الأول يبعث على الفرح والابتهاج ظناً منى أن جماعة الضبع التابعة لى والكامنة فوق الوادى الموجود فى الأسفل، كانت تحتفل بقتل الطريدة المطلوبة. لكن اتضح أن ذلك القتل كان من نوع آخر.

كان شيخ قروبنى شاب قد تعثر فى فراش نومى فى الظلام، الأمر الذى فاجأنى وأدهشنى، لأنى لم أسمع وقع أقدامه؛ كان الشيخ مندفعاً فى اتجاه الطلقة والغناء ليتحرى ذلك الذى حدث، وفوق جبل صغير لا يبعد عنا سوى ميلين عثر ذلك الشيخ على جثة رجل من المهارين، لا يزال يُحتضر، وغارق فى دمه بسبب الجرح الناجم عن الطلقة التى أصابت قلبه.

وفى ساعة مبكرة من الصباح جاءنى هذا الشيخ الصغير ومعه الشيخ حسن ليقولا لى إن بقاءنا فى هذا المكان لن يكون آمناً بعد الآن، وهنا وجدت الرجلين الكسولين اللذين من قبيلة الكثارين يوافقان على ما قاله الشيخان. هذا يعنى أن هذين الرجلين بدءا يشعران بقلق غير عادى لأنهما تذكرتا مسألة الثأر التى بينهم وبين المهارين. خشى هذان الرجلان أن يكون القتل هو ذلك الشخص من قبيلتهم الذى عليه الدور فى هذا الثأر، وأن ذلك سيُعرض حياتهما للخطر.

تساءلت: "من الذى فعل هذه الفعلة، فى رأيك يا شيخ حسن؟".

"والله أعلم. أخشى أن يكون ذلك من بيت جابوب (بطن من بطون قبيلة القراوين). ألم تسمع ذلك الوابل من النيران بعد الغناء والأناشيد؟ ذلك الوابل وذلك الغناء الذى جاء من اتجاههم ودوى فى أذنى كما لو كان احتفالاً قبيلياً بعملية القتل"، وهذا هو ما حدث بالضبط. "لقد قتل المهارين فى الغزو الذى

قاموا به فى العام الماضى، فرداً من بيت الجابوب. وبذلك يكون بيت جابوب قد تأروا لقتيلهم الآن".

قلت: "لكن المهري لا بد أن يكون عارفاً ذلك كله ومدرّكاً له؟ وعليه، لماذا راح يتنقل فى منطقة القراوين؟ ألم تكن هناك هدنة بين الطرفين؟".

"نعم، لقد أبرم السلطان بينهما هدنة لمدة عام. وقد انتهت هذه الهدنة منذ شهرين، وأبرمت القبيلتان فيما بينهما هدنة ثانية لمدة عام".
"إذن، فما حدث هو خيانة؟".

قال الشيخ: "ها مكتيب (بمعنى، هذا مكتوب)".

لقد جرى بالفعل التوقيع على الهدنة.. كما أن المَوْقِع على الهدنة هو القاتل نفسه. وقد أقسم الرجل على أن قبيلته كلها سوف تتحاشى إهدار الدم المهري لمدة عام- وبعد شهرين فقط قام ذلك القاتل نفسه بقص أثر واحد من المهارين وقتله أثناء نومه.

عرفت القتيل، وهو رجل يدعى سهيل Sahail . كان سهيل هذا واحداً من تلكم الأربعة الذين من بيت الشيطانة، والذين جاءوا لمقابلتى قبل ثلاثة أيام، وروى لى قصة فلكلورية. كان القتيل شاباً وعَيْنُهُ رائحة من نوعه. وهذا هو فى واقع الأمر هو أسلوب الثأر. ذلك، أن القاتل ليس هو الذى تجرى دوماً مطاردته أو ملاحقته؛ لكن الذى تجرى ملاحقته أو مطاردته يكون دوماً من الشخصيات البارزة فى القبيلة، وحبذا لو كان ابن عم القاتل؛ هذا الشخص هو الذى يجرى البحث عنه ونصب كمين له، مثلما حدث فيما نحن بصددده هنا.

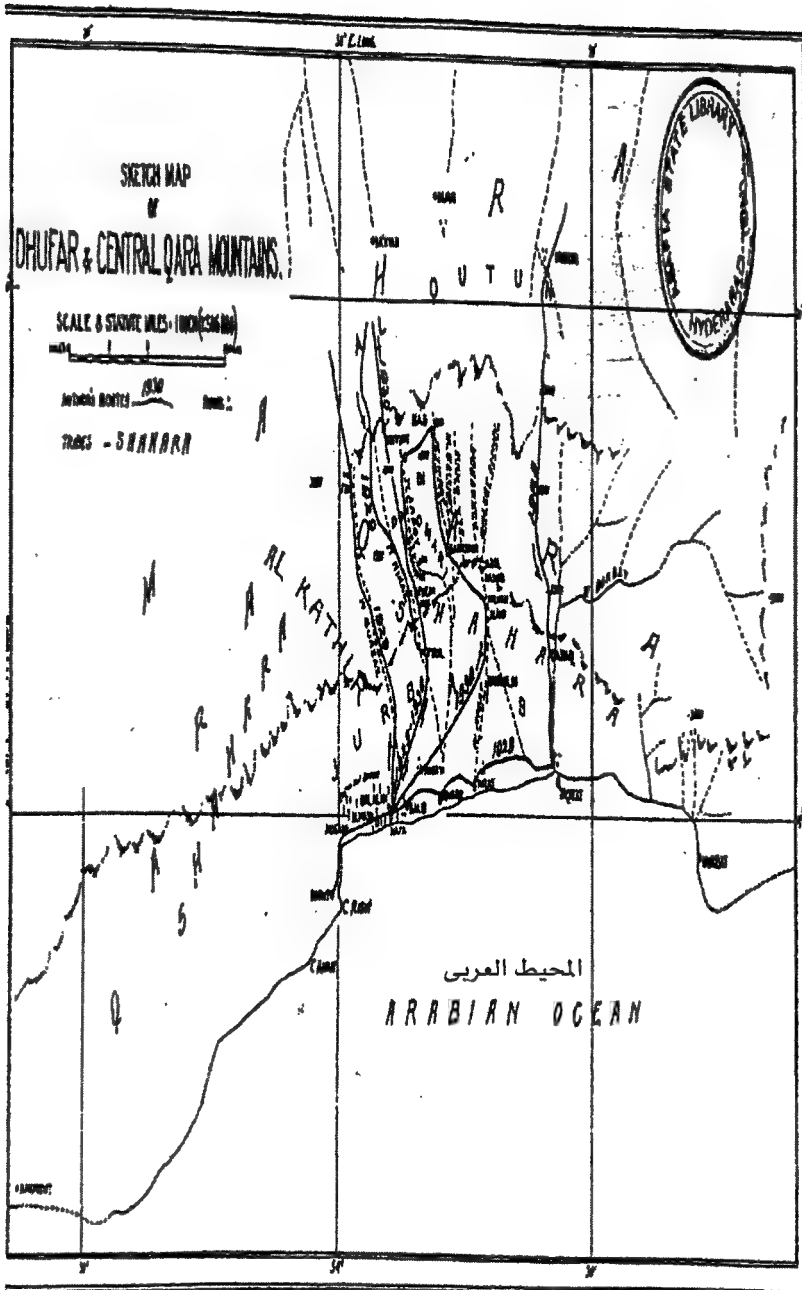
"لكن، يا شيخ حسن" لماذا ذلك على مقربة من مخيمى؟ مَنْطِقَةٌ من هذه؟ هل هى مَنْطِقَةٌ بيت جابوب؟.

رد على الشيخ حسن: "المنطقة منطقتى، لكن فى ضوء عقوباتنا أنا لست مُلُوماً فى ذلك، لأنه لم يكن بصحبته رابيا، أو مرافق من طرفى. لو كان معه رابيا، أو مرافق من طرفى؛ لأدى ذلك إلى اسوداد وجوهنا بفعل جريمة كريمة من هذا القبيل. لو كان لبخيت (كان يشير إلى ولده) رابيا، أو مرافق لأى شخص ثم يقوم القراوين بقتله، فلن يرتاح لنا بال إلا بعد الثأر لمقتل مثل هذا الإنسان".

تحولت إلى الكثیری، "لابد أنك أحسست بالارتياح، لكن ليس بيد واحد من الكثاريين".

"سامحهم الله، نحن البدو نحترم الهدنة، لكن هذه الجبال قائمة على الخيانة. القراوين هم والمهارين لا يلقون بالألأ لانتهاك الشروط التي استشهدوا الله عليها. والله! نحن لا نأمن على وجود الرايبا، أو الرفيق عندما يكون عندهم. هل تعرف- أنت لن تصدق ما سأقول- سهيل هذا، الذي قُتِلَ في الليلة الماضية، شرب حليب قاتله أثناء مبيته عنده. سامحهم الله!."

قررت النزول إلى ظفار في صباح اليوم التالي وإنهاء ترحالي في هذه الجبال. وفي أضعف الأحوال لن تقدم ضباغ هذه الجبال على رحيلي. لكن، على الرغم من الأحداث الخطيرة التي وقعت مؤخراً، فإن مسألة التفكير في رحيلي لم تكن تسعدني، لأنى كنت أترك ذلك الذى يُعدُّ وبكل تأكيد أرضاً فريدة في الجزيرة العربية كلها، أرض الولاثم الدائمة والمستمرة للفنان، أرض المفاجآت التي لا نهاية لها عند المتخصص في الأنثروبولوجيا، هذه الأرض هي بمثابة فردوس العالم الذى يبحث في الطبيعة، هذه الأرض عندي، أنا عابر السبيل، مصدر لكثير من الاهتمام والفرح، لم تأوِ جماعتى في هذه الرحلة الأخيرة إلى الفراش بعد غروب الشمس كما هي عاداتهم، وظل المخيم ينبض بالحياة، والضوضاء حتى ساعة متأخرة من الليل؛ واستأنفت الجماعة ترحالها إلى أن وصلت آريوت.... هنا جزء ساقط من الفصل وهو بالتحديد ص ١٠٥ (النص الإنجليزي)، والجزء الساقط عبارة عن وصف لفترة الصباح في آريوت، وباقى الصفحة هي بداية الفصل التاسع.



(مخطط لظفار والجزء الأوسط من جبال القراوين)

الفصل التاسع

ظفار : الساعة الحادية عشرة

(هنا جزء ساقط من الفصل التاسع وهو بالتحديد جزء من ص ١٠٥ (النص الإنجليزي) بالإضافة إلى ص ١٠٦، والجزء الساقط يتناول الرحلة التي قام بها سلطان مسقط وعمان إلى ظفار على ظهر يخته، وقد بحثنا في كل إصدارات الكتاب واتضح أن هذا الجزء ساقط في كل الطباعات...).

... مضى علينا قرابة نصف الساعة ونحن في هذه التأملات والتفكرات الكئيبة، وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما جاءني خادمي محمد وثباً وقفزاً.

"عندى أخبار، أيها الصاحب! لقد وصل رجلان إلى السوق قادمين من الصحراء، وهما يقولان إنهما مقدمة لجماعة مكونة من قرابة أربعين شخصاً آخرين معهم إبل، ومن بينهم كل من معيوف وخويتيم، اللذين أرسلت في طلبهما. وهم سيقضون الليلة عند ثقب الماء الموجود في فووم؛ وغداً، بمشيئة الله، سينزلون إلى جوريب".

هذه أخبار مفرحة، إن صدقت؛ لكن اللنش المسلح سوف يأتي إلى غداً. تُرى، هل جاءت مجموعتي الصحراوية - إن صح هذا الكلام - متأخرة يوماً عن موعدها؟ أم أنى سوف أخدع في الساعة الحادية عشرة؟

ألقيت نظرة على فناء القلعة في الأسفل على ما يقرب من أربعين جمالاً أنيقاً من إبل الركوب، وعدد مماثل من البدو مهلهلى الثياب، قطعوا مسافة مائتى ميل

إلى تلبية لطلبى السرى وأنا فى الربع الخالى. نظرت فى اتجاه البحر حيث كان اللنش المسلح، الذى يطلقون عليه اسم السعيدى، راسياً. وهنا جاءنى قبطان هذا اللنش المسلح الشجاع، القبطان صالح المنضارى، ليعيدنى إلى مسقط. رحت أتصفح بسرعة الرسائل التى جاءنى بها. كانت أول هذه الرسائل تحمل خاتم السلطان. وكانت مؤرخة من الهند وكانت فى حوزة تلك اليد الأمينة التى أعرفها حق المعرفة. قرأت هذه الرسالة مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، وفى ضوء قوة الصداقة الحميمة التى ميزت علاقتنا على امتداد ست سنوات، اتخذت قرارى: سوف أعيد اللنش المسلح ثانية إلى مسقط دون أن أكون على متنه، سوف أحاول العودة بطريقة أخرى. سوف أربط مصيرى بمصير هؤلاء الأشقياء الموجودين فى فناء القلعة، وكلهم غرباء علىّ، وسوف أتجول معهم فى البرية المجهولة غير الموقعة على الخرائط.

أحضر كل من خويتم ومعيوف الشيخ صالح كيما يقابلنى وراحوا جميعاً يعربون عن المتاعب التى لقوها فى تجميع هذه الجماعة، وإقناع الجماعة بالمجئ، ومخاطر مقابلته لأعدائهم، والجوع الذى يمكن أن يكابدوه على الطريق (والذى يشهد عليه الحال التى عليها إبلهم)، وأخيراً وبصورة حتمية المكافأة السخية التى يمكن أن ينتظروها منى.

سرعان ما استلظفت الشيخ صالح. كان الرجل يحمل اسم بن كالوت - كالوت هذه هى أشهر نساء الرمال كلهن، وهى ابنة المحارب الشهير، وهى أيضاً أم لثلاثة محاربين، ذلك أن مسألة أن يكون للإنسان ذوو قريى قادرون على تدمير عدوهم (ونصرة أصدقائهم) تعد جوهر وأساس النبالة فى هذه البيئة. كان صالح رجلاً قصير القامة، متين البنية، له رأس كبير إلى حد ما، أصلع - بدوى غير عادى، على الرغم من أنه يبلغ من العمر ستين عاماً، وله لُغد من تحت فكه الأسفل. كان الرجل عريض الجبهة، وربما كان السبب فى ذلك هو أنه كان أصلع، وكانت عيناه واسعتين، ووجهه حسناً ويوحى بصراحته، كان صوته بطيئاً ومحسوباً؛ كان الرجل يوحى بالثقة.

استحلفته أن يحفظ سرى وأطلعته على خططى. لم أكن أريد سوى عبور الصحراء من البحر إلى البحر.

"لكن ما المكان الذى تود الخروج منه؟".

قلت: "فى أى مكان يسمح لنا بذلك، الرياض، البحرين، أبو ظبى".

قال الرجل مؤكداً: "إذن، ما هو الممكن؟".

"بوسعنا أن نأخذك إلى منطقتنا، ديرة الرشيدى فى الرمال الجنوبية، ثم نعيدك، وربنا يخلصنا من السَّعارين، لكن لا يمكننا اصطحابك إلى مراعى أية قبيلة أخرى".

تشبثت برأىي. إما عبور الصحراء أو إلغاء الرحلة تماماً. هذا الذى اقترحه علىّ لن يفيدنى بأى حال من الأحوال.

رد علىّ صالح: "لكن صوم رمضان سيحل علينا بعد شهر من الآن. من الذى يمكنه أن يترحل فى وقت مثل شهر رمضان، وهو الوقت الذى يحتّم على المرء أن يكون صائماً مع أفراد أسرته؟".

من الطبيعى أن يكون الشيخ صالح، فى حالة نفسية لا تسمح لى بالترحال فى شهر رمضان أو القيام برحلة إلى مسافة لا داعى لها. لكن البدوى لا يمكن تهديده. ولما كان البدوى شخصاً لا يمكن استفزازه، فهو لا يتحمل الابتذال، لكنه يفهم معنى القرار، على الرغم من أنه يُفضّل إعطاء البدوى يوماً أو يومين حتى يمكن له أن يتكيف ذهنياً مع الفكرة التى لم يستسغها فى البداية.

جاءنى صالح فى اليوم التالى للقاءى مرة ثانية، وقمت للمرة الثانية بعرض متطلباتى غير القابلة للاختصار أو الانتقاص منها، والتى كنت مستعداً لدفع مكافآت سخية من أجل تحقيقها. وركزت على مطالبى مذكراً بأننى قد أضطر إلى استقلال اللنش المسلح وأذهب إلى أبو ظبى، وأطلب إلى العوامير مساعدتى فى تنفيذ طلباتى من ناحيتهم. كنت أتمنى أن يصحبنى صالح فى تلك المناسبة؛ راودتنى هذه الأمنية دون أن أفصح. انشرح صدر صالح لهذا التلميح الذى مفاده أنى لدى الوسائل التى تمكّننى من تحقيق ما أبتغيه دون عون من الرشادين، أو إن شئت فقل: قبيلة الرشيد (على الرغم من أنى لم تكن لدى



(الشيخ صالح بن كالوت)

الوسائل المطلوبة؛ وعلى الرغم أيضاً من أن العوامير كانوا أصدقاء لى منذ زمن بعيد)، وهنا أصبح الشيخ صالح لىن العريكة بدرجة أكبر.

"لكن، يا صاحبى، أنت لا تفهم حقيقة الوضع. هذا الذى تطلبه ليس فى استطاعتى. بوسعى أن أصحبك فى أراضى الرشادين إلى أى مكان تريد الذهاب إليه، وربنا يحميننا من الأعداء، لكن المكان الذى تود الذهاب إليه هو أراضى قبيلة المُرّه. وأنا لست مرافقاً (رابياً) لدى المُرّه، ولا يمكن أن أجرؤ على الدخول إلى أراضيهـم دون موافقة وحماية منهم. وأنا لا أعرف إن كانوا يقبلونك أو لا يقبلونك فى أراضيهـم.. وأنا لا أستطيع إعطاءك التعهد الذى تريده أنت".

كانت مصادفة سعيدة أن يكون السعيدى بيننا. إذا كان البدو مهتمين بهذه المشكلات، فذلك يعنى أنه من العـبـث أن تبدأ رحلة معهم؛ هذا يعنى أن مقاومتهـم سوف تزداد صلابة كلما واصلنا مسيرنا، وهذه خبرة اكتسبتها فى العام السابق عندما بدأت رحلتى دون فهم واضح لأبعاد الرحلة. هذا معناه أنى إذا ما بدأت وفشلت، فذلك يعنى عودتى إلى ظفار فى غضون شهر من الآن مهزوماً دون أن أحقق هدفى الرئيس، ثم تحركى من هناك إلى مسقط بالدهو، وهذا أمر مرفوض. وعليه، كان لابد لى من الاحتفاظ بالسعيدى ليكون لى بمثابة الاحتياطى الجاهز للاستعمال.

انقضى اليوم الثالث، وبلغنى أنهم بدأ يزداد قلقهـم، لأنهم كانوا ينتظرون منى نقوداً، وأنا لم أعطهـم سوى الطعام وعلف للإبل فقط.

جاء صالح إلى مرة أخرى ليقول لى إنه كان فى موقف حرج بينى وبين رجاله غير المنطقيين. كانت هناك مهمات وغمغمات حول أهدافى من ناحية، والدافع غير المحتمل الذى يمكن أن يوافق عليه هؤلاء البشر البسطاء الذين يسهل انخداعهـم. كان لابد من كسب ثقة هؤلاء البشر، وتخليص أذهانهم من دوافعهم الخفية، التى من قبيل التجسس على إعداد إبلهـم لمصلحة ابن سعود أو السلطان تيمور، أو أى محصل من محصلى المستحقات، وعليه قررت، فى شىء من الحكمة، إبعاد نفسى عن أية سلطة من السلطات الخارجية، وألا أقول لهم سوى الحق، وأؤكد لهم أنى أقوم برحلاتى أولاً وقبل كل شىء من منطلق حبى للسفر

والتجوال، وثانياً أنى أخدم قضية العلم، الأمر الذى يشكل أهمية كبيرة عند قبيلتى ويحظى بتشريفها وتكريمها.

"حسن، يا شيخ حسن، ما موقفك الآن؟".

أنا مثلما قلت لك، أيها الصاحب، أود مساعدتك، لكنه لا يمكن أن أعدك بما تريد".

كنت أعى تماماً صواب الحجج التى يسوقها صالح، لكنى لا يمكن أن أقبل أو أسلم بالوضع الذى تنطوى عليه هذه الحجج. كان واضحاً أن صالح لم يكن فى وضع يجعله يضمن الحماية من قبيلة أخرى، لأجنبى غير مسلم ومعروف للجميع. "لكنك تعرف جيداً، يا شيخ صالح، أن المرء أصدقاؤك؛ وأنا إذا ما أجزلت لهم العطاء، وإذا ما تحققوا أنى أعتمد على حسن طوبيتك فإنهم سيتركوننا نمر".

"أنا أعرف وأعتقد أنهم سوف يسمحون لنا بالمرور، أيها الصاحب، لكن ذلك سيكون فقط فى حال وجود مرعى وماء، لكن هم وحدهم فقط الذين يعرفون أن الطريق يمر برمالهم".

كان ذلك هو هدفى الحقيقى؛ كنت أود الحصول على استحلاف الشيخ صالح أن يتعهد بمساعدتى، وأنه سيقطع معى الطريق بكامله، وأن يسعى جاهداً إلى تأمين تعاون قبيلة المرء معنا، وأن يضمن لى مسير الجماعة معى فى شهر رمضان. وإذا ما فعل صالح هذه الأشياء سوف أعطيه جملاً، بندقية، ووثياً. وبينما كنا نتساوم، استطعت إقناع سيد سعود الوالى، الذى كان قد عاد لتوّه، وطلبت منه أن يكون حَكماً بيننا؛ لأنه كان طيب المكانة، ويحظى باحترام كبير، ولذلك كنت ممنوناً لطيبته وحنانه. ولما كان سيد سعيد رجلاً مسلماً متديناً فقد شهد على اليمين الذى أقسمه صالح والذى يقضى بأن أكون فى حمايته، وألا يحدث لى أى شكل من أشكال الخيانة، طبقاً لنصوص العقد، مهما كانت هذه الأشكال خارجة عن إرادته أو سلطته، أو لا قبل له بها - وكان المقصود بذلك هو القوم، أو الجماعة الغازية المعادية- وإرادة الله تعالى .

ولما كنت أعرف جيداً معايير صالح القدرية، فقد أحسست أن الشرط الأخير يمكن أن يفرغ العقد من مضمونه، لكنى حرصت على ألا أصر على تعريف

محدد، مخافة أن يؤدي ذلك إلى إثارة مشكلة دينية حساسة، ليس هذا أوانها أو محلها. كنت أركز على روح نص العقد وليس على كلام العقد.

من هنا، استحضرت الشيخ صالح أن يعدني بأنه سوف يتعاون معي بنية خالصة في تحقيق ما أبتغيه: أضاف صالح: "لكن يجب ألا يعلم أحد من البدو المرافقين لي بأي شيء مما دار بيني وبينك. لقد جاءوا على أمل أنك ستقوم بزيارة دكاكا، مخيمنا الحالي، وذلك طبقاً لما رتبته أنت مع سهيل الرشيدى في العام الماضى. لقد سمعوا عن سخائك معه، وهذا هو السبب الذى دفعهم إلى المجيء إليك- إنه الطمع- الجشع- الشُّح. هذه هى العاطفة المتقدة عندما نصل إلى مياه الضاحية، ستكون إبّلهم مرهقة. وهنا يتعين عليك صرفهم، فى حين سوف أسبق أنا لعمل الترتيبات اللازمة لإحضار جمالة آخرين يحلون محلهم ويواصلون السير معنا".

"لكن ماذا عن الطريق، يا شيخ صالح؟".

"الحرب، أيها الصاحب، الحرب، الغفارية والمعراب^(١) بينهما وبيننا ثأر، هاتان القبيلتان قويتان.. ونحن إن شاء الله، سوف لا نلتقى أحداً منهم على الطريق. لكن المرة، لابد أن تلتقيهم وإلا لن يسمحوا لك بالمرور".

(١) هناك حزبان سياسيان متعارضان: الهناوى والغفارى، وكل قبائل الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية تنتمى إلى حزب أو آخر من هذين الحزبين. من الناحية الشكلية أو السطحية نجد أن مصطلح هناوى ومصطلح غفارى قد يبدوان على أنهما فى خلاف حول تولى الحكم فى عُمان فى مطلع القرن التاسع عشر، ولكن طبقاً لما لاحظته فى أماكن أخرى فإن هذين المصطلحين لهما مغزى أكثر عمقاً، وذلك لأن مصطلح هناوى، يتصادف بشكل عام مع القبائل قطحانية الأصل، كما أن المصطلح غفارى يصادف أيضاً قبائل المعارك، أو الأصل النيزارى، أما بقية القبائل الأخرى فهى ليست من سلالة يمنية. وعليه فإن هذا التقسيم، فى إطار حدود معينة، هو عرقى فى أساسه، هذه البطاقات أو المصطلحات تنطبق على قبيلة السُعارين فى الغرب، حيث ينظر إلى هذه القبيلة على أنها غفارية، فى حين أن قبيلة الكثرين، التى تعد قبيلة الرشيد بطناً من بطونها، هى هناوية. ومن هنا فإن كتلة الوسط التى تدعى بالغفارية، وذلك على الرغم من أن هذه القبيلة فى جنوب الجزيرة العربية تعد مميزة عن عمان، هذا يعنى أن التضامن الحزبى لا وجود له، وبالتالي فإن هذه المصطلحات أو البطاقات ليس لها مغزى سياسى.

المصطلحان: معراب ومشجاص لهما دلالة إقليمية فى جنوب الجزيرة العربية، إذ يشيران إلى: فى اتجاه الغرب واتجاه الشرق من ظفار كل على حدة، ومن هنا تصبح قبيلة السُعارين هى والقبائل الأخرى هم أهل المعراب.

تحتّم علينا حساب العدد الدقيق للأفراد اللازمين لهذه الرحلة من ناحية وحساب التعيينات اللازمة بدقة بالغة. كان واضحاً لنا أن مجموعة واحدة أو اثنتين على أكثر تقدير تكفيان للقيام بهذه الرحلة، إذ لم يكن بإمكانى نقل أحمال من المؤن عبر هذه الرمال الجائعة بالمسيرات السريعة التى أبتغى القيام بها؛ هذا يعنى أن الإبل لن تكون على حالها الذى كانت عليه عند بداية الرحلة. قال الشيخ صالح: "يلزمنا أربع فرق، لا تحسب حساباتك على ما هو أقل من هذه الفرق الأربع". كان من رأى الشيخ صالح أن أعداد هذه الفرق يمكن تخفيضها شيئاً فشيئاً طوال الرحلة، وكان من رأيه أيضاً أن المسيرة الأولى عبر السهوب الواسعة، ستكون معرضه للسّعارين، وحفاظاً على السلامة والأمن يجب ألا يقل عدد المشاركين فى هذه المسيرة، عن أربعين فرداً. كان من رأى ولأسباب مالية أن يكون عدد الجماعة أقل من ذلك، لكن مستشارى كان على صواب فيما ذهب إليه. واقع الأمر، أن العدد أربعين قد لا يكون كافياً، وبخاصة عندما خطر على بالى فكرة أن الجماعات الغازية المكونة من مائتى فرد وثلاثمائة فرد هى فكرة مطروحة ومعروفة فى أراضى الحدود الجنوبية، التى يُعد فيها سفك الدماء، وسرقة الإبل والبنادق نشاطاً عادياً من أنشطة الحياة عند هؤلاء البشر.

"وماذا لو التقينا" يا شيخ صالح، جماعة أكثر من منا عدداً؟.

"ليست هناك قدرة أو قوة سوى قدرة وقوة الله تعالى".

تقرر أن تكون التعيينات (المؤن) مكونة من الزبد، الأرز، التمر، والدقيق. وإن الكميات التى سنحملها من هذه المؤن هى التى ستحدد عدد إبل الحمل، فى كل مرحلة من مراحل الرحلة. هذا يعنى أن الإكثار من الطعام يمكن أن يكون مصدراً كبيراً من مصادر الإنفاق، لا من حيث قيمة هذه المؤن، وإنما بسبب نفقات إيجار الإبل، نظراً لأن إبل هذه الصحراء صغيرة الحجم وخفيفة، ولا تستطيع حمل أحمال كبيرة؛ يزداد على ذلك أن قلة المؤن (التعيينات) يمكن أن تؤثر بل وتدمر احتمالات تحقيق الأهداف التى أبتغيها. هذا يعنى أن أضع ميزانية لأربع فرق مستقلة: أربعون، ثلاثون، عشرون وأخيراً خمسة عشر فرداً.

هذا يعنى أن الفرقة الأولى يجب أن يُصرف لها مؤنها قبل بداية الرحلة؛ هذا يعنى أيضاً أن الإبل سوف تحمل مؤن الفرق الثلاث الأخرى. وأن هذه العملية

سوف تتكرر فى كل مرحلة من المراحل المتبقية. وفى ظل هذا التخفيض المُطَرَّد قدرت أن عدد دواب الحمل سيكون خمسة عشر جملًا منذ البداية.

كان التنظيم الدقيق والواعى مُستلزمًا ضروريًا من مستلزمات النجاح، لكن التنظيم وحده ليس كافيًا لضمان النجاح. قد نصادف جماعة من السَّعَّارين أكبر منا عددًا على الطريق (ولابد أن خبر حملى لثلاثة آلاف دولار فضي، ستجر على قرابة ألف من الغزاة)، هذا فى الوقت الذى سوف يتعين علينا فيه عندما نصل الصحراء، مواجهة ثلاثة عوامل لم نحسب حسابها، أول هذه العوامل يتمثل فى موقف قبيلة المُرَّة من مسألة ما إذا كانت المراعى وثقوب المياه جيدة هذا العام، أما الثالث فقد تمثل فى مسألة العثور على عرب مستعدين للمخاطرة بإبلهم وبأنفسهم، وجاهزين للترحال خلال شهر رمضان، شهر الصوم. كان موقف قبيلة المرة غير محدد فى الوقت الحالى. لم يحدث أن دخل غريب إلى هذه الأراضى، وبخاصة رجل أبيض ومسيحى. تُرى، هل سيتعاونون معنا؟ كان من رأى الشيخ صالح أن الموقف بين بين. وفى ظل هذا الحال النفسى غير المؤكد، وبعد توقف دام شهرين، قررت الرحيل عن ظفار فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من العام ١٩٣٠ الميلادى.

الفصل العاشر

فوق التلال وعلى مَبْعَدَةٍ!

خرجت مجموعة من الإبل من بوابة المدينة الخاصة بحى الحصن، والتي تجمع عندها من البشر الزنوج الشبيهون بالدُمى، كيما يشاهدوا رحيلنا ويقولون لنا: فى أمان الله.

يتسم رحيل البدو دوماً بالبطء والتراخى؛ كل أفكار البدو فى مثل هذا الحال تكون مركزة على جَمَلِه فى حمولته الثقيلة والغريبة؛ ثم يتذكر هذا البدوى نفسه بعد ذلك أنه نسى شيئاً كان يريدُه هو من السوق، والذي لا يراه سوى مرة واحدة كل عدة أشهر، وهنا يقوم بتسليم جملة لجاره ويرجع ليتسكع هناك لمدة ساعة أو أكثر من ساعة.

ويعود خويتيم راكباً جملة ومعه ثلاثة مسامير حديدية عملاقة وقد أمسك بها فى يده. قال وهو يسلم هذه المسامير الثلاثة للخادم: "ألا تذكر هذه المسامير؟ سوف تحتاج هذه المسامير لعمل حامل بجوار المدفأة حتى يمكنك المحافظة على دفء القدر، فى الأماكن التى يتعذر عليك فيها العثور على الأحجار اللازمة لنارك التى ستسبُّها؛ وعليه توقفنا فى صلالة حيث طلب منا الحداد دولاراً، مقابل استكمال نواقص الجماعة".

قام بدويان بمناولتى كأساً من الماء الذى جلبوه من بئر من المسجد وقالوا: "اشرب، أيها الصاحب". وبعد أن أخذت بغيتى من الماء، قاما بالجلوس القرفصاء، إذ من العيب، عند ابن الصحراء أن يشرب وهو واقف، وشربا من بعدى- استعراضاً منهما للتسامح إرضاء لى بعد إقامتى فى العراق، حيث نجد العلاقة

الوثيقة التي بين البشر والأماكن المقدسة عند الشيعيين، وكيف أثرت هذه العلاقة على العادات والتقاليد القبلية في الأمور التي من هذا القبيل.

وما إن قطعنا مسافة خمسة أميال، إذ كانت جماعتي متلكئة عبر السهل على شكل تشكيل يمشى بلا هدف، حتى اقتربنا من منطقة فيها نباتات شوكية تأكلها الإبل، وبعدها سمعنا صياحاً قادمًا من مؤخرة الركب "اتركوا الإبل ترعى، اتركوا الإبل ترعى" وما إن وصل القبليون إلينا راحوا يتشاورون حول مسألة التوقف والنزول عن ظهور الإبل، وكان عذرهم في ذلك أن الشيخ صالح لا يزال متأخرًا وموجوداً في الخلف.

وما إن نزلت عن ظهر دابتي حتى نزلوا هم أيضاً عن ظهور دوابهم؛ وربطوا الإبل من أرجلها الأمامية، وأطلقوها تتغذى من الأحراش المجاورة. أمضينا الليل في هذه المنطقة، وقمنا بتكويم المؤن والتعينات على شكل كومة واحدة، وذلك تحسباً للصوص المنطقة، الذين يمكن أن يطمعوا في هذه الكمية الكبيرة، كان الشيخ صالح يعرف نوعية هؤلاء البشر أيضاً، لأنه قام بعد وصوله إلينا، بفترة قصيرة، بمناشدة جماعته وحضها:

"يا جماعة! يا قوم".

"زاد الوزير".

"في أمان الله".

"وفي أمانكم".

"تام تام". جاءت تلك الموافقة من بدويّ الذين كانوا موزعين ومشغولين بالعديد من الأنشطة. كان بعض هؤلاء البدو يقطعون المشاعيب(*) من الأدغال الكثيفة، وكان بعض آخر منهم يقومون بتزيت قراب الماء، كيما تكون مُحكمة وممانعة للتسرب في المسيرات الطويلة التي تنتظرهم؛ كان أصحاب إبل الحمل جالسين يخيطنون جوانات القش لتكون بمثابة سُرُجٍ مرتجله لظهور الإبل، لأن السُرُجَ

(*) واحده "مشعاب" وهو عبارة عن عصا تنتهي بطرفين أحدهما على شكل العدد ٧ ويستعمله البدوي في قيادة دابته. (المترجم).

الجاهزة غير معروفة في هذا الركن من الجزيرة العربية، أما أنا فقد كان على أن أقوم بشراء كمية من الجوانات من ظفار؛ بعض ثالث من هؤلاء البدو كانوا يراجعون مشترياتهم من السوق، التي من بينها غلاية كبيرة مصنوعة من الألومنيوم، في حين راح شاب يافع يدلل بصورة رومانسية مرآة ذهبية اللون، والأرجح أنه كان يود إرسال شعاع إلى عيون كائن هش عزيز في رمال الصحراء. صاح الشيخ صالح قائلاً: "تعال لتري أخفاف الناقة؛ كان الشيخ صالح جالساً على الأرض وفي يده إبرة كبيرة، ومنحنياً على ناقة كانت مطروحة أرضاً على جانبها بواسطة عدد قليل من العرب بالطريقة المعتادة؛ إذ كان واحد منهم ممسكاً برأس الناقة وقد لفّه إلى الوراء بحيث يكون موازياً لجسم الناقة؛ وكان عربى آخر ممسكاً بشفة الناقة العليا في شيء من الغلظة؛ أما العربى الثالث فكان يمسك بواحدة من رجليها الخلفيتين. وكان الهدف من هذه العملية هو وضع أو تخييط رقعة صغيرة من الجلد على جانب قدم الناقة، فوق الخدش الناجم عن الممرات الحجرية غير المعتادة في الجبال؛ وهذه الرقعة ستوفر الحماية لرجل الناقة في رحلة الغد.

بعد أن أنهى البدو مباشرة المهام المطلوبة منهم، راحوا يتجادلون فيما بينهم، كما هي عادتهم، عن عدم المساواة في حمولات الإبل، إذ كان كل واحد منهم يود مهمّة خفيفة لإبله؛ ونجم عن هذا الجدل أن قمت بإعادة توزيع الأحمال، الأمر الذى أضناني، ذلك أن الراحلة أو الركوبة التى كنت أركبها أخذت منى بذريعة أنها لم تكن على ما يُرام، وفي الصباح وجدتني أركب حيواناً لا يرضينى. لم يكن يمر يوم واحد بدون عراك أو جدل حول مسألة الأحمال هذه، ذلك أن الجمل أو الناقة هو أعز شيء إلى نفس هذا البدوى، الذى هو على استعداد لخوض المعارك من أجلها حتى آخر نفس فيه.

اصطفت جماعتان لأداء صلاة المغرب، كان الشيخ يؤمّ إحدهما، فى حين كان مرافقى الكرابى يؤم الجماعة الثانية. ونقلاً عن خادمى، فإن أداء هاتين المجموعتين للصلاة كان على النقيض تماماً من أداء جماعتى التى كانت من الكثرارين فى العام السابق، من منطلق أن الكثرارين كانوا يصلون على انفراد كل لوحده، وعلى الرغم من أنهم يجهرون بالصلاة فإنهم كانوا يجهلون تماماً معنى الكلام الذى يجهرون به، الأمر الذى يبدو لخبطة مؤسفة عند الآذان المثقفة.

ركبنا دوابنا عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالى، وبعد ركوب دام ساعتين عبر السهل وفى اتجاه وادى نيهاز قصدنا غور فضل، الذى هو عبارة عن حفرة معشوشبة عند سفوح الجبال. ومن خلال التأكيدات على التحديات المحلية التى قمت بها، يمكن القول أن هذا المكان هو الذى ينطبق عليه ذلك الذى قال عنه بنت Bent، إنه ظاهرة طبيعية ينطبق عليها ذلك الذى أسماه بطليموس ديانا أوراكليوم Diana Qraculum . وأنا هنا أعترف بأنى أصابنى إحساس بالإحباط. كانت هذه الحفرة كبيرة على غير العادة، وكان عرضها أو اتساعها لا يقل عن عشرين قدماً، ومن حول قممها المستديرة يوجد أيضاً جبل صغير مستدير، يحتمل أنه كان يخفى أو يستتر جداراً كما هو وارد فى وصف بنت لهذا المكان، لكن هذه الحفرة تبدو وكأنها كانت تحتوى على مادة جرى استخراجها أيضاً. كانت أجناب هذه الحفرة المفتوحة من الصلصال شديد الحمرة، وفيها من الدلائل، ما يوضح أنها فى يوم من الأيام، كانت من الصخر أو مبطنة بالصخور. وعندما أُلقيت بحصوة فيها استغرق وصول هذه الحصوة إلى القاع الجاف مدة ثانيتين تقريباً. وهنا يمكن القول أن عمقها يُقدر بقرابة مائة قدم. وقد عزوا هذه الحفرة إلى منجوى Minguwi ، أشهر حكامهم فى العصور الوسيطة، وهذا هو حال القراوين مع كل تذكّار من التذكّارات القديمة؛ وأنا أيضاً أقول إن غور فضل هذا هو من صنع يدى الإنسان. وكانت تنتشر من حول هذا الغور جبال صغيرة على شكل خلية النحل ويصل ارتفاع الواحد منها إلى قامة الجمل. هذه الجبال الصغيرة ليست بقايا أثرية، كما يقول بنت Bent وإنما هى أكوام النمل^(١) - بلغة الجبال، إزدريت.

كان كهف ساحور الشهير، يقع على بُعد ميل بعد ذلك، وفى نطاق المدخل المؤدى إلى وادى نيهاز؛ كان ذلك الكهف عبارة عن حفرة واسعة سوداء اللون يصل اتساعها إلى قرابة مائتين وخمسين قدماً، ويقع الكهف وسط غابة كثيفة من الأشجار. تسلقت إلى هذا المكان أنا وسهيل، وهو من بيت قpton، وأيضاً حفيد لذلك السهيل، الذى رافقه آل بنت Bents لرؤية ومشاهدة ذلك الكهف، على

(١) الشهازين يقولون لتلال النمل "سدر" Sidr ويقولون للنمل نفسه إزدريت izdirit .

الرغم من أنهم لم يدخلوا هذا الكهف. اتضح أن فتحة ذلك الكهف كانت عبارة عن فتحة فى جدار يصل اتساعها إلى قرابة مائة قدم، ويصل ارتفاع السقف إلى قرابة أربعين قدماً ومكون من هوابط، وإن شئت فقل: من ترسبات كربونات الكالسيوم، طارت من فوقها حمائم الصخور عندما أحست باقترابنا. هناك أسطورة تقول: إن الجان يتقاسمون هنا وجوداً أسود مع الثعابين والعقارب، لكنى عندما أشرت إلى ثقب صغير منخفض على الجانب الأيسر من فتحة الكهف، والتي هى وحدها التى تؤدى إلى الدخول إلى هذا الكهف، وعندما سألت عن المتطوعين، رد على أفراد جماعتي المكونة من خمسة أفراد يؤمنون بمسألة الجن ويصدقونها، أعرىوا كلهم على استعدادهم وعليه قلنا جميعاً: توكل على الله، ورحنا الواحد بعد الآخر ندخل أرجلنا فى هذه الحفرة المظلمة المنحدرة. كانت تلك الفتحة ضيقة على نحو لم نتمكن معه من الدخول إلا ونحن فى وضع الانبساط، وبعد مسافة تقدر بقرابة عشر أقدام وصلنا إلى غرفة داخلية كبيرة، شكلها غير منتظم، فيها غرفة رئيسة مريحة شديدة الظلمة. كشف ضوء مصباحي الكهربى، أن هذه الغرفة مكونة من صخر بلّورى أبيض اللون يخطف الأبصار. كان تقاطر مائى مستمر يأتى من الهوابط التى لا تحصى أو تعد المكونة من كربونات الكالسيوم، وذوات اللون الأدكن؛ وكانت تلك القطرات تاتى أيضاً من الصواعد التى هى أيضاً عبارة عن أعمدة من كربونات الكالسيوم؛ كانت تلك الصواعد عبارة عن عمُد بارزة من بعض الأماكن فى أرضية ذلك الكهف. كان هناك عمود عملاق له ملحق شبيه بالحوض يصل قطره إلى قرابة ثلاث أقدام، من فوق تجويف كامل على شكل نصف كرة ومن التكوين نفسه. كانت تلك الغرفة موصّلة إلى غرف أخرى، مداخلها شديدة الضيق فى أغلب الأحيان. يقول المواطنون (على الرغم من أن قلة قليلة، إن لم يكن أحد على الإطلاق، هى التى حاولت الإقدام على هذه المخاطرة) إن هذا الكهف يستمر على هذه الشاكلة، أى على شكل سلسلة متصلة من الغرف، إلى امتداد أميال عدة فى الجبال، وأن هذا الكهف يتسع فى نقطة من النقاط، على نحو يحول دون وصول أى حجر يقوم أى إنسان بإلقائه، إلى سقف هذا الكهف. كان الجو خانقاً وشديد الحرارة داخل هذا الكهف، الأمر الذى جعلنى لا أمضى أكثر من نصف ساعة فى جمع بعض العينات الجيولوجية، وخفّاش من الخفافيش (فقد ثبت أن غرفة من غرف هذا الكهف

كانت عشاءً حقيقياً للخفافيش) قبل أن أقوم بإرشاد الآخرين، عن طريق مصباحى الكهربائى، إلى طرق الخروج من الكهف. وخرجنا الواحد بعد الآخر إلى حيث الهواء الطلق، وضوء النهار.

تسلقنا بعد ذلك عقبة الحمرة الموجودة على الجانب المقابل من الوادى، ومن خلال المنحدرات كثيفة الغابات وصلنا إلى قمة تلك العقبة بعد قرابة ساعة ونصف الساعة، وعلى بعد مسافة قصيرة من مخيمنا السابق فى فوزه وجدت جهاز قياس الارتفاع مسجلاً ١٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. ومن قمة عقبة الحمرة واصلنا مسيرنا خلال مرج متموج التربة، فى اتجاه الشمال لنتوقف عند الساعة الثانية والنصف فى لحيز (Lehez على ارتفاع ٢٣٧٠ قدماً)، الموجودة تحت مستوى المنطقة التى يسكنها القطون.

جاءنى خويتيم، ليقول لى: "تقع مياه أرويز على بعد مسافة ميل فى اتجاه الغرب- هذه المياه (زى) العسل. وغداً نحن البدو سنسقى منها إبلنا ونملاً منها قرابنا فى حانون، لكن مياه حانون ليست مثل مياه أرويز. ومن الأفضل لنا التوقف هنا حتى تملئوا قرايبكم من هذا الماء العذب".

رحت أفكر فى السبب الحقيقى "وراء التوقف الذى نادى به خويتيم"، واتضح إنه سبب وجيه جداً أيضاً، لأن المكان هنا فيه بعض أشجار السنط، من النوع الذى يطلقون عليه اسم الغاف، وهذا النوع من الأشجار يندر وجوده على هذا الارتفاع، وهو غذاء أو علف لا مثيل له عند الإبل. وافقت، وعن طيب خاطر، على التوقف، لأن أفضل الطرق لكسب التقدير والتوفير لا تتمثل فى الاهتمام فقط بالإبل؛ وإنما أيضاً الإشفاق عليها والعمل على إسعادها.

تلکأت الجماعة أعلى الجبل على شكل مخيم وتحولت إلى أن تستبدل بالقش القديم المستعمل فى حشو السُرُج التى يضعونها على ظهور الإبل، قشاً جديداً وكان الشيخ صالح، شأنه شأن الشيخ حسن، الذى رافقنى فى رحلتى الجبلية، الأوفر حركة ونشاطاً بين رجال القبائل، فى مسألة جمع الحطب، والسبب فى ذلك أن شيوخ القبائل يقودون أتباعهم فى الحرب وفى العمل على حد سواء.

تجمع المواطنون الذين لا مهرب منهم، حول نيران المخيم، وهنا كشف البدو المرافقون لى عن قلقهم السابق على تعييناتنا ومؤننا، ولذلك قاموا بتجميع هذه

التعيينات والمؤن على شكل كومة واحدة على أمل أن ينام بعضهم فوقها، وينام الآخرون حولها، لأن هؤلاء البدو المرافقين لى يعززون لرجال هذه الجبال قوى وقدرات تكاد تكون غير طبيعية فى مسألة السرقة واللصوصية.

"هناك علاج واحد فقط. هل تود أيها الصاحب، رؤية هذا "العلاج"، هذا المخيم موجود فيه مريض قديم"، وهنا قاموا على الفور بإحضار رجل من القراوين، وبعد شئ من الإقتناع سمح الرجل بسحب عباءته^(١) نيلية اللون، كاشفاً بذلك عن ذراع ذائوية، كانت اليد الأثمة قد قُطعت طبقاً " لقانون الله " - الشرع - وذلك بأمر من السلطان عند قيامه بزيارة ظفار لأول مرة. كان ذلك الآثم قد أمسك به متلبساً بالسرقة، وقد أبلى العبد المعين للقصاص فى القلعة بلاءً حسناً عندما قطع اليد بضرية واحدة من بلطته، ينظر الأخيار إلى هذا العمل من المنظور الدينى لكن الأثر المترتب عليه فى مسألة الردع كان أثراً محدوداً.

غيرت الرياح الجنوبية اتجاهها إلى الجنوب الغربى وهبت علينا باردة على هذا الارتفاع. كانت السحب المنخفضة الدكناء تحجب السماء، وهنا بدأت أحس بالقلق من الندى الكثيف، نظراً لأننى لم تكن معى الخيمة المطلوبة لمثل هذا الظرف، فى هذه المنطقة الرملية كانت رحلاتى السابقة قد جعلتلى أخشى من أن المرة أو البدو سوف يُبدون استياءهم من جعل إبلهم تحمل خيمتى، وبالتالي يسيئون هم بدورهم إلى رحلتى. ولذلك آثرت ترك خيمتى ورائى، وندمت على عدم وجودها معى فى هاتين الليلتين من لياالى شهر ديسمبر فى هذه الجبال، سَجَلَت الترمومتريات الجافة والترمومتريات ذات الانتفاخ درجة تكاد تكون واحدة، كانت بطانيتى مبتلة على نحو يمكن معه عصرها، وكانت المخدة رطبة على نحو جعلنى أقلبها على الوجه الآخر أثناء الليل. وضعت على رأسى غطاء الرأس العربى، وجعلت منه شالاً يساعدننى على النوم، لكنى صحوْتُ من النوم وعينائى لزوجتان بفعل الرطوبة الخارجية.

تجمعت الإبل حول نيران المخيم وأمضت الليل كله وهى راضية وتجتر غذاءها - بدأت هذه الإبل تتحرك عندما نهض أصحابها لصلاة الفجر، ونهضت كلها

(١) يقولون لهذه العباءة "سُبَيْغَة" فى هذا المكان.

واقفة كما لو كانت حُرَّاساً، وهى تنتظر المزيد من الضوء، والدفء الذى يفتح شهيتها. وهنا جاء أصحاب هذه الإبل ليطلقوها ترعى فى الأجمات القريبة إلى أن شرعنا فى بدء مسيرنا.

مسارنا الشمالى الغربى يُوصِّل إلى منطقة القطون، التى تُعد سقفاً لجبال القراوين، واستدرت إلى الخلف من فوق سَرَجِ جملى لألقى نظرة أخيرة على المحيط الهندى الذى يبعد عنا ثلاثة آلاف قدم فى الأسفل. هنا فى المكان الذى نحن فيه الآن لا وجود للمروج التى بدأت تحل محلها رقع من الأرض المزروعة بعشب الجوديلا، ذلك العشب الذى يعطى كمية كبيرة من الصمغ. وهنا راح الأطفال يركضون بجوارى على أمل الحصول على بقشيش، وراحوا يرفعون لى نباتات تمنوا لو أنها استرعت انتباهى وحصلت على حظوتى، وهذا هو نبات الهالجوم، تلك الثمرة الشبيهة بالطماطم يستعملها أهل هذه المنطقة فى تنظيف الجلود، وهذا هو أيضاً نبات الصبور (الصبر)، وهو نوع من فصيل الصباريات، ويستخدم الناس نَسْغَهُ مُرَّ الطعم دواءً للبطن، وعلاجاً أيضاً للعين، فى حين يعطى جلد هذا النبات صبغاً أصفر اللون مائلاً إلى الاخضرار، تفضله النساء. الجبال الجرداء تحيط بنا من كل جانب، هى ووعورة الطريق أجبرت أفراد جماعتنا على السير فى طابور فردى. وبعد أن تخطينا ذلك الانقسام الجبلى بدأنا النزول عند الجانب البعيد من جبال القراوين، وذلك عن طريق مجرى سيل القبلية (على ارتفاع قرابة ٢٥٠٠ قدم). كان طريقنا يمتد عبر قاع هذا الغور القاحل، الذى تحفه من الجانبين تجاويف عميقة- يستعمل تجويف من هذه التجاويف، والذى يطلقون عليه الاسم رديت، ملجأً للقطعان- فى حين كانت الجلاميد الصخرية المنتشرة فى الوادى، مشويه بتفتتات منورة بيضاء اللون.

غمغم الشيخ صالح، وهو راكب دابته من خلفى مباشرة، أثناء مرورنا على بعض القبور: "الرحمن الرحيم".

قلت له: "نحن نكشف رؤوسنا عندما نواجه جثثاً من الجثامين".

"كيف تدفنون موتاكم؟ هل صحيح أن الكفار يحرقون موتاهم؟".

حرق جثة مصيرها إلى البعث يعد فى واقع الأمر شكلاً من أشكال الكفر والتجديف، وهنا رأيت أن من الحكمة تمرير مسألة حرق الجثث وتجاوزها.

قلت له: "نحن نأخذ موتانا إلى المسجد، ونصلى عليها لله تعالى، ثم نقوم بعد ذلك بلفّ الموتى فى كفن أبيض (هذه مسألة مهمة جداً!)، ثم نقوم بعد ذلك بدفن الموتى فى الأرض".

قال واحد من الرّشايذة موافقاً على ما قلته، "والله مسلمين!".

لكن فى مرحلة لاحقة من اليوم اكتشفت أن وجهة نظرى فى الدين لم تكن منتشرة على نطاق واسع. قام شاب من شباب الكثارين بالجرى بجانب الجمل الذى كنت أركبه واتضح أنه كان ودوداً للغاية. وشيئاً فشيئاً راح يتخلف إلى الوراء وعلى أثر ذلك سمعتهم يتحدثون عنى.

قال الشيخ صالح: "هم أناس صادقون".

قال الشاب: "أنت لا تقول هذا الكلام".

"والنجاح حليفهم فى هذه الدنيا!".

رد عليه الشاب قائلاً: "ربى يحاسبهم"، بمعنى "الله سوف يعرضهم للحساب فى يوم الحساب (الآخرة)".

قال الشيخ، كما لو كان يعتذر عن قيامه بدور الحامى لى:

واستغفر الله، بمعنى "ربنا يسامحهم".

انخفض الأنرويد (جهاز قياس الارتفاعات) انخفاضاً مفاجئاً أثناء مرورنا فى الغور، وبعد أن قطعنا مسافة أربعة أميال، وصلنا إلى الرمل الناعم الموجود فى مجرى وادى الشيطان. كانت أمامنا بانوراما من جبال الحجر الرملى شاحب اللون، ومتميزة بأشكالها الهرمية والمخروطية. كان الجبل الذى يحمل اسم قرن فهد، من بين أشهر هذه الجبال وكان يقع فى اتجاه الغرب، وسرعان ما أصبح أمام أعيننا، وفى اتجاه الشمال الغربى كان هناك جبل آخر يسمونه قرن شيبه، والذى عقدنا العزم على التخييم أسفله لقضاء الليل. استطعنا أن نرى خلف هذه الجبال القريبة أرضاً جرداء شاسعة حمراء اللون؛ والأراضى الجرداء متوهجة الحمرة فى هذه المنطقة متناقضة تناقضاً صارخاً مع ألوان الجبال هى ومروجها من خلفنا.

تختبئ في مجارى هذا الوادى القاحل، والذي يصرف ماءه في الشمال في منطقة السُّهوب الواسعة، شجرة الموغور البرية، التي هي من أشجار البخور. تبدو هذه الشجرة في مظهرها، كما لو كانت نبتة أو شتلة صغيرة، بلا ساق مركزية، لكن من يرى هذه الشجرة عن قرب، يجد أن هذه الشجرة تنبت منها أغصان كثيرة يطاول الواحد منها قامة الجمل وقد يزيد على ذلك، وعليه لحاء ترابى اللون وأوراق صغيرة ملتوية. قفز واحد من رجالى من فوق جملة ليحضر لى عينة فى شكلها الخام من نسغ هذه الشجرة، على حد خنجره؛ كانت تلك العينة شبيهة بالدهن الشفاف أخضر اللون وكانت ذكية الرائحة تماماً، حُصَّاد هذا المحصول، رجالاً ونساء، يأتون إلى هنا لإحداث شروح صغيرة هنا وهناك فى الأفرع الخفيضة المتينة، مستعملين فى ذلك سكيناً خاصة - يخرج من هذه الشروح مادة صمغية تتكثف متصلة على شكل البستيلية راتنجية الطابع تعرف باسم البخور (اللبان). وبعد عشرة أيام تكون هذه القطرات قد أصبحت جاهزة للحصاد، ويتواصل عطاء هذه الشجرة من خلال هذه الشروح التى يجرى تعميقها كل عشرة أيام، لمدة خمسة أشهر. وبعد هذه المدة، تذوى هذه الشجرة وتذبل، وتتراوح فترة ترك هذه الشجرة كيما تستعيد عافيتها، بين ستة أشهر وعامين حسب ظروف كل شجرة، ويجرى تخزين ذلك اللبان، الذى يجرى حصاده فى أشهر الصيف، فى كهوف الجبال إلى أن يدخل فصل الشتاء، حيث يجرى إرسال هذا اللبان إلى الموانئ لتصديره إلى الخارج، والسبب فى ذلك أن القوارب لا تعمل خلال العواصف العاتية التى تتجم عن الرياح الموسمية الصيفية الجنوبية الغربية. هذا التأخير فى التصدير يعد ميزة لهذا المحصول، إذ يتيح هذا التأخير الفرصة لهذا المنتج كي يجف جيداً، على الرغم من أنه يصبح جاهزاً للتصدير فى غضون عشرة إلى عشرين يوماً من حصاده.

ومن بومباى يشق ذلك اللبان، أو البخور طريقه إلى معابد الشرق، مع الاحتفاظ بشيء قليل منه فى ظفار حيث تقوم ربة البيت الجيدة بوضع المبخرة تحت السرير عند غروب الشمس لطرد عين الحسود. يعد البخور من قديم الأزل واحداً من التوابل الثمينة فضلاً عن كونه أعظم القرايين قبولاً. وقد استعمله المصريون القدماء فى حفظ الجثامين التى كانت تحظى بالتقديس، كما استعملوه

أيضاً فى حفظ جثامين الفراعين وشخصيات أخرى يجرى فى عروقها الدم الملكى، واستعملوه أيضاً فى تحنيط التماسيح؛ كما كان يجرى حرق البخور أمام الخيمة التى كان يقيم فيها موسى (عليه السلام) يزداد على ذلك أن جبل البخور ورد ذكره فى زبور سليمان (عليه السلام) يضاف إلى ذلك أن البخور أُحضر على شكل هدية ومعه الذهب والمر للمسيح يوم أن كان طفلاً.

هذه الشجرة، يعثر الناس عليها، على شكل محصول تجارى، فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية، وعلى ارتفاع يتردد بين ألفين وخمسة آلاف قدم فى إقليم^(١) يتماثل مصادفة مع حدود أراضى قبيلة القراوين من خط طول ٥٣° شرقاً، إلى خط ٢١°، ٢٥°. يضاف إلى ذلك أن وجود هذه الشجرة على حافة حزام المطر الصيفى الفريد فى ظفار يوحى بأن الظروف المناخية الملائمة لهذه الشجرة لا توجد فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية، غير هذا المكان، إن صح ذلك، لا يستبعد أن يكون هذا المكان هو أشهر أماكن إنتاج البخور فى الجزيرة العربية التاريخية. هذا يعنى، فى أى حال من الأحوال، أن بيارات البخور الشهيرة، فى كل من اليمن وحضرموت أصبحت عديمة القيمة؛ هذا يعنى أيضاً أن قبائل ظفار لم تعد تاتى على ذكر هذه البيارات.

مررنا لمدة ساعة خلال بيارة من أشجار البخور الصغيرة التى تحمل علامات دالة على إنها جرى تشليخها مؤخراً. أصحاب هذه البيارة هم من القراوين الرعاة وليسوا من اللصوص، وهم على استعداد لتأجير هذه البيارة لواحد من الكثرين والمشايخ نظير نصف المحصول. هذه النقطة لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً عن

(١) بيارات هذه الأشجار يجرى تصنيفها من حيث الحجم إلى: (١) المانزिला، وهى البيارة الواسعة، وأشهر هذا النوع من البيارات هو: الآفيور، الاستوج، الآفار، الجيزالوت، الزوا، الآتا، التشيت، الكيم والأميوت، (٢) الهاويل، ويكفى لحصاد هذه البيارة خمسة حُصاد أو أقل من ذلك. هناك ثلاثة أنواع من البخور: النجيدى (النجدى)، الشاذارى والشعابى، وتختلف النوعية حسب الترتيب السابق- النجيدى، يمثل النوعية الفضية، وتنتج الأراضى المرتفعة فى كل من سمحان وجبال القراوين؛ الشاذارى وتنتج المناطق الجبلية التى تحمل هذا الاسم عند ملتقى السلاسل الجبلية فى كل من قامارا وقارا؛ والشعابى، وهو من نوعية متدنية وينتشر فى السهل المحيط برزيوت. وموانئ تصدير البخور من الغرب إلى الشرق هى: حضيب، ريخيوت، رزيوت، عقاد، صلالة، حافا، طاقة، مرياط، سوضى وحاضرام.

البحر، وهى بمثابة الحد الشمالى للقبائل المستقرة. القراوين، الشهارين، والعناصر الجبلية من الشهارين والمهارين، يضاف إلى ذلك أن هذه النقطة يمكن، بشكل عام، تقسيمها جيولوجياً، إلى الخلف منا، توجد جبال الحجر الجيرى، من العصر الطباشيرى الأعلى إلى العصر الحديث السابق؛ ومن أمامنا، توجد أرض قاحلة كبيرة عبارة عن سُهْب من الحجر الرملى ينحدر نازلاً لمسير مدته ستة أيام، وصولاً إلى حافة الرمال، وهذا مشهد من مشاهد الحياة البدوية المتنقلة لبيت الكثارين، بيت المهارين وبدو بيت الشيخ الذين ينتشرون هنا وهناك فى أماكن متفرقة.

فرحت لركوبنا دوابنا مرة أخرى من ناحية، وفرحت من الناحية الأخرى لأننا خَلَفْنَا وراءنا عالم ظفار المبتذل الممل ودخلنا إلى هذه الفراغات النظيفة الوسيعة. كان رفاقى لا يزالون من دون عناء أثناء السير، وكان حالهم فى ذلك شبیهاً فى الواقع بحال بدو جنوب الجزيرة العربية الذين رافقونى فى رحلتى السابقة، وهنا وجدتنى أشواق إلى أناشيد الإبل المثيرة التى يتغنى بها العمانيون أثناء مسيرهم فى الجبال؛ كان سهيل^(١) هو الشخص الوحيد الذى كان ينطلق مغنياً بين الحين والآخر، كان رفاقى لا يزالون متسامرين مرحين تماماً، حتى وإن كانت مواضيع أحاديثهم مقصورة على الإبل، البنادق والنساء. كان صمت التآمر الذى تعرفه الأعراف الأوروبية غائباً عن أحاديث وحوارات هؤلاء البشر، وكانت تلك الحوارات أيضاً خلواً من عنصر البذاءة المقصودة. كان حالهم شبیهاً بحال تلاميذ المدارس عندما يروحون ينتقدون لاعباً سيئاً من لاعبى كرة الكريكت، أو يستهزئون بواحد منهم فشل عن قصد، فى أمر ما، وذلك من منطلق أن هؤلاء البدو لا يجدون حرجاً فى التفكُّه بعجز بعضهم البعض الجنىسى مع النساء، وهذا هو سهيل، أكثرهم إلحاحاً، كان يسألنى ما إذا كان صندوق أدويتى فيه شىء منشط للجنس. لكن كان هناك شىء واحد مهم، هو الأكثر أهمية عندهم "هو" هل بوسعى استكشاف مواقع المياه؟

(١) سهيل: معنى هذا الاسم "ظَلَّة" بضم الظاء وتشديد اللام وفتحها، وهو اسم شهير بين البدو.



(شجرة البخور أو اللبان)

هذا هو قرن شبيه، الذى توقفنا تحته لقضاء فترة الليل، وهذا القرن عبارة عن جبل مخروطى الشكل يقع على الجانب الشمالى من مجرى وادى سعطان الضحل.

لما كنت أنا وصالح راكبين دابتنا وبصحبتنا بعض الأشخاص المحبين إلينا، فقد كنا أول من وصل إلى غابة أشجار السنط التى يطلقون عليها اسم سَمَر Samr والتى قررنا التخيم فيها، فى حين كان الجزء المتبقى من جماعتنا، الذين يمشون خلفنا سيرا على الأقدام يقتادون إبلهم غير المستعملة أثناء النزول من سلسلة الجبال الوعرة، ثم بدءوا يتقاطرون الواحد بعد الآخر، وسرعان ما شبوا قرابة اثنتى عشرة ناراً راحت تتوهج فى الوادى. كان بيننا وبين سيسور مسير أربعة أيام، ولم يكن هناك ماء، غير ثقب الماء المجاور لنا فى حانون، الذى وصلنا إليه، حتى نسقى إبلنا منه فى صبيحة اليوم التالى ونغادره وقد ملأنا قرابنا من مائه.

وبعد الانتهاء من صلاة الفجر، انتشر البدو فى كل الاتجاهات لإحضار إبلهم، وعليه جاءوا راكبين إبلهم بلا سُرُج، ومضيئا قاصدين ثقب الماء فى حانون. وبعد مسير دام ساعتين فى اتجاه الشرق، دخلنا وخرجنا خلالهما وسط جبال جرداء قاحلة يكسو سطحها حجر الصوّان الأسود اللون، فى بعض الأماكن، وصلنا إلى قرن حانون ذلك الجبل مخروطى الشكل على جنب من الجانبين، ومنظومة ثلاثية على الجانب الآخر يسمونها الأرداف. وبعد هذه الأرض انفتح أمامنا فجأة شق أو صدع على شكل العدد ٧، وهذا الصدع من الصخر البلورى، وكان يهبط نازلاً على شكل مصاطب براقة بيضاء اللون إلى مجرى وادٍ أخضر يقع على عمق يتردد بين ٥٠ ومائة قدم. كانت الطبقة العليا معلقة فى معظم الأحيان؛ وكانت الطبقة السفلى هنا تَعَرَّتْ هنا وهناك على شكل كهوف ضحلة طويلة. كانت تلك هى المنطقة التى يسمونها غابرتان، وهى عبارة عن وادٍ ملتو صغير يربط هذه المنطقة بمنطقة راكبيت التى على مرمى البصر، ولذلك يعد هذا الوادى مصدراً من مصادر وادى الكتبيت Katibit، ذلك الوادى الرئيس الكبير الذى يمتد شمالاً إلى أن يصل إلى الرمال. هنا ومن فوق مصدره مستدق الطَّرْف نظرنا من الأعلى على بحيرة حانون الخضراء الموجودة فى مجرى هذا الوادى. صادف ثقب الماء هذا

خيبة الأمل المعتادة، عندما تذكرت القصص التي رواها البدو عن هذا الوادى وهم يثنون عليه - وهذه القصص يسهل فهمها تماماً فى أرض تعاني العطش.

قال البدو عن ماء هذا الثقب إنه حُلُو، لكنى وجدته مالغاً بشكل لا يطاق، وتساءلت فيما بينى وبين نفسى عن ذلك الماء الذى يمكن أن يسمونه هم مالغاً، وذلك من منطلق أنهم يعدون ماء حانون حلواً على نحو لا يوجد فى أى مكان آخر. لكن كل هذه المسميات تعد أشياء وأموراً نسبية، كما أن أصحاب العقول القنوعة يرون أن الماء المتيسر هو أحلى المياه. والذى لا شك فيه أن ماء حانون كان حلواً عند العرب الذين يدعونه كذلك، هنا خطرت على بالى تلك البقعة شديدة الجفاف وبالغة الشحوب فى منطقة غودون والتي وُصِفَتْ لى بأنها جوهرة مناطق التخميم، وهذا أمر يُضحكنى لكنه يشكل رؤية ووجهة نظر أمينة عند الراوى الذى روى لى هذه القصة. وهنا خطر على بالى ذلك المثل العربى الذى يقول: "حمارك أفضل من حصان الغير" (*).

يطلق الناس على الوادى الصغير المؤدى إلى وادى غابرتان الموجود فى الأسفل، اسم بامسجيف، بمعنى "مكان شواهد القبور"، وأنا بدورى كنت شغوفاً على أمل استكشاف هذا المكان ذلك أن اسمه يعد بالمزيد من البقايا الأثرية، من النوع الذى سبق أن اكتشفته فى سائر أنحاء حزام البخور، وأيضاً فى بضعة أميال فى اتجاه الشرق من هذا المكان. كانت هذه البقايا عبارة عن آثار أرضية فجّة تحمل فى بعض الأحيان نقوشاً تنتمى إلى ما قبل العرب، ويرجح أن تكون هذه النقوش نقوشاً إثيوبية قديمة، الأمر الذى يوحى بأن قبائل الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية والتي تتكلم لغات مختلفة فيها قرابات إثيوبية، ربما كانت موجودة فى هذا المكان منذ فترة طويلة من الزمن.

وقد خيبت بامسجيف، أو مكان شواهد القبور، آمالى نظراً لعدم وجود نقوش بين هذه الآثار العديدة التى تأثرت كثيراً بفعل العوامل الجوية.

كان النوع الأحسن صنغاً من شواهد القبور هذه، والذى سبق أن التقيته فى أماكن أخرى مكوناً من منظومة من الأحجار ثلاثية الأبعاد، أو ثلاث كتل طويلة

(*) هذا هو المثل المصرى العامى الذى يقول: "حمارتك العارجة (العرجاء) ولا سؤال اللثيم". (المترجم).

من الحجر الغشيم (أو الجلاميد الصخرية المستديرة فى بعض الأحيان لها سطح أملس بفعل الطبيعة)، ويصل ارتفاع الواحد منها إلى قرابة ثمانى عشرة بوصة، واقفاً على طرف من طرفيه، والأحجار الثلاثية تلامسة قممها المتجهة نحو الداخل، بعضها مع البعض كيما يتحقق ثباتها. وهذه المنظومات ثلاثية الأحجار مقامة على شكل سلسلة فى صف واحد، بحيث تبعد كل كومة منها مسافة خطوة ونصف الخطوة، عن الكومة التالية لها. كانت المنظومة فى بعض الأحيان، ذات غطاء عبارة عن جلمود صخرى صغير، وفى بعض الأحيان كانت كل سلسلة من هذه المنظومات الحجرية الثلاثية مسورة بخط بيضوى الشكل من الفقايع الصغيرة. كانت تلك السلاسل متباينة من الناحية العددية. وجدت أن هذه الأعداد متباينة فهي أحياناً خمس منظومات، سبعة، تسعة، أربعة عشر أو خمسة عشر. كانت هناك أيضاً سلسلة من القمم المخروطية المتهدمة موازية لكل سلسلة من هذه السلاسل وعلى بعد ثلاث خطوات من بعضها البعض، وهى من قبيل ذلك النوع الذى شاهده فى أماكن أخرى والذى كان يستعمل مشواة للطبخ؛ من الواقع الذى يدل عليه مظهر أو شكل كل منظومة من هذه المنظومات، وكذلك كثرة عدد هذه المنظومات فى وادى ضيكور، هو الذى يجعلنا نربط هذه المنظومات بموروث الدفن، لأنه يوجد بجوار هذه المنظومات جبانة مسلمين حديثة العهد، فضلاً عن وجود جبانتيْن أُخريْن من عصر ما قبل الإسلام، أو نوعية من المقابر غير نوعية المقابر الشرقية، وهى بالتحديد مدافن صخرية، بالإضافة إلى وجود قبر ضخّم أيضاً فى هذه المنطقة؛ يزداد على ذلك أن اسم هذا المكان يمكن أن يكون "وادى التذكر".

زد على ذلك أن المواطنين كانوا يجهلون أن القطع الزخرفية هى نوع من "الكتابة"، فضلاً عن عدم معرفتهم على وجه الدقة، أصل هذا الأثر، وذلك على الرغم من أنهم يربطون هذا الأثر بصورة مبهمة بابنة النبى (صالح بن هود. ناقة هود؟).

وفى منطقة الكثارين، التى تقع غربى هذه المنطقة التى فيها الأثر، يطلق الناس على هذا الأثر اسم بيت أبا غسان Bait Aba Gassan ، وهذا الاسم يشير إلى الغساسنة الذين ورد ذكرهم عند بطليموس المؤرخ. كانت هناك، بطبيعة

الحال، فى فترة ما بعد الإسلام، أسرة ملكية غسانية فى ظفار، لكن توزع هذه المنظومات الحجرية الثلاثية ممتد أيضاً إلى ما بعد حدود ظفار، كما أن هذه الآثار بحد ذاتها، ومن واقع النقوش السابقة للفترة العربية، والموجودة على هذه الآثار، فضلاً عن التوجه غير الإسلامى لهذه النقوش، وفضلاً أيضاً عن الموروث المحلى، يجعلنا نقول إن هذه الآثار تنتمى إلى "العصر الجاهلى". كان الدين القديم فى الجنوب الغربى من الجزيرة يتمثل فى عبادة النجوم عند السبئيين، ويمكن القول أن هذه المنظومات الثلاثية الحجرية كانت ترمز، فى الأصل، إلى الثالوث القديم فى جنوب الجزيرة العربية: إله الشمس، إله القمر، والزُّهرة عند العرب.

بدأت الشمس تفتersh السماء، الأمر الذى جعلنى أشعر بالقلق إزاء عملية التحرك، وعليه وجدتنى أعود إلى ثقب الماء فى حانون حيث كان رجالى يتزودون بالمياه، ورحت أناديهم وأستحثهم الإسراع، ونادونى هم بدورهم قائلين: "نعم"، لكنى كنت أعلم جيداً أن ندائى عليهم لن يفتُ فى عضدهم ويجعلهم يسرعون. كنت أعلم، من واقع خبرتى الطويلة، أن حبهـم للتأخر والتوانى عند ثقب المياه وبخاصة عندما يكون الثقب التالى بعيداً، هى رغبة لا علاج لها وأنى ينبغى أن أرضخ لها. لم يكن الشيخ من بين من يتزودون بالماء من هذا الثقب، كان الشيخ صالح ومعه شخص آخر قد غادرانا فى صباح اليوم ليكونا فى مقدمة الركـب؛ سعيّاً إلى استئجار مجموعة جديدة من الإبل واستكشاف الأرض قبل وصولنا إليها. كان الرجلان، يطمعان فى أن يكون لنا مرشد من قبيلة المرّة من داكـاكا Dakaka؛ كيما يلتقينى يوم وصولى إلى ثقب المياه فى منطقة الضاحية التى كنت قد خططت لتمضية عيد رأس السنة فيها؛ كان اليوم مصادفاً لليوم الثالث عشر، لكن صالح لن يسير فى نفس الطريق الذى سنسلكه نحن إلى شيسور، وإنما سيسير فى اتجاه الشمال الغربى عبر السُّهـب القاحل عن طريق مسار لا يصلح إلا للإبل السريعة التى لا تحمل أثقالاً أو أحمالاً. كان الشيخ صالح ورفيقه يتزودان بالماء من أم الشَّدِيد، نظراً لأن ثقب الماء الذى فى منطقة جودون عميق على غير العادة. كان المُنْزَل على مراحل وبلغ طوله قرابة سِتِّ وثلاثين قامة. بارك الله، فيك، أم الشَّدِيد صنعها نجم هابط، وهى ليست من صنع أبناء آدم مطلقاً.

وسواء أكان أم لم يكن هذا الموروث تذكّاراً من تذكارات عبادة النجوم، فأنا لا أستطيع القطع بذلك، لكنى التقيت هذه العبادة فى أماكن أخرى فى هذه الأراضى الحدودية الجنوبية. كما أننا نجد فى رمال غنيم وفى جدران هراسيس بعض ثقوب الماء التى يطلقون على كل ثقب منها اسم الخسقة^(١)، يزداد على ذلك أن المنخفض الذى على شكل حوض فى لاهيت فى بلاد البوتاهرا، يعزو الناس وجوده وربما بكثير من المنطق إلى سبب مماثل للسبب سالف الذكر.

وعليه تركنا الشيخ صالح وهو يحمل معه خزيناً من الدقيق، والتمر كيما يقتات بهما على الطريق، كما كان يحمل معه أيضاً ثوباً على سبيل الهدية لشيخ قبيلة المُرّة، الذى يبدو أنه كان شديد الأهمية. وعليه، وبعد الانتهاء من صلاة الظهر عادت إبلنا من المسقى، وعند الساعة الثانية بدأنا تحركنا. غادرنا سعطان على الفور وسرنا فى الاتجاه الشمالى الغربى خلال وادى غورون ودوكا، فى البداية، سرنا، خلال بعض الجبال المنخفضة، التى كانت مثل المنظومات الأخرى الموجودة فى الشرق والغرب، عبارة عن سلسلة من الجبال ذوات القمم المسطحة أو أهرام من الحجر الرملى. كانت إستانه ضمن خط سيرنا، وإستانه هذه عبارة عن رافد من روافد وادى دوكا حيث أدت أشجار السمر السنطية هى ونباتات الآساف أو الغاف الشبيهة بالنخيل، إلى تأخير رجالى وتوانيهم. عبرنا بعد ذلك سلسلة جبال عرضية كانت تميز منطقة هوغوجيت، التى هى عبارة عن رافد توأم من الوادى، وهنا توقفنا لتمضية الليل. تبعنا الإبل تمشى الهوينا وجريد النخيل يتدلى من سُرُجها. كان الرجال يحملون هذا السعف ليعطوه لنسائهم ينسجن منه أوعية الحليب؛ وسوف يستعمل الرجال بعضاً من هذا السعف فى صنع الحبال والأجولة - واقع الأمر أن واحداً من حُرّاس الليل كرس نفسه لعمل حبل لناقتى الأمر الذى أفضى إلى أن بدأت ناقتى مسيرها فى صبيحة اليوم التالى وحول رقبته حبل أخضر اللون.

لم تكن الريح الجنوبية القوية التى هبت علينا فى تلك الليلة مناسبة على نحو يمكننى من القيام بملاحظة النجوم، لأن هذه العاصفة تسببت فى ارتفاع الموجات

(١) يشيع إطلاق هذا الاسم على ثقوب المياه التى يزعم الناس أنها تكونت بهذه الطريقة.

فى حمام الزئبق (الأفق الصناعى)، وحوّلت طرف سن الدبوس المطلوبة والتي تنتج عن انعكاس النجم، إلى ومضة سديمية غير واضحة. يضاف إلى ذلك أن مسألة تحديد مكان المرء بواسطة جهاز قياس الارتفاعات Sextant ليست أمراً سهلاً فى هذه المنطقة من مناطق خطوط العرض، وهى المنطقة التى يكون فيها نجم القطب Polaris قريباً جداً من خط الأفق الشمالى وعلى نحو يُلزم من يقوم بعملية الحصول على صورة منعكسة لهذا النجم، بالجلوس على بعد مسافة كبيرة جداً من الأفق الصناعى. يضاف إلى ذلك أن الرمل كان يتسرب دوماً إلى أدواتى أثناء الظلام. وقد حتمّ ذلك على اصطحاب طاولة من طاولات المخيمات، كيما أضع عليها أدواتى أثناء الليل. لم يقتصر الأمر على جهاز قياس الارتفاع وتحديد خطوط العرض هى والأفق الصناعى، لأننى كان محتتماً على المحافظة على سرية عملى على النجم مخافة أن يتهمونى بالسحر أو بما هو أسوأ من ذلك، من هنا كنت أبقى على هذه الأدوات فى الصندوق الخاص بها، ولم أكن أخرجها من صندوقها إلا لمدة ساعة واحدة كل ليلة. يزداد على ذلك، أن ملاحظاتى لنجم القطب، وارتفاعات خط السمت لكل من آشرنر Acherneer و كانوبس Canopus أعطتلى الارتفاع اللازم لتحديد مكانى من يوم لآخر.

وتحقيقاً لمطالب السرية حاولت منذ البداية، وذلك على العكس من رجالى الذين كانوا يثيرون المخاطر العادية التى يمكن أن تواجهنا، والأعداء الذين يمكن أن يتربصوا بنا، كنت دوماً أختار لنفسى مكاناً على حافة المخيم وعلى بعد منه بمسافة ثلاثين أو أربعين ياردة، ولم أكن أختار مثل هذا المكان وسط العرب. وعندما كنا نصل إلى مكان التخيم كان خادمى يقوم بترتيب فراش نومى وصناديقى، فى حين أكون أنا منضمّاً مع رفاقى ومشاركاً لهم فى حواراتهم ومتجاذباً معهم أطراف حديثهم، ومشاركاً معهم فى طعامهم إلى أن يرخى الليل سدوله علينا؛ وعندها كنت أنسحب عائداً إلى فراشى استعداداً للنوم وقضاء الليل، وهنا كان خادمى يقول للجميع إن كل من يود مقابلتى بعد هذا الوعد لن يُسمح له بذلك. كانت أجهزة القياس الثلاثة، التى هى عبارة عن جهازين لقياس الارتفاع aneroid بالإضافة إلى ترمومتر انتفاخى جاف يجرى كالعادة، وضعها على الطاولة فور وصولنا إلى المخيم، حيث يعاد حزمها مرة ثانية فى الصباح قبل

أن نغادر المكان، وذلك من باب التأكد بأنها تعمل على ما يرام من ناحية، وتسجيل المعدلات يومياً وفقاً لتوقيت جرينتش.

يُزاد على ذلك، أنى كنت أسجل أيضاً ومن خلال الأجهزة الأخرى، فى فترات زمنية حسب مقتضيات الوقت، وكنت ألتزم دوماً بمسألة التسجيل هذه عند غروب الشمس وعند شروقها، وربما كان ذلك يحدث أيضاً بواقع مرتين أو ثلاث مرات أثناء الليل أيضاً. كان بعض من رفاقى لم يروا الساعة مطلقاً فى حياتهم. كانوا جميعاً منفعلين انفعالاً كبيراً عندما كنت أسمح لهم بوضع آذانهم على الوجه الكبير لجهاز القياس حتى يستمعوا إلى التكتكة. وعندما كانوا يستمعون إلى هذه الأعجوبة، كانت وجوههم تتهلل بشراً وهم يبتسمون، ويروحون ينظرون إلى بعضهم البعض مندهشين قبل أن ينفجروا قائلين: "لا إله إلا الله".

من هنا أصبح الاسم "ساعة" اسم جنس لكل آلة وكل أداة ومعدة من المعدات. لقد أطلقوا هذا الاسم على البوصلة المنشورية التى كنت أضعها على عيني كل عشر دقائق من المسير حتى أتمكن من تسجيل اتجاهنا عكس الزمن (ساعة اليد)، وأسجل أيضاً الاتجاهات الزاوية المقابلة على النقاط الطبوغرافية - وهذه أمور ومعطيات جد مهمة فى مسار رحلتى. ومع ذلك، فإن "التكتكة" عند هؤلاء البشر كانت هى الساعة بلا أدنى شك. حدث ذات مرة عندما توقفنا بغية تغيير الإبل، أن وجدت واحداً من العرب المترجلين معى، ممسكاً بالترمومتر (مقياس الحرارة) وواضعاً إياه على أذن صديق كان قد أحضره لينضم إلينا فى الرحلة. كان ذلك الرجل يستعرض ويتباهى، لكن الصديق لم يتأثر، وعليه قام بوضع جهاز قياس الارتفاع على أذنه ثم ظهر عليه الغم والكدر؛ أحس الرجل أن هناك نوعاً من الخداع.

لم يَدُم مسيرنا فى اليوم التالى سوى ثلاث ساعات فقط. وراح البدو يتلكئون منذ البداية ويتحدثون عن رفاقهم الذين فى المؤخرة ولم يلحقوا بنا منذ أمس. كانت الأسباب واضحة. وبذلك نكون قد عدنا ثانية إلى منطقة إستاه Istah حيث يوجد المرعى الجيد، فى حين كان الطريق المؤدى إلى شيشور- وكذلك النخيل الجذب من أمامى يوحى أيضاً بقحولة الطريق- يوحى بالفقر والجوع. ونظراً لأننى كنت أتعجل الوصول إلى الرمال، فقد كنت أتطلع إلى قطع مسافة طيبة،

لكن هذا المقترح لم يحظَ سوى بقليل من الاهتمام والرضا. والمترحل فى الصحارى الكبيرة سرعان ما يوقن أن رفاهية الإبل وإراحتها تحظى بأكبر قسط من الاهتمام. هذا يعنى أن البدايات وكذلك الوقفات، عادة ما تحددهما نوعية المرعى. هذا يعنى أيضاً أن علف الإبل أهم من الماء، ذلك أن الجمل بوسعه أن يحمل حملاً لمدة أسبوع دون أن يكون بحاجة إلى الماء، أما العلف فهو من احتياجات الإبل اليومية. والأوروبى الذى اعتاد على برنامج محدد، وقت للبداية، وموعد للتوقف، وموعد للطعام والأكل، وتوقع لمسير عدد محدد من الأميال كل يوم، يُصاب بصدمة كبيرة عندما يبدأ ترحاله فى الصحراء الكبيرة. هذا يعنى أن ابن هذه المسيرات القاحلة يضع كل شئ فى المرحلة الثانية بعد وسيلة انتقاله، هذا يعنى أن الجمل هو الأول وكل ما عداه يكون لاحقاً أو تابعاً له - هذا يعنى أيضاً أن صحة الجمل عند البدوى، هى التى تأتى فى المقام الأول. والبدوى عندما يخيم فى مكان جيد المرعى وفيه ماء، فإنه لا يترك هذا المكان؛ وهو أيضاً عندما يصادف بعض الشجيرات الخضراء حتى ولو كان ذلك فى وقت الظهيرة، وعلى الرغم من حرارة الشمس الشديدة، فإنه يتلكأ أيضاً لمدة ساعة؛ وإذا ما وصل هذا البدوى حتى ولو بعد غروب الشمس ولم يَرُقْ له المرعى، فإنه يصبر على مواصلة السير، غير عابئ بالتعب.

وعليه، فأنا اليوم، وأنا أشعر بالحزن، أرانى أعتنى بناقتى، وأنا على بعد مسافة بسيطة تصل إلى قرابة سبعة أو ثمانية أميال من المكان الذى خيمنا فيه ليلة أمس. وفى الحال، ذهبت ومعى بندقيتى إلى غابة الوادى. شاهدت آثار أقدام ذئب من الذئاب، كما شاهدت أيضاً آثار ثعلب من الثعالب، وأرنب برى وغزال من الغزلان، لكن ثبت أن فترة العصر كانت جذباء قاحلة.

عثرت فى وادى غدون، على بعد أميال قليلة فى اتجاه الغرب وعلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم، وحيث تحل أشجار الأثل صفصافية الأغصان، محل شجر السنط من نوع السمر، كما عثرت أيضاً على وَعْلى الأول، تلك البقرة الكاملة. أخذت احتياطاتى الكاملة كيما أحصل على جلده كاملاً حتى يمكن أن يكون عينه علمية سليمة، لأن العرب يُقيّمون جلد وجه هذا الوعل باعتباره جائزة من جوائز الانتصار، شأنه فى ذلك شأن ذئب الثعلب، ويصنعون من جلد هذا الوجه غطاء

لدباشك(*) بنادقهم. واقع الأمر أنه لم يكن من بين رجال جماعتي من لا يضع على دبشك بندقيته غطاء من جلد هذا الوعل، أو الغزال، ولم يقل اهتمام أفراد جماعتي بالكرش الكبير، وبالعصارات المعدنية التي كانوا يصفونها ويشربونها بشهية كبيرة قبل التعامل مع المحتويات الصلبة التي كانوا يأخذون منها حفنات ويقدمونها لإبلهم المتذمرة. وهم يقولون إن مزايا المعدة لكل من الإنسان والحيوان لا مثيل لها في أى شيء من الأشياء الصحراوية الأخرى. وهاتان الفصيلتان اللتان أوردتهما هنا ليستا سوى اثنتين فقط من فضائل الوعل السبع^(١).

والبدو يصنعون من قرن الوعل نايًا تعزف عليه بنات جنوب الجزيرة العربية. وطوال المسيرات التي قمنا بها لم نعثر على طبول أو آلات وترية، وإنما الذي عثرنا عليه هو فقط الناي المصنوع من قرن الوعل. والراعية إذا لم تكن تغنى لقطيعها، فهي تهدئ ذلك القطيع بالعزف على الناي كما تجد هي أيضاً عزاء لنفسها عندما تعزف على هذا الناي. ربما كانت هنا علاقة بعيدة بين هذا وبين أسطورة العصور الوسيطة التي تتحدث عن الفتاة ووحيد القرن، لأن الشائع هنا أن الوعل هو النمط الأعلى، ذلك الحيوان الخرافي. المؤكد أن الوعل يجرى ورأسه منخفض إلى الأسفل وذلك بغية أن يكون قرنائه شبه عموديين، ويبدو أن كما لو كانا قرنًا واحدًا، ومن هنا جاء الوعل وحيد القرن الذي ورد ذكره عند أرسطو، والذي ورد ذكره أيضاً في النص العبري من سفر التثنية في الإصحاح الثالث والثلاثين، وعلى وجه التحديد في الآية السابعة عشرة، "قرناه يشبهان قرون وحذاء القرن"^{(٢)(*)}، يقول موروث وحيد القرن إنه كان رمزاً للقوة وحارساً

(*) الدَّبَّشك: كلمة تركية بمعنى المؤخرة الخشبية للبندقية. (المترجم).

(١) فضائل الوعل الأخرى هي الجلد الذي يقومون بدبغه؛ وهم يستعملون دمه ترياقاً للدغ الثعابين؛ ويستعمل دمه في طرد الأرواح الشريرة (ما يسمونه الحمرة، وهو ما سيأتي وصفه بعد)؛ ويستعمل حساؤه في علاج آلام المفاصل، ويأكلون لحمه- والبدو هنا يعدون لحم الوعل أفضل أنواع اللحوم الوطنية الأخرى، وأنا لا أشارك في وجهة النظر هذه، ربما يكون حكمهم مبنياً على الآثار المترتبة على أكل لحم هذا الوعل على معدة خاوية، وعلى الرغم من أن طعام البدو عادة ما يكون قليلاً، فإن الاعتدال في الظروف التي من هذا القبيل يعد فضيلة غير معروفة عند البدو، وعادة ما يكون صندوق أدويتي عليه طلب كبير عقب الكوارث التي تحدث بعد أكل الصيد.

(٢) الكلمة العبرية المستعملة للدلالة على وحيد القرن هي الكلمة rim.

(**) الآية السابعة عشرة من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية. أخذنا ترجمة هذه الآية من ترجمة الكتاب المقدس الصادرة عن دار الكتاب المقدس في مصر، ص ٢٥٠. (المترجم).

للطهارة، ورعباً للرجال كان يلتهمهم عندما يراهم، لكن أسطورة العصور الوسيطة تقول: إن وحيد القرن كان فريسة ضحية للفتيات الشابات العذراوات. وتقول الأسطورة أيضاً إن وحيد القرن تنحسر وحشيته عندما يرى فتاة عذراء، وأنه يجيء متواضعاً ليضع رأسه فى حجرها، ويستسلم للمداعبات التى تجعله أسيراً لها عن طيب خاطر.

بدأنا فى ساعة مبكرة، وغادرنا مخلفين وراءنا آخر سلسلة خفيفة من سلاسل الجبال، وبدأنا تحركنا عبر أرض منبسطة تماماً وسهل بلا ملامح أو سمات مميزة، والتربة هنا رملية صلبة، عثرنا فى بعض أجزائها على أعشاش من حفريات المحار، موجودة على السطح كما لو كانت فى حوض محيط تغطيه طبقة من الرمل الناعم، التى أصبحت الآن حقولا للصوّان أو حجر الدبش، وعلى بعد مسافات طويلة توجد قمة صخرية بارزة على سطح الأرض، مكونه من رقائق من الحجر الرملى أحمر اللون. لم تكن فى هذه المنطقة حياة حيوانية، وتمثل كل ما حصلت عليه فى خنفساء، وثعبان Colubris وكذلك سحلية، يضاف إلى ذلك أن هذه السحلية كانت شديدة الأهمية فى متحف التاريخ الطبيعى، لأن هذه السحلية كانت جديدة على العلم- أبو قرش، على حد تسمية البدو لها، وذلك تأسيساً على دَنَبها المدوّر. وبعد ركوب فى أرض قفر قاحلة دام سبع ساعات، أمكننى التيقن من أننا قطعنا واحداً وعشرين ميلاً ونصف الميل. كان اليومان التاليان، اللذان أوصلانا إلى بلدة شيسور، متشابهين- إذ كنا نسير عبر أرض قفر مترامية الأطراف وخالية من الملامح والسمات المُميّزة. كانت الحركة الوحيدة ناتجة عن شياطين الرمال، التى أثارت علينا عُمدها المغزلية التى هبت علينا حاملة معها نفحة منعشة من الريح. لم يكن هناك أى أثر للحياة النباتية، وبدو أن إبلنا كانت تعرف أنها يتعين عليها الخروج من هذا المكان. شحذنا هممنا وعقدنا عزمنا ويمّمنا مسيرنا صوب مساحة شاسعة من السَّراب الوامض الذى كان يخفى عنا خط (الأفق)، وراح يمارس علينا خداعه المعتاد وهو يختفى شيئاً فشيئاً أمام طابورنا العطشان.

الفصل الحادى عشر

نَجْد - الحياة فى السُّهوب الجنوبية

نصل غداً إلى شيسور. لا عجب أن تبدو شيسور بهذا الكِبَر فى الذهن العربى، نظراً لأنها أول ثقب من ثقوب المياه نصادفه بعد مسير دام خمسة أيام، وبعد مغادرتها لن نرى أو نصادف غيرها طوال مسير يدوم سبعة أيام أو ثمانية. ونحن اليوم نسير عبر سهل قاحل، بشمسه الحارقة، وسرابه الكثيف، لنصل قبيل دخول الليل إلى غابة صغيرة فى اتجاه الشرق. يستلزم الاقتراب من أى ثقب من ثقوب الماء قدراً كبيراً من الحرص، لأن مثل هذا الثقب، إذا ما كان ملكاً للعدو، يفرض على المقرب منه خيارين: أولهما التراجع السريع المضمع بالعطش والخوف من المطاردة والملاحقة، أو الحرب والافتتال من أجل امتلاك هذا الثقب. وكما هى العادة فنحن نقرب من ذلك الثقب وقَرَاب مائنا خالية من الماء، وما إن ينزل البدو من فوق إبلهم، حتى يقوموا بتقييدها، وينطلقون بعد ذلك فى كل الاتجاهات وعيونهم مركزة على الأرض بحثاً عن العلامات الدالة على العدو، أو عن آثار جديدة لجماعة من جماعات الغزو، فى حين ينطلق ثلاثة من الرجال الذين يجرى انتقاؤهم من بين أفراد الجماعة، ويروحون يفتشون المنطقة المحيطة بالثقب للتأكد من أن الجو آمن وأن كل شىء على ما يُرام، وأنهم سيفتحون الثقب استعداداً لسُقْيَا الغد. ومعروف أن عزلة ثقب مياه شيسور هى التى تجعل منه مكاناً لا محيص عنه عند كل الغزاة، ولذلك جرت العادة على ردم ثقب الماء بعد التزود بالماء، وذلك من باب تعطيل الغزاة والمطاردين. وهنا نجد الطبيعة تعمل عملها، إذ يتسلل الرمل إلى الثقب ويملؤه بعد يوم أو يومين.

انطلقنا فى اليوم التالى على شكل مجموعات مكونة من ستة إلى ثمانية من الإبل، نظراً لأن الإبل الثلاثين العطشى تستغرق وقتاً طويلاً فى الشرب من دلاء صغيرة مصنوعة من الجلد، فضلاً عن أن الثقب نفسه يكاد يكون عبارة عن قطرات من الماء. طريقنا يمر خلال سهل واسع خالٍ من الأحجار (أرض صالحة للسير) ليصل إلى مرتفع صخرى من فوقه أنقاض واضحة لقلعة بدائية. ويقع تحت الربوة كهف يصل عمقه إلى قرابة خمسين قدماً، وفى الأرضية المنحدرة لهذا الكهف توجد فتحة صغيرة لا تسمح سوى بمرور ذراع بشرية واحدة لتصل إلى الماء الموجود تحت هذه الأرضية. هناك أسطورة تقول إن شخصاً يدعى بوربن تويريج، هو الذى بنى أو شيد قلعة شيسور فى الماضى البعيد، وقد بلغنى أن السهل الصحراوى المحيط بهذه القلعة لا تزال فيه آثار أخاديد أو شقوق شبيهة بالحرث؛ مما يدل على أنه جرى حرث هذا السهل من قبل؛ وإذا ما صح ذلك، فسوف يكون ذلك اكتشافاً مدهشاً، والسبب فى ذلك أن ماء شيسور محدود جداً، كما أن المكان قاحل على نحو يصعب معه على أية جماعة من جماعات الغزو متوسطة الحجم البقاء فيه مدة تزيد على أسبوع واحد. قال واحد من البدو: "لقد سلَّط الله سيفه على هذه الديرة"، قال لى البدوى هذه العبارة وهو يشير إلى الجفاف الذى ضرب هذا المكان مؤخراً^(١).

كانت هيلات الشيسور، تلك الغابة الصغيرة، تقع وراء شيسور وفى اتجاه الشرق، وفى سهل قاحل أيضاً؛ كانت هيلات هذه، قبل ثلاث سنوات فقط مسرحاً لقتال دموى لغزاة متناحرين من بينهم بعض من العرب المرافقين لى فى هذه الرحلة. كانت تلك القصة بالغة الأهمية فى تحاشى الصدام مع طرف من طرفى هذا القتال، إذ كانوا يقيمون على بُعد قرابة مائة ميل فى اتجاه الشرق. كان ذلك الطرف مكوناً من قرابة خمسة وعشرين رجلاً من السَّعَّارين والكُذَّابين الذين سلكوا هذا الطريق بغية الهجوم على مخيم صغير من مخيمات المهارين

(١) كنت فى كل رحلة من الرحلات التى قمت بها إلى الجنوب الشرقى ووسط الجزيرة العربية أستمع إلى هذه القصة نفسها طوال السنوات الست التى أمضيته فى عمان حيث يقسم المواطنون أن المطر لم يسقط، وكان نادراً إبان حيواتهم، يزداد على ذلك أن محصول التمر داخل حدود عُمان، هو نصف ما كان عليه منذ جيل من الزمان، وإن مزارع كثيرة ماتت وانتهت بسبب الجفاف.

كان يقع عند ثقب مياه آنضور. وفى هذا الهجوم قتلوا سبعة من المهارين، مقابل مقتل رجل واحد منهم، لكن هذا القتل كان شيخاً من شيوخهم، ورحلوا ومعهم غنيمة تُقدر بأربعين جملاً. وبعد ذلك بأربعة أيام أو خمسة كانت جماعتى الصغيرة المرهقة قد وصلت إلى آنضور من ناحية الشرق بعد مسير يقدر بقراءة ستمائة ميل؛ وهناك استمعت تلك الجماعة المرهقة إلى رواية تلك الكارثة والهزيمة المخيفة والفرع؛ أذكر جيداً أنى شاركت فى ذلك الحوار والنقاش الذى دار حول عدم صحِّية نيران المخيم التى تُشبُّ أثناء الليل؛ الأمر الذى حال بيننا وبين شب هذه النيران عقب ذلك الحوار والنقاش، على الرغم من شدة البرد القارس.

بلغنى بعد ذلك، أن هذه الجماعة الغازية بصفة خاصة، والتى شكلت لى كابوساً فى شتاء العام ١٩٢٧ / ٢٨ الميلادى، اعترضتها مصادفة جماعة غازية أخرى مكونة من بعض المهارين وبعض الكثارين، الذين كان من بينهم اثنان من المرافقين لى فى هذه الرحلة. فقد أخذنى بُخَيْرٌ إلى الأرض التى دار عليها القتال ومَثَّل لى الهجوم الذى حدث. "هذا هو المكان الذى اشتبكنا معهم فيه؛ وهذا هو المكان الذى كنت أقف فيه أنا شخصياً لقد قصصنا أثرهم طوال النهار، وتوصلنا إلى أنهم غزو عائد، وأن هذا الغزو لابد أن يتوقف هنا فى شيسور، نظراً لعدم وجود أى ثقب من ثقوب المياه فى اتجاه الغرب إلا فى ساناو. هناك، وعند خط الأفق هذا، توقفنا وانتظرنا إلى ما بعد صلاة المغرب، وتركنا إبلنا فى حماية بعض رجالنا، وزحفنا، تحت ستر الظلام، متجهين صوب نيران مخيمهم. كان الليل قد أوشك على انتصافه، وكان السواد الأعظم منهم غارقين فى النوم، لأننا كنا نرى أجسامهم المستلقية على الأرض وأذرعهم الممددة، فى ضوء النار المشبوبة - زحفنا إلى أن أصبحنا على بعد قرابة خمسين خطوة منهم وفتحنا عليهم النار فجأة. وقفزوا واقفين وهم يصيحون فى الظلام، لكنهم كانوا مرتبكين وفى فوضى عارمة، واستلَّ كل واحد منا خنجره وهجمنا عليهم ونصرنا الله عليهم. الشكر لله تعالى واهب كل النعم - قُتِلَ منهم أربعة وعادت الغنيمة التى فازوا بها فى آنضور، إلى أيدينا، وزدنا عليها خمسة من إبلهم، إلى حد أن الكثيرين من الذين هربوا فى جنح الليل لابد وأن يكونوا قد ركبوا اثنين على كل جمل من الجمال".



(مجموعة من رجال الجبال)

واصل واحد من البدو، كان واقفاً بجوار بُخَيْر، "كنت فى اليوم التالى أرى إبلى فى وادى غودون، وظهر لى واحد من أولئك السَّعَّارين، كان مختبئاً طول الليل؛ جاء الرجل وتوسَّل إلىَّ أن أحميه، واستشهدت الله أنه لم يكن مسلحاً بأى نوع من السلاح، وعليه أنقذت حياته".

سألته: "إذا افترضنا أنهم جميعاً لم يقاتلوا" وأنهم جميعاً ألقوا بنادقهم أرضاً، "هل كنت سترحمهم؟".

قال بُخَيْر: "لا" هذا يعد عملاً شائئاً عند العرب، فى زمن الحرب المعلنة".

تقع شيسور على بعد قرابة تسعين ميلاً من الساحل الجنوبى، وعلى ارتفاع ٩٣٥ قدماً فوق مستوى سطح البحر، وعلى مقربة من سفح ذلك السهب الذى يتاخم الرمال- التى لا نبعد عنها حالياً سوى مسير يوم واحد.

عبرنا النجد، تلك الأراضى الجنوبية الحدودية الواسعة من ذلك السهب الواقع بين جروف المحيط والرمال، ويمتد من ناحية الجنوب الغربى إلى أن يصل إلى حدود نجران، كما يمتد أيضاً فى اتجاه الشرق متصلاً بجدة هراسيس. كنت فى رحلة العام الماضى قد استكشفت الحدود الرملية فى اتجاه الشرق لمسافة تصل إلى قرابة مائة ميل، إلى أن وصلت إلى واحة موجشين الشهيرة^(١). وأنا فى هذه الرحلة، فى هذا العام، أتجول متجهاً إلى ناحية الغرب على أمل استكشاف الحافة الجنوبية. لكن قبل أن أستأنف سرد تفاصيل رحلتى، قد يكون من المفيد، التوقف ولو قليلاً كيما أتدبر وأفكر ملياً فى جغرافية السهب الجنوبى الذى يقع إلى الخلف منى.

(١) وادى موجشين، أمير الوديان فى جنوب الجزيرة العربية الشرقى، ولم أصادف له مثيلاً فى أى مكان آخر، هذا الوادى مكون من حزام من أشجار السنط العملاقة (الغاف) التى تشكل غابة يصل طولها إلى قرابة ثلاثين ميلاً (محور شرقى غربى) على الحافة الجنوبية الشرقية للرمال. يظهر عند الطرف الشرقى لهذه الغابة (على ارتفاع قرابة ٤٠٠ قدم) ماء الشرب عند السطح على شكل عين أو عينين. يوجد فى هذا الوادى أيضاً بيارة تَمَر برية كبيرة لا يراها أحد من الناس، وتقع بيارة التمر هذه على ضفتى مجرى مستنقع، وفى اتجاه الشرق توجد بحيرة شبيهة بالفدير ويصل طولها بضعة مئات من الياردات ويقدر عرضها بقرابة خمس عشرة ياردة.



(واحد من أبناء السُّهوب : من بيت الإيمانى)

عندما رجعت إلى خريطتى وجدت أنها توضح فيما بين خط طول ٥١ درجة و ١٢ دقيقة، وخط طول ٥٤ درجة و ٤٠ دقيقة، سلسلة جبلية ساحلية متصلة تُعرف فى بعض أجزائها من الغرب إلى الشرق بالأسماء التالية: فتق - شاغوات، جبال قمر، جبال قارة (القراوين) ثم جبل سمحان. وتهبط نازلة من داخل هذا الجانب من ذلك السهل، سلسلة من مجارى السيول الجافة القديمة التى تكون منظمة على شكل وادٍ واحد، وإن هذا الوادى ربما كان موجوداً منذ أزمان بعيدة ويشكل مصرفاً واحداً لذلك السهب الكبير. هذه المنظومة تتكون من سبعة وديان فرعية تمتد على شكل مسارات شبه متوازية متجهة شمالاً من سلسلة الجبال الساحلية إلى حافة الرمال التى تنضم عندها إلى الوادى الرئيس، وينساب ذلك الوادى الرئيس من هنا مع الرمال فى اتجاه شمالى شرقى عام ليصل إلى نقطة ينحرف عندها هذا الوادى ليختفى، بل ويضيع عند خطى ١٩ درجة و ٢٥ دقيقة، وخط طول ٥٤ درجة و ٥٠ دقيقة وهذه النقطة مُعلّمة ببوابة موجشين Mugshin الوارفة. والوديان السبعة كلها موجودة فى المنطقة المجاورة لهذا الانقسام، على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، وعلى بعد مسافة تُقدر بمسير يومين من الساحل، الأمر الذى يجعل من هذه الوديان السبعة مصادر لبيارات البخور. وهذه الوديان من الشرق إلى الغرب هى: كاتبيت، دوكا، غودون، إيدام، هوجولدن، شهين ثم وادى حات^(١)، كما أن أطوال هذه الوديان السبعة تتناقض، بشكل عام، طبقاً للترتيب السابق، وتتباين مسافات هذه الوديان بين مسير ثمانية أيام فى وادى كاتبيت ومسير أربعة أيام فى وادى حات. والودى الرئيس يطلق الناس عليه هنا ستة أسماء قطاعية: حات، شهين، آتينا، أم الحياة، العراض، وأخيراً موجشين، على

(١) تشكل الوديان الفرعية منظومات مستقلة بحد ذاتها. ومن هنا نجد أن وادى كاتبيت له أفرع هى: أنضور، ضاحيون، إنجودان، الغزال ثم راكبيت الذى يصرف مياه الجزء الشرقى من جبال القراوين والجزء الغربى من سمحان. والحد الشرقى من منظومة الأنضور والذى يبدأ على وجه التقريب من شمال قمة مرياط (الذى اسمه مدون على الخريطة على أنه جبل دوعان، غير معروف للسكان، الذين يطلقون عليه اسم زايروتون). يبدأ وادى دوكا من خط طول صلالة ويصب فيه كل من الحوف، والحيلة، ضوهير، وحالوف على ضفته اليمنى وغارة على ضفته اليسرى. ويبدأ وادى عيدان من خط طول راخيوت، ويصرف ماءه هو وفرعاه الكبيران: دافين وهاربا روت اللذان يبدأان من شمال جاضيب ودامكوت، فى كل سلسلة جبال القمر. وادى شهين هو وادى حات منظومتان قصيرتان عن المنظومات السابقة ويبدأان من الحدود الشرقية والحدود الغربية لوادى فتق - شاغوات.

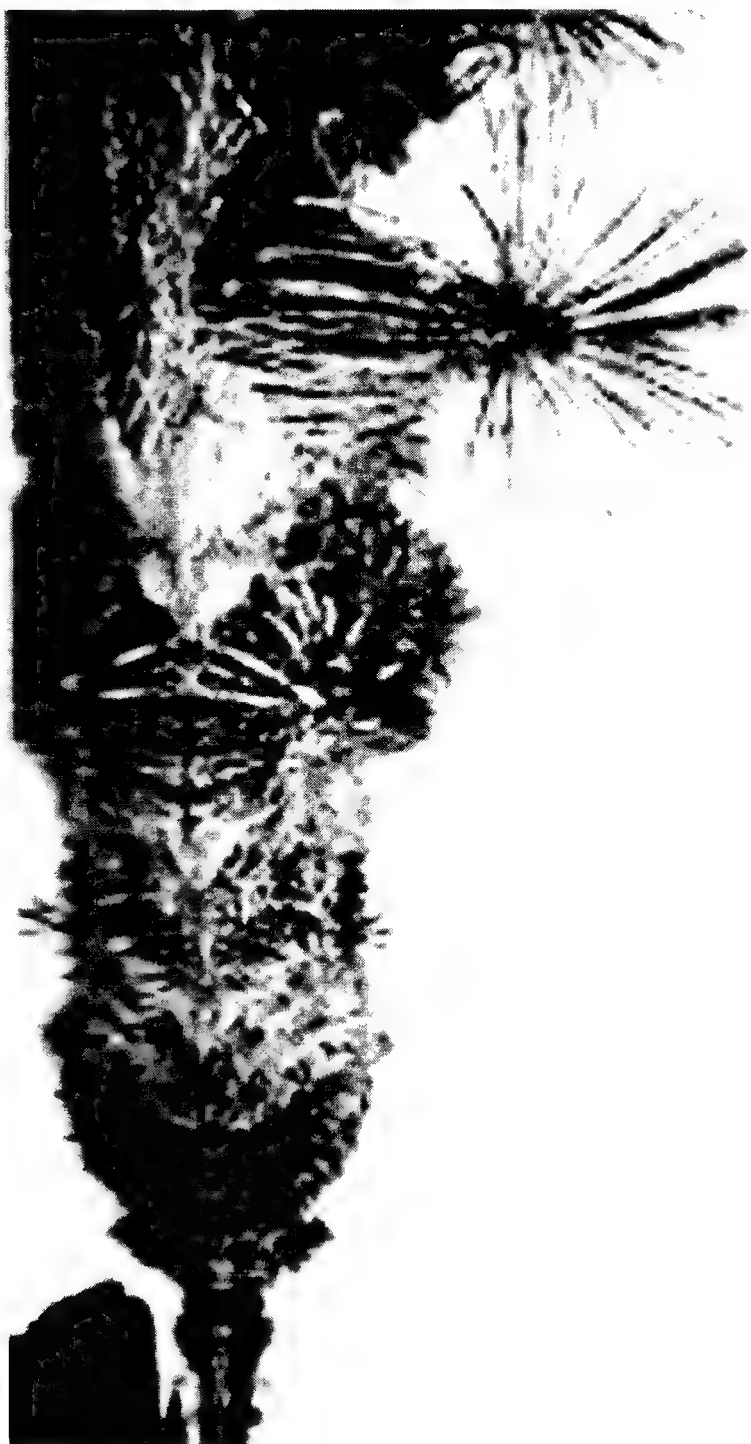
امتداد هذا الوادى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، لكن المنظومة كلها يمكن أن نطلق عليها اسماً واحداً هو أم الحياة Ummal Haito ؛ لأن هذا الاسم ينطوى أيضاً على الدلالة القطاعية المشار إليها .

فى الناحية الشمالية والناحية الغربية من الوادى الرئيس، نجد أن الرمال العظيمة تمتد بصورة متواصلة فى اتجاه الغرب إلى أن تصل إلى حدود كل من الدواسر ونجران. واقع الأمر، أن الحافة الجنوبية للرمال تتداخل مع الوادى الرئيس فى واحة موحشين وفى العراض، وتحتضن هذه الرمال ذلك الوادى الرئيس فى أم الحياة ثم تبتعد عنه مسيرة يوم واحد شمالى شيهين ومسير يومين فى شمالى حات. ثم يتجه الوادى الرئيس فى اتجاه الجنوب الغربى إلى حضرموت، لتصبح المسافة عبارة عن مسيرة يوم واحد، هو الذى يفصل الجبال عن الرمال. وهنا يصبح السهب الداخلى فى الحدود الجنوبية، وكأنه وتد يضيق فى الناحية الغربية، وينحدر انحداراً هيناً ومتدرجاً إلى أن يصل إلى خط طول ٥١ درجة و ٣٠ دقيقة، لكن الشائعات تقول إنه يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك.

نجد فى الناحية الغربية من منظومة أم الحياة أن السُّهوب تتقاطع معه أو تعبره وديان موازية منشؤها فى جبال حضرموت، وتمتد شمالاً لتختفى عند حافة الرمال. وأسماء هذه الوديان، التى تمتد فى اتجاه الغرب بدءاً من حات؛ هى: ميتان، خوات، شُعيط، آرخوت يوربا، ثمورات، الضاحية، ثيوف، راما، إيوات المناهيل، جناب، خضره، حزار، إيوات السعار؛ ثم خوضى.

ثقوب المياه فى هذه المنطقة جد قليلة، وعلى وجه التحديد لا يوجد سوى ثقب مياه سناو فى وادى الضاحية، وثقب مياه ثاموت فى وادى راما، وثقب مياه شاغام فى وادى حزار، وثقب مياه مناوخ فى وادى إيوان: السَّعار، وعليه يمكن القول أن طريق الغزاة فى شرقى وغربى مناوخ مطوق تطويقاً غير مُحْكَم. يوجد فى بعض أماكن المصادر الجبلية للوديان بعض من الماء الجارى، كما هو الحال فى آنصور وحباروت، لكن المسارات المنخفضة عن هذه المصادر كلها جافة جفافاً قاسياً. هذه المجارى المنخفضة تشكيلها واحد. فهى عبارة عن مضائق أو وديان عميقة ومنحدرة بين جبلين، قيعانها من الحصى المجلوب من مساراتها أو مجاريها العليا؛ ومن هنا تبدأ هذه المضائق فى الاتساع، وتزداد ضحالتها، وتصطبغ بالصبغة

الرملية وهى تتجه شمالاً، إلى أن تفقد الطابع المميز لها فى السهل الذى يقترب من الرمال، ولا تظهر بعد ذلك إلا على شكل صف من الشجيرات القصيرة الكثيرة. وهنا يمكن القول: إن هذه الوديان هى بمثابة أوردة الحياة لذلك السهب، الذى هو مسار التحرك البدوى، موطن الحيوانات، بفعل وجود الحياة النباتية الطفيفة- والتى لا تزدهر إلا فى مجارى هذه الوديان (راجع الملحق رقم ٤). هذا السهب، فى بعض مناطقه الأخرى، عبارة عن أرض قفر قاحلة، ومن هنا فإن هذه الأراضى الحدودية لا يمكن أن تعول سوى البدو المترحلين. ولذلك نجد أن جفاف موسم الصيف هو الذى يدفع هؤلاء البدو إلى العودة ثانية إلى المسارات الجبلية الموجودة حول ثقبوب المياه الدائمة - آنصور، حانون، شوبريما، عيون، وصاروت (وكل هذه الثقبوب تقع على خط طول أم الحياة). لكن هذه القبائل أو البدو المترحلين سرعان ما يفكرون فى ترك هذا المكان مباشرة بعد أمطار الصيف؛ وهؤلاء البدو المترحلين قد يبقون شهراً أو شهرين فى أماكن محببة إليهم، وتحركات هؤلاء البدو غالباً ما تكون بتوجيه من بانى نارهم، وإن شئت فقل: إن حركتهم تكون فى اتجاه البرق الذى يرونه فى السماء. حياة هؤلاء البدو هى حياة جوع وعطش، أما هؤلاء البدو الذين يسكنون المناطق الداخلية فى ظفار فهم يعودون إلى راحتهم المعهودة المستقرة فى بستان البخور، وبخاصة فى فصل الصيف، الذى تعد عطاياه السخية الوسيلة المطلوبة للحصول على بندقية، ذخيرة، ثياب، بُنْ، وفى بعض الأحيان الأرز. لكن البدوى الحقيقى يحتقر كل شىء عدا وجوده المتكشف وحياته المتكشفة. هؤلاء البدو الحقيقيون يعيشون بصفة أساسية على حليب الإبل وينظرون إلى الحياة نظرة رخيصة، الغزو عند هؤلاء البدو المترحلين هو بمثابة توابل الحياة، ولم يحدث مطلقاً أن رجلاً واحداً من أولئك الذين رافقونى فى ترحالى، لم يشارك فى غزو من الغزوات التى دارت فى حضرموت، ولم يحدث مطلقاً أن نجا أحد منهم من الغزو فى الأراضى التى يرعى فيها ماشيته وإبله، كما أن البعض من هؤلاء المرافقين كانوا يحملون شامات الشرف الناجمة عن طلق نارى أو ضربة خنجر، من هنا يمكن القول: إن السلاح، والذخيرة وكذلك صحة الإبل تمثل ضرورات الحياة عند هؤلاء البدو؛ وفى الأماكن التى يُعد الثأر فيها ميراً أصيلاً يفصل القبائل بعضها عن البعض، نجد



(بيازة نخيل التمر البرى فى واحة موجشين)

أن القوة هى الحق، وأن الإنسان يمشى دوماً وهو خائف على حياته وعلى ممتلكاته.

القبائل المهمة التى تحتل هذه المنطقة الحدودية الجنوبية، هى على النحو التالى من الشرق إلى الغرب، بيت الكثارين، المهارين، المناهيل، العوامير السَّعاريين، النهارين وكذلك الكدابين^(١).

والمهارين هم أكبر هذه القبائل، ويتخطى عدد هذه القبيلة آلافاً عديدة من البشر، وقبيلة النهارين هى وقبيلة الكدابين هما أصغر هذه القبائل، إذ يصل عدد كل منهما قرابة مائة أو مائتى عضو.

(١) التوزع القبلى على النحو التالى: منظومة أم الحياة هى الموطن الرئيس لقبيلتى المهارين وبيت الكثارين؛ تمتد هاتان القبيلتان أيضاً ناحية الغرب. ومن الناحية الإسمية نجد أن الامتدادات المنبسطة لكل من وادى دوكا، وغدون، إيدام وكذلك وادى حات كلها تنتمى إلى بيت الكثارين، وذلك على الرغم من حرية المهارين فى استعمال هذه الأماكن، ونجد أن المصادر العليا للوديان (ماعدا وادى غودون) تكاد تكون كلها فى أيدي المهارين، وبخاصة حباروت، الغزال، إنجدوان وضاهبيون، فضلاً عن الوديان المنفردة الواقعة إلى الغرب مباشرة. ويتبعثر فيما بين قبيلتى المهارين والكثارين مجموعة صغيرة من قبائل الحدارة، وهم بقايا أناس من غير العرب. وعليه وفى الناحية الغربية من وادى حات حيث المسارات السفلية توجد قبيلة البلاحيف، وهى من القبائل التى لا يمكن وصفها ولا تدين بالولاء لأى طرف من الأطراف، سوى قبيلة المهارين من حيث اللغة فقط. ومن السمات المميزة لهؤلاء البلاحيف إنهم يعملون سكيناً يعلقونها فى أحزمتهم بدلا من الخنجر، وهم لا يُغزَّون ولا يُغزَّون، وهم مثل صلوب نجد يقبلهم الجميع على أنهم مرافقون. وهم خدم أيضاً بضريح الجوهارى (أم الطباخ) الذى نجح المهارين الذين يفدون إلى ضريحه ويقدمون له القرابين. وفى الطرف الشرقى لمنظومة أم الحياة يعد وادى الأنصور من الناحية الإسمية ملكاً للبتوهاارين (بيت بوهور)؛ وذلك على الرغم من وجود المهارين فى هذه المنطقة. عدد البتوهاارين، أخذ الآن فى التناقص، وهى قبيلة متدينة، والسواد الأعظم منهم من الصيادين، ولهم لغة خاصة بهم، ويقال أنهم كانوا يملكون السهب الشرقى بكامله من وادى غودون (الملوك للكثارين) إلى وادى قادون (٥) (الملوك للحراسيس)، فى حين يقال أن السهب الغربى مملوك لابن ضربوط الذى يعد خرافياً الآن. هناك عناصر من قبيلة أخرى صغيرة هى قبيلة العفار، تعيش فى صاروت مع المهارين. ومع قبيلة صغيرة أيضاً هى قبيلة بيت الشيخ (بيت إستيت وأحياناً إنساخت)، ويقال أن هذه القبيلة هى والشهارين يحتلون وادى إنجدوان على مقربة من ثقب الماء فى حانون. وفى الناحية الغربية من منظومة أم الحياة، تمتد قبيلة المهارين إلى وادى راما، ومن هنا تمتد قبيلة المناهيل إلى وادى الجوف؛ وتلى ذلك العوامير الذين يمتدون إلى وادى خضرة، ومن هذه المنطقة يبدأ موطن السعاريين.

الحياة فى السَّهْب بدائية إلى أبعد الحدود؛ وأنا شخصياً لاحظت بالفعل أن الجفاف والخوف من الغزو هما اللذان يعيدان هذه القبائل إلى مياهاها فى الجبال. لكنهم فى حقيقة الأمر، عاشقون لحياتهم البدوية المترحلة، وهم عندما تسقط الأمطار يندفعون هائمين مع قطعانهم فى الصحراء، التى لهم معها ذكريات ويطلقون اسماً على كل تجويف صخرى صغير قادر على الاحتفاظ بالماء. يقضى هؤلاء البدو الرَّحْل فترة من الزمن فى الصحراء إلى أن يبدأ الجفاف تهديده لهم، ويحركهم الجوع. فى مثل هذه الظروف لا يكفى الماء لإعاشة حصان أو حتى كلب. هؤلاء البدو المترحلون لا يعرفون الخيام أو المنازل. وهم عندما يكونون فى السهوب يتخذون من ظلال أشجار السنط أماكن لهم، وعندما يكونون فى الجبال يتخذون من كهوفها بيوتاً لهم. هؤلاء البشر أميون تماماً. قليل منهم هم الذين يعرفون شيئاً من القرآن، على الرغم من حماسهم للصلاة. وهم يوقرون الأضرحة، ومذهبهم هو المذهب الشافعى. يزداد على ذلك أن هؤلاء الناس لا يعرفون الكحول، لكنهم يُعلون من قيمة التبغ.

وتسود هنا الممارسات العربية الخاصة بالتعدد والطلاق المُيسَّر، ومع ذلك يندر على البدوى أن تكون له أكثر من زوجة، أو اثنتين فى أغلب الأحيان، ومع ذلك فإن البدوى يود أن تكون لديه جعبة مليئة بالأبناء، لأن ذلك يعد نعمة من نعم الله تعالى، والمرأة هنا هى التى ترعى القطعان^(١)، التى يُسمح لها بحلبها.

يجرى، كما هو الحال فى سائر قبائل الجزيرة العربية، تسوية المنازعات داخل القبيلة، عن طريق حكم الحوز، الذى هو كود من العقوبات المحلية، التى لا علاقة

(١) تسود بين الحراسيس والمهارين عادة غريبة- إذ إنهم لا يحلبون أغنامهم مطلقاً فى وعاء بارد. ذلك أنه يتحتم فى البداية تقديم حجر ساخن. وتفسير ذلك يقول إن تدفئة ضروع الأغنام يسهل عملية الحلب، وهذا التفسير ليس مُرضياً أو مقنعاً تماماً، لأن هؤلاء البدو يقصرون هذه العملية على الأغنام فقط وليس على الإبل. وهذه هى راعية من بيت الشيخ، كنت قد اشتريت منها خروفاً فى وادى خنيكور، لم توافق على ذبح ذلك الخروف فى ضوء الشمس لأنها تخشى أن يجر ذلك عليها وعلى أسرتها سوء الحظ، وذلك أيضاً كان معتقداً عاماً سائداً بين هؤلاء البشر- حكى لى حارس من المرافقين أن الذبح والحلب يجب ألا يتما فى ضوء الشمس، وإلى يومنا هذا هناك سلالتان من الأغنام: بنات المورقال وبنات المقطوف، وإن البدو على اختلاف مشاربهم لا يمكن أن يذبخوا هاتين السلالتين إلا فى الظلام.

لها بالشرع. هؤلاء البدو يرون أن عمليات السرقة الطفيفة أو الضئيلة، مسائل غير أخلاقية؛ لكنهم ينظرون إلى عمليات السرقة باستعمال العنف باعتبارها من أعمال الرجولة، وينظرون أيضاً إلى الغزو، المصحوب بالقتل والسلب والنهب باعتباره عملاً مُشرِّفاً شأنه شأن الشجاعة العسكرية فى أوروبا.

البدو هنا يعالجون الأمراض الجسمانية بأعشاب محددة (راجع الملحق رقم ٤) وبالكى بالنار، ويتعاونيد طرد الأرواح، وبالعصارات المعوية للحيوانات التى يذبحونها فى عملية الصيد، وببول النياق الصغيرة. والكى بالنار يتصدر العلاجات جميعها، وقلة قليلة من هؤلاء الذين يسكنون هذه السهوب هم الذين لا يحملون شامة من نوع أو آخر من شامات الكى بالنار، وقد شاهدت بنفسى عملية من هذه العمليات بدت لى وكأنها تنطوى على مغزى سحرى. حدث أن تعطلت جماعتى نظراً لمرض واحد من أعضائها؛ كان الرجل يعانى توقف الأمعاء أياماً عدة، وإن هذا المرض لم يستجب لكل الأدوية الطاردة التى أعطيته إياها. وهنا لجأ رفاهه إلى ذلك الذى يطلقون عليه اسم الغيورة. قاموا بتسخين إبرة ضرب النار الموجودة فى ترياس البندقية، إلى درجة الاحمرار، ثم قاموا بعد ذلك بكى ذلك المريض فى سبعة أماكن محددة فى جسم الرجل: الكعب الأيسر، الكعب الأيمن، خلف الأذن اليمنى، خلف الأذن اليسرى، وفى وسط جبهته، فى منطقة اتصال الجبهة بالشعر، وأخيراً فوق سُرَّة بطنه مباشرة. وتم الشفاء فى الحال، واستأنفنا مسيرتنا فى صبيحة اليوم التالى.

فيما يتعلق بعين الحسود، شاهدت عدة مرات طقساً يطلقون عليه اسم حُمرة الرعابة^(١). ويعدونه علاجاً فاعلاً للحمى الرجعية التى يعانون منها، كما يستعملون هذا الطقس أيضاً فى علاج لدغ الثعابين. وفى هذا الطقس يوضع المريض وسط دائرة من أصدقائه الجالسين وهو كاشف عن العضو المصاب. ثم يقوم هؤلاء الأصدقاء فى البداية بالانحناء فوق هذا العضو المصاب وهم ينشدون صيغة من اثنتين؛ ويبدأ الإنشاد بطيئاً فى البداية، ثم يزداد حدة وحماساً وسرعة

(١) أفراد قبيلة الكثارين يستعملون صيغة باللغة الشهرينية السائدة بين من يعيشون فى الجبال، لكننى لم أنته بعد من ترجمة هذه الصيغة.

وعلوًا فى الصوت بصورة متدرجة. ويقوم رئيس الجلسة بإنشاد الأبيات بصوت عامر بالنشاط والحيوية وهنا يقوم باقى أفراد الجماعات بترديد القرار، وغالبًا ما يكون "حمرة الرعابة". ثم يقوم أحدهم بين الحين والآخر بالانحناء برأسه، واضعًا شفتيه على بطن المصاب وغالبًا ما يكون ذلك فوق مكان الكبد، كما لو كان يملأ فمه باللحم ثم يترك هذا اللحم ثانية وهو يرفع رأسه إلى الأعلى؛ ويقوم الآخرون بالنباح بين الحين والآخر، ثم يتفلون على جسم المصاب، إلى أن يبلغ الأمر ذروته. وهنا يجرى إطلاق طلقة من إحدى البنادق إيذانًا بانتهاء الطقس، لكن هذا الطقس لا يُستعمل إلا فى طرد "عين الحسود".

شاهدت ذات مرة طقسًا مختلفًا من طقوس "حمرة الرعابة"؛ لكن ذلك الطقس فشل فى تحقيق النتائج المتبغاة. وهذا الطقس نوع من التنجيم والاسترحام يطلقون عليه اسم حبيل habil ، أى الحبل، وربما كانت له علاقة بالإشارة القرآنية بالآية التى تتحدث عن "شر النفاثات فى العُقد". يقف من يقوم بهذا الطقس، وفى يده حبل، على بعد قرابة ثلاث خطوات من المريض. ويجرى استدعاء طرف ثالث كيما يمسك بطرف الحبل- ويمسك جزءًا محددًا من هذا الحبل، بين إبهامه وسبابته، ويقوم ممارس الطقس بقياس الجزء الممدد من الحبل بواسطة ذراعه الخالية، مستخدمًا فى ذلك طول الساعد فى القياس، كما يستعمل أيضًا الشبر وعرض الإصبع فى هذا القياس. ويقوم الممارس بتكرار هذه العملية ثلاث مرات، وقبل كل مرة، كان يتوقف برهة ويحنى رأسه فوق الحبل، ثم يهز رأسه، مُحدِّثًا بشفتيه نوعًا من الغمغمة العجيبة، ويتناول حفنة من الرمل ويروح ينثرها فوق الحبل وتحت الحبل. وفى الختام ينظر ذلك الممارس إلى مريضة ويعطيه الوصفة التالية: "عند غروب الشمس خذ معك الكثير من التمر والكثير من الزبد ثم قم بإلقاء ذلك كله على الرمل".

إلى هنا نتوقف عن الكلام عن الإنسان وأحواله.

الحياة الحيوانية محدودة فى السهب الجنوبي. وهناك نقطة مهمة وهى أن البيئة بحكم إنها تكاد تكون خالية من الأمطار، تحتّم أن تكون الحيوانات الموجودة هنا من النوع الذى يمكن أن يستغنى عن الماء ويكتفى بالרטوبة الموجودة فى العشب، أو تلك التى تتجمع أو يمكن الحصول عليها من الصخور بفعل الندى؛

ومن هنا يمكن القول أن هذه الحيوانات تنتمى إلى المجموعة القطبية الشمالية القديمة.

كان الوعل من بين الثدييات التى اصطدتها رميةً بالرصاص - وهو من الأنواع النادرة؛ وكان من بينها أيضاً الغزال والثعلب. رأيت آثار أقدام الذئب، والقط البرى، وكذلك الغُرَيْر أو الزبِزب، لكنى لم أحصل على الأنواع المختلفة لهذه الحيوانات من هذا السَّهْب. والناس يقولون هنا إن الريم، أو الغزال شديد البياض انقرض من هذا المكان، على الرغم من حصولى على قرنين من قرون هذا النوع من الغزال؛ وقرن هذا الغزال شبيه بالقيثارة، وفيه خُصْلَة مميزة من الشعر الأبيض لا تزال ملتصقة به؛ واقع الأمر أن هذا الحيوان، وعلى العكس من الغزال الأحمر، ينتمى إلى الرمال أكثر منها إلى السهوب. كان لون القنفدين اللذين أمسكت بهما مثل لون الرمل، وكانا صغيرى الحجم بالمقارنة مع النوع الأسود الأكبر الموجود فى عمان. الناس هنا يقولون إن هذا النوع من القنفذ يهاجم الثعابين ويقتلها، لكنه يؤلَّى الأدبار خوفاً عندما يرى النسر، وإن هذا النوع من القنفذ يطوى نفسه متكوراً عندما يرى النسر يقترب منه، متخلياً عن حمايته الطبيعية، تاركاً نفسه فريسة سائغة لذلك النسر.

وفيما يتعلق بالطير، فأنا لم أرَ النسر فى السهوب، وذلك على الرغم من أنى كنت أتوقع أن أراه فى هذه المناطق، لكنى صادفت جثة لنسر كبير أسود اللون. وجود النسر أو العُقاب فى السماء يعد إشارة إلى الاقتراب من مخيم من المخيمات. يشيع الغراب الأسود فى هذه المناطق، وقد اصطدت بنيران بندقيتى عينة مهمة من هذه الغربان إذ كان عنقه مطوفاً بريش أبيض اللون. طلب منى واحد من البدو قلب غراب أسود اللون، عقد العزم على أكل ذلك القلب نيئاً بسبب فضيلة ينطوى عليها قلب الغراب الأسود: منقار الغراب الأسود يستعمله هؤلاء البدو كحلاً لعيونهم وبخاصة العرب المستقرون. هناك طائر لم أره وإنما سمعته ليلة بعد أخرى وأنا فى موحشين، هو البومة. قام بعض المرافقين لى باصطياد النعام فى هذه السهوب فى السنوات الماضية، لكن النعام فى حكم المنقرض الآن فى هذه الأماكن (اللهم باستثناء قلة قليلة من هذا النعام فى موطن السعارين من الناحية الغربية)، هذا بالرغم من عثورى على بعض من قشور

بيض النعام. ويرجع انقراض النعام فى السهوب الجنوبية إلى مطاردة البدو المسلحين له بالبنادق فى هذه المناطق، وفيما يتعلق بالطيور صغيرة الحجم، فقد اصطدت عصفوراً دُورياً، وهو نوع نادر تماماً ويعد عينة بالغة الأهمية، واصطدت أيضاً بلبلاً، كما اصطدت قطعاً سنغالياً، وأيضاً طائر السُّمنة طويل الأرجل بُنى اللون، وكلها من المخلوقات التى توقعت العثور عليها، واصطدت أيضاً طائر الحميراء الكشميرى، وطائر الدُّعرة طويل الذيل أبيض اللون، وطائر أبو بليق الصحراوى، وكل هذه الطيور هى من الطيور المهاجرة، إما لقضاء فصل الشتاء فى أفريقيا، أو تكون مجرد طيور زائرة للطقس البارد فى حضرموت. جمعت أيضاً فراشات، وزناير، ونملأ، وعناكب، والملحق رقم ٢ عبارة عن قائمة بكل هذه المخلوقات.

جاء واحد من البدو ممسكاً فى يده عقرباً كبيراً، ويرفعه إلى الأعلى، بلا ضرر، إذ كان يمسكه بالقرب من ذيله من تحت الجزء الذى يستعمله العقرب فى اللدغ. وفيما يتعلق بالزواحف كانت هناك ثلاثة أنواع من الثعابين- من بينها الحية المقرنة- وأعدادها جد قليلة إذا ما قارناها بأعداد السحالي، التى شاهدت منها عشرة أنواع مختلفة. وقد اشتملت هذه الزواحف على ثلاثة أنواع جديدة، كما اشتملت أيضاً على ثلاثة أنواع كبيرة الحجم يأكل البدو هنا لحمها - بل إنهم يعدونها من أشهى الأطباق، وأنها من الناحية الغذائية أفيد بكثير من أكل لحوم الثدييات التى يصطادونها- وقد شكّل اصطياد واحدة من هذه السحالي الكبيرة متعة وإثارة كبير لنا. فقد شاهدت تلك السحلية وهى تختفى فى جُحرها، وفى الحال قام ثلاثة من البدو بمطاردة هذه السحلية بأن راحوا يهدمون سقف هذا الحجر باستعمال عصيهم، وفجأة بدأ طرف ذيل السحلية فى الظهور واستطاع واحد من الذين يحفرون الإمساك بذلك الذيل بين سبابتها وإبهامها، وعلى الرغم من تحذير رفاقه له بالاحتياط مخافة أن يكون ثعباناً، فقد استمر فى الإمساك بالذيل فى الوقت الذى واصل رفاقه عملية الحفر. وبعد أن تمكن البدوى من إحكام إمساكه بالذيل، راح يسحب السحلية وهو مُنحٍ على الحجر، وشدها شدة عيفة أخرجها على أثرها من الجحر، وأمسك بها فى الهواء ورأسها مُتدلاً إلى الأسفل، وكانت عيناها تتحركان حركة وحشية وفكاًها مفتوحين من

باب التهديد والوعيد، راح البدوى يجعل يده الأخرى تتسلل إلى الأسفل فى اتجاه ظهر السحلية وأمسك بها من عنقها من الخلف ورفعها إلى الأعلى، لكن السحلية وجدت ذيلها حرّاً، فراحت تضرب به وأصابت ضربتها واحداً من البدو فى ركبتيه، وأسفرت تلك الضربة عن نزف فى ركبة البدوى. وجاءنى ذلك البدوى يطلب منى دواء لتلك الضربة، وشخّصت أنا بنفسى شكواه تشخيصاً جيداً، وأعطيته دولاراً ويذهب الرجل إلى حال سبيله بعد ذلك وقد شُفى تماماً من تلك الضربة.

وهنا زاحفة أخرى من هذه الزواحف، لكنها لا تؤكل، والناس هنا يسمونها شويرة الشمس، لأنها تجد متعة كبيرة فى الجلوس على الارتفاعات الوامضة، مواجهة للشمس الاستوائية، رافعة رأسها فى مواجهتها- هذه الزاحفة مخلوق كبير الحجم له ذيل أحمر اللون وهى ناعمة الملمس وتشبه الفأر، ولها حوصلة زرقاء اللون تحت ذقنها، وهذا اللون يتحول إلى لون فضى عندما تموت هذه الزاحفة. هذا المخلوق، دوناً عن سائر مخلوقات الحياة فى السهوب، هو الذى يحتقر مسألة البحث عن ملجأ له من حرارة الشمس.

الفصل الثانى عشر

السير على امتداد الحافة الجنوبية للرمال

ودعنا غابة متوجتيج Mutugtaig الصغيرة الواقعة فى مجرى وادى غودون،
والتي أمضينا فيها يومين فى نَيْل قسط من الراحة ورعى إبلنا، ثم سَقَّيْها من
ثقب الماء فى شيسور المجاورة لنا. وتحت سماء شرقية ذات اللون القرمزى
المشوب باللون الذهبى أعطينا ظهورنا لتلك الغابة الصغيرة، فى صبيحة يوم من
أيام شهر ديسمبر البارد، وواصلنا مسيرنا فى السهل- تلك البرية التى أعادت
إلى ذهنى ذكرى أرض النهرين. وبعد تحركنا بساعة واحدة ليس إلا، بدأ رفاقى
يصيحون منفعلين وهم يقولون: "الرَّام! الرَّام!" وهم يلوحون بعكاكيزهم أثناء هذا
الصياح، فى اتجاه مقدمتنا من الناحية اليمنى، حيث ظهر عن بعد شريط أصفر
من ضوء الشمس، على حدود خط الأفق؛ وهنا رحت أطيل النظر فى شغف، إلى
ذلك المتراس الجنوبى من الرمال التى أبتغيها.

كان يمتد بيننا وبين الرمال سهل موحش ليس فيه من النَّبُوتِ شىء سوى طبقة
من الصخور البارزة على سطح الأرض، التى كانت تشكل سلاسل صخرية
منخفضة؛ هى: ضيمِ حِمْلِه Himal، ثويريب، لَحَاجِه Lahaga، كِلبة قارون، وهذه
كلها أماكن يعرفها العرب حق المعرفة، ذلك أن الماء يتجمع فى هذه الأماكن بعد
المطر.

كانت لا تزال أمامنا مسيرات تقدر بقراءة مائة ميل ومحفوظة بأخطار غير
محسوبة. ذلك أن حالة الحرب القائمة بين القبيلة التى أترحل بصحبتها
وجيرانهم الأقوياء، هى التى شددت جداً من هذه المرحلة من مرحلة الرحلة التى
أقوم بها. لقد كثرت (وسوف تكثر) هذه الصراعات الدموية على هذا الطريق

الذى يمتد على طول أراضى الحدود الجنوبية، على الرغم من كونها أرضاً محايدة خالية من الماء، ومع ذلك فهي بمثابة الطريق الأمثل بين ثقوب المياه التى لا يستعملها ويحكم الضرورة أولئك الغزاة الذين جبلوا على القتل والسلب والنهب. هذا يعنى أن كل الجماعات الغازية التى التقيناها أو صادفناها كانت تشكل عدواً محتملاً. وقد درجت الجماعات الأقوى أو الأكثر احتراماً على الإعلان عن نفسها بدفعةٍ من نيران البنادق، وذلك على سبيل مقدمة للحرب من ناحية، أو الهروب من الناحية الأخرى. كانت جماعتى التى خدعها الكلام، تبدو وتتصرف كما لو كانت على أحرّ من الجمر، وعندما كانت ناقتى تحملنى إلى مسافة أبعد من مقدمة الجماعة، أو عندما كانت تتأخر عن الركب، كان أحدهم يُعجل بالمجئ إلى جانبى ليذكّرنى أننا فى منطقة خطيرة؛ ومع ذلك، وعندما كنا نخيم لم تكن مواقع الجماعة بعيدة عني، حتى يمكن لى تبين الطريقة المطلوبة لمواجهة أى هجوم محتمل أو الهرب من هجوم محقق. الصحراء هنا تقوم على فلسفة حتمية وقوع الأحداث. "توكل على الله"، "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"، "الحمد لله رب العالمين" - هذه العبارات والتعبيرات تتردد دوماً على شفاة البدو، وهى تعنى مواجهة الموت أو العدو أو توقعهما. الرضا عن المصير أمر مريح؛ والعرب يعدون مذهب حرية الإرادة نوعاً من الهرطقة. والإنسان إذا لم تسخر له دابته بمشيئة الله، لا يمكن أن يقتل سيده، ويفر هارباً على ظهر دابته. والبدو يعدون الحرب شراً، ويقولون إن الثأر ليس من الدين، ويرون أن اتباع الدين أمر مستحيل.

نرى أمامنا ذلك الكثيب الرملى أبيض اللون كبير الحجم على نحو يسترعى الانتباه، والذى يطلقون عليه اسم بن جولى، ويوضح العلاقة التى يتغير عندها اسم منظومة أم الحياة، التى تشكل منظومة الصرف الرئيسة فى هذه السهوب، إلى آتينا Atina. وفى اتجاه الشمال بدأت تظهر لنا من جديد وعن بعد، الرمال العظيمة، على شكل جدار شاحب ومن خلفها سلاسل جبلية وردية اللون. ومن أمام هذه السلاسل، تمتد منظومة أم الحياة على شكل خط أخضر. وعندما اقتربنا أكثر من الرمال وجدناها رمال الوادى وقد تجمعت على شكل رُبى شبيهة بأسقف جمع هائل من المساجد بقبابها المؤلفة. يزداد على ذلك أن أشجار الأثل

الكثيفة بدت وكأنها تستثير شهية إبلنا الصائمة، هذه الحيوانات المسكينة التي كانت تمشي متثاقلة عبر السهل، بدأت تركض فرحاً وشوقاً إلى ذلك الغذاء البسيط الموجود أمامها.

أُم الحياة اسم ثمين عند ساكني السهوب، وذلك على الرغم من أن عدم سقوط المطر لمدة عامين أو ثلاثة، وهذا هو ما يحدث في بعض الأحيان، يصيب الوادي بالجوع، والجذب والتصحر. ومع ذلك، فإن أقل القليل من ماء المطر، يعجل بتحويل هذا الوادي إلى حياة وخصوبة- وذلك على الرغم من أن البركة التي نراها الآن، ناتجة عن الأمطار الغزيرة المعتادة التي خبرتها ومررت بتجربتها في مسيراتي الشرقية في العام الماضي.

لازلت أذكر جيداً كيف جاءني أعضاء جماعتي وراحوا يسترعون انتباهي إلى العلاقات التي لم تَعُدَّ عليها عيناى، وتدل على احتمال حدوث زخة من زخات المطر، هنا في هذا المكان، يدل السطح الذي فيه حفر عميقة وجوانب عمودية شبيهة برؤوس الفيلة^(١) بحكم وجود جذور بعض الأشجار، على مسار سيل قديم اجتاحت هذه المنطقة وسار في هذا المسار متجهاً إلى البحر! العجيب أن هؤلاء الأعضاء كانوا يتحدثون عن المطر حديثاً مفعماً بالفرح والمرح!

في تلك الليلة كانت السحب الثقيلة في سباق بعضها مع البعض في اتجاه الشمال، وكان البرق المتشعب يضيء السماوات المظلمة، في الوقت الذي كنت أنا ورفاقي ومعنا إبلنا، نبحث عن ملجأ نأوى إليه اتقاء لشر العاصفة الرملية التي كانت تعوى من خلفنا، وبخاصة فيما وراء الرُّبى الصلبة التي نمت حول أدغال السليم Selem. كان كل أعضاء الجماعة سعداء، لأن المطر كان على وشك السقوط، وإن المطر عند البدوى هو بمثابة الذهب عند من ينقبون بحثاً عنه؛ ورحب أعضاء الجماعة باستقبال الصباح بالأناشيد التي كانوا ينشدونها أثناء المسير، يزداد على ذلك، أن جَمَجَمَة الرعد منخفضة الصوت كانت شبيهة بالموسيقى في آذان هؤلاء البدو، ذلك أن الابتلال بماء المطر يعد بركة من البركات. وبينما كنا نواصل المسير كانت السماء تزداد ظلمة على ظلمتها، وكان

(١) يشبه تشكيل هذه البروزات مقدمات رؤوس الفيلة.

البرق يقترب أكثر وأكثر، كما كان صوت الرعد يزداد عنفاً؛ كانت إبلنا تشاركنا هذه الإثارة وهذا الانفعال، إذ كانت ترفع أنوفها المملة إلى أعلى وترُوح تتشمم الهواء، الأمر الذى كان يسعد أصحاب هذه الإبل. قسّمنا أنفسنا إلى ثلاث جماعات وانتشرت هذه الجماعات الثلاث على شكل مروحة، ورحنا نستطلع السهل بحثاً عن برك المطر، وجاء ذلك على العكس من تقديري أنا، لأنى أحسست أن هذه البرك لن تكون كافية، ولذلك كنت أفضل لو أننا واصلنا مسيرنا بغية الوصول إلى ثقب الماء التالى الذى نعرف مكانه بصورة مؤكدة. سمعنا بعد مضى قرابة عشرين دقيقة صوت طلقة من طلقات البنادق وهى تدوى من حولنا. جرت العادة أن يُفسّر مثل هذا الوضع على أنه إشارة إلى وعد بالحصول على لحم الغزال فى وجبه العشاء. قال بُخَيْرٌ متعجباً: "إنه الماء! لقد عثر العرب (درج البدو عندما يتحدثون أن يشيروا إلى أنفسهم باستعمال المفرد الغائب فى صيغة الجمع) على الماء".

قال أحدهم فَرِحاً: "هذا صحيح، لقد دُرنا حول أنفسنا ثم واصلنا مسيرنا فى ذلك الاتجاه، شعرت فى وقت من الأوقات أن الناقة التى كنت أركبها، كانت تقترب من حافة الطريق، ولم يخطر على بالى أنها كانت تشم رائحة الماء، لكنى كنت أفترض أن هذه الناقة ربما كانت تبحث عن أو قلقة على شخص من جماعة أخرى، وذلك من منطلق أن الإبل التى تُربى بعضها مع البعض، سواء أكانت من جنس واحد أم من أجناس مختلفة، تشعر بالقلق عندما تنفصل عن باقى المجموعة التى تربت معها".

سألته من باب الاختبار، لأننا كنا قد مضى علينا بالفعل ست سنوات ونحن راكبون دوابنا، ويقال إن المكان الذى سنتوقف فيه لا يبعد عنا سوى مسير ثلاث ساعات فقط: "هل أنت متأكد أن الماء هو السبب الرئيس؟".

أجابنى بُخَيْرٌ قائلاً: "اسكت" هذه الكلمة فى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية، تعنى فعل أمر يطلب ممن يصدر إليه "السكوت عن الكلام"؛ لكن هذه الكلمة هنا عبارة عن تعبير مسكوك بمعنى "بلا شك"، وفى الحال اعتلينا مكاناً مرتفعاً فى السهل لنرى جماعتنا فى الأسفل فوق أجزاء حجرية بارزة من الأرض ومعهم الإبل وقد مدت أعناقها الطويلة نحو الأسفل، فى حين راح أفراد الجماعة فى احتياج

شديد، يجرفون حفناً من الماء ويضعونها فى قراهم. وسرعان ما جعلنى عطشى أجتو على يدى وركبتى إلى جانبهم، وشتاى العطشاوان تلامسان الأطباق الأرضية الصخرية؛ كان مذاق قطرات المطر المجمعة حلوًا، وبخاصة بعد ماء المسيرة، والذى تلوّن بلون الرمل، وإن شئت فقل اللون الأخضر لوجود الطحالب فيه، وأصبح لها طعم اللحم المتعفن، بسبب تخضُّضها يوماً بعد يوم داخل القراب المصنوعة من جلود الماعز التى جرى "دبغها" بطريقة بدوية فجّة. فى كثير من المرّات كنت أفضل البقاء عطشان، على الرغم من أنى أعلم أن الماء صحى تماماً، يُضاف إلى ذلك أنى لم أعانِ مطلقاً أى شكل من أشكال الآثار المرضية نتيجة الشرب من هذا الماء، وذلك على الرغم من أنى لم أحاول مطلقاً اللجوء إلى أى طريقة من الطرق الطبية لتطيب الماء فى أية رحلة من الرحلات الصحراوية التى قمت بها؛ والسبب فى ذلك أنه لا الزمان ولا المكان يسمحان بمثل هذه الأمور.

هنا راح تُعيليب، وهو من بيت الكنارين، يصدح بصوت جهورى، بنفس الأغنية التى كان يرددها فى الصباح وانشرحت لها قلوب رفاقه، إلى حد أنهم راحوا الواحد بعد الآخر يشاركون فى الأغنية، عن طريق ترديد الكلمة التى ينتهى بها كل بيت من الأبيات الشعرية.

ترجمت هذه الأنشودة على النحو التالى:

"انظر إلى البرق البعيد".

لعل نغمته تصيب أم الحياة،

مطر مستمر ومنساب،

ينساب بين الرمال وفى مجرى الماء

إلى أن يمر من بو وريد إلى ما بعدها،

ومن هناك ستعيش وتتمتع امرأة جميلة،

هى، من تقف منتصبة القامة وتتمنع

وحبيبها يختر ساجداً عند قدميها

وقد شفى من الجراح التى أصابت شرايين قلبه".

اختصرنا مسير هذا اليوم بصورة مفاجئة بحاجتنا الماسّة إلى البهجة والفرح. كانت تلك البقاع والأماكن القليلة التي تجمعت فيها مياه الأمطار، سبباً رئيساً في جعل مقدمة الموكب تتوقف وترعى الإبل.

أعلن سهيل، وهو من قبيلة الرشايدة، أنه سيدخن، وهنا سرعان ما تجمعت حوله دائرة من رفاقه جلسوا كلهم القرفصاء، ذلك أن تدخين الغليون في الصحراء يدعو الجميع إلى المشاركة. اختفت يد سهيل في الفتحة الموجودة في طرف قميصه من الأمام (ملابس البدو ليس لها جيوب)، إلى ذلك الجزء من حزامه الذي يعلق فيه خنجره، وأخرج الرجل أدوات التدخين - كيس التبغ التقليدي المصنوع من جلد الأبقار، وله غطاء ومخاط بطريقة عشوائية، وله شريط من الجلد ومسمار من الخشب يستعمل في قفل هذا الكيس. كان ذلك الكيس واحداً من ممتلكات سهيل القليلة، لكن كان واضحاً أن هذا الكيس، بحد ذاته له قيمة عاطفية. وكما هي العادة، فإن هذا الكيس لابد أن يفتح بحب وكل الأعين مركّزة عليه، هذا الكيس مقسم إلى قسمين، أحدهما للتبغ، والثاني للغليون، والزناد ويد الزناد المصنوعة من الصلب، ذلك أن الكبريت غير معروف تماماً في الصحراء، أو يعد نوعاً من الترف، كما أن النيران على اختلاف أنواعها يجرى شُبّها بواسطة الزناد. أما الغليون فكان، عبارة عن خرطوشة فارغة من خرطوش البندقية ٢٠٢، وأما مبسم الغليون فكان هو الطرف المسطح بعد رفع الغطاء. وراح سهيل يملأ الغليون بالورق الأخضر المعروف في كل من عمان وظفار، وكان سهيل يرفع الغليون إلى الأعلى حتى لا يهدر المادة الثمينة. ثم أمسك سهيل بقطعة مهلهلة من طرف قميصه وأشعل النار فيها عن طريق الزناد، ثم وضع هذه الخرقة المشتعلة على الأرض، وراح ينثر فوقها قطعاً صغيرة جافة من روث الإبل كيما تزيد اشتعال النار؛ ثم أضاف سهيل إلى هذه النار غصناً صغيراً، إلى أن احمرت تلك النار. وقام سهيل بعد ذلك بوضع جمر النار فوق قم غليونه، كما هو الحال في النرجيلة، أو الشيشة. كانت مسألة تعميم الشيشة هذه تستغرق أكبر قدر من الوقت في شيء من التلذذ؛ أما التدخين في حد ذاته فكان لا يستغرق سوى ثوانٍ معدودات. كان سهيل قد أخذ ستة أو ثمانية أنفاس عميقة، وراح يتشبث بالنفس الأخير إلى أن جحظت عيناه وترنح جسده؛ وعندها يكون قد

نقل الغليون إلى الجالس بجواره، الذى يروح هو الآخر يثمل بالطريقة نفسها وبذلك يدور الغليون على كل المتحلقين حول سهيل، كانوا يدخلون الغليون كما لو كان كلارينت، تلك الآلة من آلات النفخ الموسيقية، وكان آخرون، حسبما رأيته أنا بعينى، يدخلون الغليون كما لو كان نايًا موسيقيًا. لم تُفَرِّنى هذه الطريقة ولم تشدنى إليها، ولذلك امتنعت حتى عن سؤال رفاقى عن أى الطريقتين أفضل عندهم؛ ولم أجرؤ على الضحك على غليون سهيل، الذى يعد غليونه واحداً من إشباعاته النادرة.

خيّمنا فى أم الحياة، فى منطقة نخدة وريقة، التى هى تفرّع من تفرعات الوادى فى اتجاه الشمال. وهناك أيضاً تفرّع آخر، هو تفرّع نخدة هشمان يتجه نحو الشمال الغربى؛ وهذان التفرعان يخترقان هذه الرمال الجنوبية لمسافة مسير يوم واحد ونصف اليوم ليطوقا تلك المنطقة التى يطلق عليها الناس هنا، اسم أم ضرته.

انخفضت درجة الحرارة فى تلك الليلة إلى ٤٧ درجة فهرنهايتية، وشعرنا بالبرد القارس أثناء نومنا فى العراء بعد نهار ساخن أمضيناه ركوباً على ظهور إبلنا، وعندما صحوت من النوم شعرت أن أصابعى فقدت إحساسها بسبب البرد؛ الأمر الذى حال بينى وبين تدوين بعض الملاحظات.. وطوال الليالى الست التى تلت ذلك انخفضت درجة الحرارة إلى مثل هذه الدرجة السابقة. وقد تمكنت بفضل البطانيتين من تحمل درجة البرود هذه، فضلاً عن أنى كنت أرتدى كل ملابسى، أما رفاقى فكانوا تعساء بحق. والبدو، كما هى عادتهم، ينامون على الرمل الذى يكون شديد السخونة أثناء النهار؛ وهم لا يعرفون شيئاً عن فراش النوم، لأنه يمكن أن يسبب لهم القلق، وربما كانوا يظنون أن ذلك من خصائص النساء وليس من الرجولة فى شىء. وهم يجمعون حطباً يكفى لشب نار المخيم لمدة ليلة واحدة، ويكْوِمونه أمام هذه النار، وهم عراة اللهم باستثناء السروال، نظراً لأنهم يتخذون ملاءات من ألبستهم الأخرى، التى لا تعدو أن تكون مجرد قميص واحد لكل منهم. والحال نفسه هو حال النساء، وعلى الرغم من أنهن لهن "خيام من الشَّعر" يأوين إليها فى الصحراء، ورغم أن لكل واحدة منهن سجادة

تنام عليها، فإنهن يخلعن ملابسهن أثناء الليل باستثناء سراويلهن، ويستعملن هذه الملابس الخارجية ملاءات أثناء الليل. الجميع يمشون حفاة أثناء النهار؛ لكن عندما تكون الرمال شديدة السخونة، فإن الرجال والنساء يلبسون جورباً مَخِيطاً بطريقة بدائية. والبدو يقللون من قيمة الإشباعات التي تزيد على هذا الحد.

كان طريقنا طوال الأيام الخمسة التي تلت ذلك يُطَوَّق هذه الحافة الجنوبية لهذا البحر العظيم من الرمال، فقد يَمَمْنَا مسيرنا في البداية، في اتجاه شمالي غربي- غربي، ثم بدأنا نتجه تدريجياً صوب الغرب، وبقي ارتفاعنا ثابتاً عند ٩٥٠ قدماً، وذلك على الرغم من أن انخفاضات الطرق الوديانية جعلتني أحسب أن الأرض الأعلى من هذه الأرض التي نحن عليها، موجودة في الناحية الغربية. لم تكن مسيرة فترة العصر شيئاً يَسُرُّ الخاطر، لأننا كنا نسير في عين الشمس، أقصد أن الشمس كانت في أعيننا. وأنا قد مررت بهذه الخبرة في رحلاتي السابقة، عندما حوّل مسيرنا في الشمس، وجهي إلى لون المحار في بداية الأمر، ثم أخذ يتقشر ويلتهب بعد ذلك؛ لكنني تعلمت من ذلك، لف رأسي لفاً مُحْكَمًا بغطاء رأس عربي وبذلك أنقذ وجهي ورأسي بالكامل فيما عدا أنفي وشفتي. ومن بين مصاعب السير في اتجاه الغرب، أن عمل الخرائط أصبح مهمة صعبة، نظراً لأنني لم يكن معي أدوات تمكّني من معرفة توقيت جرينتش، غير أجهزة قياس الارتفاع. استطعت أيضاً الحصول على الارتفاعات بدقة شديدة، الأمر الذي كان يجعلني أراجع بصورة يومية، مسارنا مستخدماً في ذلك الساعة والبوصلة، عندما كنا نسير من الجنوب إلى الشمال (ومن يَمُنّ الطالع أن رحلتى بكاملها كانت في هذا الاتجاه)؛ لكن يجب التنويه هنا إلى أن خطوط الطول التي تبين العبور من الشرق ومن الغرب لا يمكن الاعتماد عليها، وبخاصة عندما يجري تحديدها عن طريق أجهزة القياس الموضوعة فوق الإبل، حتى وإن كان ذلك عن طريق ثلاثة أجهزة قياس يجري مقارنتها بعضها ببعض، وتسجيل قراءاتها قبل وبعد كل مسيرة من المسيرات. لو كان لدينا جهاز لاسلكي لأعطانا دقة لا نظير لها، لكني خشيت أن أثير شكوك المرافقين لي في حال وجود جهاز معنا من هذا القبيل، هذا فضلاً عن أن حجم ووزن مثل هذا الجهاز يمكن أن يشكل عبئاً كبيراً على وسائط نقلنا المحدودة.

وصلنا بعد أن غادرنا هشمان وبعد مسير دام ثلاث ساعات ونصف الساعة، خلال رمال روابية الشكل، إلى السهل الحدودي، الذي عبرناه بمعدل سير طيب، في طريق مُعَلَّم بمجموعات من الانحرافات الرملية بيضاء اللون، تقع الواحدة منها على بعد مسافة ميل ونصف الميل تقريباً من العلامة السابقة واللاحقة لها. وفى المنطقة الواقعة بعد أم الرؤوس، تحولت الروابى إلى سلسلة من الجبال المستعرضة الأمر الذى بطأ من خطونا، وبذلك ضيعنا نصف ساعة فى عبور المرتفع الأول، لندخل بعد ذلك فى ممر طويل تحفُّه من ناحية اليسار سلسلة رملية واحدة على بعد قرابة ميل، فى حين كانت تحفُّه من الناحية اليمنى منطقة بحر الرمال العظيمة. وهنا تصبح منطقة هذا الممر الحدودي الذى يطلق الناس عليه اسم حراييم، مَعْلَمًا رئيساً من معالم المسيرات خلال الأيام القلائل القادمة. اتسمت تلك المسيرات بالجوع، نظراً لأن الخُضْرَة الوحيدة التى لقيناها تمثلت فى أشجار العُباله أو المرخ، الشبيهة بأشجار الصفصاف، والتى كانت متناثرة هنا وهناك على أجناب الكثبان الرملية. كانت تلك الأشجار جزءاً من المنظومة التى كانت تعترض طريقنا، وتتجه جنوباً إلى السهل الموجود على ضفة وادٍ من الوديان، ثم تأخذ فى الانكماش بصورة متدرجة لتختفى بعد ذلك، حسبما يقال، بعد مسافة قصيرة.

كانت تلك هى الأماكن التى توقفنا فيها. كان المخيم الذى أقمناه فى نخدة فساد- ذلك التفرُّع من وادى آتبنا والذى يطلق اسمه على الرمال المحلية- يقع أسفل ثلاثة كثبان رملية ضخمة؛ هى: أم الجوع، وأم اللیصة، ثم أم الضلوع. كان الرعى سيئاً للغاية، الأمر الذى اضطرنا إلى تقسيم أنفسنا إلى ثلاث مجموعات، ونوزع إبلنا على مسافة ميل أو أكثر من الميل. كانت الجماعة المصاحبة لى مكونة من واحد من بدو الكدّابين، وواحد من العوامير ومرافقين من بيت الكثارين، وسرعان ما راح كل هؤلاء يتسلقون أشجار المرخ الكثيفة، كيما يقطفوا ويجمعوا أعواد المرخ الطرية لركوباتهم الخاصة بهم، إلى حد أنهم وضعوا ناقتى هى وحيوانات النقل الأخرى فى المرتبة الثانية بعد إبلهم المملوكة لهم، وقد أثار جشعهم وطمعهم هذا فيما يتعلق بإبلهم، اهتمامى بسبب تعارض هذا الجشع مع كرم علاقاتهم الشخصية. وحيثما يقل الماء أو الطعام لا يفكر أحد منهم فى عدم اقتسام ذلك بالتساوى فيما بينهم، وفى حالة غياب أحدهم، حتى وإن كان يرعى



(واحد من أبناء الرمال)

الماشية، فإنهم جميعاً ينتظرون مجيئه كيما يأكلوا بعضهم مع البعض، أما فيما يتعلق بعلف الإبل أو أحمالها فإن كل واحد من البدو يريد أن يميز ناقته عن نياق الآخرين؛ هذا يعنى أن البدوى يُعلَى مصلحة ناقته عن كل اعتبار آخر.

لم يصدر أثناء السير أى نداء بالتوقف لأداء صلاة الظهر؛ سبب ذلك أن الصلوات الخمس اليومية يمكن قصرها على ثلاث صلوات أثناء المسير، أى الجمع بين الظهر والعصر، والشئ نفسه يحدث بين المغرب والعشاء. هذه ذريعة أصولية، وليس لها انعكاس على التقوى فى الصحراء. يزداد على ذلك أن تأكيد المتحاملين فى بعض الأحيان، والذى مفاده أن البدو لا يصلُّون ولا يصومون، أمر لا تؤكده خبرتى فى هذا المجال. ذلك أن المرافقين لى كانوا يصلون دوماً وبهمة ونشاط؛ وأنهم كانوا دوماً واعين بكثير من الأخطار التى يتعين عليهم تخطئها، هؤلاء البدو يدعون الله صباحاً، وظهراً وليلاً. يزداد على ذلك أن الجوع والعطش ليسا شبحين بعيدين؛ هذا يعنى أن ضيوف مدين يتجولون هنا وهناك؛ يزداد على ذلك أن معرفة البدو لهذه الأخطار ووعيهم بها، زرع فى هؤلاء البدو، كما هو الحال فى جنودنا وبحارنا من الجيل الماضى، خليطاً من الاستسلام لكل ما هو خارق للطبيعة والوثوق به، وهذا بحد ذاته يعد أمراً طفولياً فى بساطته وسذاجته. أضف إلى ذلك أن السذاجة والبساطة ليست هى الفضيلة الوحيدة لهذه المعرفة؛ لكن واقع الأمر، هو أن هذه البساطة تعد قاعدة من قواعد الحياة، وتبررها نفعياً الحقيقة التى مفادها أن البساطة تشكل أساس العمل فى الحياة اليومية فى البيئة القاسية. هذا يعنى أيضاً أن البساطة هى موقف عقلانى يسير فى خطٍّ موازٍ تماماً للمفاهيم والأعراف السارية والمقبولة فى الغرب.

هؤلاء البدو كانوا يصيحون كل صباح بصوتٍ عالٍ قائلين: "بسم الله الرحمن الرحيم" عندما نبدأ تحركنا. وفجأة كنت أسمع بجانبى بدوياً بعد فترات طويلة من الصمت، شأنه فى ذلك شأن أسلافنا المتطهرين عندما يقولون: "نَجْنِي من أعدائى، يارب"، "يارب، نَجْنِي من الشر" يزداد على ذلك، أن انتهاء أذان الفجر يجعل هؤلاء البدو يتضرعون إلى الله تعالى وهم ينهضون واقفين على أقدامهم وهم يرتعدون وهم يعبدون الله، على اعتبار أن ذلك أول عمل من أعمال اليوم. أضف إلى ذلك أن المسيحى التقى الذى يسافر ويتجول أو يترحل مع هؤلاء البدو،

ويكون قلبه مهموماً بهموم الدنيا، يمكن أن يتعلم شيئاً من تسليمهم الكامل بالله تعالى وثقتهم في الله تعالى الموجود وغير المرئي. ونحن عندما نكون جالسين على شكل دائرة نسمع بدوياً يقطع الصمت عندما يتمتم قائلًا: "لا إله إلا الله"؛ في حين ينفجر رجل من قبيلة المره قائلًا بطريقة هستيرية: "أيها المسلمون، لا تخفوا عقيدتكم!" ومع ذلك، فإن هذه التصرفات والأقوال المفاجئة، لم تؤثر، على حد علمي، على علاقاتهم معي على الإطلاق، يزداد على ذلك، أني أحس وأنا بين هؤلاء البشر البريين نوعاً من التسامح غير موجود بين أهل الحَضَر، الذين تضيء عليهم معرفتهم السطحية للقرآن مظهرًا لا يطاق من الغرور الديني، لأنهم يشعرون بينهم وبين أنفسهم أن الحقيقة المقدسة مقصورة عليهم وحدهم.

لكن اسمحو لي أن أستعيد ذكرى أول لقاء لي بالشيخ صالح في بداية هذه الرحلة.

كان واحد من رجال الشيخ صالح قد بدأ بدعوتي إلى ترديد عقيدة الإسلام، "أشهد!" تأكيداً على إيماني بالله، والصلاة، والصوم. وعليه أمسكت بلحيتي- التي كنت قد تركتها تنمو، شأني شأن أي أوروبي يود أن يترحل في هذه الأرض؛ نظراً لأن الرجل لابد أن يقسم على ذقنه. ورددت بعده "الله أعظم".

قال: "لا إله إلا الله" وكررت هذه العبارة بعده.

جاء بعد ذلك مبدؤه الثالث "وأن محمداً رسول الله".

قلت له: "اسمح لي بشيء من الشرح والتوضيح، "هو نبيكم، رجل عظيم وصالح من جنسكم أقصد جنس العرب؛ لكننا جنس آخر، ونحن أيضاً من مخلوقات، ونحن نقول ونعتقد أن يسوع (عيسى) هو نبينا".

سألوني، لأنهم جاهلون تماماً "عيسى"! "ابن من؟" وهم لا يعرفون القرآن الذي يسجل أن يسوع (عيسى) من روح الله.

تدخل الشيخ صالح لرأب الصدع الذي حدث "هذا صحيح، كل شعب له نبيه. لكن الحمد لله" هذا الرجل ليس كافراً، لكنه يقر بوجود الله تعالى "الواحد الأحد".

كان رفاقي على أحرّ من الجمر، لأنهم كانوا يودون معرفة ما إذا كنا نحرق موتانا، وكانوا يريدون أيضاً معرفة ما إذا كان "الزواج" عندنا معقوداً أم لا (أي

خالٍ من الحب الحر)، وكانوا يودون أيضاً معرفة ما إذا كنا نصوم ونصلى أم لا. أكدت إجابتي لهم وصححت لهم أيضاً وهماً آخر صادفتني في رحلاتي السابقة، بل إنه في واقع الأمر، واسع الانتشار في سائر أنحاء الشرق المسلم؛ أشاروا إلى السماء، وهم يقولون: الكفار يخفون وجوههم من الله. وأنا أشك في نشأة هذه المسألة من فكرة خوذة الشمس التي يجرى استعمالها حديثاً^(١)، وبخاصة أن هذه الخوذة، ولأسباب واضحة يمكن إنزالها إلى ما تحت العينين. ومن الأهمية بمكان هنا أن نلاحظ أيضاً في هذا الصدد أن الصلاة طبقاً للطقس الإسلامي تحتم أن تلامس الجبهة الأرض. وهنا يتضح أن القبعة ذات الحافة لا تسمح بلامسة الجبهة للأرض، ويترتب على ذلك، تلك الصيحة بين رجال الدين المحافظين في كل من بلاد فارس، العراق، أفغانستان وبعض البلاد الإسلامية الأخرى، والتي تستنكر استعمال جيوشهم لأغطية رأس على الطراز الأوروبي.

وأنا في ترحالي، أعطى رأسي بالكوفية العربية، ومن تحتها خوذة ضحلة بلا حافة، وهذه الخوذة تذكّر قديم مكتوب عليه "سوذي" القوة الجوية؛ وهذا يحتم أن تكون لحيتي وطعامي بل ومشيتي أيضاً، شبيهة بما يفعله هؤلاء الرفاق المنعزلون في هذه الأمور، وأنا أفعل ذلك بغية تخفيف الفروق التي بيننا. وللسبب نفسه لم ألبس نظارة شمس أو أستعين بأية وسائل أخرى من وسائل الحماية من الشمس، ومثلما كانت شكوك رفاقي في مسألة خوذة الشمس وأنها يمكن أن تعيق تنفيذ خططي، فقد وجدت أن وسائل الحماية من الشمس هي الأخرى لا ضرورة لها.

وجدنا السهل الواقع على حدود بلدة فساد، والذي كان بالأمس خالياً من الأحجار، أصبح اليوم متموجاً وعامراً بالأحجار. وجدنا أيضاً بعض الأجزاء البارزة من الأرض (الحزم) والتي يبلغ ارتفاعها قرابة عشرين قدماً، أجزاء أخرى لونها مثل لون المعجون المستخدم في تثبيت زجاج النوافذ، وفيها عروق حمراء اللون، ومزججة تزججاً عالياً. ومن خلال نظارتي المكبرة وجدت قواعد الكثبان

(١) هذا يعني أن هذه الفكرة لا بد أن تكون حديثة، وذلك من منطلق أن خوذة الشمس لا يستعملها الأوروبيون في الشرق منذ أكثر من قرن من الزمان؛ هذه الخوذة غير معروفة في الأمريكتين، كما أن الناس لا يلبسونها في أستراليا أو جنوب أفريقيا.

الرملية البعيدة، تبدو من بعد، شبيهة بالحجر الصلد. وعلى سطح الرمال وجدت حفريات من حفريات المحار وأنواع أخرى من الحفريات، وبخاصة من نوع أوستريا *Ostrea* واللوكينا *Lucina* ومن الروستالاريا *Rostallaria*، وجدنا كل هذه الحفريات زاوية إلى حد بعيد، لكنها لا تزال إلى يومنا هذا تحمل بعض السمات التي يمكن استعملها في تحديد تاريخها الجيولوجي.

ميتان، مخيم آخر من مخيمات الجوع، وقفت فيه إبلنا المسكينة ساكنة بلا حراك، خالية، ومعلقة، وقد ازداد شوقها استعداداً للمضى قدماً في الترحال ابتعاداً عن هذا المكان. قد تكون الناقة حيواناً غير محبب إلى النفس، لكنها صبورة تماماً على العكس من ذلك، يتركز كل همّ الناقة في العلف، وهي عندما تعثر على هذا العلف، يصبح في مقدور راکبها أن يضع عليها حملاً ثقيلاً كل يوم، على أن يسمح لها بالشرب مرة واحدة كل سبعة أيام، وتقبيدها في كل وقفة من الوقفات مخافة أن تضل وتتوه.

جاء شروعا الصباحي في التحرك من ميتان بطيئاً. تلكأنا بسبب البرد والجوع من ناحية، والسلاسل الرملية الكثيرة من الناحية الأخرى، وهذا يعني أن الإبل عندما تتلكأ، فإن وقع مسير القافلة يكون بطيئاً. وبعد مسير دام ساعة من الزمن وصلنا إلى منخفض واسع، جاءت ضفته الغربية، التي يسمونها طوف ميتان، بمثابة النهاية البائسة للوادي الذي يحمل هذا الاسم، والذي كان قوياً ومثمراً في مبتداه في شاغوات *Shaghuwat* على بعد مسير ستة أيام في اتجاه الجنوب - بدأت في الظهور من جديد بعد ميتان، السهوب الجامدة الأمر الذي أدى إلى تحسّن ترحالنا ومسيرنا. وفجأة راح العرب الذين كانوا دوماً يحسون بقلق طفولي كيما يسترعوا انتباهي إلى شيء يظنون أنه يهمني يشيرون إلى الأرض؛ ويصيحون قائلين: "انتبه أيها الصاحب، هذا هو الطريق المؤدى إلى يوبار".

تساءلت مندهشاً: "تقولون : يوبار؟".

"لقد قال لنا آبأؤنا، إنها كانت مدينة كبيرة، في ماضي الزمان؛ مدينة غنية بكنوزها، وكان فيها بساتين وحدائق للتمر، وكان لها قلعة من الفضة الحمراء (الذهب؟) وهي مدفونة حالياً تحت الرمال في رملة شعيط، التي تقع على بعد مسير أيام قلائل في اتجاه الشمال".

كان عرب آخرون قد أخبروني في رحلاتي السابقة، عن يوبار^(١)، وإن شئت فقل: منحوتات الرمال، لكن أحداً لا يستطيع أن يحدد مكانها. انصرف كل تفكيرى في هذه المدينة وتبدد، عندما. صاح رفاقى معلنين لى ما لديهم من أخبار، وهم يشيرون لى على المسارات البالية، الموجودة على شكل قطاع عرضه قرابة مائة ياردة ومحفور فى السهل. كانت تلك المسارات تشكل ٢٢٥ درجة عند خط عرض ١٨ درجة و٤٥ دقيقة شماليات، وعند خط طول ٥٢ درجة و٣٠ دقيقة شرقيات عند حافة الرمال.

تطوع بعد ذلك بأيام قلائل، معيوف الذى يعد أذكى الرشيديين من بين أفراد جماعتى ليقول لى: إنه عندما كان صبياً يرمى قطعان والده بعد العصر، فى المنطقة ما بين ميطان وفساد (لقد نسى منذ زمن طويل الموقع بالضبط، لكنه يعتقد أنه على بعد مسافة مسير يومين من حدود الرمال) وأنه عثر على مجموعة فخّارية كاملة، فيها أوعية مكسرة حمراء اللون وصفراء اللون، كما شاهد أيضاً هاونين من هاونات البن؟ مصنوعين من الحجر الأسود المصقول، كما شاهد أيضاً كتلتين حجريتين مستديرتين وبيضويتين، وفى حافة كل منهما قطع، ومتشابهين، لكن كل واحدة منهما تبلغ من الثقل حداً يتطلب رجلين كيما يمكن رفعها

(١) أنا مدين للسيد/ فيلبى لأنه هو الذى لفت انتباهى إلى تشابه يوبار مع وُبار. لم يأت أحد من الجغرافيين العرب الجادين على ذكر هذه المدينة، لكن ياقوت الحموى يقدم وصفاً إضافياً لموروث محلى منتقى، وإن هذا الوصف يخدم الغرض نفسه. والمكان محدد بشكل عام على أنه يقع فى الرمال "فيما بين شهير وصناع". كانت يوبار أو وُبار مدينة عظيمة فى واحة خصبة من واحات قبيلة عاد؛ وإن أهلها أو القوم الذين كانوا يسكنونها، عوقبوا على خطاياهم بأن مُسَخَّوْا إلى قردة ونسانيس- نوع من القردة، له نصف الجسم، وعين واحدة، وذراع واحدة، ورجل واحدة.. إلخ. ومنذ ذلك الزمان والجن يسكن هذا المكان، ويحاول منع الاقتراب منها، ويدمر كل من يصل إليها. وإبل المهارين تنحدر عن إبل هذا الجن. وهناك بعض القصص التى تصور قوم الشهير على أنهم يصطادون هذا النوع من القردة والنسانيس، بل إنهم يأكلونها أيضاً. هذا هو الأثرى نشوان بن سعيد، أثرى جنوب الجزيرة العربية، والمتوفى فى العام الهجرى ٥٧٢ المصادف للعام ١١١٧ الميلادى يقول: "وُبار هو اسم الأرض التى كانت تنتمى إلى قوم عاد فى الأجزاء الشرقية من اليمن؛ وهى فى أيامنا صحراء غير مطروقة بسبب جفاف ونضوب مائها. ويمكن العثور فيها على نباتات كبيرة سوتها الريح بالرمال. ويقال أيضاً أنها كانت تنتمى إلى أهل "الرُس" وربما يكون الأمر أكثر من مصادفة أن نجد أن أريشا (أرض الحاكم الزناتى للصحراء الفلكلورية) هى المساوى للفقوى الشهارينى لكلمة "راس العربية".

(أسطوانتي عمود؟): وقال إنه قلب الرمل بحثاً عن المزيد، لكنه لم يعثر سوى على رماد أسود اللون. لكن معيوف لم يربط هذه الأشياء المتواضعة بمدينة قوية؛ وذلك على الرغم من اندهاشه لعثوره على أوان فخارية فى الرمال، والسبب فى ذلك أن البدوى المترحل بحق، لا يحمل معه أوانى فخارية، فوق إبله، لكنه يحمل بدلاً من هذه الأوانى أوانى أخرى مصنوعة من البوص المجدول، وقد يحمل معه من حين لآخر وعاءً من الحديد.

(وحتى لو استطعت حمل رفاقى- على القيام بعمل هم لا يرغبون فيه أو يستلطفونه فى ظل حالهم النفسى الحالى): فإن تحولى جانباً إلى تلك الأرض الخراب الجافة الخالية من المرعى، كان يمكن أن يكون من قبيل الأعمال الانتحارية: زد على ذلك أن الماء الذى معنا لم يكن يكفى إلا لوصولنا فقط إلى ثقب الماء. وعلى حد قول البدو، فإن المدقات والدروب المؤدية إلى الجنوب مطموسة بل مفقودة أيضاً فى السهل. وربما كان ذلك راجعاً من ناحية إلى التعرية الناجمة عن هبوب الرياح، ومن ناحية أخرى إلى الحقيقة التى مفادها، أن الطريق القديم لا بد أن يمر خلال طريق زلطى فى الوادى، الذى هو الطريق الطبيعى للوصول إلى الجبال، الخالية تماماً من المدقات. ومسألة تعدى الرمال على الحدود الجنوبية تتفق تماماً مع الموروث العربى، ومدعومة أيضاً بواسطة الرياح الشمالية دائمة الهبوب على أراضى الحدود الجنوبية، وهذا بدوره يفسر لنا مسألة المنحدرات المتدرجة والحادة الناجمة عن هذه الانجرافات الرملية. وهذه المدقات العميقة الموجودة فى السهب يمكن تفسيرها فى إطار تغير الظروف المناخية خلال الحقب الزمنية التاريخية. وفى الجنوب مباشرة تقع بيارات البخور القديمة والشهيرة، والتى ربما كان يربطها بعضها ببعض طريق برى واصل إلى جرّها Gerrha، ذلك الميناء القديم من موانئ الخليج الفارسى، أو واصل إلى بلدة البتراء Patra الخاصة بالأنباط، وكما أن يوبار يمكن أن تكون هى الأخرى واقعة على هذا الطريق. هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين الكلمتين أوفير Ophir ويوبار ubar عن طريق القاعدة الفقهيّة اللغوية الشائعة التى تفيد أن صوت الفاء F يمكن أن يصبح باء b، وبذلك تصبح الكلمة أوفير Ophir طبقاً لهذه القاعدة: Obir وبذلك تكون أوبير Oibr هى يوبار ubar.

هذا الموروث من موروثات الطرق التجارية القديمة الموجودة عبر أو خلال ذلك الذى يعد فى الوقت الحاضر حاجزاً شبه محرم من الرمال، ينبغى ألا نستخف به على أنه ضرب من ضروب المستحيل. والبشر يرون أن جنوب الجزيرة العربية لم يشهد مطلع عصر جليدى، حتى إن دوائر العرض العليا من نصف الكرة الشمالى يمكن أن تكون واقعة تحت غطاء ثلجى أو جليدى، لكن الجزيرة العربية شهدت فترة مطيرة، وأنه اعتباراً من تلك الفترة يبدأ تاريخ الوديان العميقة التى بين الجبال حتى يمكن أن تصرف مياه الجبال الساحلية، هى وحفريات الحجر الجيرى التى جرفتها المياه إلى حافة الرمال. هذا المناخ المختلف ربما يكون قد استمر فترة طويلة لكن بشكل مُعدّل، حتى يمكن أن يساعد على قيام حضارة باكرة جداً فى هذه المنطقة.

وهناك صلة أو علاقة مهمة أخرى تدخل ضمن هذه السلسلة من الدلائل، وعلماء الحيوان هم الذين أرسوا دعائم هذه الصلة أو العلاقة؛ وذلك من خلال تناولهم لتوزع الحياة الحيوانية فى جنوب الجزيرة العربية. وعلى سبيل المثال؛ فإن الحيوانات التى جمعتها من جبال القراوين أثبتت أنها تربطها صلة أو قرابة بالحيوانات الأفريقية أو الحبشية؛ كما أن هذه الحيوانات تشكل منطقة مستقلة فى هذا الجزء من الجزيرة العربية، والسبب فى ذلك أن الحيوانات التى جمعتها من الشمال ومن الشرق ومن الغرب ثُبِتَ أنها حيوانات قطبية شمالية قديمة. وعليه يمكن القول: إن هذه المنطقة المستقلة يمكن أن تكون تذكّاراً من تذكارات الحيوانات السابقة التى كانت تسكن الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية بكامله، فى الوقت الذى كانت فيه الهند، وجنوب الجزيرة العربية ومعهما أفريقيا، يسود فيها مناخ مشترك وحياة حيوانية مشتركة أيضاً، يزداد على ذلك، أن الجفاف الذى ضرب جنوب الجزيرة العربية ربما يكون هو السبب فى قصر هذه الحيوانات البدائية على منطقة ظفار، لأن هذه المنطقة هى الوحيدة فى جنوب الجزيرة العربية التى استمرت تتمتع بمطر استوائى وحياة نباتية مدارية، والفضل فى ذلك راجع إلى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية المفيدة، فى حين نجد أن الفراغات المكشوفة المحيطة بهذه المنطقة بدأت تسكنها مجموعة أخرى من الحيوانات التى جاءت إليها من الشمال.

الفصل الثالث عشر

عبر الرمال الجبلية فى عروق الضاحية

انحرفت الرمال الحدودية فى شعيط ناحية الجنوب الغربى؛ وعليه أصبح مسارنا مواجهاً لهذه الرمال الحدودية. وبدا لنا هنا وهناك أننا قد ودعنا السهب، لكننا دخلنا إليه من جديد، لكن السهب كانت تحجبه هنا سلسلة جبلية مرتفعة، يقولون الآن إنها انحسرت إلى مسير مسافة نصف يوم فى اتجاه الجنوب. وهنا وجدنا أيضاً أن اللون الفاتح الذى كان يميز الواجهة الجنوبية لمنطقة الحدود بدأ يتحول إلى سلاسل جبلية داخلية حمراء اللون، تحولت بدورها أثناء مُضيِّنا قُدماً فى مسيرنا، إلى جبال صغيرة شاسعة ومنخفضة على شكل كتل متموجة. وتميز طريقنا هنا بوديان وسُرُج سهلة، عندما بدأنا نرى بعض النباتات المتناثرة على منحدر من المنحدرات، تسلقناه لنقف فيه ونرعى فيه إبلنا.

استرعت انتباهى ظاهرة البقع الفضية بصورة مفاجئة، فى الأحواض المنخفضة، التى بدت لى من بعد وكأنها ألواح من الثلج أو بقايا الملح الناجم عن البحيرات الجافة. كانت تلك الغدران- التى ثبت أنها عبارة عن جبس- تبدت لى بتردد متزايد فى سائر أنحاء هذه الكُثبان الرملية فى يَبَّيله Yibaila وفى يديله^(١) yadila، وظهرت لى أيضاً بعد ذلك بيومين فى جبال عروق الضاحية الرملية.

بدأت آثار مسيرات الجوع التى يتردد طول الواحدة منها بين تسع وعشر ساعات تبدو وبدرجات متفاوتة على إبلنا، إلى الحد الذى اضطررنا معه إلى

(١) فى اللهجة الرشيدية (نسبة إلى القبائل الرشيدية) فى الرمال الجنوبية، وبشكل مميز عن لهجة قبائل المرَّة فى الشمال نجد أن حرف الـ J ينطق y، وبذلك تصبح الكلمة yabaila = youb، ومن هنا يصبح حرف y فى كل من yadila و Yabaila صوت حرف J.

إعادة توزيع أحمالنا. اضطررنا ذلك إلى القيام بتنصيب سَلْتَى التَّمَر التى تزن الواحدة منها ستين رطلاً، واللّتين تُعدان حمولة جمل واحد، وتوزيع هذه الأنصاف على الإبل التى كانت أحسن حالاً. غمغم أصحاب هذه الإبل، الأمر الذى حَتَمَ على طلب حيوانات (إبل) من بدو لا تربطنى بهم أية صلة، متكبدًا بذلك نفقات إضافية. اتفقنا فى النهاية على أن تقوم إبل الركوب فى جماعتى، بحمل حِمْلٍ صغير كل يومين أو ثلاثة أيام، على الرغم من أن ذلك كان ينطوى على كثير من الجدل ووعود بالمكافآت، وكانت هناك لحظات كنت أحس فيها أننا وصلنا إلى طريق مسدود، وبخاصة عندما كنت أستشعر غياب الشيخ صالح.

ازداد مسيرنا صعوبة على صعوبته، وازدادت إبلنا تبعاً على تعبها؛ الأمر الذى أدى إلى امتداد طابورنا إلى أبعد مما هو معتاد فى مثل هذه الظروف، ونجم عن ذلك أن أجزاء من هذا الطابور لم تعد فى مرمى البصر لوجودها بين ثنيات وانحناءات الرمال. كان ذلك، بكل المعايير، شيئاً مُرضياً وبخاصة فى مواجهة الكمائن المحتملة، والسبب فى ذلك أننا كنا نزداد إرهاقاً على إرهاقنا يوماً بعد يوم، وبالتالي كانت خفة حركتنا تقل عما كانت عليه من قبل، وهذا بحد ذاته يجعل منا صيداً سهلاً بل وفريسة لجماعات الغزو الأكبر منا عدداً، وخفيفة الحركة بحكم انطلاقها انطلاقاً نشيطاً من عين أو ثقب من ثقوب الماء الثلاثة، التى تبعد عنا مسير يومين. كنا عندما نقرب من كل تل عالٍ يقوم العربى الذى عليه الدور، بالانطلاق بجَمَلِهِ الذى لا يحمل شيئاً سواه هو، إلى الأمام ويتسلق قمة ذلك التل، لكى يستطلع الأرض التى تنتظرنا، بحثاً عن الغزاة أو أى أثر من آثارهم، وأن يجعل رأسه يتجه بناظره إلى أسفل السلسلة الجبلية تحاشياً للغدر والخديعة، حتى لا ينكشف أمره، ويكمن هذا الرجل فى مكانه بلا حراك لكنه يستمر فى يقظته وانتباهه فى الوقت الذى نروح نحن فيه، نمر أسفل هذه السلسلة الجبلية. وبعد ذلك بساعة يقوم عربى آخر بتكرار العمل نفسه، وبذلك كنا نحافظ على استمرار اليقظة والاستطلاع طول اليوم الطويل، فى حين كانت الجماعة تقوم فى الأسفل بمسح سلاسل التلال البعيدة بحثاً عن أى نشاط مماثل من جانب العدو.

كان التلکؤ فى المسير يعنى التأخر فى الوصول، وقد أدى ذلك إلى جعل اختيارنا لمكان التوقف اليومى أمراً يزداد صعوبة على صعوبته. هذا يعنى أيضاً أن مكان التوقف يتحدد بناء على توافر المرعى فى هذه الأرض القاحلة من ناحية، وأخذ موعد وصول الإبل بعين الاعتبار وبحيث تصل هذه الحيوانات إلى مكان التخييم أثناء ضوء النهار. كانت المسألة تقتضى منا، قيام رجلين أو ثلاثة بعملية الاستطلاع للمكان قبل وصولنا إليه بساعتين قبل غروب الشمس، ونقوم نحن بالتوجه إلى أفضل المراعى التى يطلبون منا التوجه إليها. حدث على غير العادة، أن راح من يستطلع المكان، يلوح بغطاء رأسه ويصيح مبهتجاً، من فوق أعلى نقطة فى السلسلة الجبلية، وهو نشوان بمنظر المرعى الجيد الذى جعله ينسى احتمال وجود بعض الأعداء.

بدأت الإبل تتقاطر متشوقة إلى الاهتمام بها، حيث جرى إنزال الأحمال عنها، وتقييدها من أرجلها الأمامية، وسياقتها إلى الرعى فى أقرب مرعى إلينا. وفى مخيمات الجوع ترى البدو وهم يفتشون الجبال المجاورة بحثاً عن قبضات من العلف حتى يستعملوها فى تغذية إبلهم من أيديهم، مثلما تطعم الأمم طفلها، وبعد أن اعتنت الجماعة بالإبل، اصطف أفراد الجماعة لأداء صلاة المغرب قبل أن يجرحوا صيامهم. كان أعضاء الجماعة قد قاموا بتشوين أكوام من الحطب على مقربة من النيران الأربع التى شبها المخيم، تحسباً لبرودة الليل. كانت عادتى اليومية تجعلنى أجلس مع كل جماعة الواحدة بعد الأخرى من هذه الجماعات التى تختار نفسها بنفسها.

كنت فى هذه الليلة دوناً عن سائر الليالى الأخرى، مهتماً بطريقة عمل الخبز غير المخمور. وهذا هو معيوف، طباخ جماعتنا بصفة خاصة، يجلس القرفصاء وسط جماعة أو دائرة من المراقبين الجوعانين والمتحفزين، وعجن ذلك الدقيق على شكل عجينة طرية للغاية. وقسم الرجل العجينة إلى أنصبة على شكل قبضات، بواقع قبضة واحدة لكل واحد من الحاضرين، وراح يدور هذه القبضات على شكل كرات حتى يمكنه الوقوف على تساويها من حيث الحجم. وازن بين هذه الكرات بطريقة شبيهة للميزان، وكانت عيناه: عين على الكرة والعين الأخرى على المجاورين له. ثم قام بعد ذلك، بتناول الكرة الأولى، وصب عليها شيئاً من

الماء، وراح يفردها مستخدماً فى ذلك راحة يده على شكل دائرة قطرها أربع بوصات وسُمكها بوصة واحدة، ثم وضع هذه الدائرة فوق الجمر الملتهب. كانت رائحة الاحتراق الصادرة عن هذه الكرات إشارة إلى أن هذه الدائرة أصبحت بحاجة إلى تقليبها وبذلك يتم خبز وجهى هذه الخبزة، قام معيوف بعد ذلك بعمل حفرة فى الرمل الحار الموجود تحت النار، ويضع الخبزة فى هذه الحفرة ثم يغطئها مرة أخرى، وراح يفعل الشيء نفسه مع الخبزات الأخريات. وبعد فترة من هذا الدفن، قام معيوف بإخراج الأُرغفة الواحد بعد الآخر، وراح يزيل الرمل عنها باستعمال يده، وأحياناً عن طريق النفخ فى الأُرغفة كيما يتطاير الرمل، لكن القدر الأكبر من ذلك يظل عالقاً بالرغيف حتى يعطيه المذاق المعتاد. كان رفاقى يحبذون أكل هذه الأُرغفة وهى ساخنة؛ فى حين كان يكفينى القليل جداً من هذا الخبز- كانت هذه النوعية من الخبز ثقيلة جداً، أى كان وزنه ضعفاً أو ثلاثة أضعاف الخبز الإنجليزي، يزداد على ذلك أن هذا الخبز على الرغم من خبزه من الوجهين، يظل عجينةً من داخله. قد يكون ذلك ميزة من ميزات هذا الخبز، وربما كان هذا الخبز سبباً رئيساً من أسباب التوعك المعوى الذى كان رفاقى يشكون منه. لم يكن رفاقى معتادين على الطعام الصلب، ونتج عن ذلك أن التعيينات التى قدمتها من البلح بصورة يومية ومعه الخبز والأرز يوماً بعد يوم، أصبحت نوعاً من الترف الذى يمكن أن يصادف أياً منهم على امتداد العام، كما هو الحال فى صيام رمضان: يزداد على ذلك أن معيوف كان له طبق إضافى فى تلك الليلة: كان ذلك الطبق عبارة عن أرنب برى قمنا بإخراجه من جحره الذى يبلغ طوله قرابة قدمين، كان يُغلى فى الإناء. لكن الطباخ الهاوى، وإن شئت فقل طباخ الرمال، يعد غريباً على استعمال الزبد فى عملية الطبخ، نظراً لأن حليب الإبل فقير جداً فى نسبة الدهون، إلى حد أنه لا يمكن أن يُصنع منه زبد أو جُبْن (على الرغم من أن سنام البعير الصغير فيه قدر لا بأس به من الدهون)، وترتب على ذلك أن وجدت طعام أو مذاق الأرنب المسلوق فى ماء مالغ، غير مستساغ منى، ولذلك كنت أعطى نصيبى لرفاقى.

تُرى، هل فضلت أنا لحم الغزال؟ شدنى هذا السؤال إلى حكاية الغزالة والأرنب - وهذه واحدة من تلك القصص الحيوانية، التى يحبها البدو، وتبدو

جذابة عندما يرويها البدوى بإيقاع بسيط فى لهجتهم العامرة بالحوية، ذلك أن كلام البدو الروائى يغلب عليه أن يكون شعراً منشوراً.

جاءت غزالة ترعى عشب التمامة البض، ولم تلاحظ أن أرنباً برياً كان نائماً تحت ذلك العشب. بُوغت الأرنب البرى، وقفز إلى الأعلى ثم هرب، قفزت الغزالة عائدة إلى الوراء فى الوقت ذاته، وكانت أكثر خوفاً من الأرنب البرى، الأمر الذى جعله ينسى نفسه. لكن الغزالة عاد إليها توازنها، وأحسَّت بالضيق، وصاحت متهمكةً من الأرنب البرى:

"هوبى! الذى للحمه وزن صغير،

والذى جلده لا يبعث على الفرح،

يا واهب الفرح للأطفال فقط،

"يا مضايق الجيران!

(معنى ذلك لحملك قليل جداً لا يكفى ضيقاً).

استدار الأرنب للغزالة، ووقف على قدميه الخلفيتين وصاح فى الغزالة قائلاً:

هوبى! يا أبا النسيان"

أيها المقرن،

إذا رأيت الوادى الأخضر

فإنك تشارك فيه مع الجن!"

(معنى ذلك، أن منظر الراعى يصيبك بالجنون).

وتفترق الغزالة والأرنب البرى بعد ذلك.

لو توافر الحطب لنيران المخيم لظلت مشتعلة طوال الليل، لكن البدو المساكين كانوا قد عضهم البرد بنابه من ناحية وكان الليل قاسياً من ناحية أخرى. وعندما بدأت النار تخبو عند أسفل المكان الذى كانوا كامنين فوقه، راحوا يجلسون الواحد بعد الآخر، وهم ممسكون ببنادقهم فى أيديهم، تحسباً لليل، والمفاجأة التى يمكن أن تأتيتهم من العدو، وفى تلك الأثناء ذهب أنا للقيام بالعمل الخاص "بالفلك والنجوم".

كان اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر، يوماً طويلاً، خالياً من الأحداث، أمضيته فى المسير خلال رمال جليدة، وكلما كان يتعين علينا الانحراف جنوباً تحاشياً للعقبات، كان وهج الشمس يحرق وجهى.

كنا نفوص فى الرمال الكثيفة، وفجأة قطعت صمتنا دندنة عالية صادرة عن آلة موسيقية. أصابتني الدهشة لحظة من الوقت، لأنى لم أكن أعرف سبباً لتلك الدندنة.

صاح رفاقى قائلين: "حنينه! حنينه!"^(١) أشار الرجل الواقف على "القمة الرملية"، التى كان ارتفاعها يقارب المائة قدم، وكانت تبعد عنا قرابة مائة ياردة أو أكثر من ذلك، فى اتجاه اليمين. كنت مستغرقاً تماماً فيما أسمع إلى الحد الذى جعلنى عاجزاً عن الرد على ما يقوله هذا الرجل. كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وخمس عشرة دقيقة عصرًا؛ وكانت تهب علينا ريح شمالية خفيفة قادمة إلينا من مؤخرة تلك القمة أو الكتيب الرملى.

كنا قبل ذلك، وفى ظل هبوب ريح مثل هذه الريح، قد مررنا على قمم كثيرة، لكنها لم تكن تُصدر أصواتًا، سوى ذلك الحفيف الطفيف الناجم عن الرمل السطحى البسيط الذى تحمله الريح معها كما لو كان دخاناً لتلقى به فوق قمة المنحدر. كان الجانب المحمى من الريح فى هذه القمة، عبارة عن جدار شديد الانحدار، وحاولت بلا جدوى، البحث عن المزيد من الرمال حميمية الشكل فى ذلك الممر الضيق، الذى يمكن أن يكون مسئولاً عن جزء كبير من الضوضاء التى نسمعها. وأنا أرى أن مصطلح "الرمال المغنية"، غير مناسب لوصف صوت لا يمكن تمييزه عن الصوت الذى ينجم عن سارينه^(٢) (*) سفينة بخارية متوسطة الحجم. استمرت تلك الضوضاء قرابة دقيقتين، وانتهت فجأة مثلما تنتهى إشارة الضباب التى تصدر عن السفينة.

(١) حنية = جوار. تستعمل قبيلتا الرمال مصطلحين مختلفين للرمال المغنية - قبيلة الرشيد تستعمل

مصطلح الدمام، أما قبيلة المرة فتستعمل مصطلح الجبال.

(*) السارينة : آلة التتبيه فى السيارة أو غيرها. (المترجم).

(٢) استعمال هذه الكلمة الحديثة غير مناسب لوصف الأصوات الصادرة عن القيثارات Sirens الوارد ذكرها فى ملحمة الأويسا.

من قبيلتى العوامير والكذابين وهم يصيحون قائلين: "جاهزون! جاهزون!" أنا أبو فلان^(١) من القبيلة الفلانية. هذه جماعتى وهم فى حمايتى؛ كان الهدف من وراء هذا الكلام، هو إنقاذنا من الغزاة الذين ينتمون إلى طوائفهم، لو كان هؤلاء الغزاة كذلك، ويقال أن هذه الصيحة لا يساء استعمالها مطلقاً.

جرى بعض آخر من أفراد الجماعة فى كل الاتجاهات، على الرغم من أنهم فى الظلام لم يكونوا على اتصال بعضهم مع البعض، وبدأ الأمر لى وكأن الصديق يمكن أن يكون عدواً بمنتهى السهولة.

مرت ساعة، لم يجرِ طوالها تكرر الصوت، بل لم يكن هناك أى صوت على الإطلاق، على الرغم من أن جماعتى كانت واثقة تماماً مما يحدث، يضاف إلى ذلك أن الصناديد الموجودين فى الخارج بقوا ثابتين فى أماكنهم يواصلون حراستهم الليلية.

كنت متعباً تماماً، الأمر الذى جعلنى مستعداً تماماً لتصديق إن الإنذار الذى انطلق كان بسبب حيوان برى وليس بسبب عدو من الأعداء، ومن هنا اختلف تقديرى عن تقدير رفاقى. وثبت أن تقديرى هو الصحيح. وفى الصباح استطاع أفراد الجماعة قص أثر ذئب على مقربة منا؛ واتضح أن عواء ذلك الذئب كان شبيهاً إلى حد بعيد جداً بالعوان، أى صيحة الحرب التى تصدر عن الغزاة القائمين بالهجوم.

ونحن ننوّه هنا إلى أن الرحالة يتعين عليهم دراسة تقنية الغزو فى الصحراء. قد تكون الجماعة القادمة عليك جماعة صديقة، لكن يجب التسليم دوماً بأن مثل هذه الجماعة لا بد أن تكون عدواً. لو كان أفراد الجماعة قد تعرفوا عواء الذئب على أنه هو ما تخشاه لكانوا قد فتحوا نيران بنادقهم فى ذلك الاتجاه. وهذا

(١) أبو فلان : فى الجزيرة العربية يسمى الرجل نفسه بأنه "أب لابن من أبنائه" وهذا تعليق على التشريف والتبجيل اللذين تحظى بهما الأبوة. واقع الأمر أن سعيد تيمور بن فيصل، سلطان مسقط لم يُستثنَ من هذا التقليد فقد وقّع إحدى المعاملات باسم "أبو سعيد" وأن ولده سيد سعيد، هو ولى العهد.

اجراء يهدف إلى كسر حماس القادمين بغض النظر عن توزعهم. لو حدث ذلك لكان كل المرافقين لنا قد تقدموا وراحوا يعلنون عن أسمائهم واسم قبيلتهم مثلما فعل المرافقون لنا من قبيلة الكرابين. لو حدث ذلك لتعرف القادمون هذه الصيحات، نظراً لأن كل قبيلة من القبائل لها مميزات صوتية خاصة بها. هذا يعنى أن القادم الصديق يصيح هو الآخر معلناً اسمه، وإذا ما جرى التحقق من ذلك، يتقدم كل من الصديق والمرافق من اتجاهين متقابلين، ويسمح للجماعة القادمة بالدخول والاقتراب.

وإذا ما التقت جماعتان أثناء النهار، فإن المرافقين يتقدمان من الجانبين وهما راكبان، إلى الأمام إلى مسافة تقل عن مائة ياردة لكي يتحقق كل منهما من الآخر، في ظل أفراد كل جماعة من الجماعتين ينتظرون خائفين.

إذا ما اتضح أن القادم عدو، فإن ذلك يجعل المرافق ينطلق هارباً عائداً إلى رفاقه، الذين يقومون بفتح نيران بنادقهم من مدى بعيد: وفي حال الظهور المفاجئ لعدو مفترض، يبادر الرجال إلى جمع إبلهم ويسارعون إلى الوقوف أمام هذه الإبل على شكل صف ويروحون يفتحون النار على القادمين. والهدف في الحالين من ذلك كله هو طرد ذلك الطرف الآخر ورده خائفاً.

يجب ألا يغيب عنا أن الجماعة الأكبر عدداً، والأحسن ركوباً، والأفضل تسليحاً لا بد أن تكون هي السائدة في النهاية، يزداد على ذلك أن الضعيف يود أن يهرب أو يفر، وإذا ما كانت الجماعة الغازية تستشعر ولو ميزة طفيفة فإنها تشن حرب استئصال إلى أن يصبح طرف من الطرفين بلا ذخيرة، لأن أعراف الصحراء تقضى بالألا يستسلم أى طرف من الطرفين حتى وإن لم تبق معه ولو طلقة واحدة، لكن إذا كانت الجماعة المهاجمة هي صاحبة الكفة الراجحة فهي لا تتوانى عن القيام بما هو مطلوب منها؛ هذا يعنى أن هذه الجماعة سوف تكتسح ضحاياها.

يُعد الاستسلام للقادم الأول الأمل الوحيد لأى فرد من الأفراد. هذا يعنى أن المصطلح الصحراوى "سلمنى" Sellemni هو بمثابة صيحة "السلام" Pax التى يطلقها التلميذ طلباً للعفو، والإشارة إلى الاستسلام تتمثل أيضاً فى رفع الفرد لبنديقيه فوق رأسه، أو يلقى بها على أحد الجانبين. وهنا يرد المنتصر كاشفاً عن



(سلاسل الكتبان الرومية)

رحمته قائلاً: "فى وجهى" يتطلع إلى معاملة طيبة فإنه يحق له أن يقول "سَلَّمْنى" - ببندقيتى^(١)، أو "خنجرى"، أو "جملى"، لكن هذه مخاطرة يندر أن يُقدم عليها أحد من هؤلاء البشر؛ الأرجح هو أن خصمه يغطيه ببندقيته، وإن أفضل ما يمكن أن ينتظره هذا الأسير هو إنقاذ حياته وتركه يعود خاوى الوفاض إلى أهله وذويه. لكن إذا ما قُتل أحد من المهاجمين، فإن قانون الثأر لا بد من أعماله وبذلك يجرى إزهاق روح مثل هذا الأسير. وعليه إذا لم يرد المنتصر قائلاً: "فى وجهى"؛ فذلك يعنى أنه يجب ألا يتوقع الرحمة.

ومن هنا يمكن القول أن الجماعات الفازية صنفان: الصنف الأول هو القبيلة التى ليس بينها وبين قبيلتك صراع دامٍ، والصنف الثانى هو تلك القبائل التى بينها وبين قبيلتك صراع دم (ثأر). وهذا الصنف وذاك الصنف يريد إبلك وأسلحتك، والشئ الثانى بعد ذلك هو حياتك. كان خويتيم قد قال لى ذات مرة وهو يمشى بجوارى: "نحن نعطى وجهنا لقطاع واحد من السعارين ولا نعطيه لغير هذا القطاع - والله أعلم".

كان الوقت مصادفًا لصباح عيد الميلاد عندما خَلَفْنَا وراءنا مخيم "الذعر" (الذى يقال أنه يقع شمالى وادى يوربا)، وبدأنا المسير عبر ذلك الجزء الذى يعد أعلى وأوسع كل المناطق الرملية التى صادفتها فى رحلتى - ألا وهو ذلك الوادى الذى يطلقون عليه اسم وادى عروق الضاحية. صادفنا خلال الساعات الأربع الأولى سلسلة من الجبال، والقمم. كانت إبلنا، تلك الحيوانات التعيسة قد تسلقت بجهد جهيد تلك الأماكن إلى أن وصلت إلى قممها الشبيهة بحد السكين، وكانت أرجلها تغوص إلى رُكْبِها فى رمال هذه الجبال المنحدرة. كنا نتلفت هنا وهناك تجنباً للمخاوف ومحاولة منا إلى البحث عن الطريق والمسار الأفضل، ونزلنا كلنا من فوق إبلنا ورحنا نزيل الرمل بأيدينا من المنحدر على أمل إيجاد مسار أفضل للإبل.

(١) اكتشفت أن كلمة "بندق" (جمعها بنادق) يشيع استعمالها فى منطقة الرمال بدلاً من الكلمة الإنجليزية rifle - وهذا يؤكد الملاحظة التى أبداهـا يول yule عن Hobson - Jobson عندما قال إن اللغة الهندوستانية تستقى مفرداتها عن طريق اللغة العربية.

كان الرمل الناعم يغطى سيقاننا مع كل خطوة نخطوها؛ وأصبحت أحدىتنا أمراً غير ذى بال، كما أن الركوب لم يكن هو الآخر مريحاً نظراً لأن نزول المنحدر يحتم أن يكون الظهر منحنيًا إلى الأمام وبزاوية حادة بحكم انحناء الظهر ليكون زاوية حادة مع عنق الجمل. يضاف إلى ذلك أن النظر بحد ذاته إلى الأسفل، عند نزول منحدر يقدر بقربة مائة قدم أو أكثر يعد عملية مزعجة يتعين المرور بها، ومع ذلك فإن حيواناتنا غير الرشيقة، قاومت بعزم وإصرار خطأ أو مساراً منحرفاً عبر سطح هذا المنحدر، وكانت أقدامها تغوص فى الرمل مع كل خطوة نخطوها، وتنتثر سحباً من الرمل عندما تسحب أرجلها.

الخيال لا تستطيع المشى فى هذه الرمال الجنوبية، حتى وإن أتينا بها إلى هذه القفار الخالية من الماء والتي هى بمثابة أراضٍ حدودية، كما أن هذه القفار الحدودية يتعذر تماماً السير فيها باستخدام السيارة.

عادت علينا هذه المشقة ببعض التعويضات - كنا نُفاجأ فى بعض اللحظات بصورة شديدة الروعة، عبارة عن رقعة هائلة منمقة، رائعة اللون، وبخاصة اللون الوردى القديم، ومن فوقها سماء صافية خالية من الغيوم وضوء ساطع لامع. وهذه الصورة نجد مثيلاً لها فى يوم من أيام الشتاء فى سويسرا - كنا نستشعر استسلام التربة من تحت أقدامنا ومتعة كبيرة فى الهواء الذى يحيط بنا ويداعبنا.

أخيراً وبعد أن اجتزنا منظومة الكثبان الرملية التى يطلقون عليها اسم ثروب ابن أمانى، والتى يقولون عنها إنها النقطة التى تمثل منتصف الطريق بين الماء الحلو فى خور الضاحية وثقب الماء المالح، الذى يسمونه ابن حمودة ويقع فى الشمال الشرقى، أصبح مسيرنا هيناً ليناً، لأننا غيرنا مسارنا واتجهنا شمالاً إلى رقع طويلة من الأرض على امتداد الوديان الرملية التى تتجه، فى هذه المنطقة، إلى ناحية الشرق، فيما بين الكثبان الرملية العتيدة.

وقبيل غروب الشمس نودى بعمل وقفة.

صاحت جماعتى ونحن نقوم بتجميع الإبل "هذا هو خور الضاحية!" جريت إلى مقدمة التل الموجود أمامى، وخبأت نفسى، ونظرت إلى الوادى الرملى الكبير الذى يمتد فى الاتجاه الشمالى الشرقى والاتجاه الجنوبى الغربى، ويصل عرضه

فى هذه المنطقة إلى قرابة الميل. كانت فى مجرى هذا الوادى، الذى يقع على مسافة ثلاثمائة ميل فى الأسفل، رقعة خضراء من الأرض التى كنا نبتغى الوصول إليها، حيث يوجد ثقب الماء الشهير، الذى كان مفترضاً أن ألتقى عنده الشيخ صالح ومعه مجموعة جديدة من الإبل فى اليوم الرابع من الشهر القمري. كان يومنا هذا مصادفًا لليوم الخامس من الشهر، وهذا يعنى أنى وصلت متأخرًا يومًا عن الموعد المحدد، لكنى لم أرَ أية دلائل على وجود صالح أو جماعته- لم أرَ سوى فراغات صامتة لا شىء فيها.

ومن باب الحرص توقفنا فترة قصيرة انتظاراً لدخول الماء، وكانت تلك الوقفة القصيرة فى مراعى مبعثرة، وفى هذه الأثناء أخذ اثنان من جماعتنا قريتهما وراحا يعدوان فى الحال؛ سالكين تحويلة واسعة بغية الوصول إلى الوادى لاستطلاع الأرض.

راقبت من خلال نظارتى المُكبَّرة شكليهما الصغيرين وهما إلى جوار ثقب الماء، وكنت أتساءل فيما بينى وبين نفسى عن احتمال وجود عدو كامن فى ذلك المكان أو على مقربة منه. لكنهما بعد أن فتشا المنطقة واستطلعاهما استطلاعاً جيداً، عادا إلينا غير خائفين، فى الوقت الذى كنت أنتظر فيه أخبارهما على مضض، وكنت ألاحظ من خلال نظارتى المكبرة أن شكليهما يكبران وهما يتسلقان الرمال إلى أن غربت الشمس وأرخبى الليل سدوله علينا. كانت الأخبار طيبة وسيئة فى آنٍ واحد. لم يَرْتَوْ مؤخرًا صديق أو عدو من هذا الثقب، وكانت آثار أقدامهما الموجودة منذ يومين لاتزال كما هى بلا تغيير؛ كان مبارك، مرافق الشيخ صالح لم يَزُرْ ثقب الماء هذا إلا بالأمس فقط، والله أعلم، وإنهما سوف يُطْلَعَانِى على أثر أقدامه فى صباح الغد.

كان عشاء عيد الميلاد مكوناً من حساء مجفف، مطهى بماء الضاحية، الذى لا يحتاج إلى شىء من الملح أو الفلفل، بالإضافة إلى علبة من علب الفاصوليا المطبوخة التى كنت أحملها معى للمناسبات الخاصة- وهذا بحد ذاته طعام احتفائى بعد مسير دام تسع ساعات متعبة لم أتناول خلالها طعاماً صلباً، جاءت وجبة الظهيرة بمثابة نوع من الترف الذى لم أعود نفسى عليه مطلقاً. كانت مسألة الصياح وطلب وقفة طويلة عند الظهر أمراً لا بد منه - ذلك أن القاعدة

الحياتية فى قلب الصحراء القاحلة الجرداء تحتم الانتقال السريع من مرعى إلى مرعى آخر. وعوضاً عن ذلك كنت أحمل معى قارورة من حليب الإبل، بالإضافة إلى تعيين يومى من أقراص حليب الإبل المجفف، يضاف إلى ذلك أن الوقفات القصيرة التى كنا نقفها حتى تتمكن الإبل من الرعى لبعض الوقت، أو لإعطاء الفرصة للبدو لأداء الصلاة، كان ذلك كله يهين لى فرصة إطفاء ظمئى.

الوقفات فى الصحراء تكون وبحق فى صالح الإبل. هذه الحيوانات المسكينة التى يبدأ المترحل باحتقارها ثم يتعلم الإعجاب بها كثيراً، هى الوسيلة التى يتحرك بواسطتها طلباً للنجاح أو الفرار بها حفاظاً على حياته. وهنا يجب ألا يغيب عنا أن صاحب الجمل فى الأماكن القاحلة الجرداء البعيدة يموت إذا ماتت ناقته. من هنا فإن الاهتمام الذى كان يؤليه رفاقى لإبلهم، كان أمراً يسترعى الانتباه، وفى أغلب الأحيان كنت أجد نفسى الشخص الوحيد، من بين أفراد جماعتى، الذى يركب راحلته، فى حين كان باقى أفراد الجماعة يمشون ساعات طوالاً بغية تخفيف أحمال مطاياهم، كما كانوا يجرون هنا وهناك لجمع قبضات من العشب الغض الذى تحبه الإبل، كيما يطعموا بها إبلهم أثناء المسير.

كانت إبلنا متعبة. يكفى النظر إلى سنام جمل من الإبل، الذى يبدأ كبيراً وممتلئاً حتى نقف على القصة كاملة. هذا من منطلق أن سنام الجمل هو بمثابة البارومتر الذى نقيس به الحال التى عليها الجمل؛ إبلنا بدأت بسنامات ممتلئة تدهورت بعد ذلك تدهوراً سريعاً وبائساً، كنا نتوقع حدوث ذلك بعد رحلة مدتها ثمانية أيام وهى تنوء بأحمالها عبر هذه الصحراء الجرداء الخالية من الماء، فى منطقة الحدود الجنوبية.

استيقظنا فى ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالى. اقتاد البدو إبلهم نازلين بها على أفضل نحو ممكن، وكانوا يتفنون فرحاً بالماء المنتظر الذى تنتظره الإبل على أحر من الجمر، وبمقاييس لا تعيها سوى هذه الحيوانات. أما أنا فكنت أسير على قدمى، تحاشياً للمسارات الوعرة فى المنحدرات الرملية الناعمة المنزلة، ومتحاشياً أيضاً منظر الإبل وحركاتها الأكروباتية، وهى تحمل على ظهورها أجهزة القياس الثمينة. وسط ضوضاء تنم عن الفرح ولم يسبق أن سمعناها من

قبل فى أية مرة من المرات. هذا الثقب الذى لا يزيد قطره على ياردة واحدة، كانت توجد على حوافه كومة من الوحل الجديد أصفر اللون، الذى كان يمثل المخلّقات التى رفعها، فى البداية، واحد من البدو، كان قد سبق الجماعة كيما يقوم بتنظيف الثقب. وعندما نظرت فى الثقب رأيت عربياً واقفاً فى الثقب وفى الماء الذى يغطى ركبتيه، ويقوم بملء دلاء الجلد التى كان السقاة يناولونه إياها، وعلى مقربة من الثقب كان هناك رجل من الكدابين يتناول دلواً بعد آخر ويرفعه إلى شفّتى حيوانه العطشان، وهو يتحدث معه طول الوقت، إلى أن رفعت الناقة رأسها وكشفت بطنها عن أنها أخذت بغيتها من الماء، وهنا يروح ذلك الرجل يدلل الناقة بسكب الماء المتبقى على عنقها، أو بقذف الدلو فى الهواء ليمسك به من جديد قبل سقوطه على الأرض^(١).

تُرى، أين كان الشيخ صالح هو والإبل المنتظرة؟ أمضيت يوماً من القلق فى التساؤل، لكن كلثوث، ولد الشيخ صالح، كان لديه تفسير لما يحدث. قال كلثوث: إن خور الضاحية ليس مكاناً صحيحاً، لأن السعارين وبعض الغزاة من حضرموت يعرفون هذا الخور حق المعرفة، يضاف إلى ذلك، وعلى حد ما أراه أمامى، فإن الخور ليس به مرعى على الإطلاق.

كنا فى ساعة متأخرة من عصر اليوم الذى غادرنا فيه ثقب الماء. وغربت الشمس علينا ونحن فوق سطح رملى مرتفع، فيه مرعى كثيف من الزهار والعبالة، وبذلك يكون مرعى طيباً فى واقع الأمر؛ وقالوا لى أيضاً إن هناك أيضاً مراعى أخرى أجود من هذا المرعى، تنتظرنا؛ وعليه لابد أن يكون الشيخ صالح فى واحدة من هذه المراعى. وعليه بگّرنا تحركنا فى صبيحة اليوم التالى. قامت الجماعة باستطلاع الرمال المجاورة لنا بحثاً عن أثر أقدام الشيخ صالح، وهنا انطلقت تعبيرات الشكر له. شاركتهم هذا المرح الصادر عن قلوبهم، نظراً لأن أثر قدمى حماد بن حادى كان من بين آثار الإقدام التى جرى العثور عليها؛ حماد بن حادى هذا واحد من أبناء قبيلة المرة الذى أتى الشيخ صالح على ذكره وزكّاه

(١) بلغنى أن الناس هنا يستعملون الجبس المحلى فى عمل غدران الماء فى فصل الصيف، حول ثقوب الماء.

للقيام بتحقيق ذلك الذى أريده أنا، وذلك إذا ما أفلحنا فى إقناعه بأن يكون مرشداً ومرافقاً لنا. عثرنا على آثار لإبل كثيرة أخرى، قرابة عشرين من الإبل، وهذا بحد ذاته اكتشاف مشجع والسبب فى ذلك أن حيواناتنا المرهقة والمتعبة بعد مسيرها الاضطرارى إلى ظفار ثم العودة، كان لا يمكن لها أن تتحرك وهى تحمل أحمالاً ثقيلة مدة ثلاثة أيام أخرى، دون أن تتال قسماً من الراحة.

قال رجالى: "اسمع، أيها صاحب الأمر على النحو التالى" وراحوا يشيرون إلى أثر قدم بدا لى مثل آثار الأقدام الأخرى. "هذا هو أثر قدم ناقة الشيخ صالح" لقد كان يتولى القيادة فى هذه المنطقة. إن ناقته عُشار. انظر إلى مدى عمق الأثر الناجم عن الناقة؛ أدهشتنى دقة الوصف لأولئك الذين كانوا يسبقوننا، وأدهشتنى أيضاً تلك السهولة التى يقرأ بها هؤلاء البشر آثار الأقدام التى تابعتها. وأنا عندما أقارن ذلك بنظريات بصمات الأصابع السائدة فى الغرب، أرى أن هذه النظريات شديدة البطء ومجهدة من الناحية الفنية.

"الرمل عبارة عن مفكرة يومية عامة، إلى حد أن من يجرى فى هذه الرمال يستطيع أن يقص أثر كل المخلوقات التى تمشى فيها حافية الأقدام. لم يكن كل رفيق من رفاقى قادراً، ومن أول وهلة، على قص أثر كل أقدام الإبل والبشر التابعين لقافلتى، وإنما هو قادر أيضاً على قص أثر إبل قبيلته، وقص أثر الكثير من إبل أعدائه. هذا يعنى أن كل طائر يطير، وكل حيوان، بل وكل حشرة من الحشرات تترك تاريخها على الرمال، ويبقى ذلك السجل إلى أن تهب ريح حاملة معها رمالاً ناعمة تُمحي بها هذه الآثار. والأفاعى هى والأرانب البرية، وكذلك ثعالب الصحراء، وكذلك العديد أيضاً من السحالى تقضى على نفسها عندما تخلف وراءها آثار أقدامها؛ هذا يعنى أن الجحور التى تختفى فيها هذه المخلوقات، لا طائل من ورائها".

هنا بدأت آثار الأقدام الصديقة تصبح مرشداً لنا، واقتادتنا بزوايا قائمة إلى مسارنا القديم فى الاتجاه الشمالى الشرقى، عبر كثبان رملية وعرة، وهنا بدأت قراءات جهاز قياس الارتفاع (الأنرويد) فى الانخفاض بصورة متدرجة. وعندما صعدنا إلى قمم التلال الرملية رحت أستطلع بشوق كبير الأماكن المحيطة بنا

بحثاً عن مخيم الشيخ صالح. وحدث فجأة نوع من المرح والدغدغة المرحّة عندما بدت لنا البقع السوداء، وحددت لى هدفنا المبتغى. ياله من مشهد مفعم بالترحاب! الذى أوحى لى بأن توحيد قوتنا سوف يقلل بل ويشفيها من التوتر الذى كابدها فى مسيرات القلق التى قمنا بها مؤخراً، يزداد على ذلك، وهذا هو ما تمنيت، أن مُضِيْنَا قُدُمًا فى الرمال سوف يصبح أمراً ممكناً وهيئاً.

الفصل الرابع عشر

نُبذة جغرافية عن الرِّيع الخالى

قد يكون من المناسب هنا، وعلى حساب قطع سياق الرواية على امتداد بضع صفحات قلائل، وبخاصة فى هذه المنطقة التى أٌغادر عندها منطقة الرمال، أن ألفت انتباه القارئ إلى خريطتى، ولعله يتفكر بطريقة موجزة فى شكل هذه الرمال بصفة عامة وفى شكل الربع الخالى بصفة خاصة.

كل المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، والتى يحدُّها خط طول ٤٦° درجة شمالى خط الطول العشرين الموازى له، ويحدها خط طول ٤٨° درجة من ناحية الجنوب، اللهم باستثناء شريط ساحلى ضيق، تحمل، على خرائطنا، اسم الربع الخالى، هذا الاسم العربى أحزننى إلى حد ما أنه لا ينطبق على هذه المنطقة؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم لا يعرفه فقط سوى العرب الذين يقرءون ويكتبون، أى الذين تعلموا الجغرافيا من الكتب الدراسية، لكن القبائل التى تعيش فى الربع الخالى لا تستعمل هذا المصطلح ولا تفهمه بمدلوله الجغرافى.

يتكون الربع الخالى من صحراء، يشكل القسمان الشرقى والجنوبى منها ما يقرب من ثلث المساحة كلها، وهذان القسمان عبارة عن أراضٍ سهوبية، كما هو الحال فى سهوب السيح فى الشمال، وجدة حراسيس فى الجنوب؛ وسكان هذا الجزء يطلقون على منطقة الرمال اسم "الرملى" أو "الرمال" والقبائل تتمركز بشكل كبير داخل حدود واسعة، ولذلك فهم يطلقون أسماء محددة على أماكن معينة من الرمال. ولذلك نجد منطقة من مناطق السهوب تشتق اسمها من اسم

القبيلة التي تعيش فيها، لكن الأكثر شيوعاً هو أن تشتق مثل هذه المنطقة اسمها من اسم الوادي الموجود فيها^(١).

لقد أثبت أن الحافة الجنوبية تقدر بقرابة مائتي ميل، إنها تمتد موازية للساحل الجنوبي من الجزيرة العربية من موجشين إلى شمال حضرموت، وإنها تتحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق.

الحافة الشرقية لهذه الرمال تمتد من الشمال إلى الشمال الشرقي من موجشين، لمسير أربعة أيام، إلى قرن السهام؛ ومن قرن السهام تتجه شمالاً وتسير، بصورة تقريبية، مع خط طول ٥٥ درجة و ٤٠ دقيقة، لمدة يوم تقريباً لتصل إلى غربي إبري، وتطوّق الجانب الغربي من جبل حافت، وتمتد من هناك على شكل حافة بارزة تتصفّ شبه الجزيرة العمانية.

يُقال أن منظومة جبال عروق الضاحية الجبسية، داخل حدود الرمال، تشكل حدوة فرس كبيرة، يتركز الجزء الرئيس منها على الحدود الجنوبية الرئيسة في أقاليم أم غريب، خرخير، عروق الضاحية، منيور ثم رجعات؛ يزداد على ذلك أن الذراع الغربي لهذه المنظومة الجبلية يسير مع خط طول ٤٩ درجة إلى أن يصل إلى دائرة العرض ٢٠ درجة شمالاً، وبذلك يطوق أو يحتضن مناطق جعاميات، الحوية وشويكيله:

ولكن الذراع الشرقي لهذه المنظومة يسير مع خط طول ٥٣ درجة شرقاً، ليصل على وجه التقريب إلى دائرة عرض ٢٢ درجة و ٣٠ دقيقة شمالاً، ضاماً بذلك عروق ميجورة، طاميشة، شيبية وماريخا.

ونحن نجد داخل حدوة الفرس هذه القبائل التي تسكن منطقة الرمال الكبيرة مثل: (١) قبيلة المُرّة، (٢) ونرى أيضاً بطناً من بطون قبيلة الرشيد، وبتناً من قبيلة إيماني اللتين تنتميان إلى الكثرين، وذلك إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من

(١) الكلمة العربية "وادي" يقول لها الإنجليز valley لكن أهل الربع الخالي يعنون بكلمة "الوادي" المجري المائي الجاف" والبدو يستعملون هذه الكلمة بدون مدلولها الطبوغرافي، وإنما هي عندهم مصطلح يدل على "المرعى". وعلى سبيل المثال، فإن مصطلح "الوادي الكبير" (هناك تذكّار مغربي لذلك الوادي في الموروث الإسباني) يعنى بالإنجليزية the big valley، وهو يعنى عند العامة وأيضاً في اللغة العامية "المراعى الجيدة" ولا يعنى بالضرورة: وادٍ ضخم أو مجرى مائي ضخم.

الجنوب الأوسط، (٣) ونرى أيضاً العوامير والمناصير (على نطاق محدود جداً) إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من الشمال الشرقى.

وخارج حدود الفرس هذه، وفيما بين حدود الفرس والسهب، نجد الرمال الحدودية التى تستعملها بطون معينة من قبائل السهوب، فى مواسم محددة. وفى شمال هذه المنطقة نجد قبائل البو شمس، دروع، الحراسيس، الأفار: وفى الجنوب نجد بيت الكثارين، المناهيل، العوامير (العناصر الجنوبية من العوامير)، السعارين، والكرابين، لكنهم فى أغلب الأحيان يعيشون على بعد مسافة آمنة من ثقب الماء (١).

تشكل قراءات الارتفاع، التى سجلتها أجهزة القياس التى كانت معى طوال مساراتى الأربعة، قرابة ألفى ميل فى الشمال، الجنوب الشرقى، الوسط الجنوبى، ووسط الربع الخالى، تشكل هذه القراءات هى والاتجاهات التى سجلتها لمجارى الوديان (سواء التى لاحظتها أم التى تأكدت منها من المعلومات العربية)، الوسائل التى تؤكد انحدار هذا الجزء من قارة الجزيرة العربية.

يجب أن ننوه هنا إلى أن المنظر العام للجزيرة العربية الذى يرتفع فجأة فى الجانب الغربى فى البحر الأحمر وفى جروف صدع البحر الميت لينحدر بصورة متدرجة فى اتجاه الشرق، وبخاصة فى سهول العراق ومياه الخليج الفارسى، لا يمتد إلى الربع الخالى. هنا فى الربع الخالى نجد أن الأرض ترتفع بصورة مفاجئة فى ثلاثة اتجاهات: الشمال الشرقى، سلسلة جبال حجار فى عُمان؛ فى الجنوب الأوسط، حيث توجد منظومة ظفار؛ وفى الجنوب الغربى، حيث توجد جبال حضرموت ونَجْران. وهذه المستويات المختلفة تشير إلى الخليج الفارسى وإلى سواحل البحر العربى فى الجانب الشرقى من الصحراء. من هنا نجد أن انحدار الرمال إلى الخليج الفارسى يتضح من هذه المنطقة: وهذا يحتم وجود منخفض فى وسط الجنوب الشرقى.

جاءت ارتفاعات الحافة الشرقية للرمال على النحو التالى بصورة تقريبية: قدرت أجهزة القياس ارتفاع الحافة البارزة الشمالية التى عبرتها فى العام ١٩٢٦

(١) هناك جزيرة رملية منعزلة فى شرقى مثلث جعلان التى هى موطن قبيلة جال وهيبه.

بقرابة ١٢٠٠ قدم. وفى اتجاه الغرب من جبل حافيت قدرت الأجهزة الارتفاع بقرابة ١٠٠٠ قدم. وهنا يجب الإشارة إلى أن السير بيرسى كوكس سجل ارتفاع إبرى Ibrī على أنه ١٦٠٠ قدم، ويترتب على ذلك أن حافة الرمال عند دائرة العرض هذه، وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارنا الانحدار الجنوبي لوادى العين الموجود فى هذه المنطقة، لابد وأن تكون منخفضة انخفاضاً كبيراً. كان ارتفاع الرمال فى موحشين يقدر بقرابة ٤٠٠ قدم. ومن ذلك كله يمكن أن نخلص إلى أن الحافة الشرقية للرمال تنحدر من الشمال إلى الجنوب.

يوجد شرقى هذه الحافة الشرقية للرمال، سهب يرتفع ارتفاعاً متدرجاً فى اتجاه الشمال الشرقى إلى أن يصل إلى سلسلة جبال الحجار العظيمة التى هى بمثابة العمود الفقرى العُمانى؛ ومن هذا المكان نجد وديان الصرف مثل: وادى العين، الوادى الأسود، وادى العميرى، وكذلك وادى المُسلم تشق لنفسها مسارات متوازية متجهة إلى الجنوب الغربى لتختفى فى نهاية المطاف فى الحدود الشرقية للرمال. ويوجد فى الجنوب الشرقى من موحشين سهب آخر لا يمكن تمييز انحداره لكن الناس هنا يقولون: إن هذا السَّهْب تحدُّه من الناحية الشمالية الشرقية سلسلة جبل حُقف المعزولة. ويقولون أيضاً إن هذا السهب تحدّه من الناحية الجنوبية الشرقية وديان: قادان (غودون ٥)، رونيبي، جيتام (عبرت مصبات هذه الوديان عند مستوى سطح البحر فى العام ١٩٢٨ الميلادى) وتتجه هذه الوديان إلى الجنوب الشرقى إلى خليج سوكيرا.

ويجب الانتباه أيضاً إلى أن جَدَّة الحراسيس تستقبل عند جانبها الجنوبى الغربى منظومة وادى عاره، التى هى بمثابة منظومة الصرف الداخلية للامتداد الشمالى لجبل سمحان. ومن المكان الذى عبرت منه هذه المنظومة فى الرحلة السابقة التى قمت بها إلى هذا المكان، وجدت رؤوس هذا الوادى تمتد فى اتجاه الشمال الشرقى، وقد تراوحت قراءات جهاز قياس الارتفاع (الأنرويد) بين ١١٠٠ قدم شرقاً و ١٤٠٠ قدم غرباً. وفى اتجاه الشرق من جبل حُقف، نجد أن الوديين الكبيرين الوحيديين: جالفين وأندام، ينحرفان مبتعدين عن شرقى حجار العمانية، ويتجهان جنوباً، فى بعض أجزائهما ليصرفا مياههما فى خليج مسيره.

هذا يعنى أن هناك منطقة منخفضة عند الطرف الجنوبي الشرقى للرمال العظيمة، وإن هذا المنخفض يشكل ممراً يمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى، كما يمتد أيضاً من ساحل خليج سوكيره Sauqira مخترباً جدّة حراسيس ومنها إلى الرمال، ونحن نرجح أن يكون ذلك عند خط طول ٥٤° درجة شرقاً إلى خط طول ٥٥° درجة شرقاً، وعند دائرة عرض ٢٠° درجة شمالاً إلى دائرة عرض ٢٢° درجة شمالاً. وفى داخل هذا الممر نجد أن الماء يصل إلى السطح عند كل من موجشين وحميدان. وشمالى هذا الممر نجد أن الانحدار العام يتجه نحو الأعلى فى الناحيتين: الشمالية والشرقية، وفى الناحية الجنوبية من هذا الممر نجد أنه يرتفع متجهاً صوب الجنوب والغرب.

يزاد على ذلك، أن وجود الرمال الصحراوية المتحركة على الجانب الشمالى من هذا الممر، أى فى المنطقة التى يلتقى عندها هذا الممر منطقة الرمال الكبيرة، يعد مسألة ذات أهمية جغرافية كبيرة. والناس هنا يقولون إن المسافة إلى أم السميم، وهو الاسم الذى يطلقه الناس على هذه المنطقة، تقدر بمسير يومين فى كل الاتجاهات. ومن حيث الشكل نجد أن أم السميم هذه عبارة عن سهل ملحي، كما أنها لا تعطى المترحل الحذر أية إشارة إلى مستنقعاتها الخادعة. لقد لقى الكثيرون حتفهم فى هذه المستنقعات الخادعة؛ والناس هنا يقولون إن بعضاً فقط من بدو الدأروغ Daru، الذين يأتون إلى هنا لأخذ الملح، هم الوحيدون القادرون على مجابهة الممرات السرية فى هذه المستنقعات، ومجابهة الغزاة، على نحو يجعل الناس يتحاشون هذه المستنقعات ويتعدون عنها.

وهذا هو فون فيريد، ذلك الجندى البافارى الحظيظ الذى اخترق حضرموت متتكرراً فى زى مسلم فى العام ١٨٢٤، قد سجل ظاهرة مماثلة، أطلق على مكانها اسم البحر الصافى. لقد قصد ذلك الرجل رقعة من تلك الرقع بيضاء اللون، وكان مسلحاً بشاغول وإن شئت فقل: فادون، طوله قرابة ست قامات أى قرابة ست وثلاثين قدماً. "وبحرص بالغ اقتربت من الحدود لفحص الرمل، الذى وجدته عبارة عن مسحوق لا يُحسُّ به عند اللمس، ثم قذفت الشاغول إلى أبعد مسافة ممكنة؛ وغاص الشاغول فى الحال، كانت الكثافة آخذة فى التناقص، وفى غضون

خمس دقائق كان طرف حبل الشاغول قد اختفى تماماً فى جوف ذلك القبر الذى يبتلع كل شىء".

وأنا، إذا كنت لا أريد الطعن فى مصداقية ما ذكره فون فيريد، فإنى يتعين على أن أسجل هنا أن السواد الأعظم من الرفاق الذين صحبوني فى رحلاتى، سبق لهم القيام بعمليات غزو فى الرمال الواقعة شمالى حضرموت، والواقع يقول: إن المرافقين الكدابين الذين كانوا معى، هم أصلاً من هذه المنطقة، ولا أحد منهم سمع أو يعرف شيئاً عن ذلك البحر الصافى، وقد أكدوا جميعهم أن الرمال المتحركة سالفة الذكر موجودة، هذه الأيام، فى أم السميم فقط، وإنها تقع فى المسافة فيما بين الرمل والسَّهْب الموجود فى شمال وشرق موجشين وجنوب وغرب عبرى. وقد حكى لى الكثيرون من البدو العمانيين هم وآخرون عن الرمال المتحركة فى أم السميم.

الفصل الخامس عشر

عبور رمال دكاكا: إبل المرحلة الثانية

"حيًا بوصولكم، أيها الصاحب!
مرحباً وحيًا ببيكم".

هذه هي تحية الصحراء التي استقبلني بها الشيخ صالح وأنا مُنتشٍ فرحاً فوق ناقتي وعلى بعد مسافة في مقدمة جماعتي، وكلنا يستهدف الوصول إلى المخيم الجديد، وعليه قمت بتبريك ناقتي، التي يطلقون عليها الاسم قرينها، وقفزت نازلاً من فوق ظهرها للمرة الأخيرة، لكي أصافح يد الشيخ صالح الممدودة إليّ. كان بصحبة الشيخ صالح رجل أنا أعرفه - هو محمد العجوز المتين الذي رافقني في الرحلة التي قمت بها في العام الماضي. هذان الاثنان وحدهما؛ أما باقى جماعة البدو الغرباء فكانوا ينظرون إليّ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة التقدم للقائى، وهنا أحسست شيئاً من البرود في الجو المحيط بنا، الذي كان ينذر بالشر إلى ما كنت أخطط له، تُرى أهكذا ستكون نهاية رحلتي؟ هل لن يسمحوا لى بمواصلة تقدمى لاستكمال رحلتي؟

لكن عندما استقرأت جماعتي هذه الوجوه الباردة، بدت على وجوههم تعبيرات الشفقة والطيبة والحنان، وهنا هب الرجال واقفين للقاء أهليهم القادمين ويحيونهم بطريقة لقاء البدو للبدو. هذه القبلة التي تُطبع على الأنف (١).

(١) تحل قبلة الأنف بين رجال الصحراء، محل المصافحة وهذه المسألة متبعة عند بيت الكثارين الذين يعيشون عند سفوح الجبال، وهى لا تحدث إلا بعد انفصال يدوم خمسة أو ستة أيام، لكنها قد =

هى أيضاً قبلة العاشقين- وحسبما رأيته فهى مكونة من ثلاث حركات يتماس خلالها الاثنان، فى الوقت الذى يضع فيه كل من المتباوسين يده اليمنى على الكتف اليسرى.

وتشكلت على الفور دائرة من العرب الجالسين القرفصاء، وهنا طلبت وضع ثلاثة أطباق من التمر وسط هذه الدائرة كما أمرت أيضاً بتصليح القهوة وتوزيعها على الحاضرين، راح البدو الجدد ينظرون إلىّ فى صمت، الأمر الذى ولّد فى داخلى إحساساً بأننى قد عُرِف وزنى عندما بدأ البدو الجدد يتحدثون بأصوات خفيفة عن اليمين وعن الشمال، مع أعضاء جماعتى القديمة. احتسى أعضاء جماعتى القديمة القهوة والتمر واستخفوا بهما أثناء الدور الأول من احتساء القهوة - لأن هذا يعد شيئاً غير عادى عند أولئك الذين كانوا يصرون على الفوالة أثناء السير، وانشرح صدرى عندما وجدت فى الربع الخالى أن مبدأ "التمسك بالعائلة" يجرى تطبيقه فى هذا المكان. حظيت الأشياء التى قدمناها بالترحيب الذى يقال فى مثل هذه المناسبات الرسمية وكانت لا تزال هناك بقية كبيرة من هذا الترحيب عندما جاء دورى، ورحت أمد أصابعى فى طبق التمر، وعندها قلت:

"مرحباً وأهلاً يا حيّاكم".

وهنا قام سيف العجوز، الشيخ الشرعى للقبيلة، لكنه من فرع خائر القوى^(١) من أفرع القبيلة (الأمر الذى ترتب عليه أن يصبح بيت كيلوت، الذى ليس من سلالة الشيوخ من ناحية الذكور، لكنهم أصحاب عزيمة، وشجاعة، هو صاحب السيادة) بخلع جبّخته (حزام الذخيرة) وألقى بها وسط الدائرة. وكانت تلك

= تحدث فى كثير من الأحيان؛ وهنا بين بدو الرمال يحيون بعضهم بهذه التحية حتى ولو كان الانفصال ليوم واحد فقط. وعند المهارين، سكان السهوب، وعلى الرغم من أنهم قبيلة بدوية، نجد الناس يحيون بعضهم بتحية غريبة لا تستعمل إلا فيما بينهم، وهم لا يستعملون قبلة الأنف، وإنما يطبعون ثلاث قبلات على الخد، تبدأ بالخد الأيمن، ثم الخد الأيسر، ثم الأيمن من جديد.

(١) إذا ما استبعدنا بيت الإيمانى من قبيلة الرشيد (ويقال أن بيت الإيمانى استقلت حالياً بنفسها)، فإن القبيلة ستصبح مكونة من قسمين؛ هما: المتعاربة والسعادنة، وإن الشيخ سيف كان رئيساً لبيت الشياخة.

دعوة من سيف إلى أفراد جماعتي الذين أكسبتهم زيارتهم للساحل، وكذلك أعمال الصيد التي قاموا بها أثناء المسيرة، قاموا بوضع بضع طلاقات قليلة من الذخيرة لكل واحد منهم، تعبيراً عن كرمهم مع هذا الشيخ الفخري. وهنا بدأ أفراد الجماعة الواحد بعد الآخر، يلقون طلقة على ذلك الحزام، وبعد أن انتهوا من ذلك كان سيف قد أصبح مالِكاً لعشر طلاقات من طلاقات الذخيرة.

لم يخذلني الشيخ صالح. فقد جاء الرجل وبصحبه رجل أراد أن يقدمه، وكان الرجل يمشى مشية البدو ممسكاً بيد الشيخ صالح.

"هذا شيخ حمّد، أيها الصاحب! شيخ قبيلة المُرّة (والأفضل لك أن يكون لك أصدقاء وتزيدهم في الصحراء، وذلك على الرغم من أن هذا الوصف لم يحظ بانتباه كبير)^(١). وليس في الرمال كلها مرشد أفضل من حمد بن هادي، وليس هناك محارب أفضل منه، ولا صياد أمهر منه، ولا وفياً أوفى منه، وأنا أشهد الله على ما أقول، وقد تزوج ابني من ابنته؛ وليس هناك من يعرف المراعى وثقوب الماء أفضل من حمد؛ وهو يعرف الطريق عبر الرمال وهو موافق على أن يكون هو المرافق لنا".

كان حمد رجلاً متوسط الحجم صاحب بشرة دُكْناء وعينين ماكرتين ووجه أرمنى شبيه بوجه الصقر، ولحية كثيفة، وصوت سريع ينمُّ عن أن الرجل أكثر حيوية من الشيخ صالح، ولكن هذا الوجه لا يوحي بالثقة منذ الوهلة الأولى. ساكن الصحراء، شأنه شأن الطفل والحيوان، يتحتم الاقتراب منه ببطء شديد جداً وحرص بالغ، وعليه فإن حمد، الذي لم يسبق له رؤية رجل بلونى، أو سمع صوتاً مثل لكنتى، يمكن أن يصيبه الشك والارتياب؛ وعليه قررت فيما بينى وبينى نفسي أن أفضل السياسات مع هذا الرجل هو التمهّل فى تناول المسائل. وعليه كان لقائى الأول بهذا الرجل هو تناول القهوة والحديث الودى عن الصيد؛ وبالمثل جاء اللقاء الثانى قوياً عندما قدمت هدية، عبارة عن غطاء رأس لولده.

(١) كان حمد شيخاً للحتالين، الذين هم فرع غير رئيس ن الغفيران، الذين هم من قبيلة المرة.

سألنى صالح فى اليوم التالى، "ما رأيك فى حمد؟".

"تقصد الرجل نفسه؟".

جشع البدو يُضرب به المثل، "ألم أقل ذلك لك؟ لكنه يود شيئاً كثيراً، أيها الصاحب!" لكنى أنا والشيخ صالح كنا قطعنا على بعضنا البعض، وعداً قبل أن تغادر الساحل، والرجل الآن، يراعى الشروط التى اتفقنا عليها وراح يقنع حمد بقبول الشروط التى اعتبرناها عادلة.

وهنا أصبحت الجماعة الجديدة، بحكم قلة عددها، أكثر وداً معى. لم يكن العداء الذى استشعرته فى البداية سوى تجهم محلى من جانب هؤلاء البدو: واقع الأمر أن هؤلاء البدو جاءوا إلى هنا بصحبة الشيخ صالح لتنفيذ ما أبتغيه، كانت الخطة التى وضعتها تقضى أن يقوم هؤلاء البدو بنقل غريباً عبر رمال دكاكا إلى ثقب الماء فى شنّاء Shanna . وإنى عندما أصل إلى هذا المكان سوف أتخلى عنهم وأستأجر مجموعة أخرى، أو بالأحرى مجموعة ثالثة، وإن هذه المجموعة الثالثة ستكون أقل منهم عدداً من حيث الرجال والإبل، وأن الشيخ صالح سوف يسبقنا لانتقاء أفراد وحيوانات هذه الجماعة الثالثة، لمقابلتى بعد عشرة أيام بمشيئة الله، وعليه لم يصادف أحد منا عدواً من الأعداء.

كانت الرمال الجنوبية المركزية فى دكاكا بمثابة المفتاح من مشكلة الرحلة التى أقوم بها، والسبب فى ذلك أن هذه الرمال حظيت فى العام الماضى باستقبال الأمطار ولذلك أنعم الله عليها بمراعٍ وفيرة وغزيرة، الأمر الذى أدى إلى تركز القطعان فى هذا المكان. وقد أدى ذلك إلى تسهيل أمر مجيء جماعة كبيرة محملة بقرباب مليئة بالحليب، إلينا على الساحل؛ وهنا أكون قد أصبح لى رفيق يصحبنى فى ترحالى؛ وهنا أيضاً يكون قد توافرت لى جماعة ترافقنى إلى الدخول فى أعمال هذه الرمال، كيما نقوم بقفزة فى ذلك المجهول. لو كانت دكاكا بحد ذاتها جوعانة، ولو كانت أمطار العام الماضى لم تسقط هنا وسقطت بالتحديد فى الشمال الشرقى، لجاءت تجمعات الإبل فى أماكن أبعد من هذا المكان ولأثر ذلك على منظومة المجموعات التى كنت أتطلع من خلالها وحدها، إلى عبور الصحراء على شكل مراحل سريعة حاملاً معى أدواتى العلمية.

كان يوم دفع الأجور والأتعاب يوماً عامراً بالإنارة والانفعال، والسبب في ذلك أن البدوى الذى يُستأجر للقيام بعمل ما، يتحول إلى شخص بالغ الصعوبة، ويصعب إرضاءه عندما نريد الاستغناء عنه. كان الأجر الذى اتفقنا عليه هو خمسين دولاراً للرجل هو وجمله، وأربعين دولاراً لحيوان الحمل أو النقل؛ وإن هذا البدوى حصل على نصف هذا المبلغ فى ظفار، مقدماً، وهو الآن يتلقى أو يتسلم القسم الثانى، الأمر الذى ترتب عليه أن أصبحت طاولة المخيم. تتلأأ بدولات ماريا تريزا (كان كل دولار من هذه الدولارات يساوى شلناً واحداً وأربعة بنسات)، وهذه هى العملة الوحيدة التى يعرفها أهل هذه الرمال، وأن هذه المسألة لم تكن دائمة الحدوث. كان رنين الفضة، ذلك الصوت نادر الحدوث فى دكاكا، مرافقاً حتمياً لوضع كومات من الدولارات عدد البعض منها عشرون دولاراً، والبعض الآخر خمسة وعشرون دولاراً، وذلك بغية أن يسهل ذلك على مسألة دفع أجور هؤلاء البدو، وعليه تعين على وضع كومات عديدة فى يد كل واحد من هؤلاء البدو عندما يصل إلى. كنت أنا بنفسى أقوم بعد هذه الكومات دون مساعدة من مضيئى. راح كل واحد من هؤلاء البدو يعد، ثم يعد نصيبه من جديد، وراح كل واحد منهم يرفع رأسه منادياً أن كومته تنقص دولاراً أو دولارين. وهذا واحد من رفاقى يأخذ المبلغ من يده ويروح يعده ثم يعيد عدّه المرة بعد الأخرى على شكل خمس، لأن هذه العملية ترضيه فى نهاية المطاف. كانت طريقتى فى العد ٦، ٧، ٨، إلخ، أى عدّاً متسلسلاً، بل إنى كنت لا أهتم بمسألة العد هذه مطلقاً، ولذلك كانت تبدو مُحيرة لهم. كانوا يعدون نقودهم ١، ٢، ٣، ٤، ٥ ثم يبدعون من جديد من الرقم ١- وهذا درس يوضح اهتمام البشر بالمنظومة العشرية، وبعد ساعة من الزمان أصبحت طاولتى خالية تماماً؛ هذا يعنى أن كل اسم من الأسماء التى كانت على قائمة مستحقات المرافقين لى، قد وضعت أمامه علامة تفيد حصول صاحب ذلك الاسم على مستحقاته؛ وبعد ذلك بساعتين كنت أهنئ نفسى بمرور يوم تقاضى المستحقات بسلام دون تعكير للصفو، وفجأة حدث صياح عال؛ لقد حدثت غوغاء كبيرة وجلبة كثيرة، وبدا لى الأمر كما لو أن جماعتى القديمة، الذين كانت تربطنى بهم علاقة شديدة الود والحميمية، كانوا يودون تعكير صفو ذلك الصفاء بمشاجرة فى يوم الافتراق، بدا لى وكأنهم كانوا قد فرضوا ديناً

متبادلاً عندما كنا فى ظفار، يزداد على ذلك أن الصبر على هذه العقليات من الناحية الحسابية وفى الحوار أيضاً، لم يكن يرضيهم؛ ومن هنا جاء كلامهم الساخن وتهديدهم بجعل الخنجر هو الحَكَم النهائي والشريف. وعاد السلام مرة ثانية عندما قام الشيخ صالح بجمع كل هذه المدفوعات مرة ثانية ووضعها فوق غُطْرته التى وضعها فوق الرمل، ليقوم هو بنفسه بإعادة التوزيع مرة ثانية. وبذلك بدأت أرى أن الجهد الذى بذلته أنا منذ الصباح، صار هباءً.

ساد السلام والهدوء فى نهاية المطاف - لكنهم لم يكونوا راضين، لأنهم قالوا، إنهم يودون تعيينات، فكيف لهم بالعودة إلى مَوَاطنهم بحيواناتهم التى أوشك حليبها على النضوب بسبب الإجهاد الذى أصابها؟ هذا يعنى أن هذه الحيوانات يمكن أن تتفَق فى الطريق. وهنا بدت لى مطالب هؤلاء البدو على إنها ثلاثة أضعاف احتياجاتهم الحقيقية، وأنهم كانوا يستشعرون أن رمضان أصبح قاب قوسين أو أدنى وإن الصيام أثناء النهار يحتم السفر أثناء الليل. كان هناك بدو آخرون، لا ينتمون إلى جماعتي، تجمعوا أيضاً من حولى وكانوا يتخيلون فى دواخلهم أمراً غير قابل للتحقيق. وسبب ذلك، أنى لم يعد أمامى سوى ستة أسابيع وأن ما معى من تعيينات لابد وأن يكون كافياً لتغطية هذه المدة الزمنية. وهذا يعنى أيضاً أن التصرف فى هذه التعيينات يمكن أن يصيبنى بالفشل. لقد تحسَّبت طوال المسيرة لهذه المسألة تحسباً شديداً؛ وكانت تلك هى المسألة التى تثير غضبى عندما كنت أرى أو أستشعر أن هناك من يريد الخروج عليها، لأنى كنت أعلم علم اليقين أن انتهاء التعيينات يعنى انتهاء الترحال. وقد جرت العادة أن تساق نياق الحليب إلى المراعى بأقصى سرعة ممكنة؛ علماً بأن هذا لا يحدث عند القيام بالغزو أو فى المسيرات الاضطرارية، التى تحتتم الجرى بهذه النياق أو إجهادها. وعليه فإن الصحراء الشاسعة التى أمامى، هى والإبل التى لا تعطى حليباً، يمكن أن يجعل من هذه الحيوانات لحماً لراكبى الإبل الأخرى؛ وأن ذلك يمكن أن يكون سبباً من أسباب إزهاق الحياة.

هذا يعنى أن المخيم يتحتم تقويضه فى أسرع وقت؛ نظراً لأن طول بقائى فى هذا المكان سوف يجعل جماعتي القديمة هى وجياح الرمال الجائلين يحاولون

العيش على حسابي؛ وعليه وبدلاً من الطعام أمكن صرف أفراد الجماعة وجعلهم يروحون لحال سبيلهم، عن طريق إعطاء كل واحد منهم ثلاثة دولارات. هذه المعاملة نفسها اتبعتها مع صاحب الناقة جرينها Gerainha ؛ لما كانت هذه الناقة حيواناً صَبُوراً، فقد حملتني من جبال القراوين، فإنها ستعود مرة ثانية إلى موطنها في سهوب الجنوب. وقيل إن صاحبة هذه الناقة هي أجمل جميلات تلك المنطقة، أي أنها واحدة من البنات اللاتي أتعبن قلوب الكثيرين من المرافقين لي؛ واقع الأمر، أن هذه الناقة كانت هي موضوع الحدوتة التي سوف تسمع عنها صاحبته في الوقت المناسب بعد أن تحدد مصيرها. كانت صاحبة هذه الناقة في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت عذباء، وهذه حالة لا يمكن أن تحدث في الجزيرة العربية التي تبيح التعدد، يضاف إلى ذلك، أن والدها ابن أكسيت، كان كل أصدقائه يلومونه على حماقته.

كان هؤلاء الأصدقاء يقولون على سنبل السخرية: "لماذا لم يوافق والدها على زواجها من صاحب؟ فهو شاب وقوي، ولعله ينظر إلى دولاراته، ولم لا، سيصبح بوسعك شراء كل إبل الرِّيع الخالي"^(١). ومن وراء ظهر الرجل، كان هؤلاء الأصدقاء يتهمونه بالبخل، لأنه كان ثرياً ويملك خمسة عشر جملًا، ولما لم يكن له أقارب من الذكور، فإن ابنته سترث كل ما عنده، وهذا بحد ذاته جعلها أكثر جاذبية في عيني كل من يراها.

(١) مسألة مهر العروس هذه هي شأن خاص بوالدها. مهر العروس هذا عند بيت الكثارين الذين يسكنون الجبال، يتراوح بين عشرين دولاراً وثلاثمائة دولار، وهذا يرجع إلى أسرتها، وجمالها وثروتها، لكن نصف هذا المهر يذهب لوالد العروس، ويجري توزيع النصف الآخر على أقارب العروس. ولقد صادفت أنا مهراً مقداره مائتا دولار (وهذا يُعَلَى من قدر العروس على السلم الاجتماعي) وجاء تقسيم المهر على النحو التالي: النصف (للوالد)، أي مائة دولار، ثلاثون دولاراً للأخ؛ الأم عشرون دولاراً؛ الأخت لا شيء؛ العم عشرون دولاراً؛ الخال عشرة دولارات؛ العمة خمسة دولارات؛ الخالة أربعة دولارات؛ الجدة من ناحية الأم ثلاثة دولارات، الغير، أربعة دولارات. تحصل الأرملة أو المطلقة على مهرها كاملاً.

في عمان يدفع العريس نصف المهر مقدماً لوالد العروس، وباقي المهر يجري دفعه على أقساط بعد الزواج، فهذا هو حق العروس نظير مصاغها، والفراش.

سألته ذات يوم، وأنا متعصب، وهو ما يجب أن يتحملة البدوى من رجل ليس بدوياً، "كم تريد مهراً لها؟".

أجابنى "ثلاثة جمال. لماذا، لقد عادت ابنة علىّ على والدها بثلاثة من الإبل، وما وجه المقارنة بين ابنة على وابنتى؟ الكل يعرفون إنها تساوى هذا المهر، لكن لم يتقدم أحد لى بأكثر من جملين، وعليه لن أوافق وهى راضية عن البقاء معى".

حدث ذلك قبل أسبوعين. رأيت بعد ذلك ابن أسكيت هو ومعيوف وهما يجلسان حول نار المخيم بطريقة مبالغ فيها، وكانا ينسحبان بين الحين والآخر عن حلقة الجالسين ليدخلا فى حديث سرى وودى، وكان القيل والقال بعد رحيل الناقة جرينها Gerainha ؛ يدور حول أن معيوف كان هو الرجل الحظيظ الذى فاز بتلك الفتاة.

يتحقق هذا الحديث الخاص عن طريق قيام شخصين بالابتعاد عن الحلقة التى يجلس فيها الرفاق، وابتعدان مسافة قرابة خمسين خطوة تقريباً عن بقية رفاقهم، ولكن هذه المسافة لا تكفى لجعلهما فى مأمن من تعدى رفاقهما على خصوصيتهما. ومن المهم هنا أن نلاحظ أن شخصاً ثالثاً ينهض واقفاً وبدلاً من الجلوس ضمن حلقة الرفاق يتجه إلى الرفيقيين ويُقرئهما السلام ويجلس معهما - فى شئ من التملُّق يوحى بأنه مهتم بحديثهما؛ ومن ثمَّ يقوم بالجلوس معهما. هناك تواصل اجتماعى كبير بين هؤلاء البدو، فهم يعيشون فى ترحالهم مثلما يعيشون فى العراء، هؤلاء البدو دائماً متلاصقون طلباً للحماية المتبادلة من العدو المشترك، هذا يعنى أن هذه الألفة، وهذه القوة الدافعة التى تحثهم على التصرف بدون حساسية مفرطة تجاه الآخرين، أمران متأصلان فى هؤلاء البدو، والأوروبى الذى يود الترحال سعيداً مع هؤلاء البدو لابد أن يكون لديه الاستعداد للتكيف مع معايير هؤلاء البدو. فى واحدة من المرات، على سبيل المثال، نظر واحد من الكثرارين إلى طبق الحليب الموضوع بجانبى، وتناوله وأتى على كل ما فيه من حليب؛ صحيح أن ذلك الذى شربه هذا الكثيرى، كان عبارة عن حثالة ورواسب الحليب، لكن الأوروبى يتحتم عليه فى مثل هذا الموقف التعبير عن استيائه. يزداد

على ذلك أن أحاديثي الحميمة مع الشيخ صالح كانت دوماً عرضة للمقاطعة، ذلك أن واحداً من أفراد الجماعة عندما كان يرانا من بعد، وبحكم فضوله الشديد الذى لا يستطيع مقاومته، كان يبادر بتحيتنا تحية قلبية ودية، ويجلس "بلا استئذان"؛ ليسمع كل ما نتحدث عنه.

وبعد أن خفضت عدد جماعتى إلى عشرين رجلاً فقط، كانوا كلهم غرباء علىّ، استأنفنا مسيرنا فى اتجاه الغرب، ولم نصادف أى نوع من المخيمات فى طريقنا. ظننت أن القسم الأكبر من قبيلة الرشيد كانوا يرعون ماشيتهم وإبلهم فى الشمال، وحتّم ذلك علىّ الهروب من إصرارهم وإلحاحهم على تناول الطعام، وحتّم ذلك علىّ أيضاً تحاشى النتائج المترتبة على المعارضة الدينية من قبل بعض المتطرفين منهم؛ بسبب وجودى فى الأرض المقدسة التى يعيش عليها المؤمنون.

تمثل اليوم الأول فى مسيرة قصيرة- وكانت الإبل الجديدة، غير المدربة، تُعَرِّب عن استيائها من الأحمال الثقيلة غير المعتادة، وكان أصحاب هذه الإبل يتشاجرون فيما بينهم عن مسألة عدم المساواة فى الأحمال. كان سَرَجَ الجمل (عدة) وهو من النوع البيكانى، محط استياء وعدم موافقة الجميع بسبب حجمه. من ناحية ووزنه من ناحية أخرى، الأمر الذى أدى إلى إعطائى جملاً جديداً أركبه كل يوم.

كانت الرمال فى هذا الجزء من دكاكا أكثر اعتدالاً إلى حد ما وأقل تنفيراً من جبال ووديان عروق الضاحية، التى تشكل عقبة مبالغاً فيها فى مسألة العبور لهذه الجبال والوديان التى على شكل حرف T فى اللغة الإنجليزية. كان التكوين الرئيس عبارة عن رمل صلب أحمر اللون، وسط تموجات رملية هائلة، مثل بحر هائج ومضطرب فى كثير من الأحيان. كانت تصادفنا بين الحين والآخر تلال رملية لونها أكثر شحوباً من التلال المحيطة بها (لكن ارتفاعات هذه التلال أو الجبال الصغيرة كانت تقل على امتداد مسيرنا)، وكانت تلك التلال صلبة فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى على شكل حدوة الفرس- والناس هنا يطلقون عليها اسم الهجنة، وهى تلال عجبية الشكل بحق، ويبدو أن هذه التلال أو الجبال الصغيرة تنتج عن الحركة المنعكسة للريح، والمنخفضات التى بين هذه التلال أو الجبال الصغيرة تكون فى معظم الأحيان عبارة عن بقعة من الجبس، وغالباً ما تكون هذه البقعة مكاناً لثقب من ثقوب الماء.



(السير في دكاكا)

لم تكن هذه التلال مفتقرة إلى الماء العذب، وهذا قياساً على مياه الرمال الأخرى، ورحنا نتجول الهوينا وسط هذه المراعى الجيدة، الأمر الذى مكّننى بل هياً لى فرصة جمع العينات والأنواع الحيوانية والتقاط الصور على نحو أفضل من المسيرات الطويلة التى قمنا بها مؤخراً، وكانت مصطبغة بالعصبية عندما كان يتعين على إهمال هذه الأمور. واقع الأمر أننا رحنا نتسكع فى الوقت الذى ذهب فيه ابن كايوت وبين حام يستطلعان المنطقة المحيطة بنا.

كان العضو المهم فى جماعتى الجديدة هو حمد بن هادى، الذى زاد احترامى له على مر الأيام. كان رفاقه يولونه احتراماً كبيراً، لأنه أثبت أنه ولد أبيه، ذلك الرجل المِرْى المعروف فى سائر أنحاء الرمال، والذى قتل ثمانية رجال من المنافسين له فى قبيلة المناصير، على امتداد حياته، ووافته المنية وهو فى سن وقورة، هذا بالإضافة إلى بئر الهادى غزيرة الماء، التى تعد واحدة من ثقب المياه الكثيرة التى حفرها هذا الرجل الوقور. كان برفقة حمد ابن أخيه مرزوق، الذى كان يقوم بدور المؤذن طوال المسيرة، وكان بصحبته أيضاً واحد من أبناء عمه يدعى حمد أيضاً، لكنه كان صاحب مزاج غير مستقر، وقد رأيته أول مرة، وهو يتدلى من أنفه خيطان (مما يوحى بسماعة طبيب فيها منخران لفتحتى الأذن) ومسألة سد فتحتى الأنف، أو المنخرين، بالقطن أمر شائع فى سائر أنحاء الجزيرة العربية وبلاد فارس، وذلك من باب التحوط للروائح الشريرة التى يقال أنها تساعد على تقاوم الأمراض. كان واضحاً أن حمد يعانى التهاب العين، الذى عزاه هذا الرجل إلى الروح الشريرة، التى يطلق الناس عليها هنا اسم الزار. حضرت جلسة من جلسات طرد هذه الروح الشريرة ذات مساء، فهذا طقس بسيط إذا ما قارنناه بالطقوس الدقيقة التى تجرى ممارستها فى القرى الساحلية العمانية^(١)، لكنها لها نفس الطابع ولا ينقصها شئ من العروض المسعورة التى يقوم بها من تملكه هذه الروح. لكن الفروق الرئيسة التى بين هذا وذاك تتمثل فى أن سكان الصحراء لم يكونوا من النساء، وإنما هم من الرجال الذين لا يلعبون دوراً هستيرياً فى هذه العمليات:

(١) راجع الملحق رقم ٦ حيث توجد هذه الأغنية.

يضاف إلى ذلك أن رئيس الاحتفالات رجل وليس امرأة؛ كما أن النار تستعمل بدلاً من الدم.

سجد حمد المريض أمام النار وسط حلقة من الرفاق الجالسين القرفصاء، فى حين أجلس محمد بن شغيلة، رئيس الطقوس، الاحتفالات، نفسه بجوار حمد، وقد وُضِعَتْ فيما بينهما كأس أو كوب ملىء بالنار. وهنا قام واحد أو اثنان من الجماعة بإحضار أوعية الطبخ، وبذلك يكون المسرح قد اكتمل.

خلع حمد غطاء رأسه، وطواه مرة واحدة بطريقة موروبة، وراح ليستعمله استعمال الشال والقناع، وهو ممسك بطرفى غطاء الرأس بذراعيه المفردتين.

راح حمد يتنطط ويلوى جسمه شمالاً ويميناً، بينما كان رفاقه يغنون من حوله، ويصفقون بأيديهم، ويطلبون بأصابعهم على أوانى الطبخ المقلوبة. وهنا راح ذلك الذى تملكه الزار ببذل المزيد من الحركات العصبية فى تحركاته مع مرور الدقائق، وهو ينحنى على النار بطريقة عشوائية، إلى حد أنه كاد أن يسقط على النار مرات كثيرة لولا تنبه ذلك الشخص الذى كان يجلس إلى جواره، وكان يمسك بعكازه الموضوع أمامه؛ وكان ذلك الجالس يمسك بالكوب الملىء بالنار ويضعه تحت قناعه ويروح يتشمم الكوب الذى بداخله النار كما لو كان مبخرة، وكان ذلك العمل يدفعه إلى المزيد من النشاط المحموم، سار الحال على هذا المنوال إلى أن أصبح متهدجاً ومرتعشاً، وتلبّسته حالة هستيرية. انقضت ساعة ونحن فى هذا المشهد؛ وهنا بدأ دور رئيس الطقوس (الاحتفالات). كانت لدى هذا الرئيس أسئلة كثيرة راح يطرحها على الزار (الذى كان يتكلم من خلال فم المريض)، لكن الزار كان يشاركنى رأى أن مسألة طرد الأرواح عملية قصيرة جداً، أو هكذا بدت بسبب التوانى أو التأخر فى الإجابة عن الأسئلة فى بداية الأمر.

رئيس الطقوس: "هل أنت آفيره؟".

الزار: (لا إجابة).

رئيس الطقوس: "هل أنت جن؟".

الزار: (لا إجابة).



(صورة طبق الأصل لرمال دكاكا)

جوقة من البدو: "هو زار بطبيعة الحال. ألم يُقلِّ حمد إن ذلك هو سيف
"شبخور؟" (١).

ظل محمد يتمايل يميناً ويساراً، ويهذى بكلام غير مفهوم. وهنا يسكت رئيس
الطقوس لفترة قصيرة.

البدو: "واصل، يا محمد".

رئيس الطقوس: "هل تريد منى نقوداً؟".

الزار: (أخيراً على استحياء): "حلق".

رئيس الطقوس: "هل لابد من وجود حجر فى هذا الحلق؟".

الزار: "حلق".

جوقة من البدو إلى رئيس الطقوس: "لا تسأل أسئلة لا داعى لها".

رئيس الطقوس للبدو: "من الذى معه حلق؟".

رحل معيوف بممتلكه البسيط، الذى قام رئيس الطقوس بوضعه فى كوب النار
ثم وضعه بعد ذلك فى إصبع من أصابع حمد، وظل رئيس الطقوس ممسكاً بيد
حمد وهو يطرح عليه سؤاله الأخير.

رئيس الطقوس: "هل ستزيل الشر عن العين؟".

الزار: "نعم".

رئيس الطقوس: "ليس هنا شر غير ذلك الشر الموجود فى عينك؟".

الزار: "لا".

رئيس الطقوس: "أقسم إنك ستزيل هذا الشر".

الزار: "إيه، إيه".

رئيس الطقوس: "أقسم بيمين القبلى".

الزار: "فى وجهك".

(١) هناك زارات كثيرة. وهذا واحد من الزارات شديدة الشهرة.

رئيس الطقوس: "شريد" لقد هرب.

وبذلك تكون الطقوس قد انتهت، ونهض المصاب وذهب مترنحاً منصرفاً إلى أريكته الرملية لقضاء الليل.

غادرنا مخيمنا الذى كان يقع شمالى ثقب الماء الموجود فى بل آشوس وتحركنا غرباً إلى أن وصلنا متأخرين ساعتين إلى تل، جبل صغير يشبه حدوة الفرس يطلقون عليه اسم حُلِيل، وهنا وجدنا الرمال الحمراء وقد اكتست بصورة غير متوقعة بشجيرات الأبالا ذات اللون الأخضر الأدكن. كان اليوم مصادفاً لعيد رأس السنة- ذلك العيد الذى لا يقره البدو ولا يعترفون به (واقع الأمر، إنه لم يكن من بين أفراد الجماعة سوى اثنين فقط من الرّشّادين هما اللذان يعرفان أيام الأسبوع)- ومع ذلك، شرح المكان صدورنا جميعاً بسبب مراعيه الكثرة، إلى حد أنى قررت التوقف لتمضية النهار فى الصيد. لحق بى حمد، الذى خضع فى الليلة السابقة لعملية طرد الأرواح عن طريق الزار، وأنا أنزل من فوق دابتي. لم تكن عينا حامد أحسن حالاً عما كانتا عليه بالأمس، وذلك على الرغم من أنه حاول إقناعى وهو يشير إلى الخيطين النازلين من فتحتى الأنف، ويقول إنه رفعهما وأصبح يعلقهما حول عنقه، لكنه كان يحتفظ بهما، على حد ملاحظتى تحوطاً لما يمكن أن يحدث، ربما يكون حمد من جيل حديث يؤمن بمسألة الشفاء العقدى، ذلك أن الناس يقولون إن قبيلة المُرّة لا تمارس السحر اللهم باستثناء الجماعات الجنوبية المعزولة من هذه القبيلة، والتي تعلمت السحر من الرّشّادين، الذين يعم بينهم استعمال السحر مع كل قبيلة من قبائل السهوب الجنوبية.

أنهت الجزء المتبقى من النهار وبنديتتى تحت إبطى، وكنت أدور حول المخيم مسافة تتردد بين ميلين وثلاثة أميال، لكن الذى أدهشنى هو عدم عثورى على آثار أقدام حيوان أكبر من الأرنب البرى، وسبب ذلك، أنه على الرغم من مسيرات الجوع فى أراضى الحدود الجنوبية، فقد مررنا وعثرنا على آثار أقدام الوعول

والثعالب وكان ذلك يحدث بصفة يومية. يزداد على ذلك أن مسألة التعرف على آثار أقدام الحيوانات أصبحت مسألة سهلة، وسرعان ما تعرفت بدون جهد كبير على آثار أقدام الحيوانات البرية التى تعيش فى هذه الرمال كما تعرفت أيضاً على وجه التقريب الوقت الذى حدث فيه آثار الأقدام هذه، كانت دكاكا قد اجتاحتها الأرنب البرى الذهبى، إلى حد أن كل شجيرة كانت فيها إشارات تدل على جُحْر جرى حفره مؤخراً أسفل هذه الشجيرة. وجرت العادة أن يقوم البدو الذين يمرون على هذه الجحور، بإدخال أذرعهم داخلها ليخرجوها وقد أمسكت بذلك المخلوق الضعيف، فى حين كنا نحن فى معظم الأحيان نتجسس على أرنب نائم فى ظل وارف ونقترب منه تماماً فوق الرمال الناعمة التى لا يصدر عنها أى نوع من الضوضاء.

بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، وسرعان ما تجاوزنا تَلَيْن كبيرين على شكل حدوة الفرس وكانا بمثابة علامة على ثقبتي الماء فى كل من مشرومة وضُرْبِيَّة، كنت أنا وحمد المرافق نسبق باقى أفراد الجَمَاعَة، ولكن حمد توقف فجأة، وثَبَّتَ ناظره على شىء بعيد؛ ومد يده ناحيتى طالباً نظَّارتي المكبرة. نزلنا من فوق دابَّتينا فى الوقت الذى كان حمد يشير إلى التل الذى آثار مخاوفه، وأَشْرَ لى يطلب منى أن أثبت فى مكانى، وراح يقترب من ذلك الشىء الغريب، ساتراً نفسه بانثناءات الرمال. ثم عاد إلىَّ بعد أن تأكد أن ذلك الشىء الذى كان يخشاه كان عبارة عن رابية ولم يكن عدواً.

يبدو أن حمد كان رجلاً مشهوراً. كان حمد شهيراً بالغزو الذى يقوم به على انفراد فى بعض الأحيان، على بلاد السَّعَّارين؛ واقع الأمر أن حمد أهدر دمًا سعارينياً، ولذلك لم يكن ذلك الرجل يتوقع لنفسه البقاء فى اللقاء الذى تلى ذلك مع جماعة من السَّعَّارين الأكبر من جماعته عدداً؛ جاء هذا اللقاء هو والثَّار الذى بينه وبين المناصير سبباً من أسباب توليد الكثير من المخاوف الشيطانية فى

داخل هذا الرجل. كان حمد يتوقف مرات ومرات عندما يقوم باستطلاع الآفاق مستخدماً فى ذلك نظارتى المكبرة؛ يضاف إلى ذلك أننا عندما كنا نتوقف لقضاء الليل، كان حمد يرجع إلى الوراء مرة ثانية ليتتبع أثرنا لبضعة أميال مخافة أن يكون أحد الأعداء يلاحقنا، وكان يعود من هذه العملية بعد دخول الليل مباشرة، وهو الوقت الذى يصعب فيه اقتفاء الأثر، ليقول لنا إن نيران المخيم يمكن لنا أن نشبها الآن.

قيل لنا أن ثقب مياه وريقة موجود إلى جوارنا مباشرة فى اتجاه الشمال، وعرفنا أيضاً أن المبعوثين الأصليين اللذين أوفدناهما من ظفار للتشاور مع قبيلتهما قد عثرا على القبيلة^(١). وفى وريقة وجد المبعوثان قطعان القبيلة ترعى فى هذا المكان.

تربية الإبل فى هذه البيئة هى بمثابة الحياة المحتومة التى يتعين على كل طفل ذكّر أن يولد من أجلها. هذا الطفل هو طفيل هذه البيئة: حليب الإبل يكاد يكون طعام هذا الطفل وشرابه، ووبر هذه الإبل هو ملبسه وملجؤه. الحياة فى هذه البيئة هى الطلب على المراعى الخضراء، والمطر هبة من عند الله تعالى، وأن التنوير هو ركيزة ذلك الإنسان إلى النار. الإنسان فى هذه البيئة لا يعرف شيئاً عن العالم الخارجى المتغير؛ ولا يعرف شيئاً عن قيام الممالك وسقوطها؛ ولا يدرك شيئاً عن القوى الروحية التى تعمل لصالح الإنسان- "الاعتراضات على العلم المزعوم" ولا يعرف شيئاً عن المنظومات البديئة التى تعمل على الحط من شأن

(١) الطريق الذى سلكه هذان المبعوثان مهم لأنه يوضح الخط المحتمل الذى سار عليه الرشيدة أثناء انسحابهم أمام السعارين، هذا يعنى أن مبعوثيَّ تحركا فى اتجاه الشمال الشرقى على امتداد أم الحياة، وأنهما عبرا رمال أم ضرته إلى رمال أم غانم، حيث تزودا بالماء فى كل من خسفة وأبلوتان، وانطلقا من هذا المكان فى اتجاه الشمال الغربى عبر التجاويف الرملية وجبال ميموره الرملية ليصلا إلى رمال حباك، وتزودا بالماء من زوجين، التى انطلقا منها فى اتجاه الجنوب الغربى ليصلا إلى ثقب الماء فى هيضه، وواصلوا السير عبر رمال دكاكا إلى مسقى وريقة.

الإنسان؛ لا يدرك أيضاً اختلاف واختلاط الأعراق، أو الألسنة والطبقات. كل هذه الأمور لا معنى لها عند ساكن هذه البيئة، وعليه فهي لا وجود لها عنده. هذا يعنى أن ساكن هذه البيئة يعيش الحياة البدائية التى عاشها آباؤه على امتداد عشرة آلاف عام، وأبناء هذا الإنسان الذى يعيش فى هذه البيئة سوف يعيشون فترة مماثلة. ساكن هذه البيئة يُنكر أسلوب حياة الاستقرار الناعمة؛ دستور ساكن هذه البيئة لا يعرف سوى الوحشية القاسية مع أعدائه، وحياة هذا الساكن مع أصدقائه لا تعرف سوى الشجاعة البشرية بقممها وأعماقها والمعجونة بحليب الحنان البشرى.

المراعى^(١) والماء: هما الاحتياجان الأساسيان لللازمان لحياة البدوى المترحل. تحتل المراعى فى فصل الشتاء المقام الأول؛ نظراً لأن القطعان لا تحتاج الماء فى كثير من الأحيان- هذا يعنى أن القطعان لا تحتاج الماء إلا مرة واحدة كل عشرين يوماً؛ وفى الأماكن التى يسفر فيها سقوط المطر عن مراعى كثيفة، قد لا تحتاج القطعان إلى الماء على امتداد شهرين لا يذوق البدوى الماء خلالهما مطلقاً، ويعيش معتمداً اعتماداً كلياً على حليب هذه النياق.

على الجانب الآخر، وفى فصل الصيف^(*) وعندما تجعل الحرارة الشديدة الرمال شيئاً لا يطاق، نجد أن قطعان الإبل يقتصر وجودها على دائرة لا يزيد

(١) الكلمة الإنجليزية Pastures يقولون لها بالعربية "مرعى" و "أكل"، لكن قبيلة الرشيد تقول "للمرعى" "معاش" (بلغتهم). البدو يعدون أغصان وأوراق شجر السنط سمراً، أفضل علف للإبل، وهذا العلف موجود فى السهوب الجبلية على ارتفاع يزيد على ١٢٠٠ قدم. يجيء علف الأباله فى المرتبة الثانية بعد العلف السابق، وبعد الأباله يجيء علف الجيس الذى يظهر بعد سقوط المطر أو الندى. هناك أيضاً علف الضوعية وعلف الضاعوت، وهما من نباتات السهوب، ويأتى علف المرح، الذى يوجد فيما بين السهب والرمل، ويأتى بعد ذلك علف النياق الذى هو نوع من أشجار السنط، وأخيراً علف السليم (الذى يعرف محلياً باسم "الحرضاي")، هناك أعلاف أخرى غير هذه الأعلاف لكن هذه هى الأعلاف المهمة فى الصحراء الجنوبية.

(*) يقال أن بعضاً من جماعات قبيلة المرّة، يأتون بين الحين والآخر لقضاء فصل الصيف فى دكاكا بسبب مائها الحلو.

قطرها على مسير يومين عن ثقب الماء؛ نظراً لأن هذه الإبل تكون بحاجة إلى السقيا يومياً(*) وفى الأماكن الموجودة على ارتفاعات أكبر من هذا الارتفاع، ووسط المراعى الدائمة فى السهوب الجنوبية المواجهة للجبال، نجد أصحاب الإبل يُدخلونها فى الكهوف أثناء النهار هرباً من حرارة الشمس، ويخرجونها للرعى أثناء الليل فى الجو البَراد. وفى مثل هذه الظروف نجد أن سقيا الإبل تحدث كل أربعة أيام أو ستة.

يتحتم على الإنسان ساكن الرمال أن يكون دائم التنقل. هذا الإنسان يتنقل فى الليل فى فصل الصيف، ويكون مثل هذا التنقل مباشراً، وعلى شكل مسيرة مباشرة من ثقب ماء إلى ثقب آخر يكون مجاوراً للمراعى، وفى فصل الشتاء، عندما يصبح الماء مسألة غير مُلحّة، وحيث يقوم البدو بالرعى فى المراعى حيثما وُجدت، يكون التنقل أثناء النهار، ويبقى البدو فى كل مرعى من تلك المراعى مدة يومين أو ثلاثة؛ هذا يعنى أن القطعان تتحرك ببطء عبر الفراغات الكبيرة على شكل دورة لا تنتهى. وجماعات الاستطلاع هى التى تحدد اتجاه المسيرة؛ وتتكون جماعات الاستطلاع من رجلين (ويسمونها "طوف")، راكبين ويتميزان بالسرعة، وأن يكونا على مسافة بعيدة من المسيرة. وفى فصل الشتاء نجد أن مهمة الاستطلاع هذه قد تستمر أسابيع عدة، ويعيش هذان الرجلان على الحليب الذى سبق أن جهّزاه فى قريتهما قبل بداية رحلتهما الاستطلاعية^(١).

تشكل حرارة الصيف الشديدة عذاباً وألماً شديداً لهؤلاء البدو، نظراً لأن هذه الحرارة الشديدة تجعل من النوم شيئاً مستحيلاً عند هؤلاء البشر عندما

(*) يطلق البدو، فى معظم الأحيان، اسم الشواريب على الإبل التى يسقونها بين الحين والآخر. الإبل التى تبعد عن الماء لفترات طويلة يسمونها: الجوازى (واحدة "جازى"، عند المره، وتسمى "النواش" (واحدة "نواش") عند قبيلة الرشيد.

(١) بعد الأيام القلائل الأولى، يجرى بطبيعة الحال استعمال كتل اللبن المجفف، عندما تكون المسيرات طويلة، حيث يجرى إذابة كتل اللبن المجفف فى الماء المالح.

تشرق الشمس، يضاف إلى ذلك أن الليل لا يتيح لهم سوى القليل من النوم، نظراً لأنهم يتحتم عليهم حماية إبلهم عن طريق حراستها وهم ركوب أثناء الليل. هذا يعنى أن مهمة هؤلاء البدو هى مهمة شرف وكرامة، وإنهم يוכלون هذه المهمة إلى مرشدين أجواد ولا يعولون كثيراً على المدة التى يستهلكون خلالها قراب الحليب التى يحملونها معهم، إلى حد أنهم قد يعودون متأخرين يوماً أو يومين وهم صائمون. وهذا هو الشيخ صالح ومعه مرافقون كثيرون من البدو المرافقين لى فى رحلتى، مروا جميعاً بتجارب كثيرة من هذا القبيل. وهنا أجدنى مندهشاً بعض الشيء من أذهان هؤلاء البشر التى تصور لهم أن الحليب (وحده هو الذى يجعل حياتهم ممكنة)، ولذلك فهم يفضلون الحليب على اللحوم بمختلف أنواعها. وهم يقولون: إن النبى أكد على ذلك ولعلنا ننتبه إلى الحوار التالى الذى دار بين النبى (ﷺ)، وواحد من رفاقه عائد من عزيمة:

النبى: "ما الذى قُدم لك؟".

الرفيق: "قدموا لنا لحم الإبل".

النبى: "هل ذبح مُضيفك لك".

الرفيق: "قُدم لنا الأرز أيضاً".

النبى: "أكرمك مُضيفك".

الرفيق: "قدم لى تمرّاً".

النبى: "لقد أرضاك".

الرفيق: "قدم لنا أيضاً حليب الإبل".

النبى: "آه لا كفى، لقد أولمك!".

واصلنا فى اليوم الرابع مسيرنا فى اتجاه الغرب فى اتجاه حجنة الخضافية، ذلك الجبل الكبير الذى كنا نراه من مخيمنا أثناء الليل، وتجاوزنا هذا الجبل خلال نصف ساعة، رأينا فى التجويف الذى يطوقه خطاً من الجبس، ويواجه الجنوب الغربى - كما هو الحال فى الجبال التى على شكل حدوة الفرس- مجموعة من الملاذات الشمسية المشيدة من القش والمجاورة لثقب الماء، وهذه أشياء غير عادية، وجرت العادة ألا نعثر على مثل هذه الإنشاءات فى الرمال.

يبدو أن هذه الملاذات الشمسية، ربما كانت تذكارات لسقيا الصيف. قفز حمد نازلاً من فوق ناقته، كما هى عادة البدو، دون أن يقوم بتبريكها، وأسلم حكمتها إلى ابن أخيه، أثناء مرورنا على ثقب الماء هذا، وبادر حمد إلى النزول إلى التجويف بحثاً عن آثار فى السقيا لغزاة محتملين. لحق بنا حمد بعد ذلك ومعه خبر مفاده أن كل شىء على ما يرام، اللهم باستثناء أثر ناقة بن حَام (وهو واحد من الجماعة التى استغنيت عنها مؤخراً، وهو الآن فى طريقه إلى الحوية فى مهمة لتجنيد بعض الأفراد) التى توضح أنه مر بثقب الماء هذا قبل ثلاثة أيام. واصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا متأخرين ثلاث ساعات إلى ثقب ماء شَنَّة Shanna، الذى كان هدفنا المباشر. فر حرس مقدمتنا المكون من رجلين، من ثقب الماء وهما يصيحان بصوت عال "قوم! قوم! محمد بن مبارك الكرابى! محمد بن قويد السَّعَارى!" (هذان الاسمان لاثنين من الغزاة الحضارمة شديدى البأس بينهما ثأر وبين المرافقين لى) - قام حمد، الذى رافقته إلى ثقب الماء، بفحص الرمال المحيطة بالثقب وكذلك المجرى الجبسى المحيط بهذا الثقب، ثم نظر إلى الأعلى مبتسماً وواثقاً بنفسه. ربما كانت محاولة الاستغفال هذه تهدف إلى مداعبة الرجل أو لتشجيعى على التفريط، على غير رغبة منى، فى القليل من حصيلتى من الذخيرة، أو ربما جاءت هذه المحاولة على سبيل الفكاهة والاستطراف. لقد نجحت، فى نهاية المطاف،

محاولة الاستغفال هذه، على الرغم من أنها ذكرتني بأننا لا نزال مكشوفين
ومعرضين للغزو؛ واقع الأمر، أن حمد من ذلك الوقت فصاعداً راح يقترض
نظارتى المكبرة ويتجه إلى أطول الجبال، وكان ذلك آخر ما رأيته من ذلك الرجل
إلى أن عاد إلينا عند صلاة العشاء.

الفصل السادس عشر

فى منطقة ثقب ماء شنة:

وقفة ما قبل الاندفاع فى اتجاه الشمال

كان القمر بدرًا قبل شهر رمضان، والقمر عندما يكون بدرًا فى هذه البلاد يصبح نعمة ونقمة، والقمر عندما يكون بدرًا يجعل مراقبة النجوم ومن خلفها أفق اصطناعى أمرًا متعبًا، والقمر عندما يكون بدرًا يصبح حليفًا ومُعينًا للغزاة، والسبب فى ذلك أن السماوات المدارية تصبح صافية على نحو يمكّن من اقتفاء أو قَصُّ الأثر أثناء الليل.

كان غداؤنا أو وجبتنا الرئيسية فى تلك الليلة مكونة من لحم الإبل. فقد اكتشف المرافقون لى أن واحدًا من الإبل قد أصابه المرض، وقال البعض منهم إن هذا المرض أمر طبيعى، وقال البعض الآخر إن هذا المرض فتاك وقاتل، وأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الجمل المريض فى الصحراء، هى ذبح هذا الجمل وأكل لحمه.

كشف الوشم المميز لقبيلة الفطيرة^(١) أن الناقة المريضة هى من أصل جنابى، وأنها كانت فى واقع الأمر جزءًا من غنيمة الغزو، كانت الناقة من فصيل الذلول، وأن الحال وصل بها إلى هذه النهاية المحتومة.

(١) كل قبيلة بدوية أصيلة لها وشم مميز لها وخاص بها، وقد جرت العادة أن يكون ذلك الوشم شديد البساطة، لكن له دلالة لها مغزاها: وهذا الوشم يوسم به كل جمل من الجمال على الوجه، العنق أو فى أى مكان آخر تتفق عليه القبيلة. بعض بطون القبائل فى بعض القبائل قد يكون لها وشم خاص. والملحق رقم ٤ يوضح تلك الوشوم التى رأيناها فى الريح الخالى.

سألت خويتيم، وهو رشيدى يسكن ظفار فى الوقت الحالى، وهو مبعوثى الخاص، فى واقع الأمر: "ما رأيك فى لحم الإبل مقارنةً بلحم البقرة؟".

قال: "لحم الإبل أفضل من لحم البقر ولا يمكن مقارنة هذا بذلك".

"ما رأيك فى لحم الإبل مقارنةً بلحم الضأن؟".

"لحم الضأن يفتقر إلى طعم ومذاق لحم الإبل أيضاً".

"وما الأجزاء المفضلة؟".

"فى الجمل الصغير الجزء الموجود أسفل الضلوع؛ واليوم تعد أرجل الجمل هى من الأجزاء المهمة".

"وماذا عن النخاع الموجود فى عظام الفخذ؟".

"هو أطيب الأطايب! انتظر حتى ترى بنفسك".

"كيف ستطهون لحم الجمال - هل ستسلقونه أم ستحمرونه؟" (فى السهوب حيث توجد كومة من الأحجار يجرى شوى اللحم على الطريقة التى كانت متبعة فى العصر الحجري).

"سنسلق هذا اللحم. لكن بالأسف! نحن ليس لدينا ملح - والله".

"لو كان لدينا ملح، لحكمت أنت بنفسك على حساء لحم الإبل".

قلت فيما بينى وبين نفسى، يالك من عاشق أعمى! وأنا أيضاً أسجل هنا وجهة نظرى التى مفادها أن لحم الإبل ليس لحمًا طرياً وهو لحم ليفى، وبخاصة عندما يجرى سلقه فى ماء مالح وبلا أى نوع من أنواع الدسم، وهذا النوع من اللحم له مذاق غير مستساغ عند البعض كما يشكل عقبة بسبب صعوبة هضمه.

جرى إحضار بنت شانتوف المسكينة وجرى تبريكها أيضاً. وجرى عمل حفرتين أو ثقبين على وجه السرعة فى الرمل تحت رجليها الأماميتين، اللتين كانتا مقيدتين، وقام واحد من البدو بالإمساك بذيل الناقة، وقام بدوى آخر بلوى شفتها العليا مبتغياً بذلك دفع رأس الناقة إلى الخلف على جسم الناقة، الأمر الذى أفقدها القدرة على الحركة. ولما كان محمد قصاًباً أفضل منه طارداً

للأرواح، فقد سَنَّ خنجره سَنًا جيدًا وانحنى على الأرض على الجانب الذى لا تراه الناقة منه، وقام بطعن الناقة طعنة حادة فى وريد عنقها. ويندفع من العُنُق سيل من الدم، وراح يُعمل خنجره بسرعة فى عنق الناقة مُحدِّثًا قطعاً عرضياً كبيراً فى زورها، وهو يقول: "بسم الله، الرحمن الرحيم"، وواصل الرجل قطع الزور مستخدماً فى ذلك حد خنجره فى قطع الشرايين والقصبة الهوائية إلى أن وصل إلى العظم، وكانت يده وذراعه يتقاطر الدم منها. وبعد الترنح الأوَّلَى الذى أصاب الناقة وبعد شئ قليل من الحشجة بقيت بلا حراك، وعنقها الكبير مستلقٍ على الأرض كما لو كان شجرة سقطت وتهاوت على الأرض، وكانت عينها براقَتين. لم أرَ فى حياتى بدويًا أكثر نشوة من هذا البدوى؛ كانت مسألة انتظار الوجبة الشهية تسرهم جميعاً، وراحوا جميعاً بفئوسهم الصغيرة وسكاكينهم يشاركون فى سلخ الناقة المذبوحة. وفى الحال أصبح هناك خمسة أكوام من اللحم موضوعة على الرمل، وكل كومة منها تخص واحدة من الجماعات الخمس التى تشكل قافلتى، وهنا انطلقت صيحة فرح تعلن عن توزيع الأنصبة- وهذه هى الطريقة التى درج على استعمالها سكان الصحراء. وهنا وقف خمسة مندوبين، مندوب عن كل جماعة. جرى إحضار غطاء وقام كل مندوب بوضع طلبة ذخيرة فى غطاء الرأس هذه. وجرى الإمساك بأطراف أغطية الرأس الأربعة وجر هذه المحتويات إلى الأعلى. وجرى استدعاء أحد الواقفين ليمسك بطلقة من الطلقات، ثم جرى بعد ذلك فتح الغُطْرة (غطاء الرأس) وترتب على ذلك أن يكون صاحب الطلقة هو صاحب الخيار الأول من بين أكوام اللحم. وتكررت هذه العملية وكان يجرى سحب طلقة من الطلقات المُعلَّمة، وبانتهاء المندوب الرابع من الاختيار يكون لحم الناقة بنت شانتوف قد جرى توزيعه. وهنا اندفع البدو فرحين بحثاً عن الحطب، نظراً لأنه جرت العادة عند البدو، على وضع لحم الذبيحة فى القدر بعد الذبح مباشرة، والسبب فى ذلك أن المناخ العربى والطابع العربى لا يحتملان الانتظار؛ وفى غضون ساعة واحدة من اقتياد الناقة إلى مكان ذبحها أصبحت تسر خاطر وقلوب وأنوف البدو الجالسين حول نيران المخيم. هذا لا يعنى طهى كل لحم الناقة وأكله فى يوم واحد، ذلك أن جزءاً كبيراً من لحم الناقة جرى الاحتفاظ لاستعماله فى حال ندرة الطعام. قام رفاقى

بتقطيع الفائض من اللحم إلى شرائح جرى تجفيفها بعد ذلك، عن طريق حمل شرائح اللحم هذه على سُرُج الإبل ونشرها لتجف في الشمس، وكانوا أثناء السير يقومون بتخريم ذلك اللحم وقضم أجزاء منه ويقولون إنه جيد جداً.

عقب انتهاء صلاة العصر انكب أعضاء الجماعة على معدة الناقة. كانت تلك المعدة مفرودة على مجموعة من شجيرات الإبالة ومن تحتها ثقب مستدير يقدر قطره بقرابة ياردة، في تجويف رملي مبطن بجلد عنق الناقة ليكون مانعاً لتسرب الماء. كانت المثانة مثقوبة وكانت المحتويات تتقاطر منها لتشكل بركة صغيرة من السائل أصفر اللون.

قالوا، وهم يتناوبون الجلوس على اليدين والركبتين، وكل منهم فاتح شفثيه ليأخذ بغيته من هذا السائل: "إنه لذيذ الطعم؛ إنه أفضل بكثير من ماء الرمال المالح".

لم يوقظوني عند صلاة الفجر، لكنني عرفت من خادمي محمد بعد ذلك أن صوت المؤذن بعد أن أيقظ الجميع، اندفع الرشايذة فرحين بغية الشرب من البركة^(١) قبل الاصطفاف لأداء الصلاة.

أحضر لي، عندما كنا عند ثقب مياه شنة، واحد من أفراد الجماعة رأس سهم زناد كاملاً؛ ويقول لي إنه عثر على هذا الرأس عند ثقب الماء، لكن كلامه لم يكن صحيحاً. رأس السهم، شبيه برأس رمح كبيرة مصنوع من الصوّان والذي بحوزة عربي آخر، وقد جاء هذا الرأس من رمال سنام. لم يكن أولئك الذين حصلت منهم على هذه الرؤوس، لكنني توصلت إلى أن الرؤوس الصوّانية هذه يجرى العثور عليها في الرمال وتستعمل ولاعات. كان حمدين هادي، الذي أطلعت على هذه الرؤوس، علّه يبحث عن رؤوس أخرى بغية أن يعود نفعها علينا جميعاً، لا يؤلى هذه الرؤوس اهتماماً وأنها غير ذات بال عند هذا الرجل، الذي كانت عيناه

(١) الفاض: يقول حمدان: المرء، وعلى العكس من مذاق ساكني جنوب الجزيرة العربية، لا يستيفون طعم سائل المعدة، وأنهم لا يشربون هذا السائل إلا عندما يكونون عطشانيين ولا يستطيعون إطفاء ظمئهم بأي شكل من الأشكال الأخرى. الرشايذة يطلقون الاسم الفوض على سائل المعدة هذا، ويبدو أنهم استبدلوا بصوت (الفاء F) صوت (الثاء th).

تتركزان على الآثار أكثر منها أى شىء آخر، إلى حد أن حمد صرح قائلاً: إنه على بعد مسير يوم واحد فى غربى شنة، كانت توجد "أحجار" كثيرة ووفيرة أهم من هذه الرؤوس بكثير، وإن هذه الأحجار عبارة عن رسوم محفورة - "والله أعلم" - وأن هذا من أعمال أبناء آدم فى العصر الجاهلى. كان حمد يطلق على البقعة الموجودة وسط كتبان جعاميات الرملية، اسم الشق المصور، وهذا الاسم فى حد ذاته يعنى الكثير. ولم يكن من الحكمة أن أترك الجماعة الرئيسة لوحدها، وعليه أرسلت حمد ليحضر لى عينة من هذه الأحجار نظير مكافأة سوف أعطيه إياها. وبعد ذلك بست وثلاثين ساعة عاد الرجل إلىّ ومعه حجر شبيه بالضلع البشرى طوله قرابة قدمين، وكانت مع ضلع آخر دائرى الشكل، قطره قرابة قدم ونصف القدم، وشبيه بحوض بعض الزواحف القديمة بالإضافة إلى عينات وأنواع صغيرة متباينة وغريبة الأشكال؛ وهذه الأحجار شبيهة بأحجار الحيتان التى يطلقون عليها اسم Lössspuppen. هذه الأحجار من صنع الطبيعة، الحجران الكبيران شبيهان بعظام الحفريات، لكن ثبت أن هذه الأحجار مجرد تكوينات من الحجر الرملى^(١).

"هذا هو ما طلبته أنت، أيها الصاحب"، قالها حمد وهو يضع الأحجار أمامى، فى حين راح إخوانه من البدو ينظرون إليه وهم غير موافقين على ما يفعل؛ لأنه جاء بما يمكن أن يكون حملاً إضافياً على الإبل".

"يا حمد، أنا لا أعرف ماذا تكون هذه الأحجار، ما هذه الأحجار فى رأيك أنت؟". قال "حمد" وهز الواقفون رؤوسهم فى إشارة منهم إلى الموافقة على ما يقول، "من أعمال بنى هلال، الله أعلم".

بنو هلال، اسم أشهر من نار على علم، فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بطولها وعرضها وفى شمال أفريقيا أيضاً، هذا الاسم يمثل قبيلة قديمة ولكنها انقرضت ولكن يُعزى إليها كل ما هو حسن وطيب كما يعزى إليها أيضاً تذكارات الماضى التليد؛ واسم هذه القبيلة يتردد على كل الشفاه وبخاصة الرجال. بنو هلال كقبيلة هى منبع الفلكلور (الأدب الشعبى) فى الصحراء الجنوبية. هذا يعنى

أن كل بدوى لديه شئ يقوله عن أبطال القبيلة الأسطورية، وبقوافيه البسيطة من لغته الحبيبة، وأنا نفسى عندما استمعت إلى واحدة من القصص بروايات لاحظت أن الروايات المختلفة لا تختلف عن بعضها حتى ولو فى كلمة واحدة.

البطل التراثى العظيم لبنى هلال هو شخص يُدعى أبا زيد، وقد سُمى الرجل بهذا الاسم لا لأنه كان أباً لابن يدعى زيداً، وإنما لأنه كان "مالك الامتياز" - أى صاحب سمات فائقة . أما الاسم عنتر فكان غريباً على هؤلاء السكان البعيدين الذين يسكنون الريع الخالى، لكن الأساطير التى تُروى عن أبى زيد وعن قريبة دياب بن غانم، الذى هو بطل آخر من أبطال بنى هلال كثيرة ويتداولها بدو كُثر.

هذه الأساطير تحدد وادى مرخة، على أنه كان موطناً لقبيلة بنى هلال؛ وهذا الموطن موجود حالياً فى الأرض التى تحتلها فى الوقت الحالى قبيلة الدهام؛ ولاتزال البئر التى يطلقون عليها اسم بير الجوقة، هى وتنداتها الثلاثون باقية إلى يومنا هذا، تخلد هذه الذكرى العظيمة. كان كل عضو من أعضاء جماعتى يحفظ بعضاً من أشعار هذه القبيلة - أما الشيخ صالح فيحفظ كل هذه الأشعار - التى هى عبارة عن ملحمة يطلقون عليها اسم ملحمة بنى هلال (السيرة الهلالية)، وهى تتناول صعود واندحار هذه القبيلة.. تقول سيرة بنى هلال إن عدد خيولهم كان يقدر بقرابة ألف جواد، بل ألفى جواد؛ تروى السيرة أن أبا زيد تحمل قرابة ألف جفاف من الجفافات الكبيرة التى أصابت الأرض التى يعيشون عليها، إلى حد أن المطر لم يسقط طوال ثلاثين عاماً، وأن الإبل كانت تأكل شعر بعضها البعض وهلكت تلك الإبل فى الوقت الذى كان أصحابها يحفرون الأرض بحثاً عن الجذور التى يمكن أن يستعملوها فى تغذية هذه الحيوانات؛ ولم تكن هناك أيضاً أية حبة من الريح إلى حد أن مسحوق الوارس^(١) الناعم الذى جرى وضعه على

(١) مسحوق الوارس هو منتج من منتجات الخضراوات فى الجنوب الغربى من الجزيرة العربية، وهو يستعمل صبغة للبشرة فى عُمان؛ يجرى استعمال ذلك المسحوق وتحضيره على شكل مسحوق أصفر اللون.

قمة وادى المرخة بقى على ما هو عليه مدة عام بعد ذلك؛ وهنا اقترب أبناء شيخ بنى هلال من والدهم وقالوا له:

"الناس يموتون جوعاً ونحن يجب علينا أن نأخذ من التجار لنطعم هؤلاء الناس". لكن الرجل لن يفعل ذلك، على الرغم من أنه هو نفسه كان جوعان، وكانت جدران القلعة تتأوه حزناً.

السواد الأعظم من قصص هذه السيرة يجب أن تخاطب الأجيال القادمة، وبخاصة بعد أن تحولت قبيلة بنى هلال إلى قبيلة فقيرة مترحلة، راحت تشن الحرب على شعب الريشى المستقر، الذى كان الزناتى ملكاً عليه.

كان أبو زيد، بطل بنى هلال فى تلك الفترة، صاحب حياة مسحورة من منطلق أن أمه كانت منحدره عن جنيّة من الجنيّات، وأن هذه السمة هى التى جعلت أبا زيد مقاوماً للحديد بكل أنواعه، سواء أكان هذا الحديد سهماً؛ سيفاً، أم رمحاً، وأن ذلك يستمر إلى اليوم الذى ينطق فيه بالشهادة "لا إله إلا الله"، وعندها يقوم الجن الذى كان يحميه من الأمام ومن الخلف، بسحب حمايته له من الأمام، وبذلك يصبح مثل سائر البشر الآخرين، معرضاً للقتل؛ من هذه القصص التى رأيت إنها جديرة بالتسجيل، والتى كانت تُروى لى بين الحين والآخر أثناء المسير أو عندما نكون جالسين حول نار المخيم.

كان موقعى هنا فى شنة من الناحية الحسابية، فى اتجاه الشرق من حضرموت عند خط طول ١٩° درجة شمالاً و ٥٠° درجة و ٤٥ دقيقة شرقاً، على ارتفاع ٩٩٠ قدماً. كان هدفنا متمثلاً فى الوصول إلى الدوحة فى شبه الجزيرة القطرية على الخليج الفارسى، على بعد قرابة ٢٣٠ ميلاً فى اتجاه طيران الغراب عبر هذا المحيط القاحل من الرمال الداخلية. زعم حمد أنه سافر ذات مرة إلى الدوحة، وهو يشير بعكازه فى اتجاه يميل إلى الشمال الشرقى، ومتفقاً تماماً مع تحركى الأفقى عبر الجبال، ومتفقاً تماماً من الناحية الفلكية مع مواقعنا. لكنى حاولت ألا أبعد حريصاً وعارفاً بكل ما نقوم به.

تبلورت لدى، بفضل المرافقين لى من قبيلة المرأة، خطة عمل. تقضى هذه الخطة بتخفيض عدد أفراد الجماعات إلى اثنى عشر عضواً يجرى انتقاؤهم،

وجرى أيضاً انتقاء الركائب وخمس من دواب الحمل وكانت كلها بحال جيدة. وسوف يؤدي هذا إلى جعل تعييناتى كافية لمدة ثلاثين يوماً، مخصوماً منها خمسة أيام يتعين أن تمر علينا قبل وصول المجموعة الجديدة؛ لكن مسألة رغبتى فى تخفيف الأعباء والارتياح بعض الشيء عن طريق تقليل عدد المرافقين لى كانت أمراً مستحيلاً وذلك من باب التحسب للغزاة. هذا يعنى أن مواردى لم تعد تسمح لى بهامش كبير، وإن السير على غير هدى فى هذه الرمال يعنى الوفاة. هذا يعنى أن الإبل الصحيحة هى والرجال الأصحاء كانت أمراً ضرورياً وملحاً؛ هذا يعنى أيضاً أن المسيرات لابد أن تكون طويلة وجادة، هذا يعنى أيضاً أن فقدان الإبل، والمرض، والحياة، وكذلك المعارضة القبلية التى تنطوى على تعطيل قد يصل إلى عشرة أيام، أو حتى الإبطاء فى المسير، كل ذلك يمكن أن يكون كارثة غير متوقعة. وهنا كان لابد من إعمال العقل واعتبار الخروج من هذه الأرض اللياب التى ضربها الجوع، وبأقصى سرعة ممكنة أصبح أمراً ملحاً . تلك كانت هى أوهام حمد اليومية.

لقد تبين لى أن عبور هذه الرمال عبوراً ناجحاً أصبح أمراً مؤكداً؛ وإذا ما خانتنا المراعى على امتداد طريقنا، فقد يحتم ذلك علينا مواجهة المسألة، إما عن طريق مواجهة الأجل المحتوم وذلك بالمضى قُدماً، أو التراجع إلى الخلف شداً للأزر، لكن إذا ما كان الرجال لائقين بدنياً وإذا ما كانت الإبل الجديدة بحالة صحية جيدة، وإذا ما أفلحنا فى تخطى نقطة البداية، فذلك يعنى أن المسألة أصبحت فى الطريق إلى الحل. وهذا هو ما هدانى إليه تفكيرى. لقد كانت شنه تعد نقطة البداية فى المرحلة الأخيرة، من ناحية ثانية.

انعكس التحسن الذى طرأ على موقف التعيينات التى بحوزتنا، نتيجة لذبح الناقة التى أصابها المرض، نظراً للوصول المفاجئ لبعض الضيوف- الذين كانوا عبارة عن خمسة من الكرابين والمناهيل عبروا الرمال عبوراً سهلاً قادمين من أبى ظبى. هؤلاء الضيوف شأنهم شأنه أبناء جلدتهم ومن أول وهلة، بدا عليهم

التحفظ، وعندما سألتهم عن وجهتهم، ردوا على رداً عاماً، وهنا أحسست أن ذلك نوع من السياسة، وأن الأفضل ألا أواصل الضغط في هذا الاتجاه.

تمنيت لو أنهم عجلوا رحيلهم، لكن التمر والقهوة اللذين يتعين علينا تقديمهما لهم، شجعاهم على البقاء لفترة أطول. وسرعان ما اتضح لنا أنهم لا ينوون التحرك طالما أن كرمي الرشيدى مستمر. كان حمد المرافق الوحيد الذى أدرك ضرورة الاقتصاد فى التعيينات التى معنا، وبخاصة أن رمضان كان على وشك الدخول علينا، لكن مسألة حجب الطعام عن الغرباء عابرى السبيل طالما أثروا البقاء معنا فى مخيمنا تعد خرقاً لقواعد الكرم الصحراوى، هذا إن لم يُجرَّ علينا غضب رفاقى وازدراءهم . لو سألت رجالى لتمنوا انعكاس هذا الموقف الخطر إلى قصة أخرى من القصص التى تُحسب لأبى زيد .

كان أبو زيد أشهر بنى عصره من ناحية الكرم. كان الرجل يذبح إبله الواحد بعد الآخر حتى يطعم الغريب والفقير. وقد أدى ذلك إلى أن تعقد البطون الأربعون التى تشكل قبيلة بنى هلال، اجتماعاً للتشاور فيما بينهم وقالوا: "سوف يعطى كل واحد منا أبا زيد جملاً حتى يمكن أن يتكون لديه من جديد قطيع جديد". ونفذت البطون ذلك. لكن أعداد ضيوف الرجل وقلبه الكبير أديا من جديد إلى أن أصبح أبو زيد فى يوم من الأيام بلا إبل- وهنا أدرك بنو هلال أنه لا طائل من وراء امتلاك أبى زيد لقطيع جديد، وهنا قالوا: "سوف نعطي هدية واحدة عبارة عن ناقة واحدة يحمل عليها زوجته عند ترحال أو تنقل القبيلة، وأننا سوف نفعل ذلك شريطة أن يقسم أبو زيد ألا يذبح الناقة من أجل ضيفه، وهذا أمر مؤكد أنه سيقوم بذبح الناقة".

وافق أبو زيد على الشرط الذى اشترطه بنو هلال.

انقضت وجاءت أقمار عديدة، وبنو هلال مخيمون مع قطعانهم الكبيرة وخيامهم العديدة، إلى أن تصادف مجيء جماعة من العرب من المنطقة المجاورة لمنطقته، وسألت هذه الجماعة، "أين خيمة أبو زيد؟".

لم يجب أحد عن سؤالهم.

"قولوا لنا، أين خيمة أبو زيد؟".

"الخيمة أمامكم" وواصلت الجماعة المسير.

سمعهم أبو زيد ينادون زوجته وقال:

"اعصبى عينى حتى لا أرى وجوه الضيوف الذين لا أستطيع أن أقيم لهم وليمة". وعليه قامت زوجته بإحضار شريحة من شرائح سلال التمر وعصبت بها عينى أبو زيد.

وبعد برهة من الوقت قال لها أبو زيد: "انظري هل أخذ الجماعة أحد غيرنا".

نظرت زوجته. ثم قالت: "لا، إنهم أمام خيمة فلان الفلانى".

سألها أبو زيد بعد ذلك بفترة قصيرة: "انتبهى! من الذى أدخلهم خيمته؟".

ردت عليه: "لم يأخذهم أحد، لقد تحولوا الآن إلى الخيمة التالية".

"وراح أبو زيد يسأل زوجته المرة بعد الأخرى، ويحصل منها على الإجابة نفسها، إلى حد أن قلبه ازدادت ضرباته فى داخله، وفى نهاية المطاف استطاع الرجل تمالك نفسه، وهبَّ واقفاً ومزق العصابة الموجودة على عينيه، واستلَّ سكيناً وذبح نافقته الوحيدة وهى فى مكانها عند مدخل خيمته، وأرسل فى طلب الغرياء وأقام لهم العزيمة".

أنا لم أستشعر أية مشاعر من هذا القبيل تجاه ضيوفى غير المرغوب فيهم والذين جاءوا من أبى ظبى، الذين أثبتوا أنهم يصعب التخلص منهم بحكم وجودهم وإحساسهم الطفيلى. كان هؤلاء الضيوف فى طريق عودتهم فى السهوب الشمالية الشرقية من حضرموت، الأمر الذى جعلنى أسألهم استجلاء للغموض الذى يكتنف بئر بيرهوت الشهيرة، والتى يقال أنها كانت المكان الذى شهد ثورة أو نشاطاً بركانياً، وإن هذا هو المكان الوحيد فى الجزيرة العربية الذى شهد هذا النشاط، وإن الدكتور هوجارت يورد الاقتباس "تلك كانت البئر العظيمة التى لعنها على، وذلك نقلاً عن جيهان نوما". هؤلاء الضيوف أكدوا مثل من سبقوهم الذين رافقونى فى ترحالى فى هذا الجزء من البلاد، عدم وجود أية براكين فى هذه المنطقة. لكن هناك خرافات متباينة تُعزى إلى الوادى الذى توجد فيه هذه البئر،

وجود أرواح الموتى الشريرين، وإن البشر إلى يومنا هذا، لا يجروُ أحد منهم على الاقتراب من ذلك المكان وبخاصة أثناء الليل.

أبرم أحد الحضارمة صفقة مع أحد أعضاء جماعتى - استبدال الجمل الصغير ببندقية، ذخيرة، ودولارات- لكن الجدل الغوغائى الذى صاحب هذه الصفقة، كان يفتقر إلى الأسلوب الجزل الفخم الذى اتسمت به جولات أبى زيد فى طفولته، فى ضوء ما قيل عن هذا الموضوع فى عصر هذا اليوم:

"كان أبو زيد يتيمًا كفله عمه الشيخ حسين بن سرحان. حدث ذات يوم عندما كان أبو زيد طفلاً صغيراً، وهو يرمى قطعاً صغيراً مكوئاً من جملين ذكرين وسبعة من النِّياق" ومرت عليه جماعة من العرب، وكان بصحبته جمل، وكان يوجد سيف ضخّم على ظهر جمل من الجمال، وكان اسم ذلك السيف شاهمان. تنظر أبو زيد إلى السيف، وسأل العرب ما إذا كانوا يودون بيع ذلك السيف".

"نعم، هذا إن أردت أن تشتريه" قالوا لأبى زيد هذا الكلام وهم يسخرون منه، نظراً لأن السيف كان كبيراً على نحو يصعب معه على الرجل العادى حمله أو حتى استعماله. وعليه قاموا بتبريك الجمل.

"وتناول أبو زيد السيف وهو يتنهد"، "ليته كان أثقل قليلاً من هذا السيف، لكن هذا السيف يمكن أن يوفى بالغرض".

"قام أبو زيد بوضع السيف جانباً، وذهب إلى قطيعه، وقام باحضار ناقة، قام بتبريكها وأحضر جملاً ذكراً لتخصيب الناقة^(١) كان ذلك من قبيل الهدف المحدد للرجل، ومن قبيل اختبار السيف الجديد، من منطلق أن السيف إذا ما أفلح فى شطر الجمل الذَّكر إلى نصفين فإنه سوف يشتري ذلك السيف".

(١) الإبل شأنها شأن كل من اللاما والأسود، يندر أن تقوم بعملية التلقيح على الملأ. وهنا يصبح صاحب القطيع طرفاً فى هذه العملية، إذ يقوم الرجل بإخلاء الرمال من حول أرجل الناقة حتى تحس بالارتياح، وهو الذى يقوم بإدخال عضو الذكر فى عضو تأنيث الناقة، نظراً لأن الذكر والأنثى يكونان فى وضعين معكوسين، وهذا وضع استثنائى عن كل الثدييات، ويتدخل صاحب القطيع بعد دقائق معدودات لإبعاد الذكر عن الأنثى. وبعد عشرة أيام إذا لم يَرَ صاحب القطيع نتيجة لما قام به، فإنه يقوم بتكرار التلقيح. وعلامة الحمل هى أن تهز الناقة ذيلها كلما ركبها أحد.

"تناول أبو زيد السيف، وتراجع قليلاً إلى الوراء، ورفع السيف إلى ما فوق رأسه وهوى به على سناميَّ الجملين الذكرين بقوة، أسفرت الضربة عن شطر الجملين الذكرين إلى أربعة أجزاء، واستدار أبو زيد إلى العرب وأعطاهم جملة الذكر وستة نياق ثمناً لذلك السيف، ووضع أبو زيد السيف على كتفه وعاد فرحاً إلى محل إقامة عمه".

كنت في عصر اليوم الثامن من شهر يناير، وأنا في شنته، جالساً مع رفاقي نتجاذب أطراف الحديث، عندما ظهرت أمامنا فجأة جماعة من الرجال والإبل، خلف كتف التل، في المنطقة الوسطى من التل. قفز العرب المرافقون لى واقفين على أقدامهم، وقاموا بتعمير بنادقهم، على الرغم من أن ذلك كان فقط من باب التحوط والاحتراز، لأننا كنا في واقع الأمر ننتظر وصول شيخ بيت إيمان. أدت نظارتى المكبرة، هي واقترباب الجماعة الصغيرة، إلى استعادة رفاقي لثقتهم بأنفسهم، وسرعان ما يتمكن رفاقي من تعرف الشيخ محمد بن حام، وهو ورفاقه الخمسة.

نزل الشيخ محمد وجماعته عن مطاياهم، على بعد مسافة قصيرة منا، واقتادوا معهم إبلهم ومروا الواحد بعد الآخر على صف المستقبلين والمرحبين، وهم يمارسون التحية والسلام عن طريق قبلة الأنف؛ ثم جلس الجميع أرضاً على شكل دائرة مشتركة وراحوا يتبادلون أخبار الصحراء- الإبل، المراعى، الغزو وما إلى ذلك- وهم يحتسون القهوة والتمر اللذين قدمناهما لهم. وكان مُسلم من بين أفراد هذه الجماعة، ومُسلم هذا كان واحداً ممن رافقوني في رحلة العام الماضي. جاء ظهور مسلم في هذه الآونة مفاجأة تسر الخاطر، لكن يا أسفاه! لم يكن مُسلم من المسجلين ضمن جماعة الشيخ، ولكن الرجل جاء لمجرد أن يحثنى على أمل أن أدرجه على انفراد أو بدلاً من شخص آخر. قام مُسلم في الصباح بتقديم حُججه وأسبابه، كان الرجل بدوياً شاباً أصيلاً، أسنانه كبيرة وغير منتظمة، مُشْلخ الصدغين^(١)؛ وكانت تتدلى من تحت غطاء رأسه صفائر طويلة

(١) هذه الشلوخ عبارة عن خطوط وشمية قصيرة فوق الفكين العلوى والسفلى، فيما بين الأسنان. هذه المسألة عامة بين الرجال والنساء في جنوب الجزيرة العربية، ويجرى تنفيذها أثناء الطفولة، ويقال إنها تمنع نمو الأسنان الطويلة وتمنع عدم ثبوتها.

الإخوان، وبخاصة السواد الأعظم منهم، من الداخلين فى هذه العقيدة مؤخراً بعد حياتهم البدوية، فهم يكشفون بل ويستعرضون كل تطرف وتشدد الداخلين الجدد فى هذه العقيدة.

وهذا هو محمد، خادمى الحضرى، وهو من أهل مسقط ولم يكن مثلاً يُحتذى، لخص لى مسألة الإخوان هذه تلخيصاً واضحاً، فى يوم من الأيام على أنها الفكرة التى تثير لديه الكثير من الشك والارتياح فى مسألة التسليم أو القبول بدين البدو.

قال محمد عن المرافقين لى: "هؤلاء البدو لا يتبعون الأسلوب الذى تتبعه كل مخلوقات الله".

إنهم يعيشون شهوراً بلا ماء. وبنو آدم لا يطبقون هذه المسألة، كما أن نساءهم، وهذا أمر عجيب! يعاشرنهن جنسياً ولا يفتسلن، أى الاستحمام. وأنا أتساءل كيف تُقبل صلاتهم؟

الفصل السابع عشر

الاندفاع فى اتجاه الشمال

حانت ساعة الصفر التى تحتم اندفاعنا شمالاً، وعليه بدأت جماعتى الصغيرة فى التوجه إلى شتّه وذلك عند الساعة الرابعة من عصر اليوم العاشر من شهر يناير من العام ١٩٣١ الميلادى، كان ينبغى على أن أبدأ الترحال فى ساعة مبكرة، نظراً لأنى كنت متعباً بعد يوم شاق من العمل أمضيته فى تسوية الحسابات ودفع أجور المرافقين السابقين ودفع مقدمات أجور المرافقين الجدد. لكن كان هناك سببان قهريان لذلك التأخر: أولهما، حتمية تحرك المخيم قبل تقسيم التعيينات على المرافقين؛ وعلى زوارنا الحضارمة هم وأقاربهم من الحرس البدوى المرافق لنا، الذين جاءوا ظاهرياً لوداعنا، وآثروا البقاء إلى آخر لحظة على أمل الانتفاع؛ ذلك أن مسألة توزيع التعيينات فى وجودهم دون أن يكون لهم نصيب من هذه التعيينات أو حتى السماح للبدو المرافقين لى بذلك، هو من قبيل المسائل المستحيلة. السبب الثانى، أن مرافقى كان قد قرر أن يوم السبت هو اليوم الأفضل لبداية الرحلة، يضاف إلى ذلك أن يوم الأحد غير مقبول تماماً فى مسألة السفر والترحال^(١).

(١) صادفت بصورة مستمرة فى جنوب الجزيرة العربية، مسألة الأيام المواتية وغير المواتية للرحلات والترحال. أهل هذه المنطقة يرون أن اليومين الثانى والخامس من الأسبوع هما يومان مواتيان: يعد يوم الجمعة مواتياً إلى حد ما. بعض بطون قبيلة المهارين لا يقومون مطلقاً بالغزو أو الترحال فى يوم الأحد، أو فى يوم الجمعة إلا بعد صلاة الجمعة (الظهر) - الناس يرون أيضاً أن اليوم الأول من ظهور القمر هو يوم موات تماماً أيضاً بغض النظر عن مصادفته لأى يوم من أيام الأسبوع. =

يكفى القول أن اجتيازنا لأول سلسلة من الرمال المرتفعة كان كافياً للوفاء بمطلبين: الحفاظ على النفس من ناحية والمعتقد الخرافى من ناحية ثانية، وهنا توقفنا لقضاء الليل. جرى إنزال السُرج (العدد) من فوق الجمال، ثم جرى بعد ذلك تقييدها وإطلاقها فى أقرب منطقة من مناطق الأشواك التى تعشق الإبل أكلها؛ فى حين راح أصحاب هذه الإبل يتحلقون كيما يمتعوا أنظارهم بالمنظر النادر للطعام الوفير، وإنهم سوف يتملّكونه بعد قليل، أخذ كل واحد منهم نصيبه من الزيد فى كيس مصنوع من جلد إحدى السحالى- وهذا واحد من الأوعية التى توجد دوماً داخل كيس سرج (عدة) جمل البدوى؛ أما بقية التعيينات فقد جرى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام بواقع قسم لكل جماعة من الجماعات الثلاث التى جرى تشكيلها. كان لمنظر الدقيق هو والتمر ومعهما الأرز تأثير كبير ومثير على هؤلاء الرجال الجوعانين، مما أدى إلى جعلهم يروحون يروون القصص لأنهم كانوا أصحاب روح معنوية مرتفعة؛ وشجعنى على ذلك أن الشيخ صالح، راح وهو يترأس مسألة توزيع التمر، يروى لنا قصة أخرى من قصص أبى زيد.

“كانت لأبى زيد زوجة، لكن هذه الزوجة لم تكن تسمح له باستكمال مضاجعته لها، وعليه خطر ببال أبى زيد أن الولدين اللذين أنجبتهما هذه الزوجة لم يكونا ولديه، وإنما هما من رجل آخر، لاحظت القبيلة أن الولدين لم يكونا شبیهين لأبى زيد، وراودتهم أيضاً الشكوك، إلى حد أنهم ذهبوا إلى أخت أبى زيد وقالوا لها إن بنى هلال لا بد أن يكون لهم ولد من صلب أبى زيد. وقد أدى ذلك إلى الذهاب سرّاً فى إحدى الليالى، إلى غرفة نوم أخيها، ولما لم يكن أبو زيد يميز بينها وبين

= حكى لى بعض البدو الكرابين والبدو الحضارمة الخرافات التالية التى ربما تكون أو لا تكون لها علاقة بعبادة النجوم فى جنوب الجزيرة العربية.

(أ) البدو لا يقومون بالغزو أو الترحال أو ما شابه ذلك، خلال فترة الأيام الخمسة، عندما يكون القمر فى مجرة العقرب، لأنهم يرون أن العمل غير موات فى مثل هذه الظروف.

(ب) البدو يجعلون عمر القمر دليلاً لهم أثناء الترحال- وهم يطلقون الاسم دوار على اليوم الأول، والثانى عشر واليوم العشرين، لأنها مواتية للتحرك فى جميع الاتجاهات.

(البدو يقسمون شبه الدائرة شرق - جنوب - غرب، إلى عشرة أقسام (اتجاهات) تصادف الأيام العشرة التى يتكون منها الدوار، وهذه الأيام هى: اليوم الثالث، اليوم الثالث عشر، وكذلك اليوم الثانى والعشرون من الشهر القمري).

زوجته فى الظلام، فقد قام بمضاجعتها. وعندما أوشك على الانسحاب قبل اكتمال المضاجعة، مثلما كان يفعل مع زوجته، وخزته بالمخييط الذى كانت تحتفظ به استعداداً لهذه اللحظة. حققت الوخزة الغرض المتبقى منها، وفى هذه اللحظة حملت منه ولداً، أصبح يعرف باسم عزيز من خاله، وكبر عزيز وأصبح شاباً يافعاً قوياً، موهوباً بالشجاعة والفضائل الأخرى".

"انقضت سنوات كثيرة، كان أبو زيد طوالها، يود أن يكتشف من هؤلاء الأولاد الثلاثة هو ولده، وهنا قال أبو زيد لكبيرهم "تعال، سنقوم برحلة" وهنا جهز أبو زيد جوالاً من الدقيق، ووضع فى فتحته ثمرة واحدة. وبعد ذلك قام صاحب اللحية التى علاها الشيب، هو والشاب بتجهيز جملتهما وسارا فى رحلتهم، إلى أن وصلا إلى سهل قاحل وخالٍ من المراعى بكافة أنواعها، وكان السهل شبيهاً بكف يد الرجل، اللهم باستثناء شجرة واحدة من أشجار السدر. وهنا قال أبو زيد: "سوف نتوقف هنا، وسوف أنام تحت شجرة السدر على أن تقوم أنت بتجهيز وجبة لى".

"وبينما كان أبو زيد نائماً نظر الشاب حوله، لكنه لم يعثر على أى شىء من الحطب، نظراً لأن شجرة السدر كانت خضراء، وعليه قام الشاب بفتح الجوال، وعندما رأى ثمرة واحدة داخل فتحة الجوال، أخذها وأكلها، لأنه كان جوعان.

"وعندما استيقظ أبو زيد قال: "أين الوجبة؟" رد عليه الشاب: "لا توجد وجبة. لأنى لم أعثر هنا على أى شىء من الحطب، وفتحت جوال الدقيق ووجدت فيه ثمرة واحدة، وأكلت أنا هذه الثمرة".

قال أبو زيد: "لابد من عودتنا، إذن".

"وبعد أن أقاما فى خيامهما بضعة أيام، تحدث أبو زيد إلى شقيق الشاب، قائلاً: "تعال، هيا بنا إلى رحلة نقوم بها "معاً". وقام أبو زيد مرة أخرى بتجهيز جوال من الدقيق ووضع فى فتحته ثمرة واحدة، مثلما فعل من قبل، إلى أن وصلا إلى السهل السابق نفسه الذى ليس فيه سوى شجرة سدر واحدة.

"قال أبو زيد: "لابد أن أنام هنا فى حين تقوم أنت بإعداد وجبة لى".

"وراح الشاب يبحث حوله عن الحطب لكنه لم يجد أى شىء منه، وقام بفتح جوال الدقيق، ورأى فيه ثمرة واحدة فأخذها وأكلها".

"وعليه عندهما استيقظ أبو زيد، سأل عن الوجبة، لكن لم تكن هناك وجبة، وأجاب الشاب الإجابة نفسها التى قالها أخوه".
"وعليه عاداً معاً إلى البيت".

"وتنقضى بضعة أيام، تحول بعدها أبو زيد إلى عزيز وقال له: "تعال، هيا بنا سنقوم برحلة معاً".

"وقام أبو زيد مرة أخرى بتجهيز جوال من الدقيق ووضع فى فتحته ثمرة واحدة، وشرع الرجل والشاب فى القيام برحلتهم إلى السهل القاحل نفسه الذى ليست فيه سوى شجرة سدر واحدة.

"قال أبو زيد: لا بد أن أنام - عليك أن تجهز لى وجبة".

وراح عزيز يبحث عن الحطب فى السهل، لكنه لم يجد أى شىء من الحطب، وجلس يتفكر فى الأمر، واهتدى إلى أن خشب السَّرَجِين (العُدَّتَيْن) هما والمشعابين يشكّلان الشىء الوحيد الذى يمكن استعماله فى عمل الوجبة. وعليه شب الصبى ناراً مستعملاً خشب هذين السرجين هما والمشعابين وقوداً لتلك النار. ثم استعمل خنجره وراح يقطع أغصاناً من شجرة السدر وراح يشكل هذه الأغصان لاستعمالها فى سرجين جديدين ومشعابين. وبذلك يتمكن الشاب من عمل رغيفين من الخبز واحتفظ بواحد منهما لأبى زيد، وأخذ الرغيف الثانى لنفسه، وعندما اكتشف الثمرة قطعها نصفين وضع نصفاً منهما على رغيف أبيه ووضع النصف الآخر على رغيفه. ثم أيقظ أبا زيد بعد ذلك وهو يقول: "استيقظ وكُلّ وجبتك يا أبتاه".

"أيقظ والده نفسه ورأى ما فعله عزيز، وهنا تسلل الحقد إلى قلب أبى زيد^(١)، وقال فيما بينه وبين نفسه، "لا بد أن أقتل عزيز، لأنه أفضل منى".

(١) لم يكن أبو زيد يطيق وجود منافس له؛ وقام فى أواخر أيامه بقتل ذياب بن غانم، ذلك الصياد والمحارب، وذلك على الرغم من أن ذياب كان زوجاً لواحدة من شقيقات أبى زيد. وقام ولد ذياب بعد أن كبر واشتد عوده بقتل أبى زيد، ليثأر لمقتل والده، وذلك طبقاً للعرف العربى السائد.

"وهنا جرى التخطيط الذى يلزمهما بالتحرك فى صبيحة اليوم التالى إلى ثقب الماء الذى يقع على بعد مسافة طويلة - لكن أبا زيد استيقظ عند منتصف الليل وتسلسل خلسة إلى ناقة عزيز وغرس إبرة فى قدمها، الأمر الذى أدى إلى إصابتها بالعرج، ثم جهز فى هدوء راحلته، وغادر المكان فى جوف الليل، مخلفاً وراءه عزيز ليموت عطشاً.

"واستيقظ عزيز ليرى ما صنعه والده فى الصباح، فقد كانت الناقة لا تستطيع وضع قدمها على الأرض، وهنا فهم عزيز تلك الخطة السوداء النابعة من قلب والده. وهنا تناول عزيز المَخِيطَ وشك بها الأرجل الثلاث الأخرى، إلى حد أن الناقة كانت كلما وضعت رِجْلاً من أرجلها على الأرض كانت ترفع رجلها مرة ثانية، وتبادل أرجلها الثلاث بهذه الطريقة. وبهذه الطريقة كانت الناقة ترفع رِجْلاً من أرجلها بعد الرجل الأخرى وراحت تمضى قُدُماً مسرعة. وبذلك سلك عزيز طريقاً أقصر من الطريق المعتاد، وبذلك كان أول من وصل إلى ثقب الماء؛ وجلس عزيز طلباً للراحة، لكنه من باب التخوف من أبى زيد، خبأ تَرْسَهُ تحت عباءته، واضعاً إياه على جسمه.

"وجد أبو زيد، عندما وصل إلى ثقب الماء، الشاب نائماً، وتناول أبو زيد حربته، ووجه طعنة شديدة إلى قلب عزيز. انزلق سن الحربة بعيداً عن الترس الذى كان عزيز يلبسه على جسمه، الأمر الذى أيقظ عزيز، الذى هب واقفاً، انتزع الحربة من يد أبى زيد، وهو يقول: "أنا أقوى منك، وأنت الآن تحت رحمتى، لكنك أبى وخالى فى آنٍ واحد، وعليه فأنا أنقذ حياتك" وراحا يبكيان كُلاً على عنق الآخر، وعادا إلى موطنهما معاً وهما راضيان بعضهما عن البعض تماماً.

* * *

شهدت نهاية هذه القصة انفضاض الجماعة، فقد حان موعد الصلاة قبل تناول وجبة العشاء.

جاء اليوم التالى بمثابة المسيرة الأولى المناسبة، كان اليوم مثل سائر الأيام الأولى الأخرى، فيه رجال جدد وإبل جديدة، وكان أيضاً يوماً قصيراً وعامراً

بالضوضاء. كان ذلك اليوم عامراً أيضاً بالوقفات فى كثير من الأحيان، بغية تعديل أحمال الإبل، وفض شجار البدو، وتعديل أزمة سُرْج الإبل، الأمر الذى أدى إلى تعطيلنا، إلى حد أننا عندما توقفنا لقضاء الليل لم نكن قد قطعنا سوى ما لا يزيد على اثنى عشر ميلاً. ودارت حول نار المخيم حوارات استمرت إلى أن توصلنا إلى نظام يقضى بتغيير الأحمال من يوم إلى آخر وبطريقة دورية؛ وذلك من باب ضمان المساواة فى المعاملة. وقد أدى هذا النظام إلى استعادة الهدوء.

قام واحد من البدو، أكثر وداعة من الآخرين، وهو يجمع لناقته نتفاً من شجرة الأباله التى كنت أجلس تحتها، بتناول غصن نضير من أغصان هذه الشجرة، وأمسك الرجل بذلك الغصن النضير وقد قلبه رأساً على عقب ثم قال: "أيها صاحب، والماء يتقاطر من ساق ذلك الغصن"، وأردف قائلاً: "هذا هو السبب فى أن أفراد قبيلة الإجابة يستطيعون البقاء أياماً دونما يكونون بحاجة إلى شرب الماء".

بُكرنا فى صبيحة اليوم التالى، وكان مسيرنا فى اتجاه الشمال الشرقى، وبعد أن تجاوزنا أبو أخشابة الأبيض الكبير، وصلنا عند الظهر إلى كثبان رملية منعزلة يُطلق اسمها "القصمان" على هذه المنطقة؛ كما تمثل هذه الكثبان الرملية الحد الشمالى الغربى لمنطقة دكاكا.

تتكون دكاكا، الواقعة داخل هذا المتراس الرملى الكبير الموجود على الحدود الغربية، من رمال كاسحة حمراء اللون تميل إلى الصلابة، بها كثبان منخفضة تمتد فى جميع الاتجاهات. ينخفض ارتفاع هذه الكثبان الرملية من ١١٠٠ قدم فى الجنوب إلى ٧٨٥ قدماً فى المناطق المحيطة بنا، يُزاد على ذلك أن "المحور الطويل لهذه الكثبان فى اتجاه الشرق - الشمال - ثم الشرق يمتد مرة ثانية، لمسافة تقدر بمسير سبعة أيام - وعندما بدأنا نسير فى اتجاه الغرب ازدادت هذه الكثبان وعورة على وعورتها؛ وازداد عمق ثقب المياه، من ثلاث قامات فى الشرق إلى ثلاث عشرة قامة فى شنه. وهناك ثقب ماء توأم، يسمونه زويره و"طُريوه" وهو أكثر عمقاً من ثقب شنه (والذى يقع على بعد مسار يوم فى اتجاه الغرب)؛ يُقال أن هذا الثقب التوأم يقع فى اتجاه الجنوب الغربى. وخلف هذه الكثبان

الرملية من ناحية الغرب، يقول الناس إن رمال جعاميات^(١)، هى والحوية، والشويكيله التى تمتد فى اتجاه نجران، كلها خالية من الماء".

جاء مسيرنا فى ذلك اليوم خلال مدقات قطيع صغير من الإبل، وتعرف المرافقون لى أثر هذا القطيع على أنه من قطعان أهله وذويه، وخلصوا إلى أن اتجاه القطيع يشير إلى أنهم كانوا فى سقيا حديثة. وسرعان ما عثرنا على المخيم. ووجهت إلى الدعوة بالنزول أمام خيمتين صغيرتين للكشف على مريض، وجدته كبير السن وشديد الضعف؛ كان ذلك المريض يشكو من نوع من المرض يكاد يكون عاماً هنا، الاضطراب المعوى- الرشايده يعزون هذا الاضطراب المعوى إلى ما يسمونه الأفيرة، التى هى أشد أنواع الأرواح الشريرة، لكن المريض نفسه قال إن هذا المرض: "من عند الله". تمثل أفضل ما يمكن أن أفعله لهذا المريض، فى التسرية عنه وإدخال السرور إلى قلبه بأن أعطيته حفنة من التمر، وهو آخر ما ظننت أن هذا المسكين بحاجة إليه. والبدو هنا يشربون بول النياق صغيرة السن، بكميات صغيرة بوصفه علاجاً للاضطرابات والأوجاع التى من هذا القبيل، والأفضل من هذا البول هو الطعام الذى تجتره الإبل (ظناً منهم أن هذا الطعام المجتر يمنع العطش)؛ والبدو يحصلون على هذا الطعام المجتر عن طريق دس عصا فى حلق الجمل. والبدو يستعملون بول النياق الصغيرة غسولاً للشعر، من منطلق أن ذلك البول يقتل الهوام والحشرات. يزداد على ذلك أن أشياء التجميل الصحراوية تفيد من هذا البول.

لم يكن فى الخيمتين سوى امرأتين وولد صغير- كانت المرأتان محجبتين، شأنهما فى ذلك شأن كل نساء الرمال، وذلك على الرغم من أنهما لم تكونا كارهتين للتحدث مع الغرباء. كانت المرأتان زوجتين للرجل العجوز ومعهما ولده. هذا الولد، هو ولد المرأة الأصغر سناً، وكان عمره أربع سنوات، وكان يجرى عارياً

(١) يقتصر طريق الغزاة القادمين من الرمال إلى حضرموت، على الاتجاه ناحية الغرب، ثم إلى مسار شمالى جنوبى عبر الجزء الغربى من دكاكا وخراخير. ثم يتحول الطريق إلى ناحية الغرب محاذياً للحدود الجنوبية للرمال، عن طريق ممر شهير يطلقون عليه اسم شق المعاطيف.



(في شمال غربي دكاكا)

فى الخيمتين وغير مُخْتَن^(١). بعد ذلك، جاء الرجل الأصغر سنًا وهو يحمل أرنبًا بريًا مصابًا إصابة سيئة، وكان يرافقه صائد ذلك الأرنب وهو يجرى بجواره، ومعه كلب طويل ضخم الحجم ولونه بنى غامق.

المُرَّة كلهم لديهم هذه النوعية من الكلاب، التى يستعملونها فى صيد الأرانب البرية، وصيد غزال الریم بين الحين والآخر (هذا فى الوقت الذى لا يملك فيه الرشايذة هم وقبائل جنوب الجزيرة العربية أى نوع من هذه الكلاب). وأثناء مسيرنا فى اتجاه الشمال كنا نمر بين الحين والآخر بآثار أقدام كلب من الكلاب، وعلى مقربة من هذه الآثار كنا نشاهد آثار أقدام البدوى صاحب هذا الكلب. كنا فى بعض الأحيان نشاهد ونرى هذه الآثار ثنائية (أى للكلب وصاحبه) وتمتد إلى مسافة غير عادية، وهذا دليل على أن الحيوان كان يستعمل فى هذه المنطقة.

كان ارتفاع الخيمة البائسة التى جلست فيها لا يسمح إلا بجلوس شخص كبير جالسًا القرفصاء. كانت تلك الخيمة مكونة من اثنتين وعشرين شريحة من وبر الإبل البنى الغامق المنسوج بطريقة شديدة البدائية؛ وبعض شرائح من الصوف أبيض اللون، الذى يُرَجَّح له أن يكون من صوف الغنم الحساوية. هاتان المرأتان اللتان فى داخل الخيمة هما اللتان غزلنا ونسجتا كل خيوط هذه الخيمة البائسة- كانت على مقربة منا تلك الإبرة أو المسلة التى استخدمتها هاتان المرأتان فى صناعة الخيمة، وكأن هناك أيضاً عدد من أوتاد المخيم المصنوعة من الحديد، بالإضافة إلى بعض أوتاد الخيمة التى كانت فى يوم من الأيام قروناً لبعض الوعول، أما هذه السيقان الحديدية الطويلة فهى التى يستعملها البدو فى حفر ثقوب المياه، وكان هناك أيضاً حجر مدور من أحجار السهوب الشمالية كانوا يستعملونه استعمال المطرقة (الشاكوش)؛ كان هناك أيضاً سَرَجَان (عُدتَيْن) من سُرُج الإبل، بالإضافة إلى تشكيلة من الدلاء المصنوعة من

(١) يقوم المُرَّة بختان الصبية وهم فى سن الخامسة أو السادسة. قام الرشايذة وإلى حد ما بيت إيمان بإجراء الختان مثلما يفعله المُرَّة، وتوقفوا عن ختان البلوغ الذى لا يزال جيرانهم المهرة يتبعونه فى الجنوب، ومع ذلك لا يزال الرشايذة وبيت إيمان يحتفظون ببعض طقوس ختان البلوغ، والتى منها أن يرفع الشخص الذى يجرى ختانه، رأسه إلى أعلى فى شجاعة، والنظارة يُرددون كريمة! كريمة!.



(مخيم صغير من مخيمات المرأة)

الجلد المشدود على أطُر من الخشب، وكان واحد منها مستعملاً فى حفظ الماء، وكان الدلو الآخر مستعملاً فى حفظ الجلود. تمثلت ممتلكات ذلك البدوى المترحل فى الأشياء البسيطة التى من هذا القبيل، أما الممتلكات الأقيم من ذلك فتتمثل فى الإبل والأسلحة النارية.

تجاوزنا دكاكا (التى تقع عند خط طول ١٩° درجة و ٣٢ دقيقة) ودخلنا منطقة صواحيب التى تعد واحدة من الأقاليم الرملية مترامية الأطراف. صواحيب هذه، اسمها مشتق من طبيعتها، والسبب فى ذلك أن الكلمة "صحابة"، تعنى فى النطاق المحلى سلسلة من القمم المرتفعة المتوازية؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الصواحيب كانت مكونة من سلسلة من التلال الرملية المدرّجة، التى يصل الواحد منها إلى قرابة نصف ميل تقريباً، وهذه الصواحيب لها محور شمالى شرقى عام، والمسافات التى بين هذه الصواحيب تغطيها الرمال حمراء اللون. يبلغ ارتفاع هذه السلسلة خمسين وثمانين قدماً، وذلك على الرغم من أن منحدرات هذه الصواحيب الخالية من التضاريس هى التى تضى شياً من المبالغة على حجم هذه الصواحيب. قيل أن هذه الصواحيب تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى إلى ما بعد القصمان لتطوف غربى دكاكا، لتصل بعد ذلك إلى كثنان جعاميات الرملية العالية.

ازدادت المراعى ونحن نتقدم فى اتجاه شمالى شرقى، ندرة على ندرتها، وعبرنا منطقة الصواحيب على شكل خط مائل على مسافات طويلة. كان التل التوأم العملاق، الذى يطلقون عليه اسم الخليلين، المعلم الوحيد الجدير بالملاحظ أثناء سيرنا فى اليوم الثالث عشر، إلى أن وصلنا فى عصر ذلك اليوم إلى ثقب الماء الذى يطلقون عليه الاسم بينها^(١)، وهنا سجل جهاز قياس الارتفاعات إنخفاضاً، لا تلاحظه الحواس، ويقدر بقرابة مائتى قدم فى المسيرة التى بلغ طولها قرابة تسعة عشر ميلاً.

كان الماء فى ذلك الثقب، على عمق قائمتين. كانت الملوغة الشديدة لذلك الماء، هى ولونه الشبيه بلون البيرة، خاصتين، حزنت كثيراً، عندما اكتشفتها، ولم

(١) "بينها"، سُميت بهذا الاسم لأنها تقع فى منتصف المسافة بين ثقب الماء الذى يسمونه بير هارى والبواح.

يمكن إخفاؤهما عن طريق الحساء المجفف. واقع الأمر، أن الماء اعتباراً من هذه المرحلة فصاعداً، أصبح على هذه الوتيرة، الأمر الذى منعنى من شربه اللهم إلا إذا اشتدت حاجتى إليه وأنا راكب دابتى، أو عندما كنت أتناوله بين الحين والآخر، كما لو كان شراباً من الكاكاو، عندما كنا نتوقف طلباً لقسط من الراحة أو تمضية الليل، يزداد على ذلك أن هذا الماء كان له تأثير المطهر العنيف إذا ما شربه أحد من البشر. وأثناء المسيرات التى امتدت بنا إلى اتجاه الشرق- وهذا موطن من المواطن التى يحتلها بين الحين والآخر الرشيدة المرافقون لى- قيل أن الماء بلغ من الملوغة حداً، يحول دون شرب البشر له، بل إن إبل هؤلاء البشر كانت تعزف عن شرب ذلك الماء فى بعض الأماكن.

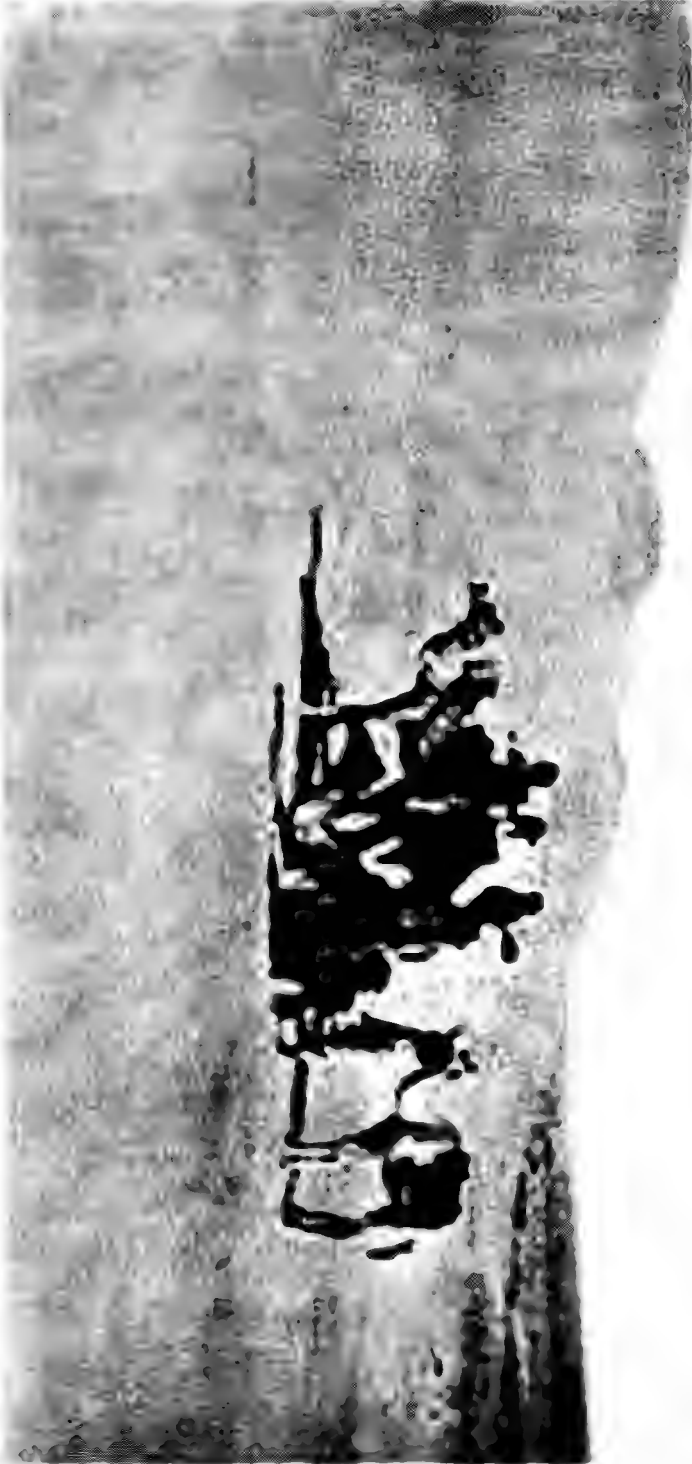
كان حليب الإبل غذائى الرئيس، لكن الكمية المتيسرة منه لم تكن تكفينى، والسبب فى ذلك أن الناقتين الحلوبتين اللتين حصلتا عليهما بصعوبة بالغة كانتا توشكان على جفاف حليبهما، مما اضطرنا فى بعض الأحيان إلى خلط حليبهما بالماء كيما يكفى. يضاف إلى ذلك، أن اللياقة التى تمتعت بها طوال الرحلة يرجع الفضل فيها إلى هاتين الناقتين، وذلك على الرغم من الحماية الغذائية التى أفقدتني الكثير من وزنى.

ثقب ماء "بينها"، الذى ارتوينا منه، هو من اكتشاف مرافقى؛ حمد بن هادى، وهو أيضاً الذى حضر هذا الثقب.

كنت قد بدأت بالفعل أقيّم عالياً قيمة حمد بن هادى بوصفه مرشداً لى، والسبب فى ذلك أن مسألة الإرشاد فى الصحراء لا تتطلب فقط ذاكرة الاتجاه؛ وإنما تحتاج أيضاً إلى غريزة فطرية للتعرف على الماء والمراعى، فضلاً عن القدرة على قراءة الرمال وتحاشى الشر الذى يحيق بثقوب المياه من ناحية والمراعى من ناحية أخرى. ليس كل من وُلدوا فى هذه الرمال قادرين على عملية الإرشاد، واقع الأمر أن الكثيرين منهم يضلون طريقهم ويموتون عطشاً فى هذه الرمال، وبخاصة عندما تضل الإبل فى فصل الصيف، ويضطر أصحابها إلى جعل هذه الإبل مرشداً وهادياً لهم. والمرء عندما يعود مقتفياً أثره هو نفسه أو متبِعاً أثر الآخرين يكون مثل ذلك الإنسان الذى يضل أقرب الطرق المؤدية إلى الماء، لكن الريح عندما تهب تمحو الآثار كلها، والريح تشكل دوماً خطراً داهماً ومستمرّاً

فى هذه الأماكن. منذ قرابة سبع سنوات جرى غزو جماعة من جماعات قبيلة المهرة كانت تقيم فى السهوب الصحراوية، على يد عضوين من قبيلة المناهيل، قرأً هاربين فى الوقت الذى كانت فيه آثار الغازيين المنسحبين باقية على الرمال، قام سبعة من فتوات قبيلة المهارين بملاحقة الغازيين ومطاردتهما، واستطاعوا عن طريق قص الأثر الوصول إلى رمال الضاحية التى لم تكن معروفة لهم من قبل. وأطبق المطاردون الشجعان، على المُطَارِدِينَ اللذين اضطروا إلى التوقف عند ثقب الماء، لأنهما كانا بحاجة إلى السُّقْيَا. لكن المناهيليين، ومن باب تحاشى المطاردة كانا قد تحاشياً ثقب الماء الموجود فى خور الضاحية، وشردا فى اتجاه الشمال خلال الرمال القاتلة، وقام واحد منهما فقط بالانفصال عن الآخر وذهب إلى ثقب الماء كيما يملأ قربته ثم يعود من الطريق نفسه إلى الانضمام إلى رفيقه. وواصل الجميع من هذا المكان- وسار المهارين على هَدًى من قص أثر أقدام الإبل المناهيلية، وهم على يقين من أنهم سيروون ظمأهم خلال فترة وجيزة، لكن المهارين قبل أن يلحقوا بالغازيين هبت عليهم عاصفة رملية محت من أمامهم ومن خلفهم كل آثار الإبل. وتاه المهارين فى الرمال. وبعد ذلك بسبعة أشهر عثر واحد من جماعة الرشيدة المرافقة لى، على الهياكل العظمية السبع هى وعظام الإبل.

كنت شديد الإعجاب بدقة توجيه حمد وإرشاده لنا - كنت أقوم مرة أو مرتين على مدار الساعة بمقارنة قراءة بوصلتى المنشورية بما يفعله الرجل، وأجد أن الفارق لا يتجاوز خمس درجات بأى حال من الأحوال. كان ظل الشمس الموجودة وراء ظهورنا لا يعطينا سوى اتجاه عام، وسرعان ما عرفت أن حمد بن هادى كان يهتدى بممرات الرمال، التى كانت تُقدر هنا بخمس وأربعين درجة وخمسين دقيقة. ومع ذلك، وفى الرمال التى مشينا خلالها بعد ذلك والتى لم تكن لها ملامح أو خصائص واضحة، لم يكن مساره دقيقاً تماماً، وقد اضطررتنى ذلك إلى البحث عن تفسير آخر. وربما تكون التموجات الخفيفة فى سطح الرمال، والتى من المفترض أن تكون ثابتة إلى حد ما بفضل الرياح السائدة هنا، قد حلت جزءاً من هذا الغموض، لكن السواد الأعظم مما أُحِسُّهُ وأستشعره يرجع إلى أن حمد بن هادى لديه إحساس فطرى بالاتجاه، وإن هذا الإحساس يظهر بشكل واضح



(صورة طبق الأصل لرمال صواحيب)

فى أشخاص محددين، وإن حمد بن هادى واحد من هؤلاء الأشخاص. حمد لم تطرق قدماء هذا الجزء من البلاد منذ سنوات كثيرة، وإنه بحكم طبيعة حياة الترحال البدوى نفسها، يمكن ألا يكون قد مر على كثير من الأماكن منذ زمن طويل، وحمد بن هادى، على العكس من رفاقه كلهم، كانت لديه أسماء^(١) الأبراج السماوية والنجوم الأكبر من هذه الأبراج؛ يضاف إلى ذلك أن متاهة الرمال تصبح فى الليل بلا أسرار غامضة عند هذا الشيسوس Theseus.

(١) جاءت مقارنة الأسماء التى يطلقها حمد بن هادى على النجوم بالأسماء التى نطلقها نحن عليها على النحو التالى:

الطير = نصير الطير؛ الرجل Rigel = الرجل Rigel (الجيم السورية)؛ Scorpion = العقرب؛ وهذا دليل على أن كثيراً من الأسماء التى نطلقها نحن على النجوم استقيناها من البابليين الذين أخذوها عن العرب. وأنا أسجل هنا فى هذا الهامش أسماء النجوم التى أعطانى إياها أحد سكان الربع الخالى والذى لم يخرج مطلقاً من هذه الرمال أو يغادرها:

الاسم الإنجليزي	الاسم بعربية الربع الخالى
Altair	نصير الطير
Vega	نصير أم وُجا
polaris	الجدى
Great Bear	السبع
onestar called	بنات ناش
Capella	الإمبارى
Regal	رجل (بالجيم السورية)
Betelgeuse	يد سعد
Bellatrix	يد الكيشه (بلغة الرشادية)
	يد التيب (بلغة قبيلة المرة)
sirius	مرزام
canopus	سهائل الصدوق =
pleiades	الثريا
Aldeb aran	كلب الفنيم
Orion	سعد
Orion's Belt	جنبيه
Three Small stars	أوسا
Achemar	سهائل الكاذب
Scorpio	الجرباب
ذيله	شولا
Venus	الزهرة

كانت Venus هى الكوكب الوحيد المُسمّى. لم يكن لديهم اسم لـ Jupiter أو Mars.

وعندما وصلنا إلى خط عرض ٢٠° درجة، لاحظ رفاقى باهتمام بالغ دخولنا إلى منطقة الحوض، تلك الشجيرة الصغيرة؛ لها لون بنات القويسة، الذى يقال له المريمية فى بعض الأحيان؛ وشجرة الحوض مالحة المذاق، وعمرها يطول فى ظل عدم سقوط المطر، أو حتى الندى، عن عمر أى شجيرة من الشجيرات الصحراوية الأخرى- ومن هنا تعد شجيرات الحوض، فى أزمان الجفاف والقحط الشديد العائل الوحيد الداعم للحياة فى المناطق التى يوجد فيها هذا النبات، اللهم باستثناء اضطرار هذه القبائل إلى الدخول إلى مناطق السهوب الحدودية؛ وفى مثل هذه الظروف تجد الرشيدة يتجهون إلى أم الحياة فى اتجاه الجنوب الشرقى، كما يتراجعون أيضاً إلى واحة موجشين، ونجد قبائل المرة تعود هى الأخرى إلى منطقة ثقب المياه الشمالية فى جابرين وخط الحدود الذى يمتد من الجافورة إلى جيبان.

دخلنا إلى بُوَاح Buwah ، أول منطقة من مناطق الحوض، وكانت عامرة بهذا العشب، وهنا صدرت إشارة بالتوقف طلباً لرعى الإبل. وعندما ملأت الإبل بطونها، أدى ذلك إلى التذكير فى استئناف مسيرنا، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال ثم الانحراف شرقاً بهمة ونشاط دباً فىنا بفضل تلك النسمة العليلة التى كانت تداعب وجوهنا. كانت الأغوار التى بين كئبان صواحب الرملية قد اكتست اللون الأحمر، فى حين كانت الموجات الرملية متدرجة تدرجاً هيناً، وكانت رمالها ناعمة على نحو كانت تشكل معه عقبة أمام تسلقها أو السير عليها، الأمر الذى اضطر أفراد الجماعة، بين الحين والآخر، إلى استعمال أيديهم فى إخلاء الطريق من الرمل حتى تتمكن الإبل من السير. سرنا بعد ذلك خلال أرض جرداء جوعانة، ليس فيها سوى أغصان صغيرة من عشب الجاسس gasis ، الذى ينمو منحنيًا شأنه فى ذلك شأن الأشجار الموازية للمحور الحدودى، وهذا شاهد على أن الرياح الشمالية الشرقية هى السائدة فى هذا المكان. وتجاوزنا فى فترة العصر ثلاثة من ثقب الماء؛ هى: باحة سلامة، باحة حجران، ثم باحة جمال. كان الماء موجوداً فى كل مكان على الجانب الأيمن، وعلى بعد مسافة ذراع واحدة، لكنه كان يبلغ من الملوغة حدًا يجعله غير صالح لشرب الإنسان أو الحيوان،

ولذلك كانوا يطلقون على هذه المنطقة الاسم خيران، طبقاً لما هو شائع بين أهل هذه الرمال.

وفى باحة جمال، قام هؤلاء البدو، الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة إعادة ملء قرايبهم بالماء فى دكاكا، بإعادة ملء هذه القراب بالماء مرة ثانية من الباحة سالفة الذكر. وفى باحة جمال أيضاً قمنا بسُقيا الإبل، نظراً لأن ماء هذا الثقب يعد ماءً حلواً، فى الوقت الذى كان الماء موجوداً أمامنا مالح المذاق، الأمر الذى يزيد من حدة العطش ويتسبب فى اضطراب الصحة. يضاف إلى ذلك أن المراعى المالحة فى هذه الرمال كانت هى الأخرى غير جاذبة للإبل.

انتقلنا فى اليوم التالى من منطقة بواح إلى منطقة أم مالىسه. وهنا بدأنا نتحقق من أن الرمال الوسيطة ازدادت وعورة على وعورتها، وهنا أيضاً وجدنا أن السلاسل الجبلية الرملية الجميلة الطويلة أصبحت غير واضحة المعالم، بل إنها انقسمت إلى سلاسل صغيرة منفصلة، يقال أنها تواصل امتدادها فى اتجاه الشمال لمدة مسير يوم واحد، فى الجانب الأيمن، على شكل حرف S مقلوب، خلال مناطق الحض فى كل من كرسوع ووساع إلى أن تصل إلى الكتبان الرملية فى سعافوك شمالى الخط الموازى الحادى والعشرين.

كانت الحرارة على أشدها حتى ونحن فى هذا الشهر، يناير، وهو شهر من شهور الشتاء، وهنا أحسست ولأول مرة، بالإرهاق الشديد خلال هذه الرحلة، وربما كان ذلك الإرهاق ناجماً من ناحية عن تأثير الشمس التى ألهمت حرارتها ظهري على امتداد تسع ساعات طوال أمضيتها كلها وأنا راكبٌ دابتي (ناقتى)، وناجماً أيضاً من ناحية ثانية عن العطش الشديد الذى اعترانى بعد أن شربت ماء بواح الذى له لون البيرة.

يزاد على ذلك، أن مسألة تدوينى للملاحظات تأخرت لمدة أسبوع- وسبب ذلك، إنى لم يكن لدى الوقت أو الفرصة التى يمكن أن أستغلها فى ذلك، وإذا كان ما تبقى معنا من تعيينات ينذر بالنفاد، فإن ذلك بدوره حثَّم على التوقف أثناء النهار، لكن الظروف المحيطة بنا حثمت علينا المضى قُدماً فى ترحالنا، وفوق كل ذلك، فإن مسألة حرص البدو على إبلهم، هو الذى جعلهم يحسون بعدم الارتياح

أو الرضا فى هذه المناطق الجرداء التى ضربها الجفاف، الأمر الذى جعلهم متشوقين إلى مواصلة السير بأقصى سرعة ممكنة فى اتجاه بعض المراعى التى كانوا يتوقعون الوصول إليها فى جنوبى منطقة المرازيق.

كان اتجاهنا صوب الشمال سبباً من أسباب تناقص تهديد الغزاة لنا إلى أن خَلَّفناه وراءنا فى نهاية المطاف. صحيح أن السَّعَّارين فى الأزمان الماضية كانوا يقومون بالغزو فى هذا الجزء من الجانب الشمالى، ولكن فى أيامنا هذه، نجد أن القسم الرئيس من قبيلة الرشايذة يقع إلى الخلف منا فى اتجاه الجنوب، وهذا يعنى أن الجماعة القائمة بالغزو لابد وأن تصطدم بهؤلاء الرشايذة، أو أنهم، تحت أى ظرف من الظروف لن يبلغوا من الحماقة حدًّا يجعلهم يندفعون إلى هذا الحد ويعرِّضون أنفسهم لخطر عزلهم ومحاصرتهم.

السَّعَّار اسم يُدْخَلُ الرعب فى نفوس الرشايذة هم والقسم الجنوبى من قبيلة المُرَّة، الذين يدرّبون أبناءهم على الانتقام أو الثأر للأبناء والآباء من ناحية، واستعادة الثروات الضائعة من ناحية أخرى. ويتمثل السبب الرئيس الذى يقف وراء الصراعات القبليّة فى المسألة الاقتصادية. الرجال يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ من أجل الإبل. والسلام، أو الهدنة، أمر متناوب مع فترات الحرب التى قد تستمر عاماً أو عامين. وفى زمن الحرب، من العار على الشاب أن يُبدى رغبته فى عدم حب الحرب أو المشاركة فيها. "شرب الخمر"، هو مرادف للشجاعة التى تعترى الشاب الذى ينبرى للقتل أو أن يُقْتَلَ وهو سعيد بما يفعل، لكن مسألة البقاء فى المنزل الذى يحمى حياته أو يجعله ينتحل الأعذار عندما يتعلق الأمر بالمصالح العامة للجماعة، يعد أمراً مقيتاً ومكروهاً ولا يحظى بالاحترام أو التقدير من جانب أى فرد من أفراد القبيلة؛ والأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ يصل إلى أن أفراد القبيلة يرفضون تزويج بناتهم لكل من يقع فى هذا المأزق، أو يتسم بهذا الوصف.

روى لى الشاب كلثوث، ولد الشيخ صالح، قصته "الدامية" مع السَّعَّارين، والتى أوردها هنا لا لأنها صورة حقيقية لما يجرى بين الأعداء عندما يلتقون وجهاً لوجه فى الريح الخالى، وإنما أوردها هنا لإلقاء الضوء على النفساوية الصحراوية.

دارت حرب لمدة عام أو أكثر بين الرشايدة والسَّعارين، وقرر الرشايدة الدخول فى محادثات تمهيدية بغية استعادة الأمن والسلام. كان كلثوث، ولد الشيخ صالح، واحداً من الأشخاص الأربعة الذين أرسلوا على شكل مبعوثين لمحاولة عقد هدنة لمدة عام. بدأ الأشخاص الأربعة رحلتهم ثم وصلوا إلى منطقة السُّهوب، وكانوا يتطلعون إلى وصول مرافق لهم من السَّعارين، حتى يؤمّن لهم مرورهم خلال أراضي السعارين.

تواصل الحكاية على لسان كلثوث نفسه، لأن وجهه كان يتهلل فرحاً، وهو جالس أمام نيران المخيم، وكله نشاط وحيوية، ذلك أن البدوى عندما يتكلم يستعمل عينيه ويديه.

"كان الوقت بعد قرابة ساعة من صلاة العصر ونزلنا عن دوابنا عند حافة الوادى وزحفنا وصولاً إلى حافة الوادى، ورحنا نطيل النظر إلى الوادى فى الأسفل، ورأينا خمسة من البدو جالسين حول نار المخيم، وكانت إبلهم ترعى على مقربة منهم، وتعرفناهم من سُرُج إبلهم ثنائية القضبان، وهى السُّرج التى يستعملها السَّعارين. وهنا تملَّك الجشع قلوبنا، وعلى الرغم من مجيئنا طلباً للسلام، فإننا لم نفعل ذلك، ولا نزال فى حالة حرب مع السَّعارين، يضاف إلى ذلك إن الله أوقع هؤلاء السعارين فى أيدينا، وكان الليل قد أوشك على الدخول علينا، وسوف يحتم ذلك عليهم ترك إبلهم ترعى وأنهم سيخلدون إلى النوم بعد ذلك. وعندها نستطيع التسل ونقوم بقتل هؤلاء الخمسة، والفرار بعد ذلك ومعنا غنيمة الإبل. لكن فى هذه اللحظة انقسم مستشارونا فى آرائهم. كان من رأى أننا لدينا ميزة كبيرة، وهى أننا رأيناهم فى البداية دون أن يعرفوا هم شيئاً عن وجودنا. يضاف إلى ذلك، أن العضوين الكبيرين بيننا، وهما عمى سيف، شيخ السعانة، ورفيقه، لم يوافقا على مسألة القتل والغزو، وقالوا لنا إن هؤلاء الخمسة ربما يكونون من ضمن جماعة أكبر تتمركز على مقربة منهم، وأن وجود هؤلاء الخمسة فى هذا الموقع المتقدم يدل على أنهم على وشك الدخول فى الحرب، وأن الهدف من ذلك هو تغيير حالتهم النفسية؛ حتى لا يدخلوا فى مفاوضات تمهيدية طلباً للسلام؛ وقالوا إن مهمَّتنا يجب أن تنتهى عند هذا الحد، وأننا يجب أن نفر

عائدين. وفى موجة من الفخر والتباهى قال كل من مُسلم، وهو من بيت إيمانى، وأنا، إننا لن نعود إلا ومعنا إبل أعدائنا. وهنا حاول كبارنا، عن طريق الكلام الحكيم إقناعنا بالعودة معهم، ولكننا لم نُلقِ بالاً لكلامهم وعليه خَلَفونا وراءهم.

وقمت أنا ومُسلم بتقييد جملينا على بعد مسافة آمنة وتسللنا إلى بداية المضيق كيما نقوم بمراقبة تحركات العدو. وعلى الفور قام واحد منهم باقتياد الإبل بعد ذلك إلى رفاقه. شاهدناهم وهم يجهزون نارهم استعداداً لقضاء الليل. لكن مع تناقص عددها فقد أصبحنا اثنين فقط، فى مواجهة خمسة قررنا أننا لن نستطيع التغلب عليهم؛ وعوضاً عن ذلك، فضلنا التسلل خلسة فى جوف الليل، ونقوم بسرقة الإبل، ثم نرحل مستغلين فى ذلك ميزة إنهم عندما يستيقظون فى الصباح لن يستطيعوا اللحاق بنا، سيراً على الأقدام. وعليه أدينا صلاة العشاء، وعدنا إلى الأماكن التى نراقب منها عدونا ورحنا ننتظر فى هذه الأماكن؛ وعليه وعند منتصف الليل وبعد أن خبا ضوء نارهم، تحركنا خلسة- كان بوسعنا قتل الخمسة وهم نيام لو كان عددها أكثر من عددهم - ثم قمنا بفك قيود الإبل وسلكنا بعد ذلك منحدرًا هيناً وصولاً إلى إبلنا، وبدأنا رحلة عودتنا.

"استيقظ قبل الفجر واحد من السَّعَّارين واكتشف عدم وجود الإبل- أيقظ الرجل رفاقه الآخرين واقتفوا أثرنا فى ضوء القمر. وأسرعنا نحن بدورنا الخطى إلى عصر اليوم التالى، لكن لما كنا تعبانين، ولما كنا قد بدأنا قبل استيقاظ السَّعَّارين بوقت طويل، فقد كنت أنا ورفيقي بحاجة ماسة إلى الوقوف لنيل قسط من الراحة، وغلبنا النوم خلال هذه الراحة- واستيقظت فجأة. ووجدت أمامى، وعلى بعد قرابة مائة خطوة، عريباً أنا أصبحت فى مرمى طلقات بندقيته. نظرت حولى على وجه السرعة، ولما لم أرَ أحداً آخر، ظننت أنه وحيد؛ وعليه قفزت خلف صخرة صغيرة كيما أخرج بندقيتى من جرابها^(١)؛ لكنى قبل

(١) يحمل كل بدوى من بدو الربع الخالى، بندقيته فى جراب مصنوع من الجلد وذلك من باب منع الرمل من الدخول إلى أجزاء البندقية. والعربى يصنع هذا الجراب بنفسه، وغالباً ما يكون مصنوعاً من جلد وعمل من الوعول أو جلد حيوان آخر من الحيوانات التى يصطادها العرب. ويزين العربى طرف هذا الجراب بياقة من خيوط الجلد. لكن العربى العماني الثرى يزين جراب بندقيته بأحزمة من الفضة والذهب، وذلك من باب حبه الشديد لتلك البندقية.

أن أتمكن من ذلك فتح العربى على نار بندقيته. ولم تُصِبي الطلقة. وهنا تمكنت من إدخال طلقة فى بندقيتى، لكنى خطر على بالى أنه ربما يكون قد أطلق هذه الطلقة كإجراء دفاعى، وربما كان صديقاً، قد يكون من المهارين وحسينى واحداً من السعارين، وهنا صحت قائلاً: "نحن من الرشايذة" "لا تخف، نحن من الرشايذة".

وردَّ علىَّ قائلاً: "فى وجهى. أنا فلان الفلانى من السَّعارين، ونحن (ذكر البطن الذى ينتمى إليها) فى سلام مع الرشايذة. أنت أخذت إبلى، ونحن أقوى منك؛ يقف خلفى ثلاثون رجلاً".

"صحت قائلاً: "اضمن لى حياتى، وجملى، وبندقيتى".

رد علىَّ قائلاً: "فى وجهى".

"وعليه نهضت واقفاً. لكن بعد ذلك كله، اندفعت جماعته وراحت تهاجمنى، غير عارفة أو مُقرّة بما جرى بينى وبين هذا الرجل. واستلَّ واحد منهم خنجره وراح يهددنى به"، (وهنا وضع كلثوث إصبعه فى فمه وراح يحك الشامة الموجودة فى ساعده بحثاً عن أثر الجرح القديم)، وقام شخص آخر بطعن رفيقى، الذى تراجع إلى الخلف، ولم يُصَب سوى بإصابة طفيفة فى جبهته بين عينيه، على الرغم من أنه نزف دمّاً كثيراً. لكن الآن، وبفضل الله، جاء الرجل الأول الذى سبق أن أعطانا الحماية والملاذ وتدخل فى الأمر، وبذلك أنقذ حياتنا".

"إذن، فقد تغلب عليك خَصْمُكَ؟".

"نعم! أخذوا منا جملينا أيضاً على إبلهم، وأخذوا منا أيضاً ببندقيتينا وخنجرينا، على الرغم من الوعد بأنهم سيعطوننى خنجري، ومع ذلك فقد برّوا بوعدهم، لأننا عندما أبرمنا معهم سلفاً بعد ذلك، استعدت ببندقيتى، كما حصلت أيضاً على جمل بدلاً من الجمل الذى أخذه منى- لكنى لم أحصل على الخنجر؛ (وهنا مسار غير عادى تماماً، نظراً لأن القبائل التى بينها عداة تقليدى لا تسمح باستعادة ما أخذ، وذلك تنفيذاً للقاعدة التى يتبعونها "الماضى فات وانتهى").

يواصل كلثوث كلامه، "لكن هذه الجماعة من السَّعَارِين أنفسهم أطاح بها سوء الحظ. فقد واصلت هذه الجماعة سيرها فى اتجاه الشرق وصادفت واحداً من المهارين هو وزوجته وجملاً واحداً، وقتلوا الرجل وأخذوا الجمل، لكن هذه الجماعة عندما وصلت إلى بلاد المناهيل أطبقت عليها جماعة غازية من بيت كثير ومن المهارين؛ وكانت هذه الجماعة أكبر عدداً من جماعة السعارين، وقتل شيخ السعارين وفرت الجماعة هاربة، ووقعت غنيمتهم فى يدى ابن تنَّاف^(١).

(١) ابن تنَّاف هو اللقب الوراثى لشيخ قبيلة المناهيل. وحامل هذا اللقب حالياً واحد من أشهر قادة الغزو. جرى العرف أن يحصل قائد الغزو على جملين أو ثلاثة من أفضل الإبل التى يجرى الاستيلاء عليها، وبعد ذلك يجرى تقسيم الغنيمة بالتساوى كما هو وارد فى صمويل الأول، الإصحاح ٣٠، الآية: ٢٥.

الفصل الثامن عشر

عبور الرمال الوسطى

كانت صواحيب من خَلْفَنًا. اختفت عن أعيننا موجات الرمال حمراء اللون الشبيهة بالبطون المنتفخة، والتي لها سلسلة من القمم البيضاء التى تتلأأ فى ضوء الشمس، غابت عن أعيننا المراعى الخضراء التى رأيناها فى مسيراتنا الباكرة. وعند خط عرض ٢٠ درجة و٤٤ دقيقة، أعقب الحزام الوعر الضيق مساحة شاسعة من الرمال شاحبة اللون التى كانت تعطى إحساساً بمحيط هادئ عديم الحركة. تمثل غوثنا هنا وهناك فى تلك البقع من الأرض التى تغطيها أعشاب الحض الذأوية الذابلة، التى غطتها مؤخراً الرياح الجنوبية القوية بغشاء من الرمل الأبيض الناعم. وفيما عدا ذلك كان المشهد واحداً من مشاهد الجذب الكامل، الذى يغطى جزءاً كبيراً من الرمال الوسطى فى منطقة المزاريق، والمنجر، وتجعل منها مكاناً للجوع والخواء، وتجعل منها أيضاً مثنى يموت فيه كل من يتعين عليه السير على غير هدى فى هذه المنطقة، ومع ذلك، وقبل أربع سنوات قام واحد من أفراد قبيلة المرة المرافقين لى برعى الإبل فى هذه المنطقة. ولما كان الإفراط فى الكلام سمة أصيلة من سمات البدو، فقد أخبرنى أحدهم أن هذه الرمال كانت فى يوم من الأيام رمالاً مباركة، لكن الظروف كانت هى الأكثر توضيحاً وإضاءة لهذه المسألة؛ فقد أوضحت لى هذه الظروف الأسباب التى أدت إلى وجود هذه المراعى الفقيرة غير الثابتة، كما أوضحت لى أيضاً الأسباب التى حتمت الحرص على الماء بهذا الشكل، الأمر الذى جعلنى أقف على حقيقة مسألة الشك باعتبارها سمة أصيلة وأساسية فى الصحراء. من هنا يمكن لنا وبحق عزو

تلك التحركات والتقلبات العربية الباكرة الناجمة عن جوع البشر، إلى التقلبات المناخية، الغزو السامى البابلى، الغزو الكنعانى لسوريا وأيضاً غزو الهكسوس لمصر، إضافة إلى غزو العبرانيين لفلسطين.

لا تزال الحياة الحيوانية موجودة فى تلك البقاع الجرداء، وبالمصادفة البحتة عثرت فى هذه المناطق على عينتين شديدتى الغرابة ومهمتين إلى أبعد الحدود؛ كانت العينة الأولى عبارة عن ثعلب^(١) له لون الرمل، وحجمه أكبر قليلاً من حجم القط، لكنه كان كامل النمو، على حد قول العرب المرافقين لى، وأن الشاهد على ذلك النمو هو اكتمال أسنان هذا الثعلب؛ ثبت أن هذا الثعلب نوع جديد. وربما كان هذا النوع من الثعالب نوعاً من أنواع الفنك(*) المصرى.

تمثلت العينة الثانية فى بيض النسر الذى اكتشفناه فى عش هائل الحجم، شبيه بعش الروك(**) الإنجليزى، لكن هذا العش أكبر بكثير من عش طائر الروك الإنجليزى، ويبنى هذا الطائر عشه فوق جزء منعزل من أعشاب الأباله - وأنا لم أر هذا الطائر، لكن بيضه شبيه جداً ببيض النسر الحبشى. رفاقى ينظرون إلى هذا البيض على أنه لا يؤكل من الناحية الشرعية، فى حين أنهم يعدون بيض الحبارى نوعاً من الترف. صادفنا الكثير من طيور الحبارى التى لا يزيد حجم الواحد منها على حجم الفرخ الرومى الصغير؛ وهذا الطائر شائع فى سائر أنحاء الجنوب وبخاصة فى الرمال الوسطى، وكانت تلك الطيور مسالمة وبريئة إذا ما اقترب منها جمل بلا راكب فوقه، ويصل الأمر بهذه الطيور إلى حد أنها تهوّم فى الهواء من حول مثل هذا الجمل، لكن هذه الطيور لا تثق بالإنسان الذى يعد عندها أمراً غير مألوف، ومن هنا فإن وقفاتنا طلباً لتناول وجبة من الوجبات، لم نكن نرى فيها سوى هذه الطيور وهى إلى الخلف منا، ولذلك خاب أملنا فى مسألة اكتشاف حقيقة مسألة آثار المخالب التى رأيناها على الرمال-

(١) الناس هنا يطلقون على الثعلب اسم "الهر" الذى هو اسم عربى قديم يطلقه العرب على "القط".

(*) ثعلب عربى شمال أفريقيا صغير الحجم، وهذا النوع من الثعالب شهير بأذنين كبيرتين وشديدتى التدبب. (المترجم).

(**) طائر من فصيلة الغراب صوته شبيه بصوت الحصان، يبني عشه على شكل مستعمرات. (المترجم).



ثعلب جديد (٩)



(من نوع الفنك)

الشبيهة بنمط الريش الأنيق الذى يميز أمير ويلز. كانت حياة الطير نادرة فى هذه الرمال، كان الغراب له ذيل شبيه بالمروحة، الأكثر شيوعاً فى هذه الرمال، ويجيء فى المرحلة الثانية ذلك الطائر الذى ذيله هزّاز . كان السواد الأعظم من الطيور التى التقيناها فرادى أو ثنائيات فى أفضل الأحوال. رأيت ذات مرة أربعة من طيور الحبارى وهى تطير على شكل جماعة، لكن هذا كان أمراً غير عادى.

كان القسم الأكبر من مجموعة^(١) التاريخ الطبيعى مكوناً من حشرات صغيرة، خنافس، عناكب، عدد قليل من الحشرات المجنّحة، الفراشات، والذباب كبير الحجم؛ ضمت هذه المجموعة أيضاً نوعاً جديداً من السرّعوفة (فَرَس النّبي) فضلاً عن نوع جديد من الجراد.

كان الثعلب والأرنب البرى الملونين بلون الرمال، أكثر الفقاريات شيوعاً، وبخاصة فى الرمال الجنوبية، وكان ضمن المجموعة أيضاً فأر من فئران الرمال، وقط برى، وأيضاً ذئب، وذلك على الرغم من أن الاثنين الأخيرين خدعانى وضللانى. ويقال أن الذئب يجب أن يكون صغيراً وملوناً بلون الرمال، وأنه يعيش بصفة أساسية فى الصواحب، التى يمكن له أن يحفر فيها ثقباً مؤدياً إلى المياه الضحلة.

كان من بين الزواحف اثنا عشر نوعاً من السحالى، كلها شبيهة ببعضها البعض، ولكل منها خرطوم تستعمله فى الغوص فى الرمال. وكان الأشهر بين هذه السحالى، ذلك النوع قصير الأطراف، وله أيضاً جسم مربع لونه شبيه بلون الرمال، وهناك علامات سوداء على جانبى هذا النوع من السحالى. وجسم هذا النوع من السحالى ناعم وبراق مثل جسم الثعبان، ولكن هذا لم يمنع أحد الأعراب المرافقين لى من القيام بعمل طفولى، انطوى على وضع ذيل السحلية وجزء من جسمها فى فمه. كانت كبرى تلك السحالى قوية ورذيلة إلى الحد الذى يحتم التعامل معها كما لو كانت ثعباناً، أى بالإمساك بها من أسفل رأسها. هذا

(١) وصل عدد العينات التى جرى جمعها من الرمال إلى قرابة مائة وخمسة وعشرين نوعاً. وقد أوردت الملاحظات التى أبدتها أعضاء المتحف البريطانى (للتاريخ الطبيعى) فى الملحق المرقوم ٢.

النوع الكبير من السحالي، وعلى العكس من كل سحالي السهوب، لا يأكله البدو. وعندما فتحنا بطن واحدة من هذه السحالي، وجدنا داخلها سحلية كاملة من السحالي صغيرة الحجم. عقارب الرمال صغيرة الحجم لونها أخضر شاحب، وذلك على العكس من الأنواع الكبيرة التى تجمع بين اللونين الأسود والأبيض والتى تعيش فى كل الجبال والسهوب. لم نعث سوى على ثلاثة أنواع مختلفة من الثعابين، وكلها ملونة بلون الرمال، وهى الثعبان الذى يسمونه boa ، والثعبان المقرن، بالإضافة إلى ثعبان آخر يدعى Colubrid.

أدى حافظ الوعد بالمكافآت إلى جعل العرب المرافقين لى يعملون بحماسة لمصلحة المتحف الطبيعى البريطانى. يزداد على ذلك أن تخفيض عدد هؤلاء المرافقين فى الرحلة التى قمنا بها فى اتجاه الشمال، أدى إلى تمكينى من تعرف هؤلاء المرافقين فى الرحلة التى قمنا بها الواحد بعد الآخر، على نحو كان يستحيل الوصول إليه مع الجماعات التى سبق أن رافقتنى فى هذا الترحال، والسبب فى ذلك هو كبر أعداد هذه الجماعات. والبدوى - إذا لم يكن متعصباً دينياً، وهو فى مثل هذا الحال يكون كتوماً ومتجهماً - يمكن أن يكون رفيقاً مبهجاً إلى أبعد الحدود، وذلك إذا حفّزنا فيه عاطفة الركوب وعاطفة البندقية، وامتدحنا له فضائل الإبل، وكنا بشوشين معه. والبدوى عندما يغترب ويبتعد عن موطنه، يتحول خلال أسبوع أو نحو ذلك، إلى أخ بشوش، وعندما يصبح بحاجة إلى شئ بعينه، تراه يصبح متزلفاً ومتودداً. يزداد على ذلك، أن حوارات هذا البدوى، تزخر بكثير من الأوجاع التى أنزلها الله تعالى به - ومن هذه الأوجاع ألم المعدة على وجه التحديد. "ياللعجب".

"الحمى! لا وجود لها فى الرمال، وهذا من فضل الله"، يضاف إلى ذلك أن مرافقى كانوا متشككين فى مسألة العدوى عن طريق وَخَز البعوض الذى كان يتسبب فى حالات قليلة من الحمى، وهنا خطر على بالى التعبيرات غير الصادقة التى من قبيل "لا إله إلا الله"، ذلك التعبير التعجيبى المعتاد الذى ينطلق من فم البدوى عندما يواجه أو يصادف موقفاً من المواقف التى تدعو إلى الدهشة. ووافقنى الشيخ صالح على أن البعوض مؤرق كبير فى ظفار، إلى حد أن زيارة

هذا الرجل لظفار كانت نعمة ونقمة في آنٍ واحد، وفي الوقت الذي كان الشيخ صالح معتاداً فيه على تلك الأعداد التي لا تحصى ولا تعد وتحيط ببعض ثقبوب المياه في الرمال، فقد أمضى الرجل هو وجمله في ظفار ليالي مؤرقة جعلته يفرح عندما أوشك على الرحيل عن ظفار. زد على ذلك، أن البراغيث والقمل يوجد بأعداد كبيرة في منطقة الرمال، وكان كل اثنين من البدو المرافقين له، عندما يجدان نفسيهما غير مشغولين خلال وقفة من الوقفات، فإنهما كانا يتبادلان مطاردة البراغيث، بأن يستلقى أحدهما على وجهه على الرمل، في حين يجلس رفيقه منحني الرأس ويروح يكشط البراغيث من طيات ملابس وخصلات شعر رفيقه مستعملاً في ذلك حد خنجره.

"كان أحدهم يقول لي وهو ينظر إلى وجهي: "عجيب ألا ترى برغوثاً أو قملة في متاعك؟"، ثم يقول بعد ذلك في شيء من التباهي والتفاخر: "هذه الحقائق أو الجوالات المصنوعة من القش والتي نصنع منها سُرُجاً لظهور الإبل لا تجذب هذه الحشرات، في حين نجد أن السُرُج مزدوجة العمودين التي تستعملها قبائل المُرَّة، تعد ملاذاً مفضلاً لهذه الحشرات".

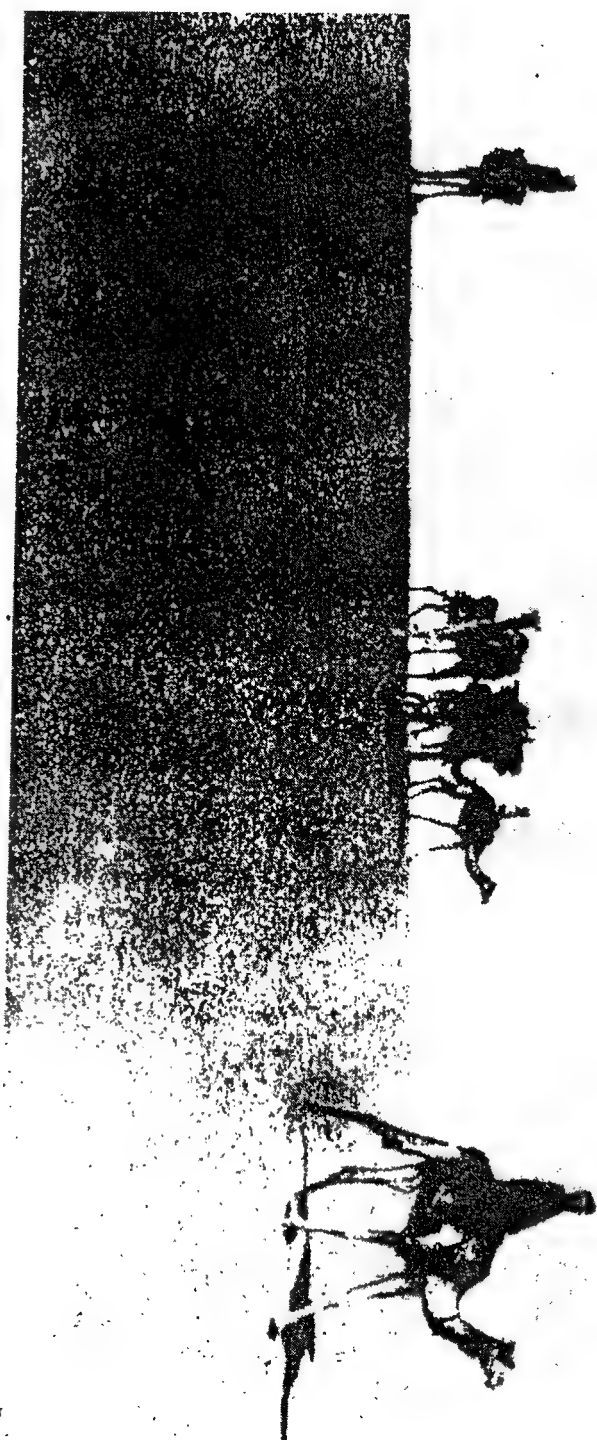
كنت جاهزاً ومستعداً لتحويل الحديث إلى موضوع آخر، ووجدت نفسي جاهزاً ومستعداً لتغيير موضوع الحديث إلى ما هو أفضل من هذا الموضوع، واكتشفت أنه على استعداد للتحدث والإصغاء إلى سيرة بنى هلال.

"هل تود أن تسمع ذلك الذي آل إليه مصير الشاب عزيز، ولد خاله"؟.

"نعم، أود الاستماع إلى ذلك".

وعندها قال إنه سيحكى لي قصة التضحية التي فرضها عزيز بن خاله بغية تحقيق ما يوده والده.

"كان أبو زيد يحب فتاة تدعى عاليه، وهي من قبيلة مجاورة لقبيلة بنى هلال. وذات يوم قام أبو زيد بزيارة لهذه الفتاة، واصطحب معه عزيز، الذي لم يكن قد رأى هذه الفتاة. وراح أبو زيد يصف مظاهر جمال هذه الصبية وهما سائران في طريقهما إليها. قال أبو زيد: "لكنك يجب أن تعرفها يا عزيز من خلال كلامي



صورة حقيقية لروالي سنام

عنها. وهى عندما تجلس مع نساء أخريات تكون هى الأطول من بينهن؛ لكنها عندما تقف تكون أقصر منهن. ويصل الأب والابن إلى بئر كانت النساء يجلبن منها الماء، وكانت عاليه وسط أو من بين هذه النساء؛ ورآهن عزيز أول مرة، وهن جالسات على بئر الماء ثم وقفن بعد ذلك وانصرفن لحال سبيلهن، الأمر الذى مكَّنه من معرفة عاليه. لكن المؤسف، أن عاليه كانت لشخص آخر من أقارب أمها، وأن تلك الليلة كانت هى ليلة الدُّخلة، أى الليلة التى سينضم إليها فيها زوجها الجديد. لكن عاليه كانت تشعر بالتعاسة لأنها كانت تحب أبا زيد.

"وهنا قام عزيز نفسه بارتداء ثوب زفاف عاليه، ولبس مجوهراتها فى عنقه وعلى ذراعيه، ثم دخل إلى فراش العرس، فى حين ذهبت عاليه إلى البرية إلى المكان الذى يوجد فيه أبوزيد، وأمضت الليلة فى حضن حبيبها".

"جاء الزوج الجديد أثناء الليل إلى مخدع عاليه، لكنه كان كلما اقترب من عروسه المُتَخَيِّلَة، كان عزيز لا يوليه أى قدر من الاهتمام، ولم يرد ولو بكلمة واحدة على توسُّلاته وتودداته، بل إنه كان يصده للابتعاد عنه. وفى صبيحة اليوم التالى أخذ العريس عزيز إلى العالم وشرح له ما دار أثناء الليل، وأردف قائلاً: "أنا لم أتأكد فى الليل إنها هى عاليه، لأنى رجل قوى ولم يسبق مطلقاً أن واجهت أحداً يستطيع مقاومتى سوى عزيز بن خاله".

"رد عليه العالم قائلاً: "اذهب إليها هذه الليلة وخذ معك إبرة. وإذا لم تستقبلك استقبلاً حسناً، انزع شعرة من رأسها، ثم اغرس الإبرة فى عرق كاحل فخذها اليسرى. فإن كانت هى عاليه أو امرأة فإنها سوف تعيش، لكنها إن كانت رجلاً فسوف تموت وأنت سوف تعرفها من تلك الشعرة".

"وعليه، عاد العريس إلى عاليه فى تلك الليلة فى مخدعها، لكنه لقى المعاملة نفسها التى لقيها فى الليلة السابقة، وأثناء مصارعتها لها استطاع انتزاع شعرة من شعر رأس عزيز بن خاله، وهنا قام بغرس الإبرة فى وريد خصره، وابتعد عنه".

"استيقظ عزيز بن خاله قبل طلوع الفجر، وهو الموعد الذى حدده لنفسه، ثم ذهب إلى المكان الذى فيه والده فى البرية، وحكى لوالده ذلك الذى حدث بينه وبين العريس. وتملَّك الخوف عاليه، لكن أبا زيد انتزع شعرة من شعر رأسها

وغرس إبرة فى وريد خصرها حتى يمكن لزوجها أن يرى العلامات نفسها، وبالتالي ينتفى شكُّه فيها .

"وركب أبو زيد هو وعزيز جمليهما ورحلا، والإبرة لا تزال فى خصره، لأنه إذا أخرجها، فسوف ينزف حتى الموت".

يصل أبو زيد هو وعزيز ولد خاله إلى سهل من السهول، وهنا قال عزيز لوالده: "يا أبتاه، ما المكان الذى يصلح لك؟".

قال أبو زيد: "هو المكان الذى يناسب ويصلح لرعى الإبل".

"ويواصل الاثنان سيرهما إلى أن وصلا إلى مرعى آخر"، وهنا سأل عزيز والده، "لأى شئ يصلح هذا المكان؟" ويجب عليه أبو زيد قائلاً: "هذا المكان يصلح يا ولدى لتربية الخيول".

"ويواصلان مسيرهما إلى أن وصلا إلى مكان قفر قاحل"، وهنا سأل عزيز والده، "ما الذى يصلح له هذا المكان، يا والدى؟".

ويجيبه أبو زيد "هذا المكان لا يصلح إلا للقبور".

"قال عزيز": "هيا بنا ننزل عن مطيتينا هنا، وساعدنى على حفر قبر".

"وعليه قام كل من أبو زيد هو وعزيز بحفر القبر المطلوب، وهنا قام عزيز بنزع الإبرة من خصره ووافته المنية، ودفنه والده فى القبر".

واصل أبو زيد سيره إلى أن عاد إلى موطنه وخيامه، والتقى أخته، أم عزيز فى مكان بعيد وعلى انفراد؛ وهنا هرولت أخته وهى تتسائل، "أين عزيز؟ أين عزيز؟".

"أجابها أبو زيد: "كنا نغزو ووقع فى أيدينا عدد كبير من الإبل، وأنا استبقته لأجىء إليكم بهذا الخبز الطيب، وسيأتى عزيز ومعه الغنيمة".

"انقضت بضعة أيام، وازدادت الأم قلقاً على قلقها؛ ومع مضى المزيد من الأيام ولم يأت عزيز، راحت الأم تجوب الخيام وهى تبكى حزناً على مصير ولدها، ولم تشعر مطلقاً بالارتياح.

"كان أبو زيد حزيناً فى داخله، وراح يغمغم ويتمتم فيما بينه وبين نفسه":

"هل وصلتك أيتها السيدة العجوز، الأخبار السيئة؟

أنت تعرفين بيتنا

والذئب يعرف مكان تجمع القطعان

أثناء الليل".

"ثم يقول بعد ذلك بصوتٍ عالٍ:

"يا حزنى، لو قلت إنه مات، سوف تموت،

لو قلت إنه حى، فأنا كاذب".

"وهنا عرفت أم عزيز أن ولدها قد مات".

وما إن انتهت القصة، حتى جعل صوت المؤذن المستمعين يقفون على أقدامهم، وينصرفون للانضمام إلى صف المتعبدين الطويل من خلف حمد بن هادى الذى كان يؤمُّهم فى الصلاة.

بدأنا بداية مبكرة فى اليوم التاسع عشر من شهر يناير، ويممنا مسيرنا فى اتجاه الشمال الغربى. وأدى عدم وجود مناطق لرعى الإبل فى طريقنا، وعطش الإبل بسبب المرعى المالح إلى تسريع مسيرنا. وبعد أن غادرنا أم قرنين عن يميننا - وهى عبارة عن ثقب ماء هو بمثابة الحد الشمالى لمنطقة المنجر - وصلنا إلى منطقة الرمال فى سنام، التى هى على شكل تورم متدحرج لطيف أبيض اللون. هذا الإقليم - لأن الكلمة نفسها تعنى سنام الجمل - شهير بحلاوة ثقبوب مياهه عن الثقبوب الأخرى من ناحية وعمق هذه الثقبوب غير العادى^(١) من ناحية أخرى، إذ يصل متوسط هذا العمق إلى إحدى عشرة قامة، وهناك بعض الثقبوب فى الغرب، يصل متوسط عمقها إلى ما يتردد بين خمس عشرة وسبع عشرة قامة.

(١) تشكل البكارة البدائية جزءاً من عُدّة جلب الماء التى تستعملها قبائل المره: استعمال هذه البكارة ليس أمراً ضرورياً فى أى مكان فى الجنوب.

جـرى العـرف أن الثـقوب ذات الأعـماق الأقل من ذلك، وبـخاصة فى الرمال الجنوبية، كان يـجرى ردمها فى بعض الأحيان، بعد السقيا وذلك لعرقلة المطاردين المحتملين وتعطيلهم. لكن ثقب المياه هنا، يجرى سقفها لحمايتها، والسبب فى ذلك أن عملاً شاقاً، ومهارة كبيرة، وشجاعة كبيرة أيضاً بُذلت فى حفر هذه الأبيار. واقع الأمر أن ثقب المياه العميقة فى منطقة الطوال، قد تكلف الإنسان حياته والسبب فى ذلك أن الأجانب الطرية للثقب معرضة للانهايار وبالتالي تدفن القائمين بالحفر، وهنا تصبح الدعامة الوحيدة متمثلة فى تلك الأغصان المأخوذة من بعض شجيرات الرمال، والموضوعة على شكل ملفات على جوانب الحفرة. وعندما تجاوزنا صفيـف، استدار إلى واحد من قبيلة المره: "أربعة من إخوانى (أى من قبيلة المره) يرقدون فى هذه الحفرة" أو بالأحرى فى هذا القاع. نزل اثنان منهم لتنظيف الثقب وانهار عليهما الرمل، وحاول رفاقهما إنقاذهما، لكن الرمال جرفتـهما أيضاً. صفيـف قبر من القبور؛ وعليه تحاشيناها وهجرناها".

دخل علينا رمضان شهر الصوم. لم نرَ هلال القمر فى صبيحة اليوم العشرين من شهر يناير، وعليه أصبحت الآمال معلقة على فترة المساء. توقفنا فى الوقت المناسب، وراحت الأعين كلها تتطلع إلى الأفق الغربى عند غروب الشمس. يثير ظهور هلال رمضان شغفاً كبيراً وشديداً عند المؤمنين، وفى عُمان يكون دخول شهر رمضان وانتهاؤه مصحوباً بكثير مما هو أكبر من التحية الملكية. كانت خيبة الأمل فى ذلك المساء أمراً مقدوراً علينا. تحول لون السماء الزعفرانى إلى اللون الارتوازي الرمادى، ثم دخل علينا الظلام بعد ذلك، ومع ذلك لم يظهر هلال رمضان؛ هذا يعنى أن رفاقى لن يكبروا فى الصباح حمداً له على شهر الصوم.

يقع ثقب الماء التالى، والذي يسمونه ثقب ماء فراجـه، على بعد مسير قرابة تسع ساعات ونصف الساعة، واضطررنا إلى قطع هذه المسافة نظراً لأن قراب الماء كانت فارغة. كنا لا نزال راكبين مطايانا عندما بدأنا نرى من أمامنا أصوات طلقات البنادق عقب غروب الشمس مباشرة، وهنا ظهر جزء شاحب من هلال القمر فى السماء الشاحبة. وهنا راح رفاقى يُبركون إبلهم وهم يصيحون مكبرين "الله أكبر"، وسجدوا جميعهم شكراً لله تعالى، وقام واحد أو اثنان منهم بتوجيه مواسير بنادقهم إلى الأسفل فى اتجاه الرمال. كان مسارنا قد اتجه غرباً اتباعاً

لسار جماعة المقدمة التابعة لنا، وتواصل سيرنا إلى ما بعد دخول الظلام، إلى أن ظهر وميض نار مخيم بعيد، الذى اعتبرناه إشارة إلى المكان الذى سنقضى فيه الليل. كان رفاقى على سفر وبالتالي كان الشرع يبيح لهم عدم الصوم وتأجيله إلى أن يعودوا إلى ديارهم، لكنهم جميعاً لم يعملوا بأى من هاتين القاعدتين- صاموا^(١) كلهم وهم سائرون ومترحلون، وهذا هو ما فعله أفراد بيت الكثيرى عندما كانوا مرافقين لى فى موجشين فى رحلة العام الماضى. وهنا راح رفاقى يعملون المبدأ الشرعى لقصر الصلاة وجمعها بحكم أنهم كانوا سائرين، هذا يعنى أنهم قصرُوا الصلوات الخمس إلى ثلاث فقط، لكنهم عى الرغم من دخول رمضان كانوا يؤدون الصلوات الخمس كاملة. لم يتغير النظام الغذائى لهؤلاء البشر بفعل ذلك الحماس الدينى الزائد على الحد. كانت وجبة العشاء تعقب صلاة العشاء، أما الآن فإن هذه الوجبة تعقب أذان المغرب، وغالباً ما تكون هذه الوجبة محشورة بين صلاة المغرب والصلاة التى تليها.

يجوز لمن يستطلعون المراعى تأجيل صوم رمضان، لكن القاعدة الخاصة بمن يقوم بالغزو تختلف عن باقى القواعد. يجوز له تأجيل الصوم إلى ما بعد القيام بالغزو؛ ويتعين على الغازى عند الاقتراب وأثناء الهجوم أن يكون صائماً.

قبائل الرمال لديها أيضاً قاعدة عجيبة خاصة بالزواج. الاتصال الجنىسى فى رمضان مباح فقط إذا كان سيعقبه الاغتسال الكامل، هذا يعنى أن يكون المرء قريباً من الماء أو حاملاً له.

يتغاضى الناس، فى أوقات أخرى من العام، عن ذلك الشرط الدينى الخاص بالاغتسال. والناس عندما يكونون بعيدين عن الماء، يستعملون الرمل (فى التيمم) قبل الصلاة، لكنهم لا يفعلون شيئاً بعد الاتصال الجنىسى. وعليه؛ إذا لم تكن

(١) يقول الرشيدة إن السعارين لا يصلون ولا يصومون، وهذه سُبَّة فى حقهم. يضاف إلى ذلك أن السعارين يسخرون من الزائر الرشيدى الذى يصلى ويصوم (فى وقت السلم) وذلك على الرغم من أن هؤلاء السعارين يحلفون بالله ويؤمنون به - "هم يقولون، الله أعلم!! إن أسلافهم هم الذين أنقذوا النبى (ﷺ) من أيدي الكفار الذين كانوا مصرين على اغتياله، وأن النبى (ﷺ) هو الذى أعقى هذا السلف هو ومن ورثوه من الصلاة. هم يقولون ذلك! سامحهم الله!.

هناك قاعدة تحول دون الزواج فى رمضان، فإن الزواج الذى من هذا القبيل يكون جد نادر فى الرمال، إن لم يسمع الناس عنه مطلقاً.

أشهر الصحراء شهور قمرية، لكنها يطلق عليها أسماء لا تكون عادة متفقة مع التقويم الإسلامى^(١). وعلى سبيل المثال، فإن كلمة المحرم، لا يستعملها بدو الرمال مطلقاً، وهم يعرفون العام (السنة)، إن كان لهم أن يؤرخوا له، بأنه يبدأ بشهر الصوم أو شهر الحج.

هنا عند خط عرض ٢١ درجة وثلاثين دقيقة يتحتم أن تكون رمال السنم قد بدأت فى التضائل لأول مرة، إذ بدأت الأرض الصلبة فى الظهور على شكل بقع دائرية الشكل من بين الرمال.

عثر واحد من البدو المرافقين لى على بعض قطع من الزجاج المكسّر كئيب الشكل، على سطح واحدة من هذه البقع الدائرية، وقام بإحضار هذه القطع إلى. نظرت إلى هذه القطع ولم أتبين عليها أى أثر من آثار التصنيع، ولكنى تبينت فى هذه القطع بعض التموجات الطبيعية الواضحة تماماً، وهنا بدأت أشكك فى مسألة ما إذا كانت هذه المنطقة كانت مأهولة من قبل بالبشر^(٢)، وفضلت على ذلك النظرية التى تقول إن الدبس- عصير التمر- جرى إحضاره إلى هنا فى أوانٍ من الأحساء، فى شهور رمضان السابقة، وربما كان ذلك قبل أن تصبح صفيحة الكيوسين الوعاء الشائع استعماله فى الجزيرة العربية. ومن هنا كان لابد من استبعاد احتمال العثور على بقايا أثرية فى سنم، [توجد صفحات ساقطة: (الصفحتان الساقطتان هما ٢٤٦ و ٢٤٧ من النص الإنجليزى)]. تطرق الحديث بعد ذلك، إلى قبيلة المرّة، وذلك الوحش الذى قيل أن الناس كانوا

(١) شهور عرب الرمال هى: رمضان؛ عيد الفطر الأول، عيد الفطر الثانى؛ عرفة (شهر الحج)؛ عشور (أو شهر الزكاة)؛ صفر؛ طوم الأول؛ طوم الثانى؛ طوم الثالث؛ ميثال نيل (أحياناً يسمونه طوم العربة)، يسمونه طوام؛ رجب، قصير. يعد شهر القصير وميثال ليل من الشهور غير المواتية للغزو أو الترحال، وينطبق هذا الكلام أيضاً على شهر رمضان اللهم إلا إن كان التحرك قد بدأ بالفعل.

(٢) سلوه، إسكال، وكذلك ما باك، عبارة عن مواقع قديمة فى شبه الجزيرة القطرية، والناس يعزّون وجود هذه المواقع إلى الفوارس، أو الفرس. هذه المواقع موجودة فى أيدي الإخوان، وهذا هو السبب الذى منعى من استكشاف هذه المواقع.

يقدمون له كل عام كبشاً وواحدًا من البشر، يقوم بالتهامهما، وأن الناس عندما كانوا يفعلون ذلك، كانوا يتقون شر ذلك الوحش، الذى جاءت روايته على النحو التالى إلى أن أفلح أبو زيد فى القضاء عليه بعد الإخوان الثلاثة الذين سبقوه إلى هذه المهمة ولم يفلحوا فيها:

"أسندت مراقبة ذلك الوحش، أول مرة، إلى رجل قوى سبق أن قام باقتلاع كل أشجار الغاف الموجودة على جانبى الطريق ويذهب الرجل لأداء المهمة، وعندما اقترب من الجن، الذى كان على شكل أفعى ضخمة، صاح ذلك الجن قائلاً: "آهاها! أنت يا من تحضر إلى عشائى - أعطنى الكبش أولاً" ويهرب الرجل، بعد أن امتلأ خوفاً، وعاد إلى الإخوان الثلاثة، أبى زيد، يوسف، وبريقه، وهو يقول "من المؤكد أن الجن سوف يلتهمكم"، وراح الرجل يجرى هرباً ولم يره أحد بعد ذلك.

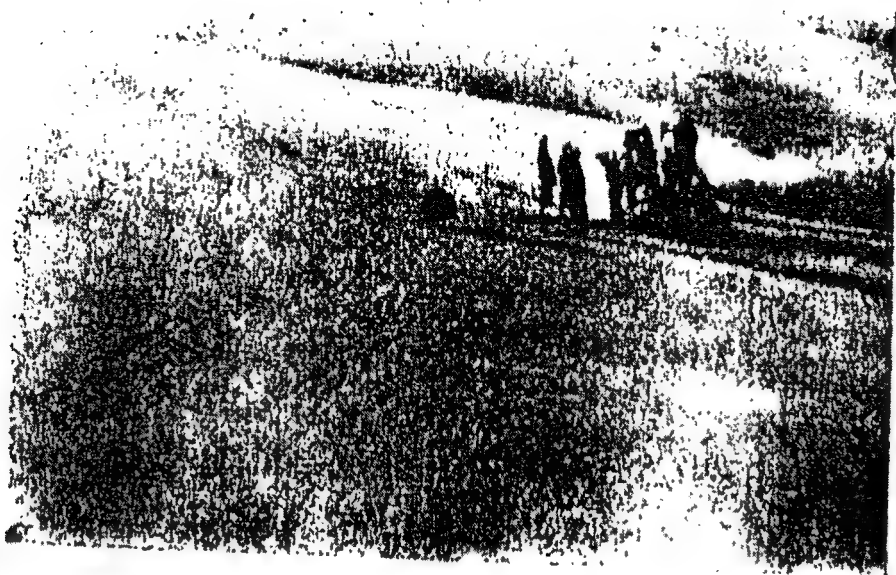
اقترب يوسف، المراقب الثانى، من الجن وهو يحمل سيفه، ولباساً ترسه ومعه عصاه. وعندما سمع الجن، شخصاً يقترب منه، فتح فمه الضخم، وهنا أحدث يوسف شكلاً من أشكال الصليبان مستخدماً فى ذلك سيفه وعصاه، ومرر ذلك الصليب من خلال مقبض الترس، أو الدرع إن شئت، ورشق ذلك الصليب فى فم الجن على نحو أدى إلى جعل السيف يقف على حده ويصل إلى سقف حنك الجن، وهنا استقرت العصا بين فككى الجن الأمر الذى أعجز الجن عن قفل فمه، أو فعل أى شئ. وبذلك يكون يوسف قد أنهى فترة مراقبته للجن على هذا النحو، إلى أن حان موعد المراقب التالى، وعندها سحب يوسف أسلحته ورحل إلى الجانب الذى فيه إخوانه.

"تقدم بريقه بعد يوسف، وكانت بشرة بريقه بيضاء تماماً على نحو حتم خلع ملابسه كلها حتى يصبح شفافاً. وبذلك عجز الجن عن رؤية بريقه، وأمضى وقته عبثاً فى البحث عن فريسته، وبينما كان الجن يفعل ذلك اصطدم رأسه بحجر من الأحجار، الأمر الذى أسفر عن فقء عين من عيني ذلك الجن، وبذلك تنتهى فترة المراقبة الثالثة.

"أخيراً، جاء أبو زيد، وتقدم تقدم الشجعان، نحو الجن وقال: "أغمض عينك الأخرى، وافرد عنقك، وافتح فمك حتى أستطيع الدخول فيه، لأكون أنا وجبة



وقفه لأداء الصلاة



في بُيْئَةِ الباردة الجائعة

عشاءك"، وفعل الجن ذلك الذى طلبه منه أبو زيد، وهنا استلَّ أبو زيد سيفه وضرب عنق الجن ضربه أدت إلى قتله. وينحنى أبو زيد بعد ذلك ويلل راحة يده من دم الجن ثم جرى بسرعة كبيرة إلى قلعة حاكم البلدة، ثم قفز أبو زيد من فوق الأرض إلى أن كاد يصل إلى السقف، وضرب الجدار بيده المبللة بالدم فى المنطقة الواقعة فوق مدخل القلعة تاركًا بذلك أثر دم الجن على الجدار. ثم عاد أبو زيد بعد ذلك إلى أخويه وإلى ابنه الحاكم فى البرية.

"وعندما أصبح الصباح جاء أهل البلدة ورأوا أثر دم الجن الأحمر، كما رأوا أيضاً آثار يد بشرية على جدران القلعة، فى المنطقة الواقعة فوق المدخل. وهنا قام الحاكم بدعوة الناس كلهم بغية أن يكتشف مَنْ هو ذلك الشخص الذى أفلح فى قتل الجن. وقال الحاكم للناس: "أقسم بالله! أن من قتل الجن سيكون هو حاكم هذا البلد، وسوف أُسلمه القلعة".

كان الحاضرون نفراً كثيراً من البشر، ردوا جميعاً على الحاكم قائلين: "أنا الذى قتلت الجن، أنا الذى قتلت الجن".

رد عليهم الحاكم قائلاً: "تعالوا إذًا، وليقفز كل واحد منكم ويلمس المكان الذى فيه الدم فوق بوابة القلعة".

"لكن أحداً منهم لم يستطع فعل ذلك".

"وهنا جاء كل من بريقه ويوسف إلى المدينة ليريا نوعية ذلك المكان، نظراً لأنهما تركا أبا زيد مع الفتاة ومع الإبل فى البرية".

"وعندما سمع الحاكم، عن وصول هذين الغريبين، أمر الرجال بإحضار كل من بريقه ويوسف ليَمْتَلَأَ أمامه. وقال لهما: "لقد كانت المدينة رهينة عند ذلك الجن، وهى الآن تخلصت من ذلك الجن، ولم يصبح هناك داعٍ للتضحية بفتاة وكبش وطبق من الأرز. من منكما الذى أحدث هذا الخلاص؟ خبرانى، لأن هذا الشخص سيكون هو الحاكم الذى سيحل محلى".

رداً عليه، "نحن لا نعرف من الذى فعل ذلك".

"لكن الحاكم لم يصدقهما، وقال لهما: "يتعين على كل منكما أن يقفز إلى الأعلى إلى أبعد مكان ممكن لكى أتبين من منكما الذى فعل ذلك".

"وقفز كل من يوسف وبريقه مثلما طلب منهما الحاكم، لكن أيديهما وصلت إلى مسافة قريبة من الدم الموجود على جدار القلعة، وهنا عرف الحاكم أن أيا منهما لم يفعل ذلك". وتحول الحاكم إليهما وقال: "وأين باقى جماعتكم؟".

"وقالا له وهما خائفان من تداعى الأحداث والنتائج السيئة: "لدينا عبد فقط"، (التصقت هذه السمة بأبى زيد لأنه كان أسود البشرة) - "وهو موجود خارج البلدة مع إبلنا".

رد عليهما الحاكم، "سوف أحتجزكما إلى أن أرى هذا العبد". وأمر الحاكم بإحضار جمل وعبد وأرسل فى طلب إحضار أبى زيد. وقال الحاكم للعبد: "عندما تصلين إلى المكان الذى فيه أبو زيد، اطلبي منه أن يركب خلفك، فإن كان عبداً فسوف يفعل ذلك، أما إن كان حراً، فسوف يرغب بشدة فى المجيء إلى هذا المكان وهو راكب أمامك، هذا يعنى أنه سوف يجعلك تركبين خلفه على الجمل".

وهنا ركبت العبد الجمل وذهبت إلى البرية التى فيها أبو زيد وقالت: "أنا رسول من عند الحاكم، وهو يطلب مثولك أمامه على الفور، ومطلوب منك أن تركب خلفى على هذا الجمل"، وأشارت إليه كيما يركب خلفها.. لكن أبا زيد نحاًها جانباً وجعلها تركب خلفه، وعادا هما الاثنان إلى قلعة الحاكم وهما على هذا النحو، ونزلا من فوق الجمل.

"وهنا قال الحاكم لأبى زيد: "اقفز، أيها العبد، واجعل يدك تلامس اليد الدموية التى فوق مدخل القلعة. رد عليه أبو زيد: "أنا، كيف لى بذلك؟ أنا لا أستطيع عمل أى شئ".

قال الحاكم: "اقفز، لابد أن تقفز". وهنا قفز أبو زيد فى الهواء ووصلت يده إلى مكان أعلى من اليد الدموية التى كان قد أحدثها فى الليلة السابقة. وهنا عرف الناس كلهم أن الذى قتل الجن هو أبو زيد.

تحول الحاكم هنا ناحية الناس وقال: "لقد آن آوان أن يكون الرجل الذى خلصكم من الجن هو الحاكم عليكم"، ثم قال لأبى زيد: "هذه القلعة لك".

"لكن أبا زيد رد عليه قائلاً: "أنا لا أريد مالاً ولا سلطة، وأنا أستأذنك فى الذهاب إلى متعتى".

"وأعطوا أبا زيد كنزاً وخيلاً ورزق الله - ورحل الرجل مع أخويه وهم جميعاً فى منتهى السعادة".

قبل انتهاء القصة، ظهرت إبلنا عبر الرمال، عائدة من المسقى. خرجتُ مع حمد للقاء هذه الإبل. وبينما كنا سائرين صادفنا الكثير من آثار الإبل؛ الأمر الذى يدل على أن فراجة واحد من ثقبو المياه المعروفة للجميع. وهنا وجدت أن الآثار المجمعة لأقدام أربعة من الإبل التى كانت تسير فى صف واحد، قد استرعت انتباه رفيقى، وهنا استدار رفيقى إلىَّ وسألنى من باب المناغشة، عن أفضل الإبل بين هذه الإبل الأربعة. وهنا أشرت - من باب اقتناعى الشخصى - إلى الأثر الخطأ غير الصحيح. قال رفيقى: "انظر هناك، هل ترى ذلك الطمس الذى فوق أصابع القدم الكبيرة؟ هذه إشارة جيدة؛ وليس هذا الانزلاق الذى أشرت إليه أنت"، قال هذا الكلام وهو يشير إلى ما ذكرته أنا "بين آثار الأقدام". ثم قال رفيقى عن الجمل الثالث: "هذا حيوان دخل مؤخراً إلى منطقة السهوب. هل ترى الآثار غير المنظمة لأقدام هذه الناقة؟ الإبل الموجودة فى الرمال منذ زمن بعيد تترك آثاراً ناعمة، أما ذلك الأثر، (وهنا أشار إلى أثر أقدام الجمل الرابع) فهو أثر طفلها أو وليدها. ناقتك كبيرة وهى عُشار - ناظر الآثار العميقة لرجليها الخلفيتين الصغيرتين". هذا بالإضافة إلى هذا وذاك. كان ذلك أهم جزء فى موروث حمد الثقافى - هذا الموروث يعرفه كل ساكن من سكان الرمال لكن بدرجات متفاوتة - قراءة حال الإبل الغربية، التى لم يَرها البشر، وذلك عن طريق دراسة آثار هذه الإبل، وبالتالي يستطيع من يجيد قراءة هذه الآثار أن يقرّر متى يهرب ومتى يواصل المسير.

قَصُّ الأثر فى الجزيرة العربية علم دقيق، وهو يتفوق على بصمة الإصبع التى يتميز بها العرب، وذلك من منطلق أن الرمال تعد وسيطاً كاملاً فى هذا الصدد.

يوجد، فى بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية المتقدمة - كما هو الحال فى عُمان، على سبيل المثال، بعض المحاكم التى تأخذ بشهادات قصاصى الأثر، وذلك على الرغم من أن القفَّار (قصاص الأثر كما يسمونه)، عنده بعض المواهب فى مسألة قص الأثر فى الرمال، ليست لدى عدد كبير من البشر على مستوى العالم. وقع حادث من هذا القبيل أثناء خدمتى فى عُمان، أى فى مسقط على

وجه التحديد. حدث أن جاء أحد الصينيين لشراء اللؤلؤ والأحجار البحرية الثمينة الأخرى، لكن هذا الصينى قُتل ذات ليلة وهو نائم على سطح منزله فى سوق مدينة مسقط. ويبدو أن القاتل بُوغت أثناء ارتكاب هذه الجريمة، لأنه قفز من سطح المنزل (كان المنزل مكوناً من طابق واحد) أثناء هروبه. وبقي الأثر الناجم عن قدمه فى الحارة التى كان يجرى خلالها. وعندما جرى اكتشاف هذه الجريمة فى صبيحة اليوم التالى جرى وضع إناء فوق الأثر الناجم عن قدم ذلك القاتل، وجرى أيضاً وضع حراس عند بداية الحارة وعند نهايتها، وذلك منعاً للناس من المرور خلال هذه الحارة، وأُرسِل فى طلب قصاص شهير للأثر، جاء من أعالى البلاد. وتنقضى الأيام وتمر فى الوقت ذاته والمدينة تزداد عصبية على عصبيتها، نظراً لأن عملية الاغتيال وحشية تماماً- فقد جرى قطع العنق بخنجر حاد من الأذن إلى الأذن- وكان القاتل لا يزال فى قيد الحياة.

وصل قصاص الأثر وزار أثر القدم مرتين أو ثلاثة، وكان فى كل مرة يمضى بضع دقائق وهو جالس على يديه وركبتيه فوق أثر القدم هذا، وذلك كما لو كان يحاول تذكر صاحب ذلك الأثر.

وفى اليوم التالى، أمر المجلس القضائى (المحكمة) بأن يقوم الذكور كلهم بالمرور على قصاص الأثر حتى يتفحصهم جميعاً؛ وهنا قامت أحياء المدينة، الواحد بعد الآخر، بإرسال ذكورها.. وتنقضى بضعة أيام، وعندها قدم قصاص الأثر دليله أو إشارته.

كان القاتل شاباً فى العشرينيات من عمره عبداً أفريقياً، بل من عبيد البلاط فى واقع الأمر، ومن ثمَّ لم يكن فى مأمن من توجيه هذا الاتهام إليه. وعلى الفور أُلقي القبض عليه وأُرسِل إلى قلعة السجن، حيث نُسبت إليه الجريمة، وأنكر هذا المتهم معرفته بهذه الواقعة، واستطاع تأكيد براءته.

وجرى إرسال الملابس التى زُعم أنه كان يلبسها، إلى المحلل العام فى مدينة بومباى فى الهند، ولم يُعثر فيها على أية بقعة من بقع الدم، لكن كانت هناك بعض الدلائل الأخرى المتعلقة بهذه الجريمة، تؤكد ذلك الذى ذهب إليه قصاص الأثر. كان العبد شخصاً سيئ السمعة، يضاف إلى ذلك أنه كان الساكن الوحيد

الذى كان يسكن المنزل الملاصق لمنزل القتل، الأمر الذى مكّنه من مراقبة ضحيته مراقبة لصيقة؛ يضاف إلى ذلك أنه كان من السهل على ذلك العبد أن يقفز من شرفته العالية لينزل على سطح المنزل الذى وقعت فيه جريمة القتل، لكنه لم يكن بوسعه القفز ثانية عائداً إلى منزله.

أبدت الصيدلة الهندية رأيها أيضاً فى أثر القدم. كان فى وسط أثر القدم حافة حجرية مفتتة، وكان من رأى هذه الصيدلة الهندية أن الرجل الذى هبط من السقف فوق هذا الحجر، لابد وأن تكون قدمه قد أصيبت بقطع بسيط فى كعب قدمه اليمنى.

جرى إحضار المسجون أمامى وطلبت منه أن يربنى قاع قدمه. وسارع المسجون برفع قدمه اليسرى. أسفر فحص القدم اليمنى عن قطع فى القدم، وأكدت مقاسات الرأس أن مكان هذا القطع متفق تماماً مع مكان الحجر المفتت الموجود فى أثر القدم. ولقى العبد العقاب الذى حُكم به عليه، بأيدي فضيلة الإعدام رمية بالرصاص. هذا يعنى أن قصاص الأثر لم يقص الأثر عبثاً أو هباءً.

وهنا، وبعد مرور ستة أشهر، وفى وسط الربع الخالى، كنت أتمتع بلحظات دقيقة فى مسألة دراسة وقص أثر الحيوانات الصغيرة. قصة مسألة قص أثر أقدام الحيوانات الصغيرة، قصة بسيطة ومفهومة تلقائياً من البدوى، لكن هذه المسألة تشكل جاذبية خاصة عند الرجل الأوروبى، وهى تشكل عند الأوروبى خطأ رشيقيًا ساحراً أو اختراعاً مدهشاً؛ زد على ذلك، أن الأجسام العالقة بالريح الواهنة التى تكتسح الرمال تصنع صورة دقيقة لحلقة الصلاة التى يقصُّ البدوى أثرها وصولاً إلى اتجاه الشمس الغاربة؛ أضف إلى ذلك أن العدو المباشر لمخالب الطيور، والذى يكون الواحد بعد الآخر، يكون على النقيض تماماً من الآثار الناجمة عن بعض الحيوانات الأرضية الصغيرة رباعية الأطراف، أو إن شئت فقل: من ذوات الأربع؛ اعلم أيضاً أن الحلية التى تكون على شكل وردة أنيقة وتنجم عن حركة الفأر، يمكن أن تُفضى إلى حرش، يمكن العثور فيه على جحر صغير يعيش فيه هذا الفأر، وتوجد عند مدخل هذا الجحر كومة من الرمل الأحمر حيث الحفر؛ واعلم أيضاً أن التراكيب الجميلة المعقدة والمعقوفة التى

تنجم عن السحالي، والتي تكون شبيهة بالسحلية الشبيهة بأوراق الشجر المتشابكة، يمكن أن تقود من يتبعها إلى منطقة عشبية تلعب فيها السحلية دور السارية التي يرقص الجميع من حولها فرحاً ومرحاً؛ واعلم أيضاً أن الأغصان المتساقطة والمتخفية هنا وهناك تعد دلائل على نوبات الرياح التي تهب على هذه المنطقة.

كان صباح اليوم التالي شديد البرودة. كان مسارنا في اتجاه الشرق في بداية الأمر أثناء ربح شمالية شديدة، ثم تحول مسارنا لتكون في مواجهة الريح، ولذلك كنت سعيداً بمعطفي الكبير. كان هناك صقر كبير، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها صقراً من هذا القبيل في منطقة الرمال، وراح ذلك الصقر يحوم حول رؤوسنا لينزل بسرعة بعد ذلك في اتجاه الريح، أثناء تجاوزنا لواحد من مخيمات المُرّة يضم قرابة خمسين جملاً من الجمال سوداء اللون. والناس هنا يقولون إن القطعان الكبيرة من إبل قبيلة المُرّة، تكون سوداء اللون^(١) في أغلب الأحيان، ومن ثم فإن خيام منطقة الرمال تكون سوداء اللون في أغلب الأحيان، وهذا على النقيض تماماً من لون الحيوانات البرية التي تسكن هذه المناطق.

حوّلنا مسارنا تحولاً كبيراً تحاشياً لهؤلاء البشر الذين من قبيلة المُرّة. كان هؤلاء البشر ودودين بشكل واضح، لكن قيل أنه ليس من الحكمة أن يرانى أو يسمع عنى هؤلاء البشر، وذلك تحاشياً للنتائج السيئة التي يمكن أن تترتب على خبر وجودى في هذه المنطقة .

كان الشيخ صالح الذى يركب دابته ويسير بجانبى يرتعد من البرد، لكنه لم يكن يجأ بالشكوى من البرد، مخافة الاعتراض على قدرة الله تعالى الذى أرسل هذا البرد. وهنا رحت أحكى للشيخ صالح عن برودة الشتاء في إنجلترا .

(١) يطلق أفراد قبيلة المرة على قطيع الإبل اسم "جيش"، ولكن الرشادة يقولون لهذا القطيع "تشيرة"، أما القبائل العمانية فتطلق اسم "البوش" على مثل هذا القطيع، بدو الرمال لديهم خمسة ألوان من الإبل: الأبيض، الأحمر، الأسود، الأخضر، هذه هي المساويات المعجمية. واقع الأمر أن اللون الأبيض يقصد به: اللون البيج الضارب إلى البنّي الفاتح؛ أما اللون الأحمر فيقصد به: لون الفزال؛ أما اللون الأسود فيقصد به اللون الأسود المائل إلى اللون البنّي؛ واللون الأخضر يقصد به لون دخان الخشب الأدكن .

استدار الشيخ صالح إلى مبارك وقال: "أسمع هذا الذى يقوله هذا الصاحب"، "فى بلاد الوزير، يصبح الماء المقطع من البحر" (المقصود هنا البركة المائية أو البحيرة) "كتلة صلبة بسبب البرودة الشديدة إلى حد أن العرب والخيول والحمير تستطيع السير على هذا الماء المتجمد".

رد عليه مبارك، "لا إله إلا الله، وتلمست فى تعبير مبارك خوف الرجل من أن أكون واحداً من حرس المقدمة الذى يسبق القيام بالغزو، وبدا على الرجل أنه كان قلقاً يود التنازل عن هذا البؤس بغية المحافظة على الرمال الحبيبة إلى قلبه".

أدت الساعات الطوال التى أمضيناها على ظهور مطايانا ونحن جياع، وكذلك ريح الشمال الباردة إلى جعل حياتنا لا تطاق فى هذه المرحلة من الرحلة، فقد هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠ درجة فهرنهايتية، ولما لم يكن معى خيمة أو أية ملابس أخرى يمكن أغطى بها رأسى، فقد وجدت أن من الضروري أن أنام فى كل ملابسى بالإضافة إلى ثلاث بطانيات.

فى اليوم الثانى والعشرين من يناير، ونحن فى كثنان وتلال عبيله المتدحرجة حمراء اللون، وجدنا أنفسنا نواجه ولأول مرة سلسلة من العواصف الرملية. كنا جالسين حول نار المخيم بعد أن تناولنا وجبة العشاء قبل ذلك بليلتين كان هناك ندى كثيف، وكانت تلك أول موجة ندى كثيفة نواجهها منذ غادرنا جبال قارة، نحن فى هذه الليلة تهب علينا ريح باردة قادمة من الشمال، لم يكن لدينا أى شىء يمكن أن ينذر بمجىء العاصفة، وسرعان ما اجتاحت ألسنة اللهب هذا الطريق وذلك الطريق كما لو كانت الريح تهب علينا من جميع الاتجاهات. ورحنا جميعنا نغطى وجوهنا بأيدينا، وذلك من باب إنقاذ أعيننا من الدخان. وهنا انتفض رفاقى واقفين وراحوا يجرون فى الظلام بغية إحضار إبلهم التى كانت ترعى على مقربة منا، نظراً لأن العواصف الرملية تعد عدواً لدوداً للإبل. وازدادت العاصفة عنفاً على عنفها؛ وهنا لف البدو أنفسهم فى عباءاتهم الضعيفة، وتجمعوا حول الإبل وهم يحتمون ببعضهم البعض طلباً للدفع.

كان نومي متقطعاً. أدى حفيف الريح المحملة بالرمال، هو والصوت الناجم عن حبال المخيم ومعهما قدامى الباردتان، إلى جعل نومي أمراً مستحيلأ. عندما كان

وجهى يتعرض أو ينكشف كانت تلفحه الريح الحادة مثل السكين. انخفضت درجة الحرارة إلى أن وصلت إلى ٢٧ درجة فهرنهايت في الجفاف، ٣٥ درجة فهرنهايت في الرطوبة. غافلنى النوم قبل طلوع الفجر واستيقظت بعد طلوع الفجر لأجد سَرَجَ (عدة) جملى ومعه أمتعتى، مدفونة في الرمل. كانت الريح قد توقفت، وكان البدو قد تجمعوا وهم يتدخلون مع بعضهم البعض، حول نار المخيم وهم يرتعدون. وسرعان ما قام البدو باستنهاض إبلهم التي كانوا قاموا بتجميعها أثناء الليل بُغية حمايتها، وكانت هذه الإبل المسكينة قد شردت وهي ترتعد من البرد وراحت ترعى طلباً للغذاء من ناحية واستشعاراً لدفع الشمس أثناء شروقها.

تسبب الليل في نتائج كارثية. كان الرمل قد تسرب إلى بعض معداتي وأدواتي. فقد تعطلت آلة تصويري السينمائية عن العمل، وتعطل أيضاً جهازاً قياس الارتفاع، الأمر الذي اضطرني إلى تدوين قراءتين مختلفتين، دون أن أعرف أيهما هو الصحيح إلى ما بعد نهاية الرحلة.

صاح بدوى صغير السن في صبيحة اليوم التالي، متكهماً من ربح الشمال القارسة: "أنا آتيك بخبر طيب عن (ريح) الشمال! أنا آتيك بخبر طيب عن (ريح) الشمال!" إذ كانت درجة الحرارة في حدود ٥ درجات فهرنهايت من درجة حرارة التجمد. علق الشيخ صالح على هذا الكلام، مردداً قافية من القوافي الصحراوية المحفزة للإبل الذكور:

"لولا ربح الشمال

لما حدثت الزيادة".

أسلمتنا كثران عبيلة الرملية حمراء اللون إلى فراغات بيضاء واسعة هي فراغات سنام، وذلك عندما كنا نقترّب من ثقب الماء الذي يسمونه ثقب مياه الجهيشى. أدى النهار خائق البرودة؛ الذى اكتنفته سحابة من الدخان أبيض اللون، اجتاحتنا وتركت غشاءً على أقدام إبلنا، إلى جعل رفاقى المساكين، وهم يتدثرون بملابسهم الخفيفة، يرتعدون من البرد، ونحن نمضى قُدماً في مسيرتنا.

صاح الرجال قائلين: "اعقلها أيها الصاحب! اعقل عجبة (*)، فقد دخل موعد صلاة الظهر". هنا وعلى مقربة من ثقب ماء ديوريس المهجور، كان يوجد شيء من الحطب ومرعى صغير، وهنا فهمت أننا نتوقف وقفة منتصف النهار. ملأت الرمال عيني، وغطت الدفاتر التي أدون فيها مذكراتي؛ كان الرمل في كل مكان؛ يزداد على ذلك أن تدوين الملاحظات وأصابعي مصابة بالخدر، يعد عملية مستحيلة، ولم يكن لدى ما أفعله سوى الجلوس بلا أى عمل فى موجة الرمل والبرد، وأنا قلق بسبب البرد، وكنت أتمنى لو أنه كان هناك من يهددنى كيما أروح فى سُبَات عميق.

جمع البدو الحطب من الأحراش، وكوّموا ذلك الحطب على نحو يجعل منه ساتراً قوياً طوله قرابة عشرين ياردة. كان ذلك الحطب عبارة عن أغصان من نبات الغاضة، ذلك النبات المهم الذى التقيناه هنا لأول مرة. قام البدو بعد ذلك بوضع الإبل خلف ذلك الساتر بعد أن قيدوها وذلك عن طريق ربطها بعضها ببعض، ولم يتبق سوى الجمال العفية التى آثرت الوقوف وراحت ترعى. وفى فترة لاحقة من النهار، وعندما بدأت الشمس تُشعر البشر بوجودها، وعندما هدأت الرياح بعض الشيء، تحركت الإبل حركة بطيئة بسبب قيودها وذهبت إلى مرعى فى مكان قريب، لكن عندما بدأت الرياح تعاود هبوبها من جديد سارع الجمال إلى إعادة الإبل إلى (الملجأ) وذلك خوفاً من ضياعها أثناء هبوب العاصفة، إذا ما تركت لوحدها، نظراً لأن الرياح سرعان ما تمحو الآثار كلها وبذلك يتعذر العثور على هذه الإبل.

إحساس الجمال بمراحه وموطنه - وبخاصة إذا ما كان غياب الموطن الثابت مصطلحاً ينطوى على شيء من التناقض - هو إحساس مثير ومدهش. والفكرة الراسخة عند الناقة (أنثى الجمال) مبنية على استرجاع ذكرى المراعى الوفيرة والغزيرة هى والقطعان التى كانت ترتع معها. قد تنسى الناقة استعدادات ما قبل المسير، لكن عندما تتوقف القافلة، وبعد أن تطلق غير مقيدة كى ترعى، فإنها

(*) اسم الناقة التى يركبها برترام توماس. (المترجم).

سوف تعود لوحدها من الطريق الذى جاءت منه. مالك هذه الناقة لا يعنى لها شيئاً. وهى لا تكن له أى نوع من الود، ولا تعرف عنه أى شىء سوى صوته فقط. ومع ذلك، فإن الناقة تعتمد على صاحبها بدرجة كبيرة فى مسألة السقاية، لأنها تعجز عن سقاية نفسها حتى وإن كان ثقب الماء ضحلاً إلى أبعد الحدود. والناقة شديدة الغباء اللهم باستثناء إحساسها بالاتجاه، ومع ذلك، فإن الله تعالى أعطاها موهبة البصر والعينين.

قال الشيخ صالح. "إذا ما تركت عجة^(١) لحال سبيلها فإنها سوف تسير عبر الرمال، على هدى من هذا النجم لتعود إلى دكاكا حيث يوجد رفاقها؛ وذلك على الرغم من عدم مجيئها إلى هذا المكان من قبل".

"لكن كيف تستطيع الناقة الحصول على الماء؟".

"سوف تمشى عائدة بلا ماء ولكنها تصل بسلام فى فصل الشتاء، لكنها يمكن أن تنفُق بسبب العطش فى فصل الصيف وقبل أن تقطع مسافة تقدر بربع الطريق تقريباً".

وقد أعطانا مسيرنا خلال اليومين الماضيين مثلاً على هذا الكلام، فقد انضمت إلينا ناقة ضالة عشار^(٢)، أو بالأحرى كانت تتقدم قافلتنا، لأنها كانت

(١) كل جمل من الإبل له اسم خاص يطلقه عليه صاحبه، لكن الطُرف الذى لا يهتم بالإبل قد يطلق على الجمل واحداً من تسعة أسماء، طبقاً لسن الجمل: والجمل الذى عمره شهر واحد إلى سبعة أشهر يسمونه حوار Howar (بمعنى الرضيع)، والجمل الذى يتراوح عمره بين سبعة أشهر وعامين يسمونه انفريد (بمعنى عائل نفسه)؛ والجمل الذى يكون فى عامه الثانى يسمونه: بنت البون أو ولد البون إن كان ذكراً، والجمل الذى فى عامه الثالث يسمونه مَضْرِبَة (يمكن أن يغشاها الذكر)؛ والجمل الذى فى عامه الرابع يسمونه ياضة (قابل للعشار)، والجمل فى عامه الخامس يسمونه ثنية؛ وفى عامه السادس يسمونه رابة؛ وفى العام السابع يسمونه: السويس؛ وفى عامه الثامن يسمونه شق الناقة أو النوفى.

(٢) يقول الرشيدة: للناقة العُشار (مدينى) ويقول لها المرء (الجابه). وتستمر مدة الحمل اثنى عشر شهراً. قد تمتد هذه الفترة إلى ثلاثة عشر شهراً، أو قد تكون أحد عشر شهراً، لكن الوليد نادراً ما يعيش فى مثل هذه الظروف، ويسمى الوليد فى هذا الحال سهام وتسمى الأم جارت. والناقة التى لا يغشاها حمل ذكرى تسمى "بكرة" وقبيلة المره تقول للجمل الذكر (قعود) ويقولون للأُنثى (حاشى).

تسبقنا، قاصدة قطر حيث كانت العلامة المميزة لها تدل على ذلك. كانت تلك الناقة مشتاقة للتمر أو السردين، تلك الأشياء الممتعة التي افتقدتها هذه الناقة في منطقة الرمال؛ ومن يُمّن طالع هذه الناقة أن الوقت كان مصادفًا لفصل الشتاء!

صاح واحد من قبيلة المُره، في صبيحة اليوم التالى عندما كنا نمر على سهل من عشب الغاضة: "لا تجعل ناقتك تأكل من هذه الغاضة لأنها يسكنها الجن".

أوضح حمد لى هذا الكلام قائلاً: "إن هذا الكلام لا ينطبق إلا على مراعى الغاضة الموجودة فى كل من المُره وبانيان، لكن الغاضة التى فى الأماكن الأخرى من الأعلاف الجيدة تماماً. نفقت خمسة إبل فى ليلة واحدة، وفى مرة أخرى أُصيب اثنان من النياق بالمرض وجف حليبهما".

توصلت أيضاً إلى الفكرة التى مفادها أن الجان يمكن أن يؤثر فى صحة الحياة النباتية، فى منطقة موجشين، وقد أدى ذلك إلى إهمال بيارة كبيرة من بيارات أشجار السنط بدرجة كبيرة. وقد جرت العادة أن يقوم البدو باستعمال عصارة هذا العشب فى عملية التغذية اليدوية للإبل، لكن البدو هنا لا يحذون هذا الحذو فى مسألة العصارة هذه؛ يضاف إلى ذلك، أن هؤلاء البدو لا يصطادون الأرانب البرية التى فى هذه البيارة رميةً بالرصاص بغية أكلها^(١). يزداد على ذلك، أن الكثارين لديهم اعتقاد غريب مفاده أن الجمل الذى يُغذى تغذية يدوية فى موجشين بدلاً من تغذيته على الرعى، يعانى كثيراً من المصاعب والمتاعب.

كان ثقب مياه بانيان الشهير على بعد مسير يوم واحد بعد ساعة ونصف الساعة من مغادرتنا لمراعى الحض، صعدنا تلال خيوط البريدان الرملية حمراء اللون التى تمثل الحد الشمالى لمنطقة سنام، هدأت الرياح وبدأ السطح الوردى للتلال الرملية- التى يطلقون عليها هنا اسم الحمارور- على النقيض تماماً من

(١) هناك تحريم عجيب عند قبيلة المناصير مفاده أن هؤلاء المناصير لا يأكلون لحم الأرانب البرية أو أى حيوان آخر جرى قتله رميةً بالرصاص فى رأسه، هذا يعنى أنهم لا يأكلون الأرانب البرية التى أصيبت أمخاخها بأضرار.

السهول الدُّخَانِيَّة البِيضَاء التي مررنا بها في المسيرات التي قمنا بها مؤخراً. كانت بقع من عشب الحرام شديد الخضرة تحدُّ الأماكن المنخفضة (الفدران) في التلال الرملية وكانت أبلنا تقضم بين الحين والآخر، قضمه من ذلك العشب أثناء مرورنا عليه، ولكن على مضض، نظراً لأن عشب الحرام هو نوع من العلف المالح الذي يسبب بعض المتاعب للحيوانات التي ليست معتادة عليه، قال واحد من البدو وهو يشير بذراعه إلى ناحية الشرق: "نحن الآن في منطقة المناصير، التي لا يوجد فيها أى عشب آخر غير عشب الحرام، وهم يربون إبلهم على هذا العشب، وسنم هذه الإبل على النحو الذي تراه أنت حالياً" - وهنا أمسك هذا البدوى بكوع ذراع من ذراعيه، ليبرز ذلك الكوع أمامه، وكان ساعده محنياً ناحية الأعلى على راحة اليد الأخرى - وهذه هي الإشارة المفضلة التي يعبر البدو بها عن السنام الكبير، ومن ثمَّ يكون الحيوان بحالة صحية جيدة.

شكلت السلاسل الرملية النادرة حمراء اللون، الطويل منها والمنخفض والموجود في السهل، هي وبقع أشجار الغاصة التي تنمو خارجةً من تراكمات الرمل المحيطة بجذورها والتي يطلقون عليها اسم غاصة زعازة، وأوصلتنا إلى المزيد من التلال الرملية المتحدرة حمراء اللون. توقفنا وسط هذه التلال الرملية الحمراء عند ثقب ماء بانيان. كانت القافلة قد بدأت تجرجر خطاها كما هو الحال في سائر القوافل. كان تأثير رمضان واضحاً على الرجال، وكان تأثير المراعى المألحة واضحاً أيضاً على الإبل؛ يضاف إلى ذلك أن تأثير المسيرات الطويلة هي والريح الشمالية الباردة كان واضحاً على كل من الإنسان والحيوان. كان حمد وأنا أول من وصل إلى هذا المكان.

قال حمد: "اشرب أيها الصاحب لأن ماء بانيان ماء طيب".

لولا شهر رمضان لما امتنع حمد عن الشرب من ماء بانيان. كان دستور هؤلاء البدو والمرافقين لى يقضى أنه بعد مسير يوم من العطش، وعندما نصل إلى ثقب من ثقوب الماء، لا يسمح لجماعة المقدمة بأن يلمس الماء شفتى أى واحد من أفرادها، أو حتى يأكل ولو كسرة واحدة من الخبز معى أثناء السير إلا عندما يكون رفاقه موجودين لاقتسام تلك الكسرة معه. وإذا كان هذا الشرط المتأرجح

من شروط الحياة يفضى إلى نوع من الوحشية بين الأعداء، فإنه يفضى أيضاً إلى نوع من الإنسانية الراقية بين الأصدقاء.

كان ثقب ماء بانيان بئراً حقيقية، مبطنة بالحجارة ولذلك كانت تلك البئر مختلفة عن حفر أو ثقوب المياه في جنوب الجزيرة العربية. وعندما بدأت جماعتى فى الوصول تباعاً لمست شيئاً من التغير الواضح على حالهم النفسى. كانت صيحات الفرح مصحوبة بالبشر وأنشراح الصدر ومختلطة بصوت صب الماء الذى يفرحون بإحداثه، فى الوقت الذى كانت فيه إبلهم تمتد أعناقها الطويلة فى الغدير الذى جرى ملؤه بالماء المجلوب من البئر لتروى ظمأها منه.

حال عدم وجود مراعٍ فى هذه المنطقة دون التوقف فى هذه التلال الرملية الجرداء المتحدرة، وكانت الحيوانات التى سقيت فى البداية قد استأنفت سيرها بالفعل قبل أن تلتحق بها الإبل التى تأخرت سقايتها. تأخرت مبتغياً بذلك مرافقة جماعة المؤخرة. وسرعان ما توقفنا لأداء صلاة المغرب؛ وبعد أداء صلاة المغرب واجهنا صعوبات متزايدة فى اقتفاء أثر حارس المقدمة؛ وأدى تناقص الضوء إلى جعل عملية اقتفاء الأثر هذه أمراً مستحيلاً. وعليه، جعلنا نجم الدب القطبى على كتفنا اليسرى - والبدوى يعبر عن ذلك بوضع يده على عظمة الترقوة حتى لا يُخطئه من يستمع إليه أو ينظر إليه - ورحنا نستأنف مسيرنا أثناء الليل وانقضت ساعة قبل أن يصيح أحد الرجال من خلفى. وعندما استدرت لأقف على ما يحدث، رأيت وميض نار مخيم بعيد فى اتجاه الشرق. وعليه؛ تحولنا وبدأنا نخيم عند الساعة السابعة. كنت متعباً تماماً بعد عشر ساعات ونصف الساعة أمضيته وأنا راكب ناقتى، لكنى اعترانى إحساس بالارتياح عندما تحققت من أن المنطقة الوسطى الكبيرة من أرض الريع الخالى الجرداء أصبحت ورائى، ولم نكن نبعد عن البحر سوى ثمانين ميلاً فى اتجاه الشمال، هذا يعنى أن النجاح بات حليفاً لنا.

الفصل التاسع عشر

بانيان: تأمل ما مضى

وصولى إلى بانيان يعنى أنى وصلت إلى الحد الشمالى لما يُسمَّى الرَّمال^(١). وعليه، فهذه هى النقطة المناسبة، التى يمكننا عندها تعليق الحدودة، حتى نتفرغ لكتابة فصل مختصر نتفكر ونتأمل فيه شكل وتركيب هذه الأرض؛ هى وسكانها، من خلال ترحالنا وتجالنا خلالها.

من المُسلَّم به أن الربع الخالى يُقسَّم الجزيرة العربية من الناحية الجيولوجية. فى الناحية الغربية نجد أن الكتلة الممتدة من شبه الجزيرة العربية، تشكل من الناحية الجيولوجية جزءاً من القارة الإفريقية، التى لا يفصلها عنها سوى المنطقة المنخفضة، وإن شئت فقل: وادى الصدع المتمثل فى البحر الأحمر. ويصل ارتفاع هذه الكتلة إلى آلاف متعددة من الأقدام، وتصل فيها الصخور البحرية إلى أعلى ارتفاعاتها، لكن هذه الكتلة بحد ذاتها لم يتغير مكانها كثيراً؛ يضاف إلى ذلك أن أعلى الصخور البركانية الموجودة فى الشمال، لم تثبت بقوة كبيرة، الأمر الذى لم يؤدى إلى تشكل قمم بركانية. هذا يعنى بشكل عام أن هذه المنطقة لم تُعانِ إلى حد ما الاضطرابات طوال الزمن الجيولوجى السحيق.

(١) يُعد وصولى إلى بانيان، التى تقع على خط الطول ٥١° شرقاً، بمثابة الوصول إلى الحد الشمالى لمنطقة الرمال. وفى اتجاه الشرق تواصل الرمال امتدادها صوب الشمال خلال مناطق الباطن، ليوه، قوفه وبينونة إلى أن تصل إلى شواطئ الخليج الفارسى؛ كما تواصل الرمال امتدادها فى اتجاه الغرب خلال كل من جوب، الجافورة إلى أن تصل إلى الأحساء (راجع الخريطة). لكن الأبناء الحقيقيين لهذه الرمال، يقولون إن هذه ليست هى ما يطلق عليه اسم الرمال.

أما المنطقة الشرقية، وإن شئت فقل الكتلة العُمانية، فهي تعد جزءاً من المنظومة الفارسية، التي هي عبارة عن جبال بالغة الطي، وناتجة عن الضغط القادم من ناحية الشمال، على كتلة الجزيرة العربية الأصلية الأكثر ثباتاً واستقراراً، في زمان تشكلت المجالات الكبيرة في جنوبي بلاد فارس وشمالى الهند^(١).

تخضع ظفار، النقطة التي بدأت منها رحلتى لدراسة البنية أو التكوين الجيولوجى لجزء كبير من هضبة الجزيرة العربية. ونحن نجد على امتداد شاطئ البحر صخوراً جرانيتية وصخوراً بُلورية أخرى، وإن هذين النوعين من الصخور يشكلان كتلة الأساس المصمت لشبه الجزيرة. هذه الصخور محمله أيضاً بالأحجار الرملية حمراء اللون التي تشكل المنحدرات السفلى لجبل قارة، ونحن نرجح أن يكون هذا الحجر الرملى أحمر اللون شبيهاً بالحجر الرملى الموجود فى مصر، وفى سيناء، وفى شرق الأردن، ومن فوق هذا الحجر الرملى أحمر اللون، الذى تمثله قمم جبل قارة العالية، توجد طبقات من الحجر الجيرى من العصرين: الطباشيرى العلوى والعصر الحديث السابق، لكن الوجه الجنوبى هو فى واقع الأمر، عبارة عن جرف يمثل حافة هضبة الحجر الرملى العالية، التى تنحدر انحداراً متدرجاً لتصل إلى حافة الرمال التى عثرت فيها على حفريات العصر الحديث السابق.

يزاد على ذلك، أن حزام الرمال العظيم الذى يمتد ناحية الشمال إلى مسافة ثلاثمائة ميل أو أكثر لم يُعْطِنَا أى إشارة أو دليل على الزمن أو العصر، وذلك على الرغم من احتواء عينات^(٢) الرمل التى أحضرتها معى من الوسط، على حبيبات من الحجر الجيرى وردى اللون وأبيض اللون، وهذا مؤشر على احتمال عدم انتقال الرمل من مسافة كبيرة؛ ولو كان الأمر غير ذلك لاختفت هذه الحبيبات بسبب الاحتكاك بالكوارتز الأصلب منها.

(١) بوسع القارئ الذى يود المزيد عن هذا الموضوع الرجوع إلى المقال المعنون "جيولوجيا وتكتونيات عمان وأجزاء جنوب شرق الجزيرة العربية"، (مجلة الجمعية الجيولوجية الفصلية فى العام ١٩٢٨).

بقلم الدكتور ج. م. ليس Lees الذى أشكر له فضله.

(٢) يحتوى الملحق رقم ٢ على قائمة بالعينات الرملية مع تحليل لهذه العينات.

عُثرت مرة أخرى، على امتداد حافة الرمال الشمالية، فى الجزء الشمالى من بانايان Banaiyan على حفريات بحرية تنتمى إلى العصر نفسه الذى تنتمى إليه الحفريات التى جرى العثور عليها فى الجنوب، لكنى أجد من المستحيل على القطع من واقع العبور الواحد الذى قمت به، بما إذا كان البحر الآيوسينى قد امتد، فى يوم من الأيام، على طول المسافة من قطر إلى ظفار، مما أدى فيما بعد إلى تغطيته بالرمال المنقولة بواسطة الرياح، من الشمال الشرقى، أو القطع بما إذا كانت النقاط التى تبعد قرابة مائة ميل نحو الداخل على جانبى الربع الخالى، وهى المنطقة التى أخذت منها حفريات تمثل حدود الغزو الشمالى وحدود الغزو الجنوبى للبحر الآيوسينى.

من المحتمل أن تكون الأرضية الأساسية لمنطقة الرمال، مكونة من تشكيل من تشكيلات الحجر الجيرى، ويحتمل أيضاً أن يكون هذا التكوين من العصر الآيوسينى أو العصر الطباشيرى، الذى تعرض خلاله للضوء الحجر الرملى النوبى الذى تشكَّلت منه الرمال المنقولة بواسطة الرياح.

أثبتت الأبحاث أن الربع الخالى عبارة عن منخفض بين جبال نجد العالية من ناحية الغرب والجبال العُمانية من ناحية الشرق، وأن المنخفض يحتمل أن يكون قد حدث فى زمن الارتفاع العُمانى- أى أثناء العصر الطباشيرى العلوى أو الحُقْب الثالث.

يزاد على ذلك - حتى وإن كان ذلك على العكس مما هو مطلوب - أن الطابع الطبوغرافى السلس على امتداد خط سيرى- كان خالياً تماماً من أية ثنية من الثنيات المهمة التى تساعد على إبراز الخصائص والسمات المهمة، وفوق جبال قارة مباشرة نجد أن سهوب الإستبس(*) تبدأ بصورة تقريبية عند ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، وتأخذ فى الانحدار تدريجياً مسافة ١١٠٠ قدم عند حافة الرمال، مشكِّله بذلك منحدرًا مقداره ٩٠٠ قدم فقط فى قرابة ١٠٠ ميل، ومن هذه الحافة

(*) سهوب الإستبس: سهول مترامية الأطراف صحراوية النبت. (المترجم).

الجنوبية أيضاً للرمال وعند ارتفاع ١١٠٠ قدم من الحد الشمالى عند بانيان، أى على مسافة ٢٠٠ قدم - نجد أيضاً أن المنحدر لا يزيد على ٩٠٠ قدم فى مسافة تقدر بقرابة ٣٠٠ ميل. وفى الاتجاه الشمالى من بانيان نجد هذا الانحدار نفسه فى اتجاه البحر.

وقد لاحظت فى وصفى للرمال الأصلية^(١)، لاحظت بالفعل أن أعظم مناطق هذه الرمال ارتفاعاً، أعنى منطقة الكثبان الرملية، تقع على امتداد الحافة

(١) أورد فيما يلى ملخصاً للأحزمة الرملية الرئيسة التى قابلت من الجنوب إلى الشمال:

أميال

- ١ - منطقة كثبان رملية عالية حمراء ٢٠
- ٢ - تلال رملية على شكل حدوة الفرس، مرتفعة، أقل وعورة وحمراء اللون ٤٠
- ٣ - سلاسل رملية بيضاء متوازية تتوسطها وديان حمراء ١٠٠
- ٤ - رمال بيضاء منبسطة وتموجة تموجاً خفيفاً ٧٠
- ٥ - رمال بيضاء أو متموجة تموجاً لطيفاً، فيها تلال حمراء منقولة ٥٠
- ٦ - سهب إستيسى، سهل ملحي، وتلال حمراء متبادلة ١٠٠

قسمت أيضاً الحياة النباتية إلى مناطق من الجنوب إلى الشمال على النحو التالى:

الحزام	الحياة النباتية(*)	خط الأرض	الارتفاع بالقدم
		من إلى	من إلى
٢، ١	زهار بركان أباله**	٢٠' ١٨' ٣٠' ٢٠'	١١٠٠ ٥٥٠
٥، ٤، ٢	الحض	٢٠' ٠٠' ٢٣'	٦٠٠ ٢٥٠
٦، ٥	الغاضة	٢٢' ٠٠' ٢٤'	٢٧٥ ١٢٥
٦	الشينان	٢٣' ١٢' ٣٠' ٢٤'	٢٠٠

(*) زهار اسمه العلمى Tribulus alatis

الحض اسمه العلمى Salsola Sp.

الشينان اسمه العلمى Arthrocnemum glaucum

(**) أباله: هذا النبات هو الأكثر نمواً فى الرمال وهو أكثر النباتات نفعاً. هذا النوع من الخشب يستعمل فى عمل هياكل سُرَج الإبل، وأوعية الخيام؛ هذا النوع من الخشب يعد وقوداً ممتازاً وذلك على العكس من كل من الحض والشينان.

الجنوبية ثم تتجه شمالاً، على حد ما هو وارد في التقرير العربي، لتصل إلى خط طول ٤٩° ثم تظهر من جديد عند خط طول ٥٣°.

هذان الجناحان أو الامتدادان يُثَلَّثان، يقسمان إلى ثلاثة أقسام، منطقة الرمال، وهنا يمكن القول أن الرجوع إلى الخريطة يوضح أن خط سيرى أثناء رحلتى، كان خلال القسم الأوسط.

ثبت أن الاعتقاد فى أن الرمال ستكون خالية من الماء، لا أساس له من الصحة. وثبت أيضاً وجود الماء، تحت أى ظرف من الظروف، ورغم ملوغته، فى اتجاه الشرق وبالتحديد عند ٥١° شرقاً (*). يبدو أن هناك ماءً وفيراً فى التربة التحتية، فى سائر أنحاء المناطق الوسطى، لكن هذا الماء يبلغ من الملوحة حداً يصعب معه أن يستعمله الإنسان فى الشرب. حُفِرَ المياه التى من هذا القبيل لا تتمتع بأسماء مميزة، وجرت العادة أن يطلق الناس عليها الاسم خيران. وفى الأماكن الأخرى، فإن حفر الماء التى يمكن أن تشرب منها الإبل والبشر تطلق عليها أسماء مميزة وغالباً ما تكون هذه الأسماء هى أسماء البشر الذين قاموا بحفر هذه الحفر، وفى حال الضرورة تلعب الإبل دور جهاز التقطير. هذا يعنى أن الإبل تشرب هذا الماء والإنسان يشرب ألبان هذه الإبل.

أعذب الماء موجود فى أقصى النقاط الغربية فى الطريق الذى سلكته وأنا متجه إلى غربى كل من دكاكا وسنام، حيث يصل عمق حفر الماء إلى قرابة ثلاث عشرة قامة(**) بل وأكثر من ذلك، لكن الماء الذى يستخرج من هذه الحفر غير مؤكد. واقع الأمر، أن هذه الحفر، كما هو الحال فى طريقه، تكون جافة. أكثر المياه ملوغة موجود فى الأجزاء القصية من خط سيرى، وهى حفر ضحلة، كما هو الحال فى بواه، كما أن الماء فى هذه الحفر لا ينضب؛ ويبدو أن هذا الدليل يؤيد المعلومات العربية التى تقول: إن الرمال الكبيرة التى ترتفع فى الاتجاه الغربى وأيضاً فى اتجاه الجنوب الغربى خالية تماماً من الماء.

(*) يحتوى الملحق رقم ٢ على تحليل كيميائى لمحتويات كل حفرة من حفر الماء التى استعملت ماءها.

(**) مقياس أعماق، والقامة الواحدة تعادل ست أقدام. (المترجم).

يضاف إلى ذلك أن الأسماء الإقليمية للرمال مستقاة في معظم الأحيان من بعض الخصائص والسمات الطبوغرافية^(١)، أو من بعض غرائب الماء أو الحياة النباتية، أو من الارتباط، بين الحين والآخر، بالإبل.

أسلوب حياة البشر في الربع الخالي- هي تلك الحياة القصيرة التي تسمح بها المراعى قصيرة الأجل والمراعى غير الكافية أو الماء المالح - وهذا النوع من الحياة قبلى وترحالى، أى هي حياة متأرجحة اقتصادياً، وغير مستقرة سياسياً، لكنها راسخة في جانباها الاجتماعى وثابتة وغير قابلة للتغيير.

البشر هنا يقيسون رفاه أية قبيلة من القبائل بعدد إبلها والحال التي عليها هذه الإبل. وتتمثل مصادر الثروة هنا في المراعى الجيدة، وفي البراعة الفائقة لأعضاء القبيلة الذين يحصلون عن طريق العدوان، على المزيد من الإبل على حساب أعدائهم.

وعليه؛ يمكن تقسيم الإبل إلى فئتين: قطعان إبل الحليب (الأصول والاحتياطى)، ثم إبل الركوب قليلة العدد (رأس المال العامل). والناقة من الفئة الأولى يصل ثمنها إلى مائة دولار، أما إبل الركوب فيصل ثمن الواحد منها ما يتردد بين مائتين وأربعمائة دولار للحيوان الاستثنائى. إبل الحليب لا تعرف السُرْج أو العُدَّة مطلقاً، ويربّيها الناس للتكاثر وإنتاج الحليب والوبر. هذا يعنى أن

(١) سبق أن تطرقنا إلى هذه المسألة الخاصة بهذه المسميات في كل من دكاكا، صواحب، وسانام. وهنا نورد أيضاً:

- بواه، واحد "باه"، وهى "الحفرة الضحلة الغائرة".
- مُنْجَار، مأخوذة من "منجور"، وهو المكان الذى يتعين فيه حفر "ثقب مياه" خلال الصخر.
- الحَض (الجماعة): المكان الذى يكون نبات الحَض هو العنصر السائد فيه.
- خَلَّة (عجمان): المكان أو الإقليم الذى لا يوجد فيه نبات الحَض.
- أم ماتليس- (أم النعومة): المكان الذى لا ينمو فيه نبات الحَض ولا نبات الزهار.
- الجوب: واد شبيه بالمنخفض في الرمال- منطقة بانينان- جبرين.
- الجُبَان: جمع "جوب".
- جافيوره مأخوذة من "حَفَر" - حفرة عميقة.
- شويكيله - "خيوط كيس ضرع البقرة أو الشاة" - من جانب جاءت منطلقا الالتفاف في الحوية.
- طوال - "طول": حفر الماء العميقة على نحو غير عادى في غربى سانام.
- عُقَال - "عقال الجمل" - الحفر الذى يصل عمق الواحدة منها نصف قامة في شرقي الجبان.

الناقة هي الجنس صاحب القيمة، ووليدة الناقة الأنثى تُربى بصفة دائمة في حين يعد الوليد الذكر نوعاً من الترف لا يستحق الإبقاء عليه. وتأسيساً على ذلك؛ ينذر أن يبقى الوليد الذكر إلى ما بعد العام الأول من حياته، بل يجرى في معظم الأحيان ذبحه في يوم مولده للغذاء، لكن بشرط ألا تراه الأم وهو يذبح حتى لا تروح الأم تبحث عنه. وقد جرت العادة على الاحتفاظ بذكرين أو ثلاثة لخدمة قطيع مكون من خمسين ناقة؛ يضاف إلى ذلك أن هذه الذكور تحمل أيضاً الخيام والأحمال الثقيلة عند التحرك من مكان إلى مكان آخر. وقطعان الحليب عندما تتجول في أماكن بعيدة وعبر مساحات واسعة يصعب الوصول إليها، يجرى تقسيمها في المناطق الواسعة إلى مجموعات، تقوم كل أسرة من الأسر البدوية برعاية المجموعة الخاصة بها؛ لكن القبيلة تجتمع مرة ثانية طلباً للحماية من الغزاة الذين يقومون بغزو السُهوب، وذلك عندما تضطربهم الحاجة إلى الرعى في اتجاه الجنوب، الأمر الذي يعرضهم للخطر، مثلما حدث في العام الماضي.

تتمثل أقوى القبائل من حيث مسألة الإبل، في كل من قبيلة المُره، المناصير، والمناهيل وأيضاً السَّعارين إلى حد ما. وقد تحللت قبيلة الرشيد في السنوات الأخيرة من السلب والنهب الذي تقوم به قبيلة السَّعارين، إلى حد أن الرشيدى الذى يمتلك في الوقت الحالى خمسة من الإبل يعد من الميسورين إلى حد ما، ومن يمتلك عشرين من الإبل يعد من الأثرياء، أما الرقم مائة فهو حد الرفاه من الغنى والثراء؛ هذه المتوسطات أعلى بكثير عنها عند المُره. من هنا، فإن الراوى الرشيدى الحسود الذى يرافقتى، عندما همَّ بالتأكيد على ثروة قبيلة الرشيدى، تناول، وهو يبتسم ابتسامة معروفة لنا نحن الغربيين من خلال العهد القديم، حفنة من الرمل، وجعلها تتسرب من خلال أصابعه، وراح يقول : "والله! فلان الفلانى، يمتلك أربعمائة من الإبل، وهو ليس شيخاً، وليس لديه نقود، أفضل من ملابسى".

سألته: "ما الذى حدث للحليب؟".

ورد علىَّ قائلاً: "أعط الرجل المزيد من الحليب، وسوف ترى أن لديه ضيوفاً كُثراً؛ يضاف إلى ذلك أن جيرانه ينتظرون منه هذا الحليب، هم وعابرى السبيل. وما يزيد على ذلك يجرى إعطاؤه للإبل الصغيرة".

يفى وبر الإبل على وجه التقريب بكل الاحتياجات المنزلية القليلة اللازمة لحياة الرُّحْل - قماش الخيام، الحبال، أحزمة السُّرُج، ومختلف الزركشات. وهنا أيضاً نجد أن الناقة، وإن شئت فقل أنثى الجمل، هي الجنس الأكثر نفعاً. كتفا الناقة هما وظلها تعطى صاحبها كل عام هو وخنجره، المادة الخام التي تقوم النساء بنسجها وتصنيعها، من منطلق أن النسج مهنة نسائية؛ ومع ذلك، فإن المرأة ليست ممنوعة من حلب الإبل، كما هو الحال عند الرشيد والعوامير، الذين يشاركون أهل الجبل في منع النساء من حلب النياق؛ وعلى الجانب الآخر، نجد أن المرأة والمناصير، والسَّعَّارين وكذلك قبائل السهوب في حضرموت ليس لديهم حظر من هذا القبيل.

بدو الرمال يستعملون نوعين من سُرُج الجمال (عُدَد الجمال). أولهما، السرج ذو العمودين- ويطلقون عليه اسم الشَّدَاد- وهو يوضع فوق سنام الجمل. هذا النوع من السُّرُج هو المعتاد في بقية الجزيرة العربية، ولا يستعمله سوى قبائل المرأة، السَّعَّارين، والكرابين في الربع الخالي. أما باقي القبائل الأخرى كلها، كما هو الحال في عُمَان، وفي سائر أنحاء الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية بكامله، فتستعمل السرج الذي يطلقون عليه اسم الزَّانة، وهو عبارة عن إطار خفيف صغير (بلا أعمدة)، ومغطى بجلد ماعز ويجرى وضعه خلف سنام الجمل. هذا يعنى أن توزع سُرُج الإبل هو توزع جغرافى؛ هذا يعنى أيضاً أن القبائل الموجودة على الجانب الغربى من خط سبرى تستعمل الشداد، فى حين تستعمل القبائل الموجودة على الجانب الشرقى السرج الذى يطلقون عليه اسم الزانة.

ومن هنا يمكن القول أيضاً أن الرمال تعرف لهجتين عربيتين، لكننا هنا نجد أن الانقسام أَرْضى. هناك اللهجة الشمالية أو اللهجة المِريّة إن شئت، واللهجة الجنوبية، أو اللهجة الرشيدية، إن شئت. وهذه اللهجة الرشيدية ينطق بها أيضاً العوامير^(١) الموجودون في الشمال الشرقى. وتتمثل الفروق الرئيسة بين اللهجتين

(١) كثير وعامر هما سلفا كل من الرشيد والعوامير، وإنهما كانا.. على حد ما ورد فى الموروث - أخين من أبناء حمدان Hamdan . وهناك تعبير شائع على لسان الشيخ صالح: "أقسم بسنن (قواعد) كل من عامر وكثير؛ يضاف إلى ذلك أن حضرموت لها أيضاً لهجاتها الخاصة بها.

الشمالية والجنوبية في المفردات^(١)، وهناك فرق كبير آخر يتمثل في تغيير نبرة الصوت. كان حمد بن هادي قد تطوع بمعلومة مفادها أن أهله وناسه يتكلمون لهجة غربية، نظراً لأن المرأة، على حد قوله، منحدرتة عن كافر؛ لكن الرجل في وجود الأعضاء الآخرين من قبيلته كان يصحح كلامه، ويتفق الجميع على أصل مشترك مع العجمان، أي أن هذه القبيلة - من نسل يام yam. لكن الحد الأصلي لهذه القبيلة من ناحية الأم، هو من الجن، يرحمك الله.

وإذا كان تعدد الزوجات أمراً مسموحاً به، فإن البدوى يندر أن يجمع بين أكثر من زوجة في آن واحد، وذلك على الرغم من أن البدوى عندما يكون ميسور الحال قد تكون له زوجتان أو قد يُطَلَّق ثم يتزوج مرة ثانية. والبدو لا يعرفون مطلقاً مسألة أن يعيش رجل وامرأة معاً دون أن يكونا مرتبطين بالزواج، وهذا الأمر يعد مستحيلاً في المجتمع القبلي الذي تعد حرية الفرد فيه أمراً ثانوياً أمام مصالح العشيرة وأمام ذرية هذه القبيلة، هذا بالإضافة إلى أن الدستور الأخلاقي لهذا البدوى متأصل من خلال خبرته الطويلة، فضلاً عن أن ذلك البدوى مؤمن أيضاً ضد التأملات والتكهنات الفلسفية الصادرة عن كبار الأساتذة العُزَّاب. يزداد على ذلك أن أي شكل من أشكال الزواج لا يُعتدُّ به إلا إذا كان "بعقد" صادر عن

المُرِّي	الرشيد	(١) من ذلك على سبيل المثال:
قداما	قيروس	الخبز غير المخمور
إدفا	خاونجا	القط البري
حاديبا	جاداً	إستيس/ سهب
إلهيم	عتيله	آلة الحفر

سبق أن أشرنا إلى أن الحرف y يحل محل الحرف j في اللهجة الرشيدية. لم نصادف في أي مكان تحول الجيم chim إلى كاف kaf، وذلك على الرغم من شيوع ذلك بين قبائل المطير، وعتيبه، وعجمان، والدواسر... إلخ وكلها قبائل إخوانية(*)؛ حيث نجد الحرف G يحل محل الحرف q حيث ينطقون القاف (جاف)، وهذا ليس موجوداً بين البدو؛ كما أن صيغة الفاعل والمفعول قاد qad، الموجودة في اللهجة العراقية شائعة في جنوب الجزيرة العربية. (وفي اللهجة المهرية واللهجات غير العربية نجد أن bir هي المساوي لهذه الصيغة).

(*) المقصود بالإخوان هم إخوان المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود. (المترجم).

قاضي^(١) من القضاة الرسميين، أو عقد زواج بتفويض، واحتفال كبير؛ وهذا كله يرمى إلى منع أطراف الزواج من تكسير هذه القيود أو الخروج عليها.

يقوم العريس المنتظر هو وممثل العروس، وغالباً ما يكون والدها، بالذهاب معاً إلى أقرب بلدة أو مدينة^(٢) حيث يوجد القاضي، لأن البشر هنا لا يعرفون مسألة خروج القاضي وذهابه إلى الصحراء. أصبحت هذه المنظومة تتيح لبعض رجال القبائل، الذين سبق لهم الحصول على امتياز الذهاب إلى البلدة أو المدينة للوقوف على مسألة الزواج بالتفويض، أمراً مألوفاً لدى السكان في المناطق الرملية النائية، مما أدى إلى أن تصبح أمراً وراثياً في القبائل. جرت العادة أن يقوم العريس بعد تحرير العقد بدفع المهر لوالد العروس ثم يقوم بعد ذلك بتقديم بعض المجوهرات الفضية للعروس بالإضافة إلى سجادة بمثابة مُتْكَأ للزواج (وعند الرشيد يتحتم على العريس إقامة وليمة) قبل إتمام الزواج ويعد تقبيل الأنف بمثابة قبلة سرير الزوجية.

يعامل الرجل المرأة على إنها أقل منه، أو قطعة من الأثاث. وربما يصدق هذا على البيئة الصحراوية، حيث تعد اللياقة البدنية المستمرة، هي والقوة الوحشية، وكذلك الطابع العدواني تعد أموراً تتطلبها الطبيعة وتكافئ عليها. وبدو قبيلة المرأة يقرون مسألة ضرب المرأة على الأخطاء التي تقع فيها كل يوم، لكن الرشيد لا يقرون هذه المسألة.

تقوم سياسة الربع الخالي على العلاقات التي تربط القبائل بعضها مع البعض الآخر. وهنا نجد أن الاعتبارات الجغرافية تسمح بوجود ثلاثة تجمعات قبلية

(١) القاضي: هو واحد من مفسري الشرع، وقد يكون واعظاً عند السنين في بعض الأحيان، لكن هذا المفسر قد يكون، واحداً من رجال الدين، عند الشيعة في بلاد فارس وعند العراقيين أيضاً. مسألة إنشاء هرمية دينية أمر غريب على الإسلام، ويُعد سبباً في جبين الأصولية، وبخاصة عند الوهابيين.

(٢) تذهب قبيلة المناصير إلى القاضي الموجود، في أبو ظبي.

تذهب قبيلة العوامير إلى إبري، ضنك، وإلى البوريمي.

تذهب قبيلة الرشيد إلى ظفار أو ريشه.

تذهب قبيلة المرأة إلى الهفوف أو جابرین.

مستقلة: قبائل الرمال، الجيران الذين يسكنون السهوب الشرقية، ثم الجيران الذين يسكنون السهوب الجنوبية.

ثبت أن السكان الحقيقيين للرمال هي قبائل: المرة في كل من الشمال والشمال الغربي، والمناصير والعوامير في الشمال الشرقي، ثم الرشيد وبيت الإيماني في الجنوب.

قبل عشرين عاماً لم تكن هذه القبائل على وفاق فيما بينها. كان المرة والمناصير عدوين لدودين من قديم الأزل؛ وكان العداء بين العوامير والمناصير أشد وأقوى من ذلك بكثير. وقبيلة العوامير، التي كانت في يوم من الأيام قبيلة كبيرة جداً في جنوب الجزيرة العربية في الأماكن التي تسكنها في الوقت الحالي قبيلة الرشيد في رمال كل من دكاكا، صواحيب، حباك، وغانيم، أضعفتها الصراعات غير المتكافئة مع المناصير؛ هذا في الوقت الذي حققت فيه قبيلتا المرة والرشيد انتصارات كبيرة في الماضي. لكن السلام، سلام بن سعود، يسود الآن في سائر أنحاء الرمال. نفوذ الحاكم المركزي للجزيرة العربية، الذي فوّض سلطته لابن جلوى، حاكمه المنوب في الهفوف، هو الذي يفرض السلم بين كل هؤلاء الأعداء القدماء، وهذا لا يتم من خلال السيطرة المباشرة، لأنه لا توجد ولا يمكن أن تكون هناك سيطرة مباشرة، وإنما من خلال النفوذ الشخصي الهائل لعبد العزيز بن سعود نفسه. معروف أن الإيمان بالقوة الهائلة لهذا الرجل ونجمه الساطع قد اكتسحا مناطق الرمال في الصحراء. وهذا ليس من قبيل الحب، وإنما هو الخوف والفرع، اللذان يخدمان هذا التدبر العاقل والحكيم للأمر. وهذا هو رفيقى حمد بن هادي، لم يخضع بعد لابن سعود، لكنه يحترم الرجل خوفاً من الاعتقاد، الذي مفاده أن حاكم الرياض لديه من القوة ما يجعله يجرد حمد بن هادي من كل ما سلبه ونهبه عن طريق الغزو، أو يجعله فريسة لعدو من الأعداء. السلام القائم حالياً في منطقة الرمال مبني على هذه القناعة. من هنا نجد أن قبائل الرمال متعاهدة إلى حد ما مع ابن سعود. وهذه القبائل تدفع سنوياً لابن سعود جزية إسمية، وهذه الجزية تضمن الحماية المتبادلة لكل منهما. هذه الجزية تُدفع كل عام من الناحية النظرية، وبواقع دولار واحد عن كل رأس

من رؤوس الإبل. والرشيذ من الناحية العملية ليست لديهم نقود، وفي كل الأحوال يتهربون من دفع هذه الفدية أو الجزية، معتمدين في ذلك على وجودهم في أماكن نائية. ومع ذلك، يقوم الرشيذ من عام إلى آخر، وحسب الظروف، بإرسال جمل إلى ابن سعود على اعتبار أن ذلك إشارة إلى خضوع الرشيذ لابن سعود. ومع ذلك، وعندما تسقط الأمطار على الرمال الشمالية، ينتقل الرشيذ إلى الشمال، وهذا يحتم عليهم الوفاء بمتطلبات جُماع الضرائب، وهنا يقوم الرشيذ ببيع بعض الإبل حتى يمكنهم الوفاء بهذه الطلبات.

وعلى الرغم من خفة هذا التعاهد أو الارتباط، فإن القبائل تتذمر منه. هذه القبائل لا تتعاطف مع المثل العربي، الذي ظهر، ونحن على يقين من ذلك، في المدينة، ويقول: "السلطان الحائر أفضل من الشجار الدائم"، هذا يعنى أن هذه القبائل تؤثر الحرية غير المقيدة على السلم مدفوع الأجر؛ وهذا أمر يجرى في دماء هذه القبائل. كل هذه القبائل تقسم أن السلام القائم سيظل قائماً طالما بقى النظام القائم حالياً في الرياض. لكن إذا ما فقدت الرياض أو الهفوف سلطتها فإن ذلك سيؤدى إلى عودة الغزو على الفور، وانسياب وإهدار الدماء من جديد. هذه الصورة الذهنية ليست غريبة على الربع الخالى. وهنا نجد أن طالب العلوم السياسية سوف يعيد إلى الأذهان أمثلة كثيرة من التاريخ الحديث للجمهورية البريطانية.

وقوف البشر على هذا التعليق غير المسبوق للصراعات الدموية، وبخاصة أن هذا التعليق ناجم عن حكم مطلق لكنه يمتاز بالعطف والرحمة، هو الذى شجعتنى على القيام برحلتى عبر ميادين القتال القديمة (والمستقبلية) في هذه الرمال.

تأثرت سياسة السهوب الشرقية هي الأخرى، بنفوذ ابن سعود، على الرغم من تباين هذا التأثير من عام لآخر. ونحن نجد في هذه السهوب الشرقية، أن التجمعات تلتف حول تحزبات وراثية قديمة، وإن هذه التحزبات هي تحزبات هناوية Hinawi وتحزبات غفارية Ghafari سبق الإشارة إليها - العوامير، والهراسيس Harasis، ومعروف أن الأفاريين ينتمون إلى العوامير، كما ينتمى

الدروع^(١) والبو شميمس إلى الحزب الغفارى، لكن صراع كل هؤلاء ونضالهم ليس لهما صدى فى منطقة الرمال.

تُعد سياسة السهوب الجنوبية متحررة تماماً من نفوذ ابن سعود؛ يضاف إلى ذلك أن القبائل الكبيرة مثل قبيلة السَّعَّارين، والمناهيل، والكثيريين، والمهرة، ومعها أيضاً القبائل الأقل منها؛ مثل: الكرابين، اليام، النهارين، والنبسين تشكل كل منها قانوناً خاصاً بها. وتعد قبيلة السَّعَّارين أقوى عنصر فى هذه القبائل. يزداد على ذلك أن قبيلتي النهادين والكرابين تعملان فى وئام مع قبيلة السَّعَّارين، فى الوقت الذى تستطيع فيه بعض عناصر القبائل الأخرى، التوحد بعضها مع البعض بغية القيام بغزو محدد؛ ومع ذلك فإن سكان هذه الرمال لا يعرفون العمليات الحربية المنظمة أو طويلة الأجل. وهذان الأمران لا يمكن أن يحدثا نظراً لأن كل رجل من الرجال لا يكون معه سوى عشرين طلقة على وجه التقريب، كما أنه هو الذى يقوم على حراسة ماشيته اللهم إلا عندما يضطر إلى القيام برحلة إلى الساحل كيما يبيع جملاً أو جملين. وتأسيساً على ذلك؛ فإن حروب هذه القبائل تكون متقطعة وإن الهدف منها أولاً وآخرها هو السلب والنهب.

وهنا يمكن القول: إن قبيلة السَّعَّارين هى وحلفاءها يشكلون اليوم أخطر تهديد للسلام فى الرمال الجنوبية. ولما كانت هذه القبيلة قوية من الناحية العددية - قرابة ألفى بندقية - فهى تستمد قوتها من بعدها، ولذلك رفضت قبيلة السَّعَّارين استقبال وفد مُرَّسل من قبل ابن سعود.

(١) هناك مقولة تقيد أن الدَّعَّارين والمناهيل من أصل مشترك، ولكن المصادفة العجيبة جعلتهما تنتميان إلى حزين متعارضين.

الفصل العشرون

من بانيان إلى البحر: المرحلة الأخيرة

أمضينا اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير فى نيل قسط، من الراحة فى بانيان بعد مسير دام ثمانية أيام عبر منطقة الرمال الوسطى- وكان لابد من عمل هذه الوقفة لإنعاش كل من الجمال والرجال. تجمعنا حول نار المخيم أثناء الليل- وثبت أن تلك الوقفة كانت بمثابة الجلسة الأخيرة فى هذا المسير الطويل- وبعد أن أشرفت الرحلة على نهايتها رحلت أتخلى عن تحفظى المعتاد.

كانت بطاريتى (شعلتى) الكهربائية مثاراً للدهشة والتعجب من جانب رفاقى، وطرحوا على هذا السؤال المهم، "هل يمكن بواسطة هذه الشعلة (البطارية) الكهربائية اقتفاء أثر جمل مسروق فى ليلة ظلماء؟" كان أول بدوى يضع يده على الطرف المضاد من الشعلة قد اكتشف أنه لم تكن فيه حرارة. وحذا الآخرون حذوه، بعد أن لفت انتباههم إلى هذه المعجزة. حذوا حذوه، وبدلاً من الإحساس بالحرارة رأوا الظل أو الطيف الأحمر للدم، كما شاهدوا أيضاً ظل عظام الأصابع، وهنا انفجر هؤلاء الرفاق معبرين عن دهشتهم- "لا إله إلا الله". المؤكد أن قبيلة هذا الصاحب لابد وأن يكونوا رجالاً "أقوياء"، كان من نافلة القول أن أقول لهم إنى لم أصنع هذه الشعلة، وذلك من منطلق، أننا لازلنا نصنع المزيد من الأعمال المعجزة والعجيبة - البنادق والذخيرة!

سألتنى واحد من البدو وهو يداعب بندقيته، "من الذى يصنع البنادق؟".

قال بدوى آخر دون أن يرفع رأسه إلى الأعلى:

"الكفار هم الذين يصنعون هذه البنادق".

صححت له كلامه وقلت: "نحن مؤمنون".

"وإن قُدِّر لنا أن نأتى إلى بلدكم فهل ستكون مرافقاً لنا، أيها الصاحب، حتى لا يصيبنا أحد بأى ضرر من الأضرار؟".

"المرافق لا لزوم له فى بلدى".

تساءل حمد، "لكن، إذا ما قتلنى أحد وكنت أنت مرافقاً لى فما الذى يمكن أن تفعله؟".

لكنى أقول: لن يقتلك أحد. غير مسموح فى بلدى لأى أحد، بحمل السلاح. أحسست وكأنهم يقولون فيما بينهم وبين أنفسهم: "يا له من مكان! لا يصلح إلا للنساء والعبيد".

"هل سيكون من حقنا الحصول على حليب الإبل كيما نشريه؟".

استدرت إليه معتذراً وقلت: "ليس لدينا إبل"، لأنى كنت أعلم أنه سيكون هناك بعض الملاحظات.

"إذن، ما الذى لديكم؟ أغنام؟ أبقار؟".

قلت: "نعم، لدينا أغنام وأبقار، لكننا نصنع السفن والبنادق وكل الأشياء التى تصنع من الحديد الذى يأتى من الأرض".

أردف الشيخ صالح فى شىء من المباهاة: "هذا صحيح، لقد سمعت أن منصورياً من أبى طبى يقول إن نصرانياً جاء إلى الشيخ وأبلغه أن بلاده فيها ساق من الحديد على هذه الشاكلة" وهنا قدّم مشعابه، "وأن هذا القضيب الحديدى يمكن أن يصنع خمس بنادق".

قالت جوقة من البدو: "لا إله إلا الله".

تناول أحدهم الشعلة (البطارية) مرة ثانية وقال: "إنها ثقيلة"، قال آخر: "يا الله! إنها ثقيلة". قال هذا الكلام وهو يأخذ الشعلة من يد رفيقه.

صالح: "إنهم بشر غير سهلين" (يقصد: أنهم ليسوا قبيلة ضعيفة، حتى يعامل أهلها معاملة الاحتقار والازدراء).

قلت: "بداخل الشعلة (البطارية) جُوهٌ (يقصد قوة) (وهذه كلمة يوقرها البدو) أكثر قوة من الطلقات، وقادرة على قتل البشر".

"لكن لماذا نقتل البشر؟".

رددت عليه قائلاً: "السيئين من البشر، القتلة من البشر".

"حقاً، وهذا عين الصواب أيضاً- "العين بالعين والسن بالسن"- هذا هو شرع الله".

"لكن هل لديكم دية؟".

"إذاً، فإن شقيق القتل أو ابن عمه لا يحصلان على دولار واحد".

كررت الكلام قائلاً: "حتى ولو دولار واحد" قلت ذلك من أنه سيكون هناك ملاحظات جد قليلة بعد ذلك.

"لكن هل تعرفون مفهوم الدخيل؟".

"لا، شيخنا قوى، ولن يجرؤ أحد أن يكون دخيلاً لقاتل من القتلة".

قال الشيخ صالح: "لكن الدخيل عندنا مكرم، اللهم إلا إذا كانت عملية القتل تنطوي على شيء من العار أو الخزي، والتي منها، على سبيل المثال، المرافق الذي يخون رفيقه وببيعه". ويواصل الشيخ صالح كلامه، وهو ينتقل بناظره بين مرافقيه وإخوانه، "يا لهذا الإنسان الطيب الذي يعيش في هذه البلاد، من ذا الذي يمكن أن يُعَنَّفَ دخيلاً من إنسان قام بقتل عدوه؟".

قالت جوقة من البدو: "إي، والله!".

قال واحد منهم بعد فترة صمت قصيرة. "أين اتجاه بلدك، أيها الصاحب؟".

أشرت بمشعابي في اتجاه الشمال الغربي.

"كم يبعد عنا هذا البلدة؟".

أجبتة قائلاً: "حَوْلٌ، مسير عام كامل، من رمضان إلى رمضان، بنفس المعدل الذى نسير به الآن".

قالت جوقة من البدو: "لا إله إلا الله".

تدخل صالح مقاطعاً الحديث: "وأين يكون اتجاه بلدك، من الواقف فى مكة المكرمة؟ صالح هذا بدوى من جنوب الجزيرة العربية قام بأداء فريضة الحج".

أشرت مثلما فعلت من قبل وانحرفت أكثر إلى اتجاه الشمال.

"كم يبعد بلدك عن مكة؟".

"المسافة نفسها التى يبعدها من هنا".

"إذن، فبلدك يقع وراء البحر، أيها الصاحب؟".

قلت: "هذا صحيح، إنه يقع فعلاً وراء البحر".

"وما هو ذلك الذى يقع بعد بلدك؟".

قلت: البحر أيضاً".

سألنى طالب، "أين يوجد بحر بارطول، تحول الرجل ناحية رفاقه ليقول لهم إن تلك هى نهاية العالم. لا يوجد شئ بعد بلدى. كان ذلك هو البحر السابع والأخير- والله أعلم".

شعرت بأنى قد قمت بدورى فى رواية هذه القصة، وأنى كنت مستمعاً جيداً وشغوفاً، عندما انبرى واحد من البدو يروى لنا قصة عن ذياب بن غانم. كان ذياب واحداً من نبلاء بنى هلال، لكن مظهره كان يوحى بأنه عبد من العبيد. وأن ذياب بن غانم، فى ذلك اليوم الأسود الذى قُتل فيه يوسف وأُسِر فيه كل من ذياب وأبى زيد ومعهما بريقه، كان مظهر ذياب بن غانم هو الذى أنقذهم من السَّجْن المشدد، لأن الخصوم كانوا يظنون أن ذياب بن غانم لا وزن ولا قيمة له.

كان ذياب بن غانم أول من جرى ضمه إلى البنائين فى عملية ترميم قلعة الزناتى. لكن افتقار ذياب إلى المهارة، هى التى جعلت الأحجار التى كان يرفعها الرجال فوق القلعة، تهوى نظيفة لتسقط على الجانب البعيد من الصحراء، ومن

هنا قال أولئك الذين أسروا ذياب: "هذا العبد لا يصلح لهذا العمل، سوف نجعله يرعى القطعان". وعليه أعطوا ذياباً قطيعاً من البقر، لكن ذياب أهمل في إيراد ذلك القطيع من الأبقار على الماء، الأمر الذي جعل ذلك القطيع يوشك على النفوق. وعندما وجد سادته، أنه لا يصلح لأن يكون راعياً للأبقار، أوفدوه مع قطيع من الحمير إلى الحرش لإحضار شيء من الحطب. وفي منطقة الحطب قام ذياب بن غانم بقطع عصاتين طويلتين وجعل لهما طرفين مدبيين، وغرس العصاتين المدببتين في ظهرى حمارين لكي يصنع منهما حاملاً يضع عليه الحطب الذي جمعه. وبذلك تمكن زياد بن غانم من إحضار حمل كبير من الحطب لسادته. كان أول انطباع لسادته يوحى بالفخر والثناء، لأنهم لم يعرفوا أو يقفوا على الحيلة التي لجأ إليها لإحضار هذا الحمل الكبير من الحطب؛ لكن هؤلاء السادة، بعد إنزال حمل الحطب، وجدوا أن الحمارين قد نفقا. وهنا هز أهل عريشه رؤوسهم وقالوا: "إن ذكاء ذياب من النوع الضعيف" إنه لا يصلح لأى شيء سوى أن يكون راعياً للإبل؛ سوف نخصصه لرعى إبل بنى هلال، أقصد الإبل التي قمنا بالاستيلاء عليها؛ وبذلك يكون ذياب قد حقق الهدف الذي كان يبتغيه. ومع مرور الأيام تحسّن حال الإبل، وهنا بدأ ذياب يحظى برضى سادته عنه. وفي كل مرة كان يسقى فيها الإبل، كان يختار ثقباً أبعد من حيث المسافة عن الثقب الذي سقى منه الإبل في المرة السابقة، الأمر الذي أسفر عن غياب ذياب ساعات طوالاً عن سادته، دون أن يثير شكوكهم، إلى أن جاء اليوم والنقطة التي يمكنه عندهما الهرب والعودة إلى بلاد بنى هلال ومعه الإبل. ومن باب التحوّل للمرة مخافة أن ينقلوا أخباره إلى الزناتى، ركب جملة ووجهه إلى الخلف في اتجاه عريشه، وغطى رأسه بالطين، كما وضع الطين أيضاً تحت فخذيه^(١). وبذلك تمكن ذياب من العودة إلى بنى هلال. وبعد أن استمع الشيخ حسين بن سرحان، إلى قصة ذياب بن غانم قرر وخطط لإنقاذ كل من أبى زيد وبريقه، وفي الوقت المناسب بدأت القبيلة عملية الإنقاذ، ووصلت إلى بركة معطرة ينتهى إليها ثلاثة من

(١) أنا هنا أروى القصة كما رويت لى، لكنى لا أعرف ذلك المقصود به هذا الطين، ولو كنت سألت عن المقصود بذلك الطين، لكان الراوى قد قطع خيط قصته.

الوديان. وراح بنو هلال يتشاورون بعضهم مع البعض وقرروا أن يتركوا نساءهم وحيواناتهم مع ستين خيلاً يقومون على حماية هؤلاء النساء وتلك الحيوانات، في حين قام القوم (باقي أفراد القبيلة) بالذهاب إلى بلاد (ديرة) الزناتي، لكنهم غيَّروا خطتهم في الصباح، وقالوا إنهم سيجعلون ذياب يقوم بهذه الحماية بدلاً من الخيالة الستين.

قال الشيخ لذياب وهو يودعه: "الإبل والنساء في حمايتك، احرسهم بروحك". ويرد عليه ذياب: "إذا ما فقدنا أحداً منهن أو حيواناً من الحيوانات، فسوف أضحي بحياتي من أجله".

جاء تلك الليلة جنٌّ كان يتجول في الوادي ليعرف أولئك المخيمين في الوادي. كان الجن يحمل في يده رمحاً ضخماً، وراح يدخل ويخرج بين الإبل، وهو يبحث عن أفضلها وأسمنها، وبعد أن عثر على ضالته ضربها برمحه، وحمل الجمل المصاب على كتفه وراح يتجه إلى أعالي الوادي. ويגיע الجن في الليلة التالية مرة ثانية إلى حد أنه عندما طلع النهار اكتشف ذياب غياب جمل آخر.. وعندما حدثت زيارة أخرى في الليلة الثالثة، تملكَّ الرعب المخيم بكامله، لأن أحداً لم يرَ الجن سوى امرأة ذياب بن غانم، وخافت المرأة من الحديث عن هذا الأمر خوفاً من انتقام الجن منها، وعندما تمعن ذياب في صمت زوجته العجيب، سألها، لكنها لم تُجبْ عن سؤاله. وهنا استل ذياب سيفه وطعنها وهو يقول: "يا امرأة! خبريني بذلك الذي تعرفينه وإلا قتلتك"، وهنا حكَّت له زوجته حكاية الجن الذي جاء إلى الوادي، وكيف قام ذلك الجن بطعن الجمال بالرمح وحملها وهرب بها.

أوفد ذياب عبده، في صبيحة اليوم التالي، لاقتفاء أثر الجن، ويأتيه بأخبار عن المكان الذي يسكنه الجن ويصل العبد إلى بئر ناجمة عن سقوط نجم من النجوم، ورأى العبد الجن داخل هذه البئر، وكانت بقايا عظام الإبل مبعثرة حول فوهة تلك البئر، وبذلك يتمكن العبد من جلب أخبار لذياب عن الجن. وهنا امتطى ذياب صهوة فرسه وذهب إلى البئر. وعندما وصل إلى البئر هب الجن واقفاً ليكشف عن أبعاده الضخمة، ذلك أن جسم الجن وهو داخل البئر مثلما هو عليه خارجه.

صاح الجن قائلاً: "آه! يا ذياب بن غانم! هل جئت لتأكل أم لتقتل؟".

أجابه ذياب: "جئت للأكل وللقتل"، ثم استل سيفه وضرب الجن ضربة شديدة قسمته إلى نصفين، كان نصف منهما داخل البئر أما النصف الآخر فكان خارج البئر.

قال النصف العلوى من الجن: "هين" - بمعنى اضرب مرة ثانية. لكن ذياب رد عليه قائلاً:

"ما أثنى" "بمعنى أنا لا أضرب مرتين"

ولا زنى "لا أزنى"

ولا أكل الجن أكون؛ "ولست طعاماً لأمثالك".

ذلك لأن ذياب بن غانم كان يعرف ذلك الذى يعرفه الناس جميعاً، وهو إذا كان يسقط، فإن الضربة تقتل جنأً، وإن الضريبتين تعيدان جنين إلى الحياة.

وعاد ذياب إلى المخيم ليجد أن القوم (أفراد القبيلة المحاربين) عادوا لتوهم من مهمتهم، لكن يا أسفاه! لم يعرف أن ثلاثة من أبنائه قد سقطوا فى القتال ومعهم عمر بن خفيات، ذلك المحارب المحبوب الذى كانت أمه من بنى هلال. يضاف إلى ذلك أن القوم كانوا مرتبكين فيما بينهم عمّن يقوم بتوصيل هذا الخبر إلى ذياب، الذى سوف يدق بسيفه عنق ذلك الذى سينقل إليه هذا الخبر المؤلم. ونظراً لأن الناس كانوا يعرفون أن رمح ذياب لا يضل أو يخطئ هدفه مطلقاً، وأنه إذا ما جرى رميه فلا بد أن ينغرس فى لحم البشر، وأن ذلك كان "مكتوباً"، وأن هذا الرمح إذا ما ضل طريقه أو أخطأ هدفه فإن ذياب سيموت فى اليوم نفسه.

ولم يكن أحد من أفراد القبيلة على استعداد لإبلاغه ذلك الخبر، وعليه تقرر إرسال داليان، العبد، لأن أفراد القبيلة قالوا فيما بينهم: "لو مات داليان فليمت؛ ولو قدر له العيش فإنه سيعيش ليكون عبداً ليس إلا".

طلب داليان أن يأتوه بأسرع فرس بين الخيول، وأعطوه تلك الفرس، وركب داليان الفرس قاصداً المكان الذى فيه ذياب وأوقف الفرس على بعد مسافة كبيرة.

صاح ذياب منادياً داليان: "خبرنى، يا داليان، وأنت تعرف بأنى واحد من أبناء الظلام، كيف دارت المعركة، وخبرنى أيضاً عن شجاعة أبنائى وكيف حالهم".

ويرد عليه العبد قائلاً:

فيما يتعلق بإبلك وأبنائك، فقد ضاع الأفضل منها. أبنائك الثلاثة ومعهم ابن خفيات. أشجع شجعان القبيلة وزمانها.

وعندما أدار العبد ركوبته وراح يعدو بها، أمسك ذياب رمحه وأرسله فى أعقاب العبد داليان؛ لكن داليان كان منحنياً فوق فرسه، ويمر الرمح من فوقه ليسقط على الأرض على بُعد بضع خطوات وينغرس فى رأس ثعبان.

صاح ذياب: "يا الله! لقد أخطأ رمحى هدفه. وأنا هنا يتعين على الذهاب إلى المكان الذى ذهب إليه المقتول".

صاح العبد متجهاً إلى الخلف: "سَلِّمْنى" بمعنى أَمْنى من الأذى، "وسوف أعطيك خبراً طيباً".

ذياب: "فى وجهى".

العبد: "الحمد لله! أدعو لك بطول العمر!".

واصلنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد، فى المنطقة الوهابية^(١) - موطن الإخوان المذهبيين أو الطائفين. أسرعنا خطانا فى هذه المنطقة. وكنا فى كل ساعة تمر علينا نقوم باستكشاف ومسح الآفاق بحثاً عن متطهرى الإسلام الذين كنا نخافهم ونخشاهم، وبخاصة أنهم بشر متزمتون يرون أن من الفضيلة ليس فقط قتال الكفار وحسب، وإنما أيضاً قتال المهرطقين الإسلاميين، الذين يحددونهم بأنهم هم أولئك المسلمون الذين لا يعترفون آراءهم الضيقة. كان رفاقى واثقين ومتأكدين من أن التسكع لا مجال له فيما نحن قائمون به، بما فى ذلك أن المجال لم يكن يسمح لى بتدوين ملاحظاتى، فى هذه المنطقة الواقعة بين هذه

(١) أطلقنا هذا الاسم تأسيساً باتباع القواعد الدينية التى أرساها محمد بن عبد الوهاب النجدى، ذلك المصلح الدينى الذى عاش فى القرن الثامن عشر. حل إخوان القرن العشرين محل هؤلاء الإخوان وأحيوا تعاليمهم.

المنطقة والساحل، وكانوا جميعاً متأكدين من أننا إذا ما صادفنا آثار تدور من حولها الشكوك، فإننا يجب علينا عدم الإقدام على المخاطر، وأننا يجب علينا التوقف في البرية أثناء النهار، على أن نواصل المسير أثناء الليل. ومن يُمِن الطالع أن مسألة قيامي بعمل الخرائط لم يُفرض عليها القيد الثاني لأننا كنا في شهر رمضان، يضاف إلى ذلك، أن قبائل الإخوان كانت قد انسحبت إلى منطقتي جوب والجافورة بسبب شهر الصوم.

قال حمد مرافقي متعجباً: "ربنا يكفيننا شرهم" (١).

كان مسارنا في بداية الأمر عبر سهب حصوى ساطع اللون وفيه حصوات لها لون الكافور أو الحنطة أو اللون الأخضر المائل إلى الزرقة؛ ودخلنا بعد هذا المسار إلى حقول ملحية كبيرة بيضاء اللون، فيها هنا وهناك قطع رطبة كبيرة الحجم.

ومن يمن الطالع أن المطر الذي سقط مؤخراً لم يحول القشرة السطحية في هذه الحقول الملحية، إلى وحل شحى القوام يعرقل مسير الإبل. دخلنا بعد ذلك إلى منطقة من الرمال فاتحة اللون، ووجدنا داخل هذه الرمال منخفضاً شبيهاً بالوادي وعامراً بالحياة النباتية (٢)، يطلق الناس عليه هنا اسم جوب ضيبي، الذي اتخذنا منه مكاناً نصبنا فيه خيامنا، فضلاً عن كون هذا المكان ملاذاً للضباع، والقطاط البرية، والسحالي فضلاً عن حيوانات السهوب الأخرى، وقد تعرفنا هذه الحيوانات من آثار أقدامها المنتشرة في هذا المكان.

كانت طبيعة منطقة جيبان التي كانت تنتظرنا طوال الأيام القليلة القادمة، مماثلة لطبيعة المنطقة السابقة لها؛ كانت طبيعة منطقة جيبان عبارة عن شرائط متبادلة من السهوب، السهوب الملحية، والتلال الرملية المنحدرة مع وجود منخفض رملى أخضر اللون شبيه بذلك السهل الموجود في ضيبي على بعد مسافة تقدر بمسير نصف يوم من كل من خاريت ثوريّه، صوفيّة ولزّيه. كانت السهوب مغطاة بطبقة من الحصى والجبس، فضلاً عن فقاعات سوداء اللون وبيضاء اللون، وكذلك فقاعات حمراء وخضراء اللون، كانت تسطع في ضوء الشمس؛ كانت

(١) الكلمة الإنجليزية evil مستعملة هنا لتعني المساوئ على اختلاف أنواعها، أى الغزو والمرض.

(٢) الحياة النباتية في هذا المكان مكونة من الشنان، ونبات الغاضة، وحيوان ذكر الطرثوث والسعدان.

سهول الشمال الملحية عامرة بأصداف صغيرة لا تُحصى أو تُعد^(١) فى مرحلة باكرة من التحجر؛ كانت الوديان الموجودة فى التلال الرملية تنتشر هنا وهناك بلونها الأخضر الفاقع الناجم عن نباتات الحرام التى تحيط بها، وكانت ألوان البعض منها أرجوانى أو أبيض وتحيط بها طبقة من الجبس؛ وهنا فى هذه الوديان قمنا نحن أيضاً بحفر ثقب ضحلة كيما نحصل منها على الماء لنا ولماشيتنا.

زد على ذلك أنه قبل منطقة لزب، كانت هناك سلسلة من الجبال والمرتفعات فريدة من نوعها. كانت تلك السلسلة تمتد شرقاً وغرباً على مدد الشوف، وترتفع فى جانبها الجنوبي إلى قرابة مائتى قدم، وتنحدر فى اتجاه الشمال على شكل رمال متدحرجة ضمن مَحَجَرٍ منعزل. كانت هناك خفافس كثيرة سوداء الضلوع تسعى بين غصينات الحشائش حديثة النمو، التى تعد بمثابة الثمار الأولى لهذه الكمية الصغيرة من ماء المطر. الناس هنا يقولون: إن هذه الحشائش حديثة النمو، التى يطلقون عليها اسم العُشُوب، تنتج ألدَّ ألبان الإبل؛ ومن هنا كان لابد لنا من التوقف بين الحين والآخر بغية ترك إبلنا ترعى بعض الوقت فى هذه العشوب.

كان طالب، ذلك الرجل من قبائل المُرَّة الشمالية، قد أيد مسألة جعل حمد مرشداً لنا فى مستنقعات هلاوين الشمالية، وجاء ذلك التغيير إلى الأسوأ، على الرغم من حتميته، نظراً لأن حمد هو الرجل الوحيد من بين أفراد الجماعة الذى كات لديه معرفة بالطبيعة المحلية فى هذه المنطقة. ثبت لى خطأ المعلومات التى أعطانى حمد إياها عن ثقب الماء، وبخاصة عندما رحت أسأله عن حقيقة هذه المعلومات، التى أقسم أنه لم يقل سوى الحق عندما قال: "بحق من خلقنى وخلق الشمس". وهنا راودنى إحساس يقينى أن الرجل لم يكن ينوى خداعى، ومع ذلك فإن المرعى والحطب الذى وعدنا به لم يظهرها عندما توقفنا لقضاء فترة الليل. كانت تلك هى الاعتبارات المهمة عندنا كل مساء ونحن نتوقع الوصول إلى مكان التخيم، وهنا بدأت الجماعة تشعر بالقلق والحرج. قال واحد من الجماعة: "يا عرب، ليس أمامكم سوى البرد والجوع".

غَيَّرْنَا اتِّجَاهَنَا لِيَكُونَ صَوْبُ الشَّرْقِ، الأَمْرَ الَّذِي نَجْمُ عَنْهُ أَنْ أَصْبَحَ الْكَثِيبُ الرَّمْلِيُّ الَّذِي يُسَمُّونَهُ عِلَامَاتِ النَّخْلَةِ، وَالَّذِي كَانَ مِنْ قَبْلِ عَنْ يَمِينِنَا، أَصْبَحَ الْآنَ عَلَى يَسَارِنَا؛ وَعِنْدَمَا غَرِبَتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ كُنَّا قَدْ أَدْرْنَا ظَهْرَنَا إِلَى ذَلِكَ الْكَثِيبِ الرَّمْلِيِّ، عِلَامَاتِ النَّخْلَةِ، وَبِذَلِكَ كُنَّا نَبْتَعدُ فَعِلَاءً عَنْ هَدْفِنَا، أَمَلًا فِي الْعَثُورِ عَلَى الطَّعَامِ وَالِدَفْعِ أَثَاءَ اللَّيْلِ. لَوْ قُدِّرَ لَتِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْ لِيَالِي الصَّيْفِ الْجَافَةِ لَكَلَفْنَا هَذَا الْخَطَأَ التَّضْحِيَّةَ بِحَيَوَاتِنَا. هَذَا يَعْنِي أَنْ بَدَوِيًّا وَاحِدًا مِنْ بَيْنِ كُلِّ عَشْرَةٍ مِنَ الْبَدُوِّ هُوَ الَّذِي يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مَرشِدًا جَيِّدًا، يَزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ بَدَوِيًّا وَاحِدًا مِنْ بَيْنِ كُلِّ خَمْسِينَ هُوَ الَّذِي يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَاوِيًّا عَلِيمًا. يَزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ الشَّكَّ الْمَتَبَادَلِ بَيْنَ الْأَعْضَاءِ الرَّشَادِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ وَبَيْنَ الْأَعْضَاءِ مِنْ قَبِيلَةِ الْمُرَّةِ، كَانَ لَهُ وَزْنُهُ أَيْضًا؛ لَقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ الشَّكَّ، أَنْ هَذَيْنِ الطَّرْفَيْنِ لَمْ يَكُونَا وَاثِقَيْنِ مِنْ دَوَامِ الْعِلَاقَاتِ الطَّيِبَةِ بَيْنَهُمَا - وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الدَّافِعُ وَرَاءَ عَدَمِ كَشْفِ هَؤُلَاءِ الْأَعْضَاءِ أَسْرَارِ مَنَاطِقِهِمْ. وَعَلَيْهِ كَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُرَّةِ، يَتَسَلَّلُ لِدِرَاسَةِ بَثْرٍ مِنَ الْأَبْيَارِ أَوْ مَرَعَى مِنَ الْمَرَاعَى، لَكِنْ هَذَا الْأَمْرُ لَمْ يَكُنْ يَعْنِي أَوْ يَشْغُلُ أَى فَرْدٍ مِنَ الْأَعْضَاءِ الرَّشَادِيَّةِ الْمُنْضَمِينَ إِلَى الْجَمَاعَةِ. وَهَنَا يَجِبُ التَّنْوِيهِ إِلَى أَنْ كُلَّ مَنْ يُوَدُّ الْقِيَامَ بِرَحْلَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْذُ الْبَدَايَةِ، جَمْعُ الْمَعْلُومَاتِ اللَّازِمَةِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ، وَبِذَلِكَ يَصْبِحُ فِي الْمَتَنَاوَلِ التَّأَكُّدُ، عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ، مِنْ صَحَّةِ أَيْةٍ مَعْلُومَةٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ.

كَانَتْ الْمَسِيرَاتُ الْيَوْمِيَّةُ شَبِيهَةً بِبَعْضِهَا الْبَعْضُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ. جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ أُسْتَيْقِظَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِسَاعَةٍ، عَلَى صَوْتِ مَرْزُوقٍ وَهُوَ يُؤَذِّنُ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ قَائِلًا:

"الله أكبر.

لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله.

الصلاة خير من النوم.

الصلاة خير من النوم.

الله أكبر.

لا إله إلا الله".

وتتطلق جوقة من التأوهات والمرأة من البدو وهم يشرعون فى الاستيقاظ ويؤمنون على الأذان قائلين: آمين!

وفى أغلب الأحيان يكون ذلك مصحوباً بصياح الشيخ صالح الأبو على ولده كلثوث، المتمارض، وبالتالى يتوانى فى مسألة الاستيقاظ.

وبعد أداء صلاة الفجر، ينفّض البدو، ويروحون يقودون إبلهم إلى المرعى الغريب، ثم يعودون لتناول الإفطار المكون من حفنة من التمر وشرية من الماء المالح. ولم يكن يدخل بطونهم أى صنف من صنوف الطعام طوال الساعات الإحدى عشرة التى تلى ذلك، يضاف إلى ذلك أن الماء لا يعرف طريقه إلى بطونهم طوال نهار الصوم؛ ومع ذلك كانوا جميعاً موافقين ومتفقين على ذلك. كان فطورى، أو بالأحرى تصبيرتى، أتناوله أنا مع الساعة الأولى لشرق الشمس، وكانت تلك التصبيرة أو الفطور مكوّناً من طبق من حليب الإبل وطبق من الشوفان- تلك الحمية الغذائية التى استمرت معى على مدى ثمانية وخمسين يوماً.

هذا يعنى أنه كلما كانت المراعى طيبة فإن ذلك كان يهيئ لى فرصة إنهاء وجبتى بطريقة مريحة، وكان يمكّننى أيضاً من الكتابة عن التاريخ الطبيعى للعينات التى كنت أجمعها وكذلك تدوين الملاحظات الأخرى قبل أن نستأنف مسيرنا من جديد، لكن المخيم عندما يكون بائساً وموحياً بالجوع، فإن ذلك كان يجعلنا نستأنف المسير وركوب مطايانا فور الانتهاء من تناول الوجبة، ونحن على يقين من أننا سوف نتسكع أثناء المسير بحثاً عن المرعى. كانوا يحضرون ناقة حملى فى بداية الأمر.

"يا الله، لا إله إلا أنت.

يا الله، يا من نركع ونسجد له".

كان البدوى ينطق بهذا الدعاء وهو يتناول مشعبه الملقى على الأرض على الرمل بين إصبعي قدميه الكبيرتين، ويروح يقتاد ناقة حملى ويجعلها تبرك قائلاً: "إخ، إخ" ويروح يربّت برفق بعصاه على الجزء الخلفى من ركبتى الناقة وفوق عنقها. ويجيء بدوى آخر ليساعده فى عملية تحميل الأمتعة، وبينما كانت الناقة تبرطم احتجاجاً، كان الرجلان ينشدان أنشودة مناسبة لعملية تبريك الناقة هذه وتحميلها.

كان كل البدو، جميعهم يقومون بعملية تحميل نياقهم وشرعوا يتحركون ماشين خلف هذه النياق، ومع أول خطوة كان الجميع يتمتمون بدعوات دينية موجهة لغير المرئى (الله). كان الرشايدة^(١) يدعون الله على النحو التالى:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

توكلنا على الله.

السلام على الرفيق.

يا الله!

لا إله غيرك، ولا مثيل لك.

لا مهرب من مشيئتك.

يا الله، عفوك

سهّل علينا طريقنا، وأرشد رفيقنا".

وهنا يرد كل عضو من أعضاء الجماعة على هذا الدعاء قائلاً:

"لا إله إلا الله".

كان روتيننا الصباحى يتمثل فى سير مقداره ثلاثة أميال أو أربعة فى البداية، كنا نقتاد خلالها إبلنا؛ لكن جرت العادة أن أكون أنا أول من يركب ناقته، اللهم باستثناء ابن حام، ذلك الشيخ من شيوخ بيت الإيمانى، والذى لا يزال محارباً

(١) عندما يشرع الرشايدة فى الغزو يكون دعاؤهم على النحو التالى: "أعاده الله علينا" (المقصود هنا الناقة أو الجمل) و "ربنا يسمعنا، ويرشدنا حتى نتمكن من العودة".

صنديداً بين أفراد بيت الإيمانى، وذلك على الرغم من العاهة التى أصابت إحدى رجليه، بفعل جرح نجم عن طلقة قديمة أصابته أثناء قيام بيت الإيمانى بالإغارة على بعض خصومهم.

كان حجم الناقة الكبير هو وتحركاتها المحمومة يجعلان خطرهما جنائزى الطابع، ومع ذلك فإن تحركات الرجل صغير الحجم الذى كان يسير أمامها، كانت تثبت أن معدل سير هذه الناقة فى الأرض السهلة، يصل إلى قرابة ثلاثة أميال فى الساعة. كان رأس الناقة وهى باركة يتحرك مستخفاً بما حوله من جانب إلى آخر، يضاف إلى ذلك أن فم الناقة الملىء بالعلف المُجترَّ كان ينفث كما لو كانت تنتظر شيئاً، كلما اقترب منها راكبوها، وسبب ذلك أن هذه الناقة دُرِّبت على الوقوف على الفور، مع أية لمسة، أياً كانت، تلامس ظهرها. هذا يعنى أن ركوب الناقة لابد وأن يتسم بالسرعة وأن يكون على شكل قفزة سريعة، تتوقعها الناقة فى أقل من الثانية. وهنا يتعين تبريكها مرة ثانية بمزيد من الريت على ركبتيها. لكن الناقة، طالما ترى مشعاب راكبها مغروساً فى الرمل بالقرب من رأسها، وطالما كانت ترى بندقيته ملقاة على الأرض على مقربة منها؛ فإنها تظل راضية وقانعة بما هى عليه، والناقة لا تبدأ فى الكشف عن تحركاتها العصبية إلا عندما ترى راكبها يبدأ فى تناول هذه الأشياء بيده.

هذه الناقة، عندما يركبها صاحبها، يجعل رأسها حر الحركة، الأمر الذى يؤدي إلى عدم استعمال الحَكْمة فى كثير من الأحيان، ويكتفى راكب هذه الناقة بمجرد الرِّبْت بصورة خفيفة على عنقها مستعملاً فى ذلك مشعابه، بالإضافة إلى بعض الأصوات اللازمة لتعليم هذه الناقة طاعة إرادة راكبها، وهذه الناقة يغريها دوماً قضمات الطعام التى تمر بها على طول الطريق؛ ويصل الأمر بهذه الناقة فى بعض الأحيان، إلى حد تناول قطعة من العظم أبيض اللون وتروح تمضغها بواسطة فكها العلوى الخالى من الأسنان، اللهم إذا ما قام راكبها يحثها على المضى قُدماً وتجاوز هذه العظمة بيضاء اللون، مثلما يحدث فى معظم الأحيان.

ويبقى البدوى على هذا الحال، وهو يهتز إلى الأمام وإلى الخلف على امتداد ساعات، ويتخلل ذلك قيام ذلك الراكب بتغيير وضعه بين الحين والآخر. والراكب

عندما يستعمل سَرَجًا عُمَانِيًا فى ركوب الناقة، فإنه لا يقوى على تحمل هذا الوضع فترات طويلة، ولذلك فهو يضع قدميه تحت فخذه كما لو كان فى وضع السجود أو قد يركب الناقة ورجليه على جانبي السَّرَج. والسَّرَجُ التى تستعملها قبيلة المرة لا تسمح بهذا التنوع نظراً لأن السَّرَجَ مكون من عمودين، ومع ذلك فإن السرج الذى تستعمله قبيلة المرة يريح الرجل الأوروبى؛ نظراً لأن رِجْلَى الراكب يمكن وضعهما فى وضع مريح على كتفى الناقة.

يسير السواد الأعظم من البدو وهم حاسرو الرُؤوس، التى لا يحميها فى مثل هذه الظروف سوى خصل الشعر بنى اللون الذى يكفى لحماية هذه الرؤوس من الشمس. والبدو يستلُون خناجرهم وهم راكبون نياقهم لكى يحكوا بها ضفائر شعرهم دونما خجل أو كسوف.

يحمل راكب الناقة بندقيته فى يد من يديه بحيث تكون فى وضع متقاطع مع عنق الناقة؛ السَّرَجُ التى تستعملها الرشيدة، فى ركوب الإبل، تسمح لهم بمكان يضعون فيه بنادقهم؛ وفى السَّرَجُ التى تستعملها قبيلة المرة نجد بندقية الراكب تبرز من مكان يشبه الدِّلُو فى السَّرَج، ونجد هذه البنادق وهى تلامس شراشيب السرج أثناء تحرك الناقة، والبدوى، رفيق متهلل الأسارير، وهو غالباً ما يتمم فيما بينه وبين نفسه بلحن من الألحان. والبدوى، يندفع بين الحين والآخر، مردداً هذا اللحن دون سابق إنذار لرفاقه، الذين يبدو عليهم دوماً الترحيب بمثل هذا التصرف. وفى بعض الأحيان، قد يقوم بدويان بترديد اللحن نفسه، على شكل ثنائى، وفى شئ كثير من التوافق. هذه الألحان والأغاني تختلف من قبيلة إلى أخرى؛ ولقد شدنى الفضول إلى تسجيل كل لحن من هذه الألحان التى استمعت إليها، واستعملت فى عملية التسجيل هذه التدوين الأوروبى^(١)، وفى أحيان أخرى كان البدو يختبرون قوة رفاقهم ويستعرضون قواهم عندما يحاولون الإطاحة ببعضهم البعض أثناء المسير، ومن يخسر هذا الرهان يُعاقب بالسير مسافة عشر أقدام على الرمل.

(١) راجع الملحق رقم ٦.

كان حمد، مرافقى، بمثابة الرجل القوى بين هؤلاء البدو، وكان لدى أيضاً معركة أو معركتان لم تحسما بعد؛ وقمنا بعد ذلك بعمل مباراة فى المصارعة لم تسفر عن نتائج أفضل مما وصلت إليه المعركتان أو المشاجرتان السابقتان، على الرغم من أننى كنت أنا الأطول قياساً على جميع المعايير.

والبدوى عندما يود النزول من فوق ناقته لا يكون بحاجة إلى تبريكها وإنما ينزلق نازلاً من فوقها، والحال نفسه ينطبق على ركوب الناقة، لأن البدوى يتسلق الناقة واضعاً رجله على قدمها الأمامية عندما تهتم تلك الناقة بالتحرك؛ ويحكم البدوى وضع رجله، وبخاصة الإصبع الكبيرة من قدمه هى والإصبع التى تلى هذه الإصبع الكبيرة، اللتان يضعهما على ركبة الناقة، قاذفاً بنفسه إلى عنق الناقة، ويقفز من فوق عنق الناقة ويمسك بسنامها ليتخذ منه مكاناً لجلوسه.

كانت تلك الأعمال الأكروباتية محطاً لاهتمامى، وكانت مصحوبة فى معظم الأحيان بعبارات من قبيل "نميونا، صاحب، نميونا"^(١). كان من عادة البدو أن يندفع أحدهم نحوى ومعه مخلوق صغير لأقوم بوضعه فى قارورة القتل، وغالباً ما يكون مثل هذا المخلوق مصحوباً بقصة خرافية تتعلق به.

حدث ذات يوم أن قام واحد من البدو بإحضار بزاقة بيضاء اللون- ذلك المخلوق المتمرد الذى لا يعيش سوى فى فتحتى أنف الناقة، ولا يُنطرد من هاتين الفتحتين إلا عندما تعطس الناقة- ليُبدى لى الملاحظة التالية، "هذا المخلوق الصغير هو السبب وراء تسخير الإبل لخدمة الإنسان. ولولا هذا المخلوق لكان الجمل حيواناً برياً شأنه شأن الثعلب والغزال، لا يصلح لشيء سوى صيده وأكل لحمه".

(١) "نميونا" تعنى حجة تبدو صحيحة ظاهرياً ولكنها غير صحيحة فى الحقيقة، والبدو يقبلون حرف "ن" إلى حرف اللام فيقولون لميونا بدلاً من نميونا، وقد يكتفى البدوى فى بعض الأحيان بكلمة "ميوخا"، وهذا يوضح مدى مرونة لغة البدو الذين يعيشون فى الصحراء.

وفى يوم آخر جاءنى بدوى بعنكبوت من عناكب الرمال؛ وبخاصة ذلك النوع الذى نسج خيوط بيته على آثار قدم النبى ﷺ عندما هرب من الكفار، الأمر الذى خدع مطارديه وأنقذ حياته ﷺ .

كان رفاقى مداومين على الصلاة، وبخاصة صالح، الذى درج عند منتصف النهار على النظر إلى أعلى ويقول:

"أيها الصاحب، حان موعد الصلاة".

كنت أقول له "بعد ربع ساعة"^(١)، وأنا أنظر إلى ساعتى مشيراً إلى بعض المراعى التى فى طريقنا. كان التوقف لأداء الصلاة يتحدد كلما تهيأت لنا مراعى للإبل. وفى أواخر النهار درجت الجماعة على الانتشار على مساحة ميل أو أكثر من ميل، أثناء المسير، حتى يتمكن أفراد الجماعة من أداء الصلاة على شكل ثنائيات أو ثلاثيات، فى الأماكن التى يكونون فيها،

ولم يكونوا يصلون فى صف واحد مثلما يحدث عندما نكون فى المخيم.

ذهبت الناقة لترعى فى حين راح صاحبها يؤدى صلاته، وبعد عشر دقائق كانت تتطلق صيحة "هر" (مع تكرار حرف الراء)، ثم ينطق صاحب الناقة الكلمة "شوم" shom ويتبع هذه الكلمة باسم الناقة، وهنا كانت الناقة تنظر إلى الأعلى وتروح تنتظر، متأهبة، لمجئ صاحبها ليقتادها؛ وهو يقول: "موه موه" أو : رارار" (مع تكرار حرف الراء، وهذا كله من قبيل المناداة على الناقة الشاردة التى تخرج عن الصف أثناء المسير.

كان الضجر والقلق الناجم عن الصمت الطويل ينكسر فى بعض الأحيان عندما يندفع واحد من البدو قائلًا: "الله أكبر، لا إله إلا هو". ويجئ الرد الدينى على الفور.

كنت أقول فى بعض الأحيان "بالبرودة النهار".

(١) كل "ساعة" هنا لا معنى لها عند البدو. والسبب فى ذلك إن وحدة القياس الأصغر من اليوم هى الفترة فيما بين الصلوات. وبشكل عام فإن البدو يتحدثون عن الزمن منسوباً إلى المسافة.

ويجيئني الرد "هذا من الله". قول أى كلام مخالف لذلك يمكن أن يدخل فى إطار الهرقطة والتلاعب بالدين، هذا دوماً من الله تعالى وكل شيء من الله. لم أصادف مطلقاً إيماناً أعمق من ذلك بحتمية الأحداث التى من قبيل: القتل، الغزو، المرض، كل هذه الأمور تعد جزءاً من التخطيط السماوى أو الإلهى. والناس هنا يؤمنون بأن كل أمر من هذه الأمور له ساعته المحددة من قبل الله تعالى .

الحال ليس دوماً عى هذه الشاكلة، هناك حالة نفسه مبهجة، على العكس من الحالة النفسية السابقة. والبدوى قد يتذكر بين الحين والآخر شعراً أو قافية محببة إليه، وربما يكون ذلك الشعر أو هذه القافية عن أبى زيد أو عن ذياب بن غانم، أو عن مارد آخر من المردة القدماء.

جاءنى صالح ذات يوم وهو راكب ناقته ويردد ذكريات بنى هلال التى تسرُّ خاطره وترضيه، وبخاصة ذكريات بنى هلال مع أعدائهم.

"هؤلاء عصافير، وأبو زيد شجرة سدر.

طاردناهم وهم يهريون، وعدنا إلى ظل الشجرة..

جرح الذئب له علاج،

لكن طعنة رمح أبى زيد لا دواء لها،

الدم يندفع بعد الطعنة كما لو كان ينساب من دلو،

وإذا ما جفت تطفع دمًا، وينساب الدم من جديد".

وهنا جاءت العبارة "ينساب الدم من جديد" وكان صاحبها يكرر العبارة الأخيرة التى وردت على لسان صالح. ويتحول صالح إلى ليقول لى: "سيدنا محمد يقول: "سَيُعْتَرُّ على أبى زيد فى الجنة".

لم أبدأ أية علامة من علامات الدهشة. وهنا سمعت معجباً آخر يقول:

"يا أبا زيد! يا أبا زيد أبا مخيمر!

سيفك مسلول، والمطعون لا يحيا.

ما عدد ثقبوب المياه التي مررت بها . ولم تُحصَها^(١)

فى حراسات الليل، بعد غروب الشمس.

رأيت سُقيّات كثيرة وبطون خالية^(٢) .

أثناء النهار عندما تكون الأعين مغلقة بسبب النوم^(٣) .

أعربت عن تفضيلى للنثر العربى على الشعر العربى، وهنا انبرى أحد البدو ليحكى لى قصة المعركة التى دارت بين ذياب بن غانم وآلان عبد الريشة .

"كان آلان واحداً من عبيد الزناتى، بل إنه كان عدواً يخشاه بنو هلال، ويخافون منه، نظراً لأن كل من كان يبارزه بالسيف كان محكوماً عليه بالقتل . من هنا جاءوا إلى أبى زيد وطلبوا منه قتل فرس آلان . لكن أبى زيد كان قد قطع على نفسه وعداً ألا يفعل ذلك، والسبب فى هذا هو أن أبى زيد عندما كان أسيراً عند الزناتى، جاءه آلان وقال له: "هيا بنا نقسم بأننا إذا التقينا وجهاً لوجه فى أية معركة فلن يقتل أحداً الآخر". وأقسم أبو زيد هذا القسم . وعليه؛ عندما هرب أبو زيد وجهاز "قوماً" (جيشاً) لإنقاذ شقيقه بريقه، فإنه لم يشارك فى القتال، واكتفى بالوقوف على الحياد . وكان من عادة كل جماعة إرسال بطل للقتال أمام جدران قلعة الزناتى . وكان آلان هو البطل الذى أرسله الزناتى، وكان الموت مصير كل من أدرج ضمن قائمة المقاتلين الذين سيتصدون له- وعليه لقى أولاد الزناتى ابن غانم حتفهم ومعهم عمر بن خافيات ذلك الشخص المحبوب من الجميع . كان آلان راكباً جواداً لم يكن له مثيل من قبل أو بعد ذلك، وكان ذلك الجواد عندما يسهل يجعل خيول بنى هلال تقشعرُّ خوفاً، الأمر الذى يُعجزُ راكبى هذه الخيول عن التصرف معها . كانت خطة آلان مبنية على الإطاحة بخصمه عن طريق سلسلة طويلة تنتهى بخطاف مثبت فى طرفها، كان آلان يلقي بهذه السلسلة بمهارة فائقة لتمسك بسلسلة درع الخصم، وبذلك يتمكن آلان من جر خصمه من فوق سرج الحصان وقتله بعد ذلك .

(١) هذا يعنى سرعة الفوز .

(٢) بمعنى الإبل الجوعى وبالتالي لا تقوى على السير .

(٣) بمعنى الأعداء .

تشاور بنو هلال فيما بينهم وقالوا: "طالما أن أبا زيد لن يحارب هذا الخصم، فليس هناك أحد غير ذياب بن غانم يستطيع القيام بهذه المهمة". وعليه أُرسل في طلب ذياب، وجاء الرجل. وهنا أخذ ذياب ثلاثة ثياب وقام بجليها إلى أن أصبحت عجينة وصنع من هذه العجينة سلسلة بدلاً من سلسلة الدرع، وقام بعد ذلك بملء أذني فرسه بالطين كيما يمنعه من سماع صهيل حصان آلان. وهنا أصبحت حلبة القتال جاهزة؛ كانت حلبة القتال أمام قلعة الزناتى وكان أمامها حفرة شبيهة بالخندق، كان يتحتم على آلان عبورها قفزاً بحصانه ليدخل القلعة بعد أن قتل خصمه.

"جاء المتحاربان من اتجاهين متضادين، وعندما اقتريا من وسط حلبة القتال سهل حصان آلان بصورة مفاجئة، وهنا حول ذياب بطريقة ماهرة، وجه فرسه إلى ناحية بنى هلال وتراجع مبتغيًا بذلك سحب خصمه من القلعة وبعيداً عنها، طارده آلان مطاردة ساخنة، وعندما أصبح في نقطة الضرب أرسل خطافه. وأمسك الخطاف إمساكاً خفيفاً في عباءة ذياب الخارجية، ولكن بدلاً من إيقاعه من فوق فرسه، مزق الخطاف جزءاً صغيراً من ثوبه الخارجى؛ وألقى آلان خطافه مرة ثانية، لكنه أمسك في هذه المرة بالثوب الثانى لذياب، وحاول آلان مرة ثالثة ولم تكن نتيجتها أفضل من سابقتها. وهنا أحس آلان بعدم الارتياح وحاول التراجع ومن خلفه ذياب يطارده. وعندما وصل حصان آلان إلى حافة الخندق سهل كما لو كان العمل لا يرضيه، لكن فرس ذياب لم تسمع ذلك الصهيل، وقفزت عابرة الخندق في أثر حصان آلان، وبذلك أدرك الزناتى أمام باب مدخل قلعة الزناتى. وهنا استدار آلان الذى كان يرتدى درعاً لا تظهر منه سوى عينيه، ليتبين مكان خصمه، وبينما كان آلان يفعل ذلك، أطلق ذياب رمحه الذى اخترق عين آلان واخترق رأسه أيضاً، وانغرس إلى منتصفه في جدار القلعة.

"وهنا قال آلان متسائلاً: "وهو في سكرات الموت" في المكان الذى سقط فيه: "ذيب أو ذياب؟" لأن واحداً من العلماء قال له من قبل أن اسماً من هذا القبيل سوف ينتصر عليه.

"قال ذياب: "ذيب".

"قال آلان (وهو يلفظ نفسه الأخير): "أوفى الحساب" - أى يوم الحساب".

كانت ليلة اليوم الأول وصبيحة اليوم الثانى من شهر فبراير ليلة ليلاء وشديدة البرودة، الأمر الذى أدى إلى استيقاظى قبل أذان الفجر. كان القمر بديراً فى السماء الغربية الأمر الذى أدى إلى تصغير المريخ، الذى كانت عظمته بلا منازع قبل أسبوعين عندما كان القمر صغيراً. كنت قد تعلمت الوقوف على الوقت من تحرك المجرات عبر السماء الصافية المدارية. فى هذه الليلة كان نجما رجبولس والمنجل (يعانيان أيضاً مثل كوكب المريخ من القمر بعد أن أصبح بديراً)، ومن بعد هذه المجرة كانت هناك مجرة سبيكا ونجمها سبانكر، ومن بعدها مجرة العقرب، تلك المجرة الرائعة فى الشرق، وكان كوكب الزهرة يصاحب نجم سبانكر. راقبت كوكب الزهرة وهى تتزلق نازلة على جسم النجم سبانكر فى تلك الليلة القليلة الأخيرة استيقظت عند منتصف الليل لتسجيل موقع النجم بولاريس، لكنى اكتشفت أن جهاز قياس الارتفاعات تعذر إصلاحه وإعادةه إلى وضعه الطبيعي بعد الاهتزازات الكثيرة التى أصابته جراء عملية السير. كان يمكن لملاحظتى أن تتوقف تلك الليلة، تحت أى ظرف من الظروف، بسبب وجود واحد من البدو، الذى كان خياله على خلفية السماء التى يضيئها القمر، يبدو منتقياً حيناً، وراكعاً حيناً آخر، الأمر الذى ينبئ بأنه كان يؤدى الصلاة- وهذا بحد ذاته عمل فريد فى مثل هذه الساعة.

بدأت السماء الشرقية عند طلوع الفجر كما لو كانت مغسولة بالدم، وتغطيها سحب أرجوانية طويلة شبيهة بالشعاب الصخرية، التى راحت النجوم تشحب وتختفى خلالها.

بدأنا فى ساعة مبكرة، وعدنا فى بداية الأمر إلى مسارات الليلة السابقة قاصدين تل نخالة الشامخ، من خلال الرمال المتدحرجة التى كانت تخفى عنا هذه المسارات بين الحين والآخر. قمت مع اثنين من مرشدينا من قبيلة المرة، وهما حمد وطالب، بتسلك ذلك التل من جوانبه المتحدرة الناعمة إلى أن وصلنا إلى قمته، وحظينا بإلقاء نظرة خاطفة من بعد على مياه الخليج الفارسى. كان اليوم صحواً ومشمساً، ولذلك شاهدنا بانوراما رائعة حول نخالة؛ كانت تلك البانوراما عبارة عن رمال منخفضة جرداء تمتد ناحية الغرب إلى مضارب

(مساكن) الجافورة، وتمتد شرقاً عبر سلاسل من التلال الرملية إلى أن تصل إلى البحر. كانت أراضي الربع الخالي الجرداء الشاسعة تمتد من خلفنا على امتداد أسابيع طويلة، وهى خالية من السكان، ومن أمامنا كانت تنتظرنا مسيرة تقدر بمسير أربعة أيام نصل بعدها إلى مساكن الرجال.

نزلنا من فوق التل، وكان جهاز قياس الارتفاعات (أنرويد) قد سجل قراءات منخفضة عن مستوى سطح البحر مثلما حدث فى اليوم السابق، وأيضاً فى اليوم الذى تلا ذلك. وخلف بعض التلال الرملية وصلنا إلى سنجة المناصير، التى هى عبارة عن حقل ملحي يمتد إلى أميال عدة، وزاخر بالأهداف البحرية التى كانت فى حالة باكرة من حالات التَّحَفُّر^(١).

تركنا البحر على بعد مسير يوم واحد فى ناحية اليمين، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال عبر منطقة شبيهة بمناطق المحاجر شديدة القحولة. سمعنا صوت دُثْب على مقربة من جرف فارهود، الذى جمعت منه أصدافاً أخرى فى حالة من التَّحَفُّر أبكر من الأهداف سالفة الذكر.

أدى ثقب ماء خافوس إلى نقاش ساخن بين المرافقين لى حول مسألة سُقْيَا الإبل أو عدم سقياها من هذا الثقب. وفاز الأياسة فى هذا النقاش، وعليه أعطتني الوقفة التى دامت خمسين دقيقة، فرصة سنحت لى بتسلق قمة بارزة كيما أقوم بقياس نقاط الارتفاع التى يقولون إنها على شاطئ البحر- وهذا المسار وبخاصة أن يوم الحصول على الأجر والأتعاب، أصبح وشيكاً، بدا لى وكأنى أستطيع تحمله؛ يزداد على ذلك، أنى اكتسبت شيئاً من الثقة بين المرافقين لى، وربما كان ذلك راجعاً إلى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيتها معهم.

أوصلنا مسار اليوم التالى، الذى كان منحرفاً قليلاً ناحية الشمال الشرقى، إلى المزيد من تلك الأرض الجرداء الشبيهة بالمحجر، وبعد مسير ستة أميال، رأيت أمامى بحيرة كبيرة فضية اللون. كنت قد عرفت من قبل من البدو المرافقين لى أننا سوف يتحتم علينا المرور وعن يميننا سبخة يطلق عليها الناس اسم سبخة

عَمْرَة، ومن الطبيعي هنا أن نسلم بأن هذه السبخة يمكن أن تكون سهلاً ملحياً جافاً، شأنها شأن السبخات الأخرى التي مررنا عليها أثناء مسيرنا مؤخراً: كان طول هذه السبخة يبلغ قرابة سبعة أميال، وربما كان عرضها يصل إلى قرابة ميل ونصف الميل تقريباً، وجاءت بمثابة مفاجأة سارة لنا. وعندما اقتربنا من الطرف الجنوبي لهذه السبخة عثرت على حفريتين صدفتيتين كبيرتين. وبدءاً من هذه المنطقة أصبح مسارنا يمر خلال سهل صوّانى منخفض كان يحدُّ الجانب الشمالى من السبخة، وبدأ لى الشاطئ الجنوبى لهذه السبخة، وإن شئت فقل هذه البحيرة الفضية، كما لو كانت تلالاً رملية منخفضة.

بينما كنت مشغولاً بتصوير هذه السبخة، وكان ذلك أمراً لا بد منه، وبخاصة عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم، قام البدو المرافقون لى بجمع كتل كبيرة من الملح الصخرى كيما يستعملوه فى طهى الأرز^(١).

هذا الحد الذى يصل عرضه إلى قرابة عشرين قدماً، كان مظهره شبيهاً بمظهر الثلج، وعلى بعد مسافة كبيرة كان من المستحيل تحديد النقطة التى ينتهى عندها هذا الملح، ويبدأ عندها الماء. كان على بعد قرابة ست أقدام من حافة مياه البحر، خط من الجراد أحمر اللون كبير الحجم الذى يعد من الأكلات الشهية عند العرب. هذه المخلوقات التعيسة تندفع على شكل جحافل قادمة من الصحراء فى فصل الربيع وتقدّم على الأنهار عند أول سطح مائى يلقاها أو يقابلها- وقد أوحى لنا هذا أن هذا الموضع من البحيرة قد انحسر على امتداد العام، لكن المرافقين اللذين كانا يرافقاننى من قبيلة المرة لم يقدموا تفسيراً لهذه المسألة، علماً بأن هذين المرافقين هما وحدهما اللذان كانا فى هذه المنطقة من قبل. كان المنحدر هيناً إلى حد أن شيئاً قليلاً من المطر، أو بخر فصل الصيف، يمكن أن يكونا من أسباب تغيير مستوى هذا المنحدر.

بعد أن تجاوزنا هذه البحيرة، أوصلنا مسارنا الذى انحرف بدرجة أكبر ناحية الشمال الشرقى، إلى جبلٍ شديد الشبه بظهر القنفذ، من خلال سهل تنتشر فيه

(١) راجع التحليل الكيماوى لهذا الملح فى الملحق رقم ٢.

الأحجار المهشمة، لنصل بعد ذلك إلى سهل ملحى آخر وسيع يطلقون عليه اسم سهل العمرة. يُقال أن هذا السهل يمتد غرباً إلى ما بعد المواقع القديمة في إسكاك، سلوه، وماباك إلى أن يصل شواطئ الخليج القطرى. وهنا يجب القول: إن ملح البحيرة هو والدلائل الصدفية التى جرى العثور عليها مؤخراً، ومعهما قراءات جهاز تحديد الارتفاعات توحى كلها بأن أساس شبه الجزيرة القطرية كان، منذ وقت غير بعيد، مغموراً تحت ماء البحر^(١)، وقطر تشكل جزيرة شأنها فى ذلك شأن البحرين المجاورة لها^(٢)، لكنها أكبر كثيراً عن البحرين.

كان المرافقون لى قد توقفوا فى السهل لأداء صلاة العصر. وعندما وصلت إليهم، كانت ناقتى، عُقابة، قد قررت أن المكان يناسبها. ولذلك رفضت الناقة المضى قُدماً لوحدها، وراحت تُبقلل، من باب المناداة على رفيقتها المعتادة فى السير- وجاءت تلك البقلة مصاحبة لطقوس أداء الصلاة بواسطة المؤمنين، وبعد ذلك بدأت عملى بعد أن ارتكبت خطأ جوهرياً، عندما أعطيت الناقة إشارة خاطئة. درجت هذه الناقة على النهوض واقفة عندما يربت راكبها على جسمها من الخلف، لكن ربتى على عنقها أبقى عليها فى وضع التبريك. وهنا يجب ألا يغيب عنا أن الناقة الحُرُون تسبب الكثير من المشكلات، لكن أحداً من البدو لا يجرؤ على وضع العصا حول الناقة مخافة أن يفسد كل ما تعلمته من خصال طيبة. والبدوى عندما يغضب من ناقتة، يصيح قائلاً:

"وبعدين! (ناسال) لعلك تصابين بالخراس المرض المهلك".

"وبعدين! لعلك تموتين، موتاً شرعياً أو غير شرعى".

"وبعدين! لعلك تبتلين بالحمل الثقيل".

البدوى عندما يدعو على ناقتة بهذه الطريقة لا يضرر لها عداً ولا غلاً من هذا القبيل. والبدوى يرتبط بناقته ارتباطاً وثيقاً وحقيقياً، وهو يعرف تماماً أن

(١) ربما يكون من المنطقى القول بأن جرّها، الميناء القديم الذى ورد ذكره عند بطليموس، إذا لم يكن هو البحرين نفسها، فقد يمكن البحث عنه، ليس تحت سطح البحر، كما هو شائع وإنما على بعد مسافة فى الداخل.

(٢) الاسم "بحرين" كان يطلق فى الأصل على المساحة كلها من الدوحة إلى القطيف. والجزر التى يطلق عليها حالياً اسم البحرين كان الناس من قبل يعرفونها باسم آوال.

هذا الارتباط غير متبادل. وعليه فإن الناقة إذا ما تعثرت، يغلب على رакبها القول:

"وبعدين! سلامتك".

"وبعدين! حماك الله من كل شر".

يضاف إلى ذلك أن صاحب الناقة الضالة التي يعثر عليها بعد مسير قد يدوم أميالاً، وهو يبحث عنها، يقول لها عندما يقترب منها:

"وبعدين! بارك الله فيك" أو:

"مرحباً بك يا فلانة" - وذلك من باب تحيته لها بالاسم^(١).

أدت آثار أقدام الإبل التي تعرفناها بأنها من إبل قبيلة المناصير، إلى حثنا على المضى قُدماً ومواصلة السير، والسبب في ذلك أن حمد، الذي ينتمى إلى قبيلة المرة، لم يكن حاله النفسى يسمح بلقاء هؤلاء المناصير.

تسبب منظر الإبل قليلة العدد التي كانت ترعى عند خط الأفق إلى تبادل أفراد جماعتى الإنذارات فيما بينهم. وهنا بادر طالب الذى كان معروفاً من المناصير فى هذه المنطقة، إلى التحرك إلى مقدمة الجماعة بغية استطلاع الأرض من ناحية وتمويه التشكيل المكونة منه جماعتنا إذا ما تطلب الأمر ذلك، فى حين قامت الجماعة بتغيير اتجاهها تحاشياً لهؤلاء المناصير.

قال سهيل: "أنا أريد منك شيئاً واحداً بعد الوصول".

"ما هذا الشيء؟".

"أريد منك دخاناً (تبغاً)".

"أيها الصاحب، التبغ هو الشيء الوحيد الذى لا يمكن أن أستغنى عنه، أنا أصوم عن كل شئ إلا التبغ (الدخان)".

"أليس هذا شكلاً من أشكال الخطيئة؟".

(١) ترحب قبيلة المرة بالغريب قائلة: "مرحباً وسهلاً" والمناصير يقولون: "مرحباً بكم".

"أقسم بالله إنها خطيئة، لكن ما باليد حيلة؟- هذا هو رمضان الوحيد، إذ لم يسبق لى مطلقاً شرب الدخان فى شهر رمضان".

الأصوليون يرون أن سهيل قد خرج على أصول الصوم عندما أقبل على التدخين، وبالتالي لن يبارك الله فى معيشتة. زد على ذلك، أن سهيل كان هو المدخن الوحيد من بين المرافقين لى فى الجماعة كلها - يضاف إلى ذلك أن الرجل لم يعمل برخصة الإفطار فى السفر، فى شهر الصوم كان الرجل صائماً بروحه، وذلك على الرغم من أن أحداً من المتشددىن لن يُعَنِّفه إذا ما عمل برخصة الإفطار بسبب السفر.

سمعت الرجل وأنا أمضى قُدماً، يتمتم: "رحمتك يا الله".

كان طالب مرافقنا الذى كان قد سارع براحلته بغية التعرف على الإبل المجهولة، يهل علينا راجعاً من مهمته، وراح طالب يصيح وهو يبعد عنا قرابة مائة ياردة، قائلاً:

"هل صليتم؟ هل صليتم؟".

"نعم، صلينا، الحمد لله".

يقترّب الرجل أكثر منا ليقول لنا:

"حياكم الله، حياكم الله، عندى خبر طيب! إن شاء الله"، وهنا تجمعت الجماعة من حول الرجل كيما يستمعوا إلى آخر قصة من قصص الصحراء.

وبعد ذلك بدقائق معدودات تأخر الشيخ صالح لتصبح راحلته بجوار راحلتى.

قال الشيخ صالح: "يا له من خبر طيب!".

"الحمد لله".

"عبد العزيز بن سعود موجود فى الرياض. الحكّام- فى إشارة منه إلى ابن جلوى حاكم الأحساء- موجودون فى بلدانهم؛ إنهم لا يزالون باقين فى الحكم!"^(١).

(١) مغزى هذا الكلام هو أن البشر المرافقين لى من الرشيدة (الرشيد) ومن المرة، أحسوا أنهم فى مأمن من بعضهم البعض، وبالتالي كانوا جميعاً فى مأمن من المناصير.

قال ثالث: "الحمد لله".

"لقد عادت الحياة إلى الجافورة" (الإشارة هنا إلى المراعى الوفيرة التى نتجت عن الأمطار التى سقطت مؤخراً).

جاء رد جماعى "الحمد لله" من البدو، لأن هذه المراعى الجديدة تسمح لهؤلاء البدو بالتعريج عليها عند العودة؛ لكى ينالوا قسطاً من الراحة ويرعوا إبلهم بضعة أسابيع استعداداً لرحلة العودة الطويلة إلى رمالهم الجنوبية.

كان المطر يهطل علينا فى المكان الذى توقفنا فيه لأداء الصلاة. كانت تقف فوق حجر على مقربة منا بومة راحت تطيل النظر إلينا، الأمر الذى مكّن واحداً من البدو من التسلل خلفها لمسافة ثلاثين ياردة، لأنه كان يعلم أن البوم يعد هدفاً من الأهداف الصعبة، لأن الطلقة عندما أخطأتها جعلتها تدخل مرمى بندقية أخرى، ثم طارت البومة بعد ذلك بعد أن أخطأتها الطلقة الثانية.

لاحظ رفاقى بعد قرابة ساعة آثار أقدام الحمير عندما كنا نعبّر أو نتجاوز ثقب ماء الزرقة الذى يصل عمقه إلى قرابة ست قامات، هذا الثقب أو البئر هو المكان الذى تحصل الدوحة منه على الماء. وبينما كنا نسير فى الطريق المعروف لكل المجاورين لهذه المنطقة. وهنا قمنا بإرسال طالب مرة أخرى لاستطلاع المكان، فى حين راح رفاقى يتحدثون بشغف عن وجبة غذاء من الحليب. هذا أمل لم يتحقق- على الرغم من عودة طالب إلينا وهو يحمل معه زنبيلاً من التمر، حصل عليه من الراعى الوحيد الذى عثر عليه وهو يرمى الإبل القطرية. هُيئ لى أن طالب حرم ذلك الراعى البائس من القسم الأكبر من طعامه- علما بأن هذا التمر كان كافياً لإطعام الجماعة كلها فى تلك الليلة- لكن هذا هو تفاخر الصحراء وهذا هو قانون الصحراء الذى يقضى بالسخاء فى إكرام عابر الطريق اليوم، ومعاناة الفقر فى الغد وعدم القدرة على التغلب عليها.

كان المساء شديد البرودة؛ ولم نتمكن من الحصول على أى شىء من الحطب لعدم وجوده فى أى مكان من الأماكن المحيطة بنا، واكتفى أفراد الجماعة بنيران صغيرة شَبُّوها فى روث الإبل الجاف. نزلت علينا زخات المطر أثناء الليل، وصحوت من نومى لأجد بطاطينى مبتلة تماماً؛ وعليه، وحتى أتمكن من تناول

إفطارى فى مكان جاف آثرت الجلوس تحت مائدة المخيم. لكن ذلك الإفطار كان بمثابة إفطارى الأخير فى الصحراء، وعليه فلا بد من تحمل ما أنا فيه عن طيب خاطر.

أوشكنا على الوصول. وهنا أسرع البدو الخُطى، وهم يتغنون بأغانى الماء. وهنا راحت الإبل العطشى تصيح السمع إلى ذلك الغناء. خَلَّفنا وراءنا آخر الكتبان الرملية. وبعد أن تجاوزنا الكتبان الرملية التالية المتموجة، لاح لنا السهل الحجرى الذى يسمونه تُعيجه، الذى سبق أن خططنا ليكون هو مسقانا الأخير، ومن خلف هذا المسقى بدأت تلوح لنا أبراج الدوحة وقد انعكست صورتها على مياه الخليج الفارسى. وبعد نصف ساعة كنا داخل أسوار القلعة. وهنا نكون قد عبرنا الربع الخالى.



مُضيفي ، الشيخ محمد بن عبداللطيف المناع
(على اليمين) ومعهما صالح



- الجماعة القطرية : الشيخ (في الوسط)

الملحق رقم (١)

الخصائص العرقية لعرب الجنوب

بقلم: السير آرثر كيث هو والدكتور وليتون ماريون كروجمان^(١)

يقول النقيب برترام توماس فى الرسالة التى كتبها من مسقط فى مطلع العام ١٩٣٠، وعنوانها إلى رئيس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا: "يتضح لنا من خلال دراسة اللغة، الموروث والثقافة أن البنود من ١ - ٨ من القائمة التى أعدتها أنا تنتمى إلى بقايا من غير العرب فى الجزيرة العربية؛ وفى ضوء ما نشرته أنا فى المجلة (المجلة التى تصدر عن معهد الأنثروبولوجيا، فى العدد المنشور فى شهر يونيه من العام ١٩٣٠ الميلادى) يبدو أن هذه البقايا تنتمى أكثر إلى الجنس الحامى الموجود على الجانب الآخر من البحر الأحمر أكثر من انتمائها إلى عرب وسط وشمال الجزيرة العربية".

وبعد ذلك بعام، أكد ذلك النقيب برترام توماس من جديد، فى بحثه المقدم إلى المعهد الأنثروبولوجى (فى شهر يوليو من العام ١٩٣١)، عن السمات والخصائص الحامية لعرب جنوب الجزيرة العربية. قال برترام توماس: "بعد الخبرة التى اكتسبتها من خمس عشرة سنة من الخدمة فى الجيش، عشت طوالها على مقربة وألفه مع شعوب جنوب الجزيرة العربية فى بلاد الرافدين، شرق الأردن، وفى

(١) كان الدكتور كروجمان يقوم فى ذلك الوقت ببعض التحريات الأنثروبولوجية فى معامل كلية الجراحين الملكية، والذى كان فى ذلك الوقت (١٩٣٠ - ٣١) زميلاً فى معهد أبحاث الولايات المتحدة الوطنى.

الخليج الفارسي، أجدنى مندهشاً من خصائص سكان جنوب الوسط؛ وأورد برترام، على سبيل الاستشهاد الآراء التى أبداها كل من النقيب رتشارد بيرتون، والميجور جنرال ميتلند عن الطابع العرقى لعرب جنوب الجزيرة العربية. كان من رأى بيرتون أن عرب الأحراج الشرقية وكذلك عرب الأحراج الجنوبية الشرقية هم الذين يمثلون السكان الأصليين لشبه الجزيرة الكبيرة، وكان للميجور جنرال ميتلند رأى مماثل أيضاً. يقول الرجل: "عرب جنوب الجزيرة العربية، أصغر حجماً، وأدكن لوناً، وملامحهم فجّة، ولا يربون لحاهم. وتتفق كل المصادر على أن عرب الجنوب يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالأحباش، والغريب، بحق القول بأن العرق المصرى الأفريقى هو الذى يشكل العرب الأصليين، فى حين يعد عرب الشمال الساميون أعراباً بالتبنى من ناحية وبالإقامة من ناحية أخرى، أكثر منهم عرباً بالمولد".

وبذلك يكون النقيب توماس قد تمكن بفضل خبرته من تشكيل رأى عن القربات العرقية فى جنوب الجزيرة العربية، وأن ذلك الرأى كان شبيهاً تماماً بذلك الرأى الذى توصل إليه كل من بيرتون وميتلند، والذى مفاده إن أقرب أقارب عرب جنوب الجزيرة العربية يمكن البحث عنهم بين شعوب الجانب الأفريقى من البحر الأحمر وليس بين الأجزاء السامية من شبه الجزيرة العربية. جدير بالذكر هنا أن الرجل طرح على رفاق المعهد الأنثروبولوجى الملكى أسئلة عدة؛ عندما كان يحاول اختتام بحثه الثانى؛ وأن هذه الأسئلة توضح أن الرجل كان ينتظر رأى الخبراء ونُصَحهم له قبل أن يصل إلى قراره النهائى حول الطبيعة العرقية للقبائل المجهولة التى زارها وأجرى عليها قياساته. تساءل الرجل: "من تكون ومن أين جاءت هذه القبائل؟" وهل هذه القبائل متجانسة؟ وهل هى من أصل أفريقى، أم أن لها أصلاً مشتركاً مع القبائل الأفريقية، أم أن كل هذه الفرضيات والمعطيات ليست محتملة" سنحاول فى هذا الملحق الإجابة عن تساؤلات النقيب توماس- وذلك فى حدود ما تسمح به الدلائل المحدودة المتيسرة لنا فى الوقت الحالى، وفى ضوء التعبيرات المحددة التى تسمح لنا بها الظروف الحالية- والسبب فى ذلك، وبلا أدنى شك أنه لا تزال هناك مواد مدفونة فى رمال بلاد العرب، وإن

هذه المواد يمكن أن تُعين علماء الأنثروبولوجيا وتساعدهم على إعطاء النقيب توماس إجابات محددة عن أسئلته، وتلقى أيضاً ضوءاً جديداً على تاريخ الإنسان الأول فى الشرق.

قبل أن نبدأ فى مناقشة أنثروبولوجيا عرب الجنوب فى ضوء الملاحظات والتسجيلات التى أبداهها النقيب توماس، هيا بنا نقف على رأى الخبير الأنثروبولوجى فى الوقت الحالى. وهنا نجد أن أعمال الأستاذ الدكتور س. ج. سلجمان^(١) تسهل علينا القيام بهذا الدور. كان سلجمان قد جمع فى العام ١٩١٧ الميلادى المقاييس القليلة التى كانت قد أُجريت على مواطنى جنوب الجزيرة العربية، كما قام بفحص الجماجم القليلة لعرب جنوب الجزيرة العربية التى شقت طريقها إلى مكانها بين مجموعات المتحف البريطانى. وهنا يجب التنويه إلى أن الملاحظات التى أبداهها سلجمان على الطبيعة العرقية لعرب جنوب الجزيرة العربية كانت ذات أهمية خاصة، ذلك أن سلجمان هو مصدرنا الرئيس عن الشعوب التى تعيش فى ذلك الجزء من أفريقيا المواجه لبلاد العرب^(٢)، وأن البحر الأحمر وقناة السويس هما اللذان يفصلان الموطن الأفريقى عن الموطن العربى. وأثناء قيام سلجمان بجمع مرثياته الخاصة بعرب الجنوب أحدث اكتشافاً أدهش السواد الأعظم من علماء الأنثروبولوجيا إلى حد بعيد. كان سلجمان قد توصل إلى أن استدارة الرأس brachycephal'y، أمر شائع وأساسى بين هؤلاء العرب. تُرى ما السبب الذى جعل هذا الاكتشاف يفاجئنا؟ ولهذا السبب: نجد أن شعوب أفريقيا بدءاً من المصريين فى الشمال إلى البوشمن فى الجنوب، هم أصحاب رؤوس طويلة بصفة مؤكدة.. يزداد على ذلك أن عرب الشمال هم أيضاً أصحاب رؤوس طويلة، يضاف إلى ذلك أن السكان الأوّلين فى أور ur كانوا أيضاً أصحاب رؤوس طويلة، من هنا، توقعنا أن طول الرأس dolichocephaly يمكن أن يكون هو السائد فى هذا الجزء من الأرض الواقعة بين

(١) دورية، المعهد الأنثروبولوجى الملكى، العام ١٩١٧، المجلد ٤٧، ٢١٤.

(٢) أوجز الدكتور سلجمان مختلف مقالاته وأبحاثه عن الأنثروبولوجيا الأفريقية فى كتيب صغير، عنوانه الأعراق الأفريقية، ونشره فى العام ١٩٣٠.

بلاد الرافدين فى الشمال ومستعمرة الكاب فى الجنوب. وبذلك يكون اكتشاف الدكتور سلجمان قد أحدث هزة عنيفة فى الفكر الأنثروبولوجى. من هنا توقعنا أن يكون سكان جنوب الجزيرة العربية طويلى الرءوس. وقد أوضحت معطيات الدكتور سلجمان أن العكس هو الصحيح، وقد أثبتت مقاييس النقيب توماس أن عرب الجنوب يدخلون ضمن السواد الأعظم من الشعوب مستديرة الرأس.

هنا نجد أن شعوب الشمال الشرقى من أفريقيا لهم رءوس طويلة وأكثر اصطباعاً، وبشرة بُنية اللون كما هو الحال فى المصريين، أو شعوب سوداء أو شبه سوداء. وهنا نجد العديد من أوجه الشبه بين مواطنى أو سكان شمال شرق أفريقيا والقسم الأكبر من الهند، الأمر الذى يجعلنا نظن أن البلاد الواقعة بين مصر والهند كانت مأهولة فى وقت من الأوقاف بعرق أفراد طويلى الرءوس وأصحاب بشرة أكثر عتامة. وهنا كنا على استعداد، وبخاصة أولئك الذين يؤمنون بهذه النظرية، لتأكيد أن العربى الجنوبى لابد وأن يكون صاحب بشرة دكناء وله شعر شبيه بصوف الأغنام، لكن إذا كان هذا العربى الجنوبى يمثل المواطن الأصلى الذى نبحث عنه، فإنه قد لا يكون مستدير الرأس. وهنا يتعين علينا مواجهة الحقيقة التى مفادها أن عرب الجنوب مستديرو الرءوس بشكل ملحوظ.

هذا لا يعنى إلغائنا لمسألة استدارة الرأس من منطلق أن هذه السمة مقصورة على شعوب منعزلة انعزالاً كبيراً. ونحن، إذا ما تعين علينا النظر إلى عرب الجنوب على اعتبار أنهم منتج متطور من موطنهم، نجد أن ذلك يحتم علينا التسليم بأن الشعب، مستدير الرءوس بصفة أساسية، قد أصبح مستدير الرءوس بفعل عملية التطور نفسها. يضاف إلى ذلك، أننا عندما نتدبر التوزع الحالى لسمة الرأس المستدير، وعندما نلاحظ أن استدارة الرأس هذه هى خاصية السواد الأعظم للشعوب التى تعيش فى تلك المنطقة من آسيا، والتى تمتد من أفغانستان وبامير فى الشرق، إلى آسيا الصغرى وسوريا فى الناحية الغربية؛ فإن ذلك يحتم علينا أن نأخذ فى حسابنا احتمالية انتشار الرأس المستدير من الحزام الشمالى إلى أقصى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية. ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نسلم بأن الجزيرة العربية كلها، وعلى العكس من الأرض الجرداء والرمال القاحلة التى هى عليها الآن، كانت طوال العصر الحديث الأقرب

وربما أيضاً حتى أواخر العصر الحجري الحديث، جزءاً يسر الخاطر من الأجزاء شديدة الخصوبة على هذه البسيطة. وهذا يجعلنا نجزم بأنه خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة، لابد أن تكون هناك فرص كثيرة مكّنت أصحاب الرؤوس المستديرة من المجيء من المناطق العالية في غربى آسيا إلى الجنوب طوال الأزمان التاريخية السحيقة.. والحيسيون، شديدو الشبه بالأرمن الحاليين، هم أصلاً من حزام الرأس المستدير، وهناك احتمال أن يكون هؤلاء الحيسيون قد مدوا مستعمراتهم في اتجاه الجنوب. وهذا هو التفسير الذى ساقه الدكتور سلجمان لتوضيح مسألة استدارة الرأس عند عرب جنوب الجزيرة العربية. وقد سلم سلجمان بفرضية الاختلاط الأرمنى في الجنوب، الأمر الذى جلب معه مسألة استدارة الرأس. هناك أيضاً مجموعة أخرى من الملامح، من بينها سمة أو خاصية الأنف المعقوف الشبيه بأنف الببغاء. وعليه؛ كان الدكتور سلجمان ينظر إلى العربى الجنوبي على أنه مجرد خاصية أو أصل حامى لا يزيد بأى حال من الأحوال عن خاصية أو أصل العربى الشمالى. هذا يعنى أن العربى الجنوبي والعربى الشمالى كانا ساميين، وعربياً خُلصاً. وهنا نجد أن الدكتور سلجمان كان يركز على سمات الجمجمة، فى حين نجد أن النقيب توماس هو والنقيب بيرتون ومعهما الميجور جنرال ميتلند كانوا مهمومين، وهم يعززون سمات أصلية وحامية للعربى الجنوبي، بالبشرة، الشعر، اللغة ومئات السمات الأخرى الخاصة بالقيمة العرقية، التى سنتناولها، فيما بعد، بالمزيد من الشرح والتوضيح.

بغض النظر عن رأينا فى الطبيعة العرقية لهذه القبائل الجنوبية، يتعين علينا النظر إلى هذه القبائل، والحديث عنها من منطلق إنها من عرب الجنوب. يتفق المراقبون جميعاً على وجود فارق كبير بين العربى الشمالى والعربى الجنوبي. ومن المصادفات أن النقيب توماس عندما كان يأخذ مقاييس رؤوس أفراد القبائل الجنوبية، كان السيد هنرى فيلد، أمين مكتبة الأنثروبولوجى، فى متحف فيلد، فى شيكاغو، يطبق هذه المعايير القياسية على قبيلة من العرب البدو الخُلص فى المنطقة المجاورة لمنطقة كيش، فى بلاد الرافدين. وعليه؛ فإن مدى اختلاف العربى الشمالى عن العربى الجنوبي، من حيث الشكل وحجم الرأس، سوف نوضحه فى الخريطة المرفقة التى تحمل الرقم ١. هذه الخريطة توضح أن البدو

الكيشيين (عدد ٢٨) ممثلون بحرف ال O، فى حين نجد عرب النقيب توماس (عدد ٤٠) ممثلين بحرف O المطموس. وهذا يسهل على القارئ الوقوف على مضمون هذه الخريطة واستيعاب هذا المضمون. والخطوط الرأسية فى هذه الخريطة تشير إلى طول الرأس، والذى يبدأ بقرابة ١٦٠ ملم. وهذا رأس شديد القصر، وينتهى عند ٢١٠ ملم- وذلك رأس شديد الطول.

على الجانب الآخر، نرى أن الخطوط الأفقية تشير إلى عرض الرأس، الذى يبدأ من ١٦٠ ملم، وهذا رأس عريض جداً. والرجل الذى يصل طول رأسه إلى ١٩٠ ملم، وعرضه إلى ١٣٠ ملم، يجرى توضيحه على الخريطة فى النقطة التى تتقاطع عندها الخطوط الرأسية مع الخطوط الأفقية. والخريطة تحتوى على أربعة خطوط قطرية هى ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ و ٨٥، وتمثل الحدود التى بين المجموعات الخمس التى تختلف أشكال رؤوسها. وفى الرؤوس التى من هذا القبيل والتى تقع فوق الخط "٧٠" يكون عرض الرأس فيها قرابة ٧ فى المائة. أو أقل من ذلك من حيث الطول؛ هذا يعنى أن الرؤوس التى تكون من هذا القبيل تكون شديدة الضيق *ultra - dolichocephalic* ، أما الرؤوس التى تقع بين الخط ٨٥ فيكون عرضها قرابة ٨٥ فى المائة، أو أكثر من الطول؛ والرؤوس التى من هذا القبيل تكون شديدة الاستدارة *ultra-brachycephalic*. وسوف نلاحظ فى هذه الخريطة أن العرب الجنوبيين وحدهم يقعون ضمن المجموعة ذات الرؤوس شديدة الاستدارة. وسوف نلاحظ أيضاً فى هذه الخريطة أن العرب الكيشيين وحدهم يقعون ضمن المجموعة ذات الرؤوس شديدة الضيق. أما الرؤوس التى تقع بين الخطوط من "٧٠" إلى "٨٠" - والتى يتردد عرضها بين ٧٥ إلى ٨٠ فى المائة من الطول- تشكل مجموعة وسطية *mesocephalic*. والعرب الشماليون هم والعرب الجنوبيون يقعون ضمن هذه المجموعة، لكن كان من ضمن العرب الجنوبيين الستة اثنان من الصوماليين. ونجد أيضاً الخطوط من "٧٠" إلى "٧٥"، تشكل المجموعة ذات الرؤوس شديدة الضيق- أو بالأحرى الرجال الذين يزيد عرض رؤوسهم على ٧٠ فى المائة؛ وتحت ٧٥ فى المائة من الطول. هذه المجموعة لا يوجد فيها عربى جنوبى واحد- أى أنها مقصورة على العرب الشماليين أو إن شئت فقل العرب الخُلص. وهناك أيضاً مجموعة مستديرة الرأس *brachycephalic*

تزيد نسبها المئوية- وإن شئت فقل مقاييس الرأس، على ٨٠ فى المائة - ولا يوجد فى هذه المجموعة سوى اثنين فقط من العرب الشماليين؛ أما باقى أفراد المجموعة فهم من العرب الجنوبيين. وبذلك يمكننا إيجاز النتائج الموضحة على الخريطة، ونقول إن الأعداد فى كل مجموعة من مجموعات الرُّؤس على النحو التالى:

شديدة الاستدارة	مستديرة	متوسط الضيق	ضيقة	شديدة الضيق	
عرب الشمال	٨	٢٢	٦	٢	صفر
عرب الجنوب	صفر	صفر	٦	١٣	٢١

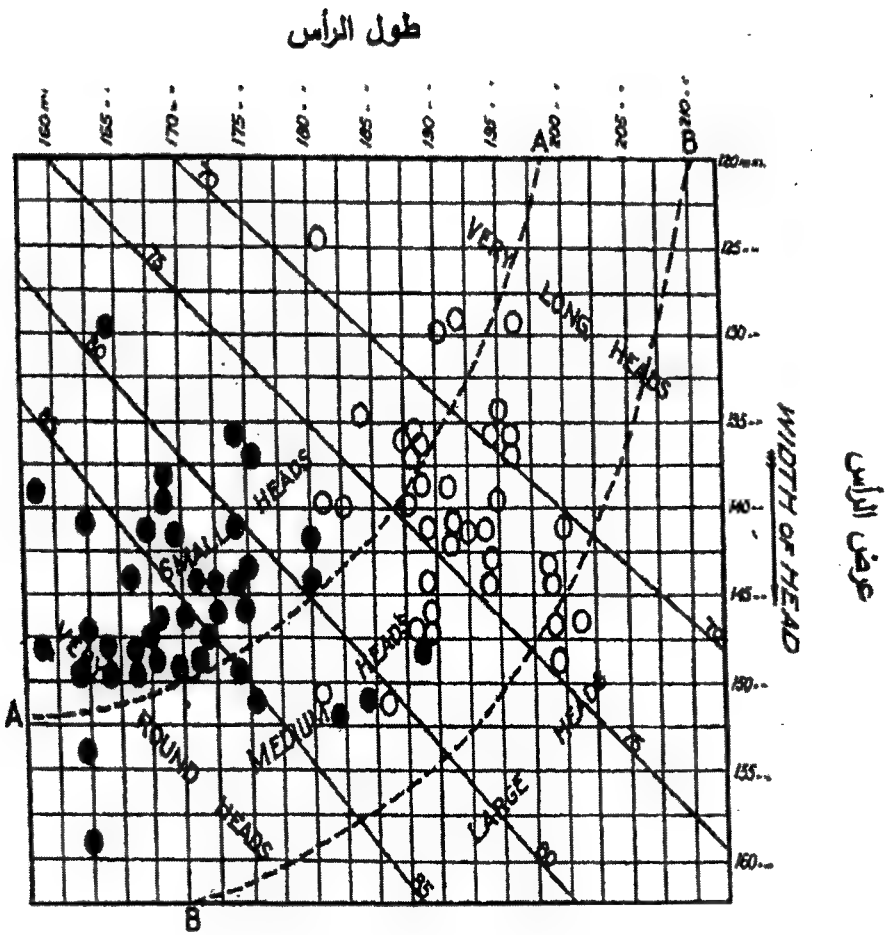
فيما يتعلق بشكل الرأس نجد أن العربى الشمالى والعربى الجنوبى يشكلان نقيضين - العربى الشمالى ضيق الرأس، والعربى الجنوبى مستدير الرأس. واقع الأمر أن النسبة الخاصة بعرض الرأس منسوباً إلى طوله، توضح أن العربى الشمالى يتأصل فيه العرق الحامى أكثر من العربى الجنوبى. وسوف نعود من جديد إلى قيمة مؤشرات الرأس بغية التوصل إلى شكل من أشكال التمييز العرقى. يزداد على ذلك أن الخريطة كشفت عن خاصية أخرى يجدر بنا هنا أخذها بعين اعتبارنا. ونحن نرى، أن الحجم الحقيقى للرأس، له الأهمية نفسها التى تشكل الرأس، ونحن نبحث عن القربايات العرقية؛ وتتجلى هذه الأهمية أيضاً عندما نحاول تقييم موهبة المخ فى شعب من الشعوب. وهنا يجب أن نكون على بينة من أن طول الرأس وعرضه هما مجرد إشارة ضعيفة على حجم المخ. ومع ذلك، وفى الأبحاث المبدئية، التى من قبيل البحث الذى بين أيدينا، نجد أن بُعدى طول الرأس، وعرضه يعدان خاصية بارزة وملحوظة فى العرب - سواء أكانوا من عرب الشمال أم عرب الجنوب - وبالتحديد صغر رؤوسهم وصغر أمخاخهم. قام واحد منا (هو السيد و. م. ك)، بإدخال خطين منحنين فى الخريطة المعنونة الشكل رقم ١. هذا يعنى أن أبعاد الرأس تزداد بصورة مُطَّردة من أعلى الركن الشمالى إلى أسفل الركن فى الجانب الأيمن. هذان الخطان المنحنيان جرى رسمهما على نحو يقسم الرُّؤس التى تقع فوق وإلى اليسار من الخط أ (A)، المجموعة أ (A)، صغيرة، أى أنها تصل إلى قرابة ١٣٢٥ سنتيمتراً مكعباً أو أقل من ذلك، أصحاب الرُّؤس التى تقع أسفل وإلى اليمين من الخط ب (B)، وتصل

المجموعة ب (B) إلى قرابة ١٤٧٥ سنتيمتراً مكعباً أو أكثر رؤوس كبيرة، فى حين نجد أن الرؤوس التى تقع بين الخطين هى مجموعة وسيطة أو متوسطة من حيث الحجم. وفيما يتعلق بحجم الرأس عند بدو الشمال، نجد أن حجم رأس البدوى الشمالى يمثل القبلى الجنوبي على النحو التالى:

عرب الشمال	صغر الرأس	وسطية الرأس	كبر الرأس
١٠	٢٥	٣	
عرب الجنوب	٣٣	٧	صفر

يتبين لنا هنا أن النقيب توماس تعامل مع قبليين ليسوا فحسب أصحاب رؤوس شديدة الاستدارة؛ وإنما كانوا أيضاً صغار الرؤوس بشكل ملحوظ- وذلك عندما نقارنهم بالبدو الحقيقيين- لكن فيما يتعلق بحجم الرأس نجد البدو يحتلون مكانة متدنية نسبياً؛ إذ لا يدخل من بين أعضاء الجماعة البالغ عددهم ثمانية وثلاثين عضواً، سوى ثلاثة أعضاء فقط يدخلون ضمن المجموعة الأعلى - يقعون فوق متوسط جمجمة الرجل الإنجليزي العادى- التى نقدرها بقرابة ١٤٧٥ سنتيمتراً مكعباً. هذا يعنى أن التعرض للظروف الصحراوية يمكن أن يساعد فى المحافظة على أو تحفيز خصائص جسمانية وعقلية معينة، لكن من الواضح أن هذه الظروف لم تشجع على نمو المخ. يزداد على ذلك أن البشر الذين عثر السيد/ ليونارد وولى، على رفاتهم فى مقابر مدينة أور القديمة، والذين عزا الرجل وجودهم إلى الألف الرابعة قبل الميلاد كانوا طوال الرؤوس وكبار الرؤوس أيضاً.

أبرزت خريطتنا أيضاً فروقاً حاسمة تماماً بين أشكال وأحجام الرأس عند عرب الجنوب الذين قام النقيب توماس بإجراء القياسات عليهم، وعند البدو الكيشيين الذين أجرى هنرى فيلد قياساته عليهم، ومع ذلك فإن تحليلنا لم يقترب بنا إلى القرار الذى يمكن لنا اتخاذه بشأن القرابات العرقية للعربى الجنوبي ترى، إلى أى فرع كبير من السلالة البشرية، يمكن أن نعزو إليه هؤلاء البشر الذين قام النقيب توماس بقياس رؤوسهم وتصويرهم فى جنوب الجزيرة العربية؟ ولعلنا نبدأ بمواطنى الركن الجنوبي الشرقى من شبه جزيرة العرب- وبخاصة العمانيون. الشكل رقم ٢ يوضح بروفيلاً لرجل عُماني؛ ويبدو الرأس مرتفعاً من فوق الأذنين؛



O = بدو كيش (٣٨) (هنري فيلد)
 • = العرب الجنوبيون (٤٠) (برنارد توماس)

الشكل ١ - خريطة تبين حجم وشكل الرأس
 (١) عرب الشمال الخُص؛ (٢) عرب الجنوب

ويرتفع مؤخر الجمجمة منحدرًا من عند العنق؛ يزداد على ذلك أن الأذنين شديداً القرب من مؤخرة الرأس- كما هو الحال في الشعوب قصيرة الرأس والشعوب مستديرة الرأس. أبعاد رأس هذا الرجل هي ٨٢,٧- والعرض ٨٢,٧ فى المائة، من طول الرأس. والأنف طويل، وبارز، ومعقوف إذا ما نظرنا إليه مباشرة، كما هو مبين فى الشكل رقم ٣. ونحن نلاحظ من الخريطة أيضا الشفتين الممتلئتين والكبيرتين والتوزع غير الكثيف للحية من أسفل الشفة السفلى وفوق الخدين العلويين- وشعر الرأس أسود وغير قابل للتجعد. والوجه طويل، واللون بنى فاتح، والقامة يبلغ طولها قرابة خمس أقدام وست بوصات ونصف البوصة. والشكل رقم ٤ عبارة عن بروفيل أرمينى أصيل من آسيا الصغرى، وقد اختار الأنثروبولوجيون النمساويون هذا البروفايل ليكون ممثلاً للنوع الأرمينى. والرأس أكثر ارتفاعاً، والجزء الخلفى من الجمجمة أكثر تسطحاً، والأنف أكثر بروزاً ويتسم بالكثير من سمات العرق السامى، عنه بالسّمات العمانية. هناك قدر كبير من الفروق الصغيرة بين هذا الأرمينى وذلك العمانى، ومع ذلك هناك أوجه شبه فى النقاط التى سبق الإشارة إليها، الأمر الذى يجعلنا ننظر إلى هذين العضوين من السلالة نفسها- بغضّ النظر عن الاسم الذى قد نطلقه على شعب آسيا الصغرى الذى له مؤخرة جمجمة مسطحة. والشكل رقم ٥ عبارة عن بروفيل لقبيلة عجيبة من قبائل مدراس، ويدرجه ثرستون ضمن القبائل التى تستوطن تلك المنطقة. وهنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع السمات الأرمينية البارزة- لكن أوجه الشبه التى ترتبط العضو العمانى بهذا العضو المدراسى العجيب، أكثر قريباً وأكثر عدداً من أوجه الشبه التى تربط هذا العضو العمانى بالعضو الأرمينى الأصيل فى آسيا الصغرى.

وهنا نقول: إن الأرمينى من مواطنى آسيا الصغرى، التى هى موطن السلالة الأرمينية- وأعضاء هذه السلالة مؤخرات رؤوسهم مسطحة، رؤوسهم مرتفعة، وأنوفهم معقوفة بشكل واضح، ووجوههم طويلة- وهذا الموطن عبارة عن رقعة واسعة بين آسيا وتمتد من بامير إلى الليفانت. وهنا، نتساءل عن الطريقة التى تمكّنتنا من تفسير تسوّء الملامح الأرمينية لكل من عُمان وبعض مناطق الهند، والسبب فى ذلك أننا لا يمكن أن نسلم بأن السلالة الأرمينية نشأت فى الهند

اللهم باستثناء مسألة الانتقال. وهنا نجد أن التفسير الوحيد الذى يروق لنا يتمثل فى الهجرة التجارية المبكرة من بلاد فارس أو من البلاد المجاورة الموجودة على امتداد الخليج الفارسى وتصل إلى الهند. وهنا نجد أن الاكتشافات التى توصل إليها السير جون مارشال فى وادى نهر الأندوس تثبت أن بلاد الرافدين والشمال الغربى من الهند كانا مرتبطتين بالتجارة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وهنا نجد أنفسنا نقترض أن البشر أصحاب الرؤوس المستديرة الذين يعيشون فى رقعة بامسر- الليفانت، استطاعوا بصورة أو أخرى الانتشار جنوباً وزرعوا سماتهم الرئيسية فى أماكن محددة على الخليج الفارسى بل وفى أماكن أبعد من ذلك، وهنا نجد أنفسنا نتفق مع الدكتور سلجمان فيما قاله عن العمانيين؛ هذه السلالة توضح أو تُظهر ملامح أرمنية محددة. ومع ذلك، نجد أن هذه السلالة، تمتلك إلى جانب هذه الملامح والسمات، سمات كثيرة ولامح كثيرة أخرى تربطها بالقبائل التى تحدث عنها النقيب توماس، والتى ذكر أنها تعيش على امتداد السواحل الجنوبية للجزيرة العربية.

قد يكون من المفيد هنا أن نقطع خيوط جدلنا الرامى إلى توضيح السمات والقسمات الحامية فى عرب جنوب الجزيرة العربية- بغية تقديم دليل آخر جرى استقاؤه من دراسة الجماجم، يوجد فى متحف كلية الجراحين بمجمعتان يتعين علينا وصفهما مبتغين بذلك إبراز الحقيقة التى مفادها أن استدارة الرأس عند العمانيين وعند الأرمن الحقيقيين. هاتان المجمعتان واحدة منهما من عمان وتكشف عن قسمات وسمات أرمنية بحق وحقيقة. والمجمعة الثانية حصل عليها النقيب توماس من قبر من أيام الجاهلية- فى وسط الجنوب- وتكشف هى الأخرى عن شكل من أشكال استدارة الرأس مختلف عن الشكل الذى جرى العثور عليه من الجماجم الأرمنية (راجع الشكل رقم ٨ ، ٩)، والتعليق التالى أعده واحد منا هو (و.م.ك):

"استطاع النقيب توماس أن يحضر معه جمجمة واحدة فقط، ينقصها أحد الفكين، وهذه الجمجمة تمثل قبائل جنوب الجزيرة العربية- هذه الجمجمة "جرى استخلاصها من قبر صخرى فى جنوب الجزيرة العربية - واقع الأمر أن هذه الجمجمة لم يتبق منها سوى التراب. وهذا الشكل من أشكال الدفن فى تجاويف صخرية كان شائعاً فى أيام الجاهلية، وهذا الشكل من أشكال الدفن

لا يجرى اللجوء إليه حالياً إلا عندما يتوفى أحد المسافرين ولم تكن لدى رفيقه وسيلة تمكّنه من حفر قبر شرعى". ونحن نرجح أن تكون هذه الجمجمة لشاب بالغ يتردد عمره بين ٢٥ - ٣٠ عاماً. خصائص وسمات الجنس ضعيفة التطور فى هذه الجمجمة، وجبهة الجمجمة ملساء، وفى منطقة ما بين الحاجبين، بروز طفيف جداً؛ هذا البروز يظهر بشكل يكاد يكون غير ملحوظ؛ والخشآن(*) صغيران، والحنك صغير جداً وضحل؛ كل الجزء الأسفل من الوجه صغيراً، على الرغم من أن الانطباع يعززه تجويف بين فقدان القاطعين الأول والثانى من الناحية اليمنى.

غرز خياطة قبو الجمجمة واضحة تماماً، وتوحى ببداية الغلق فى الجزء الخلفى الشبيه برأس السهم. وكل هذه الأجزاء بسيطة، فيما عدا اللمبادويد، ذلك الجزء الذى على شكل حرف الـ A الإنجليزى ويربط بين هذه الأجزاء. وجدير بالذكر هنا أن هناك مفصلاً متحركاً أمامياً فى الجانب الأيمن من الجمجمة.

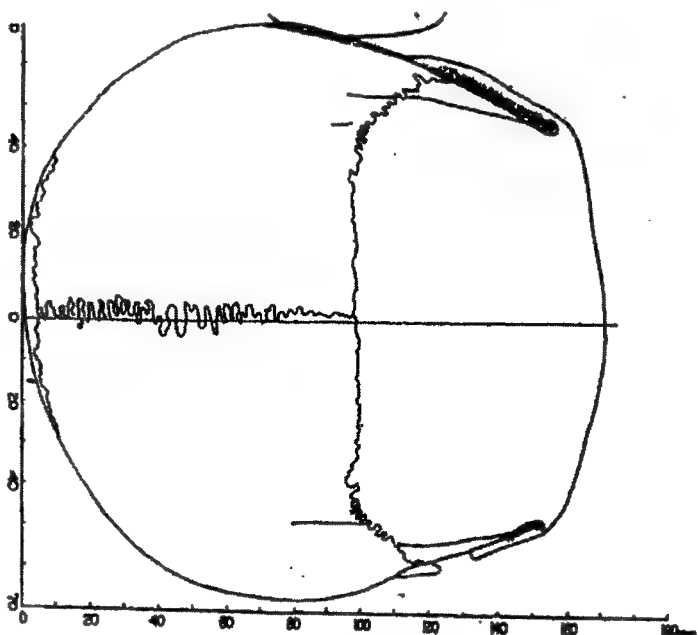
الجمجمة مستديرة (استدارة الرأس ١٢, ٨٠ والمقياس المثالى ٨٢, ١، وإذا ما أردنا شكل الجمجمة الحية فنحن نضيف ٨ ملم للطول و ١٠ ملم للعرض)، استدارة العظم ٨, ٧٦؛ وإذا ما صححناها للجمجمة الحية تصبح ١٦, ٧٤. والقوس الخلفى كامل تماماً، والطول من خلف الأذن يقدر بقرابة ٥٣ فى المائة من إجمالى طول الجمجمة. والجمجمة من جانب الرأس ببيضوية الشكل تقريباً، والقوس الخلفى كامل النمو تماماً.

الوجه منخفض (مقياس الوجه العلوى ٥, ٤٩). تقوُس الخدين عبارة عن تقوس طفيف ويرتفع هذان التقوسان من عظمة الخد العلوى ارتفاعاً متدرجاً نحو الأعلى وينحدران ناحية الجنب، ويستمر ذلك الانحدار إلى أن يتصلا بالعظام الحاوية للمخ، والجزء من عظام الخدين الداخلى فى الوجه قصير جداً. وفتحة الأنف متوسطة العرض، والجزء الأوسط من الأنف (٥, ٤٨) غير بارز وبيضوى الشكل. الحافة السفلى من الأنف شديدة الوضوح، والعمود الأنفى بارز. قنطرة الأنف مرتفعة وعظام الأنف تلتقى بزاوية حادة. يضاف إلى ذلك، أن المنظر الجانبى يُظهر الأنف وكأنه غير بارز تماماً. تجويفا العينين متوسطا الارتفاع (٥, ٨١).

(*) واحده خشاء، وهو العظم الناتئ خلف الأذن. (المترجم).

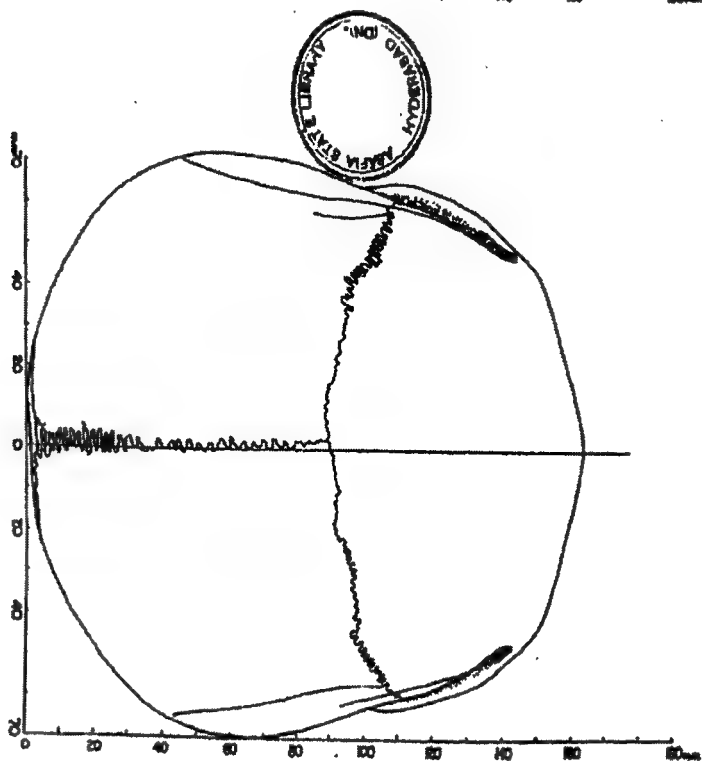
ونحن نرجح هنا مسألة أن شعباً له السمات والخصائص الأرمنية اختلط دمه فى وقت من الأوقات بدم أسلاف القبائل الجنوبية؛ ولكن هذا الاعتراف لا يعنى بحال من الأحوال أننا نقطع بانتماء عرب جنوب الجزيرة العربية إلى السلالة الأرمنية القوقازية.

قد يكون من المفيد هنا، قبل الشروع فى مناقشة السمات التى كشفت عنها الصور التى التقطها النقيب توماس لعرب الجنوب، التطرق إلى ذلك الدليل الذى يمكن بل وينبغى أن يكون دليلاً ومرشداً لنا فى تحديد مكانة ذلك الشعب الذى اكتُشِفَ حديثاً، داخل أى إطار من أطُر التصنيف العرقى. نحن نعرف أن علماء الأنثروبولوجيا المحترفين ولّدوا لدينا انطباعاً مفاده أن أى عرق من الأعراق الإنسانية يكن التعرف عليه عن طريق مقياس الرأس وحده، والجسم، ولون البشرة، ونوعية الشعر، مستخدمين فى ذلك مؤشرات المقاييس المستعملة فى مثل هذه الأمور.. إلخ. ونحن إن قدرّ لنا بناء منظومة علمية معرفية خاصة بالأعراق- منظومة يستطيع كل العاملين فى هذا المجال، الإسهام فيها، فذلك يحتم أن تكون هناك مقاييس فعلية دقيقة ومضبوطة. وهنا يتعين ألا يغيب عنا أن كل رجل وكل امرأة ولدت فى هذا العالم، يُعدّ أو تُعد بطبيعته أو طبيعتها- طالباً أو طالبة فى مجال وميدان السلالات البشرية. من هنا نقول: إننا لسنا بحاجة إلى عون فنى يساعدنا على تعرف الزنجى، الصينى، الأوروبى، البوشمن، إلخ، والسبب فى ذلك أن هذه الأعراق تتوارد علينا ونراها فى الشارع، ويكفى أن نلقى على هؤلاء نظرة عابرة نحصل بعدها على مئات السمات والخصائص التى تميز هذه الأعراق. هذا يعنى أن المستكشفين هم والرحالة يصبحون خبراء مدهشين فى مسألة تعرف - من الوهلة الأولى- أعضاء القبائل والشعوب، فى أى مكان يلتقون أو يصادفون فيه هذه الأعراق؛ هؤلاء المستكشفون والرحالة يستطيعون عن طريق النظر فقط إلى هذه الأعراق، يستطيعون تحديد هوية هذه الأعراق ومواطنها. ونحن لا يمكن أن نتطلع مطلقاً إلى جعل مناهجنا الفنية تستسلم فى سهولة ويسر للنتائج التى توصل إليها هؤلاء الرحالة والمستكشفون؛ معتمدين على حواسهم وتقديراتهم الشخصية فى تعرف هذه الأعراق. وعلى سبيل المثال، لا الحصر، فإن النقيب توماس يورد رأى سلطان مسقط ليكون داعماً له فى مسألة



الشكل رقم ٨

مستطع علوى لجمجمة عربى جنوبى (من الحسيك)
(متسوى فرائكفورت)



الشكل رقم ٩

مستطع علوى لجمجمة عمانى
(متسوى فرائكفورت)

القراية التى بين عرب جنوب الجزيرة وشمال شرق أفريقيا وليس مع عرب الشمال، يقصد شمال الجزيرة العربية. هذا رأى، أى رأى سلطان مسقط، يستحق الاعتداد والتقدير؛ وذلك من منطلق أن السلطان يتعين عليه من يوم إلى آخر القيام بالتعريفات العرقية، كما أن هذا السلطان لديه أيضاً خبرة كبيرة بالشعوب التى تعيش على المناطق الساحلية بدءاً من زنجبار إلى بومباى، وقد استطاع النقيب توماس، بفضل استعماله هذه العطايا والهبات الطبيعية، التوصل إلى النتيجة التى مفادها أن العربى الجنوبى ينبغى إدراجه ضمن الأعراق الحامية بدلاً من وضعه أو إدراجه ضمن العرق السامى من الجنس البشرى. ونحن عندما نستعرض وندرس الصور التى جاء بها إلينا النقيب توماس، نجد أن هذه الصورة تؤيد النتيجة التى توصل إليها هذا الرجل. هذه الصور توضح لنا أن هذا العربى الجنوبى يطالعنا بخليط غريب من السمات والقسمات. هذا العربى الجنوبى مجعد الشعر، يكاد يكون بلا لحية، وله بشرة قاتمة- تكاد تكون سوداء، له أيضاً جسم صغير، فضلاً عن أن قسمات وجهه تحمل شبيهاً من الأعراق التى تعيش فى تلك الأجزاء من أفريقيا القريبة من جنوب الجزيرة العربية- الصوماليون، الدناكيل، الهدندوا، المصريون- وذلك طوال فترة ما قبل الأسر الملكية، وفترة الأسر الملكية، والأزمان الحديثة- لكن هناك سمات وملامح أخرى كثيرة هى من سمات وقسمات العرق القوقازى- وللمزيد من الدقة نقول: العرق السامى القوقازى، ونحن نصادف فى الشمال العيون السوداء الشبقية الكبيرة، فى شمال الجزيرة العربية وفى الجنوب أيضاً. قسمات الوجه وتعبيراته، الأنف والشفتان- اللتان غالباً ما تكونا ممثلتين- كل ذلك عبارة عن سمات وقسمات قوقازية. ومع ذلك، نجد أنفسنا نصادف بين هؤلاء البشر، وبخاصة فى مرحلة الطفولة، ملامح وقسمات تذكرنا بقسمات وسمات مواطن جنوبى الهند، بعض النسوة قسمات وسمات وجوههن تنتمى إلى العرق الحامى؛ ومع ذلك، وهذا هو ما سنأتى على ذكره بعد قليل، فإن هناك بعض الأفراد فى الجنوب لهم وجوه شبيهة بوجوه الكباش، وهذه السلالة تصادفنا بصورة متكررة فى كل من بلاد فارس، وفى أفغانستان، وفى البامير، وفى وديان الضفاف الغربية لجبال الهمالايا- وعرب الشمال (البدو بصفة خاصة) يبدوون للعين الخبيرة الدارسة قوقازيين أو ساميين

قوقازيين. والعربى الجنوبي عندما نقارنه بالعربى الشمالى نجد أنه نصف قوقازى؛ أما بقية عرب الجنوب فهم من العرق الحامى- أو العرق الدرافيدى.

وهنا نقول: إن الأنثروبولوجيين عندما يصادفون شيئاً له سمات وقسمات مختلطة، فإنهم غالباً ما يسارعون إلى التسليم بأن هذا الشعب من أصل خلاسى، ومسألة وجود السمات والقسمات الأرمنية فى عرب جنوب الجزيرة العربية تدعم هذا التفسير. ومع ذلك، لا يزال يتعين علينا، حتى مع اعترافنا بهذا الخلط العرقى، تفسير السمات والقسمات الحامية الموجودة فى الجنوب.

وهنا نجدنا نمضى فى طريقنا إلى اكتشاف نظرية جديدة تُعيننا على تفهّم الأسباب التى تحتم على شعب جنوب الجزيرة العربية أن يكون شبيهاً بالمواطنين المجاورين له فى أفريقيا من ناحية، ومواطنى الهند من الناحية الأخرى. هذا يحتم علينا أيضاً تفسير السمات والقسمات الأرمنية والمعطيات الجديدة التى أمامنا والتى جاءتنا بفضل المهام الجسورة التى قام بها النقيب توماس فى تلك الأرض المجهولة، على أنها هى خير عون للنظرية التى سنقوم بتقديمها.

معروف أن الحزام الأسود من الجنس البشرى، هو بمثابة لغز الأنثروبولوجيا الحديثة. هذا الحزام الأسود يبدأ من أفريقيا ويمتد إلى مواطنى الجزر الميلانية فى المحيط الهادئ عند كل طرف من طرفى هذا الحزام الأسود، أى فى كل من أفريقيا وميلانيزيا، نجد شعوباً سوداء البشرة؛ مجمعة الشعر، تكاد تكون بلا لِحَى، فضلاً عن طول الرأس ونتوء الفكين، ونحن لا يمكن أن نسلم أن هذه الشعوب الزنجية- على الرغم من عزلتها الكبيرة فى الوقت الحالى- انفصلت بعضها عن البعض. وهذا يجعلنا نفترض أن هذا الحزام زنجى الأصل، قام فى يوم من الأيام بعبور العالم القديم، وقام باحتلال أراضٍ وسيطة، فى الجزيرة العربية، بلوخرستان، الهند، وفى مناطق أبعد من الهند، فى الفلبين وأرخبيل الملايو. ونحن نسلم أكثر من ذلك، أن الأجزاء الوسيطة من ذلك الحزام زنجى الأصل، اعتورها شىء من التحور، الأمر الذى أدى إلى قيام الشعوب الحامية فى أفريقيا، وأبناء عمومتهم الدرافيديين هم والشعوب نقية البشرة فى الهند. وطبقاً لنظريتنا، فإن شبه جزيرة العرب كانت مأهولة، فى وقت من الأوقات، بشعب

وسيط بين الصوماليين من ناحية والشعوب الدرافيدية فى الهند من ناحية أخرى، بعد ذلك، وفى تاريخ غير معروف، فوجئ ذلك الحزام الأسود بفورتين جاءتا إليه من الشمال. تختلف الفورة الأولى فى السلالة المغولية، التى ظهرت فى الجزء الشمالى من جبال الهماليا، وتقدمت هذه السلالة فى اتجاه الجنوب إلى أقصى الهند، وأرخبيل الملايو، إلى أن وصلت إلى جزر المحيط الهادئ، متجاهلة، اللهم باستثناء المناطق المنعزلة- الحزام زنجى الأصل، وبذلك تكون هذه السلالة قد فصلت شعب الهند عن البشر فى ميلانيزيا. حدث أيضاً اختراق عرقى آخر أدى- بالمعنى العرقى إلى فصل الهند عن أفريقيا. والدليل الواهن الذى لدينا يجعلنا نصدق أن السلالة القوقازية ظهرت فى غرب آسيا، وإلى الشمال من الأراضى المرتفعة التى ظهرت فى غرب آسيا، وإلى الشمال من الأراضى التى تربط بين جبال الهمالايا بسلسلة جبال آسيا الصغرى. وهنا نجد أن هذه السلالة القوقازية انتشرت جنوباً إلى شبه جزيرة العرب وإلى الأراضى التى تربط بلاد الرافدين بالبنجاب، وبلاد فارس، وبلوخستان وأفغانستان. وفى زمن هذا الانتشار القوقازى- الذى ربما يكون قد حدث فى أواخر عصر البليستوسينى pleistocene كانت الجزيرة العربية أرضاً خصبة جيدة الرى- وإن شئت فقل أرضاً تجذب إليها الصيادين المغامرين. وإذا كانت نظريتنا رصينة، فذلك يعنى أننا يحق لنا أن نعثر فى أقصى جنوب الجزيرة العربية، على آثار للشعب الحامى الأصلى. وقد يكون من الحكمة والمنطق هنا أن نسلم بأن الغزاة القوقازيين، قبل وقت طويل، من احتراقهم فى أقصى الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية، قد اكتسبوا شيئاً من الدم الحامى، أو إن شئت فقل إن الشعوب التى استوطنت الجنوب قد تشربت الكثير من دم الغزاة، وهذه النظرية تساعدنا، فى أضعف الأحوال؛ على تفسير السمات والخصائص العرقية التى لاحظها النقيب توماس فى عرب الجنوب. ويجب التنويه هنا إلى أن هذه النظرية تبلورت لدينا قبل أن يضع النقيب توماس ملاحظاته بين أيدينا.

كيف لنا بتفسير استدارة رأس العربى الجنوبى؟ على الرغم من أن العربى الجنوبى ليس له قفا مسطحة عالية، وهى القفا نفسها التى يشتهر بها الأرمن، فإنه مستدير الرأس تماماً. ونحن ننظر إلى جنوب الجزيرة العربية باعتباره

واحدة من واحات الرأس المستدير وسط صحراء عريضة من الرؤوس الضيقة. ونحن لا نرجح حدوث استدارة الرأس في جنوب الجزيرة العربية، نتيجة عملية تطوير مستقلة؛ والأكثر ترجيحاً هو أن هذه السمة جاءت إلى عرب الجنوب من عرب الشمال. وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال التالي: هل كان الغزاة القوقازيون، الذين غزوا شبه جزيرة العرب، مستديري الرؤوس؟ وهنا نجد أن الدليل الذي استقيناه من مقابر بلاد ما بين الرافدين، وفي ضوء فهمنا لهذا الدليل، يقول: إن هؤلاء الغزاة كانت لهم رؤوس طويلة وكبيرة. وهنا نجدنا نرجح أن جنوب الجزيرة العربية لم يجر غزوه من القاعدة الشمالية في شبه جزيرة العرب، وإنما جرى غزوه من أراضٍ على الجانب الشرقي من الخليج الفارسي وخليج عُمان. يقع إلى الشمال من هذه الأراضى المركز الرئيس للرؤوس القوقازية المستديرة. وهنا يتعين علينا ألا نبحث عن استدارة الرأس في أرمينيا وإنما في بلوخستان وبلاد فارس. والجندى اليافعى جالس القرفصاء في الصف الأمامى، والجندى الثانى الموجود على يسار الناظر (فى الصورة المقابلة لصفحة ٢٤ و ٢٥)، تبرز الملامح التى نصادفها فى أغلب الأحيان فى البلدان الواقعة إلى الشرق وإلى الشمال من الخليج الفارسي.

إلى هنا نكون قد أنهينا حديثنا عن النظرية المذكورة، ويتعين علينا تناول المسائل الأنثروبولوجية ذات الأهمية الأكبر- أقصد التسجيلات التى قام بها النقيب توماس عن مسألة عرب جنوب الجزيرة العربية- وبخاصة مسألة القياسات التى قام بها الرجل والصور التى التقطها. والجزء التالى عبارة عن جزء من التقرير الذى أعده واحد منا (هو و. م. ك)، لكن فيما يتعلق بالتصريحات فإن المؤلفين مسئولان عنها.

"لقد أثبتت المعطيات التى وضعها برترام توماس تحت تصرفنا أنها معطيات عظيمة القيمة، ليس فقط فى تفسير موقف عرقى محير، وإنما فى اقتراح خطوط اتصال عرقية والتلميح إلى الطريقة التى جرى بها تنفيذ التطور البشرى. واقع الأمر، أننا يمكن أن نزيد على ذلك أن القيمة الأعظم لهذه المعطيات تكمن فى الحقيقة التى مفادها، أن هذه المعطيات تقدم لنا مشكلات مهمة يتعين حلها فقط عن طريق المزيد من الأبحاث".

القياسان اللذان قام بهما النقيب توماس هما قياسان فقط، وقد تمثل ذلك فى قياس طول الرأس، من المواجهة، وطول المسافة بين الحاجبين، والعرض، وأقصى اتساع إن وجد. والمؤشر الناجم عن ذلك، مؤشر طول الرأس، يشكل نسبة عددية بين الطول والعرض، وهذا المقياس أو المؤشر يعد منذ زمن طويل مؤشراً مفضلاً فى عمل المقارنات العرقية. تناول هذا القياس اثنين وأربعين عضواً فقط منهم سبعة وثلاثون عضواً من الكبار وخمسة أطفال، يزداد على ذلك أن الأعضاء الاثني والأربعين مقسمون على عشر قبائل: (ستة) من الصوماليين، (خمسة) من اليافعيين، (واحد) من المسائيين، (خمسة) من المهره، (سبعة) من القراوين، (تسعة) من الشهارين، (أربعة) من الكثيريين، (واحد) من الشهارين، (واحد) من الحراسيس، (ثلاثة) من العمانيين. والنتائج التى يمكن التوصل إليها، هى مجرد احتمالات. يضاف إلى ذلك، الحقيقة المهمة التى مفادها، أن المادة التى تحت تصرفنا تُعد مادة قِيَمَة من منطلق أنها بحد ذاتها تعطينا مفاتيح عديدة لأصول العرقية فى جنوب الجزيرة العربية.

ونحن عندما نأخذ مؤشر طول الرأس بعين اعتبارنا، نجد أنه يهين لنا تصنيفاً عشوائياً لرؤوس طويلة، ورؤوس مستديرة، وتدرجات وسطية بين هذا وذاك. ونحن عندما نسير فى هذا الاتجاه نجد أنفسنا نتجاهل النسب العددية المتعلقة بهذه المسألة والداخلة فى هذا التصنيف. وهنا يتعين أن يكون واضحاً لنا تماماً أن طول الرأس فى شعب من الشعوب قد لا يكون مثيلاً لطول الرأس. فى الشعوب الأخرى؛ وقد يكون الشعب الأول قد حصل على استدارة الرأس عن طريق قصر الجمجمة أكثر من اللازم؛ وقد يكون الشعب الآخر قد حصل على استدارة الرأس عن طريق جمجمه أعرض من اللازم؛ وهنا تتجلى أهمية الأبعاد المطلقة فى التحليل المفصل بشكل الجمجمة.

وإذا ما استثنينا الصوماليين، نجد أن كل قبائل جنوب الجزيرة العربية التى قام بقياسها النقيب برترام توماس هى قبائل طويلة الرأس، وهذا يؤكد ما قاله من قبل الأستاذ الدكتور سى. جى. سلجمان^(١).

ونحن نورد فيما يلى مؤشرات ومتوسطات قياس الرؤوس، وقد جمعنا القبائل على أساس من الموقع الجغرافى، من الغرب إلى الشرق، لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

(١) سلجمان، س. جى- فى مقاله المعنون: "الخصائص الطبيعية للعرب"، المنشور فى مجلة المعهد الملكى للأنثروبولوجيا، العدد ٤٧، فى العام ١٩١٧، من ص ٢١٤ - ٢٧.

قائمة قياسات عرب جنوب الجزيرة العربية
كما أوردها النقيب برترام توماس

المؤشر	العرض	الطول	القائمة	العمر	المجموعة الصومالية:
٧٩,٥٧	١٣٠	١٦٣	٥٠ ~٤¾	٢٠	١
٧٨,٢٨	١٣٧	١٧٥	٥٠ ~٤½	٢٠	٢
٨١,٦٥	١٣٨	١٦٩	٥٠ ~٤½	٢٠	٣
٨١,٦١	١٤٢	١٧٤	٥٠ ~٨½	٣٠	٤
٧٨,٩١	١٤٧	١٨٨	٥٠ ~٨½	٣٢	٥
٨٠,٠٠	١٤٤	١٨٠	٥٠ ~١٠	٣٦	٦
٧٩,٩١	١٣٩,٦٦	١٧٤,٨٣	٥٠ ~٦¾		متوسطات
المؤشر	العرض	الطول	القائمة	العمر	المجموعة اليافعي:
٨٢,٠٩	١٥١	١٨٤	٥٠ ~٢¼	٢٠	١
٨٦,٠٦	١٤٢	١٦٥	٥٠ ٢½	٢٢	٢
٧٨,٧٣	١٣٧	١٧٤	٥٠ ~٤	٢٣	٣
٧٨,٧٣	١٤١	١٨٠	٥٠ ~٢½	٢٥	٤
٢٣,٢٣	١٤٤	١٧٣	٥٠ ٥½	٢٨	٥
٨١,٦٨	١٤٣	١٧٥,٢٠	٥٠ ٣¼		متوسطات
المؤشر	العرض	الطول	القائمة	العمر	المجموعة المشائى:
٨٦,٢٠	١٥	١٧٤	٥٠ ~٤¾	٤٠	١
المؤشر	العرض	الطول	القائمة	العمر	المجموعة المهره:
٨٨,٦٢	١٤٨	١٦٧	٥٠ ~٣	٢٠	١
٩٠,٧٩	١٤٨	١٦٣	٥٠ ~٥	٢٣	٢
٨١,٧١	١٤٣	١٧٥	٥٠ ¾	٢٧	٣
٨٦,٢٢	١٤٤	١٦٧	٥٠ ~٥	٢٧	٤
٨٦,٠٤	١٤٨	١٧٢	٥٠ ~٨	٣٤	٥
٨٦,٦٧	١٤٦,٢٠	١٦٨,٨٠	٥٠ ~٥		متوسطات

القرالوين

٩٣,٦٧	١٤٨	١٥٨	٠٣	~١١½	(١) ٩	١
٨٦,٥٠	١٤١	١٦٣	٠٤	~١١½	(٢) ١	٢
٨٣,٣٣	١٤٠	١٦٨	٠٤	~٨¾	١٢	٣
٩٥,٠٦	١٥٤	١٦٢	٠٥	~٧	١٥	٤
٨٦,٩٠	١٤٦	١٦٨	٠٥	~٩	٣٣	٥
٩٠,٩٠	١٥٠	١٦٥	٠٥	~٤	٣٥	٦
٨٧,٥٠	١٤٧	١٦٨	٠٥	~٥	٤٠	٧
٨٩,١٢	١٤٦,٥٧	١٤٦,٥٧	(٣) ٠٥	¼		متوسطات

الشهارين

٩١,٤٦	١٥٠	١٦٤	٠٥	~٣¾	١٨	١
٩١,٤٦	١٥٠	١٦٤	٠٥	٠٢	٢٠	٢
٨٨,٠٩	١٤٨	١٦٨	٠٥	~٣½	٢٤	٣
٨٤,٣٩	١٤٦	١٨٣	٠٥	~١	٣٠	٤
٨٥,٨٨	١٤٦	١٧٠	* ٠٥	~٤	٣٣	٥
٨٣,٤٣	١٥١	١٨١	٠٥	~٨	٤٠	٦
٨٦,٢٨	١٥١	١٧٥	٠٥	~٤	٤٠	٧
٩٧,٥٣	١٥٨	١٦٢	٠٥	~٥	٤٧	٨
٨٣,٥٩	١٤٣	١٧١			٦٠	٩
٨٨,١٢	١٤٩,٢٢	١٦٩,٧٧	٠٥	~٣½		متوسطات

الكثارين

٩٠,١٩	١٣٨	١٥٣	٥ ٠٤ أو ٥	~٦	١١	١
٨٧,٠٦	١٤٨	١٧٠	٠٥	~٦	٣٥	٢
٩٢,٠٢	١٥٠	١٦٣	٠٥	~٥	٣٥	٣
٩٢,٠٩	١٥٠	١٦٣	٠٥	~٥	٣٥	٤
٩٠,٣٢	١٤٦,٥٠	١٦٢,٢٥	٠٥	~٥½		متوسطات

(١) أم مهريّة.

(٢) ابن عمره سبع سنوات.

(٣) من ١ إلى ٣ مستبعدون.

(*) مستبعد.

(١) واحد مستبعد .

البنهارى					
٧٩,١٢	١٤٤	١٨٢	٢٥	٢٧	٤٠
الحراسيس					
٨٣,٣٣	١٤٥	١٧٤	٢٥	٢١½	٢٢
العمانيون					
٨٦,٢٣	١٤٤	١٦٧	٢٥	٢٤¾	٢١
٨٦,٥٥	١٤٨	١٧١	٢٥	٢١	٤٦
٨٢,٧٦	١٤٤	١٧٤	٢٥	٢٦½	٤٧
٨٥,١٨	١٤٥,٣٣	١٧٠,٦٦	٢٥	٢٧	متوسطات

الجدول رقم (١)

المؤشر	العرض	الطول	القبيلة
٧٩,٩١	١٣٩,٦٦	١٧٤,٨٣	الصومالى
٨١,٦٨	١٤٣	١٧٥,١٠	اليافعى
٨٦,٢٠	١٥٠	١٧٤	المشائى
٨٦,٦٧	١٤٦,٢٠	١٦٨,٨٠	المهره
٨٩,١٢	١٤٦,٥٧	١٦٤,٥٧	القراوين
٨٨,٠٢	١٤٩,٢٢	١٦٩,٧٧	الشهارين
٩٠,٣٢	١٤٦,٥٠	١٦٢,٢٥	الكثارين
٧٩,١٢	١٤٤	١٨٢	البنهاريين
٨٣,٣٣	١٤٥	١٧٤	الحراسيس
٨٥,١٨	١٤٥,٣٣	١٧٠,٦٦	العمانيون

يسمح لنا هذا الجدول بالمزيد من التحليل الدقيق لأشكال الجمجمة في جنوب الجزيرة العربية، تلك الأشكال الواردة تحت عنوان استدارة الرأس. ومسألة الانتقال من وسطية استدارة الرأس في الناحية الغربية إلى استدارة الرأس بشكل ملحوظ كلما اتجهنا شرقاً، أمر بالغ الوضوح، وذلك على الرغم من تناقص هذه المسألة تناقصاً طفيفاً في أقصى الشرق. الأهم من ذلك هو تقلب طول الرأس. وهنا يمكن القول: إن هناك ثلاثة تجمعات واضحة: تجمع غربي، تجمع الوسط، ثم التجمع الشرقي، والتجمع الأول والثالث يتسمان بطول رأس متساوٍ، أما المجموعة الثانية فهي أقل من هذين التجمعين في مسألة طول الرأس. وهنا يبدو الأمر لنا وكأن تأثيرات جعل الرأس كبيراً كانت تطبق من ناحيتين على شعب ربما كان غير متجانس أو شعب قديم ذي رؤوس قصيرة. ويبدو أن العرض لم يتغير كثيراً في هذه التجمعات الثلاثة، إذا ما نحينا جانباً الصوماليين الذين ينتمون إلى سلالة مختلفة تماماً.

وهنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام لب المشكلة: التي تتمثل في فض الاشتباك بين العديد من السلالات التي ربما تكون أثرت على ذلك التنوع الواضح لشكل الجمجمة.

الثابت هو أن العريى الشمالى مستطيل الرأس، وإن شئت فقل صاحب رأس طويل، وذلك اتساقاً مع شكل الرأس السامى العام. وهنا قد يكون من المفيد، أن نضع في اعتبارنا احتمال أن يكون العريى الجنوبي ممثلاً لكل شمالى سبق أن تأثر بغاز مستدير الرأس.

ومن خلال أدب وكياسة السيد/ هنرى فيلد حصلنا منه على امتياز دراسة مجموعة الصور الفوتوغرافية الفريدة، التي التقطها لشكل من الرؤوس في بلاد الرافدين، والعرب الذين يعيشون حول كيش، وأيضاً تلك الجماعة من بدو البيجو. وإذا ما نحينا جانباً مسألة ظهور "أنف سام" بين الحين والآخر نجد أن لا أحد من العرب الجنوبيين يشبه الأشكال الشمالية في أقل تفاصيل وقسمات الوجه. يضاف إلى ذلك، أن الأهم من ذلك كله هو مقارنة مقاييس الجمجمة الحقيقية، التي قمنا بتوضيحها في الخريطة (الشكل ١، ص ٢٨٧).

زد على ذلك أن الفارق الواضح في مسألة تجميع الأشكال الشمالية والجنوبية، أوضحناه بالفعل (في الشكل رقم ١). ونحن نجد الأشكال الأخيرة، مع بعض الاستثناءات القليلة، في ذلك الجزء من الخريطة التي تستبعد الرؤوس الصغيرة. والفارق

الرئيس يتمثل فى مسألة الحجم المطلق: هذا يعنى أن العربى الشمالى صاحب رأس كبير نسبياً؛ والعربى الجنوبى صغير الرأس.

وهنا تبدو مسألة وجود أصل مشترك أمراً بعيد المنال، اللهم إلا إذا افترضنا أن هناك نزوعاً إلى استدارة الرأس- وإن هذا النزوع تحقق من خلال الاختلاط مع النوع مستدير الرأس- وإن هذه الاستدارة مصحوبة بتناقص الطول. وكما سنلاحظ فيما بعد، فإن هذا ليس هو الحال القائمة، نظراً لأن الجمجمة الأرمينية، مستديرة بشكل لا يقبل الشك، وهى أيضاً أطول بكثير من جمجمة العربى الشمالى.

الجدول (رقم ١) يدل على أن القبائل التى تتسم أكثر بالطابع الغربى كانت أقل استدارة وأن طول الرأس كان أكبر. وقد ألمحنا أن ذلك ربما يكون راجعاً إلى تأثير شعب طويل الرأس من الغرب، أى من الشمال الشرقى الأفريقى، وربما يكون ذلك راجعاً إلى أصل العربى الجنوبى نفسه أو الصومالى من المناطق المجاورة للحزام الأسود الأسمى أو الأساسى. وهنا يمكن أن نخلص إلى أنه كانت هناك قرابة بين عرب الجنوب والصوماليين، والسبب فى ذلك، ليس فقط لأننا نؤمن بهذا الاستنتاج عن شكل الرأس، ولكن هذا الاستنتاج موجود بشدة فى قسمات وجوه القبائل الموجودة فى أقصى الشرق مثل قبيلة المهره وقبيلة الشهارين؛ وتوجد فى هذه المنطقة، وبلا أدنى شك، رابطة حامية واضحة.

تكشف الصور الفوتوغرافية التى التقطها برترام توماس لليافعيين (فى الشكلين- ١٠ و ١١)، والقراوين (الشكل ١٢)، والمهارين (الشكل ١٣) والشهارين (الشكل ١٤)، أن هؤلاء البدو لهم سمات وقسمات حامية أصيلة؛ مثل "الشعر الأشعث"، الأسود- أو البنى اللون أو البنى الغامق- يزداد على ذلك أن صبغة الشعر وصبغة البشرة فضلاً عن تشابهات الوجه العامة كلها أمور يصعب وصفها وصفاً دقيقاً، يزداد على ذلك أن مقارنة هذه الصور بالصور التى التقطها سلجمان^(١) للهداندوا وبنى عامر تثبت لدينا مفهوم القرابة الحامية. ويجب ألا يغيب عنا فى الوقت ذاته، أن العرب الجنوبيين لهم لحى أكبر من لحى الحاميين، على الرغم من أن عرب الجنوب ليست لحاهم كثة مثل العرب الشماليين.

(١) سلجمان، س. جى، مرجع سابق.

إلى هنا نكون قد حددنا وتعرفنا واحدة من السلالات العرقية الواضحة تماماً بين القبائل قيد البحث، أقصد القبائل الحامية. وعلى الرغم من أننا لاحظنا حتى في حال توافر هذه السمات والقسمات في هذه السلالة، فإن شكل المخ لا يدخل ضمن هذه السمات الحامية، وإنما الذى يدخل فى ذلك هو ضيق الرأس. وهنا نجد أيضاً أن استدارة الرأس الزائدة عن الحد عند العربى الجنوبى تقودنا على الفور- والتجاوز الجغرافى يؤيدنا أيضاً فى ذلك- إلى التشكك فى التأثير الأرمينى، لأن هذا الشعب الأرمنى له مؤشر معدل استدارة رأس يُقدر بقرابة ٨٥.

لكن يتعين علينا هنا من جديد التساؤل عن مكونات هذا المؤشر: والطريقة التى أمكن بها الحصول على هذا المؤشر؟ وهذا هو كابرس^(١) Kappers يعطينا متوسط طول ١٨٢، ومتوسط عرض مقداره ٤, ١٥٥ لقرابة ٩٧ من الأرمن، وهذا القياس أكبر كثيراً من أية متوسطات لقبائل جنوب الجزيرة العربية.

ويحق لنا هنا إلقاء نظرة أخيرة على احتمال تسلل شكل أرمنى- شكل له هذه الجمجمة نفسها، معروف أن الجمجمة الأرمنية تتميز بقفا مسطح بدرجة كبيرة، الأمر الذى يؤدى إلى بُعد ما وراء الأذن، وإلى قيو شديد الارتفاع. الأحياء مميزون علاوة على ذلك، بأنف "أرمنى" (سامى)، يمكن تمييزه إلى حد على الجمجمة على شكل قنطرة أنفية بارزة إلى حد ما (راجع الشكل رقم ١٩).

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا هنا، هل نجد هذه السمات والقسمات الأرمنية بين القبائل العربية الجنوبية؟ الإجابة نعم، وذلك على الرغم من اقتصار وجود هذه السمات والقسمات على أقصى الشرق وربما أيضاً الجنوب الشرقى، بين العمانيين والحراسيس، علماً بأن الشكوك تدور من حول الحراسيس فى هذه المسألة. وأنا أشير هنا فقط إلى الشكل الجمجمى الفعلى- يزداد على ذلك، أن الأنف "الأرمينى" البارز يمكن تمييزه على أنه واسع الانتشار إلى حد ما، ويمتد إلى المجموعة التى تضم كلا من المهارين، الشهارين، والقراوين، لكن حتى مع ذلك كله نجد هذه السمة الأنفية مبعثرة فى أكثر من مكان، وأنها ليست متكررة، ويغلب عليها الميل بصورة أكبر، إلى الانعفاف أكثر منها أنفاً عريضاً منحنيّاً أصيلاً نراه عند الأرمن.

(١) كابرس، سى - يو - إيه، فى مجلة مساهمات فى أنثروبولوجيا الشرق الأدنى، العدد رقم ١، ومقال بعنوان "الأرمن" المجلد ٣٢، أعمال أمستردام، ١٩٣٠ من صفحة ٧٩٢ إلى صفحة ٨٠١.

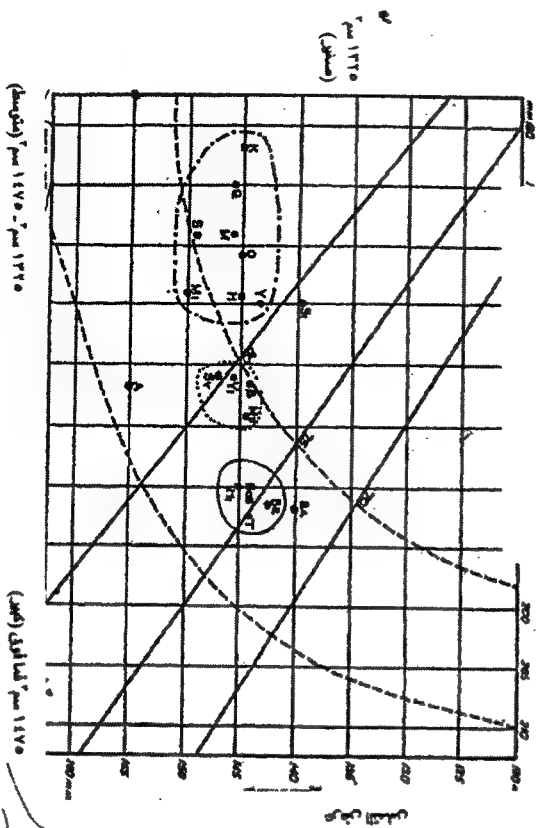
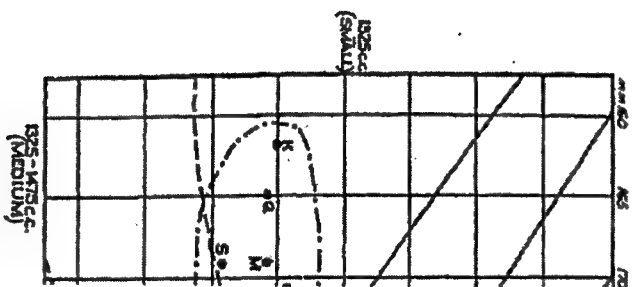
قد يكون من المناسب، عند هذه المرحلة إعداد جدول يبين هذه العلاقات التي تربط القبائل بعضها ببعض. وقد قمت فى الشكل ١٥ بتبيان متوسط أطوال الرؤوس ومتوسط عروض الرؤوس فى العديد من القبائل، ومعطيات هذه المتوسطات مبينه فى الجدول رقم ١. وأنا أزيد ما يلى على تلك المعطيات.

الجدول رقم (٢)

المؤشر	العرض	الطول	القبيلة
٧٨,٢٨	١٤٤,٥٨	١٨٤,٥٥	مسقط
٨١,٠٧	١٤٥,٥٠	١٨٠,٩٥	اليمن
٨٠,٩٢	١٤٥,٦٧	١٨٠,٢١	شيهر
٧٦,٧٩	١٤٣,١٩	١٩١,٨١	صومالى
٧٤,٧٠	١٤٢,٢٥	١٩٠,٤٩	بنو عامر
٧٣,٠٠	١٤٣,٢٠	١٩٢,١٠	التجرى
٧٣,٠٠	١٤٠,٢٦	١٩,٣٧	بيدو البيجو
٨٥,٣٨	١٥٥,٤٠	١٨٢,٠٠	أرمن

مقارنة هذا الجدول رقم ٢ بالجدول رقم ١ تضع أيدينا على الفور على ملمح مهم، مفاده أن طول الرأس فى كل هذه المجموعات يفوق بكثير طول الرأس عند عرب جنوب الجزيرة العربية، فى حين نجد أن عرض الرأس، إذا ما استثنينا الشخص الأرمنى، يكاد يكون واحداً. هذا يعنى أن استدارة الرأس عند القبائل قيد الدراسة ترجع فى الأصل إلى تناقص طول الرأس، ولا يرجع إلى تغيير عرض الرأس، الذى يمكن توقعه من الاختلاط الصريح مع سكان مستديرى الرؤوس. هذا يعنى أيضاً أن استدارة رأس العربى الجنوبى لا يمكن أن يكون مثيلاً لاستدارة الرأس عند العضو الأرمنى.

ونحن نتساءل عند هذا الحد، ما الذى يقوله لنا الشكل رقم ٩١٥ أولاً وقبل كل شئ، الشكل يؤكد على صغر رأس المجموعات قيد المناقشة، كما يشكل هذا الشكل أيضاً وفى الوقت ذاته، وبطريقة خطية انعزال هذه المجموعات النسبى عن المجموعات الأخرى. ثانياً: قد نلاحظ كيف أن قبائل الجنوب العربى العربية- وبخاصة الشَّيْهر، اليمن ومسقط- تشكل روابط وصل بين الحاميين أصحاب



طول الرأس

1970
(1970)

$$(\text{length})^T \mu + \frac{1}{2} V D^{-1} \mu + \frac{1}{2} \mu^T V D^{-1} \mu$$

(1005) 1005 1005

۱۰۰

--- منطقة توماس الخاصة بعرب الجنوب

-----منطقة عرب الجنوب الغربي (بمستشفى البهاريين)

منطقة الحاميين (الصوماليين الذين قاسمهم توأمس)

المحاور المستقيمة تقسم المنطقة إلى مؤشرات استتارة

المحاور المنهجية تقسم المنطقة إلى قسَمَات أو سَلَات مَجْمُوعَة

المشکل رقم ۱۵ - خريطة استدارة الرأس تبين وضع مختلف قبائل عرب الجنوب الذين قاسمهم النقيب توماس

الرؤوس الضيقة من ناحية، وبين عرب الجنوب ذوى الرؤوس شديدة الاستدارة من ناحية أخرى. ويقول لنا الشكل رقم ١٥ فى نهاية المطاف، أن هذه القبائل متميزة عن القبائل العربية الشمالية، وتمتيزة أيضاً عن الشكل الأرمنى، وأن ذلك كله جرى تبيانه بصورة واضحة.

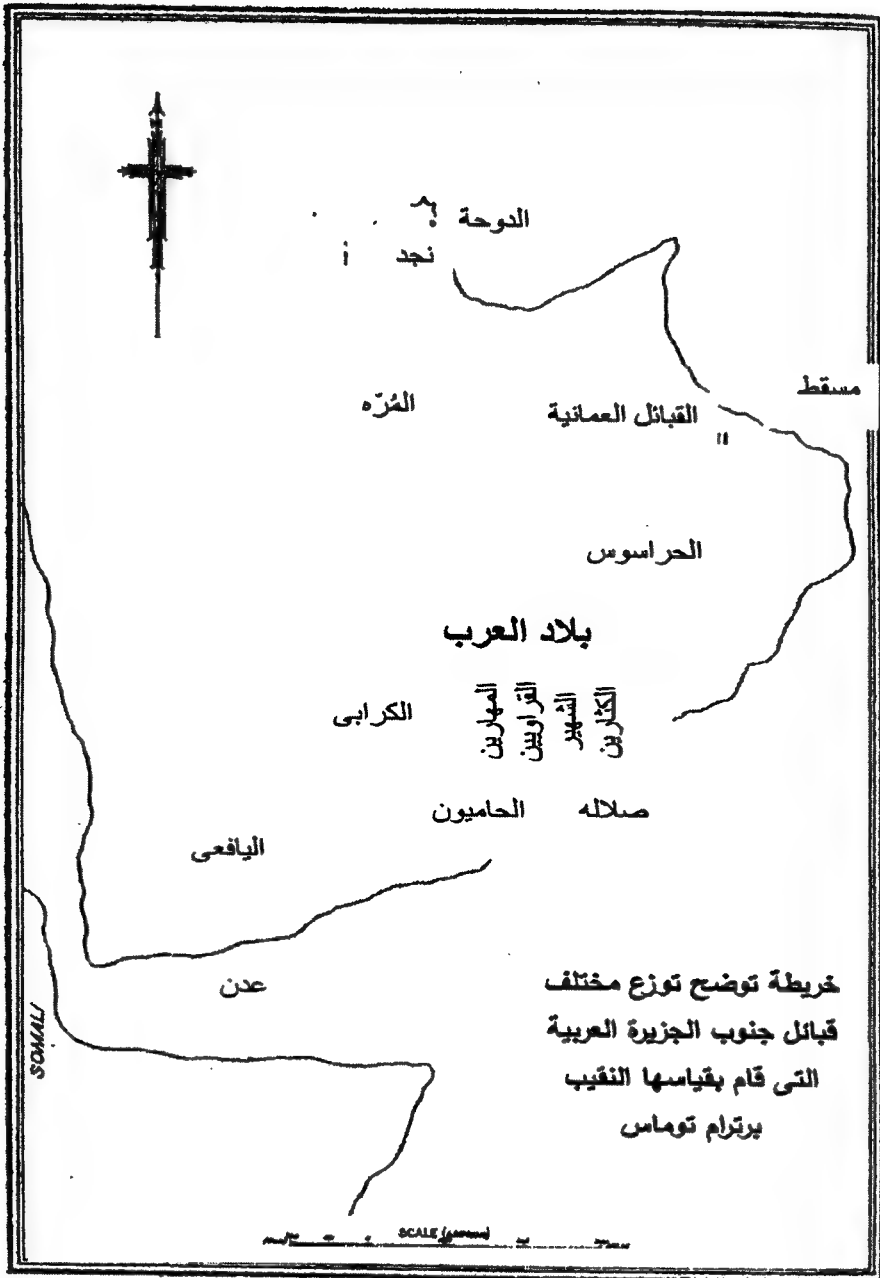
بذلك نكون قد أوضحنا أن عرب جنوب الجزيرة العربية أناس أصحاب أمخاخ صغيرة. يزداد على ذلك أن الخطوط المنحنية المنحدرة نحو الأعلى قادمة من يسار الخريطة إلى يمينها (الشكل رقم ١)، تحدد بصورة تقريبية ثلاثة مستويات من القدرة الجمجمية: المستوى الأول تحت ١٣٢٥ سم^٢، والمستوى من ١٣٢٥ سم^٢ إلى ١٤٧٥ سم^٢، ثم المستوى فوق ١٤٧٥ سم^٢. وهذا التقسيم ليس مطلقاً أو نهائياً، نظراً لأن صغر أبعاد الطول والعرض يمكن التعويض عنه بزيادة الارتفاع، بطريقتين اثنتين. وهنا نقول من جديد، إن الطول كان يمكن تحقيقه عن طريق منحنيات جانبية أمامية، وأن العرض فى بعض أجزائه قد يكون راجعاً إلى جدران سميقة، إلخ؛ لدرجة أن القدرة الجمجمية الفعلية أصبح بالإمكان تقليلها. يضاف إلى ذلك أن التجمعات أثبتت جدواها بشكل عام.

وهنا، وعلى الفور، نجد أنفسنا نقر ونعترف بالتأثير الأرمنى على القبائل العمانية، لكن يتعين علينا هنا التأكيد على أن هذه المجموعة وحدها هى التى يتوافر فيها استدارة الرأس الأرمنية.

يزاد على ذلك أن التجمعات الأخرى، ومن باب التأكيد على المسألة، مستديرة الرأس لكن شكل الرأس ينجم عن تناقص طول الرأس وليس ناجماً عن زيادة عرض الرأس. زد على ذلك، وهذا أهم من كل ما سبق، أن مسألة تناقص طول مسألة الرأس لا يرجع إلى ما بعد الأذن، وهى سمة أرمنية أصيلة.

وهنا، قد يكون من المنطق الوصول إلى النتيجة التى مفادها أن هناك فى جنوب الجزيرة العربية استدارة فريدة للرأس؛ أى أن هذه الاستدارة عبارة عن جمجمة عريضة قصيرة متوسطة الارتفاع، لكن هذه الجمجمة ليس فيها أى بعد من الأبعاد الأرمنية (أقصد طول ما بعد الأذن).

وفيما يتصل بموضوع العنصر الحامى، نجد أن أثره موجود فى الجماعات التى من قبيل تجمعات الشَّهارين- القراوين - المهايرين- الشعر المجد، سكسوكات الذقون، لون الشعر ولون البشرة، الصورة العامة للوجه؛ وهذه كلها



خريطة توضح توزع مختلف قبائل جنوب الجزيرة العربية
التي قام بقياسها النقيب برترام توماس

سمات وقسمات حامية. وقد يكون من المفيد في هذا الصدد أن يلاحظ النقيب برترام توماس^(١) بنفسه، وجود عضو من القراوين شبيه بالبشارين، ووجود عضو من المهارين له ذقن (سكسوكة) مصرية تماماً.

ربما يكون من الخطر، وتأسيساً على قوة بعض الصور القليلة، الحديث عن أوجه الشبه العرقية، ومع ذلك لا بد من الانتباه إلى المشائين (الشكلين ١٧ و ١٨)، اللذين يُلَمَّحان إلى التأثير الدرافيدى، أقصد التأثير التاميلي أو السنغالي، ولا بد من الانتباه أيضاً إلى صور أطفال الشهارين وأطفال الكثارين الذين يبدوون شبيهين "بالهنود" إلى حد بعيد (الشكلين ٢١، ٢٢). وهنا نجد أن وجود مثل هذه الأشكال (أصول) هندية شرقية، أو هل جاء الدرافيديون من الغرب؛ أم أن هذا وذاك جاء من مركز (وسيط) مشترك، أم أن هذا وذاك يمثلان في نهاية المطاف بقايا لسكان أصليين مشتركين كانوا في هذا المكان في وقت من الأوقات، وأن آثار هؤلاء السكان الأصليين أصبحت الآن، وإلى حد بعيد، في طي النسيان بفعل تأثير موجات الهجرة التي حدثت بعد ذلك؟

ولا يسعنا في نهاية المطاف سوى التقدم بآيات الشكر للنقيب توماس على ذلك الامتياز الذي خَصَّنَا به، عندما سمح لنا بمساعدته في مسألة ملاحظاته الأنثروبولوجية.

ويتضح لنا، من واقع ما كتبناه، أن المعرفة الكاملة بشعوب جنوب الجزيرة العربية تعد أمراً ضرورياً لأولئك الذين ينشدون، من بيننا، تفسير أصل وتوزع أعراق العالم القديم- وبخاصة الأعراق التي تشغل وتحتل البلدان الواقعة على حدود المحيط الهندي. وما الطريقة التي تمكَّننا من تحليل أوجه الشبه الحامية في أفريقيّا من الدرافيديين في الهند؟ والذي يعوقنا حتى الآن هو افتقارنا إلى المعطيات. والواضح أن الدكتور سلجمان أسدى إلى الأنثروبولوجين خدمة كبيرة، عندما تمكن من تنظيم الحالة المعرفية الخاصة بالشعوب التي تتخذ من جنوب الجزيرة العربية موطناً لها، قبل مجيء برترام توماس إلى هذا المكان، فقد حمل

(١) برترام توماس، "بين بعض القبائل غير المعروفة في جنوب الجزيرة العربية"، مجلة المعهد الأنثروبولوجى الملكى، ١٩٢٩، المجلد رقم ٥٩، ص ٩٧ - ١١٢.

الدكتور سلجمان روحه على يديه، ونجح الرجل في إعطائنا حصاداً من الحقائق الخاصة بالقبائل الممثلة لذلك الجزء "الأشد إظلاماً" من آسيا. إلى هنا نكون قد تناولنا المشكلات الخاصة بالطبيعة العرقية للعربى الجنوبي، من منطلق الاقتناع بأن السلالات المختلفة أو بالأحرى الأعراق البشرية نشأت بطريقة منظمة، ومن هنا فنحن نسلم، إلى أن يثبت العكس، أن أى عرق من الأعراق جاء إلى الوجود فى ظل عمليات التطوير التى دارت فى أو بالقرب، من البلد الذى نجد فيه هذا العرق فى الوقت الحالى. معروف أن الأعراق تمتد إلى خارج المناطق التى تعيش فيها؛ هذا يعنى أن الأعراق تهاجر وتستعمر؛ كما أن أعراقاً جديدة يمكن أن تأتى عن طريق التلاقح. ونحن إذا ما استطعنا دعم كل من الهجرة والتلاقح بالأدلة- مهما كانت غير كاملة- نجد أنفسنا نقبل هذه العوامل على أنها تكون مفسرة لسمات وقسمات الأعراق. لكننا نرى أن الأعراق "الوسيطية" نادراً ما تنشأ عن اختلاط عرقين متباعدين، لكن الأعراق تمثل مرحلة فى عملية التطور التى تكون وسيطة عند هذين العرقين المتباعدين. وبذلك نكون قد حاولنا من وجهة نظر عالم العصور، تفسير أصل القبائل التى عاش النقيب توماس بينها فى جنوب الجزيرة العربية - ومن هنا، فإن الخاتمة النهائية الخاصة بالطبيعة العرقية لعرب الجنوب تتمثل فى أن هؤلاء العرب يمثلون بقية باقية من السكان الحاميين والتى شغلت أو احتلت كل جنوب الجزيرة العربية فى وقت من الأوقات. وعندما حاولنا تفسير أو تعليل استدارة الرأس هى والسمات والملامح القوقازية عند هؤلاء العرب، حتمّ ذلك علينا استعمال فرضية الهجرة واختلاط الأعراق. يضاف إلى ذلك، أننا نعلم، حق العلم، أن الحقائق الأنثروبولوجية يمكن تفسيرها بطرق مختلفة اختلافاً جذرياً عن الحل الذى قدمناه، وهنا نقول إن أصحاب البشرة الدكناء فى جنوب الجزيرة العربية ربما كانوا أصحاب رؤوس مستديرة فى فترة لاحقة، هذا يعنى أن الحاميين الأفارقة هم والقوقازيون أصحاب الرؤوس المستديرة ربما يكونون غزوا أراضى هؤلاء العرب وغزوا أيضاً أسرة زواج هؤلاء الأعراب. ومن نافلة القول أن موجات عرقية كثيرة ربما تكون انتشرت فى اتجاه الجنوب أو الشمال فى الجزيرة العربية فى أزمان سحيقة. وكما سبق أن قلنا، فإن المفاتيح إلى مثل هذه المشكلات لا تزال مدفونة فى رمال الجزيرة العربية.

الملحق رقم (٢)

الملحق الحيوانى

بقلم: وليام توماس كالمان

(أمين قسم الحيوان بالمتحف البريطانى)

الجزيرة العربية بوضعها الحالى تقع على حدود الأقاليم الحيوانية الثلاثة الرئيسية التى ينقسم إليها العالم، ومن هنا تشكل الجزيرة العربية أمام الجغرافى الحيوانى، مشكلات ذات أهمية خاصة. ومن هنا نقول أيضاً إن المجموعات الحيوانية التى تأتى من هذا الإقليم (الجزيرة العربية) لها قيمتها بفعل الضوء الذى تلقيه هذه المجموعة على هذه المشكلات. ولهذا السبب وحده، وليس بسبب احتمال اكتشاف أنواع جديدة، فإن وصول مجموعات النقيب برترام، التى كنا ننتظرها بشوق كبير فى المتحف، عدّها الجميع حدثاً طيباً.

يزاد على ذلك، أن الرحلتين اللتين قام بهما السيد/توماس لهما أهمية إضافية، نظراً لأن الرجل عبّر الربع الخالى، وجبال القراوين، وبخاصة أنه لم يأت، على حد علمى، من جبال القراوين سوى مجموعة واحدة فقط من موضوعات التاريخ الطبيعى. وفى العام ١٨٩٠ الميلادى، قامت السيدة تيودور بست هى وزوجها برحلة إلى جبال القراوين وأحضرا معها مجموعة من النباتات والسحالى. وقد تكفل الدكتور جون أندرسون بوصف مجموعة السحالى فى كتابه المعنون: "زواحف الجزيرة العربية" المنشور فى العام ١٨٩٦.

تلقى المتحف البريطانى من أجزاء أخرى من جنوب الجزيرة العربية بعض المجموعات من المقيمين ومن الرحالة. ومن منطقة عدن على سبيل المثال، وصلتنا

مجموعات من العقيد ج. و . يدبرى ومن السادة أ.د. برسيغال والسيد / و . دودسون. وفي اليمن توافر للرحالة ذائع الصيت ويمان بيبرى، الوقت اللازم للقيام بجمع مجموعات كبيرة على امتداد الرحلات العديدة التى قام بها فى اليمن، ومن أقصى شمال جنوب الجزيرة العربية أرسل لنا السيد / فيلبى كثيراً من العينات المهمة. وتلقى المتحف من مسقط مجموعات بالغة الأهمية من السير بيرسى كوكس، ومن الجراح العام أس جياكار، ومن العقيد س. ب. مايلز وأيضاً من الدكتور جى . م. ليز Lees ، ومؤخراً عاد الرائد ر. إى. شيزمان ومعه مجموعة فريدة الأهمية، من الهفوف ومن واحة جبرين.

يتضح لنا من هذا السرد أن المجموعات التى جاءتنا من السيد / توماس، تسد ذلك الفراغ الكبير فى خريطة الجغرافيا الحيوانية لجزيرة العرب.

وها هم رفاقى فى قسمى دراسة الحيوان والحشرات فى المتحف، يقدمون فى القوائم التالية تفاصيل مختلف المجموعات الحيوانية، على أفضل نحو أمكنهم الوصول إليه. وهنا يتعين علينا أن نبرز أن هذه العملية لا تقلل بأى حال من الأحوال من قيمة أو أهمية أية عينة من العينات، وبخاصة إذا ما كنا فى وضع لا يسمح لنا بإصدار قرار نهائى بشأن الاسم المحدد أو شبه المحدد لأية عينة من هذه العينات. وعلى سبيل المثال، فإن الثعلب الفنك، ذلك الثعلب الأفريقى الصغير، الذى أحضره إلينا السيد / برترام توماس، ربما يكون بحاجة إلى إطلاق اسم جديد عليه، ومع ذلك فإن النقيب دولمان أثر الحكمة وامتنع عن نعته بأنه نوع جديد أو حتى شبه جديد، إلا بعد تجميع المعلومات المتيسرة عن هذه الحيوانات الأفريقية من شمال الجزيرة العربية وإخضاع هذه المعلومات للدرس والتدقيق.

وربما تمثلت أهم نتيجة لهذه البعثة أو المهمة، وبخاصة فيما يتعلق بالحيوان، فى إقامة الدليل على عدم وجود أية عناصر شرقية (هندية) فى الحياة الحيوانية لهذه المنطقة، وبخاصة فى جنوب إقليم الوسط من الجزيرة العربية، الذى كنا ننتظر وجود هذه العناصر فى أى جزء من أجزائه. زد على ذلك، أن الذئب الهندى الذى تعرفناه بالفعل فى كل من مسقط وعدن لا يمثل أى عنصر من هذه العناصر الشرقية، والسبب فى ذلك أن هذا الذئب هو نوع يرتبط ارتباطاً واضحاً بعلاقات وقربابات قديمة مع القطب الشمالى، وإن هذه العلاقات والقربابات تمتد إلى الهند من ناحية الشمال.

تعليقات على مجموعات التاريخ الطبيعى

بأقلام أعضاء من هيئة العاملين فى

المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى)

قُدِّمت هذه التعليقات بعد الدراسة المبدئية للعينات. وسوف يحتاج الأمر إلى المزيد من البحث والدرس قبل أن نتمكن بصورة نهائية من تحديد عدد الأنواع الجديدة فى المجموعة المقدمة لنا، والمرجح هو أن قرابة عشرين عينة أو أكثر من ذلك، بما فيها ثعلب، وثعبان، وحشرات متباينة، سوف يتعين علينا وصفها.

(أ) الطيور. بقلم: ن. ب. كنثير (مع الاعتراف بفضل أبى قردان)

قام السيد/ برتردام توماس فى مطلع العام ١٩٣٠ برحلة مبدئية إلى الربع الخالى، وصل خلالها إلى حافة الرمال فى منطقة العين. كان بصحبة الرجل فى هذ الرحلة سكرتيره المدعو على محمد، الذى علَّمه برترام توماس سلخ الحيوانات، الثدييات وبعض العينات التى تنتمى إلى ضروب أخرى.

الموسف، أن برترام توماس، لم يكن معه فى رحلته الأخيرة أحد يستطيع سلخ الطيور؛ وعلى الرغم من عودة الرجل. بمجموعات مهمة من ضروب أخرى، فإن الطيور لم تكن ممثلة سوى ببيضتين من بيض النسر؛ وقد أخذ برترام توماس هاتين البيضتين من عش فى بلدة الحض، فى المزاريق (فى الرمال الوسيطة). وقد اعتنيت أنا شخصياً، بمقارنة هاتين البيضتين ببيض كل الطيور المفترسة المحتملة فى المجموعة كلها، وعلى الرغم من أن تعرّف الطيور وتحديدها عن طريق ببيضها يُعد أمراً قائماً على قدر كبير من المخاطرة، فأنا أرى أن هاتين البيضتين ربما تكونان من بيض النسر التوانى الحبشى، الذى يقولون له باللغة اللاتينية *Aquila rapax raptor*.

الغراب بُنى العنق

من الواضح أن هذا الصنف من الغريان لم يكن شائعاً فى جنوب الجزيرة العربية، وأن العينة الوحيدة التى جرى إحضارها كانت عبارة عن غراب لونه غير عادى أو مألوف، وقد جرى إحضار هذا الغراب فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير من رملة موجشين الواقعة عند حافة الرمال.

الغراب مَرُوحَى الذيل *Rhino corax rhipidurus*

اصطاد السيد / برترام توماس أنثى هذا الغراب بطلق نارى، فى منطقة حيلة الشيسور (على ارتفاع ١٠٨٠ قدماً). وجرى على عجل سلخ الجلد، والعثور على بيضة كاملة داخل قناة البيض، ونظراً لضيق الوقت، الذى أدى إلى عدم سلخ الرأس والجناحين، إلا بعد الوصول إلى المخيم التالى، ونظراً لعدم وجود مصباح للعمليات الليلية، ونظراً أيضاً للبدء فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، فقد بدأ ريش الطائر فى التساقط قبل العناية به، وحتّم ذلك التخلص من الجلد. ومع ذلك، جرى الاحتفاظ بالبيضة، وقد قمت بمقارنة هذه البيضة بالبيض الآخر الموجود فى مجموعة المتحف، ورحت أتدبر مسألة احتمال انتماء هذه البيضة إلى النوع سالف الذكر. الأهم من ذلك، أننى عندما أريت السيد / برترام توماس جلد الغراب مروحى الذيل والغراب بنى العنق، أكد الرجل لى أن الغراب مروحى الذيل هو الذى صادفه أكثر من الغراب الآخر.

الطائر الثُّرثار بنى اللون

جاءت الطيور الحقيقية التى تنتمى إلى هذا النوع، من العقبة فى شمال الجزيرة العربية، وهذا الطائر موجود أيضاً فى فلسطين، مسقط (على حد قول كل من ميلز، جياكار، وكوكس)، ومن شبه الجزيرة العمانية (على حد قول ليز Lees). وقد حصل السيد / توماس على الأنثى الوحيدة ضمن هذه المجموعة من منطقة شبيهة التى تقع على الجانب الشمالى من جبال القراوين، إذ كانت هذه الأنثى بين أشجار البخور المبعثرة هنا وهناك على ارتفاع يُقدر بقاربة ٢٠٠٠ قدم.

بلبل الجزيرة العربية

جرى الحصول على أنثى هذا الطائر بين بعض أشجار السنط والنخيل على مقربة من بن جواعى (على ارتفاع ١٥٠٠ قدم)، على الجانب الشمالى من الجبال. بعد أن قمنا بدراسة السلسلة الموجودة فى المتحف البريطانى والتى جاءت من تحديد أجزاء مختلفة من جزيرة العرب، لم أتمكن من تحديد الصنف *reichenowi* الذى جاء به كل من نلورنز وهلمايير من جنوب غرب الجزيرة العربية.

قُبْرَة الرمل العربية سوداء الذيل

جرى وصف هذه القُبْرَة اعتماداً على القُبْرَة التى جاءت من القنفذه على البحر الأحمر فى العام ١٨٥٠، وبعد ذلك بتسع وسبعين سنة عاد من البعثة أو المهمة التى قام بها إلى واحة جبرين بأربع من هذه الطيور. وأحضر السيد/ برترام توماس أنثى من هذا الطير من منطقة حيلة بل رزاز (على ارتفاع ١٠٦٠ قدماً)؛ وقد عثر شيزمان على هذه الأنثى فى أرض منخفضة الأشجار فى أرض مفتوحة عند ١٨٢° شمالاً.

الدُّعْرَة البيضاء(*)

جرى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير، وعلى مقربة من ثقب المياه فى العين، اصطياد هذا الطائر الذى يعتمد على الهجرة بحالة جيدة تمكّنت من تمييز هذا العرق عن الأعراق الأخرى.

الحُمَيْرَاء الكشميرى(**)

جرى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير، وعلى مقربة من ثقب الماء فى العين، فى منطقة موجشين، اصطياد هذا الطائر الذَّكَر من فصيل الحُمَيْرَاء الكشميرى، معروف أن هذا الطائر مثل الدُّعْرَة البيضاء يعتمد على الهجرة. وقد صادف شيزمان هذا الطائر فى الهفوف أيضاً فى شهر يناير، ورأى الكثير منه فى جنوب الأحساء فى شهر مارس.

أبو بليق الصحراوى الهندى

تعرفت هذا النوع من الطيور أول مرة على أنه طائر Oreophila ، ومن هنا سجلت أفراد هذا النوع فى الدورية الجغرافية. لكن، إجراء المزيد من البحث والتقصى عن هذا الطائر، جعلنى أقطع وبلا شك أنه من فصيل أبى بليق الصحراوى الهندى.

(*) الغالب أن هذا ربما يكون طائر أبى فصادة الذى يُرى بكثرة فى فصل الشتاء. (المترجم).

(**) طائر أوروبى مفرد. (المترجم).

اشتملت المجموعة على اثنين من هذه الطيور، جرى اصطياد أحدهما في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير عند ثقب المياه في منطقة العين، عند حافة الرمال، وجرى اصطياد الثاني في سعطان (على ارتفاع ٢٠٦٥ قدماً)، على الجانب الأيسر من جبل القراوين في اليوم الحادى عشر من شهر فبراير.

صادف شيزمان هذين العرقين الشرقيين من هذا الطائر المهاجر في كل من صحراء الأحساء وصحراء جابرین.

العوسق(*)

جرى في اليوم الثانى من شهر يناير اصطياد أنثى هذا الطائر بطلق نارى على مقربة من أبى متهين، على ارتفاع ٢٠٧٠ قدماً، في جبال القراوين.

الهار الشاحب(**)

جرى في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير اصطياد ذكر من هذا النوع من الطيور، من منطقة مستان في جبال القراوين (الجانب الأيسر)، على ارتفاع ١٦٥٠ قدماً.

وقد جرى تسجيل هذا النوع من الطيور المهاجرة مراراً في الجزيرة العربية؛ صادفه شيزمان في الهفوف في شهر نوفمبر وفي شهر ديسمبر، وصادفه أيضاً في واحة جابرین في شهر فبراير، وصادفه أيضاً على ساحل حضرموت في اليوم الحادى عشر من شهر أبريل.

كروان الجزيرة العربية

تشتمل المجموعة على أنثى من هذا النوع من الطيور، وقد جرى اصطياد هذه الأنثى في اليوم الحادى عشر من شهر فبراير من بين بعض أشجار "التشيجوت" (التي هي من أشجار البخور) في منطقة القطان (على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم)، إلى الشمال مباشرة من انقسام جبال القراوين.

(*) يصح فيه أيضاً "العاسوق" وهو ضرب من الصقور. (المترجم).

(**) ضرب من الصقور. (المترجم).

ومنذ ذلك الحين، أصبحت معرفة هذا الكروان مقصورة فقط على الأراضى الداخلية فى عدن (وذلك على حد قول كل من دورسون وماينزرت هاجن)، وعلى منطقة العبدلى فى اليمن (على حد قول بيرى)، وعلى الساحل الصومالى الشمالى (على حد قولى زولتزر)، وبذلك يصبح هذا التسجيل الجديد امتداداً كبيراً لمألف هذا الطائر.

· القط السنغالى

يوجد ثقب ماء فى الجزء المُسمى العين من منطقة موجشين، عند حافة الرمال. والسيد/ برترام توماس يصف ذلك الثقب بأنه "ضحل وأخضر اللون ويقدر قطر هذا الثقب بقاربة ياردة أو ما يقرب من ذلك". ويقول أيضاً: إنه "على بعد ياردات قليلة وإلى الوراء من بعض الشجيرات يوجد ثقب ماء آخر تحول إلى بركة ضحلة". ومن الواضح أن هذا المكان صار جاذباً كبيراً للطيور المهاجرة، نظراً لأن برترام توماس رأى الكثير من هذه الطيور فى هذه المنطقة- وذكر الرجل أيضاً أنه عندما كان يقضى بعض الوقت فى هذا المكان فى الصباح الباكر، جاء قطيع من قرابة ١٥٠ من القطاه (القطط) للشرب من ذلك المكان، وأنه أمكنه الإمساك بذكر وأنثى من هذه القطاه (القطط) فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير.

جرى فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير اصطياد زوج من طيور سيسى الجزيرة العربية، بطلق فى منطقة سيج حوار، على ارتفاع قرابة ٢٠٠٠ قدم، على الجانب الشمالى من جبال القراوين. وبذلك يصبح طائر السيسى العربى معروفاً فى المنطقة الممتدة من عدن إلى مسقط.

(ب) الثدييات. بقلم النقيب جى. جى دولمان

الخفاش ورقاى الأنف

أحضِر هذا الخفاش من كهف من كهوف ساحور (فى جبال القراوين) أثناء رحلة سابقة.

خفاش القبور عارى البطن

جرى فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ إحضار هذا الخفاش من العين، من ارتفاع يقدر بقاربة ١٥٠٠ قدم.

يوجد هذا النوع من الخفافيش الذى يطلق عليه اسم Tophozous فى مساحة كبيرة من أفريقيا (فيما عدا الجزء الشمالى الغربى)، وفى جنوبى آسيا وفى جزر الهند الشرقية، فى اتجاه الشرق إلى أستراليا، ويوجد أيضاً فى غينيا الجديدة، وفى جزر الفلبين. هذا النوع من الخفافيش هو والنوع البابلى الذى يُطلق عليه اسم T.babylonicus والذى اسمه العلمى Liponycteris. يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من الخفافيش الذى يُطلق عليه اسم Taphozous nudiventris تمتد منطقة وجوده عبر المنطقة الأفريقية الاستوائية من نيجيريا إلى السودان والأراضى التانزانية، وينتشر وجوده شرقاً فى الجزيرة العربية.

جرى إحضار قنفذتين من النوع الذى يطلق عليه الاسم Paraechinus dorsalis، من الرمال المتاخمة لأم الحيط.

الضبع المُرْقَط

جرى فى شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ إحضار هذا الضبع من ميربورن على ارتفاع ٢٨٠٠ قدم، فى منطقة العين من جبال القراوين.

كان عضوان من هذه العينات ذكّرين وكان العضو الثالث أنثى. وعُثر فى الأنثى على جنينين يؤيدان مسألة الغطاء (الجلد) فى هذا النوع من الثدييات. وقد يثبت فى نهاية المطاف، أن هذه الضباع مختلفة عن الضباع المرقطة الآسيوية والأفريقية. هذا النوع من الضباع يُعد واحداً من الأنواع العديدة الجارحة التى يشيع وجودها فى كل من أفريقيا وآسيا: ومألف هذا الدب المرقط يمتد عبر شمال أفريقيا وشرقها، وفى سوريا والجزيرة العربية إلى أن يصل إلى آسيا الصغرى والهند. ويوجد فى أفريقيا بعض الأنواع المختلفة المتميزة، لكنها كلها شديدة الشبه بعضها ببعض ومميزة بلا أدنى شك.

الذئب الهندى

جرى فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ إحضار هذا الذئب، من منطقة العين فى جبال القراوين.

ثعلب الجزيرة العربية

أُحضر هذا الثعلب من منطقة العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى جبال القراوين، وكان ذلك فى اليوم السابع من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠. وجرى إحضاره أيضاً فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من منطقة خيوت على

ارتفاع ١٧٥٠ قدماً. وعُثر عليه أيضاً فى جوريب، على ارتفاع ٣٠ قدماً، فى اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠، كما عُثر عليه أيضاً فى خور صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الرابع والعشرين من العام ١٩٣٠.

تبدو هذه الأنواع كلها أدكن فى منطقة البطن عن ثعلب الجزيرة العربية الأصل. هذا النوع من الثعالب موجود فى مسقط، والمجموعة الموجودة فى المتحف تشمل سلسلة من العينات التى جاءت من مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، كما جاءت عينات أخرى من بلاد فارس ومن مصر والتى يرجح أنها تنتمى إلى سلالة الجزيرة العربية.

ثعلب الجزيرة العربية (الفنك الصغير)

يبدو أن هذا الثعلب الصغير يمثل العرق (السلالة) العربية من ثعلب الفنك المصرى، الذى يوجد فى شمال أفريقيا وفى شمالها الشرقى. ويوجد فى المتحف عينة واحدة من هذا النوع من الثعالب، وقد جرى إحضار هذه العينة من صحراء الكويت فى الجزيرة العربية، وقد يكون من المفيد مقارنة هذه العينة بالعينة الحالية عندما يتوّن أوان تناول موضوع هذه الثعالب المهمة.

الراتل (*)

أحضر (سبارم) هذا الحيوان من شِعْب الفضول، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، فى اليوم الثامن عشر، من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

يوجد حيوان الراتل فى رقعة كبيرة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وتمتد شرقاً إلى الهند. ونحن نلاحظ تبايناً طفيفاً جداً فى اللون أو الحجم بين العينة الإفريقية والعينة الهندية، من هذا النوع من ثعالب الفنك، وفى الأغلب الأعم تبدو هذه العينات وكأنها مجرد أجناس جغرافية ليس إلا.

عضل الجزيرة العربية (**)

يوجد فى المتحف ثلاث عينات (أحضرها كل من شيزمان وهنت).

(*) يقولون له أيضاً "آكل العسل". (المترجم).

(**) يصح فيه أيضاً gerbille، وهو حيوان من فصيلة الفأر. (المترجم).

تشمل عائلة العضل الفرعية على كل من العضل الأفريقى والعضل الآسيوى، اللذين فيهما القواطع على شكل أخدود، والقدمان الخلفيتان مستطيلتان. وفتران العضل الشائعة فى أفريقيا مصنَّفة إلى جيلين: التاتيرونا Taterona والجربليوس Gerbillus ، وأنواع هذين لها جلود برّاقة أو رملية اللون من أعلى وبيضاء اللون من أسفل.

فأر الحقل (الغيط) العربى

عينة واحدة. فأر الغيط الأفريقى الشائع، مقسم إلى عدد كبير من الفصائل المحلية، والأرجح أنه بعد أن يتوافر المزيد من المعلومات للبحث والدراسة، قد نكتشف أن فأر الحقل (الغيط) العربى هو عبارة عن فصيل شاحب من نوع فأر الحقل الأفريقى.

أرنب شيزمان البرى العربى

جرى إحضار عينة من هذا الأرنب من يادل، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من العام ١٩٣٠. وجرى أيضاً فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من العام ١٩٣٠ إحضار عينة أخرى من رملة أوروبا، على ارتفاع ٩٠٠ قدم. وأحضرت عينة أخرى من شنّاء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى اليوم الخامس من شهر يناير من العام ١٩٣٠.

ويبدو أن هذه العينات الأربع تمثل الأرنب الذى جرت تسميته مؤخراً باسم د. آى. شيزمان، وعل الجزيرة العربية وعل نادر وتوزعه غير معروف تماماً.

غزال مسقط

قام بروك بإحضار العينة من عين الرّزات، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، وذلك فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠. وأحضرت عينة أخرى من جوريب، على ارتفاع ٥٠ قدماً، وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

هذا النوع من الغزال مرتبط تماماً بالغزال العربى، الذى يمتاز عنه بأبعاده الأصغر؛ طرفاً قرئى هذا الوعل متجهان إلى الداخل بشكل حاد بدلاً من اتجاهاهما إلى الأمام.

كونى(*) الجزيرة العربية

أحضرت العينة الأولى من الحاز، على ارتفاع ١٨٠٠ قدم، وذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠. وجرى إحضار عينة أخرى من دريوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، فى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

كان المرحوم أولدفيلد توماس قام بوصف هذا الفصيل (النوع) الذى جاء به من ظفار فى جنوب الجزيرة العربية. وهناك قرابة وثيقة بين هذا الفصيل والكونى المُرَقَّط، الذى وصفه شريبر فى العام ١٧٨٤ بأنه "Hyrax Syriaca".

(ج) الزواحف والبرمائيات بقلم: ه. و. باركر

تنقسم الزواحف والبرمائيات التى جمعها برترام توماس بشكل عام إلى مجموعتين متفقتين مع المنطقتين النباتيتين المتناقضتين مناخياً واللتين قام الرجل بزيارتها. لا يشيع بين هذين الإقليمين سوى نوع واحد، وأن هذا النوع تتضوى تحته أنواع فرعية متميزة. هذا يعنى أن ظروف الحياة فى الربع الخالى، تلك الأرض الجذباء الجرداء، تحتاج إلى درجة من التخصص لا تتطلبها الحياة فى جبال القراوين الغابية وفى المنطقة الساحلية من ظفار، لكن الواضح أن هذا لم يكن بمثابة العامل الوحيد فى مسألة إنتاج مثل هذا التباين الملحوظ. وهنا نجد أن ندرة الثعابين فى الصحراء (لم يجزَّ العثور سوى على ثلاثة أنواع بالمقارنة مع ثمانية أنواع فى ظفار)، وكذلك الوفرة النسبية للسحالي (١٤ نوعاً فى الصحراء مقابل خمسة أنواع فقط فى ظفار) يعكسان مدى التكيف فى المجموعتين، لكن ظروف الأرصاد الجوية لا يمكن جعلها سبباً فى عدم وجود عائلة من العائلات الطبيعية التى من قبيل عائلة السحليات أو أشباه السحليات. وتؤكد الدراسة الدقيقة للقوائم التى سنوردها فيما بعد، أن الحياة الحيوانية فى ظفار فيها عنصر إثيوبى قوى، فى حين نجد أن الحياة الحيوانية فى الصحراء منها سحنات قطبية قديمة؛ الأجناس التى من قبيل *Atractaspsis*, *Psammophis*

وكذلك الجنس Bitis كلها أصول إثيوبية، لكن الأجناس التي من قبيل Alsophylax phrynocphalus و Acanthodactylus ومعها أيضاً الجنس Malpolon يندر أن تكون معروفة خارج المنطقة القطبية القديمة. وهنا عز علينا عدم الإشارة إلى أن ظفار فيها تذكّار من السكان السابقين للجزيرة العربية، وأن هذا التذكّار يعود إلى الحقبة التي كانت فيها المنطقتان الهندية والإثيوبية متوحدتين في مسألة الحياة الحيوانية؛ وقد أدى الجفاف إلى إتلاف وتدمير هذه الحياة الحيوانية البدائية في مساحة كبيرة، ومن هنا فإن الإقليم الجاف أُعيد تسكينه فيما بعد من الشمال.

يبدو أن الأنواع التي جرى جمعها، وكذلك المؤلف الجغرافية التقريبية كانت على النحو التالي:

جبال القراوين والمنطقة الساحلية من ظفار

السحالي: أبو بريص. (١) النوع Pristurus الذي اكتشفه (بلانف) الفصيلان: إشيرا Ichera وإجوره Igeroh، وهما موجودان في منطقة الشهازين. هذان الفصيلان موجودان في الجزيرة العربية. وفي المنطقة من سوقطرة إلى بلاد السُّند. (٢) النوع Pristurus Carteri tuberculatus (الذي اكتشفه باركر). فصيل البض Budh الموجود في منطقة الشهازين. تتدرج مآلف هذه الأنواع من عدن إلى مسقط، لكن هناك ثلاث فصائل جغرافية يمكن التعرف عليها، فصيل منها في الشمال الشرقي، والفصيل الثاني في الجنوب الغربي، أما الفصيل الثالث فقد اكتشفه النقيب برترام توماس في المنحدرات الجنوبية من جبال القراوين.

الحُبِينات(*). (٣) الفصيل الذي يُقال له Agama Sinaita (اكتشفه هايدن). وهو موجود عند الشهازين في منطقتي زيداخيت وسيداخيت. ومآلفه يمتد من ليبيا والسودان إلى سوريا ومسقط.

السفنفوروات. (٤) الفصيل الذي يُطلق عليه الاسم Chalcides ocellatus Ocellatus (الذي اكتشفه فورسك). هذا الفصيل موجود في جمش عند الشهازين؛ ويمتد مآلفه من الجزائر إلى مصر، سوريا، قبرص، جزيرة كريت، اليونان، الجزيرة العربية، بلاد فارس وأيضاً في بلوخرستان.

(*) يقال له أيضاً العُضْرُقُوت وهو شبيه بالحرياء المصرية. (المترجم).

الحرياء. (٥) الفصيل الذى اكتشفه (بترس) والذى يطلق عليه الاسم Cha-maeleon، ويوجد فى منطقة شهايل التى يسكنها الشهايرين. يمتد مألّف الحرياء أيضاً من عدن إلى مسقط.

الثعابين: فصيل الثعابين الذى اكتشفه (هارملس). (٦) الفصيل الذى اكتشفه (جان) ويطلقون عليه Couber rhodorhachis ، هذا الفصيل موجود فى دايفن عند الشهايرين وموجود أيضاً فى أوجيم أو شالثوم. ويمتد مألّفه من مصر إلى الصومال، الجزيرة العربية، سوريا، بلاد فارس، بلوختان، منطقة بحر قزوين، وشمال غرب الهند. (٧) الفصيل الذى يطلقون عليه الاسم Coluber thomasi (والذى اكتشفه باركر). وهذا الفصيل يوجد فى شالثوم عند الشهايرين، وهذا اكتشاف آخر من اكتشافات برترام توماس؛ وهذا الفصيل مرتبط بالفصيل C.Variabilis الموجود فى المناطق الداخلية من عدن، ومرتبطة أيضاً بالفصيل Co-luber الصومالى (٨) المسمّى Spalerosophis diadema (الذى اكتشفه شليجل)؛ وهو موجود عند الشهايرين فى فيعى ديعى. ويمتد مألّفه من أفريقيا شمال الصحراء الكبرى إلى تركستان، وشمال غربى الهند.

أفاعٍ (قليلة السمية). (٩) الفصيل المدعو Schokari الذى اكتشفه (فروسك)؛ وهذا الفصيل موجود عند الشهايرين فى إيشور وإتشور. ويمتد مألّفه من شمال الصحراء الكبرى فى أفريقيا إلى بلاد فارس، أفغانستان، وشمال غربى الهند.

الكوبرا (ثعبان سام). (١٠) الفصيل المدعو Naja hoje (الذى اكتشفه لن Linn)..

الكوبرا المصرية. وهذا الفصيل موجود عند الشهايرين فى حوط، فى دايفن أو أوجيم. ومألّفه ممتد من جنوب شرقى الجزيرة العربية إلى الترنسفال وزولولاند؛ ويمتد غرباً إلى شمال الصحراء الكبرى، وإلى مراكش؛ والموجود حالياً من هذا الفصيل مألّفه مسجل فى أقصى الشمال. (١١) الفصيل المسمّى Alroctaspis andersoni ، وهذا الفصيل موجود عند الشهايرين فى ديسوس. وهو معروف منذ ذلك الحين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية.

الأفاعى الخبيثة. (سامة). (١٢) الفصيل المدعو Echis Carinatus (الذى اكتشفه شنيذ)؛ هذا الفصيل موجود فى أوجيم عند الشهايرين. ومألّفه

فى أفريقيا فى شمال خط الاستواء ويمتد إلى جنوب بحر قزوين والهند. (١٣) الفصيل الذى يحمل الاسم *Bitis arietans* (الذى اكتشفه مرم)، ويطلقون عليه "الأفعى النافخة" ويقال له أيضاً "الأريد". وهذه الأفعى موجودة عند الشهارين فى دولولات. ومألف هذه الأفعى موجود فى أفريقيا، باستثناء الأقاليم الغابية المطيرة، وموجود أيضاً فى جنوب الجزيرة العربية؛ والفصيل الموجود حالياً مسجل فى أقصى الشمال.

البرمائيات: الضفادع وضفادع الطين. (١٤) الفصيل الذى يطلق عليه اسم *dhufarensis* (الذى اكتشفه باركر). وهو موجود عند الشهارين فى عكايت. وقد اكتشفه النقيب برترام توماس؛ والواضح أن هذا الفصيل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بضفدع الطين الموجود فى شمال غرب أفريقيا، ويطلق عليه الاسم *Bufo dodsoni* (وقد اكتشفه بولنجر).

الربع الخالى

السحالي: أبو بريص

(١) الفصيل المدعو *Alsophylax blanfordii* (الذى اكتشفه سترأوش). يقال له بالعربية: نجالس ملح، الأغيبيس أو الضاتور. هذا الفصيل موجود فى كل من مصر والجزيرة العربية. (٢) الفصيل الذى يطلقون عليه اسم *Ceramodactylus major* (الذى اكتشفه باركر). يقولون له بالعربية: ضاتور. لا يعرف منذ ذلك الحين إلا فى عينتين فقط، وأن هاتين العينتين جاء بهما النقيب برترام توماس فى رحلته الأولى التى قام بها إلى الربع الخالى. (٣) الفصيل الذى (اكتشفه جراى) والذى يطلق عليه الاسم *Prislurus Carleri Carleri* ، ومألف هذا الفصيل يمتد إلى المناطق الداخلية من مسقط إلى ظفار..

الطيور الأفريقية الاستوائية. (٤) الفصيل الذى اكتشفه (أندرسون) والذى يطلق عليه اسم *Phrynoce Phylus arabicus* يطلقون عليه بالعربية: التهاى أو التهيهى، ومألفه يمتد من حضرموت إلى الخليج الفارسى. (٥) الفصيل الذى اكتشفه (أندرسون) ويطلقون عليه الاسم *Phynocephalus maculatus* ويقولون له بالعربية الفخاخ، أو رُضيمة أو الشريهى. مألفه فى بلاد فارس، بلوخرستان، وشرق

الجزيرة العربية، ويمتد هذا المؤلف جنوباً إلى ظفار. (٦) (الفصيل الذى اكتشفه أندرسون) ويُطلق عليه اسم Agama Jagakari والعرب يطلقون على هذا الفصيل اسم الفخّاخ. ومألف هذا الفصيل يمتد من مسقط إلى المناطق الداخلية فى ظفار، ويمتد شمالاً إلى قطر. (٧) الفصيل الذى اكتشفه (باركر) ويطلق عليه الاسم Uromastix lhomasi. يقولون لهذا الفصيل بالعربية: أبو كردفات أو أبو كرش. وهذا الفصيل معروف فى عينتين، أحضرهما النقيب برترام توماس. (٨) الفصيل المسمى Uromastix microolepis والذى اكتشفه (بلانف). ويمتد مألف هذا الفصيل من بلاد فارس إلى العراق ثم إلى المناطق الداخلية من ظفار.

الورل. (٩) الفصيل الذى اكتشفه (داند) ويطلقون عليه الاسم Varanus gri-seus. الورل رمادى اللون. يقولون لهذا الحيوان بالعربية: وُزال أو رُوال. ويمتد مألفه إلى السودان، ويمتد شمالاً إلى بحر قزوين كما يمتد أيضاً إلى شمال غربى الهند.

العظائيات (*). (١٠) الفصيل الذى اكتشفه (جونثر) ويقولون له: Acanthodactylus Cantorsii يقولون له بالعربية: الأسود أو السويدية. يعد توزع هذا النوع، على حد ما هو معروف حتى الآن، توزيعاً غير مستمر ولم تُسجل عينات لهذا الفصيل فيما بين بلاد فارس ومنطقة وادى عدن- حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية. هذه العينات الموجودة فى العينة الحالية التى أمامنا الآن، تسد الفجوة المشار إليها فى توزع هذا النوع، لكن هذه العينات لا تربط الرتب الشمالية بالرتب الجنوبية فيما يتعلق بالخصائص، والسمات المورفولوجية. (١١) الفصيل الذى اكتشفه (أودوين) ويطلق عليه الاسم Acanthodactylus scutellatus. يقولون لهذا الفصيل بالعربية: الضبّية. مألف هذا الفصيل هو أفريقيا، شمال الصحراء الكبرى، ويمتد من الرأس الأخضر إلى السودان، وإلى فلسطين والعراق. (١٢) الفصيل الذى اكتشفه (بلانف) ويسمونه Eremias brevirostris. يقولون له بالعربية: نجاس ملح. ومألفه موجود فى البنجاب، بلوختان، بلاد فارس، العراق، سوريا؛ وهذا المؤلف لم يكن معروفاً من قبل فى اتجاه الجنوب.

(*) رتبة من الزواحف. (المترجم).

(١٣) الفصيل الذى اكتشفه (بويلنجر). وهذا الفصيل يقولون له بالعربية: السويدية. ومألف هذا الفصيل موجود فقط فى حضرموت. إلفنقورات.
(١٤) الفصيل المسمى *Scincus mitranus* الذى اكتشفه (أندرسون). يسمونه باللغة العربية: الداموسة أو اليهلاكلالك. يمتد مألف هذا الفصيل من السند إلى جنوب شرق الجزيرة العربية.

الثعابين. الأصالات. (١٥) الفصيل المسمى *Fryx Jauakari* الذى اكتشفه (بولينجر). يسمونه بالعربية: الدأيفن. يمتد مألفه من مسقط إلى اليمن.

فصائل الثعابين. (١٦) الفصيل المسمى *Molpolon moilensis* الذى اكتشفه (ديوس)، يسمونه بالعربية: الزرق. يمتد مألفه من الجزائر إلى السودان، ويمتد فى اتجاه الشمال إلى العراق وجنوب بلاد فارس.

الأفاعى الخبيثة. (١٧) الفصيل الذى اكتشفه (لن). هى الأفعى المصرية المقرنة. ويقولون لها بالعربية كبش (ذكر)، يمتد مألف هذه الأفعى من الجزائر إلى السودان، الجزيرة العربية، ثم العراق.

• (د) الجراد ، الجنادب، والسراعييف(*) بقلم: ب. أوفاروف

تمثل المجموعة التى تحمل الاسم *Orthoptera* والتى قام النقيب برترام توماس بجمعها، إسهاماً ثميناً فى معرفتنا للحياة الحيوانية فى الجزيرة العربية، التى لاتزال بلا دراسة كاملة.

وقائمة الأنواع التى نسوقها هنا هى بمثابة قائمة مبدئية وملاحظات كاملة على المجموعة، فضلاً عن أوصاف لأنواع جديدة سننشرها فى موضع آخر.

الصراصير(**):

١- الفصيل الذى يحمل الاسم *Blatella mellea* ، لم يكن هذا الفصيل معروفاً من قبل إلا فى عدن وحدها، لكن النقيب برترام توماس عثر على هذا الفصيل فى أماكن عديدة من جبال القراوين.

(*) واحده "سُرْعُوفَة"، وهى ما يقال له "فرس النبى" عند الفلاحين المصريين. (المترجم).

(**) واحده صرصار والعرب يقولون له ابن وردان . (المترجم).

- ٢- الفصيل الذى يحمل الاسم *Pycnoscelus*.
- ٣- الفصيل الذى يحمل اسم *Dorylaea rbombiflia*. هذان الفصيلان ٢، ٣ مرتبطان بالبشر وهما عالميان وليسا محليين.
- ٤- الفصيل الذى يحمل الاسم *Hololampra* ، ربما يكون هذا الفصيل جديداً. **السرعوفة (فرس النبى):**
- ٥- الفصيل الذى يحمل الاسم *Eremiaphila* . عبارة عن عينات غير مكتملة يصعب تمييزها.
- ٦- الفصيل الذى يحمل الاسم *Tarachoode Obtusiceps* والموجود فى جبال القراوين، وهو معروف من قبل فى السودان، الصومال، وإرتريا، وهذا الفصيل ينتمى إلى فصيل أفريقى خالص.
- ٧- الفصيل الذى يحمل الاسم *dmitrievi* الذى اكتشفه (قبرنر). وهو موجود فى جبال القراوين، وهذا الفصيل معروف فى الساحل الصومالى، وموجود أيضاً فى جنوب بلاد فارس وفى فلسطين.
- ٨- النوع الذى يحمل الاسم *Sphodromaitis* . وهو موجود فى جبال القراوين. وهو أيضاً عبارة عن نوع جديد من أصل أو جنس أفريقى خالص.
- ٩- النوع الذى يحمل الاسم *Empusa* . وهو عبارة عن يرقانة صغيرة. **الحشرات العَصَوِيَّة:**
- ١٠- النوع الذى يحمل الاسم *Leptynis* . وهو موجود فى عين الرّزّات فى جبل القراوين. وهذا النوع جديد ومهم تماماً ويرتبط بالنوع الذى يحمل الاسم *altenuato* ، بالفصيل أو النوع الذى يحمل *pantel* ولا يوجد إلا فى البرتغال فقط.
- الجُدَاجُ (*):**
- ١١- الفصيل الذى يحمل الاسم *Liogrylls bimaculatus* ، وهو موجود فى جبال القراوين. يشيع هذا النوع فى المناطق الاستوائية من العالم القديم وفى بلاد البحر المتوسط.

١٢- النوع الذى يحمل الاسم Gryllodes ، وهو موجود فى الربع الخالى .
يرجح أن يكون هذا النوع جديداً ، لكن البت النهائى فى هذه المسألة يعد أمراً
مستحيلاً ، وبخاصة إذا ما تم الاعتماد على عينة واحدة أنثى .

الجُنْدَب (*) طويل القرنين

١٣- الفصيل الذى يحمل الاسم Conocephalus iris ؛ وهو موجود فى جبال
القراوين . وهذا الفصيل معروف فقط فى أفريقيا وفى جزرها (مدغشقر ،
موريشيوس ، روديجوز ، وجزر سيشل) .

١٤- النوع الذى يحمل الاسم Conocerphalus ؛ وهو الجُنْدَب والجراد قصير
القرنين :

١٥- الفصيل الذى يحمل الاسم Aeridella grandis والذى اكتشفه (كلوج) .
وهو موجود فى جبال القراوين .

١٦- النوع الذى يحمل الاسم Acridella ، وهو موجود فى جبال القراوين .

١٧- الفصيل الذى يحمل الاسم Aiolopus lhalassinus ؛ موجود فى صحراء
جنوب الجزيرة العربية .

١٨- الفصيل الذى يحمل الاسم Stenohippus mundus ؛ وهو موجود فى
صحراء جنوب الجزيرة العربية .

١٩- الفصيل الذى يحمل الاسم Morphocris Fasciata sulcata الذى اكتشفه
(تونب) . وهو موجود فى جبال القراوين وصحراء جنوب الجزيرة العربية . وتوزَّعه
كبير فى أفريقيا وجنوب آسيا .

٢٠- الفصيل الذى يحمل الاسم pucnodictya dentata ؛ موجود فى جبال القراوين
وصحراء جنوب الجزيرة العربية . هذا الفصيل غير مُمَثَّل من قبل فى المتحف
البريطانى .

٢١- النوع n. موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية ، جرى العثور على
عينة واحدة من جندب بلا أجنحة ينتمى إلى عائلة فرعية تحمل الاسم Oedipod
inae

(*) يصح فيه أيضاً "القَبُوط" . (المترجم) .

٢٢- الفصیل الفرعى الذى يحمل الاسم *Sphingonotus balteat* ، وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٣- النوع الذى يحمل الاسم *Sphingonotus* ، موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٤- الفصیل الفرعى الذى يحمل الاسم *Acrotulus insubricus* ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٥- الفصیل الفرعى الذى يحمل الاسم *Trilophidia* ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٦- الفصیل الذى يحمل الاسم *Tenuitarsus* ؛ موجود فى الربع الخالى (هذا الفصیل مسجل فى القائمة الأولية تحت الاسم *Leptoscirulus*).

٢٧- الفصیل الذى يحمل الاسم *Chroto gonus* ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٨- الفصیل الذى يحمل الاسم *Cyrtacanthacris tatarica* ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٩- الفصیل الذى يحمل الاسم *Anacridium arabicum* ؛ موجود فى جبال القراوين.

٣٠- الفصیل الذى يحمل الاسم *Schistocerca gregaria* الذى اكتشفه (فوركسك)؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العبرية. وهذا هو ما يسمى جرادة الصحراء، أو جرادة الإنجيل.

٣١- الفصیل الذى يحمل الاسم *Patanga Succincta* ؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية. وهو نوع شائع فى الهند، لم يجر قط العثور عليه فى الغرب.

٣٢- النوع الذى يحمل الاسم *Catantops* ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية. وهو نوع أفريقى.

٣٢- النوع الذى يحمل الاسم *Catalopus*؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية، وينتمى إلى رتبة أفريقية.

٣٤- الفصيل الذى يحمل الاسم *Thisioncetr us Continuus*، الذى اكتشفه (وُلْك)؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية، ولم يسجل من قبل إلا فى شبه جزيرة سيناء وفلسطين.

٣٥- النوع الذى يحمل *Euprepocnemis*؛ وهو موجود فى جنوب الجزيرة العربية، وهو نوع هندي، ولم يجرِ تسجيله من قبل فى غرب البنجاب.

٣٦- الفصيل الذى اكتشفه (ولك) ويحمل الاسم *Acorypha glaucopsis*؛ وهو موجود فى صحراء فى جنوب الجزيرة العربية؛ وهو نوع هندي أيضاً.

من هنا يتضح لنا أنه من بين إجمالى سبعة وثلاثين نوعاً، هناك ما لا يقل عن سبعة أنواع جديدة على العلم، وهناك احتمال أيضاً بإضافة نوعين أو ثلاثة، لم يتم تحديد مصيرها بعد. يزداد على ذلك أن اكتشاف جيل جديد من الجنادب يجعل النتائج العلمية للبعثة جديرة بالاهتمام، وبخاصة ما يتعلق بهذه المجموعة من الحشرات بصفة خاصة.

(هـ) اليعاسيب (*) بقلم: الأنسة: سى. لونجفيلد.

جرى من بين العينات الاثنتين والستين، تسجيل وتحديد تسعة أنواع؛ هى: النوع رقم ٦ الذى يحمل الاسم *Libellulinae*، والنوع الذى يحمل الرقم ١ ويطلق عليه الاسم *Coenagrionine*؛ وكذلك النوع الذى يحمل الاسم *Aeschnnine* ورقمه أيضاً، وهذه الأنواع كلها أنواع أفريقية شائعة، يضاف إلى ذلك نوع جديد يحمل الاسم *Urothemis*.

١- الفصيل الذى اكتشفه (كيرى) ويحمل الاسم *Pseudo macromia torrida*؛ وهو مكون من ٣ ذكور وأنثى واحدة. وهو موجود فى ملوة العود. وجرى الحصول على هذه العينة فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. ومن عين الرزات فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر. وهو موجود فى الجنوب، وفى غرب وشرق

أفريقيا. وأبعاد هذه العينات الأربع الصغيرة، وأجنحة هذه العينة فى الجنسين شديدة الاصفرار بشكل ملحوظ.

٢- النوع الذى يحمل الاسم *Pantala Flavescens* الذى اكتشفه (فابر). والعينة عبارة عن ذكر واحد وأنثى واحدة؛ وقد عُثر على هذه العينة فى سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر. وهو يكاد يكون شائعاً فى العالم كله.

٣- النوع الذى يحمل الاسم *Trithemis annulata* والذى اكتشفه (بوف). والعينة مكونة من ١٢ ذكراً، وأنثى واحدة. وجيء بهذه العينة من ملوة العود، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر؛ ومن عين الرزّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر، ومن سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن خيوت فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. ويشيع هذا النوع فى شمال وشرق أفريقيا وفى الجزيرة العربية.

٤- النوع الذى يحمل الاسم *Croco themis eryth raea* الذى اكتشفه (بدوله). العينة مكونة من ١٠ ذكور، ٥ إناث. وجرى الحصول على العينة من ربالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر؛ ومن عين (فى جبال القراوين) فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر، ومن خيوت، فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. هذا النوع له مألّف كبير فى جنوب أوروبا، وكل أفريقيا، وأجزاء من آسيا.

٥- النوع الذى يحمل الاسم *Orthetrumc hrysodotigma* الذى اكتشفه (بروم). (العينة مكونة من ١٣ ذكراً، ٨ إناث. جرى الحصول على العينة من عين الرزّات فى اليوم الأول من شهر نوفمبر، ومن سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن عين فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر. ومن خيوت، فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر واليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر أيضاً، وفى اليوم الثالث عشر من نوفمبر أيضاً، ومن ملوة العود، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. ومن عين فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. وهذا النوع له مألّف واسع فى جنوب أوروبا وأفريقيا.

٦- النوع الذى يحمل الاسم *Diplaco des lefebvrei* والذى اكتشفه (رامب). العينة مكونة من ٢ ذكّرين جرى الحصول عليهما من سهالنوت فى اليوم الرابع من نوفمبر. وله مألّف كبير فى أفريقيا والجزيرة العربية.

٧- النوع الذى يحمل الاسم *Hemianax elhippiger* الذى اكتشفه (بورم). العينة مكونة من ذَكَرَيْن جرى الحصول عليها من سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن فراجة (سنام) فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يناير. وجرى العثور أيضاً على هذا النوع فى شمال وشرق أفريقيا، وفى الجزيرة العربية، وفى بلاد فارس، وفى شمال الهند.

٨- النوع الذى يحمل الاسم *Ceriagrion glabrum* الذى اكتشفه (بورم) - العينة مكونة من ٣ ذكور، أُثْبِتَيْن. جرى الحصول على العينة من خيوت فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر، وفى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر، وفى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر. ومألف هذا النوع واسع فى شمال، وشرق، وغرب أفريقيا. أجنحة هذه العينات العربية الخمس شديدة الاصفرار أكثر من اللازم.

٩- النوع الذى يحمل الاسم *Urothemis*. العينة مكونة من ذَكَر واحد وجرى الحصول عليها من عين الرزّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر.

(و) البَقْ. بقلم: و. إى. شينا.

تحتوى المجموعة على إحدى عشرة بَقَّة تمثل عشرة أنواع وأجيال. ومن بين هذه الأنواع أنواع جديدة تماماً، وثلاثة منها واسعة التوزع فى إقليم إرميان الفرعى، وواحد من هذه الأنواع الثلاثة واسع التوزع مسجل فقط من تركومانيا، والنوعان الآخران من أصل هندي، وهناك نوع واسعة التوزع فى المناطق والأقاليم الإثيوبية والشرقية وواسع التوزع أيضاً فى الإقليم الفرعى من البحر الأبيض المتوسط. وجرى من قبل أيضاً تسجيل نوعين إرميين من الجزيرة العربية، ومنهما نوع واحد يمتد توزعه إلى الإقليم الشبيه بإقليم البحر المتوسط.

وبشكل عام، تتطوى المجموعة على اعتقاد مفاده أن الجزيرة العربية تشكل من الناحية الحيوانية جزءاً من الإقليم الشبيه بالإقليم الإرمياني الذى يمتد من السنغال وشمال نيجيريا فى الغرب، عبر الصحراء الكبرى ليصل إلى السودان، ويمتد عبر الجزيرة العربية ليصل إلى بلاد فارس وإلى البنجاب وتركستان. وهذه المجموعة ليس فيها دليل على وجود عنصر إثيوبى حقيقى فى الحياة الحيوانية فى الجزيرة العربية.

١- النوع الذى يحمل الاسم *Macroscgtus brunneus* ، وجرى تسجيله فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. الاسم المحلى لهذا النوع من البق هو *Adhayrite* . وهذا النوع له توزع كبير فى إقليم البحر المتوسط، وفى إثيوبيا والأقاليم الشرقية أيضاً.

٢- النوع الذى يحمل الاسم *Cydnus* ؛ وهو موجود فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، وقد عُثر عليه فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر، واسمه المحلى *Adhayrite*.

٣- النوع الذى يطلق عليه الاسم *Amauro Coris Orbicularis* واكتشفه (جاك). عثر عليه فى حض المرازيق، على ارتفاع ٥٧٠ قدماً، فى اليوم السابع عشر من شهر يناير. لم يُسجل إلا من تركمانيا فقط.

٤- النوع الذى يحمل الاسم *Chroantha Ornatula* عثر عليه فى باحة الجمل على ارتفاع ٥٥٠ قدماً، فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير. وعثر عليه فى حض المرازيق، على ارتفاع ٥٧٠ قدماً فى اليوم السابع عشر من شهر يناير. وهو مسجل من إسبانيا، ومن دلماتيا، ومن جزيرة صقلية، واليونان، الجزائر، تونس، مصر، سوريا، بلاد فارس، تركمانيا ومن الجزيرة العربية.

٥- النوع الذى يحمل الاسم *Adria Parvula* ، والذى اكتشفه (دال) فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. والاسم المحلى لهذه الحشرة هو *Adhayrite*. وهو مسجل من شمال الهند وجنوب بلاد فارس.

٦- النوع الذى يحمل الاسم *Carbula insocia* ، والذى اكتشفه (وَلْك) *Walk* فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. والاسم المحلى لهذه الحشرة هو *Adhay rite*. وهو مسجل من الهند أى من شمال الهند وجنوب الهند.

٧- النوع الذى يحمل الاسم *Centrocoris* ، والذى اكتشفه (بوت) *Put* فى صواحيب على ارتفاع ٦٠٠ قدم، فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير؛ واسمه المحلى *Tassaigh*.

٨- النوع الذى يحمل الاسم *Cosmopleurus Fulvipes* ، والذى اكتشفه (دال) *Dall* فى حمر العين ابن جنين، فى اليوم الحادى والعشرين من شهر ديسمبر؛ كما

اكتُشف أيضاً فى سدة الهرشة، على ارتفاع ٩٠٠ قدم؛ وهو مسجل من كل من الصحراء الجزائرية، مصر، السودان، النوبة، وبلاد فارس.

٩- النوع الذى يحمل الاسم Dieuches وجرى اكتشافه فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدم، فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر. اسمه المحلى Diga-dig. وتوجد منه مجموعة فى المتحف البريطانى وهى عبارة عن عينات من بلاد الرافدين.

١٠- النوع الذى يحمل الاسم Laccotrephes Fabricii ، والذى اكتشفه (ستال) فى عين الرزّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر. اسمه المحلى Sinor-tami قط الماء). وهو مسجل من الجزيرة العربية، السويس، السودان، الحبشة، والسنغال. ويرجح أن يكون مسجلاً أيضاً من شرق أفريقيا، جنوب أفريقيا ومن الهند أيضاً.

(ز) الفراشات بقلم: النقيب ن.د. رايلي.

جرى إحضار خمسة عشر نوعاً من الفراش، اثنان منها جديان على العلم، وينتميان إلى الجيل الذى يحمل الاسم Charaxes وهذه الأنواع أفريقية تماماً من حيث القربات، وذلك فى ضوء التحليل التالى:

(أ) أنواع موجودة فى سائر أنحاء أفريقيا:

١- أنواع فى أستراليا:

Danais Chrysippus

Prcis Orithya

٢- أنواع فى الهند:

Teracolus Calais (هندي فقط)

Teracolusdanae (الهند وسيلان)

Aznusjesous (الهند، سيلان، بورما)

٣- أنواع غير موجودة فى شرق أفريقيا:

Charaxes Varanes betrami

Leuceronia buquetti

Herpaenia eriphia

Sarangesa eliminata

Myrina Silenus

(ب) أنواع موجودة فقط فى إقليم السفانا الإفريقى (من غرب إفريقيا إلى السودان، الصومال، إلخ):

Chaxaxes hamsali arabice

Teracolus evarne

(ج) أنواع البحر الأبيض المتوسط)

Tarucus theophrasus (يصل إلى الهند أيضاً)

Aphritis myrmecophila (معروف فقط فى تونس وشرق الأردن)

(د) نوع عالمى تقريباً

Pyrameis Cardui

تعد مسألة غياب الأنواع المحددة التى جاء بها شيزمان من الهفوف بالإضافة إلى عينات أخرى موجودة فى منطقة عدن معلماً بارزاً، لكن جمع المزيد من العينات ربما يلقى الضوء على هذه الأنواع. تمثل أبرز ما توصل إليه الرائد شيزمان فى الهفوف، فى الحصول على نوعين من الأنواع القطبية القديمة التى تحمل الاسم Papilio machaon (ذيل الخطّاف)، والاسم Colias Croceus (الأصفر السنجابى)، ولكن النقيب برترام توماس لم يحضر أياً من هذين النوعين. وهناك أنواع أخرى عديدة، وبخاصة النوع الذى يحمل الاسم Cilrus - وكذلك النوع الذى يحمل الاسم Papilio demoleus، هذان النوعان شائعان فى مسقط، وربما كان ذلك أمراً متوقعاً.

على الجانب الآخر، فإن وجود بعض الأعداد من هذين النوعين: النوع الذى يحمل الاسم Charaxes والنوع الذى يحمل الاسم Myrina Silenus، يُعد أمراً غير متوقع أو منتظر. هذه الأنواع الثلاثة هى حشرات أفريقية بحق، اللهم باستثناء النوع Myrina الذى جرى تسجيله فى أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية منذ ذلك الحين.

هذه المجموعة هى والمجموعة الأصغر منها التى أحضرها السيد/ برترام توماس من الرحلة التى قام بها إلى الصحراء الموجودة فى الشمال الشرقى من

صلالة، والتي نورد هنا تفاصيلها، توضح أن الإقليم الساحلى، فى أضعف الأحوال، من جنوب الجزيرة العربية، وبخاصة فيما يتعلق بالفراشات، هما جزءان أصيلان من إقليم الحياة الحيوانية الإثيوبية.

يضاف إلى ذلك أن الفراشة الوحيدة التى جرى إحضارها من الصحراء الجنوبية هى بحد ذاتها تلك الفراشة صغيرة الحجم التى يطلق عليها اسم Ly-canid والتى تحمل الاسم العلمى *Apharitis myrmecophila* والتى اكتشفها (دومونت)، وهذا النوع ينتمى إلى الإقليم الفرعى من البحر المتوسط، وهذا الإقليم الفرعى يعد أهم عنصر بعد العنصر الأول فى الحياة الحيوانية. لا يوجد فى الوقت الحالى أية اشتقاقات شرقية. هناك العديد من الروايات الخاصة بفراشات عدن (التي اكتشفها بتلر، أ.ج. فى العام ١٨٨٤ والعام ١٨٨٦ ، إلخ). لكن المعالجة الشاملة لفراشات جنوب الجزيرة العربية، التى تحمل العنوان *lepidoptera* والتى نشرتها ربل Rebel فى العدد رقم ٧١- صدرت فى العام ١٩٠٧ على شكل مطبوعة مستقلة.

العائلة التى تحمل الاسم Danaidae

النوع الذى يحمل الاسم *Danaida Chrysippus*

- ١- هذا النوع ذكر موجود فى عين الرزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، وقد اكتُشف فى ١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٠٤).
- ٢- أنثى موجودة فى متسيب، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتُشفت فى ٥- ١١- ١٩٣٠ (الأعداد ١٦٨ و ١٦٩).
- ٣- أنثى موجودة فى خيونت، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتُشفت فى ١١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٣٢).
- ٤- هذا النوع ذكر و ٣ إناث موجودة فى طريق حميرار، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتُشف بتاريخ ١٤- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٩١ - ٢٣٢).
- ٥- هذا النوع ذكر موجود فى عين، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، وقد اكتُشف فى ١٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٣٦).

١- هذا النوع الذكر موجود فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، وقد اكتشف فى ١٧-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٥٤).

هذه السلسلة مكونة من ٧ ذكور و ٥ إناث وكلها تندرج تحت الاسم F. chrysip-pus ومنها أيضاً ٣ ذكور وأنثى واحدة وجميعها تندرج تحت النوع الذى يحمل الاسم F. dorippus. هذا النوع الأخير هو النوع السائد فى الأقاليم الجرداء. هذا النوع موجود فى سائر أنحاء أفريقيا وجنوب آسيا ويصل مآلفه إلى الشرق الأقصى وأستراليا، وهو شائع فى كل مكان.

العائلة التى تحمل الاسم Nymphalidae

النوع الذى يحمل الاسم Pyrameis Cardui

هذا الفصل عبارة عن أنثى جرى العثور عليها فى عين، فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتشفت فى ٩-١١-١٩٣٠ (العدد ٢١٢). وهذا الفصل يكاد يكون عالمياً. والعينة الوحيدة التى جرى الحصول عليها صغيرة بشكل غير عادى.

النوع الذى يحمل الاسم Precis

* عينة أنثى جرى العثور عليها فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، وقد اكتشفت هذه العينة فى ٣٠-١٠-١٩٣٠ (الرقم ٣٥).

* عينة ذكر عثر عليها فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥ قدماً، بتاريخ ١-١١-١٩٣٠ (الرقم ١٠٦).

* عينة أنثى، عثر عليها فى سهالنوت، على ارتفاع ٣٥٠ قدماً، بتاريخ ٤-١١-١٩٣٠ (الرقم ١٤١).

* عينة أنثى، عثر عليها فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ٨-١١-١٩٣٠ (الرقم ١٩٨).

من سوء الطالع أن هذه العينات الأربع كانت بحالة سيئة يصعب معها تحديد الفصائل التى تنتمى إليها. يضاف إلى ذلك، أن هذه العينات الأربع مميزة بشكل واضح عن الفصائل الأفريقية التى تحمل الاسم boopis، وقد اكتشفها (ترايمن).

ونحن نستدل عليها من الفصائل المنعزلة الشيزمائية التي اكتشفها (رايلي) ولا نصادفها إلى يومنا هذا، إلا في واحة الهفوف. ويبدو أن هذه العينات تتفق إلى أبعد حد ممكن مع الفصائل المذكورة هنا والتي اكتشفها (لانج)، والتي تنتشر في سائر أنحاء بلاد الرافدين؛ والذي لا شك فيه أن هناك بعض العينات الواردة من عدن، ويمكن عزوها إلى هذه العينات.

* النوع الذي يحمل الاسم P.Orithya له مألّف يمتد من غرب أفريقيا إلى أستراليا؛ ويبدو أيضاً أن القرابات التي تربط عينات جنوب الجزيرة العربية تتجه نحو الفصيل الموجود في إقليم البحر المتوسط الفرعى، أكثر منها نحو الفصيل الأفريقى أو الفصيل الشرقى.

* النوع الذي يحمل الاسم Charaxes Varaned betrami والذي اكتشفه (رايلي)، (وانتوم فى العام ١٩٣١، ٦٤، ٢٧٩).

* كانت العينة التي جرى اكتشافها في (عين) في وادى آربوت، على ارتفاع ٥٠٠ قدم، بتاريخ ١٤ - ١١ - ١٩٣٠ مكونة من ٣ ذكور (الأعداد ٢١٩ و ٢٢٠ و ٣١٢)، وجرى اكتشاف عينة أخرى مكونة من ذكر واحد، بتاريخ ١٥ - ١١ - ١٩٣٠ (العدد ٣٣٧).

* العينة التي جرى اكتشافها في جرجاز، شمال شرق صلالة، على ارتفاع ٤٠٠ قدم، بتاريخ ١١ - ١ - ١٩٣٠ وكانت مكونة من ذكر واحد.

هذه الفصائل التي تندرج تحت النوع الذي يحمل الاسم Ch.varanes يمكن، وعلى وجه السرعة، تمييزها عن كل الفصائل الأخرى من منطلق أن الجناح الأمامى لونه أصفر مُسمّر تماماً؛ ليست فيه البقعة؛ هذا يعنى أن هذا الجناح الأمامى ليست فيه البقعة البيضاء الشائعة في هذه الفصائل. وفي الجناح الخلفى أيضاً نجد أن البقعة البيضاء الأساسية صغيرة جداً من حيث الحجم ولا تمتد إلى خارج وحدة الجسم، وذلك باستثناء الهامش الداخلى، ويقل وضوح هذه البقعة عند الضلع. وفي الجناح الأمامى نجد أن البقع الصفراء المُسمّرة الشاحبة التي تشكل الصفوف الهامشية وشبه الهامشية (بصفة خاصة) على الجناح الأمامى، ويزداد شُحوب هذه البقع وبذلك تصبح أكثر وضوحاً عنها في الفصائل الأخرى، يضاف إلى ذلك أن هوامش الأجنحة مسنّنة تسنّناً شديداً.

ونلاحظ أيضاً أن الجانب العلوى فى هذا الفصيل الجديد المهم، اللهم باستثناء بقعة الجناح الخلفى، شديد الشبه ببقعة السوقطران الذى يندرج تحت النوع الذى يحمل الاسم Ch.balfouri الذى اكتشفه (بتلر)؛ ونلاحظ هنا أيضاً أن الأسطح التحتية مختلفة تماماً، بطبيعة الحال.

وهذا يدل على أن هذين النوعين مرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً.

النوع الذى يحمل الاسم Ch. Varanes موجود فى سائر أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، لكنه لم يسجل إلى الآن من أى جزء من أجزاء الجزيرة العربية.

لم يعد يتبقى لدينا سوى القليل عن الأنثى الوحيدة التى جاء بها السيد/ برترام توماس (فى رحلته السابقة)، الأمر الذى يجعلنى أتردد فى وصف هذه الأنثى؛ ويبدو أن هذه الأنثى تختلف فى سماتها وخصائصها مطلقاً، عن الذكر.

النوع الذى اكتشفه (رايلى) ويحمل الاسم Charaxes hanali arabica.

* العينة مكونة من ستة ذكور وثلاثة إناث. عُثر على هذه العينة فى طريق الحميرار، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ١٣-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤)؛ واكتشفت أيضاً فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، بتاريخ ١٥-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٤٠)؛ واكتشف أيضاً فى سهالنوت، على ارتفاع ٣٥٠ قدماً، بتاريخ ٤-١١-١٩٣٠ (العدد ١٤١)، واكتشفت أيضاً فى سعارين، على ارتفاع ١٤٠٠ قدم، بتاريخ ٥-١١-١٩٣٠ (العدد ١٧٠)، وجرى اكتشافها أيضاً فى العين، فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ٩-١١-١٩٣٠ (العدد ٢١١)؛ واكتشفت أيضاً فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، بتاريخ ١١-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٣١)؛ واكتشف أيضاً فى جوثرينوت، على ارتفاع ٢٩٥٠ قدماً، بتاريخ ١١-٢-١٩٣٠.

العينة ذكر وأنثى. أصغر من النوع الذى يحمل الاسم hansali، وهى أدكن من هذا النوع، ولها شرايط ضيقة شاحبة. وفى الجانب العلوى نجد أن الإثلاث الأساسية فى كل من الجناحين الأمامى والخلفى ليست خليطاً من البنى-الرمادى، لكنها سوداء مثل اللون الأرضى المتبقى، ولا توجد بقعة سوداء شاحبة

عند طرف الجناح الأمامى. وعلى الجناحين نجد أن الشريط الأصفر يزيد على النصف من حيث العرض كما هو الحال فى النوع الذى يحمل الاسم hansali، ونجد الجناح الأمامى يغلب عليه بشكل ملحوظ أن يكون على شكل بقع- وفى الجانب التحتى، نجد أن العلامات الدكناء التى هى على شكل دوائر بيضاء فى المناطق القريبة من محور الجسد تعد أصغر، وبدلاً من لونها الزيتونى الغامق أو الرمادى الغامق، نجد أن هذه العلامات سوداء تماماً؛ ونجد أيضاً أن الحد الواسع الهامشى الموجود فى الجناح الخلفى يصبح لونه زيتونياً غامقاً (اللهم باستثناء العلامات والسمات المعتادة) وله انعكاسات أرجوانية قوية، وخالٍ من الحد الداخلى بنى اللون القريب من لون الكاكاو، الموجود فى النوع الذى يحمل الاسم hansali، وأيضاً فى الفصائل الفرعية التى تدرج تحت الاسم baringana، ذلك النوع الذى اكتشفه (روث).

ونحن نجد أن هذه العينات، باستثناء هذه الأنماط، كلها بحالة يُرثى لها. النوع الذى يحمل الاسم Ch.hamsali الذى اكتشفه (فيلدر) مألّفه محدود جداً، وهو لا يُعرفُ إلا فى الحبشة، الصومال، جنوب السودان، والأجزاء الشمالية من كينيا. هذا النوع هو والنوع السابق، يشكلان أول نوعين من العائلة التى تحمل الاسم Charaxes ومسجلان من الجزيرة العربية.

العائلة التى تحمل الاسم Pieridae

النوع الذى اكتشفه (كرّام) ويحمل الاسم Teracolus Calais Calais العينة مكونة من أنثى واحدة (العدد ٥٨)، جرى اكتشافها فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، بتاريخ ٣١-١٠-١٩٣٠.

هذه الأنثى الوحيدة تالفة بدرجة كبيرة، ومع ذلك فهى تنتمى بصورة قاطعة إلى الفصائل الأفريقية ولا تنتمى إلى الفصيل الذى يحمل الاسم T.Calais Carni- الذى اكتشفه (بتلر)، والذى يسكن المناطق الساحلية حول الخليج الفارسى fer وتمتد شرقاً إلى بلاد السند، والفصيل الأصيل الذى يحمل الاسم Calais يشيع وجوده فى عدن، على طول الشواطئ الجنوبية للبحر الأحمر وفى أجزاء كثيرة من أفريقيا.

عينة الفصيل الذى يحمل الاسم *Teracolus danae eupompe* والذى اكتشفه (كلوج). العينة مكونة من:

* ثلاثة ذكور، عُثِرَ عليها فى فضول، على ارتفاع ١٢٠ قدماً، فى يوم ١٨-١١ - ١٩٣٠ (٢٨٠، ٢٨٦)، وفى يوم ١٩ - ١١ - ١٩٣٠ (العدد ٤٠٢).

* ذكران، جرى العثور عليهما فى وادى نهاز، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، فى يوم ١٨ - ١١ - ١٩٣٠ (العددان ٣٦٤ و ٣٦٥).

* ذكر واحد، أحضر من صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى يوم ٢٥ - ١١ - ١٩٣٠ (العدد ٤١٦).

* أنثى واحدة، عُثِرَ عليها فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، فى يوم ١ - ١١ - ١٩٣٠ (العدد ١٠٩).

ورد فى الرواية الأولى عن هذه العينات (والتي نشرت فى الدورية الجغرافية، ١٩٣١، ص ٧٨ و ٢٣٢)، ومعروف أن هذه الرواية كُتِبَت قبل تحديد ماهية هذه العينات، أن هذه العينات كُشِفَتْ عن قرابة وثيقة بالفصيل الهندى الذى يحمل الاسم *danae*، لكن الفحص الدقيق لهذه العينات لم يؤكد ذلك - ذلك أن شكل وحجم البقعة الفوقية الحمراء، الموجودة على الجناح الأمامى، تبدو وكأنها أفضل مرشد إلى القرابة العرقية، التى تتمثل فى هذه العينات التالفة إلى حد ما، وتربط هذه العينات بالفصيل الذى يحمل الاسم *eupompe* فى غرب الجزيرة العربية وإقليم البحر الأحمر.

هذا النوع موجود فى سائر أنحاء أفريقيا (جنوب الصحراء الكبرى) ويمتد شرقاً خلال غربى الهند إلى جزيرة سيلان.

الفصيل الذى اكتشفه (كلوج) ويحمل الاسم *Teracolus evame*، كانت العينة مكونة من:

* ذكر واحد، جرى إحضاره من ملوة العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، فى يوم ٣٠ - ١٠ - ١٩٣٠ (٣٤).

* ذكر واحد وأنثيان، جرى الحصول عليهما من عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً فى يوم ٣١ - ١٠ - ١٩٣٠، وفى يوم ١ - ١١ - ١٩٣٠ (جرى الحصول على أنثى واحدة). (٤٨، ٤٩، ١٠٨).

* ١٦ ذكراً و٦ إناث: جرى الحصول عليها من فضول ووادي نهاز، على ارتفاع ١٥٠-٢٥٠ قدماً، في يوم ١٨-١٩ من شهر ١١ من العام (١٩٣٠).

(٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٧١-٧٩، ٣٨١-٥، ٣٨٧، ٤٠٠-١، ٤٠٣-٤).

كل هذه العينات صغيرة وشاحبة بشكل مميز وواضح. وإذا ما نَحْنُنا مسألة الحجم جانباً نجد أن هذه العينات تتفق إلى أبعد حد ممكن مع ذلك الشكل الذي وصفه بتلر بأنه ينتمي إلى الاسم phillipsi، من منطلق أن هذا الفصيل أقل بروزاً عن الفصيل الذي يحمل الاسم evarne، لكن هذا الفصيل يكاد يكون غير مُرَقَّط مثل الفصيل أو الشكل الذي اكتشفه (بتلر) ويندرج تحت الاسم Citreus.

هذا النوع لا يوجد سوى في شمال شرق أفريقيا، فهو شائع في مستعمرة كينيا، وفي الحبشة، السودان، وفي الصومال أيضاً، لكنه حتى الآن لم يسجل سوى مرة واحدة، في الجزيرة العربية، وبالتحديد بواسطة ريل Rebel الذي حصل على عيناته من رأس مرتك في شهر مارس. ويغيب هذا النوع بشكل واضح عن منطقة عدن، لكن الرائد فيلبي حصل على بعض أفراد هذا النوع من جدة في شهر ديسمبر.

النوع الذي يحمل الاسم Herpaenia eriphia الذي اكتشفه (جودت)، الفصيل أو الشكل الذي يحمل الاسم tritogenia والذي اكتشفه (كلوج).

* العينة عبارة عن أنثى واحدة، جرى الحصول عليها من وادي نهاز، في جبال القراوين، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً؛ وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ (العدد ٣٦٠).

جاء كلوج بعيناته التي تدرج تحت الفصيل الذي يحمل الاسم tritogenia من منطقة أمبكهول على النيل. لم يكن هذا النوع حتى ذلك الوقت قد سُجِّل من الجزيرة العربية، ومع ذلك فنحن منذ فترة قصيرة جداً رأينا أن قائد السرب أ. ب. سى. بتس Betts عثر على هذا الفصيل في ضالة وفي السودان الواقعتين إلى الشمال من عدن، وأن هذا الفصيل كان من الشكل الذي عثر عليه السيد / برترام توماس في جبال القراوين- ويشيع وجود هذا الفصيل في سائر أنحاء أفريقيا اللهم باستثناء مناطق الغابات المطيرة الاستوائية.

النوع الذى يحمل الاسم *Leuceronia buqueti arabica*، الذى اكتشفه (هوبف).

جاءت العينة على النحو التالى:

* ذكر واحد، جرى اكتشافه فى وادى آربوت، على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، فى يوم ١٤-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٢٢).

* ذكر واحد، جرى العثور عليه فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، فى يوم ١٥-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٣٥).

* أنثى واحدة، جرى العثور عليها فى وادى نهاز، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، فى يوم ١٨-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٦٣).

النوع الذى يحمل الاسم *Leuceron ia buqueti* موجود فى سائر أنحاء أفريقيا فى المنطقة جنوب الصحراء الكبرى، باستثناء مناطق الغابات المطيرة، وقد سُجل هذا النوع فى الجزيرة العربية من منطقة عدن، ومن جدل الشيش على الطريق المؤدية من با الحوف إلى عزّان فى حضرموت.

النوع الذى يحمل الاسم *Lycaenidae*

النوع الذى يحمل الاسم *Tarucus theophrastus*

جاءت العينة على النحو التالى:

* ٣ ذكور وأنثيان: عثر عليها فى ملوة العود على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، فى يوم ٣٠-١٠-١٩٣٠ (العدد ٣٢)، وعثر عليها أيضاً فى عين الرزّات على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، فى يوم ٣١-١٠-٣٠ (العدد ٥٣، ٥٤)، وعثر عليها أيضاً فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، فى يوم ١١-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٥٨)؛ ومن فضول، على ارتفاع ١٢٠ قدماً، يوم ١٨-١١-١٩٣٠ (العدد ٣٧٠).

هذا بكل تأكيد نوع من أنواع البحر الأبيض المتوسط، ويمتد مألّف هذا النوع إلى الحبشة، الصومال، عدن، ويمتد أيضاً إلى الهند. ويقوم تعرف هذا النوع وتحديد على دراسة وفحص الأعضاء التناسلية للذكور الثلاثة.

الفصيل الذى يحمل الاسم *Azanus Jesous* ، الذى اكتشفه (جوهر).

جاءت العينة على النحو التالي:

* ٣ ذكور وأنثيان، جرى العثور عليها في عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، في يوم ٣١-١٠-١٩٣٠ / ١-١١-١٩٣٠ (الأعداد ١٥، ٥٦، ٦٠، ٦١، ١٠٧).

هذا النوع أصيل، ويمتد مألّفه في كل أنحاء أفريقيا وجزء كبير من جنوب آسيا؛ وهذا النوع موجود أيضاً في أجزاء من إقليم البحر الأبيض المتوسط، أي في سوريا على وجه التحديد، ويشيع وجوده أيضاً في عدن.

الفصيل الذي يحمل الاسم *Apharitis myrmecophila* ، الذي اكتشفه (دومونت).

جاءت العينة على النحو التالي:

* أنثى واحدة، جرى العثور عليها في شناء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، في يوم ٨-١-١٩٣١ (العدد ٤٥٨).

هذه هي الفراشة الوحيدة التي جرى الحصول عليها من الربيع الخالي. وهذه الفراشة تنتمي بكل تأكيد إلى النوع الذي يعيش في الصحراء، والنوع الذي تمثله هذه الفراشة لم يجرّ تسجيله إلى يومنا هذا إلا من المناطق الرملية الجرداء في كل من تونس وشرق الأردن. وقد صادف دومونت هذه الفراشة أول مرة من العام ١٩١٩ في المنطقة سالفة الذكر، فقد عثر دومونت على يرقة هذه الفراشة وهي تتغذى أثناء الليل على النوع الذي يحمل الاسم *Caligonum Como-sum* الذي اكتشفه لوهرت (L'herit) في حين ترتاح هذه اليرقة أثناء النهار في الممرات الموجودة حول الجذور، والتي يشكلها النمل الذي يطلق عليه اسم *Catoglyphia bicolor* الذي اكتشفه (لوهرت)، وكذلك النمل الذي يحمل الاسم *auberti* *Cremastogaster* والذي يبدو أنه يعتنى بهذه اليرقات عناية فائقة وحريصة. وقد تمكن النقيب برترام توماس من الحصول على فصيل من النوع الذي يحمل الاسم *Cremastogaster* من باحة الجمل، في الربيع الخالي، في اليوم الخامس عشر من شهر يناير.

النوع الذي يحمل الاسم *Myrina silenus*

جاءت العينة على النحو التالي:

* سبعة ذكور وأنثيان، جرى العثور عليها فى ملوة العود على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، فى يوم ٣٠-١٠-١٩٣٠ (العدد ٣٢)، وعثر عليها أيضاً فى عين الرزات على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، يوم ٣١-١٠-١٩٣٠ (الأعداد ٥٠، ٥٢، ٥٥، ٥٩)؛ فى ١-١١-١٩٣٠ (العدد ١٠٥)، وعثر عليها أيضاً فى عين (جبال القراوين)، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى يوم ٨-١١-١٩٣٠ (العدد ١٩٩)، وعثر عليها أيضاً فى العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، يوم ١٠-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٢٥)، كما عثر عليها أيضاً فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً؛ يوم ١٣-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٥٦).

هذا النوع موزع فى سائر أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فى كل من المناطق الجافة والمناطق الرطبة (المبتلة). وهذا النوع ليس معروفًا فى عدن، لكن الشكوك ضئيلة جداً فى مسألة إبلاغ (ربل) عن وجود النوع الذى يحمل الاسم *Myrina Ficedula* (الذى اكتشفه ترايمن)، هو نوع وثيق الصلة بهذا النوع، الموجود فى رأس فرتك على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وإن هذا النوع مؤسس أصلاً على النوع الذى يحمل الاسم *Myrina Ficedula Rebel* - وهذا هو ربل يلفت الانتباه إلى الشكل المحصور فى المنطقة من الجانب العلوى من الجناح الخلفى فى الذكر، يعد معلماً، هو فى واقع الأمر أسهل وسيلة يمكن بها تمييز النوع *M.silenus* عن النوع *M.ficedula* فى هذا الجنس. ومن سوء الطالع أن أجنحة الإناث الوحيدة التى جاء بها السيد برترام توماس، كلها مجردة من الحراشف.

النوع الذى يحمل الاسم : *Hesperiidae*

الفصيل الذى يحمل الاسم *Sarangesa eliminata*، الذى اكتشفه (هول).

جاءت العينة على النحو التالى:

* أنثى واحدة، جرى الحصول عليها من خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، فى يوم ١٣-١١-١٩٣٠ (العدد ٢٧١).

هذا النوع موجود فى سائر أنحاء المناطق الأكثر جفافاً فى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. وهذا النوع معروف فى عدن من الجزيرة العربية، ومعروف أيضاً فى رأس فرتك وبعض الأجزاء القليلة الأخرى من الإقليم الساحلى الجنوبى. العينات العربية (المغاير الذى يحمل الاسم *deserticola*) (الذى اكتشفه (ربل)) لا يمكن تمييزها عن النوع الذى يحمل الاسم *eliminata* (الذى اكتشفه هول (Holl)).

(ح) صنوف العُتَّة بقلم: و. ه. ث. تامز

تشمل صنوف العُتَّة العديدة مثل الفراشات على ما يلي:

- * النوع الذى يحمل الاسم Euproctis.
 - * النوع الذى يحمل الاسم Bryophilopsis tarachoides ، الذى اكتشفه (ماب).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Arcyophara lomgivalvis ، الذى اكتشفه (جوين).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Achaea Catella ، الذى اكتشفه (جوين).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Pandesma anysa ، الذى اكتشفه (جوين).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Anumeta Sestis ، الذى اكتشفه (منيت).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Anumeta hilgerti ، الذى اكتشفه (روتش).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Somatina Virginalis ، الذى اكتشفه (بروت).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Cossus Cheesmani ، الذى اكتشفه (تامز).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Zygaena Simonyi ، الذى اكتشفه (ربل).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Ommatopteryx ocella ، الذى اكتشفه (هاو).
 - * النوع الذى يحمل الاسم Bradina admixtalis ، الذى اكتشفه (ووكر).
- ترتبط صنوف العُتَّة مثل الفراشات، ارتباطاً وثيقاً بالحياة الحيوانية الأفريقية أكثر من الحياة الحيوانية الشرقية.

(ط) الخنافس بقلم: ك. ج. بلير

وصل عدد الخنافس التى جمعها السيد/ برترام توماس إلى قرابة ثلاث وخمسين عينة موزعة على خمسة وعشرين نوعاً، كما سيتضح فيما بعد. ينتمى أكثر من نصف هذا العدد إلى العائلة الأساسية فى الحياة الحيوانية الصحراوية والتى يطلق عليها الاسم Tenebrionidae. هذه العينات، فى معظمها، عبارة عن حشرات كبيرة الحجم سوداء اللون كلها، وعلى الرغم من أن بعض هذه الحشرات تدفن نفسها فى الرمل أثناء النهار أو تختفى تحت الأحجار والكتل الأرضية، فإن

الكثير من هذه الحشرات تجرى بسرعة كبيرة فى ضوء الشمس شديد الحرارة^(١). وهنا نقول إن لون الجسم يختلف فى عدد قليل جداً من هذه الحشرات، وقد يتحول ذلك اللون الأسود بفعل الأكسدة إلى اللون الأبيض الذى يغطى سطح جسم الحشرة كله، كما هو الحال فى الحشرات التى يطلق عليها الاسم *Leucolaephus*، من هذه المجموعة، ويكون ذلك الغطاء على شكل شعيرات كثيفة بيضاء اللون. وفى بعض الحالات القليلة جداً نجد إن لون هذه الخنافس التى تسكن الصحراء يكون أصفر مائلاً إلى الاحمرار الذى يقارب لون الرمال التى تسكنها هذه الحشرات، ومع ذلك فإن هذه الحشرات ليلية ويصعب اكتشافها، لأنها تشبه الظلال وهى تتحرك على الرمال.

المجموعة بكاملها، تمثل بصورة واضحة الصحراوات القديمة، بعض هذه العينات أو الأنواع يمتد مآلفها من شمال أفريقيا إلى شمالى الهند وآسيا الوسطى، لكن قرابات هذه الأنواع هى مع العنصر الأفريقى عنها مع العنصر الآسيوى. وجزء كبير من هذه الأنواع مقصورة على الإقليم الذى يضم كلا من مصر، الجزيرة العربية، جنوب بلاد فارس، بلوخرستان؛ ويشكل بعض آخر من هذه الأنواع الحافة الشرقية من سكان يمتد مآلفهم إلى شمال أفريقيا. ومن بين هذه العينة نوع جديد يحمل الاسم *Pterolasia multicostata*، ويبدو أنه ينتمى إلى نوع من أنواع غرب أفريقيا دون أن تكون له روابط وسيطة. ويبدو أن القرنبى(*)، ذلك النوع الذى يحمل الاسم *Batocera rubus*، هو الآخر، وكأنه يشكل مستعمراً غربياً من أصل هندي.

ونحن نورد فى القائمة التالية الاسم المحلى بعد الاسم العلمى مباشرة. وقد حذفنا مرجعيات أدبيات هذه الخنافس، لأنه بالإمكان الرجوع إلى هذه الأدبيات فى الكتالوج الذى ألّفه جنكس عن الخنافس؛ يزداد على ذلك أن الأنواع الجديدة جرى وصفها فى مجلة الحشرات التى تصدر كل شهر، وبخاصة العدد الصادر فى شهر ديسمبر من العام ١٩٣١.

(١) بكستون، ب. إيه.، الحياة الحيوانية فى الصحراء، ١٩٢٩.

(*) الخنافس طويلة القرن. (المترجم).

العائلة التي تحمل الاسم Tenebrionidae الذى معناه "الخنافس الصحراوية":

١- النوع الذى يحمل الاسم *Erodius octocostatus* ، والذى يطلق العرب عليه اسم (قعايد البنات)، وقد عثر على هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٤٦١، وعثر عليه أيضاً فى القصمان، على ارتفاع ٩٠٠ قدم، يوم ١٢- ١- ١٩٣١. كما وصف هذا النوع من شبه جزيرة سيناء، وهذا النوع ليس مُمَثَّلًا فى المتحف البريطانى.

٢- النوع الذى يحمل الاسم *Erodius Reichei* ، والذى يطلق العرب عليه اسم (قعايد البنات) فى الربع الخالى؛ العددان (٤٥٧ و ٤٦٤). وهو موجود أيضاً فى شينه، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، وقد عثر عليه فى يوم ٥- ١- ١٩٣١؛ وهو غير مُمَثَّل فى المتحف البريطانى.

٣- النوع الذى يحمل الاسم: *Tenlyria thomasi* ، وهو نوع جديد وقد عثر عليه فى الربع الخالى؛ العددان ٤٣٨ و ٤٣٩ ؛ وعثر عليه أيضاً فى رملة شعيت، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، يوم ٢٣- ١٢- ١٩٣٠ ، ويطلق العرب عليه الاسم "رقيبة" *Ragaiba* وهو موجود أيضاً فى شينه على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى يوم ٥- ٦- ١٩٣٠ والعرب يسمونه "أم الغريبة" ؛ العدد ٤٨٧ ؛ وعثر عليه أيضاً فى سنام المنقر، على ارتفاع ٦٥٠ قدماً، يوم ١٨- ١- ١٩٣١ والعرب يسمونه هنا "أم رغبه" ؛ العدد ٤٩٩؛ وعثر عليه أيضاً فى عوده، على ارتفاع ٤٠٠ قدم، فى يوم ٢٤- ١- ١٩٣١. والعرب يسمونه "رغبه" *Raghaiba* (وهو غير مُمَثَّل فى المتحف البريطانى).

٤- النوع الذى يحمل الاسم *Oxycara Subcostata* والذى اكتشفه (جوير) والعرب يسمونه (حنضوت، ضيار).

٥- النوع الذى يحمل الاسم *Adesmia Cancellata* ، الذى اكتشفه (كلوج)، والعرب يطلقون عليه الاسم (حنضوت). وعثر عليه فى جبال القراوين؛ العدد ٦٩؛ وعثر عليه أيضاً فى عين الرزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، يوم ٢١- ١٠- ١٩٣٠ العدد ١٢٠، وعثر عليه فى ٢- ١١- ١٩٣٠ فى تنجفير *Tingifer*.

٦- النوع الذى يحمل الاسم *Adesmia (oteroscelis) Khaliensis* ، وهو نوع جديد تماماً، (والعرب يسمونه "اليهمه") اكتُشف فى الربع الخالى؛ الأعداد من ٤٣٤ - ٤٣٧ وعثر عليه أيضاً فى رملة شعيت، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى يوم ٢٣- ١٢- ١٩٣٠.

٧- النوع الذى يحمل الاسم *Leucolaephus arabicus* ، وهو نوع جديد تماماً، (والعرب يسمونه "قعايد البنات"). وقد اكتشف فى الربع الخالى؛ العددان ٥٢٠ و٥٢١، وفى جوب صافية، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، يوم ٣١ - ١ - ١٩٣١.

هذا يعنى أن النوع الذى يطلق عليه الاسم *Leucolaephus* لم يُعرف منذ ذلك الحين وإلى الآن إلا فى شمال أفريقيا، إذ يوجد منه فصيل فى الجزائر، وفصيلان فى طرابلس وفصيل واحد فى الحبشة. ويعد امتداد مألّف هذا النوع إلى جنوب الجزيرة العربية أمراً بالغ الأهمية، وبخاصة أن الأنواع المتبقية منه هى من العائلة الفرعية التى ينتمى إليها هذا الفصيل أو النوع، والذى يطلق عليه الاسم *Platyopinae* ، هى كلها آسيوية التوزع، إذ يبدأ المألّف من آسيا الصغرى، مروراً بتركستان ووصولاً إلى سيبيريا، أو قد يصبح فرعاً مصطبغاً أكثر بالصبغة الجنوبية، مروراً ببلاد الرافدين إلى أن يصل إلى بلاد فارس.

٨- النوع الذى يحمل الاسم: *Prionothea Coronata* ، والذى اكتشفه (أوليف) ويطلق العرب عليه الاسم (ياهمه، فسّايه).

٩- النوع الذى يحمل الاسم: *Ocnera philistina* ، والذى اكتشفه (ريش) ويسميه العرب (حتاته).

جرى اكتشاف هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٥٣٤، وفى منحدر قطر، على ارتفاع ١٣٠ قدماً، يوم ٤ - ٢ - ١٩٣١ - وهذا النوع معروف فى مصر وسوريا، الجزيرة العربية (اليمن وحضرموت) وفى بلاد فارس، ويصل مألّفه أيضاً إلى كراتشى.

١٠- النوع الذى يحمل الاسم *Pimelia arabica* ، والذى اكتشفه (كلوج)، وله أيضاً اسم مغاير هو *thomasi* ، ويعد نوعاً جديداً ويسميه العرب (فسّايه).

جرى اكتشاف هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٤٦١، وفى شينه على ارتفاع ١٠٠ قدم، فى يوم ٥ - ١ - ١٩٣١.

يختلف هذا الفصيل عن الشكل (النوع) الأصيل الذى جرى اكتشافه فى اليمن وفى حضرموت؛ من حيث أن عجيزات الأضلاع تكون طويلة وحادة، كما أن المسافة بين العجيزات التى جاء بها النقيب برترام توماس من رحلته السابقة إلى

مجوج تايج فى يوم ١٨-١-١٩٣٠، تعد حلقة أو مرحلة وسيطة بين هذا الفصيل والنوع نفسه.

١١- النوع الذى يحمل الاسم: *Pimelia hirtella*، والذى اكتشفه (سناك)، ويسميه العرب (الحتاته). العدد ٥٣٥، واكتشف أيضاً فى المناطق الداخلية من قطر، على ارتفاع ١٣٠ قدماً، يوم ٤-٢-١٩٣١. وهو مسجل من مصر، سوريا، والجزيرة العربية.

١٢- النوع الذى يحمل الاسم *Pterolasia muticostata*، وهو نوع جديد؛ ويسميه العرب (حنضوت). العدد ٨٧، واكتشف أيضاً فى ملوة العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، يوم ١-١١-١٩٣٠. العدد ١١٩، يملك الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، يوم ٢-١١-١٩٣٠.

١٣- النوع الذى يحمل الاسم *Blaps wiedemanni*، والذى اكتشفه (سول)، ويطلق العرب عليه الاسم (فسّاية). العدد ٥١١، واكتشف أيضاً فى جوب خاريت، على ارتفاع ٣٥٠ قدماً، يوم ٢٩-١-١٩٣١.

وهو موجود فى مصر، جنوب الجزيرة العربية، وفى سيناء، وفى جنوب فلسطين.

العائلة التى تحمل الاسم *Buprestidae* الذى يعنى "الخنافس المعدنية"

١٤- النوع الذى يحمل الاسم *Steraspis arabice* الذى اكتشفه واتره، والذى يطلق عليه العرب الاسم (الكدامير). العدد ٤٢٠، واكتشف أيضاً فى جبال القراوين، فى وادى خوف على ارتفاع ١٥٠ قدماً، يوم ١٥-١٢-١٩٣٠. جاءت العينة أو هذا النوع من مسقط، وسبق العثور على هذا النوع على يد السيد/ توماس فى بارزان، يوم ٤-٢-١٩٣٠؛ واكتُشف أيضاً فى جيلات الشيسور، يوم ١٩-١-١٩٣٠. وهذا النوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنوع الأفريقى الذى يحمل الاسم *S. speciosa* الذى اكتشفه (كلوج).

١٥- النوع الذى يحمل الاسم: *Capondis excisa*، الذى اكتشفه (منيت)، وله اسم مغاير *aericolor*، وهو نوع جديد تماماً؛ والعرب يطلقون عليه الاسم (شعار).

١٦- النوع الذى يحمل الاسم: *Lampetis mimosae* ، والذى اكتشفه (كلوج) ويطلق العرب عليه الاسم (شعار).

١٧- النوع الذى يحمل الاسم *Lampetis Catenulata* ، والذى اكتشفه (كلوج) ويطلق العرب عليه اسم (التكيفة)، (الفيوزوزه).

العائلة التى تحمل الاسم *Cerambycidae* والذى يعنى الخنافس طويلة القرون:

١٨- النوع الذى يحمل الاسم *Batocera rubus*، والذى يطلق عليه العرب الاسم (زيرور). العدد ١٩٣ جبال القراوين، العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، يوم ٨- ١١- ١٩٣٠؛ العددان ٣١٣ و ٣١٤. فضول على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، يوم ١٤- ١١- ١٩٣٠.

العائلة التى تحمل الاسم *Chrysomelidae* الذى معناه "خنافس البئات":

١٩- النوع الذى يحمل الاسم: *Aulacophora (Rhopidopalpa) foveicollis*، الذى اكتشفه (لوك)، والذى يسميه العرب (الصَّبِير).

العائلة التى تحمل الاسم: *Curculionidae* الذى معناه "السُّوس":

٢٠- النوع الذى يطلق عليه اسم *Ammocleon hieroglyphicus* والذى اكتشفه (أول) ويسميه العرب (طويشه).

العائلة التى تحمل الاسم *Scarabidae* التى حددها (ج. ج. آرو). النوع الذى يحمل الاسم *Coprinae* الذى معناه "خنافس الروث".

٢١- النوع الذى يحمل الاسم *Scarabaeus Sacer* ، والذى يطلق العرب عليه اسم (البهابان).

٢٢- النوع الذى يحمل الاسم *Heliocopris gigas* ، والذى يسميه العرب (جعايله، سعال).

٢٣- النوع الذى يحمل الاسم: *Onitis alexis* ، الذى اكتشفه (كلوج).

العائلة التى تحمل الاسم *Melolonthinae* الذى معناه "الدودة البيضاء".

٢٤- النوع الذى يحمل الاسم *Phalangonyx arabicus* الذى اكتشفه (آرو) وهو نوع جديد. جرى اكتشافه فى الربع الخالى، جوب سوفييه، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، فى يوم ٣١- ١- ١٩٣١.

هذا النوع غير معروف فى أى مكان آخر غير الجزيرة العربية؛ جرى العثور فى بغداد على نوع مثيل لهذا النوع.

العائلة التى تحمل الاسم Cetoniinae الذى معناه "خنافس الورد":

٢٥- النوع الذى يحمل الاسم Pachnoda.

جرى العثور على هذا النوع فى جبال القراوين، عين الرزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً؛ فى يوم ٢- ١١- ١٩٣٠. وهذا النوع موجود فقط فى الجزيرة العربية. لم يكن هذا النوع ممثلاً من قبل فى مجموعة المتحف البريطانى.

ى - النحل والزنابير، إلخ. قام بتعرف النحل ر. ب. بنسون، وقام ر. إى تيرنر بتعرف الزنابير، فى حين قام بتعرف النمل ه. دونيس ثورب Donisthorpe. وعليه قام هوغ سكوت بإعداد التقرير طبقاً لهذا الترتيب.

جرى جمع أربعة عشر نوعاً من النوع الذى يحمل الاسم Hymenoptera ، وأمكن تسمية عشرة من هذه الأنواع (أما الأربعة الباقية فيمكن فى الوقت الحالى ربط هذه الأنواع بأجناسها). وتتمثل أبرز حقائق هذا الأمر فى أن قرابات هذه الأنواع بالجنس الأفريقى أكثر منها بالجنس الشرقى، وربما كان الأمر أكثر من ذلك. أربع من هذه الأنواع تشيع فى الجزء الشمالى من أفريقيا وفى الجزء الجنوبى الغربى من آسيا؛ هناك نوع من هذه الأنواع، وهو ذلك الزنبور الشائع الذى يحمل الاسم (polistes hebeaeus) ، وهو عبارة عن فصيل شرقى واسع الانتشار ولا يوجد فى أفريقيا؛ وهناك نوع واحد جرى من قبل الحصول عليه فقط من جنوب الجزيرة العربية. وإذا ما نحينا هذه الأنواع الأربعة جانباً، لا نجد أى عنصر من العناصر الآسيوية. تشتمل الأنواع الأربعة المتبقية على نوع واحد موجود فى إقليم البحر المتوسط وفى سائر أنحاء أفريقيا؛ وهناك نوع آخر واسع الانتشار فى الأجزاء الشمالية والأجزاء الوسطى من القارة؛ وهناك نوعان موزعان على نطاق واسع فى أفريقيا الاستوائية. وواحد من هذه الأنواع الأخيرة، بارز وواضح تماماً، وهو بالتحديد النملة التى تحمل الاسم Mossor barbarus والى تنتمى إلى الفصيل الذى يحمل الاسم galla. هذا النوع واسع الانتشار فى جنوب أوروبا، أفريقيا، وفى أجزاء من آسيا أيضاً، لكن الفصيل الذى يحمل

الاسم *Galla* أصبح معروفاً حتى الآن فى أفريقيا (حيث يوجد فى الحبشة، شرق أفريقيا، الصومال، السودان، وفى سنجامبيا)، وهنا نجد أن إضافة جبال القراوين إلى مألّف هذا الفصل يعد أمراً بالغ الأهمية.

النحل: النوع الذى يحمل الاسم: *Xylocopa aestuans*، وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٢٠ قدماً، وجرى العثور عليه فى اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر؛ وهذا النوع موجود أيضاً فى جنوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، وقد عثر عليه فى يومى ١٢ - ١٣ نوفمبر؛ وموجود أيضاً فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، وقد عثر عليه فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر؛ وعثر عليه أيضاً فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. وعثر عليه أيضاً فى ظفار: صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر، وهو موجود أيضاً فى شمال أفريقيا، السودان.. إلخ، وموجود أيضاً فى غرب وجنوب آسيا.

النوع الذى يحمل الاسم *Xylocopa fenestrata*. موجود فى جبال القراوين: فى خيوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، وقد عثر عليه فى ١٣ نوفمبر؛ وفى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، يوم ١٥ نوفمبر، وفى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، فى اليوم الأول من شهر نوفمبر. وموجود أيضاً فى شمال أفريقيا، جنوب الجزيرة العربية، وفى الهند، إلخ.

النوع الذى يحمل الاسم: *Anthophora*. غير موجود فى مجموعة المتحف البريطانى. وهو موجود فى الربيع الخالى: فى شناء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى اليوم الخامس من شهر يناير.

الزنابير: التى تحمل الاسم *Polistes herbaeus*. وهو موجود فى ظفار: فى صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر. وهو موزع على نطاق واسع فى الإقليم الشرقى والمحيط الهادئ.

النوع الذى يحمل الاسم: *Hemipepsis heros*، والذى اكتشفه (جويز). وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، وجرى اكتشافه فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. وهو موجود أيضاً فى أفريقيا الاستوائية.

النوع الذى يحمل الاسم: Trogaspeidea وليس موجوداً أو مُدرجاً فى المتحف البريطانى، ويرجح له أن يكون نوعاً جديداً. وهو موجود أيضاً فى جبال القراوين: عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر وفى اليوم الثانى من شهر نوفمبر.

الزنانبير الأحفورية المعتزلة التى تحمل الاسم Sceliphron Spirifx. وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدماً، فى اليومين ١٤-١٥ نوفمبر؛ وموجود أيضاً فى عين قارة، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى اليوم التاسع واليوم السادس عشر من شهر نوفمبر. وموجود أيضاً فى إقليمى البحر المتوسط والحبشى.

النوع الذى يحمل الاسم: Tachysphex aemulus ، والذى اكتشف (كوهل) مغائراً له. وهو موجود فى جبال القراوين: فى عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدماً، يوم ٢ نوفمبر. وموجود أيضاً فى جنوب الجزيرة العربية (عبدالكورى وراس فرتك، فى العام ١٨٩٩، بواسطة بعثة أكاديمية فينأ للعلوم).

النوع الذى يحمل الاسم: Sphekeydenii ، الذى اكتشفه (دهلب). يوجد فى جبال القراوين: فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، وقد اكتشف فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. وهو موجود أيضاً فى البحر المتوسط وغرب آسيا.

النوع الذى يحمل الاسم: Bem bex dahlbomi ، الذى اكتشفه (هاندل)، وفابر- وهو موجود فى الريح الخالى: فى بانيان، على ارتفاع ٣٠٠ قدم، وقد اكتشف فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير. وهو موجود أيضاً فى شمال أفريقيا وجنوب- غرب آسيا.

النمل: النوع الذى يحمل الاسم: Messor barbarus، وهو فصيل يحمل الاسم: gall وهو موجود فى جبال القراوين: فى خيوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدماً، وجرى اكتشافه فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. ثلاثة جنود. وموجود أيضاً فى الحبشة، الصومال، السودان، شرق أفريقيا وفى سينجامبيا.

النوع الذى يحمل الاسم: Componotus (Tanaemyrmex) Compressus ، وهو فصيل يحمل الاسم: thoracixus. وهو موجود فى جبال القراوين: فى ملواح العود،

على ارتفاع ٢٢٠ قدماً، وقد اكتُشف فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. العينة مكونة من جندي واحد. وهو موجود فى صحارى وواحات الجزائر وتونس.

النوع الذى يحمل اسم: *Crematogaster (Sohaerocrema)* (هذا النوع لا يمكن تحديده من الانثى وحدها). وهو موجود فى الربع الخالى: فى باحة الجمل، على ارتفاع ٥٠٠ قدم، وجرى اكتشافه فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير. العينة عبارة عن ملكتين، واحدة منهما مُجَنَّحة، وتعرِّق الأجنحة الأمامية غير عادى، والملكة الأخرى غير ذلك.

الذباب ذو الجناح والرخويات

(ك) الذباب ذو الجناحين. بقلم: ف. و. إدواردز هو والآنسة دى أويرتين

تشتمل الحشرات مزدوجة الأجنحة على عدد قليل جداً من الأنواع، لكن البعوضة التى تحمل الاسم: *Anopheles mauritanus* تدخل ضمن هذه الأنواع، وقد جرى الحصول على هذه البعوضة من جريب على ساحل القراوين، وهذه البعوضة لم يسبق تسجيلها من الجزيرة العربية، وذلك على الرغم من وجود هذا النوع فى مصر وفى جنوب فلسطين وأيضاً فى سائر أنحاء أفريقيا الاستوائية. وذباب النحل (الذى يحمل الاسم *Bombliidae*) يشمل النوع الذى يحمل الاسم *Bombylius analis* هو نوع أفريقى شائع، وهو موجود أيضاً فى فلسطين، كما أن النوع الذى يحمل الاسم *Exoprosopa* يعد نوعاً جديداً على المتحف البريطانى. هناك ذباب آخر تربطه قرابات إثيوبية مثل النوع الذى يحمل الاسم *Promachus* (ذبابة لصّة)، والنوع الذى يحمل الاسم: *Eristalis taeniops* (الذبابة الحوامة)، وثلاثة أنواع من الذباب - القاذف، بالإضافة إلى النوع الذى يحمل الاسم *Hippo-bosca maculata* الذى هو من طفيليات الإبل.

(ل) الدرقيات. بقلم: جى. سى. روبسون.

اشتملت الحيوانات الرخوية التى جاء بها السيد/ برترام توماس فى فراهود على خمس وثلاثين عينة، وثلاثة عشر نوعاً جديداً، وكلها بحرية. والفصائل التى من قبيل النوع الذى يحمل الاسم: *Potamides* وكذلك النوع الذى يحمل الاسم: *Cardium* ربما كانا منسجمين مع بعضهما البعض؛ معروف أن أفراد النوع الذى

يحمل الاسم Potamides توجد فى المياه المالحة، وإن شئت فقل جنس نهم أو جائع.

النوع الذى الذى يحمل الاسم: Retusa turrigera ، الذى اكتشفه (ملفل).

النوع الذى يحمل الاسم: Murex (chicoreus) anguliferus ، الذى اكتشفه (مارك).

النوع الذى يحمل الاسم: Drupa margariticola ، الذى اكتشفه (بردوريب).

النوع الذى يحمل الاسم: Potamides Cingulatus ، الذى اكتشفه (جميلين).

النوع الذى يحمل الاسم: Pirenella Conica ، الذى اكتشفه (بلينقبل) .

النوع الذى يحمل الاسم : Cerithium noniliferum ، الذى اكتشفه (كابنر).

النوع الذى يحمل الاسم: Cerithium Scabridum ، الذى اكتشفه (فيليبى).

النوع الذى يحمل الاسم: Glycimeris Pectunculus ، مغاير.

النوع الذى يحمل الاسم: Cardium (Trachycardium) rubicundum ، الذى اكتشفه (ريف).

النوع الذى يحمل الاسم: Asaphis deforata.

النوع الذى يحمل الاسم: Psammotaea elongata ، الذى اكتشفه (لامارك).

هناك فرعان أو فصيلان من النوع الذى يحمل الاسم Lamellis ، ربما يُكوّنان ذلك الفصيل الذى يحمل الاسم: Paphia ، والفصيل الذى يحمل الاسم: Chama لم يجز بعد البت فيه.

لا تزال كل الأنواع سألقة الذكر، التى تعرفها السيد/ ج.ى. ر.ل. ب. توملين تعيش فى المحيط الهندى إلى يومنا هذا؛ يضاف إلى ذلك أن النوعين المنجميين يمتد مألّفهما إلى البحر المتوسط أيضاً. يزداد على ذلك، أن النوع الذى يحمل الاسم: G.Pectunculus يختلف من حيث الشكل عن كل الأنواع التى حصلنا عليها مؤخراً، ومع ذلك فهو يعد نوعاً مغايراً.

(م) الحفريات. بقلم: ل. ر. كوكس

جاءت كل الحفريات التى جمعها السيد / برترام توماس أثناء رحلة عبوره الربع الخالى، مثل الحفريات التى جاء إلينا بها من رحلته الأولى (راجع دورية الجيولوجيا، ١٩٣١، العدد ٧٧، ص ٣) من الحجر الجيرى أبيض اللون الذى ينتمى إلى العصر الحديث الوسيط. هذه الحفريات جاءت بعض أجزائها من الجزء الجنوبى من الربع الخالى الداخلى، وجاء جزء منها من السهل المنخفض الواقع خلف مسيمير، فى الأراضى الداخلية من الدوحة، على الخليج الفارسى. يبدو أن الحجر الجيرى الذى ينتمى إلى العصر الحديث السابق هو التكوين الرسوبى الأكثر انتشاراً فى هذا الجزء من الجزيرة العربية. ونحن نقدم هذه الأنواع فيما يلى؛ ويجب التنويه هنا إلى أن كل الأنواع التى جرى تعرفها هنا بشكل محدد، كلها من الأشكال أو الأنواع التى جرت مناقشتها مؤخراً فى الورقة التى قدمتها مؤخراً عن الرخويات من حفريات العصر الحديث السابق فى الهند. (راجع دورية جمعية دبلن الملكية فى إدنبرة، المجلد ٥٧، الجزء الأول، العدد الثانى، الصادر فى العام ١٩٣١).

جاءتنا من داخل الربع الخالى: الحفرية التى تحمل الاسم : *Ostres brongniarti* والتى اكتشفها (برون)، وهى عبارة عن صمام سميك مضغوط (عثر عليه على مقربة من رملة عُبَيْلَه)؛ الحفرية التى تحمل الاسم : *Lucina pharaonis* (التى جاء بها بالأردى)، وهى عبارة عن سبيكتين داخليتين (عثر عليهما فى خريمات فساد)؛ الحفرية التى تحمل الاسم : *Hippochrenes* أو *amplus* التى اكتشفها (سِلَانْدِر) وهى أيضاً سبيكة داخلية (عثر عليها فى خريمات فساد).

جاءنا من السهل الواقع خلف مسيمير، فى أراضى الدوحة الداخلية: الحفرية التى تحمل الاسم: *Ampullospira* أو *Oweni* (التى جاء بها كل من داركيك وهيم)، والنوع الذى يحمل الاسم: *Gisortia* والنوع الذى يحمل الاسم: *Campanile* ؛ وكل هذه الأنواع عبارة عن سبائك داخلية.

تؤكد التحديدات السابقة ذلك التقرير المبدئى الذى أعده الدكتور جى. إيه. دوجلاس، عن عصر الحفريات، معروف أن الدكتور دوجلاس يشغل منصب مستشار الحفريات القديمة لدى شركة الزيت الإنجليزية - الفارسية، المحدودة.

تدخل العناصر التالية أيضاً ضمن المجموعة سالفة الذكر:

بطنيات الأقدام(*)؛ النوع الذى يحمل الاسم Campanile (اكتُشِفَت هذه الحفريّة فى وادى ضهير)؛ الحفريّة التى تحمل الاسم: "Natica أو longa التى اكتشفها بلأردى فى كل من (وادى ضهير، بن جوعاى وفى سماتين)؛ الحفريّة التى تحمل الاسم: Gisortia munchisoni والتى اكتشفها (داركيك وهيم)، فى (وادى ضهير).

الرقائقيات: الحفريّة التى تحمل الاسم Lucina pharaonis التى اكتشفها (بلأردى) فى (حنقيت)؛ الحفريّة التى تحمل الاسم: Lucina nokbaensis التى اكتشفها (أوبنهايم) فى (أضابوغ)؛ والحفريّة التى تحمل الاسم Lucina أو quad-rata التى اكتشفها (البميرى) فى (وادى فيوروم)؛ الحفريّة التى تحمل الاسم: Cardium التى اكتشفت فى (بن جوعاى).

الأحجار النيزكية، الصخور والمعادن

(ن) الأحجار النيزكية، الصخور، والمعادن. بقلم: و. كامبل سميث

يعد إلى حد بعيد، الحجر الذى وجده السيد/ برترام توماس على الرمل فى منطقة بواح، فى صواحيب، فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير من العام ١٩٣١- أهم مكونات المجموعة الجيولوجية، فقد ثبت أن هذا الحجر هو حجر نيزكى. والحجر غير منتظم الشكل وله زوايا حادة وأبعاده هى $9 \times 5 \times 4$ سم، وكان وزنه قبل الفحص ٢٤١ جراماً. والحجر مغطى بطبقة من الليمونيت، وإن شئت فقل أكسيد الحديد المائى، المصقول بفعل الريح، وحببيبات الكوارتز ملتصقة التصاقاً جيداً تماماً على شكل بقع صغيرة فى التجاويف التى على سطح هذا الحجر. وقد أدى هذا الصقل الليمونيتى إلى ستر بل وإخفاء طبيعة هذا الحجر، وفى بداية الأمر جرى تمرير هذا الحجر على أنه كِسْرَة من "وعاء من الحديد" وعندما أُعيد فحص الحجر بعد ذلك، كشف ذلك الفحص عن وجود نسبة كبيرة من الحديد المغناطيسى النيكلى، وعندما أخذنا قطعاً رقيقاً من الحجر لفحصه

(*) طائفة من الحيوانات الرخوية. (المترجم).

تحت الميكروسكوب، أوضح ذلك الفحص أن الغضاريف مثبتة بواسطة مادة ترابط معدنية، هى صورة طبق الأصل من المواد الكثيرة الموجودة فى الأحجار النيزكية.

لم يتبقَّ من هذه المادة شىء فى القشرة الأصلية، ويرجح أن يكون هذا الحجر جزءاً داخلياً من انفجار نيزكى أكبر بكثير على شكل قطع متناثرة أثناء مروره خلال الغلاف الجوى. ويتحتم فحص هذا الحجر فحصاً كاملاً قبل أن نتمكن من وصفه وصفاً دقيقاً، لكن يبدو من واقع تصنيف بريزناس، أنه عبارة عن غضروف كُروى أسود اللون. وكثافة الحجر هى ٥, ٢٣. ويتمثل الحجر النيزكى الآخر الوحيد فى الجزيرة العربية فى ذلك الحجر الشهير المحفوظ بوصفه تذكّاراً مقدساً فى الكعبة فى مدينة مكة، والذي يرجع تاريخه إلى ما وراء القرن السابع، الحجر عبارة عن غضروف برونزى رمادى الشكل، سقط فى التلاهى Et Tlahi فى الحجاز فى العام ١٩١٠، والحجر الحديدى النيزكى الذى عُثر عليه فى نجد فى العام ١٨٦٣، والذي منه كتلتان تزن إحداهما ١٣١ رطلاً والثانية ١٣٧ رطلاً، وقد عُثر عليهما فى وادى بنى خالد. وقال من باع هذين الحجرين إنهما سقطا أثناء عاصفة من العواصف الرعدية، لكن المرجح أن أحداً لم يَرَهُما عند سقوطهما.

وقد وصف جى. كويات حجر الحجاز النيزكى (فى حولية الأكاديمية العلمية فى باريس فى العام ١٩١٢، فى العددين ١٥٥ و ٩١٦). قال العرب الذين أحضروا الحجر للسيد / جى كويات، إن الحجر سقط فى إحدى الليالى من ربيع العام، وأن أربع قطع عُثر عليها فى منطقة عرضها قرابة ١٥ كيلومتراً. وجاء أحدهم (على جمل) من التلاهى، التى تبعد مسافة رحلة تقدر بمسير ستة أيام، جاء الرجل من المنطقة الساحلية فى ضيّا (Dhaba Doba) فى منطقة مدين (Midian) Macian. القطعتان الحجريتان النيزكيتان الموجودتان فى المتحف البريطانى لونهما أفتح من لون الحجر النيزكى الذى عُثر عليه فى صواحب، يضاف إلى ذلك أن الغضاريف التى وصفها كويات فى حجر الحجاز أكثر بكثير عن غضاريف هذين الحجرين.

عُثر على الجبس فى هضبة ضبا على ارتفاع ٢٥٠ قدماً (العدد ٤٥ بتاريخ الثلاثين من شهر يناير من العام ١٩٣١) على شكل ألواح واضحة التشقق (على

شكل سلنيت، وإن شئت فقل الجبس الشفاف (البَلُورَى)، كما يوجد الجبس فى الشمال أيضاً، على بعد مسافة أبعد من هذا المكان، على شكل قطع مستديرة من المرمر وردى اللون فى منطقة لزيه، عند مستوى سطح البحر (العدد ٤٨ أول فبراير من العام ١٩٣١). فى هذا المكان نجد الجبس مختلطاً بالحجر الوردى الشاحب، ومختلطاً أيضاً برمل صفائحي، من الواضح أنه جرى التصاقه مؤخراً بعضه ببعض. كما عثر أيضاً على الجبس فى شكل مختلف تماماً متحداً مع رمل على درجة عالية من الملوحة ومختلطاً أيضاً بالأصداف البحرية الحديثة فى منطقة فرهود (راجع الحاشية التى أوردها السيد/ جى . سى . روبسون عن الصدف). يوجد الجبس فى فرهود على شكل بلّورات صغيرة شكلها الخارجى سداسى الأبعاد وقسم عدسى الشكل أو محدّب، وهذا أمر غير عادى، لكن يوجد ذلك الجبس المترسب فى بعض أحواض الملح فى جنوب أفريقيا، فى يؤتتهاج فى منطقة الكاب (الرأس)، كما يوجد أيضاً فى ريفرتون بالقرب من كمبرلى. وهذا الشكل العجيب ناتج عن تطور مستدير للأوجه هرمية الشكل (١١١)؛ الأمر الذى يجعل البلّورات تتسطح على نحوٍ موازٍ لبلّورات وجه القبة على شكل حويصلات فى بعض الحمم البركانية فى عدن.

جرى الحصول على الملح (ملح الطعام الصخرى) من سنجة العمره. جرى تحليل العينة فى معمل شركة الزيت الفارسية- الإنجليزية، وأسفر هذا التحليل عن ٨٦,٧ فى المائة كلوريد صوديوم (ملح طعام)، ٩,٢٥ فى المائة من سُلّفات الصوديوم. وسلفات الصوديوم موجودة بكمية لا بأس بها فى عينتين من الرمال جاءتا من بواح وسنام (العددان ٣٢ و٤٠)، وهو موجود بكثرة مختلطاً مع الجبس مع قشرة الرمل الموجودة فى فرهود سائلة الذكر.

هناك معدن آخر مهم هو الألومينات، وقد عثر عليه فى سنام (العدد ٣٩، العشرون من يناير من العام ١٩٣١)، على شكل رقائق غير منتظمة الشكل شبيهة بقطع العظم بيضاء اللون.

وعثر السيد/ ل. ز. كوكس مع الحفريات التى تعرّفها فى خريمات فساد، على أنها من العصر الحديث السابق، على صَوّان أحمر اللون، وتحجّرات عقيقية مجوفة مبطنه ببلورات عندما يجرى هز الحجر المحتوى عليها. والمؤكد أن هذه

البلورات هى من نفس نوع فجوات الكوارتز التى وصفها جى. إى. بلجرام فى (حولية الجيولوجيا، فى بحث بعنوان مسح الهند، فى العام ١٩٠٨، المجلد ٣٤، الجزء الرابع، ص ١١٦) على أنها موجودة بكثرة فى المنزل الطرى أبيض اللون، وموجودة بكثرة أيضاً فى الحجر الجيرى الذى ينتمى إلى العصر الحديث السابق الموجود فى جزر البحرين. الناس يعرفون هذه الأحجار، على المستوى المحلى، باسم الجلجل، ولم يُعزَّ العرب أية قوى إلى هذه الأحجار، اللهم باستثناء أنها تتشرب الحليب الدافئ إذا ما غمرت فيه^(١) يزداد على ذلك، وهذا أمر محتمل، أن الأحجار التى من هذا القبيل هى واحد من التباينات الكثيرة لما يسمى Aetites وإن شئت فقل حجر النسر، الذى أتى بلنى Pliny على ذكره. ويبدو أن الاسم Aetites كان يطلق على مختلف التحجرات المجوّفة التى يوجد بداخلها حجر سائب يحدث نوعاً من الصلصلة عند هز هذا الحجر. يزداد على ذلك أن المعرفة التقليدية عن أحجار النسر، معرفة عجيبة بحق. ومن المسلم به أن أفضل هذه الأنواع عُثِر عليها فى أعشاش بعض أنواع النسور، وكان الناس يعتقدون بصورة أو أخرى أن هذه الأحجار تساعد فى عملية الوضع. بعض البشر ينظرون إلى هذه الأحجار على إنها تعويذة أو رُقِيّة قوية تعين فى ميلاد الأطفال، أى المحافظة على الأطفال من الضرر، الاعتدال فى تناول الطعام، زيادة الثروات، وتحقيق النصر والشعبية.

التحجرات الأخرى التى عثر عليها السيد/ برترام توماس على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، على بعد عشرة أميال جنوب غرب شَنَاء (الأعداد من ١٣ - ١٧، بتاريخ اليوم الرابع من شهر يناير من العام ١٩٣١)، عبارة عن تحجرات من الحجر الرملى الكلسى الشبيه بحفريات العظام. وهناك تحجر آخر، مشابه للتحجر سالف الذكر، وعرضه قرابة ١,٥ قدم، وفيه شئ من الشبه الخارجى مع حزام الحوض فى بعض الزواحف. هذه التحجرات مكونة من حبيبات رملية كوارتزية ملتصقة ببعضها بمادة كلسية. كانت هناك تحجرات أخرى من التحجرات الكبيرة الشبيهة

(١) لم تشرب واحدة من هذه التحجرات قطرها ٧ سم، الماء البارد، لكنها تشربت قرابة ٣٠ سم عندما جرى تدفئة الماء إلى درجة ٩٠ مئوية..

بالعظام، كانت تلك التحجرات الأخرى صغيرة وكروية الشكل، أو ذوات أشكال غريبة مثل النوع الذى يحمل الاسم *Losspuppen* ، أو إن شئت فقل أحجار- الحوريات.

المدھش بحق أن، الرمل الذى جاءت منه حفريات العصر الحديث الأسبق غنى بحبيبات الحجر الجيرى. يضاف إلى ذلك، أن حصاء الكثيب الرملى فى عروق متيان، مكونة من حبيبات بُنية اللون أو بيضاء اللون ويصل قطر الواحدة منها إلى ملليمتر واحد، وكلها مكونة من فقايع الحجر الجيرى. لُوحظ وجود رمل يميل لونه إلى الاخضرار تحت سطح الرمل أحمر اللون المنتشر فى ضاحية العروق، وهذا الرمل الأحمر يتكون بدرجة كبيرة من حبيبات صغيرة من الحجر الجيرى، بالإضافة إلى معادن أخرى كثيرة يشيع بينها جلوكونيت، وإن شئت فقل سيلكات البوتاسيوم الحديدية. وعثر أيضا فى شئاء على فقاعتين من الكوارتز الأبيض، يصل قطر احدهما إلى ٣ سم. وهناك نوع آخر من الرمل جاء من شئاء من على ارتفاع يقدر بقراءة ١٠٠٠ قدم، وهناك عينة أخرى من الرمل جاءت من القصمان على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم، وهذه العينة شبيهة بعينة ذلك الجزء من الرمال الناعمة فى منطقة العروق. لكن عينات الرمال التى جاءت من حدود سنام الجنوبية، ومن الجديدة، ومن طريقة، هذه العينات أخف لوناً لكنها مع ذلك، تحتوى على حبيبات وفيرة من الحجر الجيرى الذى يجمع بين اللونين الوردى والأبيض. يصل قطر الحبيبات الأكبر إلى قرابة ملليمتر واحد، وهى كاملة الاستدارة، والقسم الأكبر منها من الكوارتز ويصل قطر الحبيبات الأصغر إلى قرابة ٠,١ ، وهذه الحبيبات شبه زاوية. ولم يجرّ حتى الآن تحليل المعادن الثقيلة فى هذه الرمال، تحليلاً دقيقاً.

يتبدى لنا التركيب نفسه على مسافة أبعد فى اتجاه الشمال، وبخاصة فى سنام وجوب، مضافاً إليه حبيبات، ذلك الصخر البركانى صغير الحبيبات وبعض الصخور الأخرى الشبيهة بتلك الصخور الموجودة فى سهل الحصى الموجود فى منطقة جوب، فى شمال بانيان.

تتكون الفقاعات التى جرى إحضارها من شمال سنام، من الحجر الجيرى أديمى اللون، وإن شئت فقل اللون الشبيه بلون الجلد، الذى يحتوى على علامات شجرية، ولامع ومنمّش بفعل الرياح؛ وتحتوى هذه الفقاعات أيضاً على الكوارتز

الأصفر الشاحب الذى يتدرج إلى لون العقيق الأحمر؛ واللون الأخضر الزيتونى، والريوليت الأسود والأحمر الغامق، والإسفننجى إلى حد ما؛ والفرفير الكوارتى الذى له حُمْرة طوب البناء؛ وعقده مسطحة من العقيق أبيض اللون.

هذه الفقايع شبيهة بالفقايع التى جاء بها الرائد ر. أى. شيزمان من سهل الحصى، الذى عثر الرجل عليه فيما بين مناطق الحجر الجيرى فى كل من الهفوف وجابرین. يضاف إلى ذلك أن تجمع الفقايع متشابه بل إن بعض الأنواع قد تكون متماثلة تماماً، ومنها على سبيل المثال، الحجر الجيرى أديمى اللون، والريوليت أسود اللون، وكذلك الكوارتز أصفر اللون. وقد ظهر فى هذه المنطقة أن المصدر المباشر للفقايع يتمثل فى مُخْلَط يقع أسفل سهل الحصى فى صحراء الجافورة وفى البارزات المنحدرة فى الرمل، التى لاحظها السيد/ برترام توماس فى بانيان قد تكون من تركيب مماثل.

(س) تحاليل الماء، الرمل والملح. بقلم: السيد/ ب.ك.ن. ويلي،

من شركة الزيت الإنجليزية- الفارسية المحدودة

تفوق ملوحة العينات مراراً (من ٥٠ إلى ١٠٠ مرة) الملوحة المعتادة لمياه الأنهار والبحيرات. وفى كل حالة نجد أن الشق الحمضى يفوق القاعديات؛ ويوجد فى كل لتر من الصوديوم ما يتردد بين ٢- ٤ جرامات- وهذا يعنى أن المياه تحتوى على نسب كبيرة نسبياً من السلفات والكلوريد القلوى، مع مقادير صغيرة من التراب القلوى (الكالسيوم والمغنيسيوم). وهنا يمكن القول: إن الجبس أو الطبقات الجبسية موجودة أسفل قسم كبير من الطريق الذى سلكه السيد/ توماس.

ومسألة التحليل الكامل لأية عينة من عينات الماء، لا بد أن تكون أمراً مستحيلاً فى مثل هذه الرحلة، وذلك فى ضوء الصَّغَر الشديد للكميات المتاحة من هذه المياه. وعلى سبيل المثال؛ فإن العينة الكبرى، التى تحمل الرقم ٢٢ كانت تحتوى على ٢٥٠ سم^٣، وهذا يدل على أن هذه الكمية تبلغ من الصغر جداً يصعب معه تحليلها.

كانت هناك من بين عينات الرمال، عينتان تحتويان على كمية لا بأس بها من كلوريد الصوديوم، وعينتان أخريان تحتويان على أثر ثقيل من كلوريد الصوديوم، أى قرابة ٨٦,٧ فى المائة، وسلفات الصوديوم بنسبة ٢٥,٩ فى المائة؛ والماء بنسبة ٤,٢ فى المائة. ونحن نورد هنا هذه القيم مفصلة على النحو التالى أول يناير:

إجمالي الجوامد التي جرى تجفيفها	خور الضاحية	مشاء الجمال	باحة الجمال	باتيان	صوفية	خلاوين	خافوس	العين مُجَشَّن	جاثون
عند ١٠٠ م	٦	٦,٧	١٠,٨	٧,٩	٨,٢	٥	١٠	--	--
الكالسيوم	٠,٤٨	٠,٧	٠,٧٢	٠,٣٦	٠,٥٦	٠,٢٥	٠,٦١	٣,٥	١,٩
المغنسيوم	٠,٣٦	٠,٠٨	٠,٢٤	أقل من ٠,٠١	٠,١٣	٠,١٩	٠,٣٢	٢,٩	١,٠٥
المسلفات	٢,٨٤	١,٠٦	٣,٢	١,٦	٢,٢	١,٦	٢,٢٤	٤,٢	١,٢٢
الكلوريد	٢,٢٤	٢,٦	٢,٨	١,٩	٢,٤	لم يُقَدَّر	لم يُقَدَّر	٤	٢,٥

كل الكميات جرى التعبير عنها بالجرام/ لتر. لم يكن الماء في أية حالة من الحالات قلوياً مع الفنيوليازين أو بالأحرى الدليل الكيميائي.

الملحق رقم (٣)

الرمال الإقليمية وثقوب المياه فى الربع الخالى

الأكليم الرملى وثقوب الماء	متوسط العمق بالقائمة	الموقع	الطول والعرض مقدران بالمسير اليومى	الاتجاه العام
١- الأقاليم الرملية الشرقية				
الحمرة	٤.٥	منتصف الحافة الشرقية للرمال. خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٣°	٣ × ٣	—
زريقان، زهرانى، أبو غار، حاليب غسبور				
ماء حلو: مسقط وادي أسود غافة	½	جنوب الحمرة؛ خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٢° جنوب غسبور	٢ × ٣	شمال - جنوب
تقب ماء مالح واحد، خور الناقة	—	خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٠°	٢ × ٤	شمال - شرق جنوب غرب
غانيم ماء كثير غربى خفسه، أبلوتان، بوغاره، لاحوس منسة، أبو ضيور، ضيريب، تويقل	يتردد بين ٢ - ٣، لكن المتوسط ١	الركن الجنوبي الشرقى من الرمال؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣°	٢ × ٤	شمال شرق - جنوب غرب
الباطن	١ - ٢		١ × ٤	
ثقوب مياه خيرانيه كثيرة عروق المراكبه	—	جنوب لبوه وغرب الحمرة؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣° جنوب الباطن، منطقة ثقيلة		شرق - غرب شمال - جنوب

		<p>الكثبان تمتد شمالاً وجنوباً على نحو يفصل الرمال المأمولة عن رمال الحدود الشرقية؛ خط خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣° و ٢٠°</p>		<p>عروق الشعبيه عروق بن تميشه عروق الميجورة لا يوجد</p>
		<p>غرب غانيم؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٠°</p>	٥	<p>سبخة ميجورة أم ساهود</p>
شرق - غرب	١ × ٢			
٢ - الأقاليم الرملية المركزية				
		<p>جنوب غرب قيدان، خط طول ٥٣°: خط عرض ٢٢°</p>	٤ - ٥ - ٦	<p>قيدان أبو قطوب، الخُبَّه (حلوَة) القرني، خور طويريش، خورين حام، قارة؛ بالجَّه، أم العمامد، أبو رواويل</p>
أقصى الشمال للشرقى - أقصى الجنوب الغربى	٢ × ٤	<p>جنوب قيدان، خط طول ٥٣°: خط عرض ٣٠° ٢١°</p>		<p>الحمرة ماء غير عذب (حلو)</p>
	٢ × ٥	<p>جنوب الحمرة، خط طول ٥٣°: خط عرض ٢١° و ٢٠°</p>	٢ - ٣	<p>حباك ماء وفير لكن مالح - حرايم، زاغين، قرضوم، خور جاروب، خور سيف، هثور، خور شيبان، خور سباعين، بوإستام، خور ترعوزه، خور ابن تميشه</p>
شمال شرق - جنوب غرب	٦ × ١٠	<p>غرب حباك؛ خط طول ٥١° و ٥٢°: خط عرض ٣٠° - ١٩° - ٢١°</p>	<p>بشكل عام ١ - ١/٢</p>	<p>صواحيب ماء وفير لكنه شديد الملوغة (موجود في بعض الأجزاء في خيران، ولا يصلح لشرب الإنسان أو الإبل)</p>
من الشرق إلى الغرب	١ × ٣	<p>خط طول ٥١°: خط عرض ٢٠°</p>	١	<p>(١) حض بواح باحة فارس، باحة سلامة، باحة جمال، باحة نجران.</p>

٢	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٠°	٢ × ٢	---	(٢) حض لبد حض عجمان خيران
---	خط طول ٥١°: خط عرض ٢٠° ٣٠'	١ × ٢	شرق - غرب	(٣) أم مالمية (الغربية) سبخة على مخص أم مالمية (الشرقية) - فيده، سبخة نجراح
٣ - ٢	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٠° ٢١'	١ × ٣	شمال - جنوب	(٤) كرسوعة خيران
٣ - ٢	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٠° ٣٠'	١ × ١½	شرق - غرب	(٥) وساع خيران حض مزاريق حض نواسيف حض متجار
٥	خط طول ٥١°: خط عرض ٢١°	٢ × ٣	شمال - جنوب	منجورة مهيب
١/٢ - ٢	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٢°	٢ × ٥ - ٤	شمال - جنوب	حض أبو صريفة خيران (أبو صريفة) المحراض
---	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٢°	١ × ٥	شمال - جنوب	حض محافيق مجهوت ، حيران، بنى قاضى، بومحافيق، أبو فارس
١٠ - ١٢	خط طول ٥١°: خط عرض ٢١° - ٢٣°	٤ × ٣٦	شمال - جنوب	سنام العبيلة، أم الحديد، أم قرآن، سغف، طريقة ، فراجة، إبراهيم، فيجافيل، أم العماد، أصيلة، عوذه، دويريس، أم راقلة، خلاك، الحرة، ويا، بانيان. (ثقوب مياه غربية بأعماق استثنائية، ويطلق عليها اسم الطوال)، بير فضيل يقال إنه فى مرياح الفارس فى الناحية الغربية

٣ - أقاليم الرمال الجنوبية

رملة موجشين	---	تشتق رمال الأطراف	عمق يقدر	شرق - غرب
رملة العراض		الجنوبية أسماءها من	بمسير يوم إلى	
أم ضرته		أسماء وديان تحمل الاسم	يومين	
ميتان		نفسه (فيما عدا أم ضرته،		
شُعيت		التي تصدر الرمال فيها		
كثبان رملية		أزيراً أثناء السير فوقها)؛		
بدون أبيار		وتقع بين خط طول ٥٢° -		
		٥٥°: خط عرض ٣٠'		
		١٨° - ١٩°٣٠'		
عروق الرقعات	٣ - ٢	جنوب حباك، شمال فساد؛	٤ × ٤	
رقعة الشماليليه، رقعه		خط طول ٥٣°: خط		
الجنوبية		عرض ١٩°		
عروق المنير	---	غربي الرقعات، شمال	٢ × ٢	
		غرب ميتان؛ خط طول		
		٥٢°: خط عرض ١٩°		
عروق الضاحية	---	شمال غرب شعيت؛ خط	٢ × ٢	
خور الضاحية،		طول ٣٠' ٥١°: خط		
بضياب، بن حمودة		عرض ١٩°		
خراخير	٢	الرمال الطرفية في جنوب	٣ × ٣	
خراخير		غرب عروق الضاحية؛		
		خط طول ٥١° خط		
		عرض ٣٠' ١٨°		
أم غريب		الرمال الطرفية غربي	٢ × ٢	
		خراخير؛ خط طول ٥٠°:		
		خط عرض ١٨°		
جعاميات		غرب أم غريب؛ خط طول	٥ × ٨	شمال شرق -
يقال إنها بدون ماء		٤٩° - ٥٠°: خط		جنوب غرب
		عرض ١٨° - ١٩°		
نكاكا	أبيار شرقية،	الرمال الجنوبية المركزية	٣ × ٧	غرب جنوب
بلعشوش، سابل،	٣؛ أبيار	داخل منطقة الكثبان		غرب شرق
مشرومة، بيلافين،	غربية، ١٥	الرملية؛ خط طول ٣٠'		شمال شرق
طريوه (١٥)، زيوره،		٥٠° - ٣٠' ٥٢°: خط		

عرض ٢٠°١٨'٣٠	شفاء (١١)، خضيفية (٦)،
	بئر حادى، الهرشة،
	وغواك، بن وريقة،
	أم داسيس، طويال،
	البهايسين، قعادة
	مفاتيح، خور شيان،
	أبو مدابن، جعيمى
	سجاني، غام غيم
كما هى مدونة بالفعل فى	٤ - أقاليم الرمال الشمالية
٢ × ٦ خريطة هنتر	ميجان، سبخة مئى
	ظافره، ليوه، كوفه،
	طافى، بينونة، ختام،
	جافورة
	زبدة وشغله ١٥
	ميجان ٢
	بينونة ٦ - ٤
	جيبان
شمال - جنوب ٢ × ٦	٢ - ١/٢ بين الجافورة وميجان،
	بئر أزيله ماباك، خور
	العوامير، خور العبد
	بلكريش، بجران، قاداح،
	وطيط، ومييه، خواتيمة،
	أم الجيرة، ضيبى، خاريت
	منايف، عقدة، سرييه،
	اللزبة، حلاوين (يطلق على
	ثقوب المياه الضحلة فى
	شرقى جيبان، الاسم أقال)
	جوب
شرق - غرب ٣ × ٥	٥ - ١١ - ١٧ بئر عزيز، حقة،
	المطسة، ندجان،
	أم ضريب، البحاث،
	لثيت، أم متاله
	جنوب غرب جافورة،
	شمال وغرب سنام من
	جابرين إلى بانيان؛ خط
	طول ٣٠°٤٨' - ٥١°٥١'
	خط عرض ٢٣°

٥ - أقاليم الرمال الغربية

(يقال إنها بلا ماء)

جدة العويفة (ليست رمال)

جنوب جوب، غرب سنام؛
خط طول ٥٠°؛ خط
عرض ٢٢°٣٠' --- شرق - غرب

حباكى

جنوب غرب سنام؛ خط
طول ٥٠°؛ خط عرض
٢١°٣٠' --- شمال غرب -
جنوب شرق

بنى زينان

جنوب حباكة؛ خط طول
٥٠° خط عرض ٢١° --- شمال - جنوب

أبو بحر (ليس رمال)

جنوب جابرين؛ خط طول
٤٨°٣٠'؛ خط عرض
٢٢° --- شمال - جنوب

كرشة البعير

غرب بنى زينان؛ خط
طول ٤٩°؛ خط عرض
٢١° --- شرق - غرب

شويكيله (شمال)

جنوب كرشة البعير، شمال
شرق الحويّة؛ خط طول
٤٩°٣٠'؛ خط عرض
٢٠° --- أقصى الشمال
الشرقى -
أقصى الجنوب
الغربى.

الحويّة

شمال غرب جامعيات؛
خط طول ٤٩°؛ خط
عرض ١٩° --- أقصى الشمال
الشرقى -
أقصى الجنوب
الغربى.

شويكيله (جنوب)

جنوب غرب الحويّة؛ خط
طول ٤٨°؛ خط عرض
١٨°٣٠' --- أقصى الشمال
الشرقى - أقصى
الجنوب الغربى

الصُّمَّان

جنوب وغرب جابرين؛ خط
طول ٤٨°٣٠'؛ خط
عرض ٢٢°٣٠' --- شمال - جنوب

حرايسان

غربى الصُّمَّان؛ خط
طول ٤٨°؛ خط عرض
٢٢°٣٠' --- شمال - جنوب

السُّهَامَة (ليس رمال)

غرب كرش البعير؛ خط
--- شمال - شرق

أويريق	---	طول ٤٨°: خط عرض ٢١°	غرب السهامة؛ خط طول ٤ - ٥ ½ ٢ شمال - شرق
ريده (ليست رملًا)	---	٣٠' ٤٧°: خط عرض ٢١°	جنوب حريسان وشمال غرب أويريق؛ خط طول ٣٠' ٤٧°: خط عرض ٢١°
رمال أخرى موجودة غرب هذه الرمال إقليم الرمال الشمال الغربى إضاوات الفارس، رميلة، أجونيس إقليم الرمال الجنوبى الغربى بنى معراض، عروق الجليدة، سبيتين، ريان، وُدبة، عروق أبو دعار، العراض، عروق الرّازة.			

المصطلحات الطبوغرافية

الحُوطة: مضيق أو واد ضيق عميق بين جبلين أو تلال رملية ويصح فيه أيضاً "غور"، وغالباً ما تكون الحُوطة عامرة بالحياة النباتية.

شجّه أو ساروج: مضيق أو واد عميق أو جوف، بين تلال رملية أو سلسلة من الجبال، وعادة ما يكون عامراً أيضاً بالحياة النباتية.

مختوم: حائط رملى مُستعرض فى حُوته من الحُوطات.

الرْدفة: منحدر مُنحنٍ انحناءً هيناً مكون من سلسلة من التلال الرملية فى حوطة من الحُوطات.

- الرَّكَايِب: سطح منبسط من رمال مرتفعة.
- الرُّبَايِض: جمعه رُبَايِض، ويصح فيه أيضاً رُوبَال، وجمعه رُبَايِل، ويصح أيضاً أَرْجَاب، وجمعه أَرْجَاب، ومعناه: ضفاف رملية "أكوام رملية".
- خَرَابِيم: ممرات سهوية داخل رمال الحدود الجنوبية.
- حَزْم: جمعه حُزوم، الطبقة الصخرية البارزة على سطح الأرض.
- نُحْدَات: أحد تفرعات وادٍ من الوديان، يُصْرَفُ ماءه في الرمال.
- مَسِيله: مجرى وادٍ رملى هَيِّنٌ فى سهب من السهوب.
- رُقعة: بقع أرضية صغيرة من الجبس.
- حِسَى: منخفض فى طبقة صخرية بارزة على سطح الأرض يتجمع فيه الماء بعد سقوط المطر.
- قُعَيْده: كثيب رملى كبير.
- قَعِيدَه: بفتح الفاء وكسر العين: أكبر كثيب رملى.
- ترعوزه: "كلمة من كلمات قبيلة المُرَّة": أكبر كثيب رملى.
- سَنِين: كثيب رملى ذو قمة مخروطية الشكل.
- حسانسوبة: كثيب رملى مرتفع.
- حُفْنَه: تل رملى على شكل حدوة الفرس.
- عُرُوق: سلاسل من الكثبان الرملية.
- زِيَارَة: رمل قاسٍ "يصلح للسير عليه".
- آث - آث أوبث - باث: الرمل الطرى "لا يصلح المشى عليه".
- قارة: جمعه قَرَار: "فى الشمال": سلسلة من الصخور أو التلال.
- بُرُقَة: "فى الشمال": قمة.
- الأفجة: "فى الشمال" أرض للرعى.
- الرَّوْضَة: "فى الشمال" بقع رملية فى السهوب الصخرية القطرية.
- السَّبْخَة: سهل ملح.
- أسفيلة: المنحدر الذى يختفى الوادى عنده فى الرمال الحدودية.

الملحق رقم (٤)

الحياة النباتية

الجبال: (١) أشجار البخور، ثلاثة أنواع

(١) النوع النجدي Negedi ويصح فيه أيضاً Nejdī ، النوع الشعابى (الصومالى)، وشجرة الشزارى أو شجرة المغور. وتعد الشجرة النجدية الأشهر بين هذه الأنواع الثلاثة. وهذه الشجرة تنمو على الجبال التى فى منحدرات الوديان، على ارتفاع يتردد بين ٢٢٥٠ قدماً و ٢٥٠٠ قدم. (٢) شجرة الملوخ: وهى تنمو فى السهول على امتداد وادى الأحواض المنخفضة على ارتفاع ٥٠٠ قدم. والصمغ ينبثق بشكل طبيعى من الأغصان وهو من النوع الصالح للأكل. (٣) شجرة التشجوت: وهى تنمو عند خط الانقسام Divide (أى على ارتفاع يتردد بين ٢٧٥٠ - ٣٠٠٠ قدم). وشجرة التشجوت، عبارة عن شجرة منخفضة، كثيرة الأوراق والأغصان، وهذه الشجرة تبدو من بعد شبيهة باليساتين السورية. وصمغ هذه الشجرة يجرى فرده على شكل كعكات، ويجرى أحياناً تصديره إلى الخارج.

الحياة النباتية فى الجبال التى يتردد ارتفاعها بين ٦٠٠ و ١٠٠٠ قدم: هناك أشجار- المشتاه، وأشجار الثمار، واللاعلوب، والخيمور، والمغاليف والحيوروم، والميتان، (وهذه الشجرة تعطى خشباً ثقيلاً يقال أنه لا يطفو على الماء وهو يستعمل فى صناعة (القطاريف)، وأشجار السوياره وكذلك الخافوت.

وعند خط الانقسام (أى فى قطان)، على ارتفاع يتردد بين ٢٧٥٠ - ٣٠٠٠ قدم: تنمو أشجار التبكى داوهوت، وأشجار اللايفيت، والزرفيت، راعى زنتروت، التشجوت، الجوشار، الكرهاور، وأشجار الضبضويوت.

السَّهْب

هذا السَّهْب يقع فى مسيله الوديان، وإن شئت فقل السهول: وفيه أشجار لسمر (السنط) وأشجار الشهيرى صدفا، وهذه الأشجار تمثل أهم الأعلاف عند الإبل. وهذا النوع من الأشجار هو السائد فى الحياة النباتية فيما بين الجبال على ارتفاع يتردد بين ٢٠٠٠ و ١٢٠٠ قدم، وهذا النوع من الشجر لا ينمو على المسافات التى تقل عن ١٢٠٠ قدم. تعد أشجار الحرضاي، مهمة تماماً مثل الاشجار التى تصلح علفاً للإبل، وتزداد أهمية هذه الأشجار لأنها توجد على

ارتفاع يقدر بقرابة ١٢٠٠ قدم، وتتواصل أهمية هذه الأشجار فى الطرق الوسيطة فيما بين الوديان التى بين وديان الجبال. وتجىء أشجار الداعوط، وأشجار الهايلما، وشجيرات الصّاعة، وإن شئت فقل الأشجار الخفيفة، فى المرتبة الثانية، من حيث الأهمية، بعد الأشجار سالفة الذكر، وذلك على الرغم من أن هذه الأشجار لا تنجو من فترات الجفاف وذلك على العكس من الأشجار الثلاث سالفة الذكر. تزدهر أشجار السيح Sih على ارتفاع يتردد بين ١٥٠٠-١٠٠٠ قدم. يضاف إلى ذلك أننا صادفنا أشجار الراجوس، الغاب، وأشجار، الإثل (التي يقال لها tamarisk باللغة الإنجليزية، ولأول مرة على ارتفاع ١٢٠٠ قدم، بعد أن خلفنا وراءنا أشجار السنط)، وأشجار القطوفة (فى منحدرات تل الوادى)، وأشجار الفسفة، الراكا، كلكاض، عراد، شجرة الجن، الكرامة والقريرة، دمد، درعمة، هشام، جندره بالوك، إيجيل، أشجار الفانى، عُتيب، أشجار الهواى، وأشجار السابان (وادی الثيل)، ضانونا أو معانوم، آساف أو غواف، (هى شجيرات تعطى مادة تصلح لعمل الحبال)، ونجد أيضاً أشجار التنفيت، الكيش، الضويلة، الحرمل، وأشجار الأشريك، أشجار السونام، وأشجار الرمرام. والأشجار السبعة الأخيرة من هذه الأشجار سالفة الذكر لها فوائد طبية. وهناك أيضاً أشجار الجهام، وأشجار الطرفاء (غالباً ما تنمو هذه الأشجار عند رؤوس الوديان وسهول الملح)، وأشجار الحجوبة، الأراد، الشوخير، وأشجار الروسريس، أشجار- أطيلاه، أشجار الليبيد، الاسكود، وأشجار حريص- شابه.

فى التربة الرملية على حافة الرمال على ارتفاع ٥٠٠ قدم: نجد أشجار الغاف (السنط)، أشجار الترتوث (الشبيه بالديس، ذلك العشب المائى من الفصيلة السعدية)، أشجار الباسول، وأشجار الأشيرة (شبيهة بأشجار الأشخيرة العمانية، وُجد أول مثال من هذه الأشجار على ارتفاع ١٠٥٠ قدماً فى حيلة شيسور عند حافة الرمال، وهى تشكل حياة نباتية دائمة على ارتفاع ٥٠٠ قدم، وآخر مثال عشر عليه فى منطقة المهرة)، وكذلك أشجار الثورميد.

الرمل

أشجار الأباله (التي يُطلق على ثمرتها اسم الخورى)، شجرة الزهارة، وأشجار البكانة، وأشجار الجوسيس، وأشجار الحفن، الغاضة، أشجار الشينان، أشجار العنقود، أشجار الترويقة، أشجار الثورميد، أشجار الحرم.

الملحق رقم (٥)
الأنشيد والأغانى الغربية
علامات الإبل

كل عنق عبارة عن مترددة (*) مشعرة
(رت ت - تا - تا - تا) مترددة مشعرة
وهذه هى أغنية مسيرنا".

رديارد كيلنج، كتاب الغابة

القائمة الكاملة
"ألحان الإبل الخاصة بنا
لتساعدنا على المضى قدماً"
التي صادفتنى فى جنوب الجزيرة، وأنا أورها فى الصفحات التالية.

(*) آلة موسيقية. (المترجم).

وشم الإبل الذى صادفناه فى وسط جنوب الجزيرة العربية

١٨ ٣ ١١٠ ١١ قبيلة المُرّه
 ١٨ ١ ١٠ ١٠ قبيلة العوامير
 : قبيلة الرشايدة
 ١٠ قبيلة المناصير

١٠ قبيلة العفار

١٠ (also clipped left ear) - (original name) قبيلة السَّعَارِين

١٠ ١١ ١٠ ١٠ قبيلة المناهيل

١٠ ١٠٠ قبيلة الدواسر

١٠ (original name) - (original name) قبيلة المهره

١٠ قبيلة البراهمة

٩ قبيلة بيت الشيخ

١٠٠ بنى حجر

١٨ ١٠ قطر

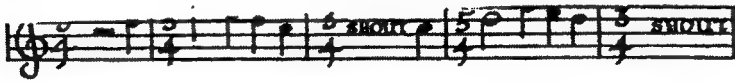
وشم الإبل فى جنوب الجزيرة العربية
 موجود على الجانب القريب من خد الجمل،
 أو على العنق، أو على ريع الجسم

الملحق رقم (٦)

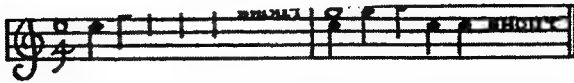
الأغاني والأناشيد العربية (جنوب الجزيرة والربع الخالي)



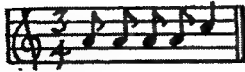
الإبل على بئر الماء - عند الجنابه



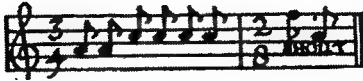
إيراد الإبل على الماء - عند الجنابه



تحميل الإبل - عند الجنابه



إيراد الإبل على الماء - الجنابه



تحميل الإبل - الجنابه



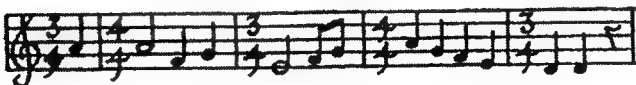
تكروء (العدو). العوامير والوهيبه



حميل أو الرزافه (المسير). العوامير والوهيبه



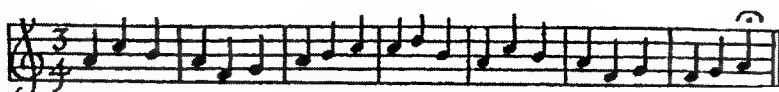
حميل أو الرزافه. العوامير والوهيبه



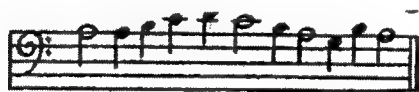
أغاني العود والطبول . مدينة ظفار



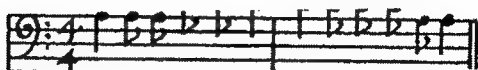
أغنية العبيد. ظفار



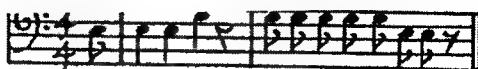
أغنية المزة



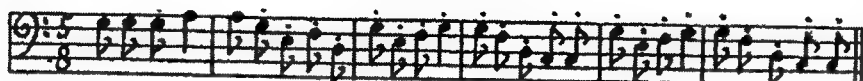
أغنية التحميل (لرشيدة والمره)



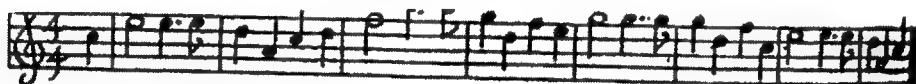
رجارات قبيله المهرة - دندون الملف



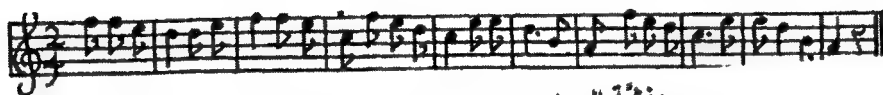
حبيوت القراوين



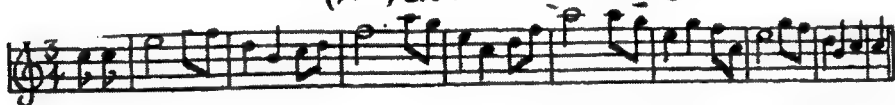
منشة الهواء عند القراوين (تساء)



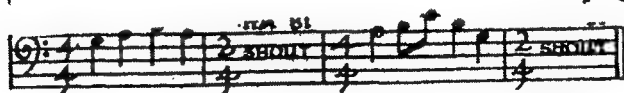
أغنية الأولاد عند القراوين



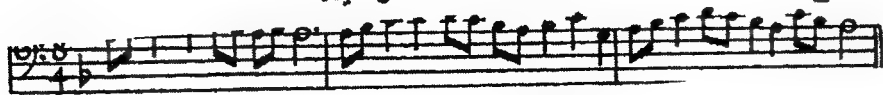
منشة الهواء عند القراوين (نساء)



الإبل عند الماء - الرشيدة



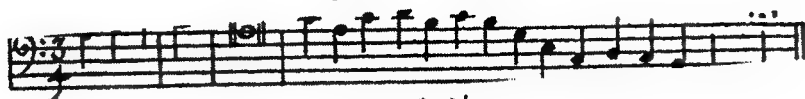
أغنية الطريق عند الرشيدة



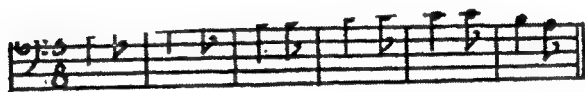
أغنية الزار عند الرشيدة



أغنية الطريق عند السعارين



أغنية الكراب



أغنية امتداح القهوة (عند المزّه)



أغنية عند المزّه



صدر في الألف كتاب الثاني(*)

- فانس بكار، إنهم يصنعون البشر (ج ٢)
- مارتن فان كريفلد، حرب المستقبل
- ألفين توفلر، تحول السلطة (ج ٢)
- ممدوح حامد عطية، إنهم يقتلون البيئة
- د. السيد أمين شلبي، جورج كينان
- يوسف شرارة، مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية
- د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية
- د. السيد عليوة، صنع القرار السياسي
- جرج كاشمان، لماذا تشب الحروب (ج ٢)
- إيمانويل هيمان، الأصولية اليهودية
- آلان أنترمان، اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)

- د. ممدوح عطية وآخرون، البرنامج النووي الإيراني والمتغيرات في أمن الخليج
- أنجيلو كودفيللا، المخابرات وفن الحكم
- بريدراج مانفيجيفتش، تراثيل متوسطة
- نعوم تشومسكي، مداخلات: آراء حرة في السياسات الأمريكية المعاصرة
- هكتور كوادرا- مونتيل، العولمة نحو تنوع المنهج.
- دانتي أ. كابونيرا، المياه في الأنظمة التشريعية والإدارية العالمية والمحلية.
- ريتشارد هايدريان، كيف خذلت الرأسمالية العالم العربي
- ولفريد ه. وايتلي، اللغة في كينيا

• ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

- ميكايل ألبى، الانقراض الكبير
- فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية

• أولاً: الموسوعات والمعاجم

- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية
- ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية
- ج. كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية
- ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية
- و.د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي
- المصور في المعادن والصخور والحفريات
- حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج ٢)
- خيرية البشلاوي، معجم المصطلحات السينمائية
- دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية
- ر. س. زينر، موسوعة الأديان الحية (ج ٢)
- أمير العزب، قاموس أشهر الأفعال المركبة

• ثانياً: الدراسات الاستراتيجية

وقضايا العصر

- د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في عالم متغير
- إريك موريس، آلان هو، الإرهاب
- د. ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي والأمن القومي العربي (ط ٢)
- د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر
- إزرا ف. فوجل، المعجزة اليابانية
- د. السيد نصر، إطلاقات على الزمن الآتي
- بول هاريسون، العالم الثالث غذا
- أقطاب العلماء الأمريكيين، مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء
- و. مونتجرى وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
- بادي أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر

(*) قائمة مصنفة وموجزة بالكتب التي صدرت في مشروع الألف كتاب الثاني، ولمزيد من البيانات يمكن

الرجوع إلى قائمة المشروع بموقع الهيئة المصرية العامة للكتاب WWW.gebo.gov.eg

- فريد هويل، البذور الكونية
 ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع
 د. جوهان دورشتر، الحياة في الكون كيف
 نشأت وأين توجد
 إسحق عظيموف، الشمس المتفجرة (أسرار
 السوبرنوفا)
 روبرت لافور، البرمجة بلغة السي باستخدام
 تيوريوس (ج٢)
 إدوارد إيه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب
 د. محمود سرى طه، الكمبيوتر في مجالات
 الحياة
 د. مصطفى عناني، الميكروكمبيوتر
 ي.رادو نسكايا، الإلكترونيات والحياة الحديثة
 جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
 إيفري شاتزمان، كوننا الممتد
 فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
 كاتي ثير، تربية الدواجن
 د. محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
 لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة
 الوراثية بالكاريكاتير
 جينا كولاتا، الطريق إلى دوللي
 نور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على
 حيوانات أفريقيا
 إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
 د. مصطفى محمود سليمان، الزلازل
 بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
 ويليام ه. ماثيوز، ما هي الجيولوجيا؟
 إسحق عظيموف، العلم وأفاق المستقبل
 ب.س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
 د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة في
 عالم الطاقة
 باناش هوفمان، آينشتين
 زافيلسكى ف.س.، الزمن وقياسه
- د. فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في
 الكيمياء
 ر.ج. فورس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (ج٢)
 رولاند جاكسون، الكيمياء في خدمة الإنسان
 إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء
 ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
 أندريه سكوت، جواهر الطبيعة
 إيجور إكموشكين، الإيثولوجي
 باري باركر، السفر في الزمان الكوني
 ديمتري ترايفونوف، ظلال الكيمياء
 بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة
 جيفري ماوسايف ماسون، حين تبكى الأفيال
 ليونارد كول، السلاح الحادى عشر
 و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء
 د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون
 د. كامل زكى حميد، الاستمساخ قبلية بيولوجية
 فلاديمير سميلجا، النسبية والإنسان
 د. محمد فتحى عوض الله، رحلات جيولوجية
 فى صحراء مصر الشرقية
 ليونيد بونوماريف، الاحتمالات المثيرة للنظرية
 الكمية
 جون جريبين، الحياة السرية للشمس
 تيموثى جولد سميث، الأصول البيولوجية
 للسلوك البشرى
 فيليب فرانك، بين الفيزياء والفلسفة
 فريد هويل، شاندرا وكراماسينج، صحابة الحياة
 (أصل الحياة في الكون)
 كيفن أريك، أساسيات الذكاء الاصطناعى
 روبرت شيلدريك، استحضار الماضى (تمائل
 الأشكال وعادات الطبيعة)
 أوليفيه اسلانجيه، مقدمة في علم الفلك.
 إى.آى. بارنوف، اللانهايات..... إلى أين؟

• رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكديول، مجموعات النقود

(صيانتها، تصنيفها، عرضها)

د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسي للعلم

والتكنولوجيا

سامى عبد المعطى، التخطيط السياحي فى

مصر

جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى

ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية

الاقتصادية

فيكتور مورجان، تاريخ النقود

ليستر ثورو، مستقبل الرأسمالية

د. ناصر جلال، حقوق الملكية الفكرية

• خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند

المصريين القدماء

فرانسوا ديماس، آلهة مصر

سيريل الدريد، إخناتون

موريس بيرايير، صناعات الخلود

بكنت أ. كتنن، رمسيس الثانى: فرعون المجد

والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة

ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ فى مصر

نفتالى لويس، مصر الرومانية

عبد مباحث، البحرية المصرية من محمد على

للسادات (١٨٠٥ - ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات فى

مصر الإسلامية

جابريل باير، تاريخ ملكية الأراضي فى مصر

الحديثة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة فى مصر

الإسلامية

ت.ج.ه. جيمز، كنوز الفراعنة

حسن كمال، الطب المصرى القديم

أ.أ.س. إدواريز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية فى وادى النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنييت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنرى برستيد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام (ط٢)

أ. سينسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة فى

مصر (٢ ج) (ط٢)

روز أليندم، الطفل المصرى القديم

ج. و. مكفرسون، الموالد فى مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد

المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتيه، حتشبوسوت

مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة

تشارلز نيمس، طبية (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة فى مصر

القديمة

ديمتري ميكس، الحياة اليومية للآلهة

الفرعونية

محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر (ط٢)

ميكال ونتر، المجتمع المصرى تحت الحكم

العثمانى

بربارة واترسون، أقباط مصر (ط٢)

إيريك هورنوج، فكرة فى صورة

بيير جراندييه، رمسيس الثالث

محسن لطفى السيد، أساطير معبد أدفو

د. نبيل عبيد، الطب المصرى فى عصر

الفراعنة

بيتر فرانس، أوروبا والآثار المصرية
ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها

• سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون (ج٣)
أبولقاسم الفردوسي، الشاهنامة (ج٢)
إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية
الرومانية وسقوطها (ج٣)
ناصر خسرو علوي، سفر نامه
فيليب عطية، ترانيم زرادشت
جورج جاموف، بداية بلا نهاية
د. رمسيس عوض، أبرز ضحايا محاكم التفتيش

• سابغاً: الفن التشكيلي والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمي ومنطق
ألويز جرابتر، موتسارت
شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي
ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير
د. غبريل وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى
فى الفن التشكيلي
روين جورج كولنجود، مبادئ الفن
مارتن جك، يوهان سباستيان باخ
ميخائيل شتيجمان، فيفالد
هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن
أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف
حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر
جيمس جينز، العلم والموسيقى
هوجولا يختنترت، الموسيقى والحضارة
محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع
الأوركسترا
د. صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن
التشكيلي المعاصر
إدموندو سولمي، ليوناردو

سيونايدي ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية
والثقافة المعاصرة

• ثامناً: الحضارات العالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان
س.م. بورا، التجربة اليونانية
جوستاف جرونباوم، حضارة الإسلام
أ.د. جرنى، الحيثيون
ل. ديلاپورت، بلاد ما بين النهرين
ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية
جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى
الصين
ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية (ط٢)
سبتيانو موسكاتى، الحضارات السامية

• تاسعاً: التاريخ

جوزيف داموس، سبع معارك فاصلة فى
العصور الوسطى
هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور
الوسطى
أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق
بول كولز، العثمانيون فى أوروبا
جوناثان ريلى سميث، الحملة الصليبية الأولى
وفكرة الحروب الصليبية
د. بركات أحمد، محمد واليهود
ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (ج٣)
و. بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى
فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوروبا الشرقية
د. ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (ج٢)
نويل مالكوم، البوسنة
جارى.ب. ناش، الحمر والببيض والسود
أحمد فريد رفاعى، عصر المامون (ج٢)
آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم
ناجى متشيو، الثورة الإصلاحية فى اليابان
محمد فؤاد كويرلى، قيام الدولة العثمانية

جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض: ماركس
والماركسيون
إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماسة
د. توماس أ. هاريس، التوافق النفسى: تحليل
المعاملات الإنسانية
د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وزوبرت هاندلى، كيف تتخلصين من
القلق؟
ه. ج. كريل، الفكر الصينى
د. السيد نصرالسيد، الحقيقة الرمادية
برتراند راصل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخنت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور
الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال؟
إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى
بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ ج)
فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوروبى الحديث
(٤ ج)
هنرى برجسون، الضحك
أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية
و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر
إدوارد دو بونو، التفكير العملى

• ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د. محيى الدين أحمد حسين، التشبثة الأسرية
والأبناء الصغار
م. و ثرنج، ضمير المهندس

د. أبرار كريم الله، من هم التتار؟
ستيفن رانسيما، الحملات الصليبية
آلبان وينجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ ج)
جوسيبى دى لونا، موسولونى
جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
ه. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ ج)
ه. سانت موس، ميلاد العصور الوسطى
يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
ه. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العربية
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة
ألبرت براجو، ثورات أمريكا الإسبانية
برنابى روجرسون، ورثة محمد (جذور الخلاف
السنى الشيعى)

• عاشرا: الجغرافيا والرحلات

ت. و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام
ليسترديل راي، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بنس (الحاج يوسف)
إمبليا إدواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيم (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرون إلى مصر والحجاز (٣ ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رولف إلى الشرق (٣ ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسلون، أشهر الرحلات فى جنوب
أفريقيا
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ ج)
د. مصطفى محمود سليمان، رحلة فى أرض
سبا

• حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
سوندرى، الفلسفة الجوهرية

• رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء
من الألف إلى الياء

د. جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

د. ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب

م. ه. كنتج، التغذية في البلدان النامية

• خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى

ألس هكسلي، نقطة مقابل نقطة

جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية

والفرنسية

أنور المعداوي، على محمود طه: الشاعر

والإنسان

جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصي

تاجور شين بين بنج وآخرون، مختارات من

الآداب الآسيوية

محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

سوريت عبد الملك، حديث النهر

د. رمسيس عوض، الأدب الروسي قبل الثورة

البلشفية وبعدها

مختارات من الأدب الياباني: الشعر، الدراما،

الحكاية، القصة القصيرة

ديفيد شبندر، نظرية الأدب المعاصر

نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص

أخرى

رالف نى مانلو، تولستوى

والتر آلن، الرواية الإنجليزية

هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال

مالكوم برايدري، الرواية اليوم

لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

د. جابريل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار أو

(الجنرال في المتاهة)

رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع

روى روبرتسون، الهيريون والإيدز

بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية

د. ليو بوسكاليا، الحب

برنسلو مالبينوفسكى، السحر والعلم والدين

بيتر ر. داي، الخدمة الاجتماعية والانضباط

الاجتماعي

بيل جيرهارت، تعليم المعوقين

أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة

رونالد د. سمسون، العلم والطلاب والمدارس

كارل ساجان، عالم تسكنه الشياطين

• ثالث عشر: المسرح

لويس فارغاس، المرشد إلى فن المسرح

برونو ياشينسكى، حفلة ماتيان

جلال العشري، فكرة المسرح

جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى

مختارات من المسرح العالمى

د. عبد المعطى شعراوى، المسرح المصرى

المعاصر : أصله ويداياته

توماس ليبهارت، فن الماييم والباننومايم

زيجمونت هيبنر، جماليات فن الإخراج

أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)

آلان ماكدونالد، مسرح الشارع

نك كاي، ما بعد الحداثة والفنون الأدائية

بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية

أندرية فيليب، الممثل الكوميدي

لى ستراسبج، تدريب الممثل

جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى

العرض المسرحي

أيجينيو باربا، زورق من الورق

الكسندر استروفسكى، من روائع المسرح

الروسي

رومان رولان، مسرح الثورة

أكبر رادى، من خلف النوافذ

ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ

د. على عبد الرؤوف الببى، مختارات من الشعراالإسباني فى العصور الوسطى (ج ١)
ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية
ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (ج ٢)
جورج ستاينر، بين تولستوى ودستوفسكى (ج ٢)

ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
فيكتور برومبير، ستندال (مقالات نقدية)
فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى
يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
د. نعمة رحيم الغزاوى، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً

ف. برميلوف، دستوفسكى
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل
الببليوجرافى: روائع الآداب العالمية (ج ١)
محسن جابم الموسوى، عصر الرواية: مقال
فى النوع الأدبى

هنرى باربوس، الجحيم
ميجيل دى ليبس، الفنران
روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال
العظمى

يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
ب. إفور إيفانز، مجمل تاريخ الأدب
الإنجليزى

فخرى أبو السعود، فى الأدب المقارن
سليمان مظهر، أساطير من الشرق
ف. ع. أدينكوف، فن الأدب الروائى عند
تولستوى

د. صفاء خلوصى، فن الترجمة
بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا
اللاتينية

بورخيس، مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا
مايكل كانيجهام، الساعات

شيكسبير، سونيئات شيكسبير

ثريا عريان، حديقة الياسمين

د. عبد الغفار مكاوى، النور والفراشة

إميل فاجية، مدخل إلى الأدب

ألكساندر سولجينيتسين، يوم فى حياة إيفان

دينيسوفيتش

لورانس فينوتى، اختفاء المترجم

عبد الرحمن الخميسى، الحكايات الشعبية فى

آسيا (ج ١)

أنطونيو تابوكى، سيدة ميناء بيم

جورج أرويل، ابنة القس.

جراهام جرين، نهاية العلاقة الغرامية

• سادس عشر: الإعلام

فرانيس ج. برجين، الإعلام التطبيقى

بيير ألبير، الصحافة

هربرت ثيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

• سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية فى السينما
العربية

ج. دادلى أندرو، نظريات الفيلم الكبرى

روى أرمز، لغة الصورة فى السينما المعاصرة

إدوارد مرى، عن النقد السينمائى الأمريكى

جوزيف م. يوجز، فن الفرجة على الأفلام

سعيد شيمى، التصوير السينمائى تحت الماء

داويت سوين، كتابة السيناريو للسينما

هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة

يوجين فال، فن كتابة السيناريو

دانيل أريخون، قواعد اللغة السينمائية

كريستيان ساليه، السيناريو فى السينما

الفرنسية

توني بار، التمثيل للسينما والتلفزيون

آلان كاسبيار، التدقيق السينمائى

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

• ثامن عشر: كتب غيرت الفكر
الإنسانى

سلسلة لتخصيص التراث الفكرى الإنسانى فى
صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت
فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصجوبة
بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ١٠ أجزاء.

• تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هوزنجا، اعلام وأفكار
د. مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى
ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى
جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا
للعلم
ابن زنبيل الرمال، آخرة الممالك
د. محمد عوض محمد، نهر النيل
يعقوب قام، البرجماتية
بلوطرخوس، العظماء
آرثر كريستمن، إيران فى عهد الساسانيين
أوجست ديبس، أفلاطون
آدم مترز، الحضارة الإسلامية (٢ ج)
تشارلز ديكنز، مذكرات بكويك ج ١
روبرت دييجراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة
النص
محمد كرد على، بين المدنية العربية والأوربية
ولفرد جوزف دالى، العمارة العربية بعصر

بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكى
دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية
هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)
جان لويس بورى وآخرون، فى النقد السينمائى
الفرنسى

محمود سامى عطالله، الفيلم التسجيلى
ستانلى جيه سولومون، أنواع الفيلم الأمريكى
جوزيف وهارى فيلدمان، دينامية الفيلم
قندى حقنى، الإنسان المصرى على الشاشة
مونى براح، السينما العربية من الخليج إلى
المحيط

حسين حلمى المهندس، دراما الشاشة: بين
النظرية والتطبيق للسينما والتلفزيون (٢ ج)
جان بول كولين، السينما الإثنوجرافية سينما
النقد

لويس هيرمان، الأسس العملية لكتابة
السيناريو للسينما والتلفزيون
موريس إيجار كواندرو، نظرات فى الأدب
الأمريكى

جوديث ويستون، توجيه الممثل فى السينما
والتلفزيون

أحمد الحضرى، تاريخ السينما فى مصر ج ٢

منافذ بيع الهيئة المصرية العامة للكتاب

- مكتبة المعرض الدائم
- ١١٩٤ كورنيش النيل — رملة بولاق —
- مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
- القاهرة ت: /٢٥٧٧٥٣٦٧
- مكتبة مركز الكتاب الدولي
- ٣٠ ش ٢٦ يوليو — القاهرة
- ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨
- مكتبة ٢٦ يوليو
- ١٩ ش ٢٦ يوليو — القاهرة
- ت: ٢٥٧٨٨٤٣١
- مكتبة شريف
- ٣٦ ش شريف — القاهرة
- ت: ٢٣٩٣٩٦١٢
- مكتبة عرابي
- ٥ ميدان عرابي — التوفيقية — القاهرة
- ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥
- مكتبة الحسين
- مدخل ٢ الباب الأخضر — الحسين —
- القاهرة ت: ٢٥٩١٣٤٤٧
- مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوي
- الزمالك — نهاية شارع ٢٦ يوليو من جهة أبو
- القدا — القاهرة
- مكتبة المبتديان
- ١٣ ش المبتديان — السيدة زينب أمام دار
- الهلال — القاهرة
- مكتبة ١٥ مايو
- مدينة ١٥ مايو — حلوان خلف مبنى الجهاز
- ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨
- مكتبة الجيزة
- ١ ش مراد — ميدان الجيزة — الجيزة
- ت: ٣٥٧٢١٣١١
- مكتبة جامعة القاهرة
- بجوار كلية الإعلام — بالحرم الجامعي —
- الجيزة
- مكتبة رادوبيس
- ش الهرم — محطة المساحة — الجيزة —
- مبنى سينما رادوبيس
- مكتبة أكاديمية الفنون
- ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة
- المساحة — الهرم — مبنى أكاديمية الفنون —
- الجيزة ت: ٣٥٨٥٠٢٩١
- مكتبة الإسكندرية
- ٤٩ ش سعد زغلول — محطة الرمل
- ت: ٣/٤٨٦٢٩٢٥
- مكتبة الإسماعيلية
- التملك — المرحلة الخامسة — عمارة ٦ مدخل
- (أ) — الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨
- مكتبة جامعة قناة السويس
- مبنى الملحق الإدارى — بكلية الزراعة —
- الجامعة الجديدة — الإسماعيلية
- ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨
- مكتبة بورفؤاد
- بجوار مدخل الجامعة ناصية شارع ١١، ١٤
- بورسعيد
- مكتبة أسوان
- السوق السياحي — أسوان
- ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠
- مكتبة أسيوط
- ٦٠ ش الجمهورية — أسيوط
- ت: ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢
- مكتبة المنيا
- ١٦ ش بن خصيب — المنيا
- ت: ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤
- مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
- مبنى كلية الآداب — جامعة المنيا — المنيا
- مكتبة طنطا
- ميدان الساعة — عمارة سينما أمير — طنطا
- ت: ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

• مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقاً

• مكتبة دمنهور

ش عبد السلام الشاذلى - دمنهور

• مكتبة المنصورة

ش الثورة - المنصورة

ت: ٢٢٤٦٧١٩ / ٥٠٠

• مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية "جامعة منوف"

مكتبات ووكلاء

البيع بالدول العربية

• لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

شارع صيدنايا المصيطبة - بناية النوحة -

بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣

ص.ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى

- الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر

ماربيا ص.ب: ٥٧٥٢ / ١١٣

فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

• سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا

- دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع

من شارع ٢٩ أيار. ص.ب: ٧٣٦٦ -

الجمهورية العربية السورية

• تونس

المكتبة الحديثة - ٤ ش الطاهر صفر -

٤٠٠٠ مؤسسة - الجمهورية التونسية

• المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض

(ص.ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ -

تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات

والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - ش

الستين - ص.ب: ٣٠٧٤٦ - جدة: ٢١٤٨٧

ت مكتب: ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨ -

٦٥١٠٤٢١ - ٦٥٧٠٧٢٢

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -

الرياض - المملكة العربية السعودية -

ص.ب: ١٧٥٢٢ - الرياض ١١٤٩٤ ت:

٤٥٩٣٤٥١

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديري

الخيرية - الجوف - المملكة العربية

السعودية - دار الجوف للعلوم -

ص.ب: ٤٥٨ - الجوف -

هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

• الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع

ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين

ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +

تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +

ص.ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢

الأردن.